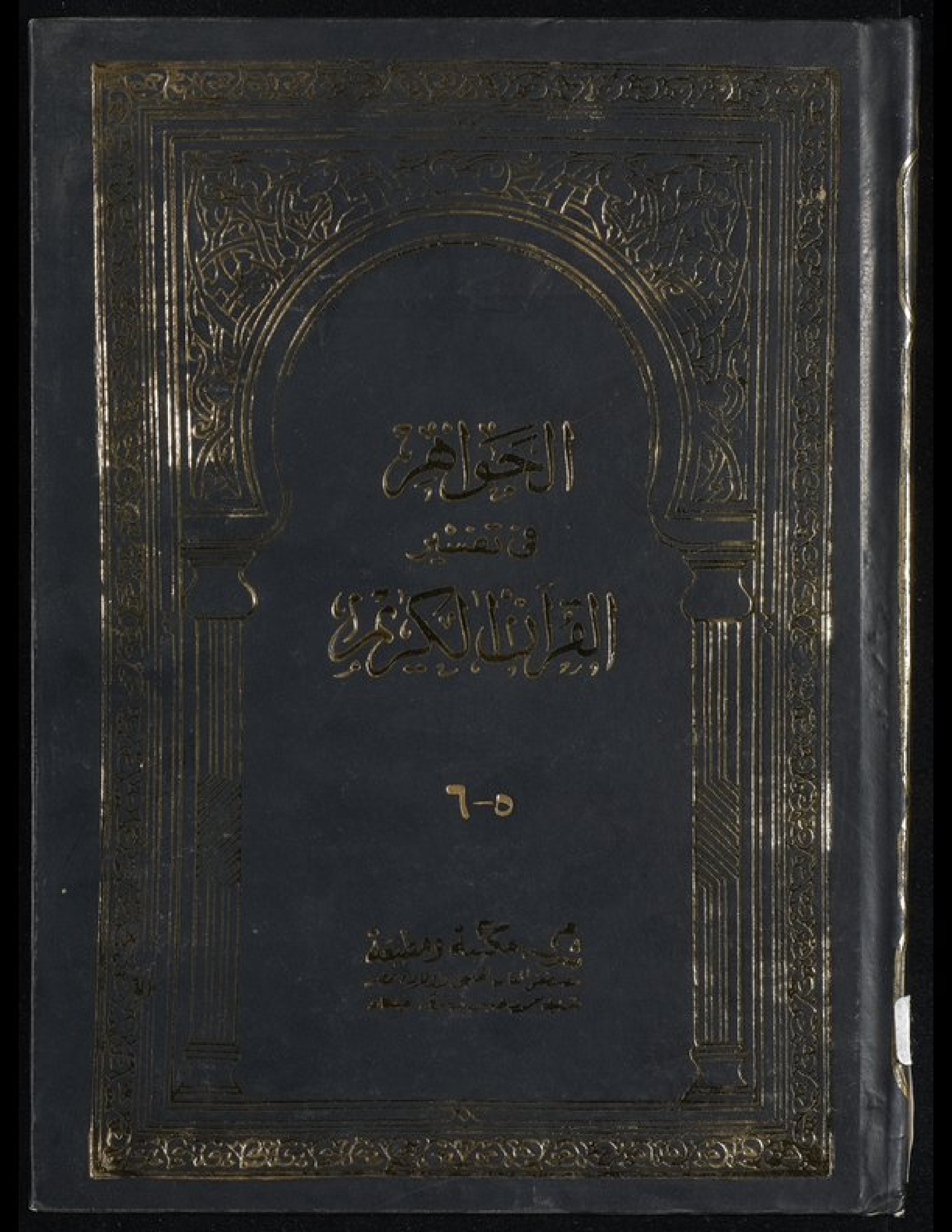

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
٥-٦
شركة مكتبة ومطبعة

# الجواهر

# فى تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

## الجزء الخامس

---

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

---



---

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

[ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ]

قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة الأنفال

## وهي مدنية وهي ست وسبعون آية

### وهي تشتمل على خمسة أقسام

[ القسم الأول ] من أول السورة إلى قوله « ورزق كريم » في صفات المؤمنين الكاملين .

[ القسم الثاني ] في ذكر غزوة بدر من قوله « كما أخرجك ربك » إلى قوله « وأن الله مع المؤمنين »

[ القسم الثالث ] في وصايا ومواعظ للمسلمين من قوله « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله » إلى قوله « والله ذو الفضل العظيم » .

[ القسم الرابع ] في ذكر ضلالات الكفار وخيانتهم مع وعيدهم وزجرهم من قوله تعالى « وإذ يمكر بك الذين كفروا » إلى قوله « نعم المولى ونعم النصير » .

[ القسم الخامس ] في قسمة الغنائم ، وكيف يعامل الأسرى . وصايا عامة في الحرب والاحتراس من الأعداء من قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء » إلى آخر السورة .

## مقدمة السورة

اعلم أن الله عز وجل لما أبان في سورة البقرة الأحكام الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وجعل آل عمران للدلالة على الله ولإزالة الشبهات عن رسالة بعض الأنبياء وأكمل في سورة النساء الأحكام التي في البقرة فبين الميراث وأحوال الأزواج والأقارب وأتبعها بالمائدة ذات الفائدة مبينة ما يحل من الصيد وما يحرم وجعل الأنعام ميدان الحكمة والعلم . والأعراف لتعريف زوال الملك وموت الممالك التي نام ملوكها وشذ أفرادها عن النهج القويم فهلكت مدنهم بعد أن بارت تجارتهم ولما انتهى الكلام إلى هذا المقام ناسب أن يؤتى بعدها بسورة الأنفال ليؤسس مجدا إسلاميا جديدا ويرفع شأن أمة جديدة ويبنى لها صرحا على أنقاض الأمم السالفة في (سورة الأعراف) . فهو عز وجل يقول لقد «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » كما جاء في سورة المائدة ، وذلك لم يكن إلا بعد أن شرح في البقرة كثيرا من الأحكام الشرعية . وكذا في ( سورة النساء ) .

وأبان

وأبان فى آل عمران النصرانية والإسلامية . وأبان فى الأنعام المحرّمات والمحللات . وفى الأعراف ذكر القصة التى استبان فيها كيف تكون سيئات الأخلاق من أسباب الفضيحة والحرمان . وكيف تصبح ديار الأمم قاعا صفصفا متى زاغت عقائد أهلها وتولوا عن النصائح وأعرضوا عن القوعات الصحائح ونخسوا الناس أشياءهم وعثوا فى الأرض فسادا وبغوا وطغوا . هنالك تقرعهم القارعة وتنزل عليهم الصاعقة وتمحقهم الماحقة وتذرهم حصيدا خامدين . هذا هو المقصود من سورة الأعراف .

وإذا كان هذا هو المثل القديم للأمم الغابرة . فقد ذكر سورة الأنفال والتوبة بعد ذلك ليبين للمسلمين كيف تفنى الأمم وتبيد ويقول ها أناذا فعلت بالأمم السالفة وقد آتيتكم قوة وأعطيتكم خلافة الأرض ومكنت لكم فيها وجعلتكم خلفاء لأهلها فلكم فارس ولكم الروم ، فلأبين لكم فى سورة الأنفال والتوبة معاملتكم مع الأمم وكيف تحاربون وتعاهدون . وإياكم أن يغركم أنى جعلتكم أقوياء فإذا تكبرتم وأبيتم فاقرءوا الأعراف إن شئتم ويونس وهودا إن أردتم ولا تغرنكم سورتا الأنفال والتوبة الدالتان على أن لكم شأنا وأنكم منصورون . فالأعراف ويونس وهود المكتنفات للأنفال والتوبة تشهدان أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده « وتلك الأيام نداولها بين الناس » وما مثلكم إلا كمثل الأمم قبلكم ، وأنا الحكم العدل . ولذلك لما انصرم الزمان وذهبت تلك الأيام سلطت الفرنجة عليكم كما سلطت أمما ودولا وحوادث جوية وزلازل أرضية على الأمم المذكورة فى يونس وفى هود وفى الأعراف .

ولقد تبين صدق هذا المعنى المأخوذ من الترتيب المذكور باجتياح الفرنجة بلاد الإسلام وغلبهم عليهم فصاروا فى ذلّ بعد عزهم . وفى شقاء بعد سعدهم . وفى شرّ بعد خيرهم . وفى ضرّ بعد نفعهم . « سنة الله التى قد خلت فى عباده ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا » وقد آن أن أشرع فى تفسير سورة الأنفال . فأقول :

## ( القِسْمُ الأوَّلُ )

## ( بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ )

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ؟ قُلِ الأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

### التفسير اللفظى

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة مدنية كلها وهى (٧٦) آية . واعلم أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر كيف تقسم ، ومن الذين يستحقونها : المهاجرون أم الأنصار ؟ . وورد أن الشبان تسارعوا إلى الهيجاء ، فقتلوا سبعين وأسروا سبعين . ثم طلبوا الغنائم وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءا لكم وفئة تنحازون إليها فنزلت الآية فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء فلم يخمس

الشبان قتلهم وأسرهم الأعداء، ولا الشيوخ لمحافظتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للمهاجرين لسبقهم في الإسلام، ولا الأنصار لنصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإيوائهم النبي والمهاجرين. وهذا قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال) أي الغنائم يعني حكمها. وإنما سميت الغنيمة نفلا لأنها من فضل الله وعطائه، والنفل في الأصل الزيادة (قل الأنفال لله والرسول) أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمر الله به.

وقد علمت آنفا أن النبي صلى الله عليه وسلم سوّى بين المحاربين في القسم وقد نزل بيان القسمة بعد ذلك في قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه الآية» فتلك الآية تبيان لكيفية القسم فتكون هذه الآية محكمة كما قاله عبد الرحمن بن زيد.

ولما كان أمر الغنائم أمرا دنيويا والأمور المادية تنزل بالنوع الإنساني إلى دركات الأخلاق ونقائص الأعمال أخذ سبحانه يردعهم عن ذلك ويردهم إلى الفضائل الخلقية لأن التمادي في المادة يقطع الأرحام ويفرق الجماعات ويولد البغض فقال (فاتقوا الله) في الاختلاف والمشاجرة والتنابذ والشقاق في حوز الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) حقيقة وصلكم أو أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، ولاتصلح أحوال الألفة إلا بالمساعدة والمواساة وتسليم الأمور لله تعالى لا بالمشاكسة والمشاجرة (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها (إن كنتم مؤمنين) كاملى الإيمان.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشر أصحاب بدر اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء». وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته وبي مالايعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخذه» اهـ.

ومقتضى هذه الآية أن كمال الإيمان بطاعة الأوامر واتقاء المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان ثم أخذ يبين صفات كاملى الإيمان فوصفهم بخمس صفات. وهاك بيانها:

(١) أن توجل قلوبهم وتفزع لذكره استعظاما وتهيبا من جلاله. وهذا الخوف عند العصاة من العامة يكون من العقاب. وعند الخواص يكون من الهيبة والعظمة لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه أشد خوف فالخوف على مقتضى المراتب. وفي آية أخرى «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» والاطمئنان إنما يكون بالمعرفة المذكورة في الصفة الثانية، وهي:

(٢) أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا. فمن كانت الدلائل عنده أكثر كان إيمانه أقوى فالعامة يكفيهم دلائل الدين والقرآن. والخاصة يفكرون في ملكوت السموات والأرض وعجائب النبات والحيوان والإنسان وعجائب هذا الوجود.

ومما يزيد الإيمان عند الطائفتين العبادات ومزاولة الأعمال الدينية. ومتى كان المرء وجلا من خشية الله موقنا به لتتابع الآيات الكونية والقرآنية على قلبه توكل عليه وفوض أمره إليه. وإليك بيان الوصف الثالث:

(٣) وهو التفويض لله، فلا يخشى إلا هو، ولا يرجو إلا ربه.

(٤و٥) صفتان عمليتان، وهما إقامة الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها. وإنفاق الأموال فيما

أمرهم الله به من الانفاق فيه كالزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البرّ . وهذا قوله تعالى (إنما المؤمنون) الكاملو الإيمان (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فزعت لذكره (وإذا تليت عليهم آياته) أى القرآن (زادتهم إيمانا) ازيادة المؤمن به أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين : إما بالآيات القرآنية ، وإما بالأدلة الكونية التى بشر لها القرآن . وإما بالعمل بما تقتضيه الآيات (وعلى ربهم يتوكلون) ومن وثق بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لاعلى غيره، وهى درجة عالية ومرتبة شريفة . وهذه الصفات الثلاث وهى : [ الوجل، وزيادة الإيمان ، والتوكل] من أعمال القلوب، وقوله (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أى الذى يحافظون عليها ويؤدّونها كاملة تامة حاضرة قلوبهم وينفقون المال لمستحقه فلا تربط قلوبهم كما حصل للذين تشاجروا لأجل الغنيمة ، فهؤلاء وأمثالهم خير لهم ألا يجعلوا المال مقصودا لذاته بل هو وسيلة والوسيلة لمحبوب غير المحبوب ، والمحبوب هو الكمال والفضائل والوصول لله بما قدموا من أعمال مبرورة وأموال مشكورة، وقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) أى لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإيمان والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح من الصلاة والصدقة ، وحقا مصدر مؤكد (لهم درجات عند ربهم) مراتب بعضها أعلى من بعض . وتلك المراتب والدرجات على مقتضى تلك الصفات ، لأن الناس من يعرف جمال الله فى السموات والأرض ولكنه غير واثق به قلق القلب .

ومن العامة من هم متوكلون على الله واثقون به ولكنهم لايعرفون جلال الله ، ومنهم المتوكلون الموقنون ولكن الأموال شغلت بالهم وقلوبهم لاتحضر فى الصلاة وإن حضرت كانت غير تامة الحضور .

فبهذه المراتب المتفاوتة تكون درجات الإنسان بعد الموت ويوم القيامة على مقدارها وهى إلى الزهد فى الدنيا والولوع بالله وآياته أقرب ، فهؤلاء لهم درجات عند ربهم (ومغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) أعدّ لهم فى الجنة لامنتهى له .

## لطائف القسم الأوّل لسورة الأنفال

### اللطيفة الأولى

اعلم أيها الذكى أن المسلمين اليوم قد نسوا حظا من هذا القرآن، وإلا فكيف تخاذلوا وتنابذوا وتشاجروا فترى ملوك العرب فى الجزيرة ورؤساء القبائل فى بلاد المغرب وبعض عظماء المصريين متقاطعين متدابرين متكالبين على الأموال والعظمة والرياسة جهالة ونذالة وقلة كمال .

أو ماراوا أهل أوروبا مع تباعد مذاهبهم الدينية . فهذا (كاثوليكى) وهذا (بروستانتى) ومع تباعد مطامعهم وتشعبها فإنهم يتقاتلون على دول وممالك ، أفلا ينظر رؤساء المسلمين إلى هؤلاء وهم يجلسون على المنضدة ويتحاسبون ويصطلحون حقنا للدماء وحفظا للجوار وراحة للشعوب .

أما هؤلاء الأمراء الإسلاميون فإنهم يتقاتلون على أمور صغيرة . أو ماقرءوا هذه الآية فاطلعوا على فعل الله ورسوله وكيف نزلت الآية عند التشاجر على الغنائم فقسمها صلى الله عليه وسلم بين المجاهدين بالسوية فكيف لايفعل هؤلاء مافعله نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف لايقيمون الوزن بالقسط ولا يجلسون مجلسا يدلى فيه كل بحجته ؟ ومتى ظهر الحق أطاعوه واتبعوه ولن يفعلوا ذلك إلا إذا كانوا كاملين فى الإيمان . فهؤلاء لا بالإسلام عملوا ولا بالعقل اصطلحوا « إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقد شغل قلوبهم عرض الدنيا فغشى على قلوبهم غشاء كثيف .

واعلم أن الدنيا لاتنقاد إلا لنفوس عالية وقلوب واعية جيدة النظر ، فإن المواد والأعراض تابع للمعانى فلا عمل إلا بعد فكر ، ولا تائج إلا بعد تعقل . فهؤلاء الذين ملكوا الممالك لهم آراء أدّتهم إلى ذلك ولهم

مواهب وعقول وجيوش، فلا مادّة إلا حيث يكون صدق وعدل وفكر وتكون المادة على مقتضاه . وهذا بأحد أمرين : إما بدين يذكر المرء بصفات المؤمنين ، وهى هذه الخمسة وغيرها . وإما بعقل كما اتفق لكثير من ملوك الفرنجة ، فبعض أمراء الشرق المسلمين لم ينالوا نصيبا من الحكمة ولا حظا من الدين فلذلك يتقاتلون على صغائر الأمور ومحقرات الأشياء، وهم ساهون لاهون. والفرنجة من حولهم على أذقانهم يضحكون، صمّ بكم عمى فهم لايرجعون . فهلا وجلت قلوبهم ؟ وهلا ذكروا ربهم ؟ وهلا نظروا نظرة فى المال الذى تعادوا لأجله فعرفوا أن اتصافهم بجميل الصفات يعطيهم ملكا أوسع ورزقا أشرف « والله هو الولىّ الحميد » اهـ .

## اللطيفة الثانية

اعلم أيها الذكى أن المتوكل على الله يستفيد فائدتين :

[الأولى] ألا يحزن فى الحال للمستقبل . [الثانية] أنه يجد التوفيق عند حصول مأموله فى المستقبل . وليس يكون متوكلا حقا إلا إذا أتقن عمله إتقانا تاما وقام بشروطه على الوجه اللائق وفكر فيه وعمل ولم يدّخر وسعا ولم يبق إلا أن تبعد عنه الآفات النادرة والأحوال العارضة ، فهذا هو التوكل حقا . فأما الكسالى الساهون اللاهون الذين لايعملون ويدّعون أنهم متوكلون فأولئك هم المغرورون وهم كثير من عامّة المسلمين اهـ .

## اللطيفة الثالثة

تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدّمة على أعمال الجوارح . ألا ترى أن الإيمان بالله وخشيته والاطلاع على عجائبه والتوكل عليه مقدّمات على الصلاة والزكاة ، وهذا من لطائف القرآن . إن أعمال القلب وتوافرها عند الناس تنيلهم خيرى الدنيا والآخرة .

ولقد أجمع العلماء أن أثر القلب فى أحوال الإنسان أقرب إلى الثواب من أثر الجوارح، ولولا النية وهى من أعمال القلب لكانت العبادات كلها باطلة وهكذا فى أحوال الدنيا .

فانظر كيف أصبح الناس فى هذا الزمان وفى غيره لاصلح بينهم ولا اتحاد ولا التئام إلا بنظافة البواطن ولذلك ترى أمم الإسلام المتخاذلة إنما حصل لها ذلك بالجهل السائد بمصالح الدنيا والآخرة . والجهل من صفات القلب . ومن أعظم الجهل أنهم أعرضوا عن عجائب هذه الدنيا وما فيها من البدائع واللطائف التى تزيد المرء إيقانا بربه وهى التى جاءت فى قوله « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » فهذه الدنيا كلها من آيات الله ومعرفتها عمل قلبى ولا سبيل إلى استثمار ما فيها من معادن ونبات وحيوان إلا بعد العلم ، فهؤلاء الأمراء لما جهلوا آيات الله نقص إيمانهم . ولما نقص الإيمان انحصرت عقولهم فيما بين أيديهم من موارد ضئيلة فتقاتلوا وتحاسدوا وتعادوا وذلك لجهلهم بآيات الله وهى إحدى الخصال القلبية الثلاثة . ولقد جعل الله صلح ذات البين وإطاعة الله ورسوله معلقين على هذه الأمور القلبية ، فمن فقدها فقد الطاعة والصلح ، ومن جمعها نال الصلح ، وهؤلاء المسلمون أعرضوا عن جمال الله فى هذا العالم فلم يدرسوا عجائب هذه الدنيا وفرحوا بما عندهم من العلم الضئيل والمال الكثير « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فلا سبيل لرقيهم وصلحهم وطاعتهم لربهم إلا بما يأتى :

(١) أن ينتشر العلم بينهم بعجائب هـــذه الدنيا ، وما علم أدب اللغة والتاريخ إلا مقدمة لذلك العلم الشريف .

(٢) أن تهذب النفوس حتى يخشى الناس ربهم، وذلك بذكر الآيات والأحاديث الزاجرة والمخوّفة بطش المنتقم الجبار .

(٣) إقامة الصلوات وبذل المال . فهذه هي المهذبة للنفوس وأهمها تعميم العلوم العصرية .

حكم ظهرت في هذه الآيات

قد يظن القارئ أن هذا العنوان كغيره مما يجعل للتشويق أو المبالغة والإغراق . ولكن أقول إن المقام مقام علم وحكمة . وإذا كان صدق الكتب الدينية مرجعه العلم كان ذلك أثبت .

ألا ترى إلى ما ذكره علماؤنا كالإمام الغزالي إذ يقول : [ إذا أردت أن تعرف صدق هذا الدين فاعمل ببعض ما فيه ثم انتظر النتيجة ] مثل قوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » وكقوله صلى الله عليه وسلم « من استعف يعفه الله ومن استغنى يغنه الله » فإنه جعل صدق النتائج للحديث أو للآية هو المعيار لصدقهما .

قد قدمت لك هذا لتنظر في تركيب هذه السور كما أشرت إليه سابقا . ولكن يجدر بي هنا أن أعطي المقام حقه وأبينه فأقول :

قد قلت سابقا: إن سورة الأعراف جاءت إنذارا للكافرين وذكرى للمؤمنين بنص الآية في أولها: وها أنت ذا قد اطلعت على هلاك الأمم السالفة مثل قوم نوح وعاد وثمود الخ وختمها بثلاثة أشياء :

(١) أن يصفح الإنسان عن الجاهلين ولا يتبع خطوات الشيطان في العداوات .

(٢) وأن يسمع القرآن وينصت له . (٣) وأن يذكر ربه في نفسه مع المراقبة .

هذان هما اللذان جاءت بهما سورة الأعراف مضمون السورة كلها ونصائح في آخرها ؛ فانظر في سورة الأنفال والتوبة اللتين جاءتا في أمر الغنيمة والحرب والنصر ، فههنا أمران :

(١) أمر مقاصد السورة العامة وهذا يطول الكلام على مناسبته لهاتين السورتين .

(٢) وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأول سورة الأنفال ، فلأتكلم عن ثاني الأمرين أولا ثم أتبعه بالأول الذي هو المقصود بالحكم فأقول :

المناسبة بين السورتين : أي بين آخر الأعراف وأول الأنفال ، أن آخر الأعراف كما اشتمل على الإعراض عن الجاهلين وترك العداوة والبغضاء وعلى الإنصات للقرآن وعلى ذكر الله ذكرا بحضور القلب هكذا أول سورة الأنفال ففيها الصلح بين المتخاصمين وهو راجع للأول وفيه قوله تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله تعالى « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » وهما راجعان إلى الثاني والثالث .

فهذا هو تمام الكلام على ثاني الأمرين وهو المناسبة بين آخر الأعراف وأول الأنفال ، أما الكلام على أولهما وهو ملخص الأعراف وملخص الأنفال والتوبة وهو المقصود من ذكر الحكم فأقول مفصلا بعد أن ذكرته مجملا في آخر سورة الأعراف :

اعلم أن هذا العلم لا يمكن معرفته إلا في زماننا الحاضر لأننا جئنا بعد ١٣ قرنا فشاهدنا بأعيننا وقرأنا في كتبنا وتاريخنا ما دلنا على حسن نظام هذا القرآن . إن سورة الأعراف فيها هلاك الأمم التي فسقت ، وبماذا فسقت ؟ فسقت بالترف والنعيم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والتعالي على الناس الخ كل هذا مع الكفر هؤلاء هلكوا وقد أنذر الله الكفار به وذكر المسلمين بما ذكرهم ، ذكرهم بأنكم أيها المسلمون يوما ما ستفتح لكم البلاد وستجوسون خلالها وستعمرون أرض ربكم ؛ فلتعلموا أيها المسلمون أني أنا الحكم ، أنا العدل ، أنا لا أبقي في أرضي من لا ينفع الناس ، إن الناس جميعا عبادي فكل من ساعدهم أحببته ، وكل من حافظ عليهم ساعدته ، أنا أساعد الطيور في أعشاشها والأسود في آجامها والحشرات في مخابئها ، فكيف أترك الإنسان سبهللا بلا نظام ؟

فها أنتم أولاء أيها المسلمون قد ملكتم الأرض في العصور الأولى فصدقتم ثم بعد ذلك فسقتم ، أما

وعدتكم بالنصر فى سورة الأنفال وقسمت الغنائم بينكم وهى التى تأخذونها من عبادى ، وهكذا توالى النصر عليكم وذقتم البأساء والضراء وكانت الحرب سجالا كل ذلك فى الأنفال والتوبة ، ثم كانت الغلبة لكم مع علمكم بأن سورة الأعراف لم تزل ماثلة أمامكم تقرءونها بحيث إذا أخللتم بنظام عبادى أهلكتكم وأذللتكم ولن تجدوا لسنتى تبديلا .

سورة الأعراف منذرة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والغنيمة . مضى العصر الأول بعد نبيكم فماذا حصل ؟ تفرقتم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض وأصبحت الخلافة ترفا ونعيما وصار الملك للعلو والفساد ، ومن أراد العلو فى الأرض أو الفساد أذللته وأهلكته ، فلما توالى الملك فى العباسيين أجيالا واستناموا إلى مماليكهم سلطتهم عليهم فأخذوا يحبسونهم ويقتلونهم . وقال شاعرهم :

خليفـة فى قفص بين وصيف وبغا

يقـول ما قالا له كما تقول الببغا

فكيف تكون حال قوم خليفتهم عبد لعبدين من عبيدهم وهما وصيف وبغا . وسبب ذلك أنكم تركتم الشورى التى سميت سورة باسمها ولا قائمة للإسلام إلا بها ، ولما تماديتم فى الضلال أرسلت التتار فأزالوا الدولة العباسية ، وهكذا فى الأندلس استفحل ملككم ولما فسقتم واكتفيتم بالشعر والشعراء وتركتم مواهبكم وعقولكم ، سلطت عليكم الفرنجة فاحتلوا بلادكم .

ثم إن الأمة التركية أصابها ما أصاب العرب ، فهى فى أولها حازمة وفى آخرها اضمحل ملكها بسبب الترف والنعيم وجهل الملوك وفساد النظام والظلم ، وهذا لترك الشورى كما تقدم التى هى أقرب إلى إصلاح ذات البين المذكور هنا .

أيها المسلمون ها أنتم أولاء ذقتم الأمرين وأصبحتم من أضعف الأمم ، لماذا هذا ؟ لأنى أنا الذى جعلتكم خلائف الأرض مريدا بذلك أن ترقوا النوع الإنسانى وقد حصل فعلا ، ولما فشلتم وتنازعتم وتفاتلتم على الملك أذللتكم للفرنجة .

أتدرون لماذا هذا كله؟ لأن علماءكم وأدباءكم وحكماءكم لم يريدوا أن يدرسوا لكم القرآن وسره ولم يفهموكم لماذا وضعت سورة الأعراف قبل الأنفال والتوبة ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ » قد استخلفتكم فى الأرض كما قلت فى كتابى وكما قال نبيكم ونظرت كيف تعملون، فرأيتكم فى الزمان الأخير لاتصلحون لقيادة أهل الأرض فنحيتكم عن الملك وأقصيتكم عن الرياسة على عبادى . إن خليفتى لابد أن يتخلق بأخلاق ، ألم تدرسوا ماجاء فى سورة هود بعد يونس ، ألم أقل لكم فيها ؟ «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير» فها أنا ذا استخلفتكم وأنا بصير بعملكم فنحيتكم عن السيادة فى الأرض . إنى أنا القائل « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » .

قدمت سورة الأعراف على سورتى : الغنائم والحرب والنصر وذكرتكم بعدها بعدم الطغيان ، فها أنتم إذن قد طغيتم وبغيتم فأقصيتكم عن قيادة خلق ، هذا هو الذى فهمته الآن من ترتيب هذه السور الأربعة : سورة للإنذار ، وسورتان للغنائم والحرب ، وسورة فيها الأمر بعدم الطغيان .

انظر لم يقل الله لنا لاتطغوا فى سورة الأعراف وهى مكية ، بل أخرها بعد ذكر الغنائم والنصر فى السورتين لأنه هنا يمكن الطغيان .

هذا هو السر فى ذكر النهى عن الطغيان فى سورة يونس لا فى سورة الأعراف ؟ فانظر أيها الذكى كيف كان ترتيب السور مفيدا معانى قد حققتها الحوادث وأظهرها الزمان .

وقد

وقد كنت فى آخر سورة الأعراف ذكرت معنى حديث ذم الدنيا ، وها أنا ذا الآن أذكره بنصه :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل أو يأتى الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء ، وقال أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده فقال إنه لا يأتى الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » أخرجه الشيخان والنسائى . ويحسن أن نذكر تفسير بعض ألفاظ هذا الحديث الشريف فنقول ( زهرة الدنيا ) حسنها وبهجتها ( الرحضاء ) العرق الكثير ( الحبط ) النفخ : يقال حبط بطنه إذا انتفخ فهلك به ( يثلط[1] ) إذا ألقى رجيعه سهلا رقيقا ، وفى الحديث مثلان : أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا ، والآخر المقتصد فى أخذها والانتفاع بها ، انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول .

دواء هذا الداء

علىّ أنا وعليك أنت وعلى كل مطلع على هذا التفسير أن نجعل كل حياتنا وقفا على إرشاد الأمم الإسلامية فى قرانا وبلادنا وأممنا فنقول لهم : لنرجع مجد الإسلام ومجد أممنا السالفة وأن نسلك سبيلا أخرى غير ما يسلكها المتأخرون من المسلمين فلنعمم التعليم ولنعلم الصغار كيف ينظرون فى هذه الدنيا وإذا أسمعناهم القرآن فلنعطهم نماذج من الطبيعة جميلة حلوة سارة شارحة للصدور ، فإذا قرأ التلميذ « والشمس وضحاها » وسمعنا له سورة الشمس وذكرنا له منافعها وجمالها وشرحنا صدره بالجمال والحكمة التى أبدعها الله فيها وأرينا له سبل العلم فيها كما ستراه إن شاء الله فى ( سورة الشمس ) عند تفسيرها هناك ، وكيف كان الفحم والنبات والماء والرياح كلها مسخرات بضوء الشمس وهى التى سخرها الله فيخرج الطالب من تلك الصور بعلم وحكمة لا حفظ مجرد ولا معان مدمجة لا تأثير فى النفس إعجابا وتشويقا . هكذا فليكن القرآن ودرسه : أى أنه يكون مصحوبا بجمال العلم حتى يعشقه ويعشق النظر والبحث الطلاب من صغرهم ، فبهذا يستوى صغار المسلمين على عرش الحكمة فى إبان صغرهم فيدربون على النظر والجمال فيشبون على البحث عاكفين وعلى الدراسة مجدّين .

وهذا أوّلا شكر لله والشكر واجب وجوبا عينيا ، وثانيا زيادة فى التوحيد ، وثالثا زيادة فى حب الله ، ورابعا زيادة فى عمق عقولهم للبحث فيما خبأه الله فى هذا العالم من المنافع التى يكون استخراجها فرض كفاية ليقوم بها أمر المعاش فى هذه الدنيا .

هذا هو الذى قصر فيه المسلمون فناموا ، وهذا هو الذى سيكون العمل به بعد انتشار هذا التفسير وستكون التعاليم الإسلامية مخالفة كل المخالفة لما عليه المتأخرون من قديم بل ويصبح فى الإسلام جيل هو خير الأجيال ويكونون رحمة للعالمين لأنهم ورثة من خصه الله بهذا الوصف الجميل ، انتهى .

الحكمة العامة فى هذه الآيات

إن هنا مراتب ثلاثا : وجل عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، وتوكل على الله بحيث يفوض أمره إليه ولا يرجو ولا يخاف غيره لعلمه أن العالم نظام تام وهو سبحانه وتعالى قد تكفل بالجليل والحقير من خلقه . هذه أعمال القلوب ، وهناك عملان للجوارح ، وهما إقامة الصلاة وإنفاق المال فى الوجوه المطلوبة ؟ فمن اتصف بهذه الصفات الخمسة فهو المؤمن حقا . قال الواحدى : من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان

(١) يثلط بوزن ينصر .

إيمانه أزيد ، لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفة الله أقوى فيزداد اليقين اتعى ، والدلائل المذكورة سمعية وعقلية على حسب درجة المستدل ، ثم إن المؤمن يخاف الله لعصيانه أو لهيبة جلاله وتطمئن نفسه باليقين متى كثرت الدلائل ؛ فالإيمان إذن يشمل الأعمال القلبية والأعمال الجسمية، ويؤيده حديث الشيخين ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الإيمان » اه فالإيمان يزيد وينقص على مقتضى أعمال العبد .

قال عمر بن حبيب وكان له صحبة: إن للإيمان زيادة ونقصا ، قيل له فما زيادته ؟ قال إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه اه .

أقول: ولما كانت هذه الآيات بهذه المثابة بحيث تجمع جميع فروع الدين من العقلى والعملى وبها وبحديث الشيخين صار المؤمن حقا عزيز الوجود فان اتصف بوصف نقص آخر . أقول لما كانت كذلك أورثت خلافا بين المتقدمين الأجلاء من أئمة الإسلام . هل يقول المسلم أنا مؤمن حقا كما فى هذه الآية ، أم عليه أن يحترس، وأصحاب أبى حنيفة رحمه الله لا يمنعون للمسلم أن يقول أنا مؤمن حقا ، وأصحاب الشافعى رضى الله عنه يقولون الأولى للمسلم أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله .

وسأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقال أمؤمن أنت ؟ فقال الحسن : إن كنت سألتنى عن الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن ، وإن سألتنى عن قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فلا أدرى أنا منهم أم لا .

هذه جملة صالحة من مجامع أقوال ساداتنا وآبائنا المتقدمين ، فهل تحب أن ألقى إليك مانتيجة هذه الأقوال للمسلمين فى المستقبل؟ أقول لك إن آباءنا السابقين قد أحضروا لنا الحجارة والآجر والجص والزجاج والخشب والحديد وجميع مايلزم لبناء البيت العظيم وهو الإيمان ، وقالوا لنا هذه تركناها لكم فابنوا مساكن الإيمان وأسسوه ، وها نحن أولاء قد مهدنا لكم الطرق وسهلنا لكم السبل فعلينا الأساس وعليكم البناء .

هذا ملخص ماذكروه فى هذا المقام . اجتهد أبو حنيفة واجتهد الشافعى فى هذه الآية، وهذا الحسن وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين فاسمع ماوقر فى نفسى مفصلا وموضحا .

اعلم أيها الذكى أنى مسئول عن العلم وعن الأمة، وأنت وجميع من قرءوا هذا الكتاب وأمثاله عن هذه الأمة مسئولون ، المسئولية مشتركة بين أهل العلم لافرق بين متقدم ومتأخر .

أقول : اعلم أن الإنسان فى أول أمره يجول بخاطره أمور مجهولة عمومية وهو يحاول فهمها فلا يقدر حتى إذا كشف الحجاب كان ذلك اطمئنانا للنفس ، والاطمئنان هو سعادة الدنيا والآخرة ، يسمع الوعيد ويخاف ربه من ذنوبه ، فإذا أكثر الاستغفار والاعتبار والنظر فاستبصر عرف الحقائق فاطمأن قلبه ، وللأول إشارة بقوله « وجلت قلوبهم » وللثانى بقوله « زادتهم إيمانا » وقوله فى سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لاتطمئن القلوب ولا يكون الإيمان حقا مستكملا جميع شرائطه إلا إذا قمنا بما جاء فى حديث الصحيحين فى الإيمان وأتينا بشعب الإيمان كلها، الله أكبر، ما الإيمان الحق؟ الإيمان الحق علم وعمل، العلم له فروع والعمل له فروع ، فروع العلم كثيرة والعمل فروعه كثيرة ، ذكر الله إجمالا لهذا كله فى هذه السورة خمسة أمور، ولكن حديث الشيخين جعله جميع فروع الحياة صغيرها وكبيرها، جل العلم وجات الحكمة ونضج العلماء، وجد الأئمة وصدق رسول الله الذى هو أفضل من الجميع وكيف لايكون كذلك ؛ إنه جعل الإيمان أشبه بإنسان . .

الإنسان له عقل يفكر وجوارح وحواس ، الإنسان لاتتم إنسانيته إلا بجميع الحواس والعقل وسائر الأعضاء حتى الظفر والشعر ، هكذا الإيمان إن لم يستكمل هذا كله فإنه لايكون حقا كما إذا لم يستكمل الإنسان جميع هذه القوى والقدر فانه لايكون تام الأعمال .

إن النبوّة أثارت الموضوع وشرحته ولكن الأئمة تحيروا واختلفوا وكل له حجة ، الإنسان إذا نقص ظفرا أو أصبعا أو عينا أو أذنا فانه لاتسلب منه صفة الإنسانية ولكنه يكون غير متمكن من جميع مطالبه بل بنقصه بعضها مادام أنه من نوع الإنسان ، هكذا الإيمان لايقال إنه قد ذهب من الإنسان إذا نقصت بعض الأعمال ، ولكن لا يكون مستوفيا جميع مايكون به الكمال . ولكن هنا حكمة عجيبة وآية غريبة وبدائع مدهشة ، يقول الله « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الخ » لم يقل المؤمن بل قال المؤمنون كأنه فتح لنا باب حلّ المشكلة التى حيرت الألباب بل فتح الباب على مصراعيه فهلا ، وها أنا ذا أدخل معك فى ساحات العلم الواسعة وأشرب معك من رحيقها المختوم والشراب المعتق اللذيذ للشاربين .

علم الله قبل أن يخلق الناس وقبل أن ينزل القرآن أن الحياة لا كمال لها إلا بالاجتماع ، والناس فى اجتماعهم أشبه بإنسان واحد ، فكل واحد عليه عمل لايناسب الآخر ، فإذا لم يقدر صاحب العلم على عمل ما قدر عليه صاحب العمل ، وترى النجار والحدّاد والزجاج وصانع الكهرباء وسائق القطار وصانع السفن ومحرّك الطيارات والنطاد كل واحد قام بعمل لايحسنه الآخر ، فباجتماع هؤلاء يكونون قد أكملوا الإيمان فى الأمة .

ثم إن علماءنا رحمهم الله هم الذين قالوا إن هذه فروض كفايات ؛ فمتى قصرت الأمة فى أمر منها عذب المجموع فى الدنيا بالذلة وفى الآخرة بجهنم على التقصير ؛ فالأمة كلها متضامنة هنا فى الدنيا والآخرة ، فأنا مكلف أن يكون فى بلاد الإسلام كل صناعة وكل علم ، ومعنى ذلك أن أكون مساعدا بالفكر أو بالمال أو بما أستطيع فعله ، ومتى قصرت كان إيمانى ناقصا على مقدار تقصيرى فى منفعة المجموع ؛ فمتى استكمل فى الأمة أهبتها بما يطابق زمانها كان الناس فى حال تشبه حال تمام الإيمان ، ولكل فرد من الأفراد قسطه من الكمال الذى يناسبه وبلاغه .

فاذا سمعت أصحاب الشافعى يحترسون من قول القائل : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحنفية لايمتنعون أن يقولوا : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحسن يقول : أنا لا أدرى حالى فيما عدا الإيمان بالله الخ .

فاعلم أن ما ذكرناه لك واف بما قالوه كاف . إن الحسن يعلم أنه لايقدر أن يقوم بجميع الأعمال فى حديث الصحيحين « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله الخ » وقد تقدّم ذكره قريبا فى هذا المقام .

إذن الإيمان لايذر زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا سياسة ولا طرقا تمهد ولا أنهرا تحفر إلا دخلت فيه ، فإذا كان الكناس والزبال ومصلح الطرقات للقطرات ورجال مصلحة المجارى التى فى القاهرة التى لاعمل لها إلا إخراج للمواد البرازية منها إلى جهة الجبل الأصفر بالخانكة .

إذا كان هؤلاء كلهم أعمالهم من الدين الإسلامى بنص نفس الحديث . فإذن الإيمان فى ديننا قد ابتلع جميع الفنون والصناعات . هذا هو الدين ، وهذا هو الذى أخاف الشافعى والحسن أن يقولا نحن مؤمنون حقا . وعلى هذا يكون المؤمنون فى هذا الزمان مقصرين حقا ولا يقولون إننا مؤمنون حقا لأننا قصرنا فى الأعمال العامّة التى نص بعض علماء الأصول أنها أفضل من فرض العين .

هذا هو الجواب الذى فتح الله به فى هذه المسألة وصار الإيمان حقا يرجع لشيوع النظام العام فى الأمة ؛ فعلى مقدار استتباب النظام وكمال العلوم والصناعات يقال إن هذه الأمة إيمانها حق وكامل ، وعلى مقدار النقص يكون النقص والأفراد فى الأمة متضامنون لم يخلق الإنسان وحده .

يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث « إماطة الأذى » ومعنى ذلك المحافظة على راحة الجمهور ورفاهيته وهذا لايتم بالأعمال الفردية البتة . إننا لم نقدر أن نخرج القاذورات من القاهرة إلا برجال متعلمين .

إذن علينا أن نجمع شملنا لسائر مصالح الحياة ، فمتى كنا كنا مؤمنين حقا ويكون الفرد الواحد إيمانه على مقدار ما أثر في هذه الحياة العامة . هكذا يقول هنا « إنما المؤمنون » ولم يقل المؤمن مشيرا بذلك إلى الاجتماع العام كما في قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » بالنون لا بالهمزة مشيرا للجميع ، وإياك أن تظن أني أريد إيمانا خياليا للمجموع ! كلا بل أقول إن كمال المجموع في المصالح الدنيوية والأخروية يدعو لتكميل إيمان الأفراد وذلك بتعاونهم واتحادهم . فالمؤلف يعين القارئ على إحداث الأعمال النافعة والقارئ يعاضده إخوانه فيحدثون أعمالا في نظام الأمة ، وهذه الأعمال ينتفع بها الكاتب وغيره من عباد الله .

ومن أهم أعمال الإيمان الصلح بين المتخاصمين عملا بقوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .

## الصلح في بلاد الإسلام

يقول الله « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » إن هذا من أهم شعب الإيمان ، ولذلك ذكرها هنا . فإذا كان الإيمان يدخل فيه إماطة الأذى من الطريق فما أحرى أن يدخل فيه ما ذكره الله هنا من الصلح بين المتخاصمين ، فإن إماطة الأذى من النفوس وإحياءها بالمودة والمحبة أفضل وأفضل وأفضل آلاف الآلاف من إزالة الأذى من الطريق .

إن الأمة المتفرقة المتباغضة لاترفع منارا ولا تدفع عارا ولا تورى نارا ولا تحفظ الحرث ولا النسل بل يقربها البلا ويجر عليها أذياله الردى وتنغمس في العداوات وتغرق في بحر الضلالات ويحيط بها الأعداء ويستفحل الداء ويستعصى الدواء .

ولعمري ما قلل الإيمان ولا أضعف شوكة أهله إلا الجهل الفاضح الذى غمر هذه الأمم المسكينة إذ جعلوا بأسهم بينهم شديدا ، فهم في غمرة ساهون والجهل مرتع وخيم وأعشاش تبيض فيها وتفرخ نواعب الغربان ومنذرات الدمار .

أمر الله عز وجل بصلح ذات البين في هذه السورة ، ثم ذكر حقيقة الإيمان أو الإيمان الحق وحار العلماء في وصفه وعرفت مقصود القرآن والسنة والأئمة أنه عبارة عن حقيقة جامعة لجميع أعمال الحياة الدنيا والآخرة ، فالإيمان أمر واحد ؛ كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح من حيث الكمال، فالجسم بلا روح ليس بإنسان، والروح بلا جسم نسميها جنا أوملكا، فما دمنا في الأرض فعلينا حفظ الأمرين [الجسم والروح] هكذا الإيمان، وهذه الحقيقة الإيمانية التي شرحها النبي صلى الله عليه وسلم في معنى الإيمان هي ما شرحته لك الآن من النظام العام في الأمة . ولكن هذه الحقيقة لم يرد الأئمة رضوان الله عليهم أن يوضحوها مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أحاط بها في حديث الشيخين لأنهم رأوا أن السائلين لم يستعدوا لفهمها . وهكذا الحسن رضى الله عنه ، فكل من هؤلاء الأعلام نحا نحوا في الإيمان يناسب زمانه وعصره . ولكن هذا هو الزمان الذى يلقى العلم فيه صريحا ولا يوجه إليه طعن ولا لوم ولا قدح .

إن نور النبوة يظهر في هذا الزمان حقا ، حقا هذا هو نور النبوة ظاهر ، نعم ظاهر في هذا التفسير ، ظاهر أشد الظهور أن المسلمين اليوم مساكين متعطشون إلى العلم يريدون الهدى ، والله لقد جاء الهدى ووضح الحق وجاء النصر وهذه بشائر بنت اليوم هي بشائر العلم والهدى والنور المبين .

هذا هو الزمان الذى يحق لنا أن نكشف النقاب عن تلك الأنوار المحجبة التى منع ظهورها الناس فيما مضى نوازع الملوك فألجموا العلماء ؛ فخاطبوا الناس على قدر عقولهم وما يسمح به زمانهم فى حقيقة الإيمان ، فالإيمان حقيقته اليوم فى هذا التفسير مشرقة مسفرة ضاحكة مستبشرة . وخصال الإيمان ترفع أعلام الدنيا والدين . وقد أوضحنا لك فيما تقدّم أن أهم خصال الإيمان صلح ذات البين ولذلك خصصها الله بالذكر فى هذا المقام .

الكلام على صلح ذات البين

قد ذكرت فى المقام السابق مضار التفرّق والشقاق ، وأزيد الآن إيضاحا فأقول :

إن المسلمين اليوم فى قراهم وفى مدنهم وفى أممهم ابتلوا بأمرين : أوّلهما شرّ من ثانيهما ، وهما الجهل والشقاق . إن الشقاق يكون على مقدار الجهل . والعلم هو الذى يجمع القلوب . وأين العلم فى الإسلام الآن فتش فى القرى وفى المدن لا تجد إلا جهلا فاضحا وشقاقا شديدا ، وربما يقوم النزاع بين بعض الأفراد على شئ لا يذكر وقد يؤدّى إلى ما لا تحمد عقباه .

القرى

لقد ولدت فى بلاد (الشرقية) من البلاد المصرية وكنت أرقب حركات الناس فى إبان صغرى فكنت أراهم يحقرون كل صادق ويمقتون كل صريح العبارة ويعدّونه رجلا لا وزن له ، وعندهم الرجل العظيم هو الذى يخادع الناس ويخدعهم ويقول بلسانه ما ليس فى قلبه .

المدن

ثم إنى وجدت أهل المدن الذين عاشرتهم عدّة من السنين لا يعيشون إلا بالمحاباة والمباجلة .

ولما قلت سعادة القلوب لعدم الإخلاص اخترع الناس سعادة لفظية . أما العظماء فألقاب الفخامة كقولهم [سعادة الباشا] و [معالى الوزير] ويلقبون سلاطينهم وأمراءهم بأصحاب الجلالة أو أصحاب الدولة أو ما أشبه ذلك . كل هذا لكى يسمعوا باسم السعادة من جلسائهم وهذه قامت مقام ما كان الشعراء فى العصور الأولى يقومون به من مدح الملوك والأمراء . كل هذا ليستعيض الإنسان عن اللذة والسعادة الحقيقية النفسية بالسعادة اللفظية . وليس معنى هذا أن كل من أطلق عليه لقب من هذه الألقاب لا عمل له أو لا سعادة ؟ كلا . فكثير منهم يحسون فى نفوسهم بسعادة عظيمة لما لهم من الأعمال ، ولكن للمقام مقام بحث وتنقيب فإن قلة الإخلاص وعدم السعادة النفسية حملت بعض الأمراء فى الأزمان السالفة على اختراع هذه الألفاظ السمجة ليستظل فى ظلها الذى هو «من يحموم لا بارد ــ ولا يغنى من اللهب» بل هو له شرر يرمى به عليهم ويورثهم ذلا ومهانة ويتحملون ذلك لأجل المظاهر الكاذبة ويسمدون سعادة لفظية أى ليقال لأحدهم [سعادتك] .

وإذا كانت هذه حال المدن فإن التقاطع والتدابر يحصل بين القلوب إذ لم يجتمع على فضيلة إلا قليل فلذلك كثر الشقاق والنفاق ، كل هذا للعلم الناقص أو للجهل المبين .

الأمم الإسلامية

اعلم أيها الذكى أن الأمة من الفرد ، فأخلاق الفرد هى أخلاق الأمم ، فالذى رأيته فى قريتى ورأيته فى بعض المدن رأيته بين أمم الإسلام قاطبة .

الأمم الإسلامية وجمعية الأمم فى أوروبا

انظر رعاك الله نحن أولاء فى عصرنا الحاضر كيف نسمع أوروبا لها جمعية أمم وإن لم تقم بواجبها بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه . وأهمّ بلاد الشرق بلاد الإسلام . فماذا نرى أمم الإسلام لا رابطة بينها

ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورية كجمعية الأمم الصورية ، فإن هذه الجمعية وكذلك محكمة [لاهاى] ربما تأتيان بالنرض على طول الزمان وهم الآن يلجأون إليها عند الاصطدام ، فماذا ترى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات .

الإصلاح العام

واعلم أن دواء هذا الداء فى الأمم الإسلامية يجب له الشروط الآتية :

(١) أن كل من يعنّ له فكر يجب عليه أن يبديه بإخلاص .

(٢) يجب تعميم التعليم العقلى والدينى ولكن بشرط التعقل والتفكر، فقد مضى زمن الحفظ بلا عقل وفى هذا التفسير بعض طرق التفكير مطوّلة .

(٣) أن تلقى آيات الأخلاق والمواعظ للمسلمين بهيئة جذابة ولا يتكل الناس على المفسرين بل يطبعون نفوسهم بطابع الكمال فيؤثرون فى السامعين .

(٤) أن تلقى إلى الناس آيات العلوم التى تبلغ (٧٥٠) آية بشرط أن يكون إلقاؤها بهيئة تمشقهم فى مخلوقات الله فيحبونه بجميل صنعه وبديع أفعاله كما ذكرنا فى هذا التفسير غير مرة .

(٥) أن يبتعد الناس عن التغالى فى الألقاب ، فكل أمة ارتقت أقلعت عن هذه العادة العقيمة التى هى بالأطفال أولى منها بالرجال .

(٦) أن يتعلم الناس التعقل والإخلاص والاستقلال الفكرى فكل ما أوضحناه .

(٧) ويجب الاتجاه الكلى لتعميم التعليم .

هذه هى التى تحدث فى العقول انقلابا وفى الأمم رجالا وههنا نقدر أن نقول : تؤلف جماعات فى كل قرية وفى كل مدينة وفى كل أمة لإصلاح ذات البين . وإذن تقبل النفوس قول المصلحين . فأما الآن فحسبنا الله ونعم الوكيل .

تحسر المؤلف على الأمم الإسلامية

فياليت شعرى متى نسمع بالتعليم العام ( الاجبارى ) فى الإسلام . ومتى نسمع اتحادا بين الأمم الإسلامية كاتحاد الأمم الأوروبية ضدّ الشرقيين ، ومتى نسمع شيوع العلم والصناعات بينهم ، ومتى يكون لهم جمعية عامة للفصل فى مشاكلهم المادّية والأدبية ، بل متى يكون فيهم حكماء ناظرون وعلماء مدققون وخلفاء لله فى الأرض دارسون ينظرون فى أمر الأمم الإسلامية كلها شرقيها وغربيها .

إن الله وضع المسلمين فى وسط الأرض بين الشرق الأقصى وأوروبا ، فمتى يقومون بهيئة الوساطة بين الطائفتين ويكونون حكما عادلا بين الشرق والغرب . هذا هو المركز العام لأمم الإسلام . هذا ماسطرته ليلة الجمعة (٣١) ديسمبر سنة ١٩٢٦ وسأتبعه بمقالة كنت كتبتها قبل ذلك فى بلدة المرج توضح مافى آخر هذا المقال إيضاحا شافيا فأقول :

لله كتابان : كتاب كتبه بيده وهو عالم النبات والحيوان ونحوهما . وكتاب أنزله كلاما نسمعه وهو الكتب السماوية ، والكتابان متطابقان .

تفسير القرآن فى الحقول والحشرات

هل لك أيها الذكى أن أحدثك حديثا عجيبا يطول شرحه ويحسن وضعه ؟ إن جمال الطبيعة وبهاءها ونورها وإشراقها وبدائعها شاخصات أمامنا ظاهرات بهجات ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا وهم عن التفكر معرضون . إن صلح ذات البين نتيجته الاتحاد وحسن النظام فى الأمة بأسرها .

وفى سورة الحجرات خاطب الله الناس جميعا لأنهم عباده فقال «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» هاتان الآيتان فى القرآن صلح ذات البين بين المسلمين وتعارف بين جميع الناس. والمسلمون اليوم لم يقوموا بأولاهما ولم يسمعوا وصية ربنا فى ثانيتهما «ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا».

فها أنا ذا أحدّث المسلمين المعاصرين لنا والذين من بعدنا وأذكر لهم نظرتى فى الحقول إذ توجهت إلى ناحية المرج من ضواحى القاهرة بمصر لأمور زراعية. خرجت وأنا كاره لأنى يزعجنى كل ما يقطع النظر العقلى علىّ فركبت القطار فى الطريق للوصل من القاهرة إلى بلدة المرج، فماذا حصل؟ عاودنى الله بعادة الإكرام. ذلك أنه قابلنى بعض قراء هذا التفسير وهو مفتش من مفتشى الزراعة، وقد توجه للمرج ليشرف على أعمال فرقته من العمال التى تقتل الحشرة الفاتكة بالأشجار المساة (بق الهبسكس الدقيق) فقلت له صف لى هذه الحشرة. فقال إن (بق الهبسكس الدقيق) من الفصيلة النصفية الجناح وهى ذكور وإناث، والذكر أصغر حجما من الأنثى:

(١) وطوله من مليمتر تقريبا إلى مليمتر ونصف. (٢) له أجنحة.

(٣) عدد أفراده أقلّ من عدد أفراد الإناث.

(٤) الأنثى لونها قرنفلى فاتح بيضاوية الشكل تعلو جسمها طبقة شمعية.

(٥) طولها من مليمترين إلى ٣٫٥ مليمتر.

(٦) تضع الأنثى بيضا من ١٥٠ بيضة إلى ٣٠٠ بيضة، والبيضة لا ترى إلا بالمنظار المعظم.

(٧) يكون البيض فى كيس شمعى يسمى كيس البيض وبعد (٦ إلى ٩) أيام يفقس حسب حالة الجوّ وتخرج صغاره نشطة جدّا شكلها كشكل الحشرة الكاملة. وتكون هذه الصغار فى أوّل أمرها ذات أرجل ثم تغير جلدها أكثر من مرة فتترك الأرجل معها. وهكذا الزوائد التى تحس بها وتكتفى بأن تضع خرطومها فى النقط المهمة فى الأغصان وتتعلق بها وتمتصّ العصارات ولا تزال تلك الصغار تتغذى أربعة أسابيع ثم تستعدّ للحمل كأمهاتها، وهذه لا تحتاج إلى الذكور فبعضها يلقحها ذكورها وبعضها يتكوّن البيض فيها ولا تحتاج إلى ذكر، وهذا من العجب فقد أطلعنى ذلك المفتش على الكتاب المطبوع فوجدته كما قال، وقال إن الذكور أكثرها يموت.

(٨) إن هذه الحشرة تفرز مادّة كالدقيق على جسمها وقد رأيتها أنا بعينى رأسى، وهذه المادّة تقيها للمؤثرات الجوّية، وهذه الحشرة تنام فى أوائل أكتوبر إلى حوالى نصف مارس وبعد ذلك تستيقظ. فسألته فى أى تاريخ جاءت هذه الحشرة إلى مصر؟ فقال من سنة ١٩١٢ ميلادية أحضرها رجل إنجليزى اسمه المستر (براون) من الخارج، قلت وكيف ذلك؟ قال أحضر نباتا من بلاد أوروبا يسمى (الهبسكس) فسميت باسمه، وقد كان مصابا بهذه الحشرة فأخذت تنتشر من هذا النبات الذى زرعه ببلادنا للزينة فقط إلى أشجارنا من التوت والنبق والليخ والخرنوب والقطن والباميا والتيل، وانتشر فى القاهرة وضواحيها والجيزة وبنى سويف والفيوم وسوهاج ومركز جرجا والإسماعيلية والسويس. كل هذا حصل بسبب ذلك النبات الذى أتى به المستر (براون) الإنجليزى. فقلت وكيف تكون العدوى؟ فقال تكون بالماء وبالهواء وبالحيوانات. وذلك أن الهواء يمرّ بالشجر فيحمل معه تلك الحشرات إلى شجر آخر سليم وهكذا الماء والإنسان والحيوان. فالماء تعلق به تلك الحشرة وكذلك يد الإنسان وثوبه وهكذا الحيوانات يعلق بها إذا لامست هذا الشجر. ثم إن هذه الحشرات لا تمتصّ إلا فى النقطة التى فيها نموّ الشجر، ومتى امتصت

العصارة رأيت الورق بجانبها يتقلص ويتجعد ، وهكذا الغصن كله ثم الشجرة وهكذا الشجرات حولها ، ثم أخذني للفتش وأراني العمال يرشون الشجر والورق والأغصان بالماء الذي فيه (بترول ثقيل) أي لم يصف ، وهذا البترول مستخرج من البلاد المصرية بقرب السويس ومع هذا أيضا طين من طين (قنا) والأجزاء هي واحد من البترول و٢ من الطين و١٢ من الماء ، ومتى رشوا الماء على الورق غمر الحشرة فسدت المسام بالطين والبترول فمات الحيوان .

هذا ملخص العمل الذي يقوم به للفتش وعماله ، وقد كان معى صديق لى من أهل العلم فقال ما فائدة هذا الكلام ؟ فقلت فيه تفسير آيات كثيرة والآية التي نحن بصددها . قال هذا شئ بعيد المرمى فأوضحه . قلت ألست ترى أن هذه الحشرة في أكثر أحوالها أناثها لا تحتاج للذكر بل يكون بيضها الذي قد يصل إلى (٣٠٠) بيضة بلا ذكر . قال بلى . قلت أفلست ترى أن الله قد أعطى هذه الحشرة وقاية من الحر والبرد وعوارض الجو بما تفرزه على ظاهرها مما هو كالدقيق . قال بلى . قلت أفلست ترى أن الأرجل إذا جاء وقت الاستغناء عنها خلعها الحيوان وعاش بلا أرجل كما ذكرناه قال بلى. قلت أفلست ترى أن العدوى تنتشر من هذا الحيوان كما تنتشر عوامل الإلقاح في النبات ، فكما كان الإلقاح في النبات بالرياح وبالحيوان وبغيرهما كما ستراه في سورة الحجر مفصلا . هكذا هنا نرى الإلقاح في الهلاك والتدمير يشبه الإلقاح في الإصلاح هناك . قال بلى . قلت ألست ترى أن الإنسان يحارب هذه الحشرة ومع ذلك تنتشر بسرعة هائلة ؟ قال بلى قلت إن نظر الإنسان للعلوم على قسمين : نظر يؤدى إلى المنافع المادية ، ونظر يؤدى إلى ما فوق المادية . أما النظر إلى المنافع المادية فإن الطبيب والمهندس وعالم الزراعة كل يبحث عن المنفعة المادية التي هو بصددها . وليس يرتفع نظره إلى ما هو أعلى كهؤلاء الذين يقتلون هذه الحشرة في الحدائق المصرية فليس لهم مطلب وراءها . فأما النظر لما هو أعلى من ذلك فهو نظر يرتقى إلى عالم أعلى من عالمنا . فههنا يرى الإنسان أن الله تعالى هدى هذه الحشرة وحفظها ونحن نحاربها وهذا قوله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » وقوله « سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى » فالله أعلى ، وإذا كان أعلى فيستوى لديه جميع خلقه في النظام .

رأى المصلحة توجب أن تكثر الحشرات الملقحة للأشجار والحشرات القاتلة لها فأكثر منهما وجعل الإنسان سعيدا بالأولى شقيا بالثانية وهذا قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

علم الله أن هذه الحشرة سيحاربها الإنسان بكل الوسائل فأمدها بالذرية الكثيرة وجعل الأنثى لا تحتاج إلى ذكر « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهذا قوله « وكل شئ عنده بمقدار » وقوله « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

قال هذا حسن ولكن لم نصل للمقصود هنا . قلت فلننظر إلى الذكور والإناث من هذا النوع . أليس هذا الحيوان قامت فيه الأنثى مقام الذكر والأنثى ؟ وهذه أشبه بنوع من النبات يشتمل على الذكر والأنثى معا ويسمونه خنثى كالداتورة والبنج كما تقدم في سورة الأنعام . قال ثم ماذا ؟ قلت فاتحاد الذكورة بالأنوثة ظاهر في هذه الحشرات من الحيوان وفي بعض النبات وقد ظهر الخنثى في نوع الإنسان ، فهذا معناه أن الطبيعة تنطق قائلة [ إن الذكران والإناث في كل حى متحدة بحسب أصلها ] ولذلك نجد النوعين يتجاذبان على تباعد الديار وجميع أحوال هذا الإنسان كأحوال الذكور والإناث : أى إنهم متحدون متضامنون مشتبكة مصالحهم فكما نرى الذكور والإناث ظهر اتحادهما في الطبيعة ونوادرها ؛ هكذا نراهم متحدين غاية ونتيجة ومقصدا . لذلك يتعارفون ، هكذا سائر شؤون الحياة . فأهل الشرق وأهل الغرب جميعا يحتاج بعضهم

إلى

إلى بعض . قال ثم ماذا ؟ زدني إيضاحا . قلت إن اتحاد الذكر والأنثى فى أدنى النبات وأدنى الحيوان وشواذّ الإنسان رمز إلى اتفاقهما مقاصد وغايات تجمعهما ، والذكورة والأنوثة المذكورتان لافرق بينهما وبين سائر أعمال الحياة . فأهل الشرق والغرب يحتاج بعضهم إلى بعض .

ألا ترى أن الحشرة المذكورة وهى ( بق المبسكس ) قد انتقل مع الشجرة من الأقطار البعيدة ونقل العدوى إلى القطر المصرى فى أشجاره؟ قال وما فائدة هذا ؟ قلت : فائدته أن كل مصيبة تحلّ بأمة تضرّ بغيرها على هذه الأرض . فالطاعون والجدرى والحمى وأنواع كثيرة من الأمراض تأخذها الأمم بعضها عن بعض ، ولذلك ترى لكل أمة على حدودها مكانا تمتحن فيه القادمين لينظروا أفيهم مرض معد أم لا ؟ وهكذا . وإذا حصل قحط فى أمة أثر فى غيرها من الأمم .

ولقد كان للحروب الأهلية فى بلاد الصين فى هذه الأيام ، ولاعتصاب عمال مناجم الفحم فى بلاد الإنجليز أثر سيء فى رخص أسعار القطن المصرى وساعده على ذلك كثرة القطن الأمريكى ، فانظر كيف صار الناس على الأرض متضامنين وهم يجهلون أنهم متضامنون ، متصلين وهم يجهلون أنهم متصلون ، بينهم علاقة كبيرة فى السراء والضراء وهم يجهلون ، عمهم السلك الكهربائى وأحاط بهم من كل جانب نظام بريدى وآخر جوّى ، واتصل الشرق بالغرب وحلقت الطيارات التى صنعها الإنسان فى الجو . وفى هذه الأيام (فبراير ١٩٢٧) صنع الألمان طيارة تحمل جميع مايلزمها مدة بحيث تطير حول الكرة كلها وترجع إلى مكانها من غير احتياج إلى ذخيرة أخرى .

أليس هذا بعض قوله تعالى ؟ « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » هذا هو بعض التعارف قد ابتدأ ، فقال يا سبحان الله ! قد كان أوّل الكلام لايشعر الإنسان فيه بأن له مناسبة لهذه الآية حين ذكرتها ، لم ندر أىّ مناسبة بين نبات ( المبسكس ) وبين هذه الآية ! فظهر أن الذكورة والأنوثة فى العالم الإنسانى والنباتى والحيوانى قد اتحدتا فى بعض أفرادها ، وكان ذلك فى الإنسان رمزا إلى توثيق الروابط فى سائر مصالحه .

فللأوّل الرمز بقوله « خلقناكم من ذكر وأنثى » وللثانى الرمز بقوله « لتعارفوا » فقلت إذن هذه الآية وردت لخطاب العقل الإنسانى العام ، ومعنى هذا أن المسلمين يحسن لهم أن يقوم فيهم حكماء وفلاسفة ويدرسوا نظام الوجود ويعرفوه كالذى ذكرته فى كتابى [ أين الإنسان ] الذى عرفه أهل أوروبا أنه خطاب الأمم كلها ويبينوا للأمم أن العقل يبين أن الناس متحدون أصلا وغاية وأنه يجب أن يكون هناك نظام عام يمنع الضرر والضرار من أىّ نوع ، ويسمون هذا النظام [ التعارف ] قال لى ولكن المسلمين الآن ليسوا قادرين على ذلك ، قلت نعم ! والسبيل إلى ذلك أن يقوم فيهم مفكرون ويعمموا التعليم فى الأمم الإسلامية ويجعلوا لهم نظاما يسمى : [ إصلاح ذات البين ] وهو المذكور فى هذه الآية « وأصلحوا ذات بينكم » .

فههنا درجتان فى الإصلاح : درجة إصلاح ذات البين بين المسلمين ، والدرجة الأخرى درجة التعارف العام بين أمم الأرض كافة ، قال وما السبيل إلى ذلك ؟ قلت السبيل إليه هو ماذكرته فى هذا التفسير وما يذكره غيرى من علماء الأمم الإسلامية فى أقطار الأرض .

أقول : فليقم كل مفكر فى الإسلام بفهم المهمّ من هذه الآراء فى الإسلام وليعمم التعليم لأنه لاحياة ولا سعادة للأمم إلا بالعلم ، وقيل فى المعنى :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وهناك يظهر المصلحون الذين يصلحون ذات البين بين أمم الإسلام حتى يكونوا على الأقل أشبه بالممالك المتحدة بأمريكا التي ليست عندها هاتان الآيتان أو كأمم الألمان الذين لا يقرءون هذه الآيات ، اللهم إنك أنت الذي زرعت النبات وخلقت الحيوان ونظمت الإنسان وأعطيت كل شيء خلقه وهديته وجعلت الذكورة والأنوثة في الإنسان رمزا إلى اتحاده أصلا وغاية وألهمت أمما أن تعمل لهذه الغاية بالبريد الجوى والأرضى والطرق البرية والبحرية وأعمت المسلمين قرونا وقرونا وقرونا ثم أنت الذي جعلت أمثال هذا التفسير في الأمم الإسلامية ، والآراء التي تصدر من كبار الأئمة في عصرنا موقظات لشعوب الإسلام أن يدرسوا نظام الوجود ويعمموا التعليم كما قدمنا ويبتدئوا بصلح ذات البين بين المسلمين .

ومتى تعارفت هذه الأمم كانت سببا في التعارف العام أو على الأقل قبلت هذا من المصلحين في جميع الأمم فإصلاح ذات البين المذكور في هذه الآية يتقدّمه دروس العالم .

فإذا كنا نرى أننا قد طلب منا التعارف العام بآية الحجرات ونداء الله للناس جميعهم ، فبالأولى علينا صلح ذات البين بيننا الذي هو في هذه الآية ، فانظر كيف كان التعارف العام لسائر الناس والصلح الخاص بين الأمم الإسلامية .

ولا جرم أن الصلح والمودّة أخص من التعارف العام ، وهذا عجيب إذ وضع في كل آية ما يناسبها ؛ فالتعارف للعموم والمصالحة للخصوص : أى لخصوص الأمم الإسلامية ، اللهم إن المسلمين لم يعملوا اليوم لأخص الأمرين فضلا عن أعمهما ولن يوقظهم إلا أن يتذكر عقلاؤهم في أمثال ما نكتبه في هذا التفسير ، اللهم إنك أنت الذي حكمت على الإنسان أن يحتاج إلى الطيور في أوكارها لتنقى له الحشرات الآكلات لزرعه كأبى قردان والغراب وغيرهما مما مرّ ذكره في سورة المائدة في مقدّمتها ،وهكذا العنكبوت الآتى في سورته إذ يأكل الحشرات أيضا ليبقى زرعنا سليما ، فكأنك جعلت هذه المخلوقات الحية كأسرة واحدة وقلت في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » فجعلتها أمما أمثالنا ثم أبنت في العلوم في الشرق والغرب أننا ملزمون بالمحافظة عليها لتساعدنا في بقاء نباتنا ؛ فالطيور مساعدات وذوات الأربع من البهائم والأنعام مساعدات ، فهذه أمم أمثالنا فلنحافظ عليها لأجل حياتنا ومعاشنا .

وإذا كان هذا شأننا مع الحيوان الأعجم فما نحن أولاء مع الإنسان العام علينا أن نسعى للتعارف معه كما نتعرف بالحيوان وندرسه ، ثم ههنا في هذه السورة أتيت لنا بأخص من ذلك وهو صلح ذات البين بيننا .

اللهم إن الأمم الإسلامية اليوم في قصور معيب وتقصير مخجل ، فلا بينهم اتفقوا ولا مع الأمم تعارفوا ولا للأمم الحيوانية درسوا ، ثلاث درجات جهلوها : درجة الحيوانية والإسلامية والإنسانية المذكورات في الأنعام والأنفال والحجرات على هذا الترتيب .

وأخص هذه الدرجات ما نحن بصدده الآن في هذه السورة ، وهذا هو تفسير آياتنا التي نحن بصددها وهي « وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » وهذه أوّل الدرجات اعتقادا وعملا ويليها التعارف العام المذكور في الحجرات ويليها دراسة الأمم الحيوانية على اختلاف أنواعها ، هذا هو الذي يجب على المسلمين فليدرس ولينظر .

[ ما فوق المـادّة ]

تذييل لهذا المقام

قال صاحبي : لقد قلت إن هناك نظرا يؤدّى إلى ما فوق الأمور المادّية ، فما معنى هذا وهل الإنسان يرتفع عن المادة في هذه الأرض ؟ قلت اعلم أننا نحسّ في نفوسنا في هذه الحياة بنزعة شريفة إلى حال عالية

وذلك

وذلك كما فى هذا المقام يتعالى الإنسان عن ملابسات الأجسام إلى أقصى مرام ؛ خبرنى رعاك الله ألم أبين لك أن كل عالم بعلم قد حصر عقله فيه ؛ فعالم الهندسة يبحث عن الأشكال ونتائجها ، وهكذا علماء الزراعة لايدرسون إلا مايخص ماهم فيه كهؤلاء الذين يقتلون الحشرات ، إن هؤلاء لايستلذون اللذة التى يجدها صاحب العلم العام .

إن الإنسان على الأرض مغلوب على أمره خاضع لهذا الجسم يسعى لنموه وحفظه فشغله ذلك عن النظر العام والتفكر فى بديع صنع الله ، وهذا التفكر هو لب الدين الإسلامى ، قال تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » .

وقد اصطفى الله أناسا وهم الأنبياء والحكماء فلهم نزعة إلى النظام العام ، فاذا نظروا فى أمثال هذه الحشرات وفى سعادة الأمم وشقاوتها وفى نظام السموات والأرض وفى الحياة والموت وفى القحط والجدب والخصب كانوا عند ذلك النظر كالمجردين عن هذه المادة . اللهم إن عقولنا التى غمست فى أجسادنا قد حجبت عن عالمها الجميل .

إن هنا نظاما أدركناه وهذا النظام استوى فيه مايؤلمنا وما يسرنا ، فإن حشرات الهلاك وحشرات الحياة قد ساعدها الله وحفظهما ورزقهما .

إذن نظام هذا الوجود الذى نعيش فيه تتكافؤ الخير والشر والضر والنفع . ولذلك نجد عندنا موتا وحياة ، امرأة تلد وملك يقبض الأرواح ، فههنا تعاون بين الحياة والموت والخير والشر ونحن بذلك ممتحنون . لو كانت العاطفة الإنسانية كاملة لاستوى عندها الموت والحياة والخير والشر ، إن نظام الوجود ساوى بين الأمرين ونظام الوجود محكم .

إن العقل الإنسانى متى قرأ الحكمة عرف أن هذا النظام جميل وأن الموت والحياة والخير والشر ضروريان لنظام هذا الوجود ، ومع هذه الحكمة التى يعرفها تراه يحزن ويفرح وهذا نقص مشين مزرينا دال على نقصنا فى هذا الوجود ولعلنا فى عالم بعد هذا يتساوى عندنا الخير والشر فتكون عواطفنا سائرة على نظام عقولنا .

اللهم إن العواطف لاتكون كاملة إلا إذا كانت جارية على نسق نظامك العالى ونحن اليوم على الأرض أطفال فى أحوالنا ونحن سائرون إلى هذه الغاية حتى توازى عواطفنا نظامك ونكون « على سرر متقابلين » لاهم ولا حزن ونكون راضين رضاء تاما بنظام هذا الوجود الذى هو على أتم نظام .

إن الإنسانية الجاهلة اليوم سترتقى إما فى الأجيال الآتية وإما فى عالم الأرواح ، ولا سبيل لسعادة الإنسان إلا بالاتحاد العام والوئام التام بين الأرواح بحيث يكونون فى العالم الروحى متحدين متحابين وتزول الفوارق بينهم ؛ فليكن المسلمون اليوم مبتدئين بصلح ذات البين بينهم ثم يتبعون ذلك بالتعارف العام بقدر الإمكان حتى يعم الإصلاح ويوم القيامة يوضع الناس فى مراتبهم وأحوالهم : إما فى نعيم ، وإما فى جحيم .

إن صلح ذات البين والتعارف العام للأمم من الأنوار التى يقذفها الله فى قلوب الخواص من عباده لتهتدى الأمم ويستنير الوجود .

قال صاحبى اضرب لى مثلا لهذه الصفة العالية . قلت : إن مثلها كمثل الطبيب فإنه أفضل وأرحم للمريض يقطع عضوه وهو رحيم ، فليس يكون المريض منتفعا بالطبيب حق الانتفاع إلا إذا أدرك الغرض من عمله ؛ فالطبيب برحمته لايبالى بالآلام التى تعترى المريض من جراء تعاطى الدواء ، هكذا الله تعالى والعوالم التى تتولى نظام هذه الدنيا يريدون الإصلاح العام ولا يبالون بحشرة تأكل الزرع وطاعون عام وأمراض فاتكة لأنهم يدبرون التدبير العام ؛ فالأرض كلها أشبه بإنسان واحد ، فموت أمة وحياة أخرى وسعادة أمة وشقاوة

أخرى أشبه بما يعترى الإنسان من حلق شعره وتقليم أظافره تارة وتطويلها أخرى ومرض عضو وصحة آخر، فنظر العالم الأعلى الذى يتلقى الأمر عن الله هو هذا النظر، فقال من أين أتى لك هذا القول ؟ فقلت أنا لم أقلد أحدا وإنما هذه خواطر هجمت على النفس ونفوسنا لها اتصال بعوالم أخرى ؛ فأنا أحس الآن بأن هذا المعنى حق وأن هناك عوالم أرقى منا نظرها للأرض، هذا هو النظر لأنى أنا وأنا فى هذه الأرض أجد فى نفسى سرورا ولذة وانشراحا عند إدراك نظام هذه الحشرات الفاتكة بأشجارنا المهلكة لزرعنا ؛ فلماذا هذه اللذة وكيف أدركتها نفسى كما أدركت وسرت بنظام الحشرات اللاتى تكون سببا فى إلقاح النبات، فإذا كانت نفسى على هذا النمط : أى تسر بحسن النظام سواء أكان لشهوتها أو لضدها فهذا دليل أن هناك عوالم هذا دأبها . تشرف على عملنا وتجعله أمامها كأنه مدرسة أو حيوان لاتعمل فيه إلا للمصلحة العامة .

إن سرورنا بالنظام العام وابتهاجنا به سعادة وبهجة وجمال، فقال: وهل السرور بذلك واللذة تكون لكثير من أهل العلم، وهل هذه دائمة ؟ قلت كلا إن نفوس الحكماء تشعر بها فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم العوالم الأرضية فيحزنون ويفرحون كبقية الناس وإنما يتسلون بالحكمة تارة وبالرضا أخرى ، فأما عدم الإحساس بالألم فهذا غير معقول ، اللهم إذا ذهل الإنسان ذهولا علميا أو دينيا أشبه بذهول المنوم (بالفتح) المغناطيسى .

ولقد شرح هذا الإمام الغزالى فى الإحياء فاقرأه هناك فى [ باب الحب ] ويشير إلى هذه المرتبة قوله تعالى « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فمن أيقن أن الله هو الذى أعطاه ومنعه فان ذلك يخفف الألم ، ومع المداومة والصبر يصير الألم كالمعدوم ، قال صاحبى : ماملخص هذا الموضوع كله ؟ فقلت نحن فى تفسير « وأصلحوا ذات بينكم » قدرستا حشرة ( الهبسكس ) وهى تؤذى الأشجار وتمدى أشجار الأمم الشرقية بعد الغربية وقد حفظها الله لهذه الغاية ، وذلك يوجب تعاون الأمم جميعا لاشتراكهم فى الضراء ، وأنثى هذه الحشرة لاتحتاج لذكر وكذلك بعض النبات فيه الذكورة والأنوثة معا وهكذا الخنثى من بنى آدم ، فالذكران والإناث فى الأمم متحدون أصلا وغاية ، والله يقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فما فرقهم إلا ليجمعهم ، فرق الشعوب والقبائل ، وهاهو ذا الآن يجمعهم كما فرق الذكر والأنثى وجمعهم ، وهذا الآن واجب على حكماء أمة الإسلام ، وأخص من ذلك صلح ذات بينهم .

ثم إن هذا النظر شريف وعال وحكيم ، إذ يجعل للإنسان منزلة ملكية عالية لأنه ينظر للعوالم نظر الحكيم والملك ويحبه الله ويحب هو الله تعالى ، لأن الحب على قدر العلم والتفكر والتبصر ، قال إن الحشرة المذكورة تفرز مادة على نفسها لتحفظها من الجو . فقلت فائدتها عظيمة جدا ، إنها تعطينا درسا أن جسم هذه الحشرة قد اكتفى بنفسه ففرز منه نفس المادة التى تحفظه من الجو كجلود الأنعام وأشعارها وأوبارها فهى كلها نسيج أجسامها .

هكذا الإنسان له نفس معذبة بالأطوار والأحوال والجهل ، فماذا يكسوها فيحفظها من الهوان ؟ لاسبيل إلى ذلك إلا بأن تفرز النفس مادة تحفظها ولا إفراز لها إلا العلم والعمل ، فكل عمل وكل علم يرجع إلى النفس فيعطيها قوة .

ولا جرم أن النظر العام الحكمى الذى نحن فيه الآن هو السند الأقوى والمقام الأعلى ، وكلما زاد الإنسان اتساعا فى النظر والحكمة اشتدت قوته الروحية ونزعاته الفكرية وأمياله الملكية وإذن يصلح ذات البين ويكون سببا فى تعارف الأمم فى الأقطار .

تذكرة

تذكرة

سترى أيها الذكى إن شاء الله فى سورة الحجرات عند قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » كيف كان خلق الذكر والأنثى فى العالم الإنسانى متساويين تقريبا وكيف كانت عقول الناس واستعدادهم موزعات على الأفراد بحسب الحاجة العامة للنظام المطلوب وكيف كان ذلك موجبا تعاون الأمم عموما ، وكيف كان اختلاف استعداد الأرض واختلاف استعداد العقول يوجبان ذلك . وهكذا من المباحث التى وضعتها فى كتاب [ أين الإنسان ] ولخصه العلامة ستيلانة الفيلسوف الطليانى فى مجلة العلوم الشرقية ، وهكذا ذكره الأستاذ البارون ( كرادیفو ) فى كتابه [ مفكرى الإسلام ] وسترى ذلك التلخيص هناك وما بعده وما كنت لأعلم أن ذلك الكتاب كله داخل فى معنى تلك الآية .

﴿ تبصرة فى كتاب [ أين الإنسان ] الآتى فى سورة الحجرات ومناسبته لما هنا
وبيان أنه ملخص الآية هناك ، وكيف كانت سورة الحجرات فيها الأمران معا :
الصلح بين المسلمين ، والتعارف بين جميع الأمم ﴾

اعلم أيها الذكى أنى أوّل ماخطر لى تأليف كتاب [ أين الإنسان ] كنت أفكر فى تعداد الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية فوجدت أن هذا العدد متقارب فى كل بلدة وقرية ومدينة وأمة وشرق وغرب فأخذنى العجب كل مأخذ وقلت فى نفسى كيف يتساويان ولم كانا على قدر الحاجة ، أليس ذلك بعناية خاصة ؟ وعسى أن تكون جميع الصناعات والعلوم قد جعلت لها استعدادات فى الفطرة كما ظهر ذلك فى الذكورة والأنوثة ، بحثت هذا الموضوع بحثا كثيرا ، ورأيت أن الأذكياء يقلون وأصحاب الأجسام العملية يكثرون على مقتضى المطلوب . ثم نظرت إلى نفس الأرض فوجدتها مختلفة البقاع استعدادا للمنافع المختلفة فثبت فى نفسى أن هذه الدنيا وضعها عجيب من حيث الأرض ومنافعها والناس واستعدادهم فألفت الكتاب وانتشر فى أوروبا بلا قوّة منى لأنى ليس لى معينون فى هذا ، لأن الشرق ليس له عهد بعمل مثل هذا ، وذكرت فى الكتاب أن الناس لايهنأ لهم عيش إلا إذا استخرجوا جميع القوى فى الإنسان وفى الأرض ، ولا يتم هذا إلا بأن يكون الناس كأسرة واحدة .

ولما عرف هذا أهل أوروبا قرّظوه ولخصوه كله وسترى فى سورة الحجرات ملخص الكتاب بقلم الكتاب الأوروبيين .

انظر إلى سورة الحجرات تر هناك آيتين ، الأولى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والثانية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ » فالآية الأولى تتفق مع ماهنا ، فالمسلمون يكون بينهم الصلح والمودّة ثم بعد ذلك يتعارفون مع غيرهم ، إن فى الحجرات الأمرين معا : فأوّلهما هو فى السورة من الصلح بين المسلمين ، وثانيهما هو التعارف العام ، وأهمّ مافى هذا المقال أن آية التعارف هى ملخص كتاب [ أين الإنسان ] .

ألا ترى رعاك الله أن مسألة الذكور والإناث التى فى أوّل الآية هى عينها التى كانت أوّل مافكرت لظهور الكتاب ، وأن مسألة التعارف التى فى آخرها هى بعينها التى قررتها فى آخر الكتاب .

أفلا تتعجب معى أن يكون هذا الكتاب تفسيرا لآية واحدة من القرآن وتلك الآية متممة للآية هنا ، فإن السلام العام يحتاج لأمرين : صلح خاص بين المسلمين ، واتحاد مع الأمم فى الأعمال العامة ، وانظر كيف كانت آية الصلح بين المسلمين جاءت فى هذه السورة التى هى مقدّمة فى الترتيب على تلك السورة ، وأيضا هى فى الحجرات أيضا مقدّمة ذلك هو العجب الذى ستراه واضحا هناك . وهذا يدعو المسلمين إلى أمرين : صلح

بينهم ، وتعارف مع الأمم ، وقد ابتدأ ثانيهما وشرع عقلاء المسلمين فى أولهما فليبشر المسلمون بعدنا ، وهذه من عجائب ومعجزات القرآن فى هذا الزمان .

كيف قصر المسلمون فى قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم »

إن المسلمين ينقصهم الرقى فى كل شىء ، إن المودّة لاتكون إلا بعلم وما دام العلم قليلا كانت المودّة ضعيفة بل هى معدومة ، لانرى بين المسلمين اليوم مودّة كالتى نراها بين الأمم الأخرى ، نعم المسلمون مودّتهم مخبوءة وليس يظهرها إلا الحركة العلمية والعملية .

وإنى ليحزننى ألا أقرأ للمسلمين مثل ماقرأته اليوم ١٢ ينايرسنة ١٩٢٧ أن أوّل محادثة جرت (بالتلفون) الذى لاسلك له جرت يوم ٧ يناير المذكور بين صاحب جريدة (النيويورك ورلد) وبين رئيس تحرير (الديلى اكسبريس) بلندن وبينهما ثلاثة آلاف ميل ، أى نحو ثمن الدائرة المحيطة بالأرض ، وقد تبادلا التحيات والأخبار عن جوّ البلدين (نيويورك ولندن) وأخذت صورة كل منهما وهو فى بلده وأرسلت صورة الأوّل حالا بطريق اللاسلكى وهكذا صور الأمواج عند تكلمه ، ونشر هذا كله فى جريدة (الديلى اكسبريس) .

هذه هى مودّات الفرنجة والأمريكان ، أيها القارىء لهذا التفسير فكر فيما أقول ، وقل لى هل سمعت مثل هذا بين مصر وبغداد أو بينهما والإستانة والأفغان أو بينهما وبين شمال أفريقيا ؟ كلا ! فهذه أمم أقعدها صغار العداء عن العلوم وعن الصناعات فجهلوا العالم الذى نعيش فيه وجهلوا أنفسهم ، وسيكون هذا التفسير من مبادىء النهضة العلمية والعمل بعد العلم ، انتهى .

فريدة مشرقة فى سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات

ومن عجائب القرآن أن ذكر الصلح جاء قبيل الكلام على القتال والنصر فى هذه السورة . ذلك لأن قتال العدوّ لايتم إلا بعد اتفاق المجاهدين كما قدمنا فإذا تباغضوا فلا قتال ولانصر . وانظر إلى سورة الحجرات التى بعد سورة القتال ثم سورة الفتح كيف ذكر فيها الصلح بين المسلمين والتعارف بين الأمم ، كأنه يقول هنا لاجهاد إلا بعد اتفاق الأمة واتحادها ، ويقول هناك إذا جاهدتم وفتحت البلاد فعليكم أمران : صلح فيما بينكم شامل كما كنتم قبل القتال ثم تعارف مع الأمم وتكون النتيجة هكذا صلح دائم قبل الحرب وبعدها فى الأمة ، ثم إنكم إذا ملكتم الأمم فتعارفوا مع دوام الصلح ، هذا ما يؤخذ من ترتيب السور والآيات ، والله على مانقول وكيل . انتهى الكلام على القسم الأوّل .

## (القِسمُ الثّانِى)

كَمَآ أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الحَقِّ بَعدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرُونَ * وَإِذ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحدَى الطَّائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُم وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمُونَ * إِذ تَستَغِيثُونَ رَبَّكُم فَاستَجَابَ لَكُم أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ * إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

## مقدمة فى سبب غزوة بدر

روى: أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشأم فى عير قريش فى أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومعهم جمال تحمل عطرا وميرة وبزا[1] حتى إذا كانوا قريبا من بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لأصحابه « هذه عير قريش فيها أموالهم » وحرّضهم على الخروج إليهم فخفّ بعضهم وثقل بعضهم ، فلما سمع أبو سفيان بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتى قريشا يستنفرهم ويخبرهم أن محمدا فى أصحابه قد عرض لعيرهم ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها ، فأخبرت بها أخاها العباس بن عبد المطلب قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته قائلا : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة ، فقال العباس : والله إن هذه الرؤيا لعظيمة

---

(١) وهذا هو معنى الطيمة .

فاكتميها ولا تذكريها لأحد ، ثم ذكر العباس الرؤيا للوليد بن عتبة واستكتمه إياها ، والوليد ذكرها لأبيه عتبة وفشا الحديث . قال العباس فعمدت أطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام فى نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى أبوجهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . قال العباس : فلما فرغت من طوافى أقبلت إليهم فقال لى أبوجهل يابنى عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم . قلت وما ذاك ؟ قال الرؤيا التى رأت عاتكة . قلت وما رأت؟ قال يابنى عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك ما قالت حقا فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت فى العرب . قال العباس فأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئا ثم تفرقنا فشاع قول أبى جهل فى الناس ، فلم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقلن : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع فأين الغيرة ؟ فاحتدم الغيظ فى صدر العباس وأقسم أن يتعرّض له ويقتص منه ، قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أنى قد فاتنى شئ أحب أن أدركه منه . قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأوقع به إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . قال العباس : فقلت فى نفسى ماله لعنه الله أكلّ هذا فرقا منى أن أشاتمه ، قال فإذا هو سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة ( تقدّم معناها ) هذه أموالكم مع أبى سفيان وقد عرض لها محمد فى أصحابه ولا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث . قال فشغله عنى وشغلنى عنه ماجاء من الأمر فخرجت قريش سراعا ولم يتخلف إلا أبولهب وقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له ( ذافرد ) فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له يدعى ( أريقط ) فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الوحى « إن الله وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم » إما العير وإما قريش فكانت العير أحبّ إليهم ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا أخرجنا للعير فردّ عليهم ، وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدوّ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فقال وأحسن وكذلك عمر والمقداد بن عمرو إذ قال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون الخ ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ثم قال سعد بن معاذ من الأنصار فأحسن فى المقال فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله عز وجل وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم .

روى مسلم عن أنس بن مالك « أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى ، قال عمر فوالذى بعثه بالحقّ ما أخطئوا الحدود التى حدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال يافلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى الله حقا ، فقال عمر يارسول الله كيف تكلم

أجسادا لا أرواح فيها ؟ فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لايستطيعون أن يردّوا علىّ شيئاً فذلك قوله سبحانه وتعالى : وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم » يعنى طائفة أبى سفيان مع العير ، وطائفة أبى جهل مع النفير . إذا عرفت أيها الذكى هذه المقدّمة الوجيزة ثما أسهل تفسير الآيات .

يقول الله الأنفال ثابتة لله والرسول مع كراهتهم لذلك ثباتا مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك يعنى بالمدينة لأنها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم ، وهذا قوله ( كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ) أى أخرجك فى حال كراهتهم ( يجادلونك فى الحقّ ) فى إيثارك الجهاد بإظهار الحقّ لإيثارهم تلقى العير عليه ( بعد ماتبين ) أنهم ينصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم ( كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ) أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم . إذ روى أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أنهم كانوا فزعين رعبا (و) اذكر ( إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ) وقوله « أنها لكم » بدل من « إحدى » (وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) يعنى العير إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارسا فتمنوها وكرهوا النفير ، والشوكة الحدّة مستعارة من واحدة الشوك ( ويريد الله أن يحقّ الحقّ ) أن يثبته ويعليه ( بكلماته ) الموحى بها فى هذه الحال ( ويقطع دابر الكافرين ) ويستأصلهم : يعنى إنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها بملاقاة العير ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحقّ بملاقاة النفير ، فعل مافعل (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ) ذلك .

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر : يانبىّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . وأيضا كان الصحابة يقولون : «ربنا انصرنا على عدوّنا أغثنا ياغياث المستغيثين» وذلك لما علموا أنه لامحيص من القتال وهذا قوله تعالى مبدلا من قوله « إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين » ( إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم ) أى بأنى ( بألف من الملائكة مردفين ) بكسر الدال وفتحها أى متبعين فهم على الأوّل كانوا ساقة الجيش ، وعلى الثانى كانوا مقدمته . ويقال ردفه إذا تبعه وأردفته إياه إذا اتبعته ( وما جعله الله ) أى الإمداد ( إلا بشرى لكم ) أى إلا بشارة لكم بالنصر ( ولتطمئنّ به قلوبكم ) فيزول مابها من الوجل لقلتكم وذلتكم وظاهر الآية يفيد أنهم لم يقاتلوا . ولذلك قال بعض العلماء إنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا .

ويقول بعضهم إنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فى سواه من الأيام ، وهناك روايات وردت فى نزولهم يوم بدر وقتالهم لانطيل بذكرها هنا ( وما النصر إلا من عند الله ) أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدّة بأسكم ، وما كثرة الجيوش ولا إمداد الملائكة ولا قوّتكم وكثرتكم إلا وسائط لاتأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها ( إن الله عزيز ) قوىّ منيع لايقهره شئ (حكيم) فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

ولما كان المسلمون قليلى العدد وكان أهل مكة كثيرا عددهم اعتراهم الخوف على أنفسهم أن يغلبوا ويقهروا ، ومما زاد الطين بلة أن المسلمين نزلوا ذلك اليوم « يوم بدر » على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب ، وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحقّ وفيكم

نبيّ الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم ؟

فهذه أمور خمسة : الأول : الخوف من غلبة العدوّ . الثاني : ما أصابهم من الحدث والجنابة والعطش . الثالث : وسوسة الشيطان لهم وكيف يكونون على الجوع وهم بهذه الحال ؟ الرابع : عدم الوثوق وزلزلة القلوب . الخامس : أن الأقدام لاتثبت فى ذلك الكثيب الأعفر الذى لاماء فيه ، فلذلك أكرمهم الله بإزالة الخوف فى قوله بدلا ثانيا من « يعدكم » ( إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ) النعاس : النوم الخفيف « أمنة منه » أى أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وهو مفعول لأجله ، وذلك أن الخائف على نفسه لايأخذه النوم ، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الأمن وإزالة الخوف ، وكان ذلك النوم نعمة فى حقهم لأنه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدوّ لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم . وهذا كالمعجزة لاسيما إذا كان ذلك النعاس وقع دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم كما قيل .

وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة ، فهذا هو الأمر الأوّل من الأمور الخمسة ، وهو الأمن المزيل للخوف .

وأشار إلى الثانى وهو ما أصابهم من الحدث الخ بقوله ( وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ) فأنزل عليهم المطر فشربوا واغتسلوا من الجنابة والحدث .

وأشار إلى الثالث وهو الوسوسة بقوله (ويذهب عنكم رجز الشيطان ) أى وسوسته ، وذلك أنهم أمطروا ليلا حتى جرى الوادى واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضأوا وتلبد الرمل الذى بينهم وبين العدوّ حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة والاضطراب .

وأشار إلى الرابع بقوله ( وليربط على قلوبكم ) بالوثوق بلطف الله .

وأشار إلى الخامس بقوله ( ويثبت به الأقدام ) أى بالمطر حتى لاتسوخ فى الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى المعركة .

فهذه هى الأمور الخمسة التى أنعم الله عليهم بها لإزالة ما ابتلوا به من نقائضها .

واعلم أن هذه القصة اشتملت على ثلاثة أقسام : الملائكة والمؤمنين والكافرين ، فهنا أخذ سبحانه يشرح لكل طائفة ما يناسبها ، فقال فى الطائفة الأولى وهم الملائكة ( إذ يوحى ربك ) بدل ثالث من « إذ يعدكم » ( إلى الملائكة أنى معكم ) فى إعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول يوحى ( فثبتوا الذين آمنوا ) بالبشارة وقوّوا قلوبهم .

ولقد تقدّم فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة أن السنة والعلم الحديث فى أمريكا وأوروبا على اتفاق أن الأرواح الشريرة وهى الشياطين لها قوّة تلقى بها الوساوس فى قلوب بنى آدم وتثير فيها الشرّ ، وهكذا للملائكة قوّة الإلهام بالخير فى قلوب الناس ، فالأوّل وسوسة . والثانى إلهام ، فهذا هو التثبيت ومنهم التبشير بالنصر والظفر وربما تعدّى ذلك القلب إلى الظهور عيانا نادرا كما فى هذه الغزوة .

قيل كان الملك يمشى فى صورة رجل أمام الصف ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ، ومن صور التثبيت قوله تعالى للملائكة: قولوا للمؤمنين (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الفزع ، ثم خاطب الله المؤمنين قائلا ( فاضربوا فوق الأعناق ) أى أعالى الأعناق التى هى المذابح أو الرءوس ( واضربوا منهم كل بنان ) جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين : أى حزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم ، فضرب الرأس به هلاك الإنسان ، والبنان به يتمكن الإنسان من مسك السلاح وحمله والضرب به ، فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله ( ذلك ) الضرب ( بأنهم شاقوا الله ورسوله ) أى بسبب مشاقتهم لهما : واشتقاقه من الشقّ لأن كلا

من

من المتماديين فى شق خلاف شق الآخر ( ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ) وعيد لهم بما أعدّ لهم فى الآخرة بعد ماحاق بهم فى الدنيا ( ذلكم ) القتل والأسر الذى نزل بكم أيها الكفرة واقع ( فذوقوه ) عاجلا فى الدنيا ، وإنه ليسير بالإضافة إلى ما أعدّ لكم فى الآخرة من العذاب ( وأن للكافرين عذاب النار ) منصوب على أنه مفعول معه كقولك سرت والنيل : أى ذوقوا ماعجل لكم من العذاب مع ماعجل لكم فى الآخرة ، وقد وضع فيه الظاهر موضع المضمر دلالة على أن الكفر هو السبب فى جمع العذاب العاجل مع الآجل .

ولما انتهى الكلام على خطاب الملائكة وما يتبعه شرع سبحانه يخاطب المؤمنين وهم الطائفة الثانية فقال ( يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا ) وهذا حال من الذين كفروا ، والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كأنه يزحف : أى يدب دبيبا ، من زحف الصبى إذا دب على استه قليلا قليلا سمى بالمصدر ؛ فالمعنى إذا لقيتم الذين كفروا كثيرا عددهم ( فلا تولوهم الأدبار ) بالانهزام فضلا عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم : أى إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم ، وهذه مزية أولى الهمم العالية الذين يتكلون على ربهم ولا يبالون بما يعترضهم من كوارث ومحن ( ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرّفا لقتال ) يريد الكرّ بعد الفرّ وتغرير العدوّ فإنه من مكايد الحرب ( أو متحيزا ) منضما ( إلى فئة ) إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها وهما حالان من فاعل يولهم المضمر ( فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ) واعلم أن التحيز يشمل من تحيز إلى فئة بعيدة ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما « أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة قال فقلت يارسول الله نحن الفرارون ، قال بل أنتم الكرارون وأنا فئتكم » .

واعلم أن أكثر أهل العلم يقولون إن المسلمين يحرم عليهم الفرار يوم الزحف إذا كان العدوّ مثليهم فأقل ، أما إذا كان أكثر من مثليهم فإنه يجوز الفرار وذلك لأن هذه الآية مخصوصة بما يأتى فى قوله تعالى « الآن خفف الله عنكم » فأفادت الآية أن الواحد يغلب اثنين . قال ابن عباس : من فرّ من ثلاثة لم يفرّ ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ . وقال آخرون إن الفرار كان كبيرة يوم بدر ؛ فأما يوم أحد ويوم حنين فقد خفّ الأمر فى الآيات كقوله فى الأولى « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » وفى الثانية « ثم وليتم مدبرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » .

والقول بأن التولى ليس كبيرة بعد غزوة بدر وأن المسلمين بعضهم فئة بعض ، فيكون الفارّ متحيزا إلى فئة ، وأما فى يوم بدر فلم تكن لهم فئة ينحازون إليها ، فلو انحازوا انحازوا إلى المشركين ، مروى عن الحسن وقتادة والضحاك .

وأكثر أهل العلم على الأوّل كما تقدم ، فإذا كان المسلمون على الشطر من عدوّهم لايجوز لهم أن يفرّوا منهم ويولوهم ظهورهم ، وإن كان العدوّ أكثر من مثلى المسلمين جاز لهم أن يفرّوا منهم .

روى مجاهد أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا ، فنزل قوله تعالى إن افتخرتم بقتلهم ( فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ) يعنى بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وإمدادكم بالملائكة يبشرونكم ويلهمونكم ويربطون على قلوبكم بل يكثرون سوادكم ويحاربون معكم على قول ، ثم إن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان تناول صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال « شاهت الوجوه » يعنى قبحت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شىء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم .

ومعلوم أنه ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كما من الحصى فى وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شىء ، فصورة الرمى صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل .

فلهذا المعنى صح النفى والإثبات فى قوله تعالى ( وما رميت إذ رميت ولـكنّ الله رمى ) يعنى أن الرمية التى رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا مايبلغه أثر رمى البشر ولـكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم وعليه يكون فعل العبد مضافا إليه كسبيا وإلى الله تعالى خلقا ، فقد أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لله فقال « ولـكنّ الله رمى » وإنما فعل ذلك ليهلك عدوكم ( وليبلى ) وليعطى ( المؤمنين منه بلاء حسنا ) عطاء جميلا : أى وللإحسان إلى المؤمنين ( إن الله سميع ) لدعائهم (عليم) بأحوالهم (ذلـكم) البلاء الحسن ( وأن الله موهن ) مضعف (كيد الـكافرين ) يعنى مكرهم وكيدهم معطوف على « ذلـكم » أى المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الـكافرين وإبطال حيلهم ومكرهم .

## لطيفـــة

قال أهل التفسير والمغازى : «لماندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم وهو غلام أسود لبنى الحجاج ، وأبو يسار وهو غلام لبنى العاص بن سعد فأخذوها وأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم أين قريش ؟ قالا هم وراء الـكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، والـكثيب : العقنقل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالا كثير : قال ماعددهم ؟ قالا لاندرى : قال كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما عشرة ، ويوما تسعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم مابين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش ؟ قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البحترى بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوّب من العقنقل وهو الـكثيب الرمل جاء إلى الوادى فقال « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتـكذّب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى فـكان ماكان من النصر والفوز » وإلى هنا انتهى الـكلام على خطاب المؤمنين .

ثم إنه سبحانه خاطب الـكافرين وهم الطائفة الثالثة فقال ( إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ) أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة ، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الـكعبة وقالوا : « اللهم إن كان محمد على حقّ فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا » ولما التقى الجمعان قال أبو جهل : اللهم أينا كان أفجر ( يعنى نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم ) قاطعا للرحم فأحنه اليوم . اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين . اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم . ويطلق الفتح على الحـكم ، أى إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح ، يعنى حكم الله بنصرة للمظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع .

روى البخارى ومسلم « أن عبد الرحمن بن عوف قال إنى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وعن شمالى فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال ، أى عمّ هل تعرف أبا جهل ؟ قلت نعم ، فما حاجتك إليه يا ابن أخى ؟ قال أخبرت أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك وغمزنى الآخر ، فقال لى مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس ، فقلت ألا تريان ؟

هذا صاحبكما الذى تسألان عنه ؟ قال فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، وقال: أيكما قتله ؟ فقال كل منهما أنا قتلته . فقال هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا: لا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال: كلاكما قتله فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لمعاذ» ، والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء رضى الله عنهما .

فهاهو ذا أبو جهل قد استفتح ، وهاهو ذا قد جاءه الفتح وحكم الله بقتله قال تعالى لكفار مكة ( وإن تنتهوا ) عن الكفر ومعاداة الرسول ( فهو خير لكم ) لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ( وإن تعودوا ) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم ( ولن تغنى عنكم ) ولن تدفع عنكم ( فئتكم ) جماعتكم ( شيئاً ) من الإغناء ( ولو كثرت ) فئتكم ( وأن الله مع المؤمنين ) أى ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك .

انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من سورة الأنفال .

وههنا خمس لطائف :

[الأولى] اقتحام الأخطار فى قوله تعالى « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين الخ » .

[الثانية] أن هذا العالم المادّى خاضع لناموس العقول ، وأن عمل القلوب مهيمن على الأجساد ، وعلوّ الهمة به تذلل الصعاب فى قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشرى لكم » .

[الثالثة] دقة الملاحظة والبحث الصادق فى أمور هذه الحياة فى قوله « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » .

[الرابعة] الثبات وقوّة العزيمة أساس الأعمال فى هذه الحياة .

[الخامسة] عدم الإعجاب بالنفس وترك الكبرياء فى قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

ولنبدأ بإيضاح هذه اللطائف الخمس فنقول :

اللطيفة الأولى

فيها استبان خلق اقتحام الأخطار ومقابلة الحوادث الجسام والأهوال الفخام والأمور العظام بالجلد والصبر واختيار أعظمها قدرا وأشدّها بأسا وأعلاها شأنا وأرفعها مقاما وأسماها نظاما وأبعدها سبيلا وأقومها قيلا ، ألا وهى التنائى عن العير والمسارعة إلى النفير واصطفاء أشرف الأمور .

ولعمرى كيف يساوى ذلك الزاد والميرة وبعض البز والعطر الذى كان مع أبى سفيان ذاهبا إلى مكة قتل صناديد قريش . لعمرى ما أبعد الفرق مابين رأس الأمر وأعلاه ، وبين ذنبه وأدناه . فعلوّ الهمة فى النظر إلى معالى الأمور وأشرفها لا إلى أخسها وأحقرها . فلتكن هممنا فى حياتنا الدنيا متوجهة إلى أعالى الأمور والتنكب عما يكتفى به الجمهور من العرض القليل والنفع المادّى إذا كان هناك ماهو أشرف وأجدر وأعلى وأكبر .

اللطيفة الثانية

لقد اطلعت على حديث الملائكة ، وكيف أرسلهم الله فى غزوة بدر ، وكيف اختلف العلماء هل هم حاربوا مع المسلمين وظهروا بصورة بشرية وأسلحة حديدية وملابس عربية وقطعوا الرؤوس وأزالوا النفوس أم هم اكتفوا بتكثير السواد وإهداء البشارة للمحاربين . أم كان نزولهم على القلوب بالإلهام والتبشير وتقوية الهمم كما أنهم يثبطون همم الأعداء ويلقون فى قلوبهم الرعب .

هذا كله قد تقدّم ولكن الآية قد ذكرت قصارى الأمر ومداه ومبدأه ومنتهاه وشرحت المقام وأزاحت اللثام وأذهبت الغمام ، فماذا قالت ؟ جاء فيها قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشرى لكم » فذكر ذلك

على سبيل الحصر والقصر كأنه يقول إنما خلقتم فى الأرض مختبرين وظهرتم عليها ممتحنين فعليكم مقارعة الأبطال والطعن والنزال .

وما كان إنزال الملائكة لتقعدوا وهم يعملون ، وتنكصوا وهم يتقدمون ، وتناموا وهم مستيقظون ، تالله لم تخلقوا سدى فلاتقتحموا الردى ، بل خلقتم ممتحنين وفى الأعمال مختبرين . وما إنزال الملائكة عليكم إلا ليبشركم بالإلهام وتثبيط همم الأقوام ، ولو ثبت أنهم قتلوا معكم أناسى لم يكن ذلك إلا ليشجعوكم لاليقعدوكم وإلا لذهبت فضيلة الاختبار ولخرجتم من الحياة بلا اعتبار فلا منازل فى الآخرة إلا حيث الجهاد فى الحياة ، ولا جهاد والملائكة قائمون مقامكم ، مقاتلون عدوكم ، مبددون الأعداء وأنتم نيام ، وكلما كان العمل أشق كانت النتيجة أرقى والعاقبة أبقى والسعادة أعلى .

ألا وإن النية تسبق العمل والأعمال لاقيمة لها إلا بعزمات القلوب ، فكلما امتلأ القلب بالبشارة والآمال ابتهجت الأعضاء بالأعمال ، إن القلوب لعظيم سلطانها قوية عزماتها ، فمتى صلحت صلحت الأعمال ومتى جهلت أوخمدت أوتشاءمت أوشكت أويئست بطلت أعمال الجوارح ، وكيف يعمل المأمور والآمر خامد الأنفاس كثير اليأس ، وكيف تهيج الأعضاء للعمل إذاكان القلب قليل الأمل ضعيف الحيل خائر العزيمة حائدا عن السنن ، هنالك لاعمل له يلقاه ، ولا ثمر له يرضاه .

## اللطيفة الثالثة

انظر إلى الأمور الخمسة المذكورة فى الآيات وكيف فصلها الله تفصيلا ، فذكر هواجس القلوب وخواطر الضمائر ولم يدع قطرات السحاب الماطرات ، ولا عطش القوم فى الفلوات ، ولا ثبات الأقدام فى الطرقات ، ولا نعاس القوم فى الهجمات ، فجعل لكل من هذه الحوادث حكمة إلهية ومنة ربانية إنارة للعقول وتبصرة للأفهام ، كأنه قيل انظروا فى أعمالكم اليومية وأحوالكم الإنسانية ومايتتابع من أمور طبيعية فتفقدوا صغائرها وتأملوا كبائرها . واعلموا أن لكل منها نهجا صادقا وطريقا واضحا فاعتبروا بكل منها وتدبروه وتأملوا فيه واذكروه واعلموا أنه مامن صغير من الأمور ولا كبير إلا وله نبأ ومستقر علمه من علمه وجهله من جهله ، فإياكم أن تمر عليكم الحوادث مر السحاب ، فلاتقيمون لها وزنا ولاتعرفون لها معنى وإذا كنت قدذكرت النعاس فى غزوة بدر وجعلت لنزول المطر حكمة عملية ولثبوت الأقدام على التراب مكرمة ربانية ولزوال وساوس الهواجس الشيطانية مزية حكمية . هكذا فلتكونوا فى سائر أموركم مفكرين وفى جميع أعمالكم ناظرين « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

## اللطيفة الرابعة

هذه داعية الثبات مرقية المهمات ، كيف لا وإن تحريم التولى يوم الزحف من أجل الأمور قدرا وأعظمها أثرا وأشرفها مقاما ، وفيها احتقار الحياة فى عظائم المهمات ، وعدم التولى يوم الزحف يكون من آثاره قوة العزيمة التى هى سر الحياة ومناط الكمال ونهاية الفضائل . ولقد ذكر القرآن الصبر نحو (٧٠ مرة) وجعله مناط الأعمال ، وعليه مدار السعادة فى الحال والمآل ، وأعظم الصبر ما كان فى بذل النفس فى سبيل المجد الأخروى والدنيوى وشرف المقام .

## اللطيفة الخامسة

فيها التواضع وأن يعرف الإنسان مقامه فى الوجود فلا يغتر بما أتيح له من ظفر ، وما أعطاه إياه القدر

ولا

ولا يلبس لباس الخيلاء، ويتبختر تبختر الحسناء، فإذا نال أمرا دينيا أو دنيويا فليرجع إلى الله تعالى ولا يكثر من الفرح بما آتاه «إن الله لا يحب الفرحين» وليعلم أن الله هو الذي أعطاه ولا حول ولا قوة إلا بالله «إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» وهذا آخر الكلام على القسم الثاني من سورة الأنفال.

## (القِسْمُ الثَّالِثُ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَيَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

### تفسير بعض الألفاظ

قوله (ولا تولوا عنه) أى عن الرسول (وأنتم تسمعون) القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق (كالذين قالوا سمعنا) أى كالكفرة أو المنافقين الذين ادّعوا السماع (وهم لايسمعون) سماعا ينتفعون به فكأنهم لايسمعون رأسا (إن شرّ الدّواب عند الله) شرّ مايدب على الأرض أو شرّ البهائم (الصمّ) عن الحقّ (البكم الذين لايعقلون) إياه، عدّهم من البهائم ثم جعلهم شرّها لأنهم أبطلوا ما ميزوا به وبه فضلوا (خيرا) أى سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع تفهم (ولو أسمعهم) وقد علم أن لاخير فيهم (لتولوا) ولم ينتفعوا به وارتدّوا بعد التصديق والقبول (وهم معرضون) لعنادهم (استجيبوا لله وللرسول) بالطاعة (إذا دعاكم) أفرد الضمير هنا كما سبق فى قوله تعالى «ولا تولوا عنه» لأن ذكر طاعة الله والاستجابة له للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله واستجابته من طاعة الرسول، وأيضا إن دعوة الله تسمع من الرسول (لما يحييكم) من:

(١) العلوم الدينية لأنها تحيي القلوب، والجهل موت. قال الأول:

لاتعجبنّ الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن

(٢) ومما يورثكم الحياة الأبدية فى النعيم الدائم من العقائد والأعمال :

(٣) ومما يورث بقاءكم أحياء فى هذه الحياة الدنيا وهو الجهاد ؛ إذ لو تركناه لقتلنا العدوّ .

(٤) ومما يورث حياتكم الأخروية وهى الشهادة لله بالوحدانية .

فطاعة الرسول واجبة للعلوم الدينية والعقائد الإسلامية والجهاد والشهادة . فبالأول حياة القلوب . وبالثانى حياة الآخرة . وبالثالث حياتنا فى الدنيا . وبالرابع حياتنا حياة أرقى فى الآخرة بالشهادة .

ثم قال تعالى ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ) وهذه الآية لها أربعة أمور أيضا :

(١) فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو عرق فى الرقبة شبه بالحبل ، فهذا تمثيل لغاية قربه من العبد .

(٢) وهو مطلع على خفيات القلوب فيعلم ما قد يغفل عنه صاحبه كما سيأتى إيضاحه فى التنويم المغناطيسى.

(٣) فليتجه الإنسان إلى قلبه فليخلصه من الشوائب قبل أن يحال بينه وبينه فلا يتسنى له تصفيته حين يحال بينه وبين قلبه بجنون أو بموت .

(٤) وليعلم الإنسان أن عزائمه تحلها الوساوس ، وتفسخها المزعجات ، وتدنسها الشهوات ، وقد يحكم عليه بالكفر فلا يقدر على الإيمان وينعم عليه بالإيمان فلا يكفر لشقاوته فى الأزل عند الأوّل وسعادته فيه عند الثانى .

( واتقوا فتنة ) الفتنة : الذنب ( لاتصيبن الخ ) أى إن أصابتكم لاتصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم : أى اتقوا ذنبا يعمكم أثره كأن يقرّ الناس المنكر ، وكأن يداهنوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكأن تتفرّق الكلمة ، وتظهر البدع ، ويكسل الناس عن الجهاد .

وهذا دلالة على أن المسلمين جميعا متضامنون ، والفرد منهم مثل جميعهم ، فليهتمّ كل امرىء بمجموعهم ( واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ) أى واذكروا أيها العرب إذ كنتم أذلاء بين فارس والروم لتفرّقكم ، ويا أيها المهاجرون أيضا إذ كنتم مستضعفين فى أرض مكة تستضعفكم قريش ( تخافون أن يتخطفكم الناس ) أى فارس والروم للعرب عامة وكفار قريش وغيرهم من العرب للمهاجرين ( فآواكم ) جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم فى الأوّل وفى الثانى ( وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات ) الغنائم ( لعلكم تشكرون ) هذه النعم (لاتخونوا الله والرسول) بأن تتركوا الفرائض والسنن ، أو بأن يكون ماتبطنون خلاف ماتظهرون ، أو يكون منكم غلول فى المغانم ( وتخونوا أماناتكم ) فيما بينكم بأن لاتحفظوها (وأنتم تعلمون) تبعة ذلك ووباله والخيانة عن محمد ولستم بساهين ، أو أنتم تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ( واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ) أى سبب الوقوع فى الفتنة أى الإثم والعذاب ، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ( وأن الله عنده أجر عظيم ) لمن آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم .

فليوجه الناس هممهم إلى مراعاة حدود الله ، فإن الناس جميعا متضامنون ، وليس أولاد الإنسان وأمواله بمغنية شيئا إذا ما حاق الهلاك بقومه وأموالهم ، وكيف يعيش المرء منفردا ؟ هذا لايكون ( يجعل لكم فرقانا ) هذه تشمل خمسة معان :

(١) هداية فى القلوب بها تفرقون بين الحق والباطل .

(٢) ونصرا تفرقون به بين المحق والمبطل .

(٣) ومخرجا من الشبهات تفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) ونجاة مما تخافونه فى الدارين .

(٥) وظهورا واشتهارا بالصيت والذكر الحسن لأن من نجا مما يخافه فقد فرق بينه وبين الخوف منه . ومن اشتهر صيته فقد ظهر ظهور الصبح . تقول العرب «بتّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان» أى الصبح .

وهذه المعانى الحسنة حقة ، فإن من اتقى الله هدى قلبه ونصر ونجا من الخوف وخرج من الشبهات ، لأن قلبه مرّن على الحقائق فتتضح له الطرق . وهذه المعانى الأربعة ترجع لمعنى واحد وهو التفرقة بين شىء وآخر . أما الخامس فهو معنى آخر وربما رجع إلى الأوّل لأن الصبح يفرق بين الليل والنهار ( ويغفر لكم) بالتجاوز والعفو ( والله ذو الفضل العظيم ) تذكير للمؤمنين أن ما أعدّه الله لهم بسبب التقوى إنما هو تفضل وإحسان . انتهى التفسير اللفظى . وهنا لطائف :

[اللطيفة الأولى] « إن شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الخ » .
[اللطيفة الثانية] « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » .
[اللطيفة الثالثة] « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .
[اللطيفة الرابعة] « واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة » الآية .
[اللطيفة الخامسة] « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض » .
[اللطيفة السادسة] « يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول » .
[اللطيفة السابعة] « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » .

## اللطيفة الأولى

اعلم أن الإنسان أرقى من عالم الحيوان وأقلّ من عالم الملك على سبيل الإجمال باعتبار المجموع ولم تكن له هذه المنزلة الرفيعة والمقام الكريم وتكريم الله له لما اتصف به من قوّة الجسم أو شهوة الأكل أو القدرة على التناسل أو القوّة العضلية أو التزين بالزينة كالطاووس ، فإن ذلك كله شاركه فيه الحيوان وإنما امتيازه بالعقل والعلم والحكمة ، ولا جرم أنه إذا تنزل عن مرتبته ألحق بمراتب الحيوان ، فمن غلب عليه طبع القتال لذاته والغلبة عدّ من الآساد ، أو السفاد عدّ من العصافير ، أو الزينة عدّ من نوع الطاووس ، وهكذا تعدّ الحيوانات نوعا نوعا ، فمتى غلب على الإنسان طبع من هذه الطباع عدّ كأنه منها ، وقد ذكرنا فى سورة البقرة نحو أربعين طبعا من طباع الحيوان عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة الخ » .

ولا جرم أن الحيوان الذى اتصف بصفة خاصة لاعار عليه ولا عيب ، بل هو قائم بأمره عامل على شاكلته فأما ذلك الإنسان الذى تنزل عن مرتبته والتحق بالأفق الأدنى فإنه مذموم مدحور كما قال تعالى « أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » وهذا هو سرّ قوله تعالى « إن شرّ الدّواب عند الله الصمّ البكم الخ » انتهت اللطيفة الأولى .

## اللطيفة الثانية

اعلم أن هذا العالم كله ما ظهر إلا على علم سبق ونظام أسس على مقتضاه ، ومن هذا النظام هذه النواميس التى نراها ونقرؤها فى هذا الوجود ، وعلم الله يشمل الواجب والجائز والمستحيل ولا يكون العلم إلا على مقتضى المعلوم . فإذا اقتضى النظام العام والأحوال الخاصة بمقتضى النظام أن يكون زيد كافرا لايعقل لأن مزاجه لم يتأهل لذلك ، كما أن الحيوان ليس أهلا لمراتب الإنسان فإنه لامحالة يكون فى علم الله لايقبل الإيمان وهو لامحالة إذا جاء فى الأرض لايقبل الإيمان . فالعلم يكون على مقتضى المعلوم ، كأنه يقول لو سبق العلم بأن فيهم خيرا لاستعدادهم له لأسمعهم سماع تفهم ولم يرتدّوا بعد ، وكيف يرتدّون وهم أهل للإيمان بفطرتهم ولو أسمعهم سماع تفهم فى أول الأمر لتولوا عنه وهم معرضون ، لأن فطرهم غير مستعدّة البقاء على مافهموا

فرضا . وعلى هذا يكون هناك فرق بين قوله « لأسمعهم » وبين قوله « ولو أسمعهم » فالأول سماع تفهم مع الدوام عليه . والثانى سماع تفهم فى أول الأمر فليس بينهما التقاء فتأمل . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

اعلم أن الله قد خلق الإنسان ولم يمكنه من الاستيلاء على جميع قواه فجعله أشبه باليتيم الذى يملك مالا . ألا ترى أن الإنسان يحال بينه وبين مايعلمه فى أحوال :

(١) كالنوم فالنائم ربما لايتذكر شيئاً من أحوال يقظته ويرى أنه فى أحوال أخرى .
(٢) المجنون . (٣) المغمى عليه . (٤) الذى شرب الخمر .
(٥) الذى تعاطى الأفيون والمخدرات الأخرى .
(٦) أحوال المرض ، فقد ينسى فى المرض ما كان يتذكره فى الصحة .
(٧) ويتذكر عند الاحتضار أمورا لم يكن يتذكرها فى صحته . (٨) وفى العقائد كالإيمان والكفر .
(٩) والذنوب والأعمال الصالحة ، فكثيرا مايقصد الإنسان الامتناع عن الذنب فيقع فيه ، وكثيرا مايقصد الخير فيقع فى الشر ، أو يقصد أن يفعل سوءا فيصرف عنه .
(١٠) تأثير الخطباء والشعراء فإنها تصرف الإنسان عما تهيج به فؤاده بالأقوال الخلابة والأبيات الموزونة تصرفه عن غرض إلى غرض مهما حاول التخلص وأراد الامتناع .
(١١) الوسط والبيئة ، والتعليم والخيالات ، والعادات الموروثة والمكتسبة . كل هذه تجر الإنسان إلى طبائعها مهما حاول الإنسان التخلص منها والتخلص من أذاها ، ناهيك ماقرره العلامة [جوستاف ليبون] فى مؤلفاته من أن الوسط والبيئة وآراء الشعب تؤثر فى العلماء والجهلاء على حد سواء ، فتجد الشعب كله هزة واحدة ورجة واضطرابا واحدا مسوقين إلى ذلك ، لاسلطان للمنطق على عقولهم ، وإنما السلطان لذلك المؤثر العام الذى استحوذ على العقول لجمعها كما حصل فى فرنسا وتركيا ومصر والهند من القوة الوطنية والقيام كأنهم رجل واحد للاستقلال ، وترى الشاب وهو أحرص الناس على لذاته قد حيل بينه وبينها فيقدم نفسه الهلاك وللموت الزؤام فى سبيل إنقاذ بلاده ، وهذه الحيلولة نعمة عليه وعلى الناس . * وبضدها تتميز الأشياء *
(١٢) ومن هذا المقام ما أظهره العلم الحديث وأرانا الجمال ، والعجب العجاب ، والسحر الحلال ، والجواهر اليتيمة ، والعقود النظيمة ، والبدائع الشائقة ، والمحاسن الرائقة ، والدر والمرجان ، وغرائب الإنسان (ذلك) فى التنويم المغناطيسى ، وما مثل الإنسان فى أطواره الأربعة الآتى ذكرها فى ذلك العلم إلا كمثل العامة والعلماء . فأما العامة فلا يعرفون من هذه الدنيا إلا ظواهر ، وهم عن باطنها معرضون . وأما الخاصة فهم على ثلاث درجات : الأولى : المتعلمون فى المدارس الابتدائية . الثانية : المتعلمون فى المدارس الثانوية . الثالثة : المتعلمون فى المدارس العالية . فهذه أربع درجات : العامة والابتدائيون والثانويون والعاليون .

أفلا ترى أن من لم يتعلم فى المدارس العالية يجهلها ويعرف الدرجات الثلاث قبلها ، وأيضا المتعلم الابتدائى يجهل الدرجتين فوقه ويعرف ماقبله ، والعامى يجهل الطبقات الثلاث فوقه ويعرف درجته هو ، إذا عرفت هذا المثال فاسمع ما أقول لتعرف سر الله فى القرآن وحكمته فى الفرقان .

يقول علماء [التنويم المغناطيسى] إن له ثلاث درجات كما تقدم فى هذا التفسير :

الأولى : أن يفقد الإحساس ويكون قابلا لكل مايلقيه إليه المنوم بكسر الواو .

الثانية : أن يفقد الإحساس فقدا تاما ولكنه يتكلم ويسمع ويبصر ولكن لاسلطان لحواسه عليه .

الثالثة : أنه يعرف نفسه معرفة تامة ويصف علله وعلاجه ويعرف أحوال الناس من بعد سحيق وينبئ عن حوادث مستقبلة ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأموات ويصف هيئتها وينقل إلى الجالسين أقوالها .

ولقد قال علماء هذا الفن : إن النائم فى الحال الأولى يتذكر كل ماعمله فى اليقظة ، وفى الحال الثانية يتذكر كل ما فعله فى اليقظة وفى الحال الأولى ، وفى الحال الثالثة يتذكر كل ما فعله فى اليقظة وفى الحال الأولى والثانية . وهكذا إذا رجع القهقرى يحجب عنه علم ما فوقه ويكون عالما بما هو تحته .

أوليس هذا عجيبا جدًا وأصبح تمثيلنا بالتلاميذ فى المدارس وبالأمة تمثيلا صحيحا ؟

أفلست ترى أن هذا من العجب العجاب وأن الإنسان منا فى هذه الدنيا يجهل نفسه كل الجهل وأن الله حال بينه وبين قلبه وأنه قادر فى حال من الأحوال أن يرى الأرواح ويخاطبها ويعرف مستقبل الأمور ويعرف البعيد عنه ، وهذا أصبح أمرا معروفا قد شاهدناه بأنفسنا .

ولقد حضر فى مصر قوم من أوروبا ونوّموا هذا التنويم فى هذه السنة وساعدهم رجال الحكومة والشرطة وهناك دبرت سرقة ، فلما أناموا رجلين منهم بحث عن السارقين وسرقاتهم وأحضرهم من أماكن مختلفة وهو مغمض العينين .

فهذه العلوم أصبحت معروفة للعامة والخاصة : أى لمن اطلع منهم عليها .

أفلست ترى أننا قد حال الله بيننا فى الدنيا وبين ما لدينا من علوم ومعارف وجمال وكمال ليزيدنا كمالا بهذا الجهاد وبهذا الجهل الذى لولاه لكسلنا عن أعمال شريفة ، ولكن غطى علينا وستر عنا عيوبا وكمالات فى أنفسنا تنعم وتشقى بها وهى ستكشف عند الموت قال تعالى «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» . وهنا أسمعك الحديث :

فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم مصرّف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » اهـ .

أوليس من المعجزة القرآنية والعجائب الحكمية أن يقول الله فى هذه الآية « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهو يقول ها أناذا حبستكم فى الدنيا وحلت بينكم وبين عالم الأرواح وما انطوت عليه نفوسكم ، فإذا سلختكم من عالم الأجسام وخلصت أرواحكم من هذه الأحلام حشرتم إلىّ وأنتم مطلعون على جميع مااتصفتم به من خير وشرّ وكمال ونقص ، وإذن يقال « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ويقال « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه » .

فكأنه قيل فى هذه الآية قد حلت بينكم وبين مكنون أعمالكم وأخلاقكم وعلومكم لكى تثابروا على الأعمال التى تزيدكم رقيا كما حلت بين نهر النيل مثلا وبين انتشاره بلاضابط ولا نظام كيلا يتفرّق الماء بلا منفعة ، وإنما حفظته ليسقى الزرع ويدرّ الضرع .

فهكذا أنتم لم أمكنكم من عوالم الغيب والأرواح الجميلة إشفاقا عليكم وحبا فى كمالكم كى تزيدوا استبصارا واستنارة بالأعمال والجهاد والكمال . وهذه هى الحيلولة ، فإذا انكشف الغطاء وقد صرتم فى الدرجة الثالثة وذلك بالموت حشرتكم إلىّ .

فإذن الحياة حجاب ، والحشر كشف ، ولا يكون ذلك إلا بعد الموت ، فتعجب من بدائع القرآن وغرائبه ، وكيف ذكر المتقابلين الحيلولة بالحياة والكشف بالموت والحشر ، إن فى القرآن لعجائب وبدائع وما يدركها إلا العالمون بكسر اللام .

لمحات الأنوار وبواهر الأسرار

في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه الخ »

هذه الآية هي السرّ الذي ظهر في هذا الزمان بما حصل للمسلمين من الضعف والانكسار ، إن الله عز وجلّ يحول بين الناس وبين قلوبهم ، وهذه الحيلولة تنحصر في ثلاثة أقسام :

أولها : الأصول الصناعية الدنيوية . ثانيها : الأصول الخلقية . ثالثها : الأصول العلمية .

أما الأصول الصناعية التي بها يقوى الناس في سيرهم في حياتهم الدنيا وبها يؤدّون ما فرض عليهم منها للنافع الدائمة فذلك نوعان : نوع عام في المسلمين وغيرهم . ونوع خاص بالمسلمين .

أما النوع العام في المسلمين وغيرهم فذلك هو البخار والكهرباء والطيارات في الجوّ ، هذه صناعات كانت مجهولة للأمم كلها شرقيها وغربيها ، مسلمها وغير مسلمها .

(١) كان الناس يرون بأعينهم البخار في قدورهم وهم يطبخون طعامهم صباحا ومساء في الشرق والغرب وأعينهم تنظره وهو يعلو إلى الجوّ وإذا وضعوا الغطاء على القدور أخذ البخار يضغط عليه ضغطا شديدا ولو سدّوه سدّا محكما لتحرّك القدر بما فيه .

كل ذلك كان الناس يشاهدونه ، ولا ريب أن الذي يضغط على القدر هو نفسه الذي يحرّك القطار في البرّ والسفن في البحر بطريق النقل ، ولكن الله حال بين الناس شرقا وغربا وبين هذه النتيجة حتى آن وقتها فأبرز هذا السرّ على يد قوم من ضعاف خلقه في أوروبا وأدركوا اليوم أن هذا البخار أخفّ من الماء (١٧٢٨ مرة) كما أن الهواء أخفّ من الماء (٨٠٠ مرة فقط) .

(٢) وما من امرىء غالبا في الشرق والغرب إلا وقد علم أن الكهرباء يجذب مايقرب إليه من موادّ خفيفة ، ولكن الله عزّ وجل حال بين الناس وبين قلوبهم فلم يتبعوا هذه الظاهرة حتى يستخرجوا منها تلك القوّة التي بها تصنع كل شيء : من سقي لأرضنا وطحن لحبنا الخ ، وأبقاها حتى أظهرها في هذا الزمان لما كثر نوع الإنسان .

(٣) (ا) وما من امرىء إلا وقد شاهد أن الدخان الخارج من أفراننا ومطابخنا يعلو إلى الجوّ وأن للموادّ الخفيفة كالريش تطير فيه وهكذا يرى الناس الأطفال أيام العيد يلعبون بكرات تطير في الجوّ .

(ب) وهكذا يرى الناس الطيور تطير في جوّ السماء وأجسامها أثقل من الهواء .

فهذان النوعان من الأجسام أي الخفيفة التي لاقوّة ترفعها وتحركها والثقيلة التي لها قوّة ترفعها وتحركها أظهرها الله للناس في الشرق والغرب ، ومضت آلاف السنين وقد ستر الله هذا العلم عن قلوب الناس وإن كانت أبصارهم متفتحة حتى إذا جاء الأوان وأراد إظهار السرّ أوعز إلى أناس بالإلهام فاخترعوا النوعين من الطيارات النوع الخفيف الذي يسمى مراكب الهواء باللسان الافرنجي (إرشيب) ويسمى بالعربية (منطاد) والنوع الثقيل الذي وضعت فيه القوى المحركة وله لوحان كجناحي الطائر المسمى (عربية) بالطيارات .

وسترى إيضاح هذا في سورة النحل إن شاء الله مع صور تلك الطيارات ، وفي سورة تبارك لتعجب من صنع الله عز وجل الذي حال بين قلوب الناس وبينه في الشرق والغرب فلم يفطنوا للبخار والكهرباء والطير وغيرها إلى أجل مسمى .

هذا هو القسم الأوّل من الأصول الصناعية التي حجبها الله عن الناس قاطبة وحال بين قلوبهم وبينها وإن كانت أعينهم مبصرة وقلوبهم مفكرة فهو بقدرته وحكمته لمصلحة حال بينهم وبين ذلك السرّ العظيم الذي يرونه بعيونهم .

وهذا

وهذا معنى قوله تعالى « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فهنا أجهر الناس جميعا ولكن الله أعمى القلوب عنها لحكمة حتى جاء الأوان .

وهذا ونحوه هو السد الذى قال الله فيه « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون » وهو الحجاب فى قوله « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » فالحجاب والسد لايريان ولكنهما موجودان عند أكثر النوع الإنسانى .

النوع الثانى من الأصول الصناعية التى حال الله بين المسلمين خاصة وبينها

إن المسلمين فى أقطار الأرض مهما كانوا لاتراهم إلا على وتيرة واحدة ، جهل تام بأكثر الصناعات ، ونوم عميق ، وذل مترا لم إلا قليلا منهم ، لماذا هذا ؟ لأن الله حال بين أكثرنا وبين المعارف ، لماذا والقرآن طافح بالنظر والفكر .

ذلك لأن أكثر رجال الدين ورثوا علوما خاصة عن أشياخهم فعلموها الناس ولم يشوقوهم لغيرها وصار هذا خلقا يتوارثه الخلف عن السلف .

والإنسان ابن عادته وابن بيئته ؛ فظنت الأجيال المتتابعة أن ديننا ليس له دخل إلا فى أمور العبادات ونحوها ، وهجر الناس كل علم وكل فن حظى بها أمم غيرنا وأصبحنا فى أخريات الأمم .

فهذا لما حال الله بيننا وبين تلك الصناعات بسبب الأمراء والجهلاء وبعض العلماء المقلدين النائمين على فراش الراحة الوثير بما اكتسبوا من العادات وما ورثوا بالتقليد عن أشياخهم فهم لايعلمون .

كل هذا ، والمسلم يرى ويسمع أن الأجانب لهم الكلمة العليا فى الصناعة والتجارة والقول الفصل فى السلم والحرب بما نالوا من قوة الصناعات ولكن حال الله بين المرء وقلبه .

فترى المسلم يرى بعينه الخطر المحدق ولكن التقليد وسوء الملكة والعادة ملك عليه مشاعره فأصبح كالأعمى ، كما اتفق للمصريين القدماء إذ عبدوا الهرة فلما حاربهم قنبيز ملك الفرس وضع الهرر بين الصفين فامتنع المصرى عن الضرب فدخلها الفرس وملكوها ، هكذا حال المسلمين اليوم ، وبهذا تم الكلام على الأصول الصناعية وهى القسم الأول من الثلاثة .

القسم الثانى الأصول الخلقية

يعيش الإنسان فى بيئة ووسط فيه مخالفات خلقية وآداب منحطة ، فتراه بسبب الممارسة المتتابعة وبما يرى من أساتذته وإخوانه يتنزل إلى أخلاقهم وإن لمس الضرر بنفسه .

ألا ترى — رعاك الله — أن الناس شرقا وغربا يشربون الخمر ويدخنون (الطباق) ويتعاطون مالايبيحه الطب وهم يعلمون أنه ضار كقهوة البن والشاى ، بل إن بعض الأطباء الذين يعلمون ضرر المسكرات هم يشربونها ، لماذا هذا ؟ لأن العادة غلبتهم وحال الله بين الناس وبين قلوبهم .

فههنا الحيلولة بسبب الشهوات والغباوة وفى الطيارات والكهرباء والبخار التى تقدمت بخلق الكسل والتقليد واعتقاد المتأخر أن المتقدم قد أكمل كل شىء فى الوجود .

القسم الثالث الأصول العلمية وهى فصلان :

الأول فى العلوم العامة ، والثانى فى معرفة الله تعالى

الفصل الأول

درج المسلمون فى العصور المتأخرة على كتب اعتادوها وعلوم مارسوها كالفقه وعلم التوحيد وظنوا أنهم بهذا أرضوا ربهم فحال الله بين كثير منهم وبين قلوبهم بسبب المخالطة والمباشرة والتقليد الأعمى واعتقاد التلميذ أنه ليس وراء علم أستاذه علم ، وقد فرحوا بما عندهم من العلم « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

يرى المسلم الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال وقد أكل دراسة علم الفقه وعلم التوحيد على الطريقة التى ورثها عن أسلافه من سنين وشيعين ، يرى جمالا فى هذا الوجود ، يرى حكمة عالية ، يرى نور الله ظاهرا يكاد يذهب بالأبصار ، يرى تقلب الليل والنهار ، يرى جمال الأنهار وبهجة الأشجار ونور الأقمار وجمال الوجود فيروعه ولكنه يحجب عن التفكر فيه لأنه اكتفى بما قرأ فى الكتب الموروثة فكأنما هذه الكتب لجام له ، أو كأنها سجن سجن فيه .

وقد أشير لها فى الحديث الصحيح المفيد أن العالم الذى لايعمل بعلمه يدور فى النار كما يدور الحمار فى رحاه .

فأكثر المتعلمين يدورون فى كتب مخصوصة فى الدنيا كأنهم يشاكلون بذلك ماسيحصل والعياذ بالله يوم القيامة لغير العاملين بعلمهم فى جهنم .

فالمتعلم الذى غشى بصره عن الحقائق يدور فى الكتب التى قرأها ويرجع إليها كرة بعد أخرى ويحبس فيها حبسا مستمرا ويموت جاهلا بهذا الحبس نفسه ، حبس المسلمون عن العلوم ، وهذا الحديث الذى ذكرت لك ملخصه كأنه يشير لهذا الزمان .

ولعلك تقول إن هذا جرأة منك وكيف تصرح بهذا القول ؟ أقول لك لست أنا المبتدىء به فاسمع ماجاء فى الإحياء ، فقد أورد المؤلف فى الجزء الأول اعتراضا على نفسه ملخصه :

[ كيف جعلت حد المتكلم أنه يحرس عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة فهو أشبه بالحراس فى طريق الحاج يحفظون الأقمشة أن تتخطفها الأعراب، وجعلت حد الفقيه أنه يحفظ القانون الذى به يستعين السلطان على كف الأشرار ، مع أن المشهور بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وقد جردتهما من الصفة الدينية ، كيف هذا ؟ ] .

هذا ملخص الاعتراض الذى أورده صاحب الإحياء على نفسه ، ثم أجاب عن هذا الاعتراض بما يطول شرحه وملخصه :

[ إن ما هو مشهور يخالف الحقيقة ، فعلى الإنسان أن يعرف الرجال بالحق لا العكس ] وأشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم مات عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كأبى بكر وعمر ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم إلا بضعة عشر رجلا .

ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، قلت أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ثم ذكر أن الشهرة عند الناس بالفقه وبالكلام غير الشهرة عند الله .

وأفاد أن شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وفضله بالسر الذى وقر فى نفسه ، وشهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وفضله بالعلم الذى مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب إلى الله فى ولايته وعدله وشفقته . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من القسم الثالث فى الأصول العلمية .

## الفصل الثانى من الأصول العلمية فى معرفة الله تعالى

وذلك أن الانسان يجول بنفسه خواطر وتتوارد على عقله وساوس فيقول كيف يكون الله واحدا وهو مع كل إنسان وحيوان صغير وجليل ، وكيف يسع هذا العالم كله ؟ وكيف يطلع على مافى قلبى وقلوب كل مخلوق ؟ ثم كيف يكون قريبا منى مع أنه عظيم كبير متعال فكيف يكون قريبا بعيدا ؟ يقول المؤمن أنا آمنت بالله ولكن الذكى يريد أن يتضح ذلك له ولو بضرب مثل . أذكر لك أيها الذكى ماجال بنفسى يوم

الاثنين ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ أثناء تقديم هذه السورة للطبع إذ جلست ضحى فى ضوء الشمس وهو سبب هذا الموضوع كله .

الله والشمس

اعلم أن الله عز وجل ضرب للناس مثلا محسوسا لنفسه ، ذلك أن الشمس :

(١) كبيرة جدًّا . (٢) كثيرة الضوء .

(٣) بعيدة عن الأرض بعدا شاسعا ويراها الإنسان . (٤) قريبة منه .

(٥) وإذا جلس للاستدفاء بها يراها فى مقابلته كأنها لاتقابل غيره وهى قدر إطار المنخل .

(٦) والضوء الذى ترسله له خاصة لاحصر لعدد ذراته .

هكذا لله الذى ليس كمثله شىء :

(١) كبير عظيم . (٢) كثير الإنعام .

(٣) بعيد الرتبة والعظمة من الإنسان . (٤) وهو قريب علما وقدرة منه .

(٥) وكأن النعم التى فى الأرض وفى السماء لم تخلق إلا لتكون لك أنت وحدك لأنك لاتعيش إلا بهذا النظام العام . (٦) والنعم التى يرسلها لك لاتحصى .

هذا هو المثل المحسوس الذى يراه الناس والحيوان وهم لايفطنون .

إيضاح بعض صفات هذا المثل وهو الخامس

وذلك أن الإنسان إذا استدفأ بنور الشمس شتاء مثلا يرى أنها تقابله كأنها دائرة الطبل وينظر يمينا ويسارا فلا يرى شمسا إلا هذه ، وإذا كانت هى المقابلة لك فكأنها لاتقابل غيرك .

ثم إن كل إنسان على سطح أرضنا يرى هذا الرأى وهكذا كل حيوان أرضى أو طائر ، فكل هؤلاء إنما ينظرون مايكاد يخيل لهم أنه خاص بهم .

هذه هى حال كل حى على الأرض يجلس والشمس بحذائه لاسواه وهى فى الحقيقة بحذاء كل واحد من سكانها حيوانا أو إنسانا ، ثم مايقال فى أرضنا يقال فى سواها من السيارات وتوابعها وما أكثرها دائرات حولها ، وما أصغر أرضنا وأحقرها بالنسبة لغيرها من السيارات وهى صغرى وكبرى ومجموعها يعدّ بالمئات لأن هناك سيارات صغيرات دائرات حول الشمس كما هو مدوّن فى هذا التفسير كثيرا ، وهكذا حولها ذوات الأذناب التى يقولون عنها إنها كسمك البحر عدًّا .

فالشمس حولها مالايعدّ من توابعها ، والسكان فى تلك الكواكب والتوابع والأقمار إذا وجدوا تكون هذه حالهم بحيث يخيل لكل أنها خاصة به عند مقابلتها .

وهذا المثل يوضح لنا قوله تعالى :

(١) « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، وقوله تعالى أيضا :

(٢) « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ، وقوله :

(٣) « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » ، وقوله :

(٤) « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » ، وقوله :

(٥) « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » ، وقوله :

(٦) « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » ، وقوله :

(٧) « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض الخ » ، وقوله :

(٨) « إن الله سريع الحساب » ، وهكذا قوله هنا :

(٩) « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .

لهذا المعنى يشير قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وستقرؤه في سورة النور ، وتعجب من أن هذا المعنى قد ظهر جليا في أحاديث رؤية الله تعالى ؛ ففي حديث الشيخين عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته ( أي لاتزدحمون) إذا شددت الميم أولاينالكم ضيم ) إذا خففت فإن استطعتم أن لاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وذكر في حديث أبي داود أيضا الشمس ليس دونها سحاب ، ولم يذكر هذه الزيادة الترمذي .

وإن تعجب فعجب ماتسمعه من حديث أبي رزين العقيلي قال : « قلت يارسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة ؟ قال نعم ! قلت وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ياأبا رزين : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر ؟ مخليا به ؟ قلت بلى ! قال فالله أعظم : إنما هو خلق من خلق الله : يعني القمر ، فالله أجلّ وأعظم » أخرجه أبو داود ، وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب : فما أعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » اه .

فتأمل حديث أبي رزين ، واعجب كيف ضرب مثلا يشبه ما نحن بصدد الكلام عليه من أن الله يتجلى لكل أحد كأنه له خاصة بحيث يناجيه الإنسان والحيوان وكل حشرة ودابة ، فكل هذه تسأله الرزق وشئون الحياة كأنه خاص بها .

وتأمل كيف كانت هذه الحال مشبهة مثل الشمس والقمر معنا ، فأما الرؤية فخاصة بأقوام من نوع الإنسان ، بخلاف السؤال فهو عام .

إن هذا التشبيه لايخطر ببال شاعر ولا كاتب وإنما هو من مقام أعلى وهو مقام النبوّة .

واعلم أن الوصول للحقائق العلمية بعد التخلي من الأخلاق الشائنة هو الوسيلة لرؤية الله تعالى ، والرؤية بالبصر أمر حيواني ، أما الرؤية بالإحاطة بالعلوم فهو الموصل لذلك المقام ، ومن لم يجد في نفسه شعورا بالنظام الجميل في هذه الدنيا ، فكيف يتصوّر أن يرى موجد هذا النظام .

إن الله خلق الجمال في صور الإنسان والمخلوقات ليعلم الناس الهيام والغرام بالظواهر إذا كانوا جهالا ، ويرتقي العلماء بالهيام بما هو أجمل وأكمل وهو النظام العام والإشراق التام والحكمة الباهرة والأنبياء فوقهم جميعا .

اقرأ مقام الحبّ في سورة البقرة عند قوله تعالى « يحبونهم كحبّ الله » . إن من لم يدرك جمال هذا الوجود في هذه الحياة فليس له حظ من رؤية ربه التي تنال بالعلم ، وإن ماتكتبه في هذا التفسير يعين على ذلك .

فإذا كنت أيها الذكي به مغرما فاعلم أنك قد فتح لك باب الوصول ولا نكوص لك بعد الآن وخرجت من الجماهير الذين دخلوا في قوله تعالى هنا « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهؤلاء تكون العلوم حاضرة أمامهم وهم لايعقلونها .

تبين لك من هذا كله أن مثال الشمس واضح جلىّ ولكنّ الله يحول بين الإنسان وبين وقلبه فلا يكاد أكثر الناس يعقلون سبب هذه الحيلولة .

إن الله قريب منا مع بعد مرتبته عنا ، وإنه أقرب إلينا من الوريد الذى هو عرق فى الرقبة .

بهذه الحيلولة يمتنع الإنسان عن تعقل ماهو محسوس ومحيط به من كل جانب ، لولا هذه الحيلولة ماتعاطى الناس مايضرّ من مطعم ومشرب .

إن الناس فوق الأرض يكادون يكونون مخلوقين من النور والجمال ، بل هم فى الحقيقة جمال ونور .

إن المادّة التى منها خلقنا ماهى إلا كهرباء مدمجة كما هو آخر رأى للعلماء أو روح مجمدة كما هو رأى العلامة ( استوارت ميل ) وكلاهما نور .

هذا بالنسبة لأجسامنا ، أما أرواحنا فأمرها ظاهر ، والإنسان مع هذا كله حيل بينه وبين إدراك حقيقته الجميلة البهية الساطعة، وهذا من سرّ هذه الآية ، فإن الله حال بيننا وبين نفوسنا ، ولولا هذه الحيلولة لسكنا فى نور مشرق وجمال باهر يحملنا فى جوّ من النور والجمال والبهاء إلى الأبد .

فهذه الحيلولة جاءت لسكنانا هذه الأرض المظلمة لتتربى فيها عقولنا مدّة ثم تنتقل إلى عوالم أخرى .

شفاء الصدور ومشرق النور من شموس بازغات ومعان باهرات فى هذه الآيات

( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون الخ ) .

إن قوله تعالى « دعاكم لما يحييكم » وقوله « يحول بين المرء وقلبه » فتح باب على مصراعيه للعقول أن تلج الحكمة لتحيا وإلا حيل بينها وبين السعادة بموت القلب ، والقلب هنا هى اللطيفة القدسية المنبعثة من العالم الإلهى .

فلنذكر هنا وصف العوالم المشاهدة من كوكب وقمر وشمس وسحاب مطرّز بقوس قزح ، ثم نقفى بعجائب الجسم ثم النفس التى هى المقصودة بالحياة ، وكيف كشف الناس أنها تعتريها حال تصبح فيها عالمة بالمستقبل وتتكلم بلغات شتى حال الانخطاف الروحى بالتنويم ، والله حال بيننا وبين ذلك كله ، وهو اليوم يدعونا لطاعته ليكشف عنا الغطاء يوما ما ولو بعد الموت ، فنقول الدنيا قصر منيف عالى الأكناف ، واسع الأطراف ، نظرت إلى سقفه إذا هو مجمع العجائب ومثار الغرائب قد وشى بطرائف التطريز ونقش بكل جميل عزيز ، ازدان بالدرّ والمرجان ، وتلألأ بمختلف الألوان ، نور وهاج ، وسراج يتلوه سراج ؛ فبينما تراه حالك السباسب ، مسودّ الجوانب ، مرصعا بالدرارى البهجات ، المشرقات فى الظلمات ، إذا بملاءة بيضاء قمرية منسوجة من الفضة قد نشرت على وجوه تلك المشرقات ، وتارة يخيل لى أن ذائب اللجين سال فى جنبات القصر وصار الجوّ به كالنهر ، ذلك هو نور القمر .

أقول : فبينما أنا على تلك الحال إذا حادت غير تلك المعالم ونسخ تلك العوالم وهى عرائس الصباح ونواعس الطرف الصباح راقصات فى مشارق النور تتلألأ بهجات ، وتزدهى ساحرات ، بألوان مختلفات ، وتتجلى سافرات ، وقد يخيل للرائى أن أمواج النور جحافل ، وجيوش بواسل ، بأسنة لوامع ، ومهندات قواطع ، برزت فى المشارق وتراءت فى المطالع ، احتفالا بمقدم ملكة الكواكب ، وسيدة المشارق والمغارب ، ذلك هو وصف الصبح .

فبينما نحن نرقب مجتلاها ، لنشاهد محياها ، إذا بالغزالة برزت كالذهب الإبريز ، زينة للناظرين وبهجة العالمين ، فنشرت على السماء جلبابا لازورديا ، فبرقعت وجه القمر والنجوم ، وفرشت على الأرض بساطا

نهيا منمقا بجميل الأشجار وبديع الأزهار ، مزخرفا بما فى الحشائش والزروع من بدائع الألوان المختلفات الأشكال المزدهرات البهجات .

وصف السحاب وقوس قزح

وتارة تنسج أيدى الرياح فى الجنوب أو الشمال مطارف مدهامات وحللا داكنات مدليات من الأعلى إلى الآفاق ، فى سمت الرأس أعاليها ، وعلى الأرض حواشيها ، وقد طرّزها قوس السحاب بأصفر فوق أخضر يتلوه أحمر وأصفر .

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا  على الجوّ دكنا والحواشى على الأرض
يطرّزها قوس السحاب بأصفر  على أخضر فى أحمر تحت مبيض
كهيئة خود أقبلت فى غلائل  مصبغة والبعض أقصر من بعض

تلك حال هذا الوجود الذى نعيش فيه ، فدنيانا جميلة المحيا ، باهرة المناظر ، ساحرة الطرف ، رشيقة القدّ ، غيداء ، هيفاء ، كحلاء ، عيناء ؛ ازينت للناظرين ، زينها ربّ العالمين ، فهى غادة لعوب ، وفاتنة طروب ، من عادتها الدلال والتبختر فى الغلائل لا الأغلال ، فهى كما قال كعب بن زهير :

فما تدوم على حال تكون بها  كما تلوّن فى أثوابها الغول

الكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكمية

هذه صفات العوالم المشاهدة التى لأجلها نزلت الكتب السماوية كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، وألفت الكتب وخلقت الحكماء وتتابعت العلماء .

فههنا وحى يوحى لذوى النفوس الشريفة وكتب تؤلف على أيدى حكماء ذوى جدّ وتشمير ونفوس منقوشة بتلك العوالم مزدانة بأجمل تلك الجواهر .

إن الله أبرز لنا هذا الوجود كتابا نقرؤه ، هذا الوجود كتاب مسطور فى رقّ منشور ، كتاب كتبه يده ، وما أحسن كتابه ، وما أجمل عمله ، وما أبدع صنعه ، كتبه وزينه وأحسنه ، كتب الله هذا الوجود بحروف كبيرة ثم أوحى إلى الأنبياء فكانت الديانات بألفاظ نسمعها وحروف نكتبها ومعان ننقلها تدل على نظام هذا الوجود ثم ألهم الحكماء والأولياء من كل أمة من كل دولة فدوّنوا وألقوا لإظهار أسرار الديانات بمختلف اللغات لاجتلاء تلك المشاهدات وفهم الغائبات عن الحسّ والإبصار .

الجسم الإنسانى

ثم إنه أسكن نفوسنا فى أجسامنا ونقش الأجساد بنقوش تضاهى نقوش هذا العالم الكبير ، فنظم الهيكل الإنسانى وأبدع فيه من كل سرّ خفى ومظهر جلىّ ، فنظم الأعضاء ووزنها وزوّق الوجوه وحسنها ونقش الألوان وزوّقها وسوّى المفاصل وأحكم الأعضاء ، وأبدع الحواس وفصل الخواصّ ، ورتب الأحشاء ، ونظم مجرى الغذاء وطريق النفس وموارد الدم ومصادره ، كل ذلك شرحته فى سورة آل عمران شرحا جميلا ونسقته هناك تنسيقا قويما .

فههنا كتب الدين يسمعها الناس كلمات فى الهواء بآذانهم أو يبصرونها فى الكتب بعيونهم، ونظام هذه الدنيا حروف كبيرة يقرؤها المفكرون ويعرفها العالمون (جمع عالم) بكسر اللام ومختصر هذه الدنيا هو الجسم الإنسانى ففيه معنى العالم كله كما مرّ فى آل عمران .

إذن النفس لها لوحان : لوح كبير هو هذا العالم ، ولوح صغير هو هذا الجسم ، ولهما دلالتان ; دلالة الكتب السماوية ، ودلالة العلوم الحكمية .

هذه هي علوم الأولين والآخرين . فاقرأ كتب الدين وتأمل نظام هذه الدنيا وادرس عجائب جسمك بهذا تكون حكيا وصديقا تابعا لنبينا صلى الله عليه وسلم بل وارثا من كبار الوارثين .

النظر في النفس

وإياك أن تغفل عن أفضل الأمور وأجلها قدرا وأعظمها خطرا ، ألا وهو القلب ، وقد ورد في الآثار « قلب المؤمن عرش الرحمن » .

إن ماقلته لك في هذا المقال إملاء من القلب فلا كتاب لدىّ ولا منظر أمامى ، فأنا الساعة لست أنظر إلى السماء ولا الصباح ولا الليل والنهار ولا أمام الأشجار ولا الأنهار ، ولكنى أكتب من لوح القلب ، إن الكتب السماوية والدروس الحكمية وعجائب هذه الدنيا وغرائب الأعضاء الجسمية ، كل ذلك يقصد به تكميل النفس بتلك النقوش وإسعادها بما في الطروس .

كل مافي هذه الدنيا عيان ولسان وبنان وجنان ، فالعيان كل ما تعاينه من السموات والأرضين وغيرها والكلام باللسان والكتابة بالبنان معبران عن ذلك العيان ، والقلب هو الذى ترسم فيه تلك النقوش .

غفلة الناس عن القلب

يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لايعلمون أن هناك عالما كبيرا كامنا في نفوسهم . الإنسان يؤمن بأنه يرى؛ ولكنه لايصدّق أن نفسه عالم كبير لايراه الناس وإنما يراه هو .

أنا أكتب هذا وكأنى أشاهد في لوح نفسى النجوم والسماء والشمس والقمر والصباح والمساء ، وأشاهد رسوم الأعداد من الواحد إلى العشرة إلى الألف وهكذا ، وألاحظ كل مابقى من المحفوظ من علم أو نظم أو نثر ، وكل محفوظ يخيل للنفس أن له مكانا رسم فيه . وكأن هذه النفس عالم واسع قد ابتلع عوالمنا التى نعيش فيها وزاد عليها ، أنا أكتب هذا وكأن نفسى هى التى تملى علىّ .

يقول العلماء : إذا عرف الإنسان هذا الوجود كله وجهل نفسه فقد جهل كل شئ . إن النفس هى الباقية لنا في سفرنا وحضرنا وموتنا وحياتنا وهى التى فيها رسمت كل هـــذه المناظر فصارت لوحنا الذى نقرؤه .

انظر إلى رسوم نفسك ترها عجيبة ، وأضرب لك مثلا بالأعداد وبالكلام المحفوظ وبالكواكب .

أنت أيها الذكى تحسّ في نفسك بالأعداد مرتبة منظمة بترتيبها ولولا هذا الترتيب ماعرفت العدد ولا كوّنت الحساب وتسمع الجمل العلية فترسم صورتها في نفسك حتى إذا احتجت إليها عرفتها ونفعتك ، وتفكر في الشمس والقمر فتراهما حاضرين في قلبك .

هذه ثلاثة أمثلة :

فالأوّل : وهو العدد لا وجود له في الخارج ، وإنما وجوده في نفسك فقط وليس في الخارج إلا المعدود .

والثانى : وهى الجمل ماهى إلا ألفاظ ، والألفاظ صوت والأصوات حركات في الهواء ، والحركات تضمحلّ حين بروزها وتختفى وقت ظهورها .

والثالث : وهو الشمس والقمر باقيان في السماء .

فههنا حفظت النفس لنا مالاوجود له وهى الأعداد ، وما وجد واضمحل بسرعة وهى الجمل ، وماهو باق وهو الشمس والقمر .

إذن النفس أرقى من هذا العالم فإن فيها موجودات لاتوجد فيه وفيها تبقى الموجودات التى اضمحلت فيه .

ألا ترى أنك ترى إنسانا جميل الطلعة يوما ما ثم يدور الدهر دورته فيصبح قبيحا ضعيفا وهو لايزال في نفسك

على ما كان عليه ، فكأنّ نفوسنا صاذقة حافظة ، والمادّة لاتصدق ولا تحفظ بل فيها تتغير الموجودات وتتبدل والنفس تحفظ .

إن نفوسنا هي المقصود من هذا العالم ، ويقول بعض العلماء [إن الغذاء فينا بالمطاب حتى تكون خلاصته سمعا وبصرا وفكرا ، وهذا الفكر أشبه بسنابل القمح التي دلت بظهورها على أصل بذرها ، فلولا أن البذر حبّ قمح ما كان الناتج قمحا ] .

إذن أصل العالم فكر أونفس ، ونفوسنا تسيطر على هذه المواد وتحكم وتحلل وتركب ، إذن هي من عالم أسمى من عالم الحسّ ، وكأنها خلقت هنا للتمرّن والتعلم ، وكأن هذا الوجود وهذه الأجسام لوح تقرؤه حتى إذا أتمت عملها فارقت الأرض حاملة معها زادها في هيئتها .

إن هذه العلوم الفلسفية والدينية والنظام والطبيعة والهيكل الإنسانى بالتشريح رسوم ونقوش تغذى النفس كغذاء الطعام للأجسام ، وكلما زادت النفس غذاء فكريا ازدادت كمالا حتى تقرب من العوالم القدسية .

إن هذا العالم صنع بحساب ونظام ، وعلى مقدار تعقله تقترب النفس من صانعه ، وكلما استكملت بالعلم ازدادت إلى الصانع شوقا .

وإذا غفلنا عن تلك القوة القدسية المعبر عنها (بالقلب) ابتعدنا عن السعادة ، وأمثال هذا هو المقصود من آية « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

ولما كان الحشر إليه، وهولطيف خبير منزه عن المادّة وجب أن تكون النفوس القريبة منه بعد الحشر مغرمة بالعلم والحكمة حتى تستعدّ للقائه ، وهل يجالس الصعاليك الملوك .

وفى بعض الأخبار « من عرف نفسه عرف ربه » وفى القرآن « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله تعالى ( والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها » إن هذه الآيات هى نفس الموضوع الذى ذكرته الآن ، وإن هذه الصورة المرسومة لك تبيانا لهذا العالم ، ماكنت وقت كتابتها ملاحظا هذه الآيات إذا هى كالتفسير لها ، فإن هذه العوالم كلوح للنفس .

إن نفسك هى جنتك وهى نارك ، هى جنة العلوم والمعارف ، وهى نار الجوانح بالشهوات والعداوات والذنوب ، إن النعيم الأوفى إنما يكون بجمال النفوس ، ومتى جملت بالعلم والحكمة استغنت عن جميع العوالم بلقاء ربها ، ولا يلقى الله ويشاهده إلانفوس مشرقات . أما النفوس التى حال الله بينها وبين قلوبها واستعدادها فقد حرمت النظر إليه .

إن النفس تصوّرت الجائز والواجب والمستحيل ؛ الجائز كجميع هذا العالم الشاهد كأن تجعل (٤٠) من ضرب (٤ فى ١٠) أو من ضرب (٥ فى ٨) والواجب كالإله وكالملك وكأن تتصوّر أنّ (٢٥) من ضرب (٥ فى ٥) والمستحيل كشريك البارى ، وكأن تتصوّر أن (٤٠) من ضرب (٥ فى ٥) أى أنك تحكم أن أربعين مستحيل أن تكون حاصل ضرب هذين العددين ، فهى تصوّرت الواجب وحكمت بثبوته ، والمستحيل وحكمت بعدمه ، وهى تتصوّر للمجرّدات عن المادّة صورا فيها ، ولذلك تنوّعت طرق الوصول إلى الله وأعان النفس على استحضار معبودها ظهور الشعائر والمنابر والمساجد والمنائر ومناسك الحج وأمكنة الطواف والوقوف والمشاهد المعلومة ، كل هذه وأمثالها لتعين النفس على استحضار من هو مجرّد

عن المادّة ولو كان مشاهدا كما تشاهد الشمس ، وهو حاضر دائما عند حواسنا لم نحتج إلى جميع هذه الشعائر .

النفس أدركت العلوم الطبيعية التى تحتاج فى تعقلها إلى المادّة فى الخارج وفى الذهن ، وأدركت العلوم الرياضية المحتاجة فى تعقلها إلى المادّة فى الخارج دون الذهن ، وأدركت العلوم الإلهية التى لاتحتاج إلى المادّة لافى الخارج ولا فى الذهن ، والعلوم الإلهية هى العلوم العلية كتقسيم العلوم وكالمقولات الخ .

النفس فى حال النوم تعطيك صورة من الدنيا والآخرة

ألا ترى أنك فى اليقظة تفكر وتحسّ ؟ وفى حال النوم كذلك تحلم وتفزع وتفرح وتحزن ثم يمرّ عليك وقت فى النوم لايكون لك إحساس بهذا الوجود البتة .

ولا معنى لحياتى إلا أنى أحسّ وأفكر ، فأنا إذن عند فقد الشعور والإدراك صرت كالميت فتشابهت الحالان : حال الميت وحال النائم الذى لايشعر ، فما هو أشبه بالموت أصبح من لوازم الحياة ، لاتتمّ الحياة إلا بنوم ، وقد يكون فى النوم زوال الحسّ والشعور .

والمعنى المخوف منه فى الموت عند الناس كافة هو فقد ذلك الشعور وقد حصل فى نفس الحياة ، وحينئذ يقال إذا حصل فقد الشعور فى حياتنا الدنيا ولم يكن سببا فى الفناء فربما يكون فقد الشعور بالموت ليس سببا فى الفناء ، بل الحياة ربما كانت كامنة وتظهر بحال أخرى .

استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت

إن الناس فى كل يوم وليلة يموتون ويحيون تمرينا على الموت الأكبر والحياة الكبرى ؛ ولقد استدل (سقراط) بتعاقب هاتين الحادثتين على أن الحياة ستكون بعد الموت كما قدّمناه فى سورة الأنعام ، النفس ترسم فيها صور الآثار الواصلة إليها بالمرض فتتخيل فى الأحلام الحمى نارا متأججة تحيط بها ، ويتصوّر الذى اعتراه البرد أو الأمراض الباردة أنه فى بحر لجىّ كما يعرفه أكثر الناس فى أنفسهم .

وهكذا السوداوى يزاول أعمال الموتى وسواد الأجسام ، وهكذا النفس تجعل لكل ماتدركه صورة تتخيلها له .

إن النفس بحر لجىّ لاساحل له ، النفس بحكم وهمها على من يمشى على الحائط بالسقوط ، إن الإنسان إذا مشى على الأرض لايشغل مقدار عرض الحائط ، ولكن الوهم يحتم للماشى عليه أنه ساقط لامحالة فيسقط ذلك لأن وهم النفس صوّر له السقوط فسقط ، الوهم أبرز لصاحب الشهوة البهيمية صورة مايشتهيه من صور النساء والأغذية فتمتع بها فى المنام ، وصوّر لذى القوّة الغضبية صور الأعداء لجهاده لهم فى ميدان الأحلام والأوهام .

النفس هى التى إذا أدّبت وهذبت وربيت لم تؤثر فيها الأوهام ، فترى أولئك اللاعبين الذين درّبوا على المشى على الحبال أو الجلوس على كرسى موضوع فوق عمود مرتفع لايسقطون كما يشاهد فى هذا الزمان ، ذلك لأن الوهم اتجه إلى النجاة وضبط الأفكار ، النفس أثرت فى جسم المحتلم فأفرز مادة من جسمه ، والنفس بالتهذيب والرياضة تؤثر فى غيرها إما بالعلم وإما بالآثار الظاهرة .

كل ذلك إشارة إلى أنها فى هذا العالم قوّة إلهية أنزلها الله إلى الأرض لتكون مظهر جلاله وجماله « وما يعقلها إلا العالمون » ولا يحجب عنها إلا المغفلون .

هذه قطرة من بحر قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ياقوتة فى عقد هذا المقال

بعد أن كتبت هذه المقالة تبين لى أن هذا الموضوع لا آخر له ومنه يتفرّع علوم الأمم القديمة والحديثة

فى النفس ولو أنى أطمت البنان والقلم لطال بى الأمد ، ولكنى أقتصر على هذه الياقوتة فضعها أمامك فإنها تضىء لك هذا الوجود وتشرق إشراق الكواكب والشمس والقمر .

ليس المدار على كثرة العلوم ، وإنما المدار على حسن التصرف والتعقل ، وقليل يكفيك خير من كثير يلهيك ، فهاهى ذه الياقوتة أهديها إليك فأقول :

انظر فى سورة البقرة عند تفسير آية « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » فإنك تقرأ هناك أنهم فى التنويم المغناطيسى فى الأكاديمية الطبية الفرنسية أمروا المسيو(فرواساك)فنوّم المسيو كازو المصاب بداء الصرع وقد كان فرواساك فى حجرة والمسيو كازو فى أخرى ولم يعلم الأخير بحضور الأوّل ، وحصل ماحصل من إخبار المسيو كازو المريض عن مرضه ومستقبله ، وكيف تمكن مداواته ، وعين اليوم والساعة والدقيقة التى سيأتى فيها المرض ، ثم ترى هناك قبل ذلك الدرجات الثلاث المتقدّمة فى هذا المقام قريبا .

هذا هو الذى تقدّم فى سورة البقرة ، وإذا كانت هذه الأمور أصبحت الآن معروفة فى أوروبا . وأن من تنوّمه تنويما تاما تكون هذه حاله .

فإذن أمر النفوس البشرية عظيم جدّا مدهش ، ونفسى ونفسك فيهما هذه القدرة وقد حال الله بيننا وبينها وهو يدعونا ليحيينا بالطاعة حتى يردّ إلينا ملكنا العظيم فى هذه النفس ، وإذن نفهم هذه الآية فنحن فى هذه الحياة قد حال الله بيننا وبين قلوبنا .

فاعجب للقرآن واعجب للتعبير بالحيلولة . وكن ماعشت مفكرا ذاكرا تعش حكيما تقيا وترقب هذه الحال التى انطوى قلبك عليها .

إن الآية تشير إلى أننا فى هذه الحياة أموات لأنه حال بيننا وبين قلوبنا ، ولقد وجدنا أن قلوبنا تعلم عجائب لانهاية لها وتقدر على ما لاتقدر عليه فى حال التنوم .

فهذه الحياة كأنها موت وهو يدعونا للحياة فانعكست القضية ، فحياتنا موت وموتنا حياة وهذا مايفسر ما ورد فى الآثار « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

ياسبحان الله وياسعدانه ، إن هذه المقالة فتح باب لفهم قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ومن قرأ كتب علماء الأرواح فى العصر الحاضر واطلع على علوم الهنود وما تضمنه كتاب [راجايوجا] للمؤلف باللغة الإنجليزية مترجما من اللغة الأوردية أدرك بعض سرّ « قل الروح من أمر ربى » إن ما جاء فى تلك الكتب هو الذى أشار له قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فهاهو ذا الله قد أطلع الأمم اليوم على بعض سرّ الروح الذى هو بعض آيات الله فى الأنفس وعجائبها ، فإذا كان أهل الديانات قديما والمسلمون يؤمنون بأمر الروح إيمانا ، فإن الذين اطلعوا على كتب الأمم يؤمنون يقينا .

وكيف لايوقن المرء بسرّ الروح ؟ والروح قد تبدّت عجائبها فى المجالس الروحية وبدا جمالها ونطق الأبكم وأبصر الأعمى وبرع فى العلم الغبىّ الجاهل وبرز فى الفلسفة من لايحسن خطابا ولايقرأ كتابا ولايحير جوابا إعلانا لاسرّا ، ومتى فارق تلك الحال رجع إلى سيرته .

إن رجال الصوفية فى الإسلام قد ظهر لهم بالرياضات نفس ما ظهر بالتنويم المغناطيسى اليوم ، وذكر زهاد الهند وعبادهم من تلك الأسرار مالايكاد يتخيله العقل وأتوا جميعا بالعجب العجاب من إخبار بالمغيبات

وأعمال

وأعمال عجيبات ، وقد يدفن التلميذ فى قبره ستة أشهر ثم يخرجونه ويكشفون الغطاء عنه ويخرج من الصندوق فى جمع حافل ثم يتحرك ويتكلم .

ولقد صنع بعضهم هذه العجائب على ملأ من الناس فى هذه السنة والتى قبلها فى إنجلترا وقد شهدها القوم فى المسارح العامة وقد أغمى على السيدات عند مشاهدتهم تلك الظاهرة ، فأمرت الحكومة بعدم تكرار هذا رفقا بالنساء والضعاف منهم .

هذا كله من سر قوله تعالى « قل الروح من أمر ربى » إن النوع الإنسانى مقبل على سعادة لا يحلم بها الآن ، وهذه السعادة وهذا الملك العظيم هو الآن كامن فى أنفسهم ، ويظهر تارة بالعبادة وأخرى بالرياضة وأخرى بالتنويم المغناطيسى لحظة . فإذا استيقظ ذلك النائم لم يدر شيئا مما كان يعرفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المذكور فى قوله تعالى « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا » فى تلك الحياة التى جاءت فى قوله تعالى « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » فقوله « لو كانوا يعلمون » إشارة إلى أن الناس حجبوا عنه .

حصر الله الحياة فى تلك الحال مؤكدا بإن وباللام ، فلا حياة إلا تلك الحياة التى ظهرت طلائعها فيما ذكرناه وحال الله بيننا وبينها .

وهذا هو المعنى المنطوى فى قوله تعالى هنا « لما يحييكم » فهذه هى الحياة المذكورة فى آيتنا وما نحن عليه فى الدنيا موت . فأهل الأرض اليوم ميتون فى حياتهم الحيوانية التى بسببها حال الله بينهم وبين تلك الحياة .

ويقول علماء الهند فى الكتاب المتقدم ، إن سر هذا العالم كله فى الإنسان مخبوء فى عجب ذنبه ، وإن هذا العجب فى نظرهم مرآة للوجود كله وإن الرياضة والعبادة والذكر والعلم والفلسفة كل هذه تمنع الحجاب الحاجز للنفس بين عجب الذنب وعلومه وبين الدماغ الإنسانى .

وإن علوم أهل الأرض التى وقفوا عليها من طريق الحواس والعقل تصل للمخ من طريق أعصاب الحس والحركة والفكر .

أما أسرار الملك والملكوت المحجوبة فى عجب الذنب فإنها تتراءى للعقل بطريق الانطباع من عجب الذنب فى المخ .

وإنما ذكرت هذه التى لا برهان عليها ولا أى دليل ، لأن عجب الذنب مذكور فى الأحاديث أنه هو الباقى الذى لا يفنى كالروح .

فهذا هو العجب العجاب أن يكون كلام الهنود منذ آلاف السنين بطريق العلم المكتسب بالرياضة هو الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا معجزة له صلى الله عليه وسلم ذكرتها استطرادا لمسألة الحياة فى قوله تعالى هنا « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ضوء الياقوتة وازدياد فى عجائبها

إن تعجب فعجب ماجاء فى كتابى المسمى : [ كتاب الأرواح ] صفحة ١٩٢ من ذكر حادثة مدهشة فى سنة ١٨٧٣ ذكرتها جرائد أوروبا وأمريكا ، وهى أن المؤلف الإنجليزى ديكنس فاجأته المنية فى مدينة لندن سنة ١٨٧٠ قبل أن يتم روايته المدعوة [ أسرار ادوين برود ] فأتمها بعد موته على يد الوسيط الأمريكى ( جيمس ) فى مدينة ( بوستون ) وجيمس هذا لم يكن إلا غلاما صانعا قليل العلم يقضى أيامه فى إتقان حرفته

وافق أنه حضر سنة ١٨٧٢ فى إحدى ليالى (تشرين الأول) جلسة روحانية تجلى فيها روح ديكنس وطلب أن يكون جيمس المذكور وسيطا يتمّ به روايته فقبل جيمس وصار يجلس كل ليلة وتتحرك يده وهى تكتب القراطيس أقوالا لايعلمها، ودام على ذلك سبعة أشهر أكمل فيها الرواية بألف ومائتى قرطاس، ولقد شهد رجال الصحافة عموما أنه يستحيل على القارئ أن يميز بين ماكتبه ديكنس قبل موته وبين ما كتبه الوسيط جيمس بعد موته أقلّ اختلاف لا فى الإنشاء ولا فى الخط ولا فى نسق الرواية، حتى إن الأغلاط الإملائية التى كان المؤلف فى حياته يعتادها بقيت كما هى اهـ.

وفى صفحة ١٩٣ من هذا الكتاب نقلا عن علماء الأرواح فى عصرنا مانصه:

وتمد جاءت مقالات فى الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبتها الأرواح على أيدى فتيان حديثى السن أو فتيات ساذجات لايحسن القراءة اهـ.

وجاء فى صفحة ١٩٨ من الكتاب المذكور نقلا عن المشترع الفقيه (سارجان كوكس) ماتعريبه:

كثيرا مارأيت غلاما صيرفيا وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب يجادل عند استيلاء الروح عليه قوما من الفلاسفة فى مسائل المنطق ومعرفة الغيب والإرادة والقدرة وغالبا كان يفحمهم بأجوبته السديدة وأنا نفسى ألقيت عليه يوما بعضا من معضلات علم النفس فحلها لى ببراهين قاطعة وألفاظ فى منتهى الرقة والفصاحة مع أنه فى حاله الطبيعية لايدرى ما الفلسفة ولا يجد ألفاظا يعبر بها عن أفكاره الصغيرة.

وجاء فى صفحة ٢٨٠ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) إنه ليس كل ماجاء فى الكتاب المذكور مسلما به، بل حال البرزخ مشكلة فلا تتخذ الأقوال الروحانية كلها دليلا إلا ماورد عن أرواح ثقة وساعده الدليل.

آراء علماء الإسلام فى النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب

وقد جاء فى صفحة ٢٨١ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية):

اعلم أن مناجاة الأرواح هى الصفة الخاصة لأئمة الإسلام لاسيما رجال الصوفية، وهذا شائع ذائع ولكن الناس يكذبون ما لايعلمون، وهاك ما قاله الإمام الغزالى فى كتابه [كيمياء السعادة]:

اعلم أنه مامن أحد إلا ويدخل فى قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحقّ على سبيل الإلهام، وذلك لايدخل من طرق الحواس بل يدخل فى القلب لايعرف من أين جاء، لأن القلب من عالم الملكوت والحواس مخلوقة لهذا العالم.

ثم قال: ولا تظنّ أن هذه الطاقة تفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة.

فإذا جلس فى مكان خال وعطل طريق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب فى مناسبة عالم الملكوت وقال دائما: الله الله بقلبه دون لسانه إلى أن يصير لاخبر معه من نفسه ولا من العالم ويبقى لايرى شيئا إلا الله انفتحت له تلك الطاقة وأبصر فى اليقظة الذى يبصره فى النوم فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة وانكشف له ملكوت السموات والأرض رأى ما لايمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها» وقال عزّ وجلّ «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض» إلى آخر ماهنالك فاقرأه إن شئت.

فانظر فى هذا القول الجامع إذ جعل الانكشاف فى النوم وفى الموت وفى صفاء النفس.

ولا جرم أن النوم قسمان: نوم طبيعى، ونوم صناعى، والصناعى هو الذى استعمله اليوم علماء أوروبا المسمى (التنويم المغناطيسى) الذى تقدّم فى هذا المقام كالغلام الصيرفى الذى يجادل فى الفلسفة والمنطق فى تلك

الحال

الحال ، وكالغلام الصانع جيمس الذى أتمّ رواية ديكنس بعد موته ، فهذان وغيرهما ممن يعدّون بالآلاف كشف لهم العلم فى نومهم الصناعى .

وهكذا نجد العلامة (أو ليفرلودج) أكبر علماء الإنجليز فى الطبيعة وهو معاصر لنا يقول : إنى حادثت الأموات وعرفت أن هناك أرواحا أعلى منا تهتمّ بنا وتحيط بنا من كل جانب ، فعرفت أن ماكان يقوله الأنبياء والقديسون من مساعدة للملائكة ومساعدة الله نفسه لنا هو كلام حقّ وليس مجازا ولا موارية ، ولكن هؤلاء عرفوا ذلك بصفاء نفوسهم .

أما أنا فلم أوفق لطريقهم ، وإنما طريق علمى لاغير ولكنه مؤدّ إلى ما أدّت إليه طريقهم من حيث النتيجة واليقين اه .

وههنا تبدى من جليسى هذا السؤال فقال : هذا بيان جميل جامع علوم الشرق والغرب فى هذه المسألة وأنت إذا لم تذكر كلام علماء الإسلام لم يهتم بما تنقله عن الفرنجة أم الإسلام ، فمن أجلّ الحكمة وأعجبها أن وفقك الله لجمع الرأى الشرقى والغربى فى مقام واحد مع الإيضاح ، ولكنى أريد أن تفصل القول بعض التفصيل فى طرق الصوفية فى الإسلام ، ثم بيان الكشف هل نهتمّ به ونجعل حياتنا وقفا عليه أم ماذا تكون السبيل ؟ فقلت له : أما طرق الصوفية فإنها واسعة النطاق لاحدّ لها :

الطرق لله بعدد أنفاس المخلوقات وكما اختلف النبات وتعدّد اختلفت الطرق لله وتعدّدت ، ويقولون إن الجوع والسهر والصمت والعزلة هى الأركان الأربعة لها .

وترى فى الإحياء للإمام الغزالى شرح طريقة الجوع ، وذلك أنهم يأمرون التلاميذ بإقلال الطعام تدريجا حتى يصل إلى أقصى حدّ فى القلة .

ومن أسهل تلك الطرق أن يتناول الإنسان الطعام فى مواعيد خاصة ثم يؤخر الميعاد كل يوم دقائق معلومة بحيث لايضرّ بصحته ولا يشعر بتعب وجوع ولا يزال يؤخر كل يوم ذلك الموعد حتى يأكل كل يوم مرة ثم يزيد إلى يومين ثم ثلاثة وهكذا إلى عشر ثم إلى ٢٠ ثم إلى ٤٠ وهناك يفتح له هذا الباب وذلك بشروط خاصة .

ثم إن هذه الطريقة وأمثالها مما لايحصى اعترضها قوم فقالوا آمنا أن العلوم تفتح أبوابها بهذا ولكن أكثر الناس لايقدرون عليها وإذا قدروا كان ذلك خطرا عليهم إذ لاعلم عند المريد يصون به فكره من الوساوس بل ربما جنّ ، ثم قالوا : وخير الآراء أن يتعلم المريد أوّلا ثم يهذب نفسه آخراً .

هذه هى ملخص آراء علماء الاسلام .

وأما قول صاحبى هل نهتمّ بالكشف ونجعل حياتنا وقفا عليه ؟ فجوابه أن المدار على تهذيب النفس تهذيبا على قدر الإمكان حتى نكون أمة وسطا فالتطرّف يضيع الأمم ، فلما سمع ذلك قال لم أفهم ماتريد ، فقلت يقول علماء الصوفية إن الكشف للمريد يحدثه الله له فى فترات لتثبت به عقيدته ، فأما إذا اطمأن المريد وعرف أن هذه المجاهدات لها ثمرات فإن دوام الكشف له يعوقه عن ارتقاء نفسه ، فما دام ناقصا تكشف له أحوال بعض إخوانه أو بعض الأمور المستقبلة ، فإذا كمل علم هو نفسه أن ذلك نقص ، فإذن يستعيذ بالله منه وينفر .

وخير الفتح والكشف إنما هو الكشف العلمى ومعرفة الحقائق التى يزيدها جلاء صفاء النفس ، فهذا هو الكشف المحمود .

فإذا سمعت أن رجلا صوفيا يخبر بما فى قلوب الناس أو أحوالهم أو مستقبلهم فاعلم أنه إن اغترّ بهذه الحال وفرح بها فإنها تصدّه عن العلوم والمعارف ويصبح شيطانا رجيما والناس يظنونه من الأولياء ، وما هو

يولى" إن هو إلا رجل اتجهت نفسه لأمر شهوانى لجمع الناس حوله ليفرح بهم ويأخذ مالهم ويشاركهم فى العرض الزائل ولا فرق بينه وبين أرباب الأموال وأرباب الجمال وأرباب الصيت والشهرة فى علم أو فن ، فكل هؤلاء لهم حظ دنيوى ناقص ويكون هؤلاء أشبه بالمنوّم ( بالفتح ) للمغناطيسى الذى يخبر بما لايعرف .

ولقد قرأت فى بعض كتب الإمام الشعرانى مامعناه أن الرجل السوقى أفضل من المجذوب الذى لاعمل له فإنه ينفع الناس .

وفيه أيضا أن الإنسان قد يكون من أولياء الله لاجتهاده ولكن الله يؤخر له كشف الحقائق إلى مابعد الموت اه .

هذا هو الذى فتح الله به فى هذا المقام ، وأنا قد أفضت الكلام فيه لدقته وعظم شأنه ولأنه هو الذى فتح الله به علىّ « وما أدرى مايفعل بى ولا بكم — وفوق كل ذى علم عليم » .

واعلم أن الأمم إذا اتجه أكابرها لفتح الحس" الباطنى اتجاها كليا انحدرت إلى الانحطاط كما فى أهل الهند وبعض أمم الإسلام المتأخرين ، وإنما السبيل التوسط فى الأمر فيكون الناس وسطا يهذبون نفوسهم ويقرءون العلوم ويأخذون من كل فن طرفا .

وهذه طريقة الإسلام كما تقدم عن الإمام الغزالى ، ولذلك سموا أمة وسطا فلا هم فى الشهوة وحدها مغمورون ، ولا فى الباطن وحده عاكفون ، وفى القرآن «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » .

هذا ذكرته لتعلم تفسير قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » اه صباح الأحد ٢ رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية .

## اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة

هذه اللطائف الأربع ذات علاقة ومناسبة للطيفة الثالثة ، ذلك أن هذه اللطيفة الثالثة قد شرح فيها كيف كان الإنسان محجوبا عن عالمه مغمورا فى حمأته تائها فى بيداء المادة الجرمانية وشهواته الجثمانية كما اتضح فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فانظر كيف أتبعها بالنهى عن الأعمال التى توجب أذى الجمهور وضياع الأمة وتمزقها وضرر المجموع .

ألا وإن النوع الإنسانى اليوم على هذه الأرض مغمور فى جهالته تائه فى بيدائها ظالم جهول ، فكما جهل نفسه فى اللطيفة قبلها جهل اتصاله بالمجموع فأصبح يتلمس فى الظلام السعادة ، وما هو والله ببعيد ، وأنت لو فتشت فى أهل الشرق والغرب لرأيت مسألة النوع الإنسانى واتصال بعضه ببعض واحتياج أهل الشرق إلى الغرب والعكس قد أصبحت واضحة ظاهرة .

فترى أهل الروسيا إذا قلّ القمح من بلادهم تهتاج لذلك أعصاب الإنجليز ، وقل نظير ذلك فى القطن والذرة والصلح والحرب والمرض وما أشبه ذلك .

فالأمم الأرضية اليوم متصلة اتصالا حقيقيا لا شك فيه ، كل ذلك معلوم ولكن القوى العاقلة فى النوع الإنسانى لم تبلغ منزلتها السامية ومقامها الرفيع فهم كالأطفال ، فترى كل أمة فى حاجة إلى أختها ثم هى تحاربها وتناوئها لتحصل على ما فى يدها .

هذا فى الأمم ومثلها الأفراد ، فكل أمة أفرادها محتاج بعضهم لبعض وبارتقاء المجموع يرتقى الفرد وبضدّها تتميز الأشياء ، ومع ذلك ترى الرجل يبحث على حتف أخيه ويودّ لو يصبح فقيرا سائلا أو مريضا .

كل ذلك للجهالة العمياء والضلالة الكنعاء ، وقد يقدر الرجل أن يصلح المجموع فيكسل أو يبخل ، وإنما كسله وبخله على نفسه لأن المجموع إذا سعد فقد سعد مثله ، وإذا شقى فقد شقى مثله ، وهكذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كل ذلك مضعف للمجموع ، والفرد عضو من هذا الهيكل الكبير وهو الأمم كما فى معنى الحديث الشريف «مثل المؤمنين فى تعاونهم وتعاضدهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

فإذا جهل الإنسان نفسه فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فهو يجهل المجموع وواجبه لتراكم الشهوات حتى أصبح الأفراد والأمم يجهلون أنهم لاحياة لهم إلا بالمجموع فيلعن بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، فالجهل فى المجموع كالجهل فى الأفراد .

وأما اللطيفة الخامسة : فإنها تابعة للتين قبلها وهى ثمرتهما ونتيجتهما إذ استبان فيما تقدّم فى الرابعة أن ترك معاونة المجموع ضرر كبير وجهل عظيم .

فالتعاون إذن يورث السيادة والسعادة فى الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قال هنا « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » لتفرّقكم وعدم اهتمامكم بمجموعكم « فآواكم وأيدكم بنصره » لما اجتمعتم .

وأما اللطيفة السادسة ، وهى « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول الخ » فهى كسوابقها النظر فيها للمجموع لا للأفراد يقصد بها التحابّ والتعاون وعدم الخيانة فيكون الناس كأعضاء أسرة واحدة .

وقد نزلت هذه الآية كما قال السدى فى جماعة كانوا يسمعون السرّ من النبىّ صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين .

وقال جابر بن عبد الله : إن أبا سفيان خرج من مكة فأخبر به جبريل النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبر النبىّ أصحابه وقال اخرجوا إليه واكتموا ، قال فكتب رجل من المنافقين إليه أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله عز وجلّ هذه الآية .

وأيضا نزلت فى أبى لبابة ، وذلك « أنه صلى الله عليه وسلم حاصر بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء بأرض الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل لنا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله فى أيديهم فبعثه إليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشدّ نفسه على سارية فى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك حلّ نفسك فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده ، فقال إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى، فقال عليه الصلاة والسلام يجزيك الثلث أن تصدّق به » .

وأما اللطيفة السابعة : فهى من نتائج السابقات إذ جعل الأموال والبنين فتنة بهما يشتغل الإنسان عن مجموع الأمّة وعلى قدر التهاون بالمجموع يبتعد الانسان عن الله عزّ وجل ويقلّ نصره فى الدنيا والآخرة ؛ فالمال والبنون فتنة وامتحان للمرء فى هذه الدنيا فيختبر المرء فإن جمع بين المال والولد ولم يشغلاه عن المجموع كان عبد الله حقا ، ومن طمست بصيرته فاكتفى بما لديه فإنه جهل المجموع ولم يعرف نظام الانسانية العامّة ولا الانسانية الدينية وكفى بالجهل بابا للعذاب فى جهنم وبئس القرار .

## (القِسْمُ الرَّابِعُ)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

### التفسير اللفظى

اعلم أن الله عزّ وجل لما ذكر نعمه على المؤمنين بقوّتهم بعد ضعفهم وبنصرهم بعد ذلهم وبأمنهم بعد خوفهم أعقبه بذكر ما أنعم به على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما اتفق له فى مكة ، وكان وقت نزول هذه الآيات بالمدينة .

ومحصل ما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات أن قريشا خافوا لما أسلم الأنصار أن يعظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع نفر من كفار قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمره فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ نجديّ فدخل معهم فقال أبو البخترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدّوا منافذه غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت ، فقال الشيخ النجدى : بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم ، فقال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ماصنع ، فقال بئس الرأى : يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم ، فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرّق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه ، فقال صدق هذا الفتى فتفرّقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله عنه فى مضجعه وخرج مع أبى بكر رضى الله عنه إلى الغار ، وذكر بعضهم أنه أخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا — إلى قوله — فأغشيناهم فهم لايبصرون » وبات المشركون

يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ليقتلوه فرأوه عليا ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ قال لا أدرى : فاقتفوا أثره وأرسلوا فى طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر ، فمكث فى الغار ثلاثا ثم خرج إلى المدينة .

قال القاضى رحمه الله : إن هذه القصة موافقة للقرآن ولكن حديث إبليس وظهوره بصورة إنسان باطل ولقد ردّ عليه العلامة الرازى ، أما أنا فأقول : إن العلم الحديث جعل مثل هذه الأمور جائزة ، فإن الأرواح الشريرة تظهر بأشكال شتى ولا مانع من ذلك ، وليس المقام مقام تحقيق فإنه ليس بمهمّ فى تفسير الآية .

وهذا هو قوله تعالى ( وإذ يمكر بك الذين كفروا ) أصل المكر الاحتيال فى خفية (ليثبتوك) ليحبسوك وهو رأى أبى البخترى (أويقتلوك) وهو رأى أبى جهل (أويخرجوك) طردا وهو رأى هشام بن عمرو كما تقدّم ( ويمكرون ويمكر الله) يعاملهم معاملة الماكرين بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا (والله خير الماكرين) أى مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا . ثم اعلم أن النضر بن الحارث من بنى عبد الدار كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم وأسفنديار وأحاديث العجم وكان يمرّ بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرءون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون ، فلما جاء مكة وجد النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أوحى إليه وهو يقرأ ويصلى فقال النضر بن الحارث (قد سمعنا) يعنى مثل هذا الذى جاء به محمد (لونشاء لقلنا مثل هذا) الخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك إنه كلام الله فقال ( اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ) أى عاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ( أو ائتنا بعذاب أليم ) نوع آخر من جنس العذاب الأليم وقد أجاب الله دعاءه فقتل صبرا يوم بدر .

والمقصود من هذا القول التهكم وإظهار اليقين على كونه باطلا .

وروى أيضا البخارى ومسلم عن أنس أن أبا جهل قال كما قال النضر فنزلت ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) الآية ، فلما أخرجوه نزلت ( وما لهم ألا يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام ) .

## إيضاح المقام

قالوا نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ، ثم لما خرج منها بقى بقية من المسلمين يستغفرون فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ) .

ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين ، أذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم .

وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ، قال الله « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » يعنى المسلمين ، فلما خرجوا قال الله «ومالهم ألا يعذبهم الله» وهذا هو قوله تعالى «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا » إلى قوله «وهم يستغفرون» ثم قال تعالى « ومالهم ألا يعذبهم الله » أى أىّ شئ يمنعهم من أن يعذبهم الله بالقتل والأسر بعد خروجك من بين أظهرهم « وهم يصدون عن المسجد الحرام » أى وحالهم ذلك ، ومن ذلك الصدّ إلجاؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية ( وما كانوا أولياءه ) مستحقين ولاية أمره مع شركهم ، وذلك ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء ( إن أولياؤه

إلا المتقون ) من الشرك ( ولكن أكثرهم لايعلمون ) أنه لاولاية لهم عليه ، وأما أقلهم فإنه يعلم أن دين الإسلام حق ولكنه يعاند ويكابر كبرياء وخيلاء .

وكيف يكونون ولاة البيت ( وماكان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ؟ ) أى صفيرا وتصفيقا . وكيف يكون الصفير بالفم والتصفيق باليدين صلاة ، وذلك لأنهم كانوا على دين الخليل عليه السلام وقد مضت الأحقاب تلو الأحقاب والقوم قد خلوا من الحكمة فانقلبت صلاتهم مدحاة للضحك والسخرية من صفير وتصفيق كما يفعل بعض جهلاء الصوفيـــة من ضرب على الدفوف ورفع الأصوات فى الطرقات وفى المساجد .

ولقد تفنن القوم فى هذه الجهالة العمياء ونسوا الصلاة الإسلامية والتوجه لذى الجلال والإكرام فيها والتوجه بالقلب لله فى العبادة شأن كل دين نام عنه حكماؤه وغاب عنه علماؤه وذهبت دولته وضاع مجده وتبدل شأنه وغابت شمسه وأقبل ظلامه وذهب ضياؤه ومضاؤه واستبدل بسعوده نحسا وبرفعته خفضا وبأوجه حضيضا وبشرفه ضعة ، ساء مثلا القوم الجاهلون .

قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، ويقال مكا الطائر يمكو : إذا صفر .

وقال حسان بن ثابت صلاتهم التصدّى والمكاء ، ولذلك عذبهم الله فقال ( فذوقوا العذاب ) أى القتل والأسر يوم بدر وعذاب الآخرة يوم القيامة ( بما كنتم تكفرون ) اعتقادا وعملا .

هذه هى عبادتهم البدنية وهى : المكاء والتصدية .

وأما عبادتهم المالية التى لاجدوى لها أيضا ، فذلك أنه لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكة مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا ففعل ذلك يوم أحد فقال الله فيهم ( إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ) أى كان غرضهم فى الإنفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ) ثم تكون عاقبة إنفاقها ندما وحسرة ( ثم يغلبون ) آخر الأمر وقد تمّ ذلك كله وهذا من دلائل النبوّة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر (والذين كفروا) أى الذين ثبتوا على الكفر منهم لأن بعضهم قد أسلم (إلى جهنم يحشرون) يساقون ، وإنما يحشرون (ليميز الله الخبيث من الطيب) الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين ( ويجعل الخبيث ) الفريق الخبيث ( بعضه على بعض فيركمه جميعا ) فيجمعه (فيجعله فى جهنم) أى الفريق الخبيث (أولئك) الإشارة للفريق الخبيث ( هم الخاسرون ) أنفسهم وأموالهم ( قل للذين كفروا ) أى أبى سفيان وأصحابه ( إن ينتهوا ) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول فى الإسلام ( يغفر لهم ما قد سلف ) لهم من العداوة ( وإن يعودوا ) لقتاله ( فقد مضت سنة الأوّلين ) بإهلاك أعداء الأنبياء فى الدنيا ونصر الأنبياء والأولياء .

وقد أجمع العلماء أن الإسلام يجب ماقبله ، وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شئ من قضاء العبادات البدنية والمالية ، وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه فليس عليه ذنب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) لايوجد فيهم مشرك ( ويكون الدين كله لله ) أى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره ( فإن انتهوا ) عن الشرك وإيذاء المؤمنين والصد عن سبيل الله ( فإن الله بما يعملون بصير ) فلا يخفى عليه شئ ( وإن تولوا ) يعنى

أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى القتال ( فاعلموا أن الله مولاكم ) وليكم وناصركم وحافظكم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم ( نعم المولى ) لايضيع من تولاه ( ونعم النصير ) لايغلب من نصره ، فمن كان فى حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير .

لطيفة فى قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » وفى بقية الآيات

اعلم أن هذا المقام مقام إظهار الحقائق وإبطال الأباطيل وأن الله ناصر الصادقين وخاذل المبطلين ولم يقصه علينا لمجرّد التلاوة ولا لمجرد القصص ولكن أنزله الله وقرئ على طول الأزمان ليكون ذلك عبرة لنا .

واعلم أيها الذكى أنى ما كتبت فى هذا التفسير حرفا ولا خططت بقلمى كلة إلا وفى قلبى استشعار النصر ورجاء الرحمة واعتقاد النعمة ، ألا وإن هذا زمان العلوم والعرفان وإن الله قد قلب الكرة الأرضية فجعلها أمما ودولا تجدّ فى العلم وتبحث فى هذه العوالم المحيطة بنا وإنى قد انبعث همى من إبان صغرى لتدوين الحقائق العلمية مع الآيات القرآنية وقد وجدتها فى نفسى كالفطرة وكالغريزة فلم أقدر على مكاوحتها ولم يمكنى دفعها .

وقد قال علماء النفس الإسلاميون والصوفية منهم : إن فكر الطاعة إذا كان ثابتا فى النفس هادئا دائما فإنه من الله ، وضدّه ما كان من الشيطان وفكرة الشر التى تحدث باستفزاز من الشيطان وفكرة الخير المستفزة للمرء الوقتية أيضا تكون من الملائكة .

ولقد وجدت نفسى تائقة لهذه المباحث عاكفة عليها ، وكم شد علىّ النكير قوم وكم أوذيت فى هذه السبيل ولكن النصر وجدته حليفى وإعانة الله كانت تكلؤنى والمشجعات القلبية والأخبار الواصلة من الآفاق وآلاء الله المترادفة وإعاناته المتتابعة وعرفانه المتوالى وإلهامه الصادق وولاءه الدائم .

كل ذلك قد حل فى نفسى محلا جعلها تثق بعون الله ، وبأن هذه الأمة الإسلامية ستتبوّأ مكانها اللائق بها وتحل محلها الرفيع ، ومقامها البديع ، ومجدها الباذخ ، وعزها الشامخ ، وسعادتها المستقبلة ، وأن الله سيغير أطوار هذه الأمة من الجهل إلى العلم ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن الذل إلى العز ، ومن الضعة إلى الشرف .

وسيظهر فى هذه الأمة حكماء صادقون وعلماء محققون ويكوّنون شرف الإنسانية وفخر الأمة المحمدية ويكون لهم القدح المعلى فى إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل ، وسيكون فيهم من يتتبع صنعة ربه وبدائعه وسيقرءون هذا التفسير وما ماثله من كتب علماء الإسلام فى بلاد الشرق .

وبهذه الصفة يقرءون الوجود وما حواه ونظام الكواكب وما والاه وعجائب النبات وما سقاه وبدائع الحيوان وما غذاه ، وغرائب الهواء فى مجراه ، وأنواع الماء فى مسراه ، وفى باطن الأرض ومنتهاه .

وهذا سرّ قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » . اللهم إنى وثقت بوعدك وقد وعدتنا فى القرآن . اللهم أتم النعمة على هذه الأمة التى استذلها الظالمون وحقرها الأوروبيون . اللهم أعزها وانصرها وعلمها وانشلها من الجهالة العمياء إلى نور العلم المبين . انتهى الكلام فى القسم الرابع .

## ( القِسْمُ الخَامِسُ )

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان
والله على كل شيء قدير * إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل
منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك
من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم * إذ يريكهم الله في
منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم
بذات الصدور * وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم
ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور * ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة
فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا
من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط * وإذ
زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما
تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني
أخاف الله والله شديد العقاب * إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء
دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم * ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا
الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم
وأن الله ليس بظلام للعبيد * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله
فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة
أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم * كدأب آل فرعون
والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون
وكل كانوا ظالمين * إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت
منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون * فإما تثقفنهم في الحرب فشرد
بهم من خلفهم لعلهم يذكرون * وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مقدمة لتفسير هذه الآيات

اعلم أن الغنيمة ما أخذ من مال الكفار على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه وركاب ، والفيء ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب .

وقد ذكر حكم الغنائم هنا ، وملخصه : أنها تقسم خمسة أقسام : أربعة منها للمقاتلين ، وواحد يقسم على خمسة أقسام : قسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خمس الخمس ، وقسم لأقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل ، وقد استحقوه لما روى « أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس فى بنى هاشم وبنى المطلب ، قال فقلت : يارسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد . وفى رواية : إنا وبنو المطلب لانفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه » وقسم لليتامى ، وقسم للمساكين ، وقسم لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله .

وأما الأخماس الأربعة الباقية : فيعطى للفارس منها ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفرسه ، ويعطى الراجل سهما واحدا .

وقال أبوحنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ، ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال وحكم العقار كحكم المنقول .

وعند أبى حنيفة يخير الإمام بين أن يجعل العقار مقسما بينهم وبين أن يجعله للمصالح العامة ، ومن قتل مشركا استحق سلبه . والسلب كل ما كان على المقتول من ملبوس وسلاح وهكذا الفرس الذى كان يركبه .

ثم إن خمس الخمس الذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر الذى لذوى القربى قد سقط بوفاته صلى الله عليه وسلم وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية عند أبى حنيفة .

وقال مالك : الأمر فى سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض إلى الإمام يصرفه إلى مايراه أهم .

وأما الفيء فذهب الشافعى فى أحد قوليه أنه لمصالح المسلمين ويعطى أولا للمقاتلة مايكفيهم ثم الأهم فالأهم من المصالح والأكثرون على هذا .

واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان له خمس الخمس فإنه كان يعطيه أحيانا لمن يراه أهلا .

روى عبادة بن الصامت قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير ، فقال : أيها الناس إنه لايحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم » أخرجه النسائى .

إذا عرفت هذا فما أسهل أن تعرف قوله تعالى ( واعلموا أنما غنمتم ) أى الذى أخذتموه من مال الكفار قهرا ( من شيء ) مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط ( فأن لله خمسه ) أى ثابت لله خمسه وإنما ذكر الله للتعظيم ، لأن الله له ملك السموات والأرض لاخمس الخمس المذكور فى الآية ( وللرسول

وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) ولقد تقدّم تفصيل القول فى هذا آنفا ، وأزيد عليه هنا أن سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم كان الشيخان أبو بكر وعمر يصرفانه إلى مصالح المسلمين عامة كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم ، وهناك أقوال غير هذه ضربنا عنها صفحا ، ثم قال ( إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ) محمد من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر الذى به فرقنا بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) المسلمون والكفار ، يقول الله « إن كنتم آمنتم الخ » فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية .

فالمقصود بالذات هنا العمل بالأمر لامجرّد العلم ( والله على كل شىء قدير ) فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة .

ثم إن الله قد أظهر فى هذه الغزوة من الحكم الباهرة مايؤيد النبوّة ويثبت قلوب المؤمنين :

[ الحكمة الأولى ] إن المؤمنين لما نزلوا بدرا كانوا بشفير الوادى الذى هو أقرب إلى المدينة . والشفير هو الشط وهو العدوة مثلث العين ، وكانت هذه العدوة رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء .

[ الثانية ] أن كفار مكة كانوا بالعدوة التى هى أبعد من المدينة وأقصى منها وفيها الماء ولا تسوخ فيها الأرجل .

[ الثالثة ] أن ركب أبى سفيان العير عنه بالعير كان فى مكان أسفل : أى عند شاطئ البحر ، فكان قريبا من كفار مكة يستظهرون بهم عند الحاجة ، والمسافة بين الركب وبدر ثلاثة أميال .

[ الرابعة ] أن المؤمنين لما خرجوا ليأخذوا العير خرج الكفار ليحموها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد ، فكيف تمكن المحاربة إذن بين عدوّين قوىّ مستعدّ وضعيف غير مستعدّ ؟ ولو أن الضعيف واعد القوى القتال ثم علم حقيقة الأمر لتخلف طبعا ، فكيف به وهو لم يواعده ؟

فهذه الحكم الأربعة هى الآتى ذكرها فى الآيات على الترتيب ، والحكمتان الأوليان فى حكم الواحدة فكأنهما ثلاث حكم ، وهذا قوله تعالى ( إذ أنتم بالعدوة الدنيا ) بدل من يوم الفرقان ( وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ) أى فى مكان أسفل منكم ، والجملة حال من الظرف قبله ( ولو تواعدتم ) أنتم وهم القتال ( لاختلفتم فى الميعاد ) هيبة منهم ويأسا من الظفر .

كل ذلك دلالة على أن هذا النصر إنما هو من الله وأنه من دلائل النبوّة وهو مما زاد المؤمنين إيمانا ( ولكن ) جمع بينكم على هذه الحال ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) حقيقا بأن يفعل وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، ثم علق بقوله « مفعولا » قوله ( ليهلك ) ليكفر ( من هلك عن بينة ) من كفر بعد حجة قامت عليه ( ويحيا من حىّ عن بينة ) ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، فالهلاك هو الكفر والحياة هى الإيمان ، أو ليضلّ من ضلّ على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة ، أو يموت من يموت على بينة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة ، فإن وقعة بدر من الآيات العجيبة الواضحة (وإن الله لسميع) لأقوالهم ( عليم ) بكفر من كفر وعقابه ، وبإيمان من آمن وثوابه .

وهنا أخذ يذكر حكمة أخرى ، فقال تعالى ( إذ يريكهم الله فى منامك ) إلى قوله ( وإلى الله ترجع الأمور ) وحاصله أن الله سبحانه وتعالى أرى النبى صلى الله عليه وسلم المشركين قليلا فأخبر أصحابه بذلك فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوّهم ، ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم رآهم كثيرا فى المنام لفشل أصحابه : أى جبنوا عن القتال وتنازعوا فى أمر القتال وتردّدوا ( ولكنّ الله سلم) أى عصم المسلمين من التنازع والمخالفة فيما بينهم وسلمهم من الهزيمة ، ثم إنه لما التقى الجمعان أرى الله المسلمين أعداءهم قليلا فى أعينهم حتى قال ابن مسعود

رضى الله عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين ، فقال أراهم مائة ، وذلك ليثبت الله قلوبهم وليصدقوا رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم .

وكما قلل الكافرين فى أعين المسلمين قلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال أبو جهل إن محمدا وأصحابه أكلة جزور فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال استقلالا لهم واستصغارا لشأنهم لقلتهم فى عينه ، ثم قال سبحانه (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى أمرا كائنا ، وهو إعلاء كلمة الله ونصر أوليائه وإذلال المشركين ، وتكرير هذه الجملة لسببين مختلفين : فهناك القضاء المبرم باستيلاء المسلمين وغلبتهم على الكافرين مع اختلاف القوى وتباعد الأحوال ، وهنا القضاء بتقليل الكثير فى الأعين ليكون ذلك باعثا على القتال ، فهما قضاءآن بأمرين مختلفين : أحدهما سبب والآخر مسبب .

لطيفـــة

إن قصة بدر قد فصلت تفصيلا فى مواضع مختلفة بحيث حللت تحليلا مفصلا ولكل جزء منها حكمة .

ألا ترى أن الله ذكر فى أول السورة :

(١) النعاس الذى اعتراهم . (٢) ونزول الماء عليهم .

(٣) وتطهيرهم به . (٤) وزوال رجز الشيطان عنهم .

(٥) وتثبيت قلوبهم .

وهناك سادس وهو إلهام الملائكة لهم بالتبشير ، وبعضهم شاهدهم .

وههنا زاد كونهم بالعدوة الدنيا وهو السابع .

وكون العدوّ بالعدوة القصوى وهو الثامن .

وكون الركب جهة ساحل البحر وهو التاسع .

وكونهم حاربوا على غير استعداد وهو العاشر .

وكون النبى صلى الله عليه وسلم رآهم فى منامه قليلا وهو الحادى عشر .

وكون المسلمين رأوهم لما التقوا قليلا وهو الثانى عشر .

وكون الكفار رأوا المسلمين فى أعينهم قليلا وهو الثالث عشر .

وجاء فى سورة آل عمران أن الله كثّر المؤمنين فى أعين المشركين : أى بعد احتدام وطيس الحرب ، كما قال « يرونهم مثليهم رأى العين » فصار المؤمنون الذين هم ثلث المشركين تقريبا فى أعين المشركين مثلى عدد المشركين ، وهذا هو الرابع عشر .

فانظر أيها الذكى كيف ذكر القرآن (١٤) مسألة فى غزوة بدر بحيث لم يذر نعاسا يغشاهم ولا مطرا يسقيهم ولا خاطرا فى نفوسهم ولا رؤيا فى منام نبينا صلى الله عليه وسلم ولا رؤية أعينهم ولا منزلهم الذى ينزلون فيه ولا ترابا يمشون عليه إلا ذكره وأظهر حكمته .

أليس هذا من العجب ؟! أليس هذا التحليل يدلنا أن نفكر فيما يحصل لنا من العجائب فى حياتنا الدنيا وأن نفكر فيما ينزل بنا من خير أو شرّ ثم نعرف حكمة الله فيه .

إن أحوالنا كلها سلسلة متصلة شرّ وخير ، ومرض وصحة وآراء تعرض لنا ، فعليك أيها العاقل أن تفكر فى كل مايصيبك وما تناله وأن تحللها كما حلل الله غزوة بدر وتلتمس لكل حال حكمة وتسأل الله أن يعلمك حكمة ماحصل لك ، فإن هذا يفتح بصائرنا ، وينوّر قرائحنا ، ويشرح صدورنا ، ويدلنا على عيوبنا ويبصرنا بذنوبنا ويرشدنا إلى طرق الصواب ؛ ولربّ حادثة واحدة فى حياتنا مزعجة تنير بصائرنا إذا تأملناها .

وتفكر

وتفكر أيها العاقل فيما مرّ عليك فستجد من حكم الله فيها ومن العجائب مالا يشاركك فيها سواك ، فلكل امرئ تاريخ لحياته مستقل عن سواه ، وإياك أن تستهزئ بتاريخ حياتك ؛ فلتعلم أنه مملوء من العجائب متى فكرت فيه ، كما أن الزهرة الواحدة تحمل كنزاً من العلم للمتفكرين ولا يعرف لها معنى من لايعقلون .

وانظر إلى أحوالك وكيف تجد نفسك يوما قد أحببت إنسانا حتى عشقته ووثقت بامرئ حتى جعلته قائما بشئونك كلها ثم ترى بعد حين أن هذا المحبوب المعشوق ليس أهلا للمحبة ولا للعشق ، وأن هذا الموثوق به ليس أهلا للثقة فتنقلب الحال وتتبدّل العواطف والأخلاق ويصبح المحبوب مكروها والأمين خائنا حقا أو باطلا ، وهكذا كل ماحولنا وما نسمعه من القول والسير وما نشاهده من الأمور والصناعات .

فترى زيدا تزين له صناعة الحدادة ، فأما عمرو فإنه يزدريها ، وهكذا نرى جميع أحوالنا ، كذلك الأغذية والملابس والمساكن ، ولذلك ترى الناس لايزالون يتقلبون وينتقلون من حال إلى حال ويخترعون .

وبهذه الآيات أظهر الله أنه غالب على أمره لافرق بين الصالحين والطالحين والأنبياء والمرسلين .

فهاهو ذا سبحانه أرى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أن القوم قليل ثم أراهم للمؤمنين كذلك نهارا فظنوا أن الألف مائة أو أقلّ ، ورأى أهل مكة أن المؤمنين لايسع أن يقاتلوا بل يربطون بالحبال ، وبعد أن دارت المعركة رأوا أن عدد نحو ثلثمائة يبلغ ألفين فانهزموا .

كل ذلك ليتمّ أمره وينفذ حكمه في خلقه ونحن نشاهد ذلك في أحوالنا ، فترى زيدا يؤثر بقوله فينا وهو كاذب فأصبح القليل كثيرا في أعيننا ثم نعمل به ويسمعه آخر منا ، فيقول هذا كاذب في دعواه فيرى كثير ادّعائه كاذبا فيحجم عن آرائه ، وكل هذا كالتطبيق على قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .

ألا ترى أنه حال بين المشركين وبين قلوبهم لما أراهم للمؤمنين قليلا جدّا ، وبين المسلمين وقلوبهم حين أراهم المشركين مائة ، وبين المشركين وقلوبهم لما رأوا المسلمين ضعفيهم فنفذ أمره بهذه الآراء التي أحدثها في النفوس .

هكذا حال بين زيد وقلبه حينما صدّق عمرا لما كثّر القليل وخدعه وغشه في معاملته ، وإنما فعل الله ذلك بزيد ليهذبه ويبصره بالعواقب ، فإن لم يتبصر بذلك توالت خطيئاته في أعماله .

بل الحياة الدنيا كلها وشهواتها ولذاتها وأموالها وجنودها وجيوشها وممالكها وحب الإقامة فيها من باب تكثير القليل إذ نراها أضعاف ماهي عليه من المنفعة وبعد حين نعرف حقيقتها ، ويرى الزهاد أن عظيمها حقير وكبيرها صغير .

كل هذا لتكثير القليل وتقليل الكثير « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ويظهر أن هذه الحياة كمسرح التمثيل وحواسنا وشهواتها تكبر لنا صورها والحقيقة مختفية وراء هذه الصور المزوّقة ، والنتيجة من هذه الصور والأشكال والحيرة وخداع الأعين والأبصار وتوالى الغفلات علينا وتزيين الشهوات لنا والحيلولة بيننا وبين قلوبنا .

كل ذلك لنتبصر ونتذكر أمر هذه الحياة وتتنوّر بصائرنا وترتقي عقولنا ونعرف أن الحياة الدنيا لعب ولهو ونستنبط الحكمة والعلم من هذه الأشكال كما تستنبط أجسامنا من المواد الغذائية حاجتها وترمى باقيها خارج الجسم ؛ فلئن تعاطينا الماء والهواء والخبز وحرارة الشمس فإن أجسامنا تعمل فيها أعمالا كيمائية عجيبة وتصطفى من ذلك مادّة الغذاء الصافية وتوزعها على جميع أعضاء الجسم وترمى بالباقي من الماء والهواء خارجه وإن زادت الحرارة فينا تداوينا منها .

هكذا هذه الصور والأشكال المحيطة بنا يجب أن تدرك العقول حقائق المقصود منها ولا تعبأ بها ؛ فالموت والحياة والغنى والفقر والصحة والمرض والمحبة والكراهة والعز والضعة ، كل هذه صور تمثل فينا ونحن المطالبون لما لتعرف حقائقها وتهذبنا بوقائعها وندوّنها فى نفوسنا ونرتفع بها إلى الملأ الأعلى حتى إذا فارقنا هذه الدار كانت لنا سلاحا وجناحا نطير به فى الملا ولا نبقى مع الجاهلين الذين يتسكعون فى الطريق إلى الله بعد الموت .

والتأمل فى أحوالنا نجد أننا أشبه بالمنوّمين تنوعا مغناطيسيا ، فقد رأينا أن المنوّم ( بالكسر ) يعطى المنوّم حنظلا ويقول هو سكر فيستلذه ، ويعطيه سكرا فيقول هو حنظل فيتأذى منه ، وهكذا يجعله يتكيف بما يقوله ويظن نفسه كما يوحى إليه المنوّم .

هكذا نجد أحوال الناس فى الدنيا ، فترى نفوسنا تتقلب تقلبا كثيرا كما تقدم فى الحديث « إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وهو متردّد أبدا بين المتضادّات والمتناقضات وكأننا فى هذه الحياة نيام ، فإذا انحلت أربطتنا من هذا الجسد صعدنا إلى عالم أعلى وتيقظنا من غفلتنا ويقال لنا إن بصرنا حديد .

ومما يعترى أنفسنا ما يكثر القليل ويقلل الكثير كما فى غزوة بدر ، فتقليل الكثير هناك نظيره عند الناس قاطبة المنظار المقرّب فقد قلل المسافة بيننا وبين المنظور ، وهكذا نظير تكثير القليل المنظار المعظم فإنه يرينا الصغير كبيرا ، وهذا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » انتهى .

ثم أخذ سبحانه وتعالى يعظ المؤمنين فأمرهم أوّلا أن يثبتوا فى الحرب ولا ينهزموا ويلاقوا الأعداء بقلوب واثقة بالنصر ووعد الله والدار الآخرة .

وثانيا أن يذكروا الله فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين على عدوّهم « اللهم اخذلهم » وذلك يكون سبب الفلاح والظفر والنصر والثواب فينبغى للعبد ألا يشغله شئ عن ذكر الله وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى سائر الأحوال .

وثالثا أن يطيعوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه على كل حال .

ورابعا أن لا يتنازعوا باختلاف الآراء كما اختلفوا ببدر ، فإن ذلك يورث الفشل والجبن والضعف ويذهب ريحهم ، أى قوّتهم ونصرتهم .

وخامسا أن يصبروا عند لقاء العدوّ فى كل حال ، فإن الله ينصر الصابرين ويعينهم .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وروى الشيخان أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تتمنوا لقاء العدوّ فإذا لقيتموهم فاصبروا » .

وسادسا : نهاهم أن يكونوا كأهل مكة الذين خرجوا من ديارهم أى من مكة (بطرا) فخرا وأشرا (ورئاء الناس) ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة .

وذلك

وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعو فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات ونطعم بها من حضرنا من العرب ويسمع بنا الناس فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا فوافوها ، ولكن ماذا شربوا ؟ شربوا كأس المنون وذاقوا العذاب الهون وبكت عليهم الباكيات ورملت نساؤهم ويتمت أطفالهم ( ويصدون عن سبيل الله ) أي ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله ، فنهى الله عباده أن لايكون عملهم الرياء ، ولا لالتماس ماعند الناس ، وأمرهم الله أن يخلصوا لله النية وأن يكون قتالهم حسبة في نصر دينهم ومؤازرة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأن لايعملوا إلا لذلك ولا يطلبوا غيره ( والله بما يعملون محيط ) .

وهذا وعيد وتهديد ، يعني أنه تعالى عالم بجميع أعمال العباد ، فيجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته ، وهذا هو قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا ) إلى قوله ( والله بما يعملون محيط ) .

ثم أخذ سبحانه في إتمام الكلام على المشركين وكيف قلبت الحقائق عندهم وحيل بينهم وبين قلوبهم فقال ( وإذ زين لهم الشيطان ) أي واذكر ( أعمالهم ) في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالوسوسة ( وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ) وذلك بما يوسوس في نفوسهم فيرون الفخر والعز والشرف وبعد الصيت والسمعة فيما تخيلوه من أنهم يغلبون المؤمنين وأنهم لايطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأن ذلك كله قربي إلى الله والله مجير من ينصره ( فلما تراءت الفئتان ) أي تلاقى الفريقان ( نكص على عقبيه ) رجع القهقرى أي بطل كيده وأصبح ماتخيلوه فخرا وشرفا سبب الهلاك والضعة والذلة ( وقال إني بريء منكم إني أرى مالاترون إني أخاف الله ) أي تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المؤمنين بالملائكة ، وهذا المعنى قاله الحسن واختاره ابن بحر ، وقيل إن الآية على ظاهرها .

وذلك أن قريشا لما أجمعت على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة ، وكان ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك الكناني وقال : لاغالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص ، وكانت يده في يد الحارث بن هشام ، فقال له إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال «إني أرى ما لاترون» ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا ، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال : والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان فيكون على هذا قوله « إني أخاف الله » إني أخافه إذ يصيبني بمكروه من الملائكة أو نحو ذلك ( والله شديد العقاب ) لمن كفر وطغى ؛ واذكر ( إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ) أي الذين هم مؤمنون ولكن بقيت عندهم شبهة (غرّ هؤلاء) للمؤمنين (دينهم) فتعرضوا للهلاك وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا يقاتلون نحو ألف ، فأجاب الله قائلا ( ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز) لايذل من استجار به ، غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي كما سلط البعوض على الفيل فلا يقدر على التخلص منه ، وكما يسلط الذرات السامة مكروبا على الإنسان والحيوان (حكيم) يفعل بحكمته البالغة في هذا العالم ماتستبعده العقول ، ويعجز عن إدراكه أولو الألباب ، ويجعل من الفحم الحجري الذي كان من أمد قديم في باطن الأرض نارا ونورا وأنواعا من الأصباغ والألوان والعجائب مع أن منظره ليس فيه إلا أنه فحم أسود اللون لاشية فيه .

وهكذا يفعل بحكمته العجب العجاب ، قال تعالى ( ولو ترى ) ولو عاينت وشاهدت فإن لو تجعل المضارع ماضيا ، وإن عكسها ( إذ ) ظرف لترى (يتوفى الذين كفروا الملائكة) ببدر : أي ولو رأيت الكفرة حين يتوفاهم الملائكة : أي يقبضون أرواحهم ببدر حال كونهم ( يضربون وجوههم ) إذا أقبلوا ( وأدبارهم ) أي

ظهورهم إذا أدبروا (و) يقولون ( ذوقوا عذاب الحريق) أى ذوقوا مقدمة عذاب النار ، وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا .

ذلك الضرب والعذاب ( بما قدّمت أيديكم ) بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصى وهو خبر ذلك ، ثم عطف على لفظ ما قوله ( وأن الله ليس بظلام للعبيد ) أى بذى ظلم .

يقول : ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبأن الله ليس بظلام للعبيد لأن تعذيب الكفار من العدل ، والمراد باليد هنا القدرة ، ثم قال (كدأب آل فرعون ) أى دأب هؤلاء وعادتهم كدأب آل فرعون وعادتهم وطريقهم ( والذين من قبلهم ) من قبل آل فرعون ثم بين دأبهم فقال ( كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ) كما أخذ هؤلاء (إن الله قوىّ شديد العقاب) لايغلبه فى دفعه شئ (ذلك) أى ما حلّ بهم ( بأن الله ) بسبب أن الله ( لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يبدّلوا ما بهم من حال إلى حال أسوأ .

وذلك أن الله أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث لهم رسولا من أنفسهم فقابلوا هذه النعم بالكفران فلم يشكروها وكذبوا رسوله وقطعوا الرحم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله النعمة وأخذهم بالعقاب .

قال السدى : نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الأنصار (وأن الله سميع) لما يقول مكذبو الرسل (عليم) بما يعملون فيجازيهم بما عملوا (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد يعنى أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون ( والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ) فبعضهم أهلكناه بالرجفة ، وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالريح ، وبعضهم بالمسخ ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ( وأغرقنا آل فرعون وكلّ كانوا ظالمين ) يعنى الأوّلين والآخرين .

واعلم أن هذه الآية كما كررت للتأكيد كانت لبيان أن آل فرعون أهلكوا بالإغراق وأنهم جحدوا نعم التربية ، وأهمّ من ذلك كله حكمة عالية وآية عجيبة .

ذلك أن هذه السورة مدنية ولقد نزلت سور كثيرة من القرآن فى مكة ، وجميع السور المكية فيها إهلاك الأمم بالكفر .

ولقد ذكرت قصص الأمم وأخبارها كثيرا فى سوّر مختلفة بحيث أصبح ذلك مألوفا معروفا لقراء القرآن وفى تلك السور كلها إشارات وتصريحات أن المكذبين للنبى صلى الله عليه وسلم سيكونون مثل الأمم السابقة يصيبهم ما أصابهم .

ألا ترى إلى قوله تعالى « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم » وإلى قوله « وكأين من قرية هى أشدّ قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » وقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » إلى قوله « وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصبّ عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .

وهكذا كانت السور المكية مشحونة بهذا الإنذار والتخويف ، وهو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لاجيش له ولا حماية ولا قوة ولا سلاح ، ولا يظنّ أنه يكون كذلك ممن كانوا حوله ؛ فلما هاجر إلى المدينة ونصر فى غزوة بدر وهزم أهل مكة ذكرهم الله فقال « كدأب آل فرعون » وكررها منبها على حصول ما كانوا ينذرون به ، وهذا هو السبب فى تكرارها تنبيها على المعجزة .

ولعمرى

ولعمرى إن هذه هى المعجزة حقا ، وكيف لاتكون من أهمّ المعجزات وقد حصل المنذر به وأهلكوا كما كانوا ينذرون اهـ .

ثم قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » أصروا على الكفر ( فهم لا يؤمنون ) فلا يتوقع منهم إيمان ( الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ) بدل من الذين كفروا بدل البعض تبيينا وتخصيصا .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد يهود بنى قريظة ألا يحاربوا ولا يعاونوا عليه أحدا فنقضوا العهد وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمراد بالمرة مرة المعاهدة والمحاربة ( وهم لايتقون ) أى لايخافون الله فى نقض العهد ولا سبة الغدر ومغبته ، ومن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ( فإما تثقفنهم ) تصادفنهم وتظفرنّ بهم ( فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ) .

قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم . وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم .

والتشريد تفريق على اضطراب ( لعلهم يذكرون ) أى لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد ( وإما تخافنّ من قوم ) معاهدين ( خيانة ) نقض عهد بأمارات تلوح لك ( فانبذ إليهم ) فاطرح إليهم عهدهم ( على سواء ) يعنى على طريق ظاهر مستو : يعنى أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أوّلا بنصب الحرب معهم ، وهذا إذا ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح من غير استفاضة كما يفهمه لفظ تخافنّ ، فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم الحرب ، وذلك كما اتفق لبنى قريظة إذ عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه فظاهروهم على النبى صلى الله عليه وسلم فخاف النبى صلى الله عليه وسلم الغدر به وبأصحابه ؛ وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرّ الظهران ، وذلك على أربع فراسخ من مكة ، وقد علل سبحانه الأمر بنبذ العهد وإعلام الأمر وإظهاره قبل الحرب لما أنه لم يكن مستفيضا بقوله ( إن الله لايحب الخائنين ) الذين يحاربون قبل أن ينبذوا العهد حينما تظهر أمارات نقض العهد ( ولا تحسبن ) يامحمد ( الذين كفروا سبقوا ) الذين كفروا مفعول أول وجملة سبقوا مفعول ثان أى ولاتحسبن يامحمد الذين كفروا فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم .

وفى قراءة « ولا يحسبن - من خلفهم - الذين كفروا سبقوا » والمفعولان كما هما ( إنهم لايعجزون ) أى إنهم لايعجزون الله فلا ينتقم منهم ، وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم ، فأعلمه الله أنهم لايعجزونه ، قال تعالى ( وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ) الإعداد : اتخاذ الشىء لوقت الحاجة إليه .

والقوة قال العلماء إنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التى تكون قوة فى الحرب على قوة الأعداء والحصون والمعاقل والرمى ، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا إن القوة الرمى » أخرجه مسلم .

والقصد أنه من جملة المأمور به وسيأتى تفسير هذا المقام قريبا .

قال تعالى (ومن رباط الخيل) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، فهى فعال بمعنى مفعول وهو معطوف على قوة كما عطف جبريل وميكال على الملائكة ( ترهبون به ) أى تخوّفون بما استطعتم ( عدوّ الله وعدوكم ) يعنى كفار مكة ( وآخرين من دونهم ) من غيرهم كاليهود والمنافقين والفرس والروم والأمم الأوربية الحالية الذين لايخافون إلا إذا تأهب الناس لحربهم وقاموا لمقاطعتهم وهبوا لمناجزتهم (لاتعلمونهم) لاتعرفونهم بأعيانهم ، وإنما هم أمم من الكفار تقابل وتعادى أمما من المسلمين على توالى الأزمان فكل يعلم من يعاديه ولايعرف سواه والله يعلم الجميع لأنه يحيط علما بمخلوقاته وهو قوله (الله يعلمهم) ثم حرّض على الإنفاق فى الحرب لعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل الذى لايتمّ إلا ببذل المال فقال ( وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوفّ إليكم ) ثوابه ( وأنتم لا تظلمون ) لاتنقصون من ثواب أعمالكم شيئا .

لما ذكر الله المعاهدة ونبذها وأنه يجب إعلان الحرب إذا كانت هناك أمارات لنقض العهد ، وكذلك إعداد العدة والكراع والسلاح إذ يقول : إن هذه العدة لايقصد منها أن يكون المسلمون دائما مهاجمين محاربين ، وإنما الاستعداد لقصد الإرهاب فيهابونكم ، وهذا الإرهاب هو الذى يجعل الناس تحترم دولتكم وتخشى جانبكم فيرغبون فى صلحكم والسلم معكم ، ولا سعادة فى الدنيا بغير السلم مع الاحتراس وإعداد العدّة ، ولذلك أعقبه بقوله ( وإن جنحوا للسلم ) مالوا الصلح والاستسلام ( فاجنح لها ) وعاهدهم ( وتوكل على الله ) فوّض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك ، ولا تخف من إبطانهم خداعا فيه فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم (إنه هو السميع) لأقوالهم (العليم) بنياتهم (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) كافيك . قال جرير :

إنى وجدت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خزّ الثياب وتشبعوا

( هو الذى أيدك بنصره ) قوّاك بأسباب النصر الباطنة ( وبالمؤمنين ) وهم الأسباب الظاهرة ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم ) ومنهم الأوس والخزرج فقد ألف الله بين قلوبهم بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة .

ومعلوم أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنفة والعصبية القوية و الضغينة والعداوة الموروثة عن الآباء والأجداد ، ولا تزال هذه الأمور مشاهدة فى أبناء العرب قومنا بمصر والشام وبلاد المغرب والعراق لم تفارقهم ، فهم ينقادون لحمية الجاهلية ، وكلما كانوا أقرب إلى البداوة كعرب مصر كانوا أغرق فى هذه الحال .

فانظر كيف ألف الله بينهم لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحوا إخوانا وهذه معجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن اجتماع قلوبهم أمر لايعهد له نظير مع هذه العداوة والحمية ولذلك قال تعالى ( لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ) جمع بين قلوبهم وكلمتهم بالإسلام ( إنه عزيز ) يقهر من يخدعونك ( حكيم ) ينصر من يتبعونك .

وياليت شعرى أليس هذا هو النبى العربىّ ؟ أليس هو جدنا وعم أقاربنا ودينه بين ظهرانينا ؟ وكيف ألف الله بين قلوب العرب فى الجاهلية ولم يؤلف بين أبنائهم فى الإسلام ؟

ياليت شعرى مالى أرى أبناء العرب فى بلاد مراكش وفى الجزائر وتونس وطرابلس والشام والعراق والحجاز لايكادون يعرفون أنهم أبناء أولئك الأمجاد الكرام .

ياعجبا كيف يتقوى رجال أسبانيا بالعرب على العرب فى مراكش ؟ وكيف تقوى أهل فرنسا على العرب بالعرب فى مراكش والجزائر ؟ كيف وكيف ؟ كيف أصبح أبناء العرب أشتاتا حتى أذلتهم أوروبا ؟ أليس ديننا هو ديننا ؟ أليس القرآن هو القرآن ؟ أليس هؤلاء أبناء أولئك ؟.

أقول نعم ، إنهم أبناؤهم ولكن لم يظهر فى الأمة من يجمع الكلمة ، فلكل قائد رغبة فى الرياسة على قومه وأكثرهم يأخذ النقود من الفرنجة ويحاربون إخوانهم وذلك لشدة جهالتهم وقلة تربيتهم ، وأنه لم يظهر فى الإسلام مصلح عام الإصلاح يقوم خليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل هم جميعا يتحاربون ويتعادون على حطام الدنيا القليل دلالة على أن العقول ضعيفة والنفوس ذليلة .

أو ماعلموا أن اتحادهم يكسبهم عزة وقوة ومنعة ؟ أوماعلموا أن أمم أوروبا مع اختلاف لغاتهم وأجناسهم يتحالفون ويتحدون ويأتلفون على ابتلاع المسلمين ، وأبناء العرب نائمون ؟

ياعجبا كل العجب تتحد الذئاب على اقتناص الشياه ، ولا تتحد الشياه على الفرار على الأقل فضلا عن أنها تستأسد وتصدّ العدو المغير والآساد المفترسة .

ولئن رأينا آباءنا فى الصدر الأول قد تعادوا واقتتلوا ليكون الاجتهاد هو الذى أداهم إلى ذلك وكان لهم ملك عظيم يخافون أن يضيع ، فلما تعادوا لم يضع ملكهم ولو رأوه آيلا للزوال بالتقاتل لم يتعادوا كما قال معاوية رضى الله عنه فى خطابه لملك الروم لما طلب منه الجزية [ لئن لم تكف عن طلبك الجزية لأصالحنّ صاحبى ( يعنى عليا ) وأكون أوّل جندى يحاربك بأمره ] فكفّ ملك الروم عنه .

أما أبناء العرب الآن فإنهم ساهون لاهون جاهلون يتقاتلون ليستعبدهم الفرنجة وهم فى غيهم يعمهون .

فهذا دليل على أن الله لم يؤلف بين قلوبهم ، وهذا دلالة على أن دين الإسلام عندهم ليس فى المنزلة التى كانت له عند أسلافهم .

هذا تحقيق المقام فلينظر أبناء العرب إخوانى فى أنفسهم وليتفكروا ولينظروا لهم مخرجا ، فإما حياة سعيدة واتحاد إيمانى ؛ وإما أن يصبحوا عبيدا للفرنجة خاضعين .

ثم قال الله تعالى (ياأيها النبى حسبك الله) كافيك(ومن اتبعك من المؤمنين)فى محل نصب مفعول معه. قال الشاعر

إذا كانت الهيجاء واشتجر القنا فحسبك والضحاك سيف مهند

والمراد بالمؤمنين المهاجرون والأنصار فيدخل فيها عمر وغيره فلا لزوم لتخصيصها به وهى مدنية .

وقوله ( ياأيها النبى حرّض المؤمنين على القتال ) بالغ فى حثهم عليه . وقرئ « حرص » من الحرص ( إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ) .

وفى قراءة « وإن تكن منكم مائة صابرة » ( بأنهم قوم لايفقهون ) بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته .

روى البخارى عن ابن عباس قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » كتب عليهم أن لايفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت « الآن خفف الله عنكم الآية . فكتب أن لايفر مائة من مائتين ، وفى رواية أخرى عنه قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » شق ذلك على المسلمين فنزلت « الآن خفف الله عنكم » الآية ، فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم ، وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قبلها وهى قوله تعالى ( الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ) بالنصر والمعونة . ويقال إن قتال الواحد العشرة كان فى يوم بدر فثقل ذلك وعلم الله أن فيهم ضعفا فى قتال الواحد العشرة ، قال العلامة الرازى ما ملخصه :

واعلم أن جمهور العلماء ادّعوا أن قوله « الآن خفف الله عنكم » ناسخ للآية المتقدمة .

وأنكر أبومسلم الأصفهانى هذا النسخ وبينه بأن وجوب مقاومة العشرين للمائتين مشروط بأن يكونوا قادرين على الصبر فى مقابلة المائتين وقوله « الآن خفف الله عنكم الخ » يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل فى حق هؤلاء فصار الحكم دائرا مع وجود الشرط وجودا وعدما ، وصير المعنى إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم وإذن فلا نسخ ، وليس ذكر التخفيف يدل على حصول التثقيل قبله لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا وفى القرآن « يريد الله أن يخفف عنكم » وذلك عند الرخصة للحر فى نكاح الأمة وليس هناك نسخ . انتهى ملخصا مختصرا .

وعلق عليه العلامة الرازى فقال : إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبى مسلم على حصول هذا النسخ فلا كلام عليه ، فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول قول أبى مسلم صحيح حسن اه من الرازى .

## عجائب القرآن فى هذا العصر

إنى وايم الله لفى عجب من هذه الحكم العجيبة ، وآيات الله الحكيمة ، فبينما أنا أفسر فى أوّل هذه السورة إذ وردت الأخبار فى الجرائد يوم الثلاثاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ مايفيد أن العشرين يغلبون مائتين وأن المائة يغلبون ألفا فى حرب المسلمين بمراكش مع الأسبانيين ، فعجبت كل العجب وأيقنت بهذا وبتكرار أمثاله فى الآيات السابقة أن هذا التفسير ملحوظ بالعناية الإلهية والمساعدة الربانية ، فقد وردت الأخبار أن القبائل الجبلية بمراكش انضموا إلى جماعة المحاربين بالريف القائمين بمحاربة الأسبان ليتخلصوا من استبدادهم وأن رجال القبائل تنبهوا الآن وكثير منهم قتلوا رؤساءهم الذين أضراهم الأسبانيون بالمال : أى أنهم يريدون الرجوع إلى العصر الأوّل عصر الاتحاد بالدين ، وأن هناك معركة فى ( وادى توه ) هجم فيها الأسبانيون بثلاثين ألف جندى على رجال عبد الكريم فنشبت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية وفقد الأسبانيون فيها ثلاثة آلاف جندى بين قتيل وجريح ثم ارتدّوا على أعقابهم خاسرين ، وكانت قوّات الأمير الريفى ثلاثة آلاف مقاتل وهؤلاء هم الذين قتلوا قائدهم المسمى سعد بن مرزوق الذى أسبغ عليه الأسبان نعمهم ليحارب المسلمين ( انظر الأهرام المؤرخ ١٢ أغسطس المذكور ) .

ثم أقول : ها أناذا الآن فى ليلة الأربعاء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ أحضر التفسير للطبع وأقرر أن الأخبار وردت أن عبد الكريم سلم نفسه للفرنسيين ولا تزال الحرب كما هى بعد أن ظنّ الناس أنها قد انتهت وهؤلاء لايزالون يحاربون الفرنسيين والأسبان معا .

أفليس من العجب أن تكون هذه الواقعة مذكورة بنصها أن ثلاثين ألفا قاتلهم ثلاثة آلاف مسلم ؟ أليس هذا هو ماذكرته الآية ؟ وإذن نقول الأمة الإسلامية اليوم تجدّد مجدها وعهدها ، وكيف قاوم ثلاثة آلاف ثلاثين ألفا ؟ وكيف تصادف أن يكون وقت تفسير هذه الآيات ؟.

إن ما نصت عليه الآية الأولى أصبح موجودا فى الإسلام ، فهل نقول لاتجب عليهم المقاومة ؟ كلا . بل نقول تجب لأن هؤلاء ثلاثة آلاف صابرين قادرين على القتال .

ولو أن ذئابا دخلت قريتنا وهى ٣٠٠ ذئب وعندنا ثلاثة رجال أقوياء وهم قادرون على طردهم لوجب على هؤلاء الرجال طردهم وبعض أهل أوروبا ذئاب ، فهل إذا وجدنا عندنا رجالا ذوى قوّة قادرين على طردهم ، نقول لايجب عليكم . كلا . بل هو واجب فالوجوب تابع القدرة .

ولو أن ثلاثين مريضا دخلوا قرية ليقاتلوها ووجدنا ثلاثة أقوياء أفلا يؤمرون بقتالهم على فرض أن لاقادر سواهم .

إن كلام أبى مسلم لاغبار عليه كما قاله العلامة الرازى ، وقد أيده الواقع الذى شاهده الناس فى هذا الأسبوع ، ولقد تكرر ذلك كثيرا فى حرب الأندلس وحرب الترك وغيرها فتعجب من الحكمة والعلم والقرآن .

لطيفتان

الأولى قوله تعالى « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

إن علم النفس وتأثير قواها فى أحوالنا اليومية وأخلاقنا الشخصية أصبح منتشرا فى أوروبا وأمريكا ولهم الفصول الطوال فيه .

يقولون إن النفس مخزن كقوة مودعة سموها القوة المغناطيسية وقد ذكرت هذا المقال فى سورة البقرة فارجع إليه هناك ؛ فعلى العاقل إذا أراد السعادة أن يحفظ اللسان والشهوات والرغبات ومدح النفس وكثرة الضحك ، وأن يكون رزينا ساكنا قليل الإعجاب ، قليل الحركات ، قليل التلهف على مطالبه واثقا بما يريد موقنا به حافظا لكل كلمة وحركة وفكرة ، ويقولون إن هذه القوى تحفظ للإنسان ذخيرة وتجعله وقورا ، ويقولون أيضا إن قوة العزيمة وتوجه النفس للمطلوب والثقة بحصوله لها أثر فى الخارج ولهم أدلة خطابية سفسطية فى ذلك ولكنهم يعتمدون على التجارب ، فالتجارب عندهم هى محور الأعمال .

وبالجملة إن النفس الإنسانية لها آثار فى الناس حقا ، ومن أراد الخير فليجعل النفس متوجهة إليه ولاحاجة إلى الإطالة فى هذا بعد ما بينا فى سورة البقرة .

ولا أدلّ على ذلك فى القرآن من قوله فى هذه الآية «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم الخ » وقوله تعالى «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» إلى قوله «ذلك بأنهم قوم لايفقهون» فجعل الفقه النفسى والفكر الوجدانى والشعور الإنسانى منشأ الانهزام فى الحرب ، وكذلك قوله تعالى « أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » وقوله « وما جعله الله إلا بشرى لكم » ، ولذلك يقول هؤلاء العلماء الأوروبيون إن المرء إذا استشعر فى نفسه حصول مطلوبه وهو ثابت العزم قوىّ الإرادة حصل له مطلوبه .

وفى الحديث « أنا عند ظنّ عبدى بى » وفى الآية « من كان يظنّ أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر » الآية .

فهذا على أحد وجهيه يرجع لسوء الظنّ بالله وهو اليأس ، فكل هذه ترجع إلى أن شعور الناس بالخير والشر مؤثر فى أخلاقها وأحوالها ، ويبرهن على ذلك الفلاسفة قائلين : [ إن الإنسان يمشى على الحائط فيسقط لتكرار الوهم وإلحاحه عليه إنك ساقط فيسقط ، ولكنه فى العادة وهو على الأرض لايمشى على ماهو أوسع من ذلك الحائط » وقد جعلوا هذا الدليل المعلوم عند العموم مقدمة للاعتراف بما يحدث فى النفوس البشرية من آثار أفكارها من حبّ وبغض وسعادة وشقاء وما تجلبه تلك الآراء من أحوال الإنسان اللائقة فإن استحضاره فى نفسه أنه من التجار أو العلماء أو العامّة يلزمه أن يتزيا بزيهم ، فهنا الفكر ألبس الجسم ملبس من فكر أنه منهم .

هكذا ينقلون عن بعض علماء اليونان أنه يقول « إن الدجاجة إذا اعتادت أن تقاتل الديكة نبتت لها ( صيصية ) كالتى للديك » .

ويقول علماء العصر الحاضر [ إن كل تهييج دماغى ناتج عن أحد الآراء كثوران التعصب أو الميل أو الغضب أو الرعب يمهد السبيل إلى فقد الحس ] وترى الجندى فى الحرب يصاب بجراح بليغة

ولا يشعر بها ، ومن المحكوم عليهم بالموت من لا يضرب الجلاد فيهم وقت الإعدام إلا جثة باردة تركتها الروح لشدّة الرعب .

وبعض المحكوم عليهم بالإعدام عصبوا عينيه وصبوا ماء دافئا على رقبته أو همّوه أنهم فصدوه فمات معتقدا أن دمه قد استنزف كله .

وروى أن ( موتيوس شيفولا ) في نوران حبه للوطن وضع يده على جمرة متقدة ولم يشعر بألمها ، وقد روى مثل ذلك عن بعض العاشقين .

وهذا بعض مايدل عليه قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » جاء في مجلة ( المرشد ) ما يأتي :

امرأة تلد ضفدعا

في مجلة الجالية ( برازيل ) ما خلاصته :

في ضاحية (اربول غراندى) من بلاد المكسيك مناجم زيت الجاز يعمل فيها عدد كبير من العملة بينهم رجل اسمه ( البينو زونيغا ) وزوجته (حنه كونترارس) وكان لاينقصهما لتمام سعادتهما سوى ولد يكون محط آمالهما ، ومنذ أشهر أخذ ( زونيغا ) يعد المعدات لولادة زوجته ، حتى إذا حانت الساعة المنتظرة خرج الطبيب وعلى يده (ضفدع) كبيرة خضراء اللون ضخمة البطن بارزة العينين طويلة اليدين والرجلين وقال له هذا هو ابنك يازونيغا ، فذهل الرجل لدى رؤية هذا الحيوان القبيح الشكل وقال لايمكن أن يكون هذا هو ابني وتراجع خائفا من منظر المولود الضفدعي الذي لايقلّ طوله عن (٦٥) سنتيمترا .

وكانت الأمّ توّاقة لترى ابنها البكر لكنهم منعوها من ذلك ، ولما رأوا أن لامناص من أن تراه قدموه إليها ، فلما شاهدته صرخت وأغمى عليها وتوافد الناس ليروا المولود العجيب .

وقد فحص الأطباء الوالدين ليعلموا هل فيهما عيب خلقي أو مرضي سبب هذه الولادة فلم يجدوا سببا إلا ما علموه من أن الأم كانت تكره منظر الضفادع وتخافها ، وأنها في الليلة السابقة إذ كانت نائمة شعرت بشئ أملس بارد يمرّ على وجهها فاستيقظت مذعورة وأضاءت المصباح فإذا هو ضفدع فأصيبت بنوبة عصبية وفي المساء التالي وضعت الضفدع اه .

أثر الوهم

جاء في مجلاتنا المصرية في ٢١ يونيو سنة ١٩٢٦ ما يأتي :

يفسر لنا الاستهواء عدة مظاهر طالما حيرت عقولنا في حياتنا اليومية ويكشف لنا الستار عن سر أوهامنا وآلامنا الخيالية التي كثيرا ما عكرت صفو حياتنا ، وهكذا نكون مدينين بسعادتنا وهنائنا لعلم النفس الحديث .

والاستهواء إلقاء فكرة أو اعتقاد ما في نفس الموحى إليه فيتقبلها دون معارضة ، ولا تلبث أن تتحوّل إلى عمل أو عقيدة ثابتة دون أن يدرى الموحى إليه .

والقابلية للاستهواء تكاد تكون غريزة في الإنسان إلا أنها تزداد كثيرا عند الأطفال والضعفاء قوّة وإرادة والعصبيين والذين في حالة غير عادية بوجه عام .

كما أن بعض الناس يمتازون بقوّة الاستهواء مثل الرؤساء والزعماء في العلم أو الدين أو السياسة وأقوياء الإرادة والجسم .

والاستهواء إما ذاتي أو خارجي : فالذاتي هو الذي يستهوى فيه الإنسان نفسه ، والخارجي هو الذي يستهوى فيه غيره من الأفراد أو الجماعات .

ويمارس البراهمة من الهنود نوعا من الاستهواء الذاتي إذ يستهوى الواحد منهم نفسه إلى الزهد والتقشف في الحياة فيخرج إلى مغارة بعيدة ويجلس القرفصاء عاريا ويردّد جملا خاصة طول يومه مثل : [ يجب أن أزهد الحياة لأنها دنيئة ] فلا يلبث بعد بضعة أيام حتى يجد فكرة الزهد قد تملكت جميع مشاعره ، وتحوّلت إلى عقيدة شديدة ، وبذا يصبح رجلا متقشفا زاهدا في الحياة قلبا وقالبا .

ويمكن لمن مارس أيّ عادة ضارّة أن يستهوى نفسه إلى إبطالها ، فالمدخن مثلا يمكنه ترك التدخين ونسيانه إذا ردّد في نفسه كل صباح ومساء بلهجة العزم والحزم جملة خاصة مثل : [ يجب أن أترك التدخين لأنه مضرّ بصحتى ] ولا شك أنه إذا واظب على ذلك تتحوّل هذه الفكرة التي تتردد في النفس إلى عقيدة ثابتة ثم إلى عمل وينتهى الأمر بإبطال التدخين .

وكثيرا ما كان الاستهواء وعلى الأخص الذاتي منه منبعا لأوهامنا وآلامنا الخيالية ؛ فالإنسان قد يكثر من التفكير في مستقبله وينظر إليه خلال منظار أسود فيساوره الخوف ويسود عليه روح التشاؤم فلا يلبث أن يتحوّل هذا التفكير إلى عقيدة ثابتة بل إلى عمل وتصبح حياته سلسلة من الأحزان والهموم التي لاسبب لها ويعاوده الفشل في جميع أعماله وتنحط قواه الجسمية فيظن أن تنبؤاته قد صدقت ، والواقع أنه إنما هو الذي جعلها تصدّق لأنه استهوى نفسه إلى تحقيقها .

وقد تأيدت هذه النظرية النفسية بالتجارب والبراهين المحسوسة في الإنسان والحيوان ؛ فمثلا فحص الجهاز الهضمي لهرة أثناء فرحها وأثناء حزنها فوجد أنه في الحالة الأولى يسير سيرا حسنا عاديا بينما يقف تقريبا عن العمل في الثانية .

وقد جرّب أحد مشاهير الأطباء قوة الاستهواء في الجسم فاستأذن من حكومته في قتل مجرم محكوم عليه بالإعدام بقوّة الاستهواء ، وأخذه معصوب العينين إلى غرفة سوداء مظلمة وكان هو أيضا يلبس الملابس السوداء القاتمة وأخذ يعيد عليه كثيرا جملة [ سأعدمك بقطع شريان من جسمك ] بلهجة التأكيد والعزم ثم طرحه على سرير وكرر على مسامعه طريقة القتل وأوضح له مايشعر به ثانية وأخرى عند قطع الشريان من سيلان الدم إلى الغيبوبة إلى الموت ، ثم أمسك موسى عاديا وقطع به ذراع المجرم قطعا سطحيا ثم فتح صنبورا كان قد أعدّه فأخذ الماء يسيل منه على ذراع المجرم كأنه الدم في حرارته العادية فلم يلبث المجرم أن مات تحت تأثير الاستهواء الشديد وتحققت الوفاة بواسطة جمع من الأطباء فحصه فحصا دقيقا .

ومن التجارب التي عملت أيضا لإظهار قوّة الاستهواء وتأثير الوهم على الجسم أن أحد علماء النفس في انجلترا اتفق مع سكان بضعة منازل كان يمرّ عليها بائع لبن في الصباح لتوزيع لبنه أن يبدى كل واحد منهم عجبه من الضعف الجثماني غير العادي الذي يبدو على وجه هذا البائع بجملة خاصة بالترتيب كأن يقول الأوّل : [ مالي أرى وجهك اليوم شاحبا بخلاف عادتك ] والثاني [ لماذا ترتعش وأنت تعطيني اللبن ] والثالث [ أراك لاتقدر على المشى اليوم ] وهكذا فما وصل البائع إلى نهاية دورته حتى سقط على الأرض مغشيا عليه ، وقد كان بصحة جيدة عادية عند خروجه من منزله ، وما ذلك إلا لأن فكرة الضعف التي ردّدها زبائنه في نفسه تحوّلت إلى عقيدة بالتكرار ثم إلى عمل فوقع على الأرض فاقد الرشد .

ويبالغ ( أميل كوبه ) الفرنسى في قوة الاستهواء ويقول إنه يجب أن يتخذ كوسيلة لشفاء كثير من الأمراض ، ولا شك أن لقوله هذا نصيبا كبيرا من الصحة إذ أننا كثيرا مانشعر بالصداع أو الضعف أو الانحلال الجثماني وكثيرا مانصاب بالأمراض العصبية نتيجة الأوهام والمخاوف التي لا وجود لها والتي نلقيها في روع أنفسنا أو يوحى إلينا بها ماحولنا من بيئة محزنة أو من قوم نن قصدا وإن عفوا

ولذا يمكن أن نؤكد أن الطالب مثلا الذى يفكر كثيرا فى الرسوب إنما يستهوى نفسه للرسوب دون أن يدرى فيرسب .

وكذلك العامل الذى يفكر دائما فى الفشل غالبا مايفشل بقوة الاستهواء الذاتى .

فابتسم أيها القارىء فى وجه الدهر يبتسم لك وافرح يأتك الفرح واعتقد فى الشفاء من أمراضك وآلامك لأنك تساعد بذلك نفسك على النجاة وتلهيها عن كل مايحزنك بالرياضة البدنية والنزهة والأعمال اليدوية وانظر إلى المستقبل دائما نظرة المتفائل المسرور المؤمن بالنجاح تذهب عنك أوهامك الكثيرة القتالة وتسمو بنفسك إلى النجاح المحتم ، انتهى .

المعالجة بالاستهواء وفيها أيضا فى تاريخه

[ طريقة الدكتور أميل كويه ]

فى أواسط هذا الشهر ( يوليو سنة ١٩٢٦ ) توفى فى باريس العالم الفرنسوى الشهير الدكتور ( أميل كويه ) الذى يعتبر أعظم دعاة الاستهواء وأكبر القائلين بمذهب الشفاء بطريقة الإيهام .

توفى هذا العالم فى منزله بمدينة ( نانسى ) بعد عمر طويل قضى معظمه فى المباحث النفسية وفى مدى تأثير الوهم فى النفس .

وقد طار صيته فى جميع أنحاء العالم ، وكان الإنكليز والأمريكيون يعتبرونه زعيم الأطباء الروحانيين أو الاستهوائيين بلا منازع .

لم يكن هذا العالم مبتكرا ولكنه تبع آراء علماء الاستهواء الفرنسيين بما أذاعه من النظريات الجديدة وهى نظريات تقضى بنبذ كثير من المذاهب العلمية البحتة وعدم التقيد بها حتى لايظل الاستهواء مجرد نظرية علمية بل يصبح من الحقائق التى هى فى متناول الجميع .

وقد كانت شهرة ( كويه ) مبنية على ما أبانه من سلطة النفس على الجسد وما أثبته بتجارب عدة أمام جماهير من الأطباء .

وكان دائما يقول : إن الأطباء يخلطون خلطا فظيعا لأنهم يعنون بالجسد دون النفس ولأنهم يهملون درس السلطة غير المنظورة التى للوهم على الجسد .

فالطبيب الذى يستشار فى معالجة العليل لايفحص عادة سوى أعضاء الجسم وحالتها ولا يعنى بحالة العليل النفسية وما يمكن أن يعطاه لإنعاش تلك الحالة [ وبعبارة أخرى ] إنه يتجاهل قيمة ( القوّى المعنوى ) الذى يفعل فى شفاء النفس ما لايفعله القوّى المادّى .

وقد أثبت الأستاذ ( كويه ) بتجارب عدّة أن الفكر قوة عجيبة فى كلا العالمين المادّى والخيالى وأن تسلطه على الجسد يحدث تأثيرا عجيبا .

وفى الواقع أن الفكر قد يكون سما زعافا أو مصلا شافيا ، وطريقة الاستعانة به على مداواة الأمراض ليست حديثة بل قد كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة وقد أهملها العلماء مدّة ثم عادوا اليوم إلى إدراك أهميتها فى معالجة الأمراض .

والحق يقال إن الدكتور ( كويه ) أبلغ طريقة المعالجة بالاستهواء أقصى الحدود وأثبت أنها من الطرق التى يجب على الأطباء أن يضعوها فى مقدمة وسائل المعالجة ، فإذا كان المصل المادى يفيد فى بعض الحالات فإن المصل المعنوى : أى التطبيب بالاستهواء يفيد فى جميع الحالات ، وإذا عفنا كيف نستعمله نكون قد أسدينا إلى الجنس البشرى أعظم معروف يتصوّره الفكر

وليس ذلك فقط بل إن هذا ( المصل المعنوى ) يفيد أيضا فى شفاء الكثير من الأمراض الأدبية .
فالشخص الذى هو رق لبعض العادات الرديئة يمكن شفاؤه من داء تلك العادات وإصلاح ما فسد من أخلاقه وشفاؤه بالاستهواء أسهل فى هذه الحالة من شفائه بالعقاقير .

وفى هذه الحالة تصبح الهيئة الاجتماعية كلها مؤلفة من أفراد أصحاء البنية . أصحاء الأخلاق ، ويصبح العالم فردوسا زاهرا تطيب الإقامة فيه .

إن لكل امرىء كيانين : أحدهما الوجدان الذى بواسطته يدرك كل مايقع حوله ويشعر بكل مايحدث ، والآخر الوجدان الكامن الذى يدفع المرء إلى إتيان أعمال كثيرة بطريقة أوتوماتيكية مجردة من عنصر الإرادة ، وهذا الأخير : أى الوجدان الكامن معروف بآثاره أو بنتائج الأعمال التى تدفع المرء إلى إتيانها وهو المهيمن على كل حركة من حركات الجسم . فإذا استغرق المرء فى سبات أو ذهول توقف ذلك الوجدان عن العمل وهو الواسطة التى بها يعمل الفكر عمل المصل المعنوى الشافى الذى فى إمكانه أن ينقذ الجسم من أمراض كثيرة وآلام عدة .

هذا ، وإن مايحدث فى النفس فى أثناء عملية الاستهواء يشبه عملية الإنبات تماما ، ولذلك يصح تسميته بالإنبات النفسى أو العقلى .

ففكرة الشفاء هى البذرة التى يمكن بذرها فى النفس لتنمو وتكبر حتى تتناول كل شىء وتأتى بالثمر المطلوب .

وطريقة الاستهواء المنسوبة إلى الدكتور ( كويه ) بسيطة جدا يستطيع كل امرىء أن يستعملها .
وخلاصتها أن يردد كل يوم على مسمع من نفسه هذه العبارة وهى قوله : [ أشعر كل يوم بأنى أنتقل من حسن إلى أحسن من كل الوجوه ] .

ويجب ترديد هذه العبارة صباح مساء حتى تصبح فى النفس عقيدة راسخة . وكان ( كويه ) يلقنها لكل من يقصده مستشفيا ويشهد الكثيرون أنهم نالوا بواسطتها الشفاء [ وبعبارة أخرى ] إن التفاؤل الحسن هو أساس طريقة ( كويه ) .

فإذا تشاءم المرء من كل ماحوله فلا يمكن أن يرى فى العالم إلا ظلاما دامسا ، وبعكس ذلك إذا كان كثير التفاؤل شديد الثقة بحسن حالته فإن النتيجة تكون خيرا لا محالة .

وفى أوروبا اليوم جمهور كبير من أتباع ( كويه ) الذين خبروا طريقته بأنفسهم وهم يعملون على إذاعتها بين الناس ، فكأن ( كويه ) علمهم أن يطببوا أنفسهم وينيروا عقول الغير .

وبين الأطباء فريق غير قليل ممن يحاولون الجمع بين الطب الاستهوائى والطب المادى ، والجمع بينهما ممكن لايحتاج إلا إلى شىء من الخبرة ، انتهى .

كل هذا الذى نقلناه من سر قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وهذا من عجائب القرآن التى أبرزها العلم الحديث .

اللطيفة الثانية

[ إيضاح الكلام على قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الخ » ]

(١) اعلم أن الله عز وجل قد نظم هذا العالم على القوى المتضادة والأحوال المختلفة والوجوه المتعارضة والأصول المتناقضة ، ولم يشأ أن يكون ساذجا قليل التركيب فسوّاه وهندمه وجعله مصقول الجوانب منظم الأطراف مكمل الأكناف .

(٢) ثم إنه كلما كان أكثر عناصر وأعظم تركيبا كان فى المنافع أبعد غورا وأعظم وقعا وأعجب صنعا .
ألم تر إلى تفاعل الماء والطين والهواء والحرارة وكيف نتج منها النبات المختلف الثمرات العظيم البركات وإلى الذكران والإناث من أنواع الحيوان وبنى الإنسان كيف كان اتحادهما منتجا بقاء الأنواع وتكاثر الأشخاص ، ثم إنه كلما كان المتحدان غير مقتربين كان التفاعل بينهما أعظم أثرا وأبلغ نفعا وأحسن صنعا .

ناهيك ماترى من تفاعل الفحم المسمى بفحم (المعوجات) مع بعض المعادن كيف نتج منهما الكهرباء البديعة الصنع المدهشة اللب الموقدة النار السريعة الأخبار المنتجة الحرارة العجيبة الإنارة ، وإلى الأكسوجين والكربون كيف أوجب اتحادهما ظهور النار وعجائب الآثار ، وهكذا اتحاد الأكسوجين والأدروجين كيف نتج منه بفضل الصانع الحكيم وجود الماء العجيب الإرواء الذى هو حياة كل حىّ من عاقل وجاهل وخامل ونام وحيوان .

(٣) على هذه القاعدة بنى تقاتل الدول وتصادم الأمم ومصارعة الأقران واحتدام الوغى فى الميدان ، وكلما كان الاختلاف أشدّ إيغالا وأبعد فى العداوة كان الاصطدام أشدّ أثرا وأعظم وقعا وأظهر أمرا وأفتك بالأبطال وأغول فى النكال .

ولقد تقرر فى الحكمة أن الأمم إذا لم توقد الحرب نارا ولم تشمر عن ساعد جدّها أدركها الخور واعتورها الضرر واستحلت طعم الكسل ونامت على وساد الراحة الوثير وذاقت من الوهن والضعف عذاب السعير كما ذكره الحكيم (أرسطاطاليس) فى رسالته إلى الإسكندر ، وقد ضرب لذلك الأمثال وقرّره تقريرا فكان مثل الأمم فى ذلك كمثل العناصر المرماة فى الفلاة والهواء الهابّ فى مجراه والماء الجارى إلى منتهاه فلا عشب يسقيه ولا حيوان يرويه ، وكمثل الذكران الذين اجتنبوا النسوان والنساء اللاتى أتقين الرجال فذهبت من بين هؤلاء ثمرات الاتحاد وباءوا بالخسران والحسرات .

إن عالمنا الأرضى حكم عليه ألا يرتقى إلا بالمتناقضات ولا ينشأ إلا بالمختلفات ؛ فالقاعدة واحدة تباعد فى الصفات وتناف فى الأحوال ثم التقاء ينشأ منــــه أحوال جديدة وحوادث مفيدة وأعمال سديدة وأمور مفيدة .

ولعلّ هذا العالم أقرب إلى النقص وأبعد من الكمال . ولعل هناك فى العوالم ماهو أشرف مقاما وأعلى فى النظام كعبا ، ولعل طبعه الغريب الذى ذكرناه قد قضت به الحكمة لنقص فى أصوله ووهن فى تركيبه بالنسبة لما هو أعلى منه وأبدع وأجمل ، ولعل نسبته إلى ماهو أرقى منه كنسبة تركيب الحشرات السابحة من القاذورات المحدثة فى الجوّ فسادا إلى تركيب الإنسان من العناصر الطيبة فكانت النتائج كالمقدمات والنهايات تابعة البدايات .

لذلك كان الإنسان فى أعماله وأخلاقه وأحواله تابعا لعالمه الذى تركب منه حذو القذة بالقذة تابعا لخطواته سائرا فى طرقاته دائرا على محوره ناهجا منهجه .

فترى الجيوش فى الميادين تلتقى التقاء أو تصطدم اصطداما كالتقاء الأكسوجين والأدروجين وفحم الموجات وبعض المعادن فيما تقدّم فتراموا بالحجارة والرصاص والحديد والنيران واستعملوا أنواع المفرقعات وأعجب المركبات النارية من الديناميت والكرات المحرقة الملتهبة ، المنزلة الصواعق ، المهلكة للأمم ، المزيلة للممالك المخربة البنيان ، المبيدة القلاع .

ولو أنها أمسكت عن القتال وتركت النزال لأعياها الكسل ولعدمت الحيل ولأماتها الجبل والخلل فنامت العيون ، وهدأت الجفون ، وأمنت الطوارق ، وأصبح أهلها أقرب إلى الحيوان الأعجم ، فبطؤت الحركات ، وهدأت الجاعات ، وبارت الصناعات ، وساءت الحال ، وضاع المآل ، وخابت للأمم الآمال .

لذلك ترى أن الله قد هيأ للأمم عناصر القتل وأصولا للحروب منها ظاهر يعلمه الخاص والعام كالحجارة والحديد والرصاص ، ومنها ماخفي تركيبه وعظمت آثاره كالمفرقعات المركبة من القطن والمواد الملتهبة .

المفرقعات في الحروب من القطن والمواد الملتهبة

إن القطن مركب من شعور دقيقة قد بحثت بالمنظار المعظم فظهرت بصورة أنابيب مفرطحة ملتوية شفافة ، وهذه الأنابيب الشفافة جلبها شجر القطن من المواد الأرضية والهوائية تسمى (سيليولوز) وهذه المادة تكون في جميع النباتات .

فهذه المادة إذا خلطت بحامض النتريك وبحامض الكبريتيك تحولت إلى مادة تسمى (نيترو سيليولوز) أو (قطن البارود) وإذا نظرت إلى هذه وجدتها كالقطن العادي في شكله ولكنه متى طرق أو سخن احترق من غير أن يترك بقية صلبة بل يتحول جسمه إلى مادة هوائية لا لون لها ، وهذه المادة إذا أذيبت في الأثير وفي الكحول أو صنعت منها كتلة مرنة تصب في قوالب أو تقطع قطعا صغيرة ذات أحجام متساوية فإن هذه القوالب والقطع تكون مواد مفرقعة ، وأول من كشفها العلامة (بول فيللو) فاستخدمته الحكومة الفرنسية سنة ١٨٨٧ م . وهذا هو البارود الذي لادخان له لأن ماله دخان يحجب رؤية العدو .

الديناميت

إذا خلطنا الجلسرين بحامض النتريك المضاف إليه حامض الكبريتيك نتج سائل زيتي القوام أثقل من الماء ولا يختلط به طعمه حلو ولكنه سام يستعمل في الطب بمقادير قليلة ، وإذا سخن أو طرق فرقع بشدة متحولا إلى غازات النيتروجين وثاني أكسيد الكربون والأكسوجين وهو سائل خطر لايؤمن له جانب ويصعب استعماله مفرقعا في حالته السائلة وهو يسمى (نيتروجلسرين) فإذا مزج بالنشارة وبعض الأتربة صنعت منه قوالب الديناميت .

الجلاتين المفرقع وغيره

في سنة ١٨٧٥ خلط العلامة (الفرد نوبل) الكيماوي السويدي هذا السائل الشديد الفرقعة بقطن البارود المتقدم فخرج من هذا وذاك مفرقع مزدوج يسمى ( الجلاتين المفرقع ) .

وهناك جسم صلب آخر تصنعه جميع الحكومات من مادة تسمى ( الفنول ) وجسم آخر يصنع من مادة اسمها ( تولول ) وهما مادتان تستخرجان من الفحم الحجري .

واعلم أن صنع المواد المفرقعة المذكورة خطر للغاية ولذلك يبنون أبنية صغيرة بعضها منفصل عن بعض بحيث يكون بين كل بناء وآخرفضاء طلق واسع ، فإذا حصل انفجار في إحداها انحصر الخطر فيه فلا يتعداه إلى بقية المعمل ، ويصنع هناك مقادير معينة من المفرقعات في زمن معين ويلبس العمال والعاملات ملابس خاصة خالية من الجيوب والأشياء المعدنية ويضعون في أرجلهم أحذية خاصة خالية من المسامير الحديدية ، ولا يجوز للأجانب دخول هذه الأمكنة إلا بإذن خاص وقبل الدخول يفتشون تفتيشا دقيقا ويؤخذ منهم كل مايحتمل أن يحدث ضررا مثل علب الكبريت والدبابيس والأزرار المعدنية وغيرها ثم يلبسون أحذية خاصة ، وتضاء هذه الأماكن بالكهرباء ، وجميع الآلات البخارية والكهربائية المعدة لتوليد القوة اللازمة توضع خارج البناء ويمر من آن لآخر مفتشون لملاحظة النظام ومنع تجمع أتربة المواد المفرقعة .

واعلم أن أقل خطأ سواء أكان في تقدير المواد أم في تغير أحوالها الخارجية كالضغط ودرجة الحرارة قد يؤدي إلى انفجارها أثناء صنعها ويتبع ذلك ضرر جسيم أقله موت الصانع ، وعليه فإن صناعة المفرقعات تستلزم من الحيطة والحذر والعناية مالاتحتاج له صناعة أخرى ، ولذلك قد يؤمن الصانع على حياته قبل

الاشتغال بها حتى يعوّض على ورثته مافقدوه من حياته .

فانظر كيف كان القطن والكبريت والنتريك الحامضات قد تحولت إلى مادّة محرقة ، وكيف كان وضع هذه المادّة مع الكحول والأثير يكوّن مادّة مفرقعة ، ثم انظر كيف كان الجلسرين إذا خلط بالحامضين المتقدّمين مع نشارة الخشب وبعض الأتربة يصبح ديناميتا يهدّ الأبنية والقلاع الحصينة ، ثم كيف كان الفحم أيضا مصدر مادّتين مفرقعتين بأوزان معلومة ونظم خاصة .

الله أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب

يقول الله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » فههنا القوّة العقلية العلمية التي تتقدّم القوة العملية الحربية .

لقد كانت الحرب قديما بالحجر والحديد والرصاص ثم ارتقت اليوم فصارت بالعقول والأفكار ؛ فأهل أوروبا ضعاف الأبدان بالنسبة لأهل أفريقيا وآسيا ولكنهم استخدموا العقول فأكسبتهم صناعات قامت مقام القوى الجسدية فصار هؤلاء في باقي الناس أشبه بالإنسان في باقي الحيوان ؛ فالحيوان قويت أجساده ولكن الإنسان الذي هو أضعف منه قوّة خلق أقوى حيلة فضله فسخره .

فأهل أوروبا اليوم ومن نحا نحوهم وكل من قرأ العلوم والصناعات الحديثة أصبحوا في نوع الإنسان سادته ، والبقية كأنهم عبيدهم .

فإذا قال الله للمسلمين « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » فمعناه لاتذروا قوة جسمية ولا قوة عقلية إلا استعددتم بها ، وإذن أصبح علم الصناعات جميعها فرضا واجبا على المسلمين وعليهم حتما أن يدرسوا ماذرأ الله في الأرض من عجائب العوالم وما في ذرّاتها من كامنات المنافع ومدفونات العجائب ومكنونات البدائع وجواهر الحكم المصونة المحجوبة عن أنظار الجاهلين ، المتجلية للناظرين ، المكشوفة للجدّين العاشقين .

بالله ما أجمل بهاء الطبيعة ! وما أجمل نورها وأبهر سناءها وأحسن وجهها ، لقد سترته عن الجاهلين ، وكشفته للعاشقين فازينت وابتهجت للناظرين ، وقالت لمن ليس لها كفؤا ولم يعطها مهرا :

* ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر *

فليتنافس في تلك العلوم المتنافسون ، وليقبل عليها المسلمون ، وليطيروا في الشرق والغرب سراعا لعلهم لها يدركون .

فياعجبا للمسلمين ! كيف يعيشون بين أمم سلاحها (الديناميت) والموادّ المحرقة والمعمية والمهلكة وسلاحهم البارود والرماح ؟ وكيف يفلح قوم أحاط بهم الإصلاح والعمران وهم جامدون ؟ .

نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب

هل يعلم الفلاح المصري والبغدادي وأمثالهما حين يزرعون القطن ويضعون البذرة في الأرض ويسقونها الماء وتنمو في الحقول ، ويعزقونها بالفؤوس ، ويزيدونها ريا ؟ وحين يظهر الثمر فيها ، وحين يأتون بالنساء والأطفال لجمع تلك المادّة الشعرية القطنية ، وحين يحلجونها ويبيعونها للتجار بالإسكندرية وغيرها ، فيأخذون الدراهم والدنانير لقضاء حوائجهم ، هل يعلمون إذ ذاك أن لهذا القطن نبأ عظيما ؟ وهل يعلم حكماء الإسلام وعلماؤه والمتفقهون فيهم أن لكل ظاهر باطنا ، وظاهر القطن لباس وأكسية ورياش وفرش ومخدّات وغيرها مما يتجمل به الناس ، وباطنه مايستخرجه علماء الكيمياء من البارود الذي لادخان له بخلطه بالأحماض ، وكيف كان القطن من أسباب الظفر في الحروب ، وكيف كان من الفحم الذي يوقده الناس في بيوتهم مواد تؤخذ بطرق مخصوصة تكون مفرقعة قاتلة .

جَلّ الذى خلق المادّة على هذا النظام وصوّرها على هذه الصورة البديعة العجيبة ، ألا بعدا للقوم الجاهلين ، وأفّ وتفّ لقوم لايعقلون .

وهل يعلم هؤلاء أن أمثال هذه المسألة مما يوجب فتح الدارس على مصراعيها واتخاذها أساسا للرقيّ واستعدادا للطوارئ ، وفيها تحلل عناصر كل يابسة وخضراء ورطب ويابس وجامد ونام وحيّ وميت وحيوان ونبات وإنسان ، فلتحلل عناصر المخلوقات فلا حكم على مركب إلا إذا عرفت أجزاؤه كما لم تعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها .

إن هذا الاستعداد والأمر به يرجع إلى رقيّ العقول والآراء ، وإننا إنما أرسلنا إلى هذا العالم وخلقنا فيه للوقوف على الحقائق ومعرفة أصوله ، وكأن الله عز وجل يريد أن يطلعنا على عناصر ملكه وأصول خلقه وتركيب أجزائه وعجائب صنعه ووزنه ونظامه ومحاسنه حتى نرتقى إلى ماهو أعلى مراما وأحسن نظاما وأبهى كمالا ؛ وجعل من طرق ذلك نظام الحروب وإلقاء العداوات بين الناس ليتسابقوا إلى المعالى ولا سبيل إلى ذلك التسابق فى عالمنا الأرضى إلا بهذه .

وما مثل الجيوش فى ميادين القتال . والقنا تقرع القنا ، وموج المنايا متلاطم إلا كمثل اللاعبين ( الشطرنج ) أو غيره إذ يصبحون فى وجل وأمل ، وخوف ورجاء .

وكأنما هذا الإنسان وهو فى الأرض طائر على جناحين : أحدهما الرجاء ، والثانى الخوف ، كما قال تعالى « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا » فإذا لم يكن الخوف والطمع بالحروب القاهرة سعى الناس لهما باللعب ليطيروا مجتمعين فى عالم الخوف والرجاء ، وهم يلعبون وكأنهم إذ لعبوا ( الشطرنج ) أو الألعاب ( الأولمبية ) المشهورة اليوم بين الدول يقولون إننا مجبولون على المسابقة مفطورون على المنافسة ، فإن لم تكن بالحرب سعينا إليها باللعب . كل ذلك لتقوية الأبدان وتنشيط الشبان وتجديد البلدان وتقوية الأركان وإسعاد المدن وتشييد العمران

تناسق آى القرآن وتلاحقها فى مسألة عدّة الحرب والقتال

فإذا قال الله فى سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وقال فيها « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الخ » وإذا قال فى آل عمران « إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء » وقال « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وقال « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » وقال فى سورة النساء « ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا » وإذا قال فى سورة المائدة « ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » وإذا قال فى سورة الأنعام « إن الله فالق الحبّ والنوى » إلى قوله « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ » وقال « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » وإذا قال فى سورة الأعراف « والوزن يومئذ الحق » وقال « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم الخ » إذا قال ذلك كله فى السور المتقدمة على هذه السورة ، فهاهو ذا يقول فى سورة الأنفال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فهذه القوة من القوى التى خلقت لنا فى الأرض كما جاء فى البقرة .

فعجائب القطن وحمض الكبريتيك وحمض النيتريك والجلسرين والكحول والأثير والمواد المتخذة من

الفحم الحجرى . كل هذه مما خلقها الله لنا فى الأرض وخاطبنا قائلا «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا» فهذه خلقت لنا كما خلقت للفرنجة خللوا الفحم الحجرى والقطن والكبريت واتخذوا منها تلك الآلات المهلكة ونحن تركنا واكتفينا بالشراء منهم ، وهكذا هذه الأشياء مما جاء فى قوله تعالى «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» فإنها من العجائب المدهشة والغرائب البديعة الدالة على حكمة الصانع المبدع .

ولعمرى من ذا الذى يقف على هذه الأسرار ولا يدهش لهذه الحكم العجيبة ؟ وإلا فبالله كيف يكون هذا القطن الذى نلبسه بعد أن استخرجناه بالزراعة إذا أضفنا عليه بعض العناصر قلب لنا القلاع والحصون وخرّت السقوف من فوقنا .

أليس هذا من العجب ؟ أليس هذا من دلائل التوحيد المذكورة فى آية البقرة المذكورة ؟.

ولعمرى كيف تصير المواد الفحمية مفرقعات ؟ وكيف يكون القطن الذى يقينا الحر مهدما للمساكن مزلزلا للمدن ، وكيف اجتمعت هذه الأسرار فى هذه المخلوقات التى تحيط بنا ولا ندرى مافيها ؟.

أليس الإنسان وهو نائم فى سريره متغط بلحافه قد أصبح نائما فى وسط جهنمى ؟ فالقطن الذى يحيط به من كل جانب إن هو إلا موادّ مفرقعة ينقصها الكبريت والتربك فتصير هادمة البنيان .

ثم هذه الأشياء وهى متفرّقة غير مجتمعة قد خفيت عن الإنسان فى قديم الزمان فلم يعلم أنها تخرب المدن وتهدم القلاع ولكن الله يقول فى آل عمران «إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء» وعلى ذلك يعلمه لمن يشاء من عباده .

وهذه العناصر المذكورة تصنع بحساب دقيق حتى تصير موادّ مفرقعة ، فإذا اختلت الموازين أو الأعمال الصناعية اختلت تلك المصنوعات ، وهذا قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» فههنا لابد من القيام بالعدل فى وزن المقادير وهـذا من دلائل الوحدانية ، إذ كيف كانت هذه الأشياء بموازين محدودة ومقادير معدودة ونظم قائمة وصناعات صادقة ، ولو اختل الوزن لانفجر المصنوع فأهلك الحرث والنسل .

وكذلك قوله «ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» وهذا من نوع الفكر فى المصنوعات ونظامها ودقتها ، وهكذا قوله فى سورة الأعراف «والوزن يومئذ الحق» فالقيام بالقسط فى آل عمران والوزن الحق فى الأعراف ظهرا فى مقادير الديناميت والموادّ المفرقعة كما ظهرا فى غيرهما ، وهكذا قوله فى سورة المائدة «ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟» .

فههنا يقال إذا كان ابن آدم يقول متحسرا على نفسه كيف أعجز أن أكون مثل الغراب وتأسف وندم على الجهالة فلتكن الحسرة والجهالة هنا أنكى وأشدّ تنكيلا ، كيف لا والندامة فى قصة ابنى آدم على الجهل بدفن القتيل مع علم الغراب به فقلده .

وههنا تكون الحسرة والندامة على أمم تهلك وقصور تخرب ، وجيوش تهزم ، وأمم تموت ، وبلاد تضيع ، ونساء تسبى ، وصبيان يصبحون أيتاما ، وذلك كله بسلاح الأعداء وهم من الآدميين .

وإذا ندم ابن آدم على جهله بصنعة الغراب وهو من غير جنسه فهو بالندم على جهله بصناعة بنى جنسه أجدر ، فإنا نرى الإنسان يعجز عن صـناعة النحل فى خليته ، ولكنه قط لايعجز عن صناعة أخيه الإنسان .

فإذا أسف الإنسان على جهله بصناعة غير بنى جنسه فهو على جهله بصناعة أبناء جنسه أشدّ ملامة وأدنى إلى الندامة وأبعد عن الكرامة وأقرب إلى الإهانة ، وهذا يناسب قوله تعالى فى سورة النساء «إن يشأ

يذهبكم أيها الناس » لجهالتكم بعجائب خلق وتباعدكم عن التبحر فى علمى والشرب من مناهل فضلى « ويأت بآخرين » أعلم بخلق قبلوا النعمة فشكروها وسقتها لهم فقبلوها ، وذلك أيضا قوله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » .

أو ليس هذا من عجائب الملكوت ؟ فإن الدقة المتناهية فى صناعة القطن حتى يصير موادّ مفرقعة من أعجب العجائب وأبدع الغرائب ، وإذا جاء فى الأعراف « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » وقد جعل المفسرون من هذا اللباس القطن

فهاهو يقول هنا « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فكان من تلك القوة القطن المذكور فى السورة قبلها ، وكأنه لما قال « ذلك من آيات الله » مشيرا إلى قوله « أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » يرمز إلى مانحن بصدده : أى يقول إن اللباس الذى أنزله عليكم من آيات الله : أى الدالات على عجائب الصنعة ، ومن ذلك اللباس القطن ، ومنه تكون المواد المفرقعة .

فلذلك جاء فى سورة الأنفال هنا يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ومن تلك الاستطاعة : استنباط المفرقعات من القطن الذى عدّ من آيات الله ، وقيل بعدها « لعلهم يذكرون » .

لعمرى ما أجمل العلم وأبهج الحكمة وأبدع القرآن ، وما ألطف هذا المقام فلله الحمد إذ أنعم بفضله على عبده وألهمه أن ينظم هـذه الآيات فى نمط ويجعلها متآلفة متتالية ، قد التأمت فيها المصلحة الدنيوية بالعجائب الإلهية ، فبهذا وأمثاله فليفسر القرآن فى هذا الزمان . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

واعلم أن هذا النهج من التفسير يبين اتحاد المطالب الدينية والدنيوية والآخرة والأولى .

ولا تعجب من هذا ولا يكن فى صدرك حرج ، فنفس القرآن قد صرّح بهذا فى سورة البقرة فقال «وزاده بسطة فى العلم والجسم» فههنا زيادة البسطة فى العلم تظهر فى المركبات الكيمائية ووزنها ونظامها . وكيف يكون القطن مع حمض الكبريتيك ومع حمض النيتريك بمقادير محدودة ، وكذلك الكحول والأثير والنشارة والتراب والجلسرين من صنع الديناميت .

فمعرفة هذه المقادير وتركيبها أثر من آثار العلوم التى تدرس فى المدارس فى العالم الإنسانى ، و تى صنعت هذه المقادير واستخدمها أقوياء الأجسام غلبت الأمة غيرها .

ولا جرم أن رجال الشرق اليوم أقوى أبدانا وأصح أجساما من رجال أوروبا ضعاف الأبدان ، فإذا صنعوا هذه المصنوعات غلبوهم لامحالة كما غلب جمع صغير من أهل مراكش دولة أسبانيا على جلالة قدرها وعظم خطرها ، فما بالك إذا عرفوا هذه الصناعات ودرسوها حقّ دراستها ، فههنا يتم [الأمران] البسطة فى العلم والبسطة فى الجسم ، ولذلك أعقبه بقوله « والله يؤتى ملكه من يشاء » ثم ختم الآية بقوله « والله واسع عليم » .

فالتعبير بأنه يؤتى ملكه من يشاء بعد ذكر البسطة فى العلم والجسم دالّ على أن الأولى بالملك العالمون الأقوياء ، فقوة العقل وقوة الجسم هما مفتاح الممالك والسلطان عليها .

والتعبير بأن الله واسع وأنه عليم إشارة إلى أنه تعالى لانهاية لمعلوماته ومعلوماته متقنة واسعة المدى ، ولذلك نرى الأمم تتسابق إلى الاستفادة من سعتها ، وكل من كان أسبق إلى علمها كان أولى بالملك «وفوق كل ذى علم عليم»

زهرة ناضرة بهجة فى قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الخ »

اعلم أن القوة نوعان : نوع مادّى ، ونوع معنوى .

أما المادّى فظاهر مما تقدم ، وأما المعنوى فذلك هو ما يحدث الثبات فى النفوس ويقوى القلوب . ومن أهم ذلك كتمان الأمور وإظهار الجلد وعدم الإباحة بما فى البواطن والأسرار .

قال أبو مسلم الخراسانى الذى أباد الدولة الأموية وكان السبب فى ظهور الدولة العباسية فى الثلث الأوّل من القرن الثانى الهجرى .

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت    عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ضربتهم ضربة بالسيف فانتبهوا    من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة    ونام عنها تولى رعيها الأسد

وفى الحديث « الحرب خدعة » وفى آيات هذه السورة سرّ الحرب بل أهم أسرار هذا الوجود . ألا ترى إلى قوله تعالى « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا الخ » قلل الله الكثير قبل الابتداء فى الحرب ، وهكذا كثر القليل فى أعين الكفار لينهزموا ، وبشر المسلمين بالنصر والفوز والملائكة ، كل ذلك من القوة المعنوية .

ومن عجب أن أكابر رجال الحرب الكبرى التى حدثت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ قد أعلنوا فى الجرائد فى هذا الأسبوع من شهر ( مارس سنة ١٩٢٧ ) سرّا من أسرار الحرب ونبأ من أنباء التدبير وحسن النظام والتعقل ، وذلك أنهم كتبوا أن فرنسا ( يوم أن أعلن الألمان أنهم راضون بشروط الحلفاء ) كان جيشها فى غاية الانحلال .

وقد اختمرت الثورة فى الرؤوس وأخذ الضباط والجنود يتسللون لواذا طالبين الخروج من مأزق الحرب ، فكان رؤساء الفرق يحضرون هؤلاء أمام المدافع ويقتلونهم أفرادا وعشرات ومئات ، وكان ذلك كله سرا بحيث لايطلع رئيس فرقة على ماعند غيره من الفرق حتى باتت رياسة أركان الحرب فى حيرة وألم وخوف شديد من ذهاب الدولة وضياع البلاد فكان جهل الألمان بما هو داخل الجيش الفرنسى هو السلاح الأقوى الذى به كسب الحلفاء الحرب ، ولو علموا حقيقة الموقف عند الجيش الفرنسى لضربوهم ضربة قاصمة فى بضع ساعات ولانتهى الأمر وجاء الفوز وانعكست الآية فأصبح الغالب مغلوبا والقاهر مقهورا وبدّلت الحال ، والله عليم حكيم .

مسامرة

ههنا أسامرك أيها الذكى ، ههنا أحدثك عن الجمال والنور والعرفان والبهجة والعلم ، أحدثك عن هذا السر البديع والنظام الجميل ، هذا هو الجمال ، هذا هو النور .

انظر فى آيات هذه السورة وغيرها إذ يقلل الله الكثير ويكثر القليل ، وتعجب من أن تقليل الكثير وتكثير القليل هو سر هذه الدنيا ، رجال الحرب لايعقلون إلا ما أمامهم ولايفقهون إلا أن النصر حليفهم بكتمانهم وحزمهم وعزيمتهم ، نعم هذا حسن ولكن هناك ما هو أحسن وأجمل من العلم والحكمة .

انظر هذا الوجود تره مبنيا على هذه النظرية ، نظرية تقليل الكثير وتكثير القليل ، هذه هى السياسة التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا « ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

ألا ترى رعاك الله مناظر النجوم والشمس والقمر ؟ فانظر كيف قللها الله فى أعيننا ، الشمس جرم صغير والقمر فى أعيننا والكواكب الثابتة والسيارة صغيرات جدّا نراها مقدار الليمونة تتلألأ فى جوّ السماء ، وحقيقة الشمس والقمر والنجوم غير ذلك ، حقيقتها أنها أجسام هائلة عظيمة حتى إن أرضنا بالنسبة للشمس جزء من أكثر من ألف ألف جزء من الشمس ، والثوابت التى نراها صغيرة هى أجسام أكبر من شمسنا بما

لاحد له ، حتى إن كوكب ( السماك الرامح ) يبلغ نوره (٨٠٠٠) ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وهناك ماهو أعظم وأعظم ، فلو أن الله جعل أعيننا تنظر إلى الشمس وإلى تلك الكواكب نظرا يجلى حقائقها ويظهر صورها وأنوارها على ماهى عليه لعميت الأبصار فى لمح البصر أو أقرب ، وكيف لاتعمى الأبصار وتلك أضواء تفوق الوصف .

وإذا كانت شمسنا الصغيرة لانطيق أن نحدق فيها على الأرض وبيننا وبينها نحو ٣٦٥ سنة بسير القطر البخارية فى أرضنا (و١٢) سنة بسير قلة المدفع ، فكيف بنا إذا رأيناها كأنها أمامنا ؟ فهل يبقى لنا بصرا ، ويبقى لنا وجود ؟ وإذا كان هـــذا فى شمسنا الضعيفة ، فما بالك بالشموس الأخرى التى نسميها كواكب ثوابت .

ألست ترى منى أن سياسة الأمم فى حربها أشبه بما نرى فى هذا الوجود كما سمعت عن أبى مسلم الخراسانى وعن الأمم الأوروبية : كالألمان الذين يكتمون ما يخترعون من المدمرات ، وكاليابان الذين لما حاربوا الروس اختبأت سفنهم فى البحر بأن لوّنوها بلون يشبه لون الماء وزرقة الجوّ فلم يفرق الروس إذن بين الأمواج والجوّ وبين سفن اليابان ، فانقضّ الآخرون على الأوّلين فأهلكوهم وكسبوا قضية الحرب ، فهذه من تقليل الكثير لأنهم أوهموهم ألا سفن أمامهم ثم انقضوا عليهم .

إن الله عز وجل جعل نظامه واحدا ، فإذا أرانا النجوم ضعيفة الضوء على حسب القانون المعلوم من أنه كلما طال البعد صغر الجسم ، فذلك ليسعدنا بالنظر إليها فندرسها ونعلم سيرها ، وبهذا نسافر فى البر والبحر بأنواع التجارة .

فإخفاء الحقائق هنا وكتمانها لمنفعة الناس ، قلل الله فى أعيننا تلك الأنوار العظيمة لإسعادنا بالتجارة والسفر للعلم ولكسب الرزق ، وأخفى الألمان والفرنسيون والمسلمون وغيرهم فى حروبهم أحوال جيوشهم فنصروا ، أخفى الله عظمة النور عن أعيننا بتباعد الأجرام المضيئة ، وأخفى اليابانيون سفنهم بإعطائها لونا يشبه لون الماء ، ونتيجة الأمرين واحدة هى جهل الحقائق فيكون النفع العظيم .

اللهم إنك محمود على جهلنا كما أنك محمود على علمنا ، جهل الإنسان أجله فعمر وزرع ونظم وهندس ودبر وأحكم وبنى ، كل ذلك لتكثير القليل ، ربما لايبقى من عمر الإنسان إلا أيام أو ساعات ، ولكن الله وضع فى قلبه آمالا جساما ، يطوف طائف الموت وينعب يوم الفناء ، وغراب الفراق والانطلاق من هذه الحياة ، ويدنو ملك الموت من المرء ولكن الله يكثر القليل فى عينه ليداوم على العمل ويقتطف الثمرات غيره .

فهذا هو تدبير الله فى خلقه وقد قلده عباده لاسيما رجال الحرب ونحن فى هذا التفسير إذا رأينا هذا الجمال فى العالم الذى نعيش فيه وأن ما نسمعه فى حروب الأمم نشاهده أمامنا وقليلا ما نعقله أشد فرحا وأعظم نصرا وأعز نفرا وأكثر جندا من قواد الحروب لأن ولوج أبواب العرفان والنصر على جيوش الغفلة والجهالة أرفع مقاما وأوسع فناء وأرقى درجة وأقدس منزلة وأبعد مدى وأبقى أثرا .

إن اللذات النفسية تكون على حسب المعلوم ، فكلما كان المعلوم أشرف كانت اللذة به أقوى ، وأىّ لذة أقوى مما تلاحظه نفوسنا من جمال هذا العالم الذى ينظره أكثر الناس وهم لايعقلون ماينظرون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ومن ذا الذى كان يظنّ أن تقليل الكثير فى الآية يحوى هذه المعانى ويجوس بلاد الألمان والروس واليابان وكواكب السماء ودنوّ الآجال ؟ أم من ذا الذى كان يظنّ أن آية واحدة من القرآن تسطع أنوارها

وتشرق في ميادين الحرب والنضال ومشارق الأنوار في عوالم السماء، وتكوين الأجنة في البطون إذ يكثر صاحب هذا العالم القليل من التربية في أعين الأمهات والآباء، فلا ترى أبا ولا أما يستطيعان فراق طفل أمره هين ضعيف جسمه قليل أثره فيكبر في أعينهما حتى يكون أعظم قدرا من الملوك والأمراء والعلماء والحكماء ويشجيه عندها .

فإذا قلل الله أمر الشموس والكواكب لنعيش بهذا التقليل وتقوى أبصارنا على رؤية النور الضئيل الذي يناسب عيوننا ، فهو هكذا عكس القضية في أمر التربية ، فعظم الولد في أعين أبويه حتى خيل لهما أنه سيكون أشجع من عنترة وأقضى من أبي حسن ، وأخطب من قس بن ساعدة وسحبان ، وأحلم من الأحنف ابن قيس ، وأوفى من السموءل بن عادياء ، وأسوس من (بسمارك) وأدهى من سيدنا عمرو بن العاص ، وأجمل من سيدنا يوسف عليه السلام ، وأعلم من عالم قريش الذي يملأ طباق الأرض علما ، وأرقى في الفلسفة من سقراط ، وفي الهندسة من إقليدس ، وفي الفلك من (فلامريوس) وفي الإنشاء من ابن المقفع والصابي ، وفي الشعر من أبي العلاء المعري وشوقي بك المصري .

هذا ماجعله الله في الأرض قانونا عاما أن كبر صغير الأبناء في عيون الآباء رحمة بالأولين وتسخيرا للآخرين كبر بالآلات المكبرة الأحجام فعرفنا سرها .

ذلك كله من سر قوله تعالى في هذه السورة « وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم » جل العلم وجل الله الذي أتقن كل شيء وأحسنه وقدره تقديرا ووزنه بميزان عدل ، فسخرنا بالتقليل والتكبير ونحن غافلون عما يراد بنا وكأن التقليل والتكثير المذكوران من أهم الأعمال الحربية والنظم العسكرية وتربية الذرية ، ونظام هذا الوجود كالمجموعة الشمسية ، انتهى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية .

هذا نهاية الكلام في قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والحمد لله على ما أنعم .

ولنشرع في الكلام على تفسير بقية السورة قال تعالى « ما كان لنبي أن يكون له أسرى الخ »

اعلم أن الغنائم لم تحل للأمم قبلنا ، فهاك تجد التوراة التي بين ظهرانينا مصرحة بهذا في مواضع كثيرة وكانت نار تنزل من السماء فتحرق ماغنموه من الأعداء ويحرم عليهم أن يتعاطوه . فلما كان يوم بدر وجيء بالأسرى وهم سبعون أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم أبا بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وقال عمر : يارسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، ومكني من فلان ( نسيب لعمر ) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا ، فقال له العباس قطعت رحمك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك ياعمر مثل نوح قال « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ، قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ثم

بعد هنيهة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء ، ثم قال صلى الله عليه وسلم إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم ، فقالوا بل نأخذ الفداء ، قال عمر : فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان ، فقلت يارسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( ما كان لنبىّ ) ، وقرئ « ما كان للنبى » ( أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ) يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقلّ حزبه ويعز الإسلام ويستولى أهله . يقال أثخنه المرض : إذا أثقله ، وهو من الثخانة ، إذ مقام النبوّة لنشر الدعوة وتثبيت الإيمان وهداية الناس ، وهذه أوّل غزوة غزوتموها فما كان لكم أن تستبقوا الأعداء لأخذ الفداء بل كان الإثخان فيهم أحرى بكم ( تريدون عرض ) الحياة ( الدنيا ) واختطاف الثمرة قبل أوانها بأخذكم الفداء ( والله يريد الآخرة ) يريد لكم سبب نيل ثوابها من إعزاز الدين وقمع الأعداء ( والله عزيز ) يغلب أولياؤه أعداءه ( حكيم ) فى تدبير مصالح عباده ( لولا كتاب من الله سبق ) لولا حكم من الله سبق إثباته فى اللوح وهو ألا يعاقب المخطىء فى اجتهاده ، أو لايعذب أهل بدر أو قوما بما لم يصرّح لهم بالنهى عنه ، أو أن الفدية التى أخذوها ستحلّ لهم ( لمسكم ) لأصابكم ( فيما أخذتم عذاب عظيم ) وقوله من الله صفة وسبق صفة ثانية لكتاب وخبره محذوف أى موجود ، قال محمد بن إسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا إلا وأحبّ الغنائم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ، وذلك لأن كلا منهما أشار بالإثخان .

ثم اعلم أن قوله تعالى « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » تنبيه على ما تقرّر فى الدين والحكمة أن تراكم الأموال وإقبال الدنيا مدعاة للتوغل فى اللذات والشهوات كما ورد فى حديث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها فقال قائل يارسول الله أو يأتى الشر من الخير » فشبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الدنيا وإقبالها بحال البهائم الراتعة فى الكلأ فهى قسمان : قسم يأكل ويشرب وينام فى الشمس وهو صحيح سليم ، وقسم منها يأكل ما يضره من الحشائش أو يميته ، وأن الكلأ والحشيش إنما نبت بسقى الماء النازل من السماء . فالمطر خير والنبات منه ما ضرّ ومنه ما نفع .

فهذا هو مثل الدنيا ، وعلى ذلك كانت الغنائم وكثرتها من أسباب تأخر الأمم إذا نامت على وساد الراحة وبطرت وفرحت فيخرج جيل قليل القوة لم يتعود العمل فتضيع الأمة وتهلك شأن الكاسلين النائمين ، ولقد علم أن هذه الأمة ستتوالى عليها الغنائم فذكرها بالعذاب وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أحل لهم ذلك واكتفى بوعظ الرسول لنا وتحذيرنا من الدنيا وغرورها وأن القرآن مملوء من التزهيد فى الدنيا وأن نبينا رحمة للعالمين ونحن تابعوه وهكذا فافهم .

ولما نزلت الآية التى نحن بصددها كفّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء والغنائم فنزل ( فكلوا مما غنمتم ) من الفدية وبقية الغنائم (حلالا) حال من المغنوم ( طيبا واتقوا الله ) فى مخالفته ( إن الله غفور رحيم ) أباح لكم ما أخذتم ( يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ) وفى قراءة « الأسارى » ( إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا ) إيمانا وإخلاصا وصحة نية ( يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ) من الفداء بأن يعطيكم فى الدنيا أضعافه أو فى الآخرة ثوابا (ويغفر لكم والله غفور رحيم ) نزلت فى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة

إلى بدر ، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية معه ، فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك ، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس : يامحمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذي دفعته أمّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ؟ فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم (يعني بنيه) فقال العباس : وما يدريك يا ابن أخي ؟ قال أخبرني به ربي ، قال العباس : أشهد إنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل وأمر ابني أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فأسلما ، قال العباس فأبدلني الله خيرا من ذلك إلى الآن عشرين عبدا إن أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم . وروى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين وهو ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرّقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ماقدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني ، قال تعالى (وإن يريدوا) أي الأسرى (خيانتك) نقض ما عاهدوك عليه ( فقد خانوا الله من قبل ) بأن كفروا ونقضوا ميثاقه المأخوذ عليهم من الدلائل العقلية (فأمكن ) أي أمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر فقتلوا وأسروا ، فإن عاد نقضهم العهد عاد الإمكان منهم ( والله عليم) بما في بواطنهم من خيانة أو نقض عهد (حكيم) بجعل العقوبة على الذنب والثواب على الحسنات (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ) وهم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أي آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار (أولئك بعضهم أولياء بعض ) أي يتولى بعضهم بعضا في الميراث وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة أو بالنصرة دون القرابات ، وكان من آمن ولم يهاجر لايرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ( والذين آمنوا ولم يهاجروا ) يعني آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شيء) يعني من الميراث ( حتى يهاجروا ) إلى المدينة ( وإن استنصروكم في الدين ) أي إن استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا ( فعليكم النصر ) أي فعليكم نصرهم وإعانتهم ( إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ) أي عهد فلا تنصروهم عليهم لأن ميثاقهم يمنعهم من أن يبتدئوا القتال فكيف تعينون الذين لم يهاجروا على قوم لايبتدئون أذاهم ( والله بما تعملون ) من صلح وغيره ( بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ) في الميراث ، ظاهره إثبات الموالاة بينهم ، ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصادمتهم وإن كانوا أقارب وأن يتركوا يتوارث بعضهم بعضا ( إلا تفعلوه ) أي إلا تفعلوا ما أمركم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضا في التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة ( تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ) أي تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا كما هو حاصل اليوم فترى أمراء الإسلام وعظماءه يتقربون من الفرنجة ويقاتلون معهم المسلمين في العراق والشام وبلاد الجزائر ومراكش ، ولولا إعانة المسلمين في الحرب العامة لأوروبا على المسلمين ما أخذوا بلاد الإسلام ، ولولا إعانة المسلمين للحلفاء لانتصرت ألمانيا على الحلفاء ، ولكن المسلمين ضيعوا مجدهم وقاتلوا في صفوف الأعداء ضدّ إخوانهم ، فانقلب الفرنجة عليهم وقسموا بلاد الإسلام بينهم ، فأخذ الإنجليز العراق وفلسطين ، وأخذ الفرنسيون الشام كما أخذت فرنسا قبل أربعين سنة تونس وقبلها الجزائر ، وأخذت إنجلترا مصر واقتسم

الفرنسيون والأسبان مراكش ، كل هذا لتقاطع المسلمين وجهالتهم ، ومصداق لقوله تعالى « إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » فهذه هي الفتنة وهذا هو الفساد الكبير ، وأي فساد أعظم من هذا أن يصبح المسلمون وممالكهم كقطع الشطرنج تنقل في الرقعة بلاعبها ويساقون للعذاب الهون ، ذلك لقلة العلم فيهم وغلبة الجهل وأن الطمع قد غشى على العقول والنفوس ، فلا ينظرون إلا بشهواتهم ولا يسمعون إلا بأطماعهم القصيرة النظر العديمة الجدوى ( والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ) .

ولما بين الله أحكامهم من حيث المعاملات أخذ يبين حقائق إيمانهم وما أعدّ لهم تبيينا لأحكام الآخرة بعد أحكام الدنيا ، وأيضا لما جعل الله في أول السورة للمؤمنين حقا هم الذين يوجلون عند ذكر الله ويزيدون إيمانا بتلاوة آياته ويتوكلون على ربهم ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة أبان في آخرها هنا أن المهاجرين والأنصار قد استوفوا شروط المؤمنين حقا ولذلك أعقبه بقوله ( لهم مغفرة ) لذنوبهم ( ورزق كريم ) في الجنة ( والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ) يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ( فأولئك منكم ) وذلك الترغيب .

واعلم أن المهاجرين الأولين هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل صلح الحديبية والمهاجرون الهجرة الثانية هم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة ، فقوله « والذين آمنوا وهاجروا الخ » يقصد به الهجرة الأولى ، وقوله « والذين آمنوا من بعد الخ » يراد به والله أعلم الهجرة الثانية ، فأما بعد فتح مكة فقد صارت دار إسلام لقوله صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين .

وقال الحسن الهجرة غير مقطوعة أي من بلد يخاف المؤمن على إظهار دينه فيه من كثرة الكفار ، فهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه ، وفي هذا إفهام أن المهاجرين الأولين أفضل من الذين بعدهم فألحقوا بهم ، قال تعالى ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ) .

قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فبهذا تبين أن سبب القرابة أولى وأقوى من سبب الهجرة والإخاء فهذا نسخ لما تقدم ، وكتاب الله أي حكمه أو اللوح المحفوظ ، وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام .

أما الشافعي رضي الله عنه فقال : كتاب الله حكم الله الذي بينه في سورة النساء ، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم ( إن الله بكل شيء عليم ) يعني أنه سبحانه عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

لطيفة

بينا أنا أكتب في تفسير هذه الآية وأنقل آراء الإمامين الجليلين أبي حنيفة وإمامنا الشافعي رضي الله عنهما واختلافهما واجتهادهما لمصلحة الأمة ، وكيف يقول أحدهما : لا توريث لذوي الأرحام ، ويورثهم الآخر ويحتج كل منهما بحجة على مافتح الله عليه ، فهذا يقول أولو الأرحام يشمل من في آية الميراث وغيرهم ، والآخر يقول حكم الله الذي ورد في سورة النساء يقيده «ولكل وجهة هو موليها» رأيت أنه مما يجب علي أن أقول في هذا المقام : لقد اجتهدا فأحسنا الاجتهاد وحافظا على حقوق الأقارب بقدر طاقتهما البشرية ، ولو أنهما كانا حيين ورأيا أوروبا واتهازها الفرص لاضطهاد الأمم الإسلامية وارتقاءها بالعلوم والمعارف والغنى والثروة والعلوم الطبيعية وما سخر الله لهم من العوالم المادية فأصبحوا ولهم مشارق الأرض ومغاربها ، لو أنهما كانا حيين لقالا معا بصراحة : إن قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ؟ » وقوله « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » وقوله « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وقوله « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم

الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار » وقوله « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » من الآيات التي تبلغ سبعمائة وخمسين آية من القرآن .

أقول : لو كانا حيين ونظرا ما نظرناه لقالا إن هذه العلوم يجب دراستها في جميع أقطار الإسلام دراسة كما تدرس الأحكام الشرعية بعناية أتمّ واهتمام أكمل ، ولقد أوجبت المذاهب كلها العلوم والصناعات على سبيل فرض الكفاية ، ولكن علماء الإسلام لم يعطوها العناية الكافية ، ولو أن في المسلمين مجتهدين الآن متيقظين لأحيوا العهد الأوّل ولحرّضوا المسلمين على علوم الكائنات وسبق المدون الفرنجة ، ولقال لهم علماؤهم من عرف فنّ الطبيعة والفلك والكيمياء فله ثواب من قرأ الميراث والوضوء والصلاة لأنها كلها علوم دينية .

لو أن هذين الإمامين كانا حيين لرأينا خلافهما فيما يجب على المسلمين من تلك العلوم ، ولرأينا حرصهما الشديد على أمتنا المسكينة .

حرام على علماء الإسلام أن يناموا ، حرام عليهم أن يذروا الأمة تتخبط وهم نائمون ، حرام على الحكماء في مصر وفارس والعراق والشام والترك وشمال أفريقيا وبلاد نجد أن لا ينشروا وجوب العلوم على المسلمين ليسابقوا الفرنجة وليقاوموهم ، فانظر كيف بلغ من اجتهاد إمامينا أن بالغا في مبحث أولي الأرحام هل هم خاصون بمن ذكروا في الآية ؟ أم هم أعمّ منهم مع أن المال الموروث لا يزيد بهذا التقسيم سواء أكان للعموم أم للخصوص . إن المال الموروث لم يزد بعد هذا كله ، ولكن المسألة في أن يعطى كل ذي حق حقه من أقارب الميت ، هذا هو الخلاف في الآية .

فانظر لجهالة المتأخرين من المسلمين وقد رأوا بأعينهم أن الغربيين قد سخروا الطبيعة ، فاستخرجوا منها أموالا وأموالا حتى أحاطوا بنا من كل جانب وفتحوا الممالك شرقا وغربا ودخل كل بيت من بيوتهم مكاسب ومكاسب ، ونالوا حظا عظيما مما رزقهم الله بهداية عقولهم وإرشاد حكمائهم وتبيان رؤسائهم ، كل ذلك رأوه فلم يحركوا ساكنا ولم يقولوا يا أبناءنا المسلمين ويا إخواننا المحمديين هذه أرض الله لكم وعواله فاملكوها واستخرجوا كنوزها حتى تقوى أمة الإسلام ، وانظروا كيف كان أئمتنا يحافظون على القليل الموروث فلا يأخذ زيد مال عمرو ، فكيف لا نحافظ على مال الأمة كلها الغني والفقير والمعظم والحقير ، ذلك المال المستخرج من الأرض والجبال والهواء والماء ، دونكم خواصّ الطبيعة وعجائب الكيمياء ، وكيف وصل الألمان إلى استخراج النترات من الهواء ، وأصبح الهواء المحيط بالأرض كنزا للآلات الحربية والسماد في الزراعة ومكسبا عجيبا ، والمسلمون يتنفسون في الهواء ويشربون الماء وهم غافلون عن استنباط الحيل في استخراج كنوزها ، وكيف أصبحت حركات الماء النازل من أعلى إلى أسفل كما في شلالات مصر أو الخزانات التي أنشئت على النيل مبدأ الكهرباء التي تبعث النور وتوقد النار وتجرى القطرات وتعطى الأمة من الفوائد ما لا حصر له ، فإذا جدّ أئمتنا وبحثوا ودققوا حفظا لمال الأفراد .

فياليت شعري كيف قصرت أنظار المتأخرين فناموا نومة أهل الكهف فلم يرفعوا أبصارهم إلى الميراث العام الذي يملأ البيوت جميعها مالا ويورثها جلالا ويجعل للأمة جمالا وكمالا ، فالأرض كلها لله « ولله ميراث السموات والأرض » وهذا هو الميراث الذي سخره لنا فقال « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه » فهو الوارث وهو المسخر ، ومن أعرض عن النعم فهو حقيق بالحرمان ، ومن كسل عن مواهبه باء بالخسران .

للميراث ميراثان : ميراث الحي وميراث الميت

إن ميراث الميت ميت وميراث الحيّ حي ، فالله هو الحي وهو الذي له خزائن السموات والأرض ،

إن ميراث الميت فى علم الفقه إنما ينفع أسرة واحدة بخلاف ميراث الحى فإنه ينفع الأمم كلها ، وميراث الميت يجعل الوارث بطىء الحركات قليل الهمة ، وميراث الحى وهو الله يعطيه للناس على قدر أعمالهم لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم فهو عدل ، ولقد نجد الذين رقوا أممهم فى الزمان الحاضر من العصاميين الذين لامال لهم ورثوه فجدّوا فى العمل فرفعوا شأن الأمم ، فأما الملوك الذين ورثوا ملكهم عن آبائهم ، فكثير منهم أصابوا الأمم بالنكبات وأحلوا بها الأزمات .

ولقد ترى الأمم الإنجليزية ضربت على كل تركة مقدارا من المال يكثر كلما كثرت التركة ويقلّ كلما كان المال قليلا ، وترى البلشفية منعت الملك وأمرت جميع الأمة بالعمل لترقى البلاد بأعمال أبنائها . النوع الإنسانى اليوم ولى وجهته شطر ميراث الله الذى له خزائن السموات والأرض ، فعلى المسلمين أن يوجهوا عنايتهم لذلك الميراث الذى يسع الممالك كلها ولم يضيق الله على أمة فيه ولم يمنعه عن أحد وإنما يعطيه بالعلم ، فكلما كان الناس أكثر علما بمصنوعاته كانوا أكثر ثروة وغنى .

إن الأنبياء لم يورّثوا مالا « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فالنبوّة فتحت باب العلم على مصراعيه ولكنها أقفلت باب المال من ناحيتها تنبيها على تلك الخزائن الإلهية والمواريث الربانية ، ومن هذا المقام « يرثنى ويرث من آل يعقوب » ذلك ميراث العلم ، فالأنبياء يورثون الناس علما وذلك مفتاح خزائن السموات والأرض .

وعسى الله أن يجدّد لهذه الأمة أمرها ويرجع مجدها ويرفع عنها نيرها ويجعلها رحمة للعالمين .

اللهم إنى لا أريد بكتابى إلا رقّ النوع الإنسانى . وأن يكون المسلمون أرشد العالمين وأصلح بنى الإنسان وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لايظلمون ولا يظلمون . انتهى تفسير سورة الأنفال .

# سورة التوبة

هى مدنية بالإجماع إلا آيتين فى آخرها « لقد جاءكم رسول من أنفسكم الخ » فإنهما نزلتا فى مكة وهى مائة وتسع وعشرون أو ثلاثون آية ، وتركت التسمية فى أولها لأنها نزلت لرفع الأمان ، والبسملة أمان ، لأن الرحمة فيها ، وأىّ أمان فوق الرحمة والتسمية افتتاح للخير ، وأوّل هذه السورة وعيد ونقض عهود ، وقيل إن الصحابة اختلفوا فى سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان ؟ فقال بعضهم هما سورة واحدة لأنهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات ، فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال ، وقال بعضهم هما سورتان : فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول إنهما سورتان ، ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة .

وسأل ابن عباس رضى الله عنهما فى ذلك سيدنا عثمان رضى الله عنه فقال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السور التى يذكر فيها كذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن اهـ .

### تقسيم سورة براءة

هى أربعة أقسام : [ أوّلها ] الآيات التى قرأها سيدنا على بن أبى طالب يوم الحج الأكبر ، وهى أربعون إلى قوله « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

[ ثانيها ] التحريض على الجهاد والإنفاق فى سبيل الله ووصف اليهود والنصارى والأحبار والرهبان والجزية والأشهر الحرم من قوله « إلا تنفروا يعذّبكم — إلى قوله — ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

[ ثالثها ] فى المنافقين وتوبيخهم وأحوالهم من قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا — إلى قوله — أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

[ رابعها ] الكلام على المؤمنين وأحوالهم من قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .

## ( القِسْمُ الأَوَّلُ )

بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

أليم

ألِيمٍ * إلا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله
لا يهدي القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم
وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه
ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم *
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان
ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم
وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
والله لا يهدي القوم الفاسقين * لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ
أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم
وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم
تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من
يشاء والله غفور رحيم * يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد
الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله
عليم حكيم * قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم
الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية
عن يد وهم صاغرون * وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله
ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون *
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا
إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم
ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا

مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ * إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ *

اعلم أن هذه الآيات أربعون وهي التي قرأها سيدنا عليّ يوم الحج الأكبر (العيد) على الناس .

وملخص هذا المقام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأمورا ألا يقاتل المشركين أولا ، والآيات في ذلك كثيرة مشهورة ، ثم بعد ذلك أمر أن يقاتل من قاتله . قال الحسن : أمر الله عزّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين ، فقال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » فكان لا يقاتل إلا من قاتله ، ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر اهـ .

وقوله رضي الله عنه فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر : أي إلا بني حمزة وهم حي من كنانة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدّتهم ، وكان قد بقي من مدّتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا عهدا ، وكان ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر : أي يوم العيد ، وكان ذلك في العام العاشر من شهر ذي القعدة فآخر الأشهر الأربعة العاشر من شهر ربيع الأوّل ، وإنما كان الحج في شهر ذي القعدة لأجل النسيء الذي كان يحسبه العرب ، فلما كان العام الذي بعده صار الحج في العاشر من ذي الحجة وفيها حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » الحديث .

وهذا لمن كان له عهد أقلّ من أربعة أشهر ، فأما من لم يكن له عهد فقد جعل عهده أربعة أشهر ، ومن كان عهده فوق الأربعة حط أجله إلى أربعة إن كان نقص شيئا من شروط العهد ، فأما إن كان أتمّ شروط العهد كبني ضمرة من كنانة فهؤلاء يوفى لهم بعهدهم .

سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر

اعلم أن مكة لما فتحت سنة ثمان من الهجرة وجاءت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج ، فقيل له : المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة ، فقال لا أحب أن أحج حتى لايكون ذلك ؛ فبعث أبا بكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج ، ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة : أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ولما كلم أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك قال : أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وأنك معى على الحوض ؟ قال بلى يارسول الله ! فسار أبو بكر أميرا على الحجاج وعلىّ بن أبى طالب يؤذن ببراءة ، فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر فى الناس وحدثهم عن مناسكهم حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأذن فى الناس بالذى أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة .

وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا : بأىّ شىء بعثت فى الحجة ؟ قال بعثت بأربع : لايطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك ، وأنزل الله فى العام الذى فيه نبذ أبو بكر إلى المشركين عهدهم « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » الآية ، وإنما أمر سيدنا علىّ بالنداء فى الناس ، لأن عادة العرب جرت أن لايتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه ، وكان على بن أبى طالب أقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أبى بكر لأنه ابن عمه .

ومما ذكره المفسرون فى سبب هذا النداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم ، وذلك قوله تعالى «وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» فى سورة الأنفال ، فها هو ذا النبذ على سواء .

ولما وقف سيدنا علىّ ونادى فى الناس بالآيات من أول براءة عند جمرة العقبة وقال : ياأيها الناس إنى رسول رسول الله إليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، ثم قال أمرت بأربع وهى المتقدمة : قالوا : عند ذلك ياعلىّ أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف .

هذا خلاصة ماذكره المفسرون مع تشعبه ، فلنشرع فى تفسير الآيات .

قال تعالى ( براءة ) أى هذه براءة ( من الله ورسوله ) البراءة التباعد عما تكره مجاورته ، قال الزجاج أى قد برئ الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا ( إلى الذين عاهدتم من المشركين ) أى هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ( فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ) أى فسيروا أيها المشركون فى الأرض كيف شئتم مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين ، والسياحة : الضرب فى الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة ، والمعنى قل لهم سيحوا ، والقصد من الأمر الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف والقتل والقتال ، وبعد الأشهر الأربعة التى شرحناها فيما تقدم وبينا ما اخترناه من كلام المفسرين يقتل المشرك حيث أدرك ، ويؤسر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان . ولا تظنوا

أيها المشركون أنكم تفوتون الله فلا يمكن المسلمين منكم ، كلا ! فلتعلموا أنكم لاتفلتون من أيدى المؤمنين ( واعلموا أنكم غير معجزى الله ) يعنى أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب ويؤمن ، وما مثلكم فى أنكم فى قبضة الله وقد أمهلكم ثم إذا أخذكم وسلط المؤمنين عليكم لن تفلتوا بل تنقادون إلا كمثل ماقال طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى مايشأ يوما يقده لحتفه ... ومن يك فى قيد المنية ينقد

فهكذا هؤلاء يسيحون أربعة أشهر كأنهم كالحيوانات المربوطة فى الطول وقد وضع الرجل ثنياه فى يده فيرتع الحيوان كما يشاء ومتى أراد الرجل جذبه ارتد إليه حالا ، هكذا الموت مع الناس ، وهكذا المؤمنون مع المشركين بعد الأشهر الأربعة ، فهم لايفلتون بل هم فى قبضتهم ، هذا معنى الآية لأن الله خاذل الكافرين ( وأن الله مخزى الكافرين ) بالقتل والأسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (و) هذا ( أذان من الله ورسوله ) أى إعلام صادر من الله ورسوله ( إلى الناس يوم الحج الأكبر ) يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمى ، وإنما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، وجملة وأذان معطوف على جملة براءة ، كأن الله يقول وإعلام من الله ورسوله ( أن الله ) أى بأن الله وحذفت صلة الأذان تخفيفا ( برىء من المشركين ورسوله ) برىء على قراءة الرفع . وقرىء « ورسوله » بالنصب عطفا على اسم أن ، وقرىء بالجر .

حكى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ «ورسوله» بالجر ، فقال إن كان الله بريئا من رسوله فأنا برىء منه ، فلببه الرجل إلى عمر فحكى الأعرابى قراءته ، فعندها أمر عمر بتعلم العربية وهذه قراءة واردة أيضا ، والجر إما على الجوار أو على القسم فرسوله مثلثة اللام (فإن تبتم فهو) أى فالتوب (خير لكم وإن توليتم) عن التوبة : أى ثبتم عن التولى عن الإسلام والوفاء ( فاعلموا أنكم غير معجزى الله ) غير فائتين من عذابه ( وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ) فى الآخرة ، ثم استثنى من قوله « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » فقولوا لهم سيحوا إلى آخره . قوله ( إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ) من شروط العهد ولم ينكثوه ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط كبنى ضمرة ( ولم يظاهروا ) أى ولم يعاونوا ( عليكم أحدا ) يعنى من عدوكم ( فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ) أى إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين ( إن الله يحب المتقين ) الذين يضعون الأمور مواضعها ويوفون بالعهود مع الموفين ولا يجعلونهم كالناكثين ( فإذا انسلخ الأشهر الحرم ) أى انقضت شهور العهد ، وإنما سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها وهى التى أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها ، وهذا اختيار مجاهد ومحمد بن إسحق وهو الذى يناسب نظم الكلام واتزان المعنى ( فاقتلوا المشركين ) الناكثين ( حيث وجدتموهم ) من حل وحرم ( وخذوهم ) وأسروهم ، والأخيذ : الأسير ( واحصروهم ) واحبسوهم ، أو حولوا بينهم وبين المسجد الحرام ( واقعدوا لهم كل مرصد ) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وهو منصوب على الظرف ( فإن تابوا ) عن الكفر وآمنوا ( وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ) حتى تصدق توبتهم وإيمانهم ( فخلوا سبيلهم ) فأطلقوهم بعد الأسر والحصر إن وقعوا فى قبضتكم ، أو دعوهم ولا تتعرضوا لهم إن لم تكونوا استحوذتم عليهم ، ومن ترك الصلاة ومنع الزكاة لايخلى سبيله ( إن الله غفور رحيم ) تعليل لتخلية سبيلهم ، فإن الله يغفر بالإسلام ماقد سلف للكافر ( وإن أحد من المشركين ) المأمور بالتعرض لهم ( استجارك ) استأمنك وطلب منك جوارك ( فأجره ) فأمنه ( حتى يسمع كلام الله ) ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ( ثم أبلغه مأمنه ) داره التى يأمن فيها إن لم يسلم ثم قاتله إن شئت ، فعلى

المسلمين أن لا يؤذوا مستأمنا وليس له أن يقيم فى دارنا وعلينا أن نمكنه من العودة ( ذلك ) الأمر بالإجارة ( بأنهم ) بسبب أنهم ( قوم ) جهلة ( لايعلمون ) ما الإسلام وما حقيقة مايدعو إليه فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحقّ ( كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ ) كيف استفهام فى معنى الاستنكار والتعجيب ، ومعناه الجحد أيضا : أى لايكون لهم عهد عندالله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ( إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ) وهم بنو ضمرة المتقدم ذكرهم ولم ينقضوا شرطا من شروط العهد ولم يعينوا عليكم عدوّا كما تقدم تفصيله فتربصوا أمرهم ( فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ) أى فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء ، وهذا كقوله فيما تقدّم « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم » ولكنه مقيد هنا بأن يستقيموا على العهد وما شرطية ( إن الله يحبّ المتقين ) الذين يتربصون ويستيقظون فى هذه الأحوال وأمثالها ويميزون بين الخبيث والطيب ( كيف ) تكرار تعجب واستبعاد : أى كيف يكون بينكم وبينهم عهد ( وإن يظهروا عليكم ) يغلبوكم : أى كيف وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ( لايرقبوا فيكم ) لايراعوا فيكم ( إلا ) قرابة ( ولا ذمّة ) عهدا ( يرضونكم بأفواههم ) بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد ، وهذا كلام مستأنف فى وصف حالهم وأن ظاهرهم بخلاف باطنهم وهو يقرر استبعاد الثبات منهم على العهد ، وكأنه قيل لماذا يوصفون بذلك ؟ فكان الجواب « يرضونكم الخ » ( وتأبى قلوبهم ) الإيمان والوفاء بالعهد ( وأكثرهم فاسقون ) ناقضون العهود متمرّدون فى الكفر لامروءة تمنعهم عن الكذب ولا فضائل تردعهم عن النكث وهذه حال أكثرهم ، أما أقلهم فهم وإن كانوا كفارا فهم ثابتون عن العدالة فى دينهم ، ولذلك لم ينقضوا العهد ( اشتروا ) استبدلوا ( بآيات الله ) بالقرآن ( ثمنا قليلا ) عرضا يسيرا وهو اتباع الشهوات ونقض العهود والمبالغة فى العداوات ( فصدّوا عن سبيله ) أى عدلوا عن دينه وصرفوا غيرهم ، أو صدّوا عن سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار ( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) والمقصود بالذم عملهم هذا ، ثم وصفهم هنا كما وصفهم قبلا بقوله « لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » وهذا غير ماتقدّم لأنه قال هناك «فيكم» وهنا قال «فى مؤمن» فهنا أعمّ . ويقال إن هؤلاء نقضوا العهد بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذمّهم الله بذلك ، وعلى هذا يكون هذا خاصا بهؤلاء ، والأوّل أعمّ ( وأولئك هم المعتدون ) المجاوزون الغاية فى الظلم والشرّ ( فإن تابوا ) عن الكفر ( وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم ) أى فهم إخوانكم ( فى الدين ) لا فى النسب ( ونفصل الآيات ) نبينها ( لقوم يعلمون ) يفهمون فيتفكرون فيها ، وهذه جملة معترضة ، يعنى ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه ، كأنه قيل إن من تأمّل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم وذلك التحريض على أن يتأمّل الناس مافصل من أحكام المشركين المعاهدين والمحافظة عليها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة . وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له . وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه : يعنى بذلك ماذكره أبو بكر فى حقّ من منع الزكاة وهو قوله : والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما ، يعنى الصلاة والزكاة .

وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقّ المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدّونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها

فقال

فقال عمر : فوالله ماهو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال » ، ثم قال تعالى ( وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ) أى وإن نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان ( وطعنوا فى دينكم ) وعابوه ( فقاتلوا أئمة الكفر ) فقاتلوهم ، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم صاروا بذلك رؤساء مقدمين فى الكفر ، فهم أحق بالقتل ( إنهم لا أيمان لهم ) على الحقيقة وإنما أثبت لهم الإيمان فى قوله « وإن نكثوا أيمانهم » لأنه أراد أيمانهم التى أظهروها ، ثم قال هنا لا أيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا ، وفيه دليل على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام فقد نكث عهده ، وهنا قال الحنفية إن يمين الكافر ليست يمينا ، ويقول الإمام الشافعى إن أيمانهم لا يوثق بها ويجعل يمينهم يمينا حيث وصفت بالنكث

أقول : ومتى كانت الأيمان معناها العهد لم يتأتّ هذا الخلاف ؟ ولا يكون إلا حيث يحمل اليمين بمعنى الحلف فى الموضعين ، وقوله تعالى ( لعلهم ينتهون ) أى فقاتلوا أئمة الكفر لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ورجعوا عن الكفر إلى الإيمان . ثم أخذ يحض المؤمنين على جهاد الكفار ، فقال ( ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ) نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا صلح الحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة ( وهموا بإخراج الرسول ) يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ( وهم بدءوكم ) يعنى بالقتال ( أول مرة ) يعنى يوم بدر إذ قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وبدءوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أتخشونهم ) أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ( فالله أحق أن تخشوه ) يامعشر المؤمنين فاخشوا ترك أمره ( إن كنتم مؤمنين ) أى إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده فاخشوه ، وهل يكمل الإيمان إلا بحصر الخشية فى الله وعدم المبالاة بمن سواه .

ولما انتهى من توبيخهم على ترك القتال أمرهم به فقال ( قاتلوهم يعذبهم الله – إلى قوله – ويذهب غيظ قلوبهم ) فجعل المرتب على القتال خمسة أمور :

(١) التعذيب بالقتل . (٢) والقتل بالقهر ونزول الهوان .

(٣) والنصر عليهم والظفر بهم .

(٤) وشفاء صدور المؤمنين وشفاء داء قلوبهم بما كانوا ينالونه من الأذى منهم ، ولا ريب أن من آذاه خصمه أمدا طويلا ثم مكنه الله منه فإنه لامحالة يعظم سروره .

(٥) وذهاب غيظ القلوب لما لقوا من المكروه .

وكل هذا قد حصل وهذه من دلائل النبوّة ثم استأنف قائلا ( ويتوب الله على من يشاء ) كبعض أهل مكة كأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو ( والله عليم ) بما كان وما سيكون ومنه علم القلوب الصالحة للإيمان ( حكيم ) فى قبول توبتهم وإيمانهم .

ولما كان ماتقدم يرجع إلى القتال وإقامة الحروب وإخضاع الأعداء وكان ذلك شاقا على النفوس صعبا على الناس أردفه بأن الناس فى الدنيا مخلوقون للأعمال مبتلون بأثقالها والجهاد فيها ، فمن جد وصبر فاز ، ومن سقط فى الامتحان نزل به الهوان ، وهذا هو قوله ( أم حسبتم – إلى قوله – والله خبير بما تعملون ) أى أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تختبروا ليظهر الصادق من الكاذب ، والغثّ من السمين ، والجيد من الردىء ، وهل تتركون ولم يتبين المجاهدون منكم ولم يتخذوا « وليجة » أى بطانة من دون الله ورسوله .

وملخص الآية أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين « والله خبير بما تعملون » يعلم غرضكم منه ، ثم إنه هاهنا شرع الله عز وجل يبين فضل الإيمان والجهاد ويعطى للسابق صورة صادقة

الـمسلم الصادق ، فهو أولا يفضل الإيمان والجهاد على عمارة المساجد ، لأن عمارة المساجد لافائدة منها إذا لم يكن العمر مؤمنا ، وكيف يعمر المسجد وعبادته ملغاة ؟ أم كيف يعمر المسجد والعدوّ محيط به من كل ناحية ؟ على المسلم تصحيح العقائد أولا ، فإن الجسم لاينشط إلا على مقتضى الإرادة ، وأن يجمع الجيوش ويطارد الأعداء ويخيف الأمم حوله حتى لايطمعوا فى دياره .

ولعمرى كيف يصلى الناس وهم خائفون ؟ أم كيف يتعبدون فى المساجد وهم محاصرون ؟ أم كيف يقومون بأعمالهم الدينية وهم لايعتقدون ؟ وثانيا وضع الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمسكن فى كفة والإيمان والجهاد فى كفة ، وفضل الكفة الثانية على الأولى ، ذلك لأن من اكتنفه العدوّ وأحاط به الظالمون من كل صوب فأبناؤه وأهله وأقاربه وماله ومسكنه وجميع مايتمتع به فى حكم المفقود لأن العدوّ سيأخذه منه ويحرمه ، فاقتضت السياسة الحكيمة أن الجهاد والإيمان يقدمان على سائر ماذكر ، إن الجهاد به صيانة الأمة وحفظها ، وقد هدّد من أحبّ هذه الأمور وفضلها على الجهاد والإيمان بعقاب شديد وقد عرفت العقاب ، فهو الذى وقع فيه المسلمون اليوم فقد ضعف الإيمان وقلّ الجهاد ، فأخذ الفرنجة المسلمين من كل جانب وهذا مصداق الآية ، وهذا هو قوله تعالى «ماكان للمشركين» إلى قوله «والله لايهدى القوم الفاسقين» .

وسبب نزول الآية أن أسرى بدر من قريش الذين تقدم ذكرهم فى سورة الأنفال ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل علىّ بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس : مالكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقيل له وهل لكم محاسن ؟ قال نعم . نحن أفضل منكم ، نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى : يعنى الأسير ، فنزل قوله تعالى ( ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ) سواء أكان المسجد الحرام أو غيره ( شاهدين على أنفسهم بالكفر ) بإظهار الشرك وتكذيب الرسول وعبادة غير الله ، وقد كان أهل مكة يطوفون بالبيت عراة ، وكانوا كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام ( أولئك حبطت أعمالهم ) التى عملوها فى الكفر من أعمال البرّ مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العانى وكل عمل ليس لله فقد حبط وبطل ( وفى النار هم خالدون ) أى من مات منهم على الكفر ، فإذا كان أهل مكة قد عمروا المسجد الحرام فليس بنافع لهم لأمرين :

الأول : أن أعمالهم حبطت بكفرهم .　　الثانى : أنهم مغتصبون لحقوق المسلمين .

فالأوّل فى الآية السابقة . والثانى فى قوله تعالى ( إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ) أى إنما تستقيم عمارة المساجد لمن جمعوا بين قوّتى العلم المعبر عنه بالإيمان الخ والعمل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية أحد فى أبواب الدين إلا الله ، فهؤلاء وحدهم الذين يقومون بتزيين المساجد بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها ، فلو أوصى كافر ببناء مسجد لم تقبل وصيته وهكذا يمنع الكفار من دخول المساجد بغير إذن مسلم وإذا دخل بغير إذن عزّر ثم إن الله لما خصص المؤمنين الموصوفين بما ذكر بعمارة المساجد لم يشأ أن يؤمنهم من حوادث القدر ، بل أبقى لهم خوفا فى نفوسهم لئلا يظنوا أن الاتصاف بما ذكر كاف للسعادة فإن هناك من الأمور النفسية والأخلاق السبعية والعوارض الشيطانية فى النفوس الإنسانية مايبعث على الخشية المذكورة فى الآية فلذلك أعقبه بقوله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) بصيغة التوقع فهؤلاء مع كمالهم فى الإيمان يتوقع لهم الهداية. ثم أخذ سبحانه يزيده إيضاحا ويؤكده فقال على سبيل الاستفهام الإنكارى ( أجعلتم الخ ) السقاية والعمارة

مصدران ، أى أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ، ثم قرّر الحكم فقال ( لايستوون عند الله ) وبين عدم المساواة فقال ( والله لايهدى القوم الظالمين ) ولا جرم أن الكفر ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم ظلم فكيف يساوى هؤلاء الذين هداهم الله وقبلوا الحق ، ثم بين طائفة أعلى من غيرها وأعظم قدرا من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وممن لم يستجمع الصفات المذكورة الآتية ، وتلك الصفات الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، فهؤلاء أعظم درجة من غيرهم ( وأولئك هم الفائزون ) بالثواب ونيل الحسنى عند الله ، لأن المجاهد بنفسه وماله فوق المصلى المزكى الذى لايجاهد، ولذلك قال فيما تقدم « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » وهنا خصهم بالفوز وأتبعه بالبشارة من ربهم بأنه يرحمهم ويرضى عنهم ويدخلهم جنات نعيمهم فيها دائم وهم خالدون فيها خلودا مؤكدا بالتأبيد وعند الله الأجر العظيم الذى يحتقر دونه نعيم الدنيا ، ولانسبة بين أعمال العاملين والأجر الذى استوجبوه

ثم أخذ سبحانه يبين أن الأمّة مالم تجتمع أفرادها على رأى واحد تفرقت وحدتها وزالت جامعتها وأمّ ذلك الاجتماع على الإيمان ، وقد يستبدله قوم بالوطنية وآخرون باللغة إلى آخر ما فى كتاب أهل المدينة الفاضلة الفارابى فنهى سبحانه أن يتخذ المؤمنون آباءهم وإخوانهم أولياء يوالونهم إن آثروا الكفر على الإيمان وأوعدهم قائلا ( ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ) ثم بين أهمّ مايحبه الناس فى الدنيا وهى ثمانية وفضل الجهاد والإيمان عليه قائلا (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أقرباؤكم (وأموال اقترفتموها ) اكتسبتموها ( وتجارة تخشون كسادها ) فوات وقت نفادها وقوله ( فتربصوا حتى يأتى الله بأمره الخ ) وعيد وتهديد بضياع الأمّة وتشتيت شملها .

لطائف فيما تقدم من الآيات من هذا القسم من السورة

[اللطيفة الأولى] فى قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .
[اللطيفة الثانية] فى قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الخ » .
[اللطيفة الثالثة] فى قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول » .
[اللطيفة الرابعة] « أجعلتم سقاية الحاج الخ » .
[اللطيفة الخامسة] « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « ونفصل الآيات الخ » والكلام على الأمم الإسلامية ونومتها

انظر إلى اجتهاد أبى بكر الصديق وكيف يقول بعض الأجلة الأعلام من صدر الأمّة الإسلامية : ما كان أفقه أبا بكر، يريد بذلك أنه لم يفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة لما جاءه عمر رضى الله عنه قائلا : ياأمير المؤمنين اكتف منهم بالصلاة ، وردّ عليه قائلا وقد أخذ بلحيته يارجل أجبار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام والله لو منعونى الخ .

فتعجب كيف كانت قوة الإسلام ومنعته وبقاؤه وبهجته ورونقه وملكه لفارس والروم وحفظه الثغور راجعات كلها إلى أمر واحد وهو قرن الصلاة بالزكاة وقد فهمها أبو بكر وعمل فحفظ بها الوحدة وبين الله أهمية ذلك بقوله « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وقد قال بعض المفسرين إنه بذلك يستثير الهمم ويحرض الأذكياء على الفهم فى أمر المعاهدات ، وكأنه قيل من تأمّل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم ، وقد ظهر أن أوّل من استحق منقبة العلم فى هذا الباب أبو بكر الصدّيق ، فهو الذى فهم وهو الذى عمل .

هذه هى المقدمة التى أكتبها للنتيجة التى أمليها ، وهى :

العلوم المسماة بالعصرية من السموات والأرض وعجائب الحكمة الإلهية

انظر أيها الذى كيف استقامت أمة الإسلام ونجح الصديق فى أمره ؟ بماذا ؟ بماذا جمع الإسلام ؟ جمعه بقرن الصلاة بالزكاة وهو الذى تفطن لهذا وحده ثم اتبعه المسلمون وأذعنوا ، وبماذا مدحه الله ؟ مدحه هو وأمثاله بالعلم ، بماذا ؟ بأنه عرف تحصيل هذه المسألة السياسية العمرانية الدينية فهل فطن المسلمون بعد ذلك فى هذه العصور ؟ عصور العلم والعرفان ، عصور الحكمة والنور ، عصور الكشف الحديث ، عصور الكهرباء والبخار ، عصور الكيمياء والحديد ، عصور المواد اللطيفة الهوائية التى بها تطير الطيارات وتحلق فى جو الفضاء ، عصور انقلاب المعمورة وتغيير العالم الإنسانى وإنزال الصواعق من الطيارات ، هل فطنوا على من تقع تلك الصواعق ؟ على الجاهلين ، من هم الجاهلون ؟ الجاهلون بنظام الله ، الجاهلون بما خلق الله ، الجاهلون بهذا العالم المملوء جمالا وحكمة وبهاء وحسابا ووزنا ، كل العالم موزون منظم بهج بديع ، فواحسرتاه على أمة الإسلام ، ووا أسفاه على هذه الأمة النبيلة التى خلقها الله فى الشرق مهد العلم والحكمة والفلسفة .

فياليت شعرى كيف يكون الشرق مهد المدنية والعرفان وينزل فيه نبى صادق منهم ثم يكون ذلك الشرق نفسه مهد الغباوة والجهالة ، وكيف أصبح فى ظلام دامس وجهل طامس ، لعلك تقول إنك بهذا القول خرجت من المقام ودخلت فيما ليس منه ، وأى مناسبة بين المعاهدات الإسلامية والنظامات الكونية ، وإنما أنت تريد أن تذكر العجائب الكونية بمناسبة وغير مناسبة ، لأن هذا تخيل فى الكلام وخروج عن سنن التأليف وهذا مما تنفر منه الطباع ويأباه العلماء الأعلام .

أقول على رسلك إن هذا المقام به أليق وهو به حقيق ، ألا ترى أن مناعة أمة الإسلام التى جاءت من اقتران الصلاة بالزكاة وقد مدح من يعرفها بالعلم ، قد جاء فى القرآن فى سورة الأنعام نظير هذا المدح ، بل هو أبلغ منه فيمن يعرف علم النجوم وسيرها وعلم التشريح وعلم النبات وما أشبه ذلك ، فإذا قال الله هنا « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » فقد قال فى سورة الأنعام « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ثم شرع بذكر الجنات والأعناب والنخيل وقال « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

فانظر كيف يقول هناك قد فصلنا فجاء قد للتحقيق وفيها فصلنا بصيغة الماضى وهى تفيد التحقيق وعبر فى جانب الأمور الطبيعية وهو التشريح بالفقه وهو أبلغ من العلم لدلالته على شدة الفطنة ، وختم بأن هذه دلالات لقوم يؤمنون .

فانظر كيف ابتدأ الله الآيات بأنه عزيز عليم وبأن من يعرفها عالم فقيه مؤمن ، فهذه الصفات الثلاثة التى ترتبت على معرفة هذا العالم المحيط بنا من النبات والحيوان والإنسان والتشريح والفلك وجميع العلوم الطبيعية لم تذكر فى هذا المقام مقام المعاهدات والمعاملات المدنية ، بل قال « نفصل الآيات لقوم يعلمون » وهناك أكدها بقد وكون الفعل ماضيا .

أفلا تعجب من المسلمين كيف يتفطن الصديق لمسألة إسلامية جمع بها الأمة كلها وهى قرن الصلاة بالزكاة ، ولما جاء هذا العصر الحاضر وجدنا أنفسنا اليوم لا فى العير ولا فى النفير ، فلا نحن حافظنا على ما ورثناه من أولئك الأشراف الأكابر من العلوم العملية ، ولا نحن رفعنا أبصارنا إلى ما حولنا وحولنا وجهة الأمراء الإسلاميين ورؤساء العشائر من التخاذل إلى الأمم التى حولهم وكيف سبقوهم فى العلوم

واستخدموا الطبيعة فأعطاهم الله مما في خزائنها ، وكيف ناموا عن القرآن ولم يتفطنوا لما تفطن له أسلافنا الكرام .

ولو أنهم نظروا نظرات صادقات لوجدوا من الحثّ على العلم في الآيات السابقة ما يبهج الصدور ويبعث الهمم إلى حوز العلوم وفهمها ، وكيف كان القرآن قد أعطى العلوم الطبيعية والفلكية من الأهمية فوق ما أعطى العلوم الفقهية التي منها أمر المعاهدات في الآيات التي نحن بصددها .

يا عجبا كل العجب ! هل غاب عنكم يا معاشر علماء الإسلام أن هذه العلوم الكونية هي التسبيح وهي العبادة وهي التوحيد وهي الذكر وبها الفكر وبها حبّ الله ، وبها فضلا عن هذا كله الجهاد العلمي والرقّ الفكري والغنى والثروة وغلبة الأعداء .

لقد ظهر الآن سرّ القرآن ، هذا هو السرّ المكنون ، هذا هو العلم المخزون ، هذا هو الذي خبأه الله في القرآن ليظهره الآن على قلوب قوم يخلقهم لهذا في هذه الأمة فيسوقون الأمة الإسلامية إلى دراسة العلوم والعرفان ويقرءون مافي الأرض والسماء من العوالم المحيطة بنا حتى يكونوا عباد الله حقا وحتى يكونوا خلفاء الله في أرضه ، وحتى يكونوا رحمة للعالمين ، وحتى يظهر الله الإسلام على الدين كله .

وإلا فماذا ترى الله يصف نفسه في تلك الآيات بالعزة والعلم ؟ ويصف العالمين بها بالفقه وبالعلم وبالإيمان؟ تبارك الله ربّ العالمين .

إن فرق مابين العلوم الفقهية والعلوم الكونية كالفرق مابين ذلك المدح العجيب بالعلم والفقه والإيمان في آيات الأنعام مع الصيغة المفيدة التحقيق ، وبين مجرّد الوصف بالعلم مرة واحدة بصيغة المضارع .

ولقد وصف العالمون بهذه العلوم أيضا بأولي الألباب والمتقين والموقنين وأنهم يعلمون ؛ بجميع صفات الكمال من علم وإيقان وفقه وأنهم أولو الألباب .

كل ذلك وصفهم الله به ، وكيف لايوصفون به وقد علمت أن قرن الصلاة بالزكاة وتوزيعها على الناس يفيد العدل فيما ملكه الناس ، فأما العلوم الطبيعية ونظام الله فإنهما يفيدان الناس فوق معرفة الله مالا وغنى وثروة وقوة حربية .

جلّ الله الذي ألبس المعاني الألفاظ التي تناسبها ، فمدح عالم الزكاة بمدح أوجز من مدح العلوم الكونية لما يغدقه على الناس من نعمه بتعاطيها ، وجلّ الله الذي غشى على عقول المتأخرين من المسلمين فحرمهم ذلك ، وهاهو ذا يريد أن يطلعهم على خزائن نعمته والهمهم من الآن دلائل رحمته وبدائع حكمته « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

اللطيفة الثانية « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية

لقد كثر الحضّ في القرآن على الجهاد وهي قاعدة مقررة ألا سعادة في دين ولا دنيا إلا بنفس الجهاد ، فأما اللذات والشهوات والأماني فإنما هي وقتية ، والسعادة إنما قرنت بالصبر والجهاد في جميع الحياة ؛ فليجاهد الإنسان في العلم والعمل والصدق والأمانة ، فبهذا الجهاد وحده تكون السعادة ، وهذا المقام مستوفى في سورة البقرة عند قوله تعالى « ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع الخ » .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم الخ »

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح ، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا

عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الخبر فى أبيات من الشعر كما يروى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانصرت إن لم أنصركم وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فهؤلاء هم الذين نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم البادئون بالأذى وقد حصل جميع مافى الآية وهو معجزة .

الطيفة الرابعة « أجعلتم سقاية الحاج الخ »

فى البخارى عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى ، فقال العباس : يافضل اذهب إلى أمك فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها ، فقال اسقنى ، فقال يارسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه ، قال اسقنى ، فشرب منه ، ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها ، قال : اعملوا فإنكم على عمل صالح » .

وروى مسلم عن بكر بن عبد الله المزنى قال : « كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال : مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ ؟ أمن حاجة بكم ، أم من بخل ؟ فقال ابن عباس : الحمد لله مابنا من حاجة ولا بخل ! إنما قدم النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة ، فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا » فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

والنبيذ : هو التمر ينقع فى الماء غدوة ويشرب عشاء ، أو ينقع عشاء ويشرب غدوة ، لكن إن غلى وحمض حرم .

اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ »

لقد تكرر فى القرآن الحض على الاتحاد فلا أمة تقوم إلا به ، والاتحاد إنما يكون بالقلوب ومتى تفرقت وجهة النظر تفرقت الأمة ، وهذا المقام قد شرحناه مرات كثيرة فى هذا التفسير والله أعلم .

ولما كان تفضيل الإيمان على حب الثمانية المتقدمة فى الآية وهى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن المحبوبة يؤدى إلى اتحاد الأمة ، وضد ذلك يؤدى إلى تقاطعها وتدابرها وتمزيقها لعدم الاتحاد والالتئام ، وكان ذلك قد توافر عند أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وجيوشه الكماة أعقب ماتقدم بقوله ( ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ) يعنى مواطن الحرب كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وتبلغ غزوات النبى صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، وقد قاتل فى ثمان منهن .

ثم إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه ثمانون ، وخص موضعا منها بالذكر وهو يوم حنين فقال ( ويوم ) أى واذكروا يوم ( حنين ) واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا . وقال عروة : هو إلى جنب ذى المجاز .

أعلمنا الله بهذا أنه هو الذى يتولى نصر المؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له ؛ فلأذكر مختصر الغزوة وما يهم منها ثم نأتى بالآيات بعدها .

روى أن الغزاة فى حنين كانوا اثنى عشر ألفا ، منهم عشر حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء وكانوا يومئذ أكثر ماكانوا ، وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف ، وكان على هوازن مالك ابن عوف النضرى ، وعلى كنانة ابن عبد ياليل ؛ فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ، فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن

الدرارى ، ثم تنادوا ياحماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه ليس معه إلا عمه العباس رضى الله عنه آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، فقال للعباس وكان صيتا صح بالناس ، فنادى يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس : أى اشتدت الحرب ، والوطيس : التنور ، ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، وقال شاهت الوجوه ، فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم وأعطى المؤلفة قلوبهم مالا كثيرا كأبى سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن، كل واحد مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس أقل من ذلك فأنشد شعرا فى ذلك فكمل له المائة ، ولم يعط الأنصار شيئا وأفهمهم أنه يتألف حديثى العهد وأنه هو نفسه معهم فرضوا بذلك .

فلنفسر الآيات، يقول الله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ) من الإغناء (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ) أى مع رحبها وهى فى موضع الحال: أى ملتبسة برحبها كقولك دخلت عليه بثياب العز : أى ملتبسا بها ، والمقصود أنهم لم يجدوا موضعا لفرارهم عن الأعداء ، فكأن الأرض ضاقت مع ما هى عليه من السعة (ثم وليتم مدبرين ) منهزمين ( ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) الذين انهزموا ، والسكينة : الطمأنينة ، فإن الخائف يرتجف غير مستقر ، والآمن فى سكون ، فالسكينة كناية عن الأمن ذلك أن جمع هوازن وبنى النضر رشقوا الغزاة من المسلمين بالنبال وكانوا لايخطئون المرمى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء فنزل ودعا واستنصر وقال : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ؛ وذلك حين حمل المسلمون على الغنائم فشغلتهم وكان ما كان (وأنزل جنودا لم تروها) بأعينكم ، يعنى الملائكة . وقد اختلفوا فى عددهم ، ولقد سبق القول فيهم فى آل عمران والأنفال .

وروى أن رجلا من نضر يقال له شجرة ، قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ؟ ما كنا نراكم فيكم إلا كهيئة الشامة ! وما كان قتلنا إلا بأيديهم ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة . وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم ، فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتلقانا عنده رجال بيض الثياب حسان الوجوه ، فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، انتهى .

واعلم أن هذه الروايات لم ترد فى الصحيح وقد تقدم تحقيق المقام فى الأنفال فتفطن ( وعذب الذين كفروا ) بالقتل والأسر والسبى ( وذلك جزاء الكافرين ) أى ما فعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا ( ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ) وقد تاب على بعض هؤلاء بأن وفقهم للاسلام ، فإن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقالوا يارسول الله ! أنت خير الناس وأبرهم وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، وكان السبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لايحصى ، فقال صلى الله عليه وسلم اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم ، فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرناهم مابين الذرارى والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، فقالوا رضينا وسلمنا ، فقال إنى لا أدرى لعل فيكم من لايرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا

إلينا فرضوا أنهم قد رضوا ، ثم خاطب الله المؤمنين فى شأن المشركين قائلا (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) لما فى نفوسهم من الخبث والرجس وما فى عقائدهم من الزيغ وما فى أبدانهم من القذر فلا يتطهرون وما عندهم من الحدث الأصغر والأكبر كالجنابة فلا يغتسلون وما فى أعمالهم من الأذى فيجتنبون كما يجتنب كل ذى مرض معد وكل حيوان مفترس ، ويقول ابن عباس إن أبدانهم نجسة كالكلاب ، ويقول الحسن ابن صالح من مس مشركا فليتوضأ ومثله الزيدية (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) فلا يحجون ولا يعتمرون عند أبى حنيفة ، ويجوز للمعاهد دخول الحرم عنده ، أو لا يدخلون الحرم مطلقا فضلا عن المسجد الحرام عند الشافعى وأحمد ومالك ، ولا يدخلون غير المسجد الحرام من المساجد قياسا عند مالك .

والمراد بهذا العام السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك كما تقدم .

أما بلاد الحجاز فيجوز للكفار دخولها والإقامة فيها ثلاثة أيام ، ففى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما » . وفى رواية لغير مسلم قال « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا ، عن ابن شهاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » أخرجه مالك فى الموطأ .

ولما كان المشركون قد منعوا أن يقربوا المسجد الحرام وذلك يدعو إلى عدم دخول الحرم ، فدخول الحرم اقتراب من المسجد كان ذلك داعيا أن يبقى أهل مكة جياعا فقراء لمنع التجارات والطعام التى كان يجلبها المشركون إليهم كل عام ، لذلك أعقبه تعالى بقوله (وإن خفتم عيلة) فقرا (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه ، وقد صدق الله وعده وأرسل السماء عليهم مدرارا وكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة ، ومما أعطاهم الله الجزية أيضا ، وإنما قال (إن شاء) ليوجه الآمال إلى الله وأنه متفضل (إن الله عليم) بأحوالكم (حكيم) فيما يعطى ويمنع (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق) الثابت الناسخ للأديان كلها (من الذين أوتوا الكتاب) وهذا بيان للذين لا يؤمنون (حتى يعطوا الجزية) أى ما تقرر عليهم ، وهذا مشتق من جزى دينه إذا قضاه حال كونها (عن يد) أى نقدا مسلمة عن يد إلى يد أو مواتية غير ممتنعة : أى منقادين أو مسلمين بأيديهم فلا يبعثونها بأيدى غيرهم أو عن غنى لأنها لا تؤخذ من الفقراء عند بعضهم أو عن يد قاهرة فوقهم أو عن إنعام ، لأن بقاءهم وأخذ الجزية منهم نعمة عظيمة .

فهذه خمسة معان وكلها لا تنافى بينها لأنهم أذلاء ، والقاهرون لهم أقوياء ويسلمون الجزية وينعم عليهم وهكذا (وهم صاغرون) أذلاء ، وإنما كان هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ ، لأنه سيأتى أن اليهود يجعلون عزيرا ابن الله والنصارى يجعلون المسيح ابن الله وهم يتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله فى التشريع فيحللون ويحرمون كما يشاءون ، فهذا قوله « لا يؤمنون بالله الخ » وأما قوله «ولا يحرمون الخ» فإنهم لا يحرمون ما حرم الكتاب والسنة فلا يحرمون الخمر والخنزير .

(١) ثم إن الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى من غير العرب بالإجماع .

(٢) وتؤخذ من العربى كتابيا كان أو مشركا عند أبى يوسف .

(٣) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا أو عجما عند الشافعى .

(٤) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ومن مشركى العجم ولا تؤخذ من مشركى العرب عند أبى حنيفة .

(٥) وتؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد عند مالك والأوزاعى .

(٦) وتؤخذ من المجوس باتفاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

مقدار الجزية

(١) لاشىء على الفقير الذى ليس كسوبا .

(٢) وعلى الفقير الكسوب ١٢ درهما .

(٣) وعلى المتوسط ٢٤ درهما .

(٤) وعلى الغنى ٤٨ درهما ، وهذا مذهب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه .

ولا تؤخذ الجزية من الصبيان ولا النسوة ولا العبيد ، وقد قدرت أيضا بدينار ودينارين وأربعة دنانير الفقير والمتوسط والغنى ، وقال أصحاب الشافعى : لاتجوز الزيادة على دينار إلا بالتراضى فالديناران والأربعة للمتوسط والغنى عند التراضى وإلا فلا .

مناكحة المجوس والصابئين وذبائحهم

اتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب ومن دخل فى دين اليهود والنصارى قبل النسخ فحكمه حكم اليهود والنصارى تحل مناكحتهم وذبائحهم ، والصابئون والسامرة مثلهم مثل أهل الكتاب فهم كأهل البدع فى المسلمين .

ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم دينا وكيف يصفهم بأنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقال ( وقالت اليهود عزير ابن الله ) وذلك لأن بختنصر قتل كل من يحفظ التوراة ، وكان العزير قد أماته الله مائة عام ، فلما أحياه الله قال لقومه : أنا أملى عليكم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا ماهذا إلا أنه ابن الله ، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالتكذيب ( وقالت النصارى المسيح ابن الله ) لأن الولد الذى لا أب له مستحيل عادة ، ولأن إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لايقوم بهما إلا من كان إلها .

ويقال إن النصارى كانوا على الدين الحق بعد رفع المسيح إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له ( بولس ) قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ، ثم قال بولس لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإنى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ، ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم إنه أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت ؟ قال أنا عدوكم بولس فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم ، فأدخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت من السماء أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان ، فعلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة ، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله . وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولايزال ، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له أنت خالصتى وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم إنى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسى تقربا إلى عيسى ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه ، وتفرق هؤلاء الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، والآخر إلى ناحية أخرى فتفرق الناس فرقا بهذه المذاهب .

واعلم أن هذه الحكاية وإن كان لا دليل يقطع بصحتها تقرّب الحقيقة لمن يريد أن يعرف اختلاف المسيحيين ، ألا ترى أن اختلاف المسيحيين بعد تلك الأيام كان على هذا المنوال تأمّل .

حقيقة هذه المسألة فى التاريخ

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر : إن بولس رجل فريسى ويعرف اللغة العبرية فاحتقر فى بادئ الأمر الرسل ولم ير المسيح ولا سمع كلامه ومع ذلك ادّعى أنه قد خصت به المعرفة وحده وأخذ يخاصم بطرس ويوبخه فتألف إذ ذاك أى بعد موت المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى : صنف يتبع من بقى من الرسل فى أورشليم ، والثانى تابع لبشارة بولس الذى ادّعى أنه أوحى إليه من المسيح ذاته ، وبعد حين تمرّد اليهود على نيرون فنشبت الحرب فى اليهودية بقيادة فسباسيانوس الرومانى ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠م) وخرب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتا ولم يبق من الرسل إلا يوحنا وفيلبس ، ولم يبق إذ ذاك من الدين إلا أحاديث متفرّقة على ألسنة الأساقفة واختلطت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وما جاء آخر الجيل الأوّل حتى نشأت عدة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصى منها فى الجيل الأوّل والثانى (٣٥) إنجيلا وصاحب الإحصاء هو فابريسيوس ، واختيار الأناجيل الأربعة كان فى الجيل الثانى ونسبتها إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا من المشاكل التى تعذر على العلماء حلها .

تأيخ الخلاف فى النصرانية

فى سنة ٣٨٤ م أصدر البابا داماسيوس إلى مارايرونيجوس أن يحرّر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والجديد وكان ( تيودوسيوس ) الملك فى ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات فأصدر أمرا أن يكون حق التولية لأسقفّ رومة وحده وعلى النصارى عموما اتباعه .

تنازع النصارى فى أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية فى أوّل الجيل الرابع منقسمة إلى حزبين الواحد يقرّ بألوهية المسيح والآخر ينكرها ، وفى سنة ٣١٢ ظهر أريوس فجعل أن للأب والابن جوهرين متميزين ، والثانى خليفة الأوّل وإذن فهو ليس بإله ، وكان أريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير . ولما رأى إسكندر أسقف الاسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألفوا مجمعا لعنوا فيه أريوس وتعليمه ، فكثر النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمّة كلها واهتز عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد أوزيوس إلى كل من أريوس وإسكندر وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذى لا أعلم لأحدهما بحقيقته . ودام الخصام والجدال واشتدّ ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بمجمع فى نيقية سنة ٣٢٥ .

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشاتمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لاحدّ لها ، ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح ونفى الأريوسيين ثم رجعوا من النفى منتصرين ودخلوا الإسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعا فى أنطاكية فأبطل مذهب إسكندر المسمى (أورثوذكس) أى مستقيمى الرأى ومات أريوس فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والأبهة ، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنت وتوالت المجامع بعد ذلك على هذا المنوال .

فلتنظر أيها الذكى كيف كانت الحكاية الأولى المنقولة عن المفسرين — وإن كانت مخطئة فى التاريخ وفى الرواية — قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة ، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة ، وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلا شاغلا للدولة الرومانية ، وكيف أدّى الأمر إلى أن الملك تيودسيوس القيصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن خالفه يعاقب ، ولكن الأريوسيين كانوا كثيرا جدّا

لم يعاقبهم ، فاحتال القديس (أمفيلوك) بحيلة أوجبت أن الملك يعاقب من لا يقول بألوهية المسيح .
فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت المصائب وتقاتلت الأحزاب ، كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته .

ولما كان قول اليهود والنصارى لادليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ ، قال تعالى ( ذلك قولهم بأفواههم ) مجرد عن البرهان والتحقيق مهمل لامحل له سوى الأفواه كما قال القيصر للإسكندر ولاريوس ، وقوله تعالى ( يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ) أى يضاهى قولهم قول الذين كفروا من قبل .

ومعنى هذا أن هناك ديانات فى الأمم السالفة قبل التاريخ فى مصر والعراق وبلاد المكسيك قبل افتتاح أمريكا كانت فيها هذه الخرافات . انظر هذا المقام فى سورة البقرة فى أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث وكون الله له ابن ملأت المسكونة ووجدت فى الهند فارجع إليها إن شئت تر العجب العجاب وكذلك فى آخر سورة المائدة ، وهذا أيضا من معجزات القرآن .

ولعمرى لم يعرف الناس أن هناك دينا قبل الدين المسيحى يقول بابن لله وبألوهية ذلك الابن إلا فى هذا الزمان فتعجب من عجائب القرآن ، وهذا واضح كل الإيضاح فى آخر المائدة فيما تقدم ، قال تعالى ( قاتلهم الله ) دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من شناعتهم ( أنى يؤفكون ) كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل . ثم أخذ الله سبحانه يبين أنهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير ، بل جعلوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، والأحبار علماء اليهود ، والرهبان أصحاب الصوامع فى النصارى ، ومعنى كونهم أربابا أنهم يحرّمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون .

وعن عدىّ بن حاتم قال « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب فقال ياعدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ فى سورة براءة « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » . قال عبدالله ابن المبارك :

وهل بدّل الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها
لقد وقع القوم فى جيفة ... يبين لذى العلم انتانها

وهذا هو قوله تعالى ( اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ) وهذا الأخير اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم قال تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ) أى تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة ( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ) أى يريد رؤساء اليهود والنصارى أن يفعلوا فى الإسلام فعل من يعمد إلى نور عظيم كالشمس ليطفئه بنفخة بفمه وماهو بمستطيع ذلك .

فكهذا دين الإسلام ودلائله الباهرة ومعجزاته الظاهرة ، وقد تصدّى هؤلاء لمحنه وماهم بضارّيه شيئاً لقوّته البرهانية وحجته القوية ( ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ) أى ويأبى الله إلا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتمّ الذى أرسل به نبينا صلى الله عليه وسلم وأن الذى يأبى إلا أن يتم نوره ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ) القرآن ( ودين الحق ) الإسلام ( ليظهره ) ليعليه ( على الدين كله ) على سائر الأديان فيكون متبوعه لهم السلطان الأكبر فى الكرة الأرضية ويقهرون فارس والروم وهذا كله فى الزمان الأوّل أما فيما بعد فى مستقبل الزمان فسيظهر فى أمّة الإسلام أناس يحملون الأمّة على نبذ الجمود والتحلى بحلىّ العلوم والعرفان وإذ ذاك يرقى المسلمون ويكون بأيديهم مقاليد الرياسة والسياسة والحكمة والعلم ، وفى على أن

زماننا هو مبدأ ارتقاء للسلمين إذ يقومون بمهمتهم فى العالم ويحكمون الناس بالحق بعد أن يرتقوا ويتسموا فى المعارف ؛ ويدل على هذا ما روى عن أبى هريرة فى حديث نزول عيسى قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم « ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام » .

عن المقداد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو بذل ذليل » أى إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له ، وهذه الجملة كالبيان لقوله «ويأبى الله إلا أن يتم نوره» ولذلك كرر « ولو كره المشركون» غير أن الكفر هناك بدل بالشرك هنا إعلاما بأنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله .

ولما كانت الآيات المتقدمة قد أبانت أن الأحبار والرهبان فى حكم الآلهة عند أهل الكتاب أخذ يبين هنا سبحانه وتعالى أنهم غير مؤتمنين فى أحكامهم التى يحكمون بها وأن أهل الكتاب قد استأمنوا من ليسوا بأمناء فقال ( يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون ) أى ليأخذون لأن الأكل أهم مقاصد الأخذ فعبر عنه به ( أموال الناس بالباطل ) لأنهم يأخذون الرشا من سفلتهم فى تخفيف الشرائع والمسامحة فى الأحكام ويحرفون صفات النبى صلى الله عليه وسلم المذكورة فى كتبهم استبقاء للرياسة وحفظا لما ينالونه من المال ببقاء الرياسة التى يذهبها اعتناق الإسلام ( ويصدون عن سبيل الله ) ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ) سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من المسلمين .

والمراد بالمال المكنوز مالم تؤد زكاته ولو لم يكن مكنوزا ، قال عليه الصلاة والسلام « ما أدى زكاته فليس بكنز » أى ليس بكنز أوعد عليه . وقال بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما علموا بنزول هذه الآية: « لو علمنا أى المال خير لاتخذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه » .

وقد ورد فى حديث مسلم الوعيد الشديد على من لم يؤد زكاة الذهب والفضة « وأنها تصفح له صفائح من نار فيحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره كلما ردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وهكذا قال فى الإبل: وجعل من حقها حلبها يوم ورودها وإن لم يؤد حقها فإنه يبطح لها بقاع قرقر فهى تطؤه جميعا بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها الخ » وهكذا قال فى البقر والغنم ، والقاع القرقر : هو المستوى من الأرض .

وهكذا جاء فى حديث البخارى « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ( شدقيه ) ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا — ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم » الآية ، والشجاع : الحية ، والأقرع : صفة له بطول العمر ، فإنه إذا طال عمره تمزق شعره وهذه صفة أخبث الحيات ، والزبيبتان : هما الزبدتان فى الشدقين .

وهذا كله وعيد لمن لم يؤد الزكاة ، ولذلك قال تعالى ( فبشرهم بعذاب أليم ) وهو السكى ( يوم يحمى عليها ) أى يوم توقد النار ، فلما حذفت النار لم تكن فاعلا وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وهو عليها قيل يحمى بالتحتية كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ومتى حذفت القصة قلت رفع إلى الأمير ( فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ) لأنهم إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم مجلس وإياه ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم وهذا العذاب يشمل الجهات الأربع المقدم والمؤخر والجنبين ، ويقال لهم ( هذا ما كنزتم لأنفسكم ) لمنفعتها قد صار مضرتها وعذابها ( فذوقوا ما كنتم تكنزون ) أى وبال كنزكم .

ولما

ولما كان المقام فى قتال الكفار إذ قال تعالى آنفا « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر الخ » وذكر الجزية واستطرد بذكر ما كفر به اليهود والنصارى وما تبع ذلك من حرص أحبارهم ورهبانهم على المال والرشوة أخذ يتمم المقام بذكر مسائل أخرى من مسائل الحرب وهى الأشهر الحرم التى كان العرب يحرّمون فيها القتال اتباعا لدين إبراهيم عليه السلام ، وأخذ سبحانه يحقق الأمر فيها فأفاد أن الشهور العربية اثنا عشر شهرا .

وأما الشهور الشمسية فليس المسلمون مكلفين بحسابها ولا باتباع نظامها فقال ( إنّ عدة الشهور عند الله ) أى مبلغ عددها ( اثنا عشر شهرا فى كتاب الله ) وهو ما أثبته وأوجبه فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ ( يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ) والأشهر العربية المذكورة أوّلها المحرم وآخرها ذو الحجة ، والأربعة الحرم هى ذو القعدة للقعود عن القتال فيه ، وذو الحجة للحج ، والمحرم لتحريم القتال ، فهذه ثلاثة سرد وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب إياه وتعظيمهم .

فالأشهر العربية مبنية على سير القمر يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وأحكامهم ، وهذه السنة ٣٥٤ يوما ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ٣٦٥ يوما وربع يوم فبينهما نحو ١١ يوما .

ولما كان هذا المقام علاقته بالحرب عظيمة ناسب أن يذكر من أجل النسىء الذى كانت تفعله العرب فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرّم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور كما سيأتى ، وإنما سميت الأربعة حرما لأن العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرّم فيها القتال حتى إن أحدهم لو لقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فى هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ، ولما جاء الإسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيما ، فالحسنات فيها مضاعفات والسيئات كذلك ( ذلك الدين القيم ) أى ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى ، فالدين هنا الحساب كما قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه ـ أى حاسب نفسه ـ وعمل لما بعد الموت » ( فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ) أى لاتظلموا أنفسكم فى الأشهر الحرم ، فالعمل الصالح فيها أعظم أجرا والظلم فيهنّ أكثر إثما ، أولا تظلموا فيهنّ أنفسكم باستحلال الحرام والغارة فيهنّ كما قال ابن عباس من جهة ومن جهة أخرى لاتجعلوا حلالها حراما وحرامها حلالا بالنسىء الآتى ذكره كما قال محمد بن إسحق ، وعن عطاء أنه لايحلّ للناس أن يغزو فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا .

وهذا خلاف ماعليه الأكثرون لأن النبى صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين فى شوّال وذى القعدة ( وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ) أى حال كونكم جميعا ( واعلموا أن الله مع المتقين ) بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم ، فإذا قاتلوا المشركين مجتمعين لامتفرّقين نصروا على عدوّهم ، فإن تخاذلوا فليس الله معهم بالنصر .

والتقوى من لوازمها الاتحاد والتعارف ، فلذلك كان الله مع المتقين ( إنما النسىء زيادة فى الكفر ) النسىء لغة التأخير كالنسيئة فى البيع ، والنسىء هنا تأخير شهر حرام إلى شهر آخر بالهوى والغرض ، وقد كانت العرب تعظم الأشهر الحرم على دين إبراهيم ، وعامّة قريش كانت تمتنع فيها من الصيد والغارة ، وقد تقع الحروب فى بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخيرها إلى الأشهر الحلال فنسئوا : أى أخروا تحريم شهر إلى شهر .

وكان يقوم بهذا بنو مالك بن كنانة وكان يقوم الموكل به منهم فى الموسم ، فإذا همّ الناس بالانصراف قام خطيبا وقال : لامردّ لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب ، فيقول له المشركون : لبيك ، ثم يسألونه أن

بنفسهم شهرا يغيرون فيه فيفصل ، فيقول مثلا : صفر فى هذا العام حرام ، فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة من الرماح ، وإن قال حلال عقدوا القسى وركبوا الأسنة فى الرماح وأغاروا ، وفى أيام النبوة كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين وفى المحرم كذلك ، وهكذا فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف صلى الله عليه وسلم بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسىء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ماوضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما فى البخارى « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » ثم حرم الدماء والأموال والأعراض وحذر الناس من لقاء ربهم وهم مذنبون وهو يسألهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » وحذرهم من أن يضرب بعضهم رقاب بعض فى كل حال ، فليس التحريم خاصا بالأشهر الحرم بل عم سائر السنة ، فالتحريم أصبح فى الإسلام تحريما عاما لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها .

ويظهر مما تقدم وهو أنهم كل سنتين يحجون فى شهر من أشهر السنة أنهم ضلوا السبيل لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية يقتضى أن يكون الحج فى كل شهر ثلاثة أشهر إذا كان الغرض أن يبقى الحج فى وقت معين من السنة كالشتاء أو كالربيع ولن يستقيم هذا إلا بما ذكرنا وتدور السنة فى ٣٣ سنة ، وأما على ماتمله العرب فإنها تدور فى ٢٤ سنة وهذا خطأ منهم وضلال ، فلاهم أقاموا على الأشهر القمرية ولا هم عرفوا كيف يوفقون إلى الأشهر الشمسية التى تهدى الناس إلى حقيقة الفصول .

ولما كان أمر السنة الشمسية يحتاج إلى حساب وكان الإسلام عاما للأمم الجاهلة والعالمة وأن الأمم الجاهلة إذا أرادت التوفيق بين الحسابين ضلت سواء السبيل .

أمر الله جميع المسلمين أن يسيروا على السنن القويم وهى السنة القمرية التى هى أسهل لجميع الناس وإن كانت أشق ، لأن الحج يدور فى الفصول الأربعة كل ثلاث وثلاثين سنة مرة ويحج الناس فى كل فصل تسع حجات تقريبا ويذوقون الحر والبرد لزيادة الثواب .

فإذن محاولة التوفيق بالنسىء من الأمم الجاهلة ضلال فى الحساب وخطأ ، فلذلك قال تعالى ( يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا ) أى يوافقوا ( عدة ) الأربعة المحرمة وحدها من غير مراعاة الوقت ( زين لهم سوء أعمالهم ) حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ( والله لايهدى القوم الكافرين ) هداية موصلة إلى الحق .

ولما انتهى سبحانه من تحقيق زمن التحريم وتبيان الأشهر الحرم وغيرها أخذ يحث المؤمنين على القتال ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم ، وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج إلى الجهاد فتثاقلوا ، فأنزل الله ( يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا ) اخرجوا ( فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ) تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء فصارت ثاء ساكنة فدخلت ألف الوصل ، وضمن اثاقل معنى مال ، فعدى بإلى : أى ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق

السفر ومتاعبه فملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ( أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ) بدل الآخرة ( فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة ) فى جنب الآخرة ( إلا قليل ) يعنى أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد ، وهذا يدل على وجوب الجهاد على كل حال وفى كل وقت لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها ، وهنا لطائف ثلاث :

اللطيفة الأولى تحقيق الكلام فى الأشهر الحرم

اعلم أن علماءنا وإن اختلفوا فى الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها هل هو منسوخ ؟ فإنك عند التحقيق تجد الأمر أكبر من أن يختلف فيه فهم متفقون وإن كان كثير من الناس لايعلمون .

وبيانه أن دين إبراهيم الذى كانت العرب تزعم أنها متمسكة به جعل القتال فى الحرم محرّما وكذلك فى الأشهر الحرم المتقدّمة ، فأما بقية السنة وبقية الأرض فالقتال فيها لاحرمة فيه ، فلما جاء الإسلام حرّم الله فيه على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم كما جاء فى خطبة الوداع فصار التحريم راجعا إلى نفس الأعراض والأموال والدماء فى كل زمان وكل مكان ، فلا دخل إذن للزمان ولا دخل للمكان ، وإنما المدار على نفس الأعراض والأموال والدماء ، وهذا واضح جلى .

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه السورة قد استبان فيها أن العرب الذين هم متمسكون بالأشهر الحرم قد ألزموا باتباع الإسلام وأن بلاد العرب لايجتمع فيها دينان فأصبح هؤلاء محرما عليهم بطريق الدين كل حرب وكل غارة فى الأشهر الحرم وغيرها .

بقى أن نقول ماذا يفعلون مع الأمم الأخرى كفارس والروم ؟ فنقول : إن هؤلاء لايعرفون ماهى الأشهر الحرم ولا ماهو دين إبراهيم بل لهم دين آخر ، لأن الأشهر الحرم عند العرب لدينهم والعرب أسلموا ، فبعد أن كان التحريم عندهم فى أشهر معينة أصبح فى جميع الدهر فإذن لامعنى لتحريم القتال فى الأشهر الحرم ألبتة ، فإن كان فى بلاد العرب فهو تحصيل حاصل وإن كان فى غيرها مع الأمم الأخرى فهو لاقيمة له ، لأن هذه الأمم لاتحترم إلا القوّة ولا تتقيد بزمان ولا مكان .

إذا فهمت هذا عرفت السرّ فى قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا الخ » ولم يقيدها بزمان ، لأن هذه أوّل غزوة غزاها المسلمون للروم بعد مافرغوا من قتال العرب فوجب أن يضرب المسلمون الذكر صفحا مع الروم عند الأشهر الحرم ويغزوهم .

وهذا هو السرّ فى الإطلاق وقطع النظر عن الأشهر الحرم فتعجب من أسرار القرآن وحكمه التربية العجيبة .

وبهذا تبين لك من يقول إن تحريم القتال فيها غير منسوخ ومن يقول إنه منسوخ فكلاهما حق من وجه ، فمن قال إنه غير منسوخ فهو صادق من وجه ، لأن الأشهر الحرم وغيرها يحرم فيها قتال المسلمين للمسلمين من العرب وغيرهم ، ومن قال إنه منسوخ فهو حق من وجه ، وذلك أن قتال الفرس والروم مباح فى الأشهر الحرم وغيرها إذ لامعنى لتحريم القتال فيها معهم وهم لايحرّمون ذلك ، وبهذا اتضح المقام وزال الإبهام ؛ فالحمد لله الذى ألهمنا وعلمنا مالم نكن نعلم .

اللطيفة الثانية

الشهور العربية والأفرنكية والقبطية وعلة تسميتها بأسمائها المعروفة الآن

الشهور عند العرب

اختلف المؤرخون فى أسماء الأشهر فى الجاهلية الأولى ، فقيل إن الأشهر العربية المستعملة اليوم وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين وعدّتها اثنا عشر شهرا ، وقد وضعت أسماؤها أصلا لبيان الأحوال وأطلقت على الأزمنة ، وهى :

(محرّم) سمي كذلك لتحريم القتال فيه حق لمن له ثأر .

(صفر) سمي كذلك لما كان يعترى العرب من مرض فى ذلك الشهر تصفرّ منه ألوانهم ، وقيل لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا فيه إلى الحرب أثر قعودهم عنها فى محرم .

(ربيع الأوّل وربيع الثانى) سميا بالربيع لأنهما كانا يأتيان فى الخريف ، وكانت العرب تسمى الخريف ربيعا .

(جمادى الأولى وجمادى الثانية) سميا بذلك لإتيانهما فى الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد حيث تجفّ الأرض ويقلّ الزرع والنبت .

(رجب) سمي بذلك لأنه كان يقال فيه ارجبوا : أى كفوا عن القتال ، فكانت العرب تعظمه وتهابه وسمي بالفرد لأنه منفرد عن باقى الأشهر الحرم المتوالية .

(شعبان) سمي بذلك لانشعاب القبائل فيه إلى طلب المياه والغارات .

(رمضان) سمي بذلك لأنه كان يأتى حيث يبدأ الحرّ وترمض الأرض ، وقيل لاشتداد حرّ جوف الصائم وهو ضعيف .

(شوّال) سمي بذلك لقولهم: شولوا أى ارتحلوا ، وقيل لقلة المياه فيه لأن شول الماء بمعنى قلّ ، وقيل لأن الإبل كانت تشول فيه بأذنابها لشهوة الضراب ولذلك لم تكن العرب تجيز فيه الزواج .

(ذو القعدة) سمي بذلك لقعود العرب فيه عن القتال .

(ذو الحجة) سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه .

الشهور عند الافرنج

وضعت أسماء هذه الشهور فى أيام المملكة الرومانية الأولى وهى :

(يناير) مأخوذ من (يانوس) وهو معبود خرافى كانوا يمثلونه بوجهين ينظر بأحدهما السنة المنصرمة وبالآخر إلى السنة المقبلة .

(فبراير) مأخوذ من (فبروا) وهى معبودة الطهارة عند الرومان .

(مارس) مأخوذ من مارس معبود الحرب عندهم .

(إبريل) مأخوذ من كلمة أبيريرى : أى فتح بالرومانية لأن الزهور تفتح فيه .

(مايو) مأخوذ من ميا وهى إحدى بنات المارد أطلس (خرافة) .

(يونيه) مأخوذ من يونون زوجة (جوبتر) رئيس المعبودات .

(يوليه) سمي بذلك تذكارا (ليوليوس قيصر) واضع التقويم اليوليانى .

(أغسطس) سمي به تذكارا لخلفه أغسطوس أوّل أمبراطرة الرومان .

(سبتمبر) معناها هذا الشهر السابع باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما .

(أكتوبر) معناه الشهر الثامن باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما .

(نوفبر) معناه الشهر التاسع باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما .

(ديسمبر) معناه الشهر العاشر باعتبار أوّل السنة كما كان قديما .

الشهور القبطية

انتقلت أسماء تلك الشهور من قدماء المصريين واضعيها إلى نسلهم من أمة القبط ، وقد سمى المصريون الشهور بأسماء آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى سالف العصور وكانوا يقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود المسمى به الشهر فى هيكله المكرس له .

(توت)

(توت) هو رأس السنة القبطية وأصل اسمه بالهيروغليفية (تهوت) أى إله الحكمة ، وكان يسميه المصريون المتأخرون إله العلم والقلم ويحتفلون به عن بكرة أبيهم بإقامة الاحتفالات الشائقة فى أنحاء القطر تعظيما لعيد هذا الإله الذى كان يقع فى أوّل يوم منه ، وتستمر الاحتفالات هذه مدة أسبوع ، ولا يزال الأقباط يحتفلون به إلى الآن ويسمونه باسم (النيروز) .

(بابه) اسمه باللغة الهيروغليفية (بى تب دت) أى إله الزرع حيث يخضرّ فيه وجه الأرض .

(هاتور) اسمه باللغة الهيروغليفية (هاتور) أى إله الجمال حيث يزين فيه وجه الأرض بجمال المزروعات

(كيهك) اسمه باللغة الهيروغليفية (كاها كا) أى إله الخير أو النور المقدّس .

(طوبة) اسمه باللغة الهيروغليفية (طوبيا) أى الأعلى أو الأسمى : أى إله المطر ومن اسمه مدينة طيبة بالصعيد .

(أمشير) لم يستدل له على أصل .

(برمهات) اسمه باللغة الهيروغليفية (بامونت) أى إله الحرارة حيث تنضج فيه المزروعات لاشتداد الحر

(برموده) اسمه باللغة الهيروغليفية (باأماوت) أى إله الموت والفناء حيث ينتهى فيه أجل المزروعات ويمحل وجه الأرض .

(بشنس) اسمه باللغة الهيروغليفية (باخنسو) أى إله الظلام لاعتقادهم أن هذا الإله يساعد الشمس على إزالة ظلام الليل ، فلذا يكون النهار فى شهره أطول من ليله حتى يبلغ ١٤ ساعة فى بدايته .

(بؤنه) اسمه باللغة الهيروغليفية (باأونى) أى إله المعادن لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ، ولذا يسميه العامة بؤنة الحجر .

(أبيب) اسمه باللغة الهيروغليفية (هوبا) أى فرح السماء لأنه مبدأ أفراح المصريين حيث كانوا يزعمون أن (هوريس) أى الشمس انتقم فيه لابنه (أوزريس) أى النيل من عدوه (تيفون) أى التحاريق .

(مسرى) اسمه باللغة الهيروغليفية (ميشرا) أى ابن الشمس .

(أيام النسىء) النسىء لغة المتأخر وكان قدماء المصريين يسمونه (كوجى أنافوت) أى الشهر الصغير انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم »

من معجزات القرآن التى تظهر فى هذا الزمان أن أكثر ما جاء فيه من علم اليوم الآخر يظهر فى مناجاة الأرواح ، ومن اطلع على كتاب الأرواح الذى ألفته فى هذا المقام أدرك هذا العجب العجاب ، فإن قوله « فتكوى بها جباههم الخ » وقوله فى الحديث ما معناه أن البقر تطأ صاحبها بأرجلها وهكذا الغنم وكذلك الإبل تطؤه بأخفافها وتدور على ذلك خمسين ألف سنة حتى يتم حسابه ويدخل إما جنة وإما نارا فيما تقدم ، وكذلك حديث البخارى المتقدم وأن أخبث الحيات المعبر عنها بالشجاع الأقرع تطوّقه وتقول له أنا كنزك أنا مالك . وتبيان الحديث أن ماله سيمثل له .

كل ذلك دلالة أن ذلك عالم المثال وأن صور الأشياء تظهر هناك وتعذب صاحبها ، فهذا بعينه هو المذكور فى الكتاب المذكور نقلا عن الجمعيات الأوروبية ، ولقد حادثوا الأرواح فى أمريكا وإنكلترا وفرنسا وغيرها فى سائر الدول فأعربت الأرواح عن ذلك وأفصحت وقالت إن البخيل يعذب بماله .

وهناك حكاية اليتيمين اللذين لما مات الحاكم الألمانى أخذا يعذبانه عذابا شديدا حتى استغاث بزوجته لما أحضرت روحه وهكذا ، وهذا كثير فى كلامهم ، فهذا بعينه هو الذى ورد فى ديننا ، وتعجب كيف

يظهر سر القرآن فى هذا الزمان ويؤيد الكشف ما سمعته الأذنان ولم تره العينان « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

فإذن عالم البرزخ وهو مابعد الموت مملوء من الصور الحسنة والقبيحة ، وأقرب شىء إلى ذلك الصور التى تمثل لنا فى المنام وظهور صور أعمالنا بعد موتنا أظهر وأبهر وأجلى وأوضح «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ـ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ـ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فعلى المسلمين أن يقرءوا علم الأرواح أولا وأن يقوموا بمعرفة هذا العلم فعلا ثانيا ليبين بمحادثة الأرواح حقائق دين الإسلام فتحدثهم الأرواح أنها تعذب بصور أعمالها ويستبين للناس إذ ذاك حقائق العلوم الإسلامية ، وهذا هو اليقين وفرق بين التقليد واليقين [ جوهرة باهرة ] .

هذه الآيات من قوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ـ إلى قوله ـ سبحانه عما يشركون » مظهران :

[ المظهر الأول ] آثارها فى الأمم الإسلامية فى أول ظهورها وإهمال المتأخرين لشأنها وآثارها فى الانقلاب الأوروبى الحديث .

[ المظهر الثانى ] ماجاء عن علماء الأرواح حديثا ببلاد أوروبا .

المظهر الأول وفيه مقامان :

[ المقام الأول : آثارها فى أمم الإسلام ]

ذم الله عز وجل الأحبار والرهبان وخاطب المسلمين بذلك ، خاطبهم ليكونوا سببا فى تمزيق شمل رجال الدين فى الأمم .

إن رجال الدين فى كل أمة من الأمم القديمة كانوا يستبدون بالناس كالبراهمة الذين جعلوا الناس أربعة أقسام : فهم أنفسهم كالرأس ، ومن دونهم من الجند كالقلب ، ومن دون هؤلاء كالمعدة والأحشاء ، وأدنى منهم كالرجلين ، وهكذا دين المصريين القدماء كان الكهنة السلطان الأعظم على الشعب ، فهم والفراعنة لهم السلطان الأعظم فى الدنيا والآخرة ، وكل مجد وكل شرف فى الدنيا والآخرة راجعان إلى الملك وإلى رجال الدين .

جاء الإسلام بهذه الآية وقال الله فيها للمسلمين ، أيها المسلمون أنتم خلفائى فى أرضى فلا تجعلوا لأحد سلطانا على أحد وأهل الأرض كلهم عيالى وأنا ربهم وأنا كافلهم ، والأحبار والرهبان استبدوا بعبادى وأوهموهم أنهم يغفرون لهم وسنوا لهم القوانين فانجدوا عبادى وأخرجوهم من هذا الذل .

آثار هذه الآيات فى صدر الإسلام

ألا تعجب معى أيها الذكى ؟ انظر إلى أبى بكر رضى الله عنه أنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقرب الناس إليه فى الدين قد عرف مقصود القرآن بمعاشرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فانظر ماقال لعائشة رضى الله عنها وهو فى سكرات الموت « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فىء المسلمين إلا هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى بالجميع إلى عمر ؛ فلما مات بعثته إلى عمر فلما رآه بكى حتى سالت دموعه على الأرض وجعل يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ويكرر ذلك وأمر برفعه » .

وأمر

وأمر أبو بكر أيضا أن يردّ جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته . وروى أن زوجته اشتهت حلوا فقال : ليس لنا مانشترى به ، فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا فى عدّة أيام مانشترى به ، قال افعلى . ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير ، فلما عرّفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فردّه إلى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار مانقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له ، قال ابن الأثير بعد مانقل هذا : والله هذا هو التقوى التى لامزيد عليها وبحق قدّمه الناس الخ .

زهد سيدنا عمر رضى الله عنه

قال الحسن : خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها أدم ، وقال أبو عثمان النهدى : رأيت عمر يرمى الجمرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب ، وقال علىّ : رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها أدم ، ومن قوله رضى الله عنه « يا أيها الناس إنى ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ فوالذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه » إلى أن قال « وكيف لاأقصه منه وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » اه . ومثل هذا روى عن سيدنا علىّ وسيدنا عثمان رضى الله عنهم أجمعين .

مضى الصدر الأوّل وأكثر القوم على هذا ، فانظر للأمم الإسلامية بعد ذلك ما كادت القرون الأولى تنتهى حتى أظلمت آفاق الأمم الإسلامية وتبعوا من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، واستبدّ صغار العلماء بالعقول وأفهموا الناس أن كثيرا من العلوم لاتنفع فى الدنيا والآخرة لأجل أن يتولوا هم القضاء والوصايا ويتصدّروا فى المجالس واستناموا نوما عميقا محزنا وشرهوا للملوك على حطام الدنيا .

وأنا أذكرك بما نقلته فى المجلد الثالث فى سورة المائدة من هذا التفسير ، فقد ذكرت هناك نص ماجاء فى الإحياء عند قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » وهذا نص بعضه :

[ واحترز من الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرّهم على الدين أعظم من الشيطان ] وهناك تجد بيان سبب ذلك ، إذ هم زينوا للناس بأفعالهم وأقوالهم الاقتصار فى زمانهم على علم الفقه ، وذلك ليتصدّروا فى المجالس ويتولوا القضاء والوصايا ؛ فالعلم إذن مصيدة لهم يصيدون به المال ، فرجع القوم إذ ذاك إلى أخلاق الأحبار والرهبان الذين قال الله فيهم « إنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله » ، فإذن يكون هذا يشبه أكل أموال الناس بالباطل وإن لم يكن باطلا من كل وجه ، وأيضا إذا صدّوا عن العلوم كما يقول الغزالى : فقد أشبهوا من يصدّون عن سبيل الله بعض الشبه ، فإذن تكون هذه الأمّة قد تبعت من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع وأصبحت كما قال الله تعالى « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » وهكذا صار لبعض علماء الإسلام فى كثير من الأزمان من الأعمال ما اتفق للأحبار والرهبان المذكورين فى هذه الآية ، والله هو الولىّ الحميد ومنه التوفيق ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على المقام الأوّل لهذه الآيات فى الأمم الإسلامية قديما وحديثا .

[ المقام الثانى : آثار هذه الآيات فى الانقلاب الأوروبى ]

اعلم أن أكبر مظهر لهذه الآيات قد ظهر ظهورا واضحا فى أوروبا ، ألا تعجب معى كيف كان مظهر هذه الآيات واضحا ظاهرا فى أوروبا ظهور الشمس ؟ .

ألا تتأمل فى حال المسيحيين كيف كان ( الكاثوليكية ) الذين هم يسمون ( ملكانية ) أيضا لهم رئيس دينى وهو الأسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الأعظم ، من هو هذا ؟ هو المسمى ( البابا ) ومقرّه وسكناه ( روما ) بدولة ( إيطاليا ) فهو رئيس أهل هذا المذهب وهو كالقطب عند المسلمين ، ومن جهة أخرى هو ملك سياسى وأهل إيطاليا كلهم على مذهبه ، وقد جعلوا للبابا السلطان الأعظم عليهم سنة ٧٣٦ م الموافق سنة ١٠٨ هجرية .

وصار البابا يترقى حتى صارت له مقاليد الدين والدنيا ، فكانت للبابوات ممالك واسعة فى الأرض وكان لهم حق كبير فى تولية ملوك أوروبا وعزلهم كما يشاءون ، وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأما هم فكان لهم ثلاثة تيجان واحد فوق الآخر دلالة على كمال السلطة وبيدهم الحرب والسلم ، وكانوا يحرقون من خالفهم بالنار وهو حىّ .

وقد ألزم البابا مرة أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران ، ورفس البابا مرة برجله تاج ملك ( جرمانيا ) حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران .

ولما استفحل أمرهم انحطوا شيئا فشيئا إلى سنة ١٨٧١ م الموافقة سنة ١٢٨٨ هجرية ، إذ ذاك سقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون إلى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثولية فقط ومقرّه فى الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك .

هذا هو ملك رجال الدين الذين أشار لهم القرآن هنا ، يقول الله للمسلمين : أيها المسلمون انشروا العلم فى الأمم وهذّبوا نفوسكم وكونوا للناس آباء رحماء ولا تكونوا كرجال الدين فى الأمم المسيحية واليهودية الذين جعلوا الدين مصيدة لجمع المال ، يا أهل الأرض إياكم أن تأكلوا أموال الناس باسمى ولا تجعلوا دينى سبيلا لظلم عبادى ، فمن كان خليفتى فى الأرض فليكن نورا مبينا للناس كالشمس لايريد جزاء ولا شكورا كما اتفق لنحو أبى بكر وعمر وعلىّ وأمثالهم .

أما المتأخرون من علماء الإسلام فأكثرهم يجهلون مقصود القرآن وهكذا أهل أوروبا اتصل ملك البابا فيهم فوق ألف عام وهم خاضعون لسطوة رجال الدين فأخروا تلك الأمم ولم يستيقظوا إلا بعد أن خذلوا رجال الدين ، انظروا أيها المسلمون آثار الأمم وآثار الإسلام فيها .

(١) قال المؤرخ ( كرنيوس اغريبا ) عند وصفه ابتياع حلّ الخطايا فى عصره بالمال ما نصه : [ ليس من ذنب فظيع إلا أمكن حله بالدينار حتى القتلة وسفاكو الدماء كانوا يشترون الحلّ والعفو بالأموال الطائلة ] انتهى .

أليس هذا هو نص الآية إذ يقول هنا « إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » وأىّ باطل أشدّ من هذا ؟ ويقول تعالى هنا أيضا « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وأىّ ربوبية أعظم من غفران الخطايا ؟ فهذه ربوبية جشعة بالأموال .

(٢) ومن اطلع فى مدينة ( أنفرس ) يجد فى قبر ( كرنيوس فان لاند شودت ) ما تعريبه : [ تنسكب السماء بالاجتهاد أو تشترى بالمال ] .

(٣) ليس من شىء مقدّس إلا جعله رجال المسيحية متجرا فيتاجرون بالضمائر والإيمان وضعف النفوس ، وقد جعلوا دفن الموتى بابا للثروة فيقرعون لغنى الأجراس ويشعلون له الشموع ويحملون له البيارق والصلبان ويكون الكنيسة برايات الحداد ويسيرون أمام جثته بالترتيل وهكذا .

ومن أعمال البابا ( أوربانس ) الثانى لعن ( أنريكس الرابع أمبراطور ألمانيا ) مع أعوانه ، وهذا بعض

هذه اللعنة : [ إنا نفصلهم عن حضن الكنيسة ونلعنهم أبدا ليكونوا ملعونين فى المدن والعساكر وفى كل أرزاقهم الخ ] وهى طويلة جدًّا مملة كلها لعنات .

(٤) ومن أعمال نصارى الإسكندرية سنة ٤١٥ بإيعاز أسقفهم وكهنتهم أنهم اختطفوا العالمة ( هيباتيا ) ابنة ( تيون الإسكندرى ) الرياضى الشهير فى عصره ومزقوا جسدها إربا لأنها كانت تعلم الفلسفة وتحبّ العلم والفضيلة وتحثّ عليهما .

(٥) وفى سنة ٧٨٢ قبض ( شرلمان الكبير ) بإيعاز الحبر الرومانى على أربعة آلاف ساكسونى ونيف من مدينة ( واردن ) وضرب أعناقهم فى يوم واحد لأنهم أبوا قبول العماد .

(٦) وفى سنة ١٠٠٧ أحرق أقواما فى مدينة ( أورليان ) وهم أحياء ، وفى سنة ١١٣٤ أحرق حيا (بطرس برويس) فى مدينة ( لانجدوك ) لأنه أنكر صحة معمودية الأطفال ونحو ذلك .

وفى سنة ١١٥٥ قتل خنقا ( ارنالدودى بريشا ) لأنه نشر تعليا أرانيكيا مآله وجوب عيشة الاكليروس من عطايا المؤمنين الاختيارية فقط .

وفى سنة ١١٦٠ قام الكاثوليك على جماعة من ( الفوبين ) عصوا أمر البابا فأحرقوا منهم عددا كبيرا وقتلوا منهم فى فرنسا ثلاثة آلاف من جملتهم كثير من الصبيان .

وفى سنة ١٢٠٩ اضطهد الكاثوليك أيضا ( الأليجيين ) فى مدينة ( بيزيه ) فذبحوا منهم ثلاثين ألفا وأحرقوا منهم فى مدينة ( لافور ) أربعمائة إنسان دفعة واحدة وخنقوا أمير ( أراتيكيا ) بعد أن أحرقوا امرأته وبنته وأخته معا ، ثم شنقوا أميرا آخر مع ثمانين شخصا من آل بيته ثم غزوا مدينة ( لانجدوك ) ومنح البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) غفرانا كاملا لكل الذين اشتركوا فى هذه المذابح والغزوات .

وفى سنة ١١٨٤ تأسس ديوان التفتيش فى مجمع ( ڤيرونا ) وصادق عليه البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) سنة ١٢٠٤ وثبته نهائيا البابا ( غريغوريوس التاسع ) ببراءة خصوصية .

ويقدّر المؤرخون بالملايين عدد الذين قتلوا بحكم هذا الديوان ، قال المؤرخ ( ميشيله ) إن عذاب النار كان متنوّعا فيضعون تارة المحكوم عليه داخل ( آتون مضطرم ) فيموت حالا ، وأحيانا يلقونه على نار ضعيفة ويقلبونه عليها بكلاليب من حديد مرارا عديدة إلى أن يحلّ به الموت ببطء فينقذه من عذابه المهول .

وتارة ينزلون بالمحكوم عليه فى دهليز تحت الأرض ويضعونه فى حفرة بقدر قامته ثم يسدّون ذلك عليه إلى عنقه ، وهذا هو معنى دفنه حيا ولا يبقى إلا متسع صغير أمام رأسه يأتيه منها السجان بالطعام إلى أن يوافيه الموت بعد عذاب شديد .

وتارة يأتون بالأسياخ الحديدية فيدخلونها تحت أظافر اليدين والرجلين وهكذا النعال من الحديد المنطبقة على باطن القدم المحماة فى النار ، وهكذا الرصاص الذائب يسكبونه على الجراح الدامية ، وهكذا خفاف جهنمية تشدّ على الأرجل إلى أن يقطر منها الدم وتنفث اللحم وتتطاير العظام ، وهكذا مسامير مجوّفة تصب فى الأحشاء زيتا مغليا ، وهكذا كلاليب حامية بها يقطع الثديان ، وهكذا من أنواع العذاب الشديدة الجهنمية ، وذبح النصارى كثيرا من اليهود فى انكلترا أيام ( ريكاردس الأوّل ) ومن بعده وعذبوهم ونهبوا أموالهم إلى أن طردوا تماما من البلاد سنة ١٢٩٠ م .

وأحرق لويس الحادى عشر ملك فرنسا منهم فى مكدس ١٨٣ شخصا مع راعيهم ، وفى عام ١٢٤٩ أحرق منهم ثمانون إنسانا فى بلدة ( آجين ) .

وفى سنة ١٢٦٧ حكموا على الراهب ( روجر باكون ) بالسجن (١٤) سنة لأنه أبرم عهدا مع الشيطان فى أبحاثه العلمية .

وفى سنة ١٣٩٠ ذبح النصارى فى مدينة ( سيفيلا ) أربعة آلاف شخص من اليهود بإيعاز كاهن اسمه ( هرماندومارتيش ) ولا زال باقى اليهود يعانون العذاب حتى طردوا منها بتاتا أيام الملكة ( إيزابلا ) .

وحكم فى انكلترا بنبش قبر ( وويكلف ) لأنه ترجم الكتاب المقدس وذلك الحكم بأمر مجمع قسطانس سنة ١٤١٥ وطرحت رفاته فى النهر .

ويقدر المؤرخون المحكوم عليهم فى محكمة التفتيش بأسبانيا ٥١٠٠ شخص أيام (تور كويمادا) التى دامت ١٨ سنة ، وعدد الذين أحرقوا مابين ثمانية وعشرة آلاف ، وقتل فى الأندلس فى سنة واحدة ألفا يهودى وعذب منهم ١٧ ألفا وأحرق منهم عدد عظيم فى مدينة ( بامبلونا ) فى فرصة زواج أمير البلد ، والإحراق غالبا كانوا يتخيرون له فرصة زواج الملوك فيجلس الملك والملكة على دكة عالية ويؤتى بالمحكوم عليهم بين تصفيق الجمهور وعلى رءوسهم أكاليل من ورق نقشت عليها رسوم الشياطين وتصدح الموسيقى بالأنغام ورئيس التفتيش حامل فى يده كتاب الإنجيل .

وفى سنة ١٥٦٨ أصدر ديوان التفتيش الرومانى حكما بإهلاك كل سكان ( هولاندا ) لاتباعهم الهرطقة وعدد الذين قتلوا فى ( أسبانيا ) أيام ( كارلس الخامس ) وابنه ( فيلبس الثانى ) خمسون ألفا .

وفى سنة ١٦١١ طرد المسلمون من ( أسبانيا ) وعددهم ألف ألف ، وقتل منهم مائة ألف بإيعاز رئيس أساقفة ( ڤالنا ) الذى أمر بقتلهم كما قتل داود الفلسطينيين وشاول العمالقة .

وفى سنة ١٥٧٢ حدثت مذبحة (سان بارتلمى) الشهيرة ، فذبح تلك الليلة فى باريس وحدها عشرة آلاف ونيف من البروتستانت من شبان وشيوخ وأطفال ونساء وحوامل وفى الأقاليم نحو أربعين ألفا ، ثم إن البروتستانت ضلوا أكثر مما ضل ( الكاثوليك ) فارتكبوا فظائع مريعة فى ألمانيا وهولاندا وانكلترا خصوصا أيام ( أنريكس الثامن ) والملكة ( اليصابات ) .

وقد قتل فى انكلترا وإيكوسيا لدواع دينية فى مدة مائتى سنة مليونى نفس ، وفى سنة ١٦٠٠ حكم ديوان التفتيش الرومانى على (جورداتو برنو) العلامة الشهير بالإحراق حيا لأنه رأى مارآه (كوبرنيك) و(غاليوس) فى دورة الأرض وقوله إن النفوس ترتقى فى العوالم التى لاتتناهى منتشرة فى الفضاء .

وفى سنة ١٦٩٩ حكم على ( ڤانين ) بالإحراق حيا فى مدينة طولون لأنه ألف كتابا ونشره يسمى : [ محاورات فى مسائل الطبيعة ] .

وفى سنة ١٦٨٥ نقض لويس الرابع عشر بإيعاز ( الاكليروس ) معاهدة ( نانت ) مع البروتستانت فتسبب عن ذلك مذابح شتى وامتلأت سجون فرنسا من أهل الإصلاح ، ويقدر عدد القتلى بأكثر من ثمانمائة ألف ، أى من الذين قتلوا وسجنوا ونفوا .

وقتل فى مدينة ( لانجدوك ) وحدها مائة ألف إنسان حرقا وشنقا وتعذيبا فى القرن الثامن عشر ، وحكموا بإيعاز أسقف ( اميانس ) سنة ١٧٦٦ على الفتى المسمى (دى لابار) بقطع يده وقطع لسانه وإحراقه حيا لكونه لم يؤد الإكرام الواجب ( لايقونة العذراء ) وقت طوافها الاحتفالى وله من العمر ١٩ سنة ، انتهى .

هذه بعض أعمال رجال الدين فى أوروبا ، وأمامى الآن مئات الحوادث فى كتب مختلفة ضربنا عنها صفحا اكتفاء بالقليل المفيد عن الكثير ، وإنما الذى يهمنا الآن أن هذا الضلال لم يزله عن أوروبا

إلا الإسلام ، فإن القوم نازعوا المسلمين فى الحروب الصليبية وعرفوا الحقائق فأذلوا رجال الدين وساروا أحرارا .

ولأ كتف لك أيها الذكى بإيراد ماجاء أيام طبع هذا الكتاب من رسالة بقلم سيدة أوروبية أسلمت وكتبت مذكرات ونشرتها فى بلادنا المصرية فهاك نصها لتعلم كيف كان قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله الخ » ونداء الله للمسلمين بقوله « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » قد ظهرت آثارها فى أوروبا بأجمعها فى العصور المتأخرة كما ظهرت آثاره فى الإسلام فى العصور الأولى .

فهاك نص ما قالته تلك السيدة الأوروبية بالحرف تحت عنوان : [ الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، رجال الدين ] وها هى ذه :

## مذكرات سيدة أوروبية أسلمت

### الحضارة الإسلامية ، الحضارة الأوروبية

### رجال الدين

لا أستطيع فى هذه الأسطر القليلة أن أتعمق فى بحث الدور الهائل الذى لعبه رجال الدين فى سياسة أوروبا جمعاء فيما بين القرنين السادس والسابع عشر وماجرّه إسرافهم فى الأمر من حروب ونقم فإنه يحتاج إلى مجلدات ، وأن كل من قرأ شيئا من تاريخ أوروبا يعلم كيف استفحل أمر رجال الكنيسة فى ذلك العهد وكيف سلبوا أموال الأمة واستحوذوا على أملاكها واستبدّوا بالوظائف الحكومية والمكانات العالية ، وكانوا كيف يعيشون فى مثل بذخ الملوك ، لهم ما ليس للناس ، ولا يجرى عليهم ما يسرى على باقى أفراد الشعب حتى ضاقت الملوك ذرعا بما كانوا عليه من إسراف وظلم وتسلط على العقول والقلوب باسم الدين والكنيسة .

وظلوا على تلك الحال إلى أن أردوا أوروبا بأسرها فى هوّة الخراب بتلك الجزرة الهائلة التى أطلق عليها التاريخ اسم ( حرب الثلاثين ) وما أعقبها من مطاردة ( لويس الرابع عشر ) ملك فرنسا لطائفة ( الهجنوت ) مطاردة قضت على مائتى ألف منهم بالغربة والتشتيت فى أنحاء العالم .

والحقيقة أن رجال الدين فى ذلك العهد أساءوا استعمال سلطتهم الروحية واتخذوا من الدين ذريعة لنيل مآربهم السافلة من سلب الأموال والعبث بالممتلكات والوظائف وسائر مرافق الحياة .

ولقد عاشت أوروبا تحت تأثير هذه الطائفة وتضليلاتها فى ظلم وجهالة إلى أن نبت فيها أمثال ( فولتير ) و( روسو ) فحرّروا العقول من الأوهام التى كانت لا تزال عالقة بها وحطموا تلك القيود البالية التى غلغل بها رجال الكنيسة رقاب الشعب المسكين وأخذت أوروبا فى دور النهوض والتقدّم ، وكانت كلما أعرضت عن رجال الدين وأهملت تعاليمهم المسممة ازدادت رقيا وتقدما إلى أن بلغت بفضل إهمالها التام لهذه الطائفة مبلغها الحالى من الرقى والعمران .

ولقد حدا بى كل ذلك إلى الظنّ فى بادىء نشأتى أن كل الأديان فى هذا سواء إلا أنى تحققت بعد أن اعتنقت الدين الإسلامى أنه خير الأديان وأمتنها أساسا وبنيانا ، وأنه دين الاجتماع ، دين الحكمة والفلسفة ، دين العلم ، دين الحرّية والإخاء والمساواة .

وإنى لعلى يقين الآن أن أمثال ( فولتير ) و( روسو ) وغيرهما من قادة الفكر فى أوروبا لم يأتوا بنظرياتهم الفلسفية وآرائهم فى الحرّية والديموقراطية إلا بعد أن تشبعوا بفلسفة الإسلام واستقوا تلك المبادىء

من روحه السامية مما عثروا عليه في بطون الكتب المنهوبة من الأندلس ومصر وغيرها . وإني لأتنبأ بأنه سيأتي يوم قريب تتبلج فيه أنوار هذا الدين وأسراره العالية فتكون أوروبا وأمريكا أول من يبادر إلى اعتناقه هاشين باشين ، وهم يزعمون أنه دين الجمود ، ويساعدهم على ذلك نفر من بنيه ، ولكن أسائلهم : هل دين الجمود يأمر بالحرية والمساواة ويقرر مبدأ المسئولية الحكومية والشورة وينشر الديمقراطية ؟

أوليس عمر أول حاكم ديموقراطي أسس ملكه على العدالة ونادى بالحرية والمساواة ؟

أوليس هو القائل : [ إن الناس ولدتهم أمهم أحرارا فبم استعبدتموهم ] ؟

أوليس هو أول من قرر مبدأ مسئولية الحاكم أمام الأمة حين وقف قائلا : [ من رأى في اعوجاجا فليقومه ( فيجيبه العربي ) لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف ] .

أوليس القرآن أول نظام قرر الشورة ، قال تعالى ( وشاورهم في الأمر ) وعدم استئثار الزعيم أو الحاكم بالرأي .

أوليس الإسلام أول من قرر حق انتخاب الأمير أو الحاكم للأمة . ذلك بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مات ولم يوص بالخلافة من بعده لأحد من أصحابه .

أو ليس القانون المدني صورة محورة من نظم الشريعة الإسلامية وفلسفة ابن رشد ؟ والأدلة على ذلك كثيرة ليس هذا الموضوع محلا لذكرها .

والآن وقد أتيت في هذه النبذة التاريخية على ما كان لرجال الدين من أثر في سياسة أوروبا وأخلاقها ، فإني أعود بالقارئ إلى الشرق في أيام عزه وسلطانه مستعرضة ما كان عليه رجال الدين في عهد شروق أنوار الإسلام ، وكيف كانت أخلاقهم وصفاتهم وما تركوه من الأثر في نفوس الأمم التي تغذت بلبان تعاليمهم وارتشفت من كؤوس علمهم وحكمتهم .

نعم لقد كان للشرق عز وسلطان أيام كان للدين رجال يحمونه ويجلونه ويحافظون على تعاليمه ويعشون على سننه ، ترخص أرواحهم ، وتغلو في سوق الفضيلة ذممهم وضمائرهم ، استلانوا ما استخشن المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، لم يفتتنوا بحب المال والجاه ولم يركنوا لذوي العز والسلطان .

نعم بمثل هؤلاء عز الإسلام وخفق على العالم لواء العدل وعمت الحرية وتآخى الناس على اختلاف طبقاتهم في ظلال الأمن والسلام ، من ذلك ترى أن الشرق وإن أخذت منه الخلافات المذهبية التي لا تزال حية حتى اليوم كالشيعة والسنية والروافض وغيرهم قد اقترن تاريخ مجده ورقيه بأيام تمسكه بالدين على يد رجاله العاملين ، فالشرق والغرب عندي في هذا الموضوع ككفتي الميزان ، تركت أوروبا الدين وتخلصت من رجاله الظلمة المستبدين فرقت وعزت وتحررت العقول ونضجت الأفكار وأهمل الشرق أمر دينه واحتقر تعاليمه واستهان بشريعته ورماه خطأ بأنه دين الجمود فتقلص ظله وزال سلطانه وانمحت دولته ، وهنا أقف وقفة المحزون أناجي الشرق وأسأله ، هل أنت حقا ذلك الشرق صاحب المدنية القديمة والتاريخ المجيد مهبط الوحي ومبعث العدالة ومخرج تلك العقول التي حيرت ببديع صنعها وروائع ثمرتها أفكار أهل أوروبا وأمريكا الذين كانوا يرتعون في ذلك العهد في مجاهل الظلم والجهالة .

إن كنت أنت ذلك الشرق فلم أظلمت بعد ساطعة الأنوار ولم اكفهر جوك وأظلم أفقك وزالت سطوتك وأضحيت مقهورا بعد أن كنت قاهرا ومستعبدا بعد أن كنت سلطانا عادلا ، هل تغيرت الأرض والسماء أم جفت الأنهار وتعطل الليل والنهار ؟ لا إن شيئاً من كل ذلك لم يكن ؛ إنما هو خراب القلوب من الإيمان بعد عمارها وبيع الذمم والضمائر رخيصة في سوق الدنيا ونبذ الدين وتعاليمه وإقفار أهل العلم من صفات العلماء

واستكانة الملوك والأمراء ، وإن شرّ ما أنعيه على الشرق اليوم وأكبر ما آخذه عليه من أسباب التدهور والانحطاط هو تغير أخلاق العلماء ومحل قلوبهم من العلم والعمل .

أنظر إلى ما فعله علماء بنى غازى ، ألم ينادوا باسم عمانويل ملك إيطاليا على المنابر بعد خلع الخليفة ، والله يقول « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين » الآية .

ألم يبايع علماء الحجاز والسودان الحسين بن على المؤيد من قبل الإنجليز بالخلافة ؟

ألم يقم سعيد الكردى باسم الدين فى وجه الكماليين أصحاب السلطة الشرعية على البلاد إرضاء لشهوته من الإنجليز ؟

ألم تر إلى أعمال سادتنا العلماء فى مصر ؟ وقد ظنوا أن الدين إنما هو إرخاء اللحى وتوسيع الأكمام ولبس الفرجيات وإن أقفرت بيوت الله وأظلمت وعمرت المواخير وبيوت الدعارة وازدهت ، وهل تراهم مشتغلين بغير عمارة الجيوب وإن خربت الذمم والقلوب ؟ وهل تراهم إلا صائحين ليل نهار بتضخم المرتبات وزيادة الجرايات وإن فتكت بأهل البلاد حمى الخمر والميسر والمخدّرات .

أين سطوة العلم وعز الإيمان ؟ وقد حفيت أقدام هؤلاء السادة من السعى إلى القصور والعمارات والجرى وراء كل ذى لقب من أصحاب المراتب والمرتبات ، أين تآليفهم النافعة ؟ أين دعايتهم ضد هجمات المبشرين واحتجاجاتهم ضدّ كيد المستعمرين ؟ أين صيحتهم التى كانت تزلزل العروش وتهز القلوب .

أين العلماء الذين كان يقصدهم الملوك والعظماء ولايقصدون ، ويسألهم الكبير والصغير ولايسألون ؟

أين من قيل فيهم إنهم ورثة الأنبياء ؟ وإن قطرات أقلامهم ترجح بدم الشهداء ، قضت دولة أولئك العلماء ، وأصبحت لاترى إلا كل حفيظ لبعض قشور من الشريعة وأصول الفقه يستثمرها ابتغاء قنص الفلوس لافى سبيل إصلاح النفوس ، متهافت على الأمراء والعظماء ، لايرى منفعة دنيئة ، أو حظا عاجلا عند كبير إلا طار إليه كالذباب لايقوى على رؤية العسل دون أن يهوى عليه .

أما الدين ، أما الضمائر والذمم ، وعلوّ النفس والهمم ، فذلك ماليس يعنيهم ما دام لايسد البلعوم ولايهيئ أسباب العيش الرضى الهنىء ، وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر يحييها السادة العلماء فى دار المندوب السامى ولتظلم الجوامع ولتقفر بعد ذلك بيوت الله .

أراح الله الشرق من شرّ المنافقين ، وقيض له علماء عاملين يأخذون بيده وينهضون به فيعود إلى ماضيه القديم ويستردّ مجده التليد ، فإنى لا أظنّ الأرض تخلو من هذا المثل الأعلى للعلماء ، بل إن هذا الظنّ قد تحوّل منى إلى تحقيق بعد أن تبين لى فى نفسى صدق علىّ بن أبى طالب حيث قال « اللهم لاتخلى الأرض من قائم لك بحجة ، إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مقهورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته » وليس بضائر الشمس أن تحجبها عن الأبصار السحب السوداء ، أوأن لاترى نورها أعين الخفاش فإنها بالرغم من كل هذا موجودة وهى تضيء وهى تنفع .

أما أنا فأعتبر نفسى سعيدة السعادة كلها حيث قد منّ الله علىّ باختراق هذه السحب السوداء بنور البصيرة فعرفت من أنكره الناس وعثرت بمصباح (دياجونيس) على مالم يعثر عليه (دياجونيس) نفسه ذلك هو الرجل ، وإنى لست بالساذجة ولا بالجاهلة ، فإن قلت إنى عثرت وعرفت فعلى علم ونور وبصيرة . انتهى .

مدام رئيفة كامل

وبهذا تمّ الكلام على المقام الثانى من المظهر الأوّل لهذه الآيات .

اللطيفة الثانى ما جاء عن علماء الأرواح حديثا ببلاد أوروبا

معجزات القرآن فى هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا لهذه الآيات من قوله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله – إلى قوله تعالى – فذوقوا ما كنتم تكنزون » ولنفصل الكلام فى هذا على ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى : ملخص هذه الآيات إجمالا نبنى عليه ما بعده .

الجوهرة الثانية : فى مبحث عام فى النفس الإنسانية وقواها وملكاتها وأخلاقها لأنهـا هى أس جميع الأعمال .

الجوهرة الثالثة : فيما أعلنه بعض الذين خاطبوا الأرواح من علماء للسيحيين الكبار وحكمائهم وأنهم شاهدوا فى الجنة قصورا وفى النار ظلمات وسعيرا ، وأن بعض رؤساء الدين المسيحى من آباء الكنيسة الرومانيين فى أسفل جهنم الخ ، وأن الدين الإسلامى قد ظهر له أحسن أثر فى الأموات الذين اعتنقوه الخ ، وهذا المقال من أعجب مافى هذا التفسير .

الجوهرة الأولى مجمل هذه الآيات هو :

(١) أن من قدّم النفس والمال لله فهو فى الجنة .

(٢) أن الذى يقدّم حبّ المال والأهل وغيرهما على حب الله فهو فى جهنم .

(٣) أن النصر بيد الله لأن العالم فى قبضته .

(٤) معاداة الكفار .

(٥) ذمّ النصارى واليهود الذين جعلوا لله شريكا واتبعوا الأحبار والرهبان الذين يحلون ويحرّمون .

(٦) الأحبار والرهبان لشرههم على المال وحبهم الرياسة يعذبون فى جهنم .

هذه الأصناف الستة ترجع لأصل واحد وهو أن الشره على المال أو الرياسة أو حب أمر من الأمور يصدّ النفس عن حبّ الله تعالى وهذا يوجب عذاب جهنم ، فهذه الآيات جمعت ما بين مؤمن متثاقل عن الجهاد لأجل مسكنه أو ماله أو أهله ، وبين رئيس دينى مغرم بالمال والرياسة الخ ، وبهـذا تمت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية : فى تحليل النفس الإنسانية ومعرفة قواها وملكاتها حتى نقف على سرّها المكنون المخزون الذى به ندرك بعض سرّ هذه الآيات .

ثم نقفى فى الجوهرة الثالثة بمصداقها من العلم الحديث ، اللهم إنك أنت الذى تحيى القلوب وتخرج الحى من الميت ، أنت الذى شرحت صدرى لهذا التفسير وأنعمت علىّ بالتوفيق وأريتنى بدائع الغرائب ومشاهد الحوادث حتى يظهر سرّ كتابك فى هذا الزمان الذى التبس فيه الحق بالباطل ، اللهم إنك أنت الذى خلقت نفوسنا وأضأتها بنورك وأودعت فيها جواهر وأبدعت وزوّقت وصوّرت وأحكمت ، فكانت نفوسنا :

(١) قابلة لمعرفة جميع الموجودات .

(٢) مشاركة لكل حىّ فى صفات عامّة فهذا تودّ لو شملت جميع الأحياء بالرحمة والإحسان .

(٣) وحياتها متوقفة على العوالم العلوية والسفلية بوجه عمومى .

(٤) وهى من جهة أخرى تودّ لو تبتلع كل موجود إطاعة لشهوتها أو تهلك كل حىّ إطاعة لغضبها وسطوتها ، وبيان هذه الأربعة أن تقول :

هلم أيها الذكى أحدّثك دقائق واعتزل عالم الأجساد ، وادخل معى عالم روحك وتفكر فيها فها أنا ذا أصف نفسى وهذا الوصف ينطبق على نفسك وقد أمرنى الله وأمرك أن ننظر فى نفوسنا فقال « وفى أنفسكم

أفلا تبصرون » وهذا فيه توبيخ لنا وإنكار علينا لعدم نظرنا لنفوسنا فامتثالا لأمره تعالى أنظر فى نفسى وأنت تنظر فى نفسك فأقول :

قل لى ألست تجد أنك تحب أن تعرف جسمك ومنزلك وقريتك وأمتك والكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وعالم المجرة الذى يحتوى على نحو (٢٤٠) ألف ألف من النجوم التى هى أكبر من شمسنا وأضوأ جداء فنها ماهو أضوأ منها (١٠٠) مرة ، ومنها ماهو أضوأ ألف مرة ، ومنها ماهو أضوأ ثمانية آلاف مرة وأكثر كما تقدم كثيرا فى هذا التفسير .

ثم وراء هذه المجرّة مجرّات أخرى قد وصلت إلى مايزيد على ألف ألف مجرة ، وكل واحدة من هذه فيها شموس كشموس مجرّتنا .

اللهم أنت القدّوس ، أنت العليم ، أنت الحكيم ، أنت الكريم . فمن كرمك أن أبدعت نفسى وأبدعت نفس قارئ هذا الكتاب وجعلتهما توّاقتين إلى هذه العجائب التى ذكرتها سابقا فى سورة الأنعام ، وسأذكر بعضها فى سورة يونس وغيرها ، بل إنّ هذه النفس تراها تدرك أن هناك مالانهاية له فى الزمان والمكان والعوالم ، ولكنها حين تريد أن تتصوّر ذلك تبهر وتنكمش وتتقهقر وتقول لاقدرة لبصيرتى على تصوّر هذا ، وإذن ترجع القهقرى وتقول إن مالانهاية له يعلمه من وجوده لانهاية له ، وهو الذى دبر هذا الوجود فمن أنا حتى أقف على سرّ الوجود ؟ .

فمن هذا يتبين أن نفسى ونفسك معا عاشقتان مغرمتان بالاطلاع على كل موجود ، ومعنى هذا أنهما قابلتان لذلك كما قبلتا الطعام والشراب ويظهر لى أن كل ماتميل إليه النفس هو من جبلتها وطبيعتها وإلا فاذا كان ميلها للطعام سببا لحياتها وميلها لاقتراب الرجل والمرأة سبباً لبقاء الولد ، فهكذا فليكن ميلها لمعرفة العوالم وحبها سببا لسعادة كبرى مناسبة لهذا الميل كما سعدت سعادات صغرى بالميل للطعام والتزوّج ، هذا هو ماقصدت من شرح الأمر الأول : وهو قبول النفس لمعرفة جميع الموجودات .

الأمر الثانى : أن الإنسان لمشاركته لأبناء نوعه فى عواطفه يحب حياة كل إنسان متى خلى وطبعه . والبرهان على ذلك أنك ترى الإنسان إذا شاهد قطارا دهم رجلا وقتله فى مصر أو بغداد أو الاستانة أو كلكوتا أو باريس أو برلين فإنه فى الحال يفزع ويجزع ، وهذا دليل على أنه يفرق بين حالى هذا المقتول ويفضل حال الحياة على حال الموت .

الأمر الثالث : أن نفسى التى تحب معرفة كل شئ وحياة كل إنسان إذا وصلت لليقين تعلم أنها متوقفة على جميع العوالم العلوية والسفلية ، وهذا واضح فى ثنايا هذا التفسير أفلا تعجب من هذا ؟ ألا تعجب من أن حبها لمعرفة العوالم وعطفها العام يناسبان احتياجها العام .

اللهم إن نفسى لاتعيش فى هذه الدنيا إلا بجسم تحفظه قرية تحميها دولة يحيط بها هواء وأضواء مشرقات من العوالم العلوية والأمم جميعها والدول مشتركات فى الأمور العامة كالأسلاك البرقية (التلغراف) وكالمسرّة (التليفون) وكالقطرات فى البرّ والسفن فى البحر وهكذا .

فالأمم على هذه الأرض كلها متعاونات وإن كنّ متعاديات وهذا هو العجب ؛ حبّ عام واحتياج عام واشتراك عام ، وإن كان هذا الاشتراك صوريا والقلوب مقفلة على الطمع والشره والعداوة والبغضاء لنقص أهل الأرض أجمعين إلا قليلا منهم « وقليل من عبادى الشكور » .

الأمر الرابع : أنها مع هذا الحبّ وهذا الغرام بالعلم والاشتراك العام كنت فيها قوّتان : إحداهما جاذبة . والأخرى دافعة .

أما القوّة الجاذبة فهى الشهوات التى أعدّت لبقاء الحياة فى الدنيا ، فهذه الشهوات نراها قوية هائلة ، فكما رأينا عقولنا تودّ معرفة كل كوكب وكل شمس وكل أرض كما هو معروف من أخبار علماء أهل أوروبا الذين يودّون أن يسافروا القمر أو يخاطبوا أهل المريخ الخ ونحن نتشوّق لذلك شوقا كبيرا ، هكذا نرانا إذا ملكنا لانقف عند حدّ ، فنحن تكفينا الأطعمة الحاضرة والملابس الساترة ، لكن هذه النفس تندفع فى شهواتها كاندفاعها فى علومها ، يودّ الإنسان لو يملك قرية أو أمّة أو أهل الأرض جميعا ، والدليل على ذلك مانعرفه عن نابليون ومختصر وغليوم أمبراطور الألمان وغيرهم .

وهكذا كل أحد منا يعرف فى نفسه أنها لاتقف عند حد فى أمر الملك وحوز النعم الأرضية ، وإذا عارض أحد من الناس هذه القوّة فينا غضبنا عليه وكرهنا حياته ونسينا أن كل حىّ على الأرض رحمة لنا ؛ فالأمم وأفراد الأمم يساعد بعضهم بعضا ، فكل عنده من العلم والسلع ماليس عند الآخر فكل لكل مكمل ومرقّ ولكنّ الناس لنقص أكثر نفوس أهل هذه الأرض بعضهم لبعض عدوّ ، وهذه هى القوّة الدافعة ، فنحن أهل الأرض بين قوّتين : قوة جاذبة لما به الحياة ، وقوة دافعة لما يضادّها . وهاتان القوتان هما اللتان تظهران فى الجاذبية العامّة ؛ فالشمس مثلا تجذب الأرض ولكنها تدفعها عنها إلى بعد مخصوص بالقوة الطاردة ، فالأرض كعاشقة للشمس لأنها مجذوبة إليها ولكنها مطرودة عنها إلى بعد مخصوص ، هذه هى القوى الأربعة التى فى نفوسنا فهى محبة لكل علم متوقفة على كل العوالم ( وهذا لايعرفه إلا من درس جميع علوم الكائنات أو قرأ أكثر هذا التفسير ) .

تريد أن تعرف كل شئ ، وتملك كل شئ ، وتحسن لكل حى ، ولكن يعارض هذا شهواتها وأضغانها — وإن كانت فى حاجة لأبناء نوعها — إن رغبة العلم العام والمحبة العامّة طبيعتان أصليتان فى النفس ، أما كونها تودّ البطش بأبناء نوعها وتودّ هلاكهم فهذا عارض من حيث حاجتها إلى سد شهواتها ، ونتيجة هذه الجوهرة الثانية أن الإنسان لاتصلح حياته إلا على مقتضى أصول فطرته ، وأصول فطرته أهمها العلم والحبّ والتعاون . إذن حياة الفرد فى أمّة يتوقف كمالها على حياة الأمّة وكل ماتوقفت عليه حياتنا أحببناه وهكذا فى الأمم على هذه الأرض .

اللهم إن كال الأفراد فى حب بعضهم من أمّتهم ، وكال الأمم فى حب بعضهم بعضا ، ولقد حصل هذا فعلا فى أرضنا ولكن حصوله ناقص ، فإننا نرى أهل المنزل يتشاركون وهم كثيرا مايتعادون ، ونرى أهل القرية يتشاركون فى أمورهم العامّة وهم يتشاجرون ، ونرى الأمم تتعاون فى التجارة والبريد والقطرات وهم جميعا متعادون . الله أكبر ظهر الحق واستبان السبيل وظهر جمالك فى العالم الذى عشنا فيه .

اللهم إنك قد أبدعت هذا الوجود وأرجعته لفطرنا ، أنت عشقتنا فى المعرفة وجعلت حياتنا موقوفة على أبناء نوعنا فتشاركوا وتعاونوا ولكن هذا التشارك وهذه المعاونة ظاهريان لاباطنيان . اللهم إن فطرنا صادقة لصدقها تحزن أو تألم فى هذه الحياة وهى لاتدرى ما سبب هذا الألم ولا تعلم أن سببه أن هذا العالم ناقص لايطابق فطرتها تمام المطابقة بل المطابقة لفطرتنا لفظية ظاهرية ، ولذلك حكمت بموتنا لندخل فى عالم آخر تتوافر فيه معدات الحياة الحقة فيكون التعاون بالقلب والقالب وتصبح النفوس متجاذبة تجاذبا صادقا لاعوج فيه ولا خداع .

إن حياة الأرواح فى أجسامها يجب أن يكون بالحب العام الخالص كما أحبت الشمس الأرض ، والأرض القمر وأفاض الأعلى على الأدنى بلا منّ ولا أذى كما يفيض الأبوان على الولد ، وهذه الصفة مفقودة فى أرضنا التى حياة الأمم وحياة الأفراد فيها مصحوبة بالخداع .

اللهم إنك سترت فى الدنيا بواطننا رحمة منك ، أنت أردت أن تكون ظواهرنا متشاكلة متوادّة متجاذبة ، وقد أقفلت على قلوبنا أقفالك حتى لاتظهر ، ولو ظهرت لكان التنافر ولم تتم الحياة .

وهذا النقص يتبعه عالم أكمل من عالمنا هذا تكون البواطن فيه ظاهرة واضحة وهو عالم الأرواح لأن الليل يعقبه النهار ، فحياتنا ليل مظلم لاتظهر فيه البواطن ، أما حياة الأرواح فهى نهار مضىء تظهر فيه الأشكال . وههنا يظهر سر من هذه الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها ، فإذا رأينا الإنسان يقدم نفسه وماله فى المنفعة العامة بإخلاص فهذا مطابق لفطرتنا الأصلية ، وإذا رأينا الأحبار والرهبان يزجون فى جهنم لأنهم يجمعون أموال الناس لأنفسهم، فمن هذا أنهم سخروا المجموع لأنفسهم ؛ فمحبتهم إذن لأنفسهم لا للمجموع وهذا مناقض لفطرتنا ، هذا هو الذى أردت تبيانه بطريق عقلى نفسى .

الجوهرة الثالثة

[ معجزات القرآن التى ظهرت مطابقة لما تقدّم عند بعض علماء النصارى الذين حدّثوا الأرواح ]

بين يدىّ الآن كتاب مؤلفه عالم مسيحى ( عمانوئيل سودنبرج ) عاش فى القرن الثامن عشر وقد ولد فى مدينة ( استوكهلم ) وأبوه كان ( أسقفا ) على وستروغوثيا له شهرة طويلة فى حياته وكان عضوا فى الجمعية الإنجليزية لنشر تعاليم الإنجيل وأقامه الملك كارلس الثالث عشر أسقفا على الكنائس الاسوجيه فى ( بنسلفانيا ولندن ) أما عمانوئيل سودنبرج الذى نحن بصدد الكلام عليه فإنه زار انكلترا سنة ١٧١٠ وهولندا وفرنسا وألمانيا وعاد إلى وطنه سنة ١٧١٤ وجعله الملك كارلس الثانى عشر فى رتبة مقدر فى مدرسة المعادن وبقى فى هذه الوظيفة إلى سنة ١٧٤٧ وقال إنه استقال منها لأنه دعاه داع إلهى لنشر الحقيقة العلية فى العالم ، فعرض عليه الملك رتبة أعلى فرفضها خوفا من أنه يتيه غرورا وتكبرا وتعاظما ، ثم أنعمت الملكة عليه بترقيته إلى منزلة الأشراف ولقب بلقب ( سودنبرج ) فجلس فى مجلس الأشراف وحضر الجلسات الثلاث التى تعقد كل سنة وصار عضوا فى الجمعية العلمية فى ( استوكهلم ) ولكنه يقول هذه الجمعية مبحثها لايناسبه لأنها تتعلق بهذا العالم المادّى والملك لم يبحث معهم وإن كان عضوا منهم بالاسم ، وقد تناول الطعام على سفرة الملك والملكة ( وهو شرف لاينال غير أشراف المملكة ) وقد قال إن هذه النعم ليست شيئا مذكورا بالنسبة لما دعانى إليه الله والهمنى أن أحدّث الناس بالحقائق التى شاهدتها فى عالم الأرواح لإظهار الحق للمسيحيين ليعرفوا الحقيقة ، وقال إنى تنقلت فى البلاد لهذه الغاية وإبراز هذا العلم للناس لخلاصى وخلاصهم .

هذا ملخص ماذكره المؤلف فى خطابه لأحد أصحابه سنة ١٧٧٩ وقال إن تشنيع الناس علىّ وتشهيرهم بى واستهزاءهم لايهمنى مادمت قائما بالحق ، ولما قال له أحد أصحابه إنى أنصحك أن تنزل تلك الكتابات التى تكتبها عما ترى وتسمع فى عالم الأرواح فإنها تعرضك لسهام ذوى الجهالة وقد أصبحت هزؤا وسخرية ، قال قد بلغت من العمر إلى درجة لايجسر فيها على المزؤ بالأمور الروحية وإن منتهى جهدى السعى وراء خلاصى غير ملتفت إلى مايرى الناس فىّ ، ثم قال أقسم بخلاص نفسى أن ما كتبته لم يكن مصدره التخيل بل حقيقة ماسمعت وما رأيت ، وقد مات سنة ١٧٧٢ ودفن فى لندن بعد ما أصيب بالفالج وقد قابله قبيل موته كاهن يسمى (أرفيدفرليوس) وقال له لقد نلت مرادك من الشهرة والناس يزعمون أنك بهذه التعاليم أردت الشهرة ، فإذا كان زعمهم صادقا فمن الواجب عليك فى هذه الحال حبا فى العدل والصدق أن تكذب كل ما كتبته أو بعضه مادام لم يبق لك مأرب فى عالم عما قريب تفارقه ، فلما سمع ذلك منه انتصب فى فراشه

جهد طاقته ورفع يده الصحيحة إلى صدره وقال بلهفة ( إنّ صدق ما كتبته حقيق كحقيقة رؤيتك إياى أمام عينك ، ولو سمح لى لكتبت كل ما رأيت وقلت أكثر مما فعلت حتى الآن ، وسترى كل شئ بعينيك يوم تدخل العالم الأبدى حيث أجتمع بك الكلام فى أمور كثيرة ) انتهى ملخصا .

ماذا يحدثنا عمانوئيل الذى ذكرنا ملخص تاريخه

يحدثنا (١) يقول فى صفحة (١٧٩) ما نصه فى الترجمة : إن الأفريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع فى السماء ( أى الجنة ) لأنهم يقبلون خيرات وحقائق السماء بأوفر سهولة من الآخرين وهم يرغبون خصوصا أن يدعوا مطيعين .

ويقول فى صفحة (١٨٠) إنه رأى عباد الأصنام من الأمم بعد الطوفان وشاهد أرواحهم فرآها فى مكان مظلم وفى حال تعسة وقد حرموا من الفكر وقالوا له إنهم أقاموا فى ذلك المكان قرونا كثيرة وإنهم يخرجون منها بعض الأحيان ليقوموا بحاجات دنيئة للآخرين . قال فمن هذا حملت على التفكر فى كثير من المسيحيين الذين ليسوا فى الخارج عبدة أوثان ولكنهم فى الداخل كذلك إذ يعبدون ذواتهم والعالم ويرفضون الله . قال وأخذت أتفكر فى نوع النصيب الذى ينتظرهم فى الحياة الأخرى ، وقال فى موضع آخر إن المسيحيين يعيشون عيشة شرّيرة ولهم ولوع بالزنا والبغض والخصام والسكر وذنوب متشابهة تأباها الأمم الوثنية .

(٢) وهو يقول أيضا : إنه حادث الأرواح فقالت له ( إننا فى السماء لانقول إن الله ثلاثة وإنما نحن نعلم ونبصر أن الله واحد ) ويقول إنهم قالوا له إن الذين يعتقدون بآلهة ثلاثة لايمكن إدخالهم إلى الجنة لأن أفكارهم يحصل لها تحير فلا تدرى أين الثانى والثالث ، والمدار فى عالم الأرواح على الفكر ، فالفكر إذا تصوّر ثلاثة آلهة ، فقول اللسان إنه واحد نفاق لايفيد بل يظهر الباطن ويكون وبالا على صاحبه وذلك فى صفحة (٣) من الكتاب المذكور .

(٣) ويقول فى صفحة (٨١) يعتقد البعض أن الأطفال الذين ولدوا تبع الكنيسة بسبب أنهم متعمدون بماء المعمودية يدخلون فى الإيمان ، وأما الذين ليسوا تبع الكنيسة ولم ينلهم ماء المعمودية لايدخلون فى الإيمان قال وهذا باطل لأن المعمودية تذكار ، ثم قال فليعلموا أن كل طفل فى أى مكان ولد من والدين تقيين أو من والدين غير تقيين متى مات يقبله الله ويعلم فى السماء ( أى الجنة ) وهنا أخذ يشرح العناية بالأطفال شرحا مستفيضا على ما يقول إنه رآهم كذلك .

(٤) ويقول فى صفحة (٩٢) رأيت قصورا سماوية ذات إتقان لايمكن وصفه أشرقت من فوق كالذهب النقى ومن تحت كالحجارة الكريمة يزيد بعضها عن البعض رونقا ، والغرف مزدانة بزينة يستحيل أن يصفها الكلام وفى بعض الأماكن ترى الأوراق كالفضة والثمار كالذهب والأزهار فى ألوانها أظهرت قوس قزح . ويقول : إن الأرواح قالت له إن هناك أشياء كهذه لاتحصى وهى أعظم كمالا يعرضها الله أمامهم ، ومع ذلك هم يبهجون عقولهم أكثر مما يبهجون أعينهم ، وذلك لأنهم يرون مطابقة فى كل شئ إلهى ، ويقول إن هذه المظاهر تطابق بواطنهم فإنها لطهارتها ظهرت لهم المحسوسات وتنعموا بها كما تنعم بواطنهم بالكمال .

(٥) ويقول فى صفحة (٦٦) إن داخليات الإنسان تعرف بالنظر لوجهه بحيث لايخفى منها شئ ، فأهل الجنة يحبون أن يظهروا لأن بواطنهم جميلة ، أما الفجار من أهل النار فإن أحدهم يظهر للآخر كما يرى الناس بعضهم بعضا ، أما أهل الجنة والملائكة فإنهم يرونهم كالوحوش فى وجوه وأشكال مخيفة فى نفس شكل شرّهم الذاتى ، فكل إنسان يظهر شكله على هيئة باطنه ، فإنما جميل على قدر خيره وإنما قبيح على قدر شرّه ، وصف فى صفحة ٣٧٥ و٣٧٦ جهنم يقول :

إن

إن مداخل جهنم تكون تحت الجبال والتلال والصخور وجميعها تظهر مظلمة ومغبرّة ، ولما نوع من النور كالفحم المشتعل ، وإن الذين عاشوا فى الدنيا فى البغض والانتقام من الذين لم يحترموهم ولم يقدّسوهم ولم يعبدوهم ، فهؤلاء يوضعون فى أقصى جهنم ومن هؤلاء طائفة ( الكاثوليكية الرومانية ) وكذلك الذين جعلوا أنفسهم آلهة تعبد فهؤلاء اضطرموا بنار البغض والحقد ضدّ كل من لم يعترف بقدرتهم على نفوس العالم ولا يزالون فى جهنم يحلمون الأمانى التى عاشوا بها على الأرض ، فقلوبهم ملأى غيظا وحقدا وضغنا على من لايوافقونهم فى زعمهم فأصبحوا فى جهنم ، وقلوب كل منهم متجهة نحو ذوى صيته .

وقال فى صفحة (٣٧٧) فى بعض جهات جهنم ترى خرابات ومنازل ومدن بعد شبوب نيران ، وفيها تسكن الأرواح الجهنمية فى خفية ، وفى النواحى المعتدلة من جهنم ترى أكواخ سيئة البناء بهيئة مدينة بالأزقة والشوارع وفى داخل هذه البيوت الأرواح الجهنمية دائما فى مشاجرة وعداوة ومضاربة وقتال ، وفى الشوارع والأزقة لاترى إلا النهب والسلب .

وقال إن أبواب جهنم حين تفتح لدخول أرواح شرّيرة جديدة يخرج منها بخار يكون إمّا مثل بخار النار مع الدخان كما يظهر فى الهواء من أبنية محترقة أومثل لهيب بدون دخان أو نظير سخام كالذى يخرج من المداخن المشتعلة أو نظير ضباب أو سحاب كثيف ، قال وهذه الأشياء مناسبة لأخلاقهم ولكنها تظهر بهذا الشكل لغيرهم ، أما هم فلا يمكنهم أن يعيشوا خارجها .

وصرّح فى صفحة (٣٥٩) أن بعض الناس إذا سمع فى جهنم ذكر الله ازداد غيظه جدّا حتى التهب راغبا نائه وهو لو أطلق العنان لنفسه لأحبّ أن يكون إبليس حتى يزعم أنه يلحق الأذى بالله تعالى كما جناه بعض أصحاب الديانة البابوية عند ما يدركون فى الحياة الأخرى أن الرب كل القوّة وليس لهم شىء منها على الإطلاق .

(٦) ويقول فى صفحة (٥٨) إن الله يرى فى السماء (الجنة) كالشمس ويرى لكل أحد بمقدار مايقبله تعالى ومن رآوه لإفاضتهم الخير على الناس ظهر لهم كالشمس لما عندهم من المحبة والخير للناس ، أما الذين يرونه لأجل الإيمان فإنهم يرونه كالقمر .

(٧) ويقول أيضا إن نصيب الأغنياء والفقراء فى الآخرة تابع لسرائرهم ، فكم من غنىّ كان محسنا طاهر القلب فرأيته سكن القصور الجميلة ، وكم من فقير كان ساخطا على الزمان غير راض بالقدر فهذا يعذب عذابا شديدا انتهى ، فاعجب من معجزات القرآن .

أليست هذه المسائل التى لخصتها لك من كتابه هى عين تفسير هذه الآيات ، بل هى من آيات الله وهى بعض آيات ربك التى أظهرها للناس ؟ .

فياليت شعرى أليست الجنة والنار اللتين ذكرهما هما المذكورتان فى القرآن بالنص أفليس الرجل أنكر التثليث ؟ .

أوليس كلامه فى أهل أفريقيا وأنهم يسبقون الناس إلى الجنة وأن الأمم الوثنية من نفس تلك البلاد قديما معذبون فى جهنم ؟ .

أقول : أليس هذا معجزة القرآن فى هذا العصر لأن أهل أفريقيا مسلمون وأسلافهم عباد أصنام .

وانظر كيف صرّح بما نصت عليه الآية وهو أن رؤساء دينهم لحبهم لإجلال الناس إياهم فى أسفل جهنم كنص هذه الآية .

أوليس قوله : إن أطفال جميع الأمم يدخلون الجنة موافقا للأحاديث ولآراء أجلّ علماء الإسلام ؟

أو ليس تفضيله للغنى الشاكر هو عين ما أوضحه الإمام الغزالى فى الإحياء أن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

نتيجة هذا المقام

ألست ترى بعد هذا أن ما نقلناه من هذا الكتاب إنما هو بيان لسر هذه الآيات ، إذ ذكر أن التثليث يعذب عليه المسيحيون ، وأن عظمة رجال الكنيسة تطرحهم فى أسفل سافلين الخ .

هذا هو سر هذه الآيات ولاسيما قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » انتهى ليلة الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢٧ .

هذا ، ومن أعجب العجب أن يقع هذا الكتاب فى يدى وهذه السورة مقدمة للمطبعة وأخر طبعها لأسباب عارضة حتى تمكنت من تلخيص ما تقدم ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اه .

إيضاح

بعد أن كتبت ماتقدم بأسبوع اطلع عليه أحد أهل الفضل من الإخوان فقال : أبهذا القول تثق ؟ وهل مثل هذه الأقوال التى لاحظ لها من التحقيق يفسر القرآن ؟ القرآن وحى وهذا الرجل يدعى أنه خاطب الأرواح .

فهل النائحة كالثكلى * فأين الثريا وأين الثرى * وأين معاوية من على

أو كلما نعق ناعق أثبت قوله فى تفسير كلام الله ؟ فقلت أنا لم أقل إنى موقن أنه حادث الأرواح ، كلا .

قال ولم إذن نقلت كلامه ؟ فقلت نقلته لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنى وجدت هذه الآراء فى فحواها وفى مقصودها تشبه كلام الأرواح كما فى كتابى المسمى [ كتاب الأرواح ] فإن تلك العوالم لما خاطبها القوم فى أوروبا كان ذلك أشبه بما جاء فى هذا الكتاب ، فإذا كان هذا العالم من رجال القرن الثامن عشر ، وافق لمن جاءوا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين فهو جدير بالبحث والتحرى .

الأمر الثانى : أن هذه الآراء كما تقدم أيضا قد ذكرها خواص علماء الإسلام فى أسرار الدين الإسلامى وينحو نحوها الإمام الغزالى ومحى الدين بن عربى وكتاب [ إخوان الصفاء ] ونحوهم .

الأمر الثالث : أنى أنا نظرت فى هذه الدنيا بعقلى فوجدتها كما تقدم قد لازمتها الوحدة جملة وتفصيلا ولازمها الاتحاد .

فالشمس والسيارات والتوابع كالأرض والقمر وهكذا بقية الشموس كلهن متجاذبات متحابات متساويات وكل هذه وما معها فى المجرة وهكذا المجرات الأخرى ، هذه نراها فى نفوسنا عالما واحدا ، فهى فى نفوسنا واحدة والأعلى منها يمد الأسفل ، فالشمس تمد الأرض وباقى السيارات بالضوء وهن مجذوبات لها كما تقدم .

ثم إنى وجدت هذا النوع الإنسانى جعلت هيئته كهيئة هذه العوالم : أى إن وضعه فى الوجود هو والحيوانات كلها كوضع اشتقاق هذه العوالم ، فإذا رأينا الأرض ( كما هو الرأى العام فى العالم الآن ) مشتقة من الشمس دائرة حولها ملازمة لها والقمر مشتق من الأرض ملازم لها دائر حولها .

هكذا نرى الناس جميعا قسمين : أبوين وابنا وبنتا والأولان يعطفان على الأخيرين ، والأخيران مشتقان من الأولين تابعان لهما ، ثم نراهم من جهة أخرى قسمين : قسم هم ذكور وقسم هم أناث وهما متعلقتان متحابان ، ونرى علما وحكما ونبيا يعلمون تلاميذ وأمما ، وهذه أيضا ولادة أخرى معنوية ، يحبنى هذا النظام ، نظام يراد به التعارف والمحبة بحسب أصله وهو قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وهذا هو الأصل الذى بنيت عليه كتابى [ أين الإنسان ] الذى سأذكر ملخصه الذى استخلصه منه الأستاذ (ستتلانة) التليانى فى ( مجلة العلوم الشرقية ) فى سورة الحجرات عند تفسير الآية المتقدّمة فيها هناك .

فإذن العالم الإنسانى خلق أوّلا وبالذات للتعارف والمحبة كما خلقت هذه العوالم للتجاذب وللاتحاد ، فإذا لم يوفق الإنسان لذلك فى هذه الحياة فما أحراه أن يتلكأ فى سيره ، ويوضع ( الذين لم يصلوا إلى هذه النتيجة ) فى عوالم منحطة ليدركوا بعد حين أنهم فى ضلال مبين ويعلموا أنهم فى السجن الجهنمى بغباوتهم كما قال تعالى «وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير» وهذا الأصل هو الذى يبنى عليه جميع هذه الآيات ، فمن فضل ماله أو أهله على المجموع ، ومن أخذ المال وكان رئيسا دينيا وهو عليه حريص فقد أخطأ المرمى وغش المجموع فصار نجسا يحبس فى مكان محزن هو جهنم .

فهذا هو رأيى فى هذه الدنيا فلذلك نقلت كلام الرجل لملاءمته لذلك أشدّ الملاءمة ، فإذا لم يكن ما فهمته حقا فلماذا لم يخلق الإنسان بصفة أخرى ؟ ولماذا لم يخلق كالنبات يعيش ويموت ولا نصب ولا تعب ولا ألم ، وكان فى الإمكان أن يخلق الناس كما يخلق الشجر إلى حين ثم يموتون ، الشجر لايحتاج بعضه إلى بعض كثيرا ولكن هم فى أشد الحاجة بعضهم لبعض ، لعمر الله لم يكن ذلك إلا لأجل ما ذكرناه وبيناه وفتح الله به .

اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لايعقلون ولا يدرسون هذا الوجود ، فلذلك أنزلت عليهم الديانات وخلقت الحكومات ليتفطنوا .

هذا هو سرّ ذمّ الله للأحبار والرهبان الذين يحرصون على المال ويستعبدون الناس مع أن هؤلاء العلماء إنما نصبوا لخدمة المجموع ، هكذا علماء الإسلام إن لم يكونوا رحمة للمسلمين فهم ملحقون بالأحبار والرهبان لحرصهم على الدرهم والدينار .

هذا هو الذى أفهمه فى هذه الدنيا التى هى أكبر مدرسة لنا معاشر بنى آدم ، فلما سمع صاحبى ذلك قال: هذا بيان يصلح أن يكون أساً تبنى عليه الحكمة والفلسفة والحياة ، فقلت : ونحن إذا فسرنا كتاب الله فهو أولى بالأصول الثابتة والعلوم الحقة ، وإن لهذه الآراء شأنا فى الأمم بعد مغادرتنا هذه الدنيا ، ويشير لما قلته الآن قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» وقوله « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال » استوى الله إلى السماء ودعا السموات والأرض فأتتا طائعتين .

ولما سجد له من فى السموات والأرض انقسموا فريقين : فريق سجد طائعا وآخر مكرها ، وهذا يشهد لما ذكرته لك الآن ، تجاذبت العوالم كلها، نظمت بحساب، جرت الشمس حول كوكب مجهول لنا وجرت الأرض حول الشمس وجرى القمر حول الأرض وجرت السيارات كذلك ، وهكذا توابعها وجميع الكواكب كلها جرت جريا منظما لم يجد فيه العلماء خطأ ، وهذا فيه معنى الحب ويسمى الجاذبية :

* إن المحبّ لمن يحبّ مطيع * أما بنو آدم فليسوا جميعا راضين محبين بل سيأتون إلى ربهم قوم طائعون محبون ، وقوم عاصون مجرمون ، والطاعة هنا ترجع إلى الحبّ والشوق والغرام ، فمن أدرك جمال هذا العالم أحبّ صانعه فرضى بما يجريه عليه لعلمه أنه لحكمة ، ومن عاش غافلا ساهيا لاهيا لايحب الله ولا يرضى عن فعله ويعترض فى قلبه عليه ويأتيه كارها لامحبا ، ولن يكمل هذا النوع الإنسانى إلا إذا كانت الأرواح متجاذبة كتجاذب وتحابّ الكواكب والشموس والأقمار .

فإذا ذمّ الله الأحبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل فذلك لأنهم لم يوفقوا النظام الأتمّ ، نظام الجمال والكمال بأن يحنوا الناس آباء لا أن يكونوا غافلين يجعلون الدين وسيلة الخبز والملبس فعكسوا الآية وطمسوا الحقيقة فرجعت محبتهم لأنفسهم لا للناس وطاش سهمهم فلم ينظروا إلى الشمس والقمر والكواكب إذ يفيض النور بلا أجر ولا إلى الآباء والأمهات إذ يفيضون النعم وأنواع البر على الأبناء بلا أجر ، هكذا الله يفيض الخير على الناس بلا أجر .

ضرب الله الأمثال للناس بالكواكب وبالآباء وبالأنبياء فظلّ الناس تائهين غافلين حيارى سكارى فى شهواتهم ، وزهد الأحبار والرهبان فى الجمال العام وعكفوا على الشهوات البهيمية وتبعهم فى ذلك بعض رجال الصوفية فى الأمم الإسلامية فقد رأيتهم يجوبون بلادنا المصرية ويطوفون على القرى والكفور ويتظاهرون بالصلاح والتقوى ويأخذون أموال الناس بالباطل وما هم بعلماء ولا بوعاظ ولكن ساروا شوطا وراء الدرهم والدينار كما سار الذين من قبلهم من الأحبار والرهبان الذين أطلق الله أوروبا من قبضتهم بسبب اطلاع القوم على دين الإسلام كما قدّمناه عن السيدة الأروبية التى أسلمت ، فهم أطلقوا من وثاق رجال الدين بسبب ديننا؟ والمسلمون فى بلاد الغرب من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وفى مصر والشام والعراق وبلاد الهند وجاوه قد وقعوا فى شبكة هؤلاء الصيادين ممن اتسموا بسمات الصوفية ظاهرا وهم عنها غافلون ، لا لا يامعشر المسلمين ! كلا والله إنما رجال الدين هم الذين يسيرون على سنن أبى بكر وخلفائه من بعده ، هم الذين يقتفون آثار الأنبياء ويكون مقصدهم المثل الأعلى كما أوضحه أفلاطون فى جمهوريته إذ نقل عن أستاذه سقراط أن الذين يقومون بحكم الجمهور يجب أن يكونوا أعلم الناس وأذكاهم وأتقاهم وأزهدهم فى حطام هذه الدنيا وأقربهم من الله زلفى ، وقال إن علمهم هو الذى يجعلهم أغنياء عما فى أيدى الناس فهم وإن كان لهم السلطان على الناس ممنوعون بورعهم وأدبهم عن مجاوزة الكفاف من المأكل والملبس ، وهذه بعينها سيرة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ .

إن الناس بعد الموت تجتمع أرواح الأخيار منهم فى عالم واحد ، وأرواح الأشرار فى عالم آخر ، وكما أن الشموس تزداد إشراقا بازدياد حجمها هكذا الأرواح الفاضلة تلتئم التئام ذرات الشمس وتتحد وتزداد سعادة بازدياد الواصلين إليها من عالمنا ، وهكذا يزداد المجرمون عذابا بوصول الفجار إليهم إذ يشعرون بآلام تزداد بازدياد من يصلون إليهم من الأشقياء كما يزداد الفجار عذابا فى الدنيا بتكاثرهم وازدياد فتنهم وشرورهم .

لاسعادة لهذا الإنسان ولا راحة إلا بالعطف العام فلا مدنية راقية مادام أهل الأرض لايتحدون على منافعها العامة كما أوضحناه فى كتاب [ أين الإنسان ] ولا سعادة فى الآخرة إلا لنفوس صار باطنها جمالا وكمالا وحبا للعلم وللإنسانية وخيرها ، والله هو الولىّ الحميد .

فلما سمع ذلك صاحبى قال لى : يتبين من كل ماذكرته هنا أن أهل كل دين فى الأرض طغوا وبغوا ، فهذه أمم النصرانية قد طغت فى المال وقد قال لها المسيح مانصه : [ لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض ] وذلك فى إنجيل متى (٦) ولما أرسل رسله أمرهم ألا يحملوا عصا ولا حذاء وألا يأخذوا مالا لأنهم مجانا أخذوا فليعطوا مجانا ، وهكذا جاء فى القرآن «قل ما أسألكم عليه من أجر» ومع ذلك نرى الأمم الإسلامية تسارع فى خطاها إلى اقتفاء آثار المسيحيين لاسيما بعض الشيوخ من رجال الصوفية الذين أشبهوا القسيسين فى أخذ أموال الناس بالباطل ، فأجبته قائلا : نعم لقد صدقت إن أهل كل دين فى الأرض طغوا وبغوا وسأحدّثك عن سبب ذلك .

اعلم أن كل دين فى الأرض ينزل على أهله صافيا نقيا لاتشوبه شائبة ، الله أكبر الله أكبر ا ظهر السرّ واستنارت السبل فى هذا التفسير وسيكون فى الشرق رجال يمتازون بعقولهم وحكمهم وبتعاليمهم ، أنظر أنظر تجد أن

كل دين ينزل إلى الأرض يضىء كما تضىء الشمس والكواكب ويحى كما يحيى الماء ، انظر فى دين الصينيين القدماء تجده فى صدقه وحسنه وجماله وجلاله يشبه الإنجيل ويشبه القرآن فى حسن جماله وصدقه .

لقد كان أقدم نبىّ عند الصينيين يسمى ( بوالكبير ) ظهر قبل المسيح بألفى سنة ، ثم جاء بعده بقرون الفيلسوف ( ليوتسو ) وهذا قبل الميلاد بمدة ٥٩٠ سنة وهو القائل : [ أسعف الناس فى حاجاتهم أنقذ من كان موجودا فى خطر ] هذا الفيلسوف عدوّه إلها متجسدا كما اعتقد النصارى فى المسيح .

وكان ( ليوتسو ) معاصرا ( لفيثاغورس ) وسنة ٥٥٠ قبل التاريخ المسيحى ظهر ( كونفيسوس ) وهم أعظم فلاسفة الصين ، وعاش ٧٣ سنة وتخلى من الرذيلة وتحلى بالفضيلة مثل ( بوذا ) وكان يقول لتلاميذه : [ إن المحبة النقية التى أوصيكم بها هى انعطاف ثابت فى النفس وميل يوافق عليه الصواب مجرّدا من الأغراض الذاتية ويضمنا إلى الناس بأسرهم فنخالطهم جسما واحدا معنا فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم ولا مانع يمنع من ملكته هذه المحبة أن يسعى فى ترقيه الذاتى وطلب المعالى . إنما تكون غايته فى ذلك بذل النصح والمساعدة لإنهاض من دارت عليه رحى الزمان وكان ضعفه وخموله حائلا دون نهضته ، وإن من اطلع على حقائق الأشياء لايتحمل أن يبقى غيره متسكعين فى ظلام الجهل والحيرة منكسرين لمصاعب الحياة وهمومها بل ينجدهم ويعضدهم ويمهد لهم سبيل الخروج من ظلمات الجهل ويدخلهم مقدس العلوم ، ومتى ملكت هذه المحبة القلوب جميعا يصبح العالم بأسره أسرة واحدة والناس أجمعون كإنسان واحد ، وبهذا الرابط العظيم السائد بين العظماء والضعفاء تصبح الإنسانية كلها جسما واحدا ] .

هذا هو كلام نبىّ الصينيين قبل المسيح وقبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك تجد الأمة الصينية لها جمعيات من كل طبقة وبينهم جميعا تلك الروابط التى أشار لها دينهم ، فهذا القول وما يشابهه من الإنجيل والقرآن يدلنا أن الديانات تنزل من السماء متشابهة .

ولكنّ هناك سرّا محبوءا يراه الناس بعيونهم ولكنهم لايفهمونه ، ذلك السرّ هو السبب فى طغيان النصارى وجهل المسلمين .

وبيانه أن الله أنزل النور وأنزل الماء فى الأرض قبل الأنبياء وقبل خلق الإنسان ، فهذا النور يختلط بالنبات فيكون مساعدا للتفاح والتمر والعنب على حلاوتها ويكون مساعدا للحنظل على مرارته ، ومساعدا للسنا المكى على شفائه لبعض الأمراض ، ومساعدا للمواد السامة النابتة فى الأرض على حصد الأرواح ، الضوء ينزل من السماء بهجة وجمالا ولكن المخلوقات الأرضية حينما تلتقطه وتشتمل عليه وتضمه لأنفسها تحوّله إلى طباعها وأحوالها ، هكذا الماء ينزل من السماء فماذا يكون ؟ نراه يسلك ينابيع فى الأرض فيكون على حسب الأصقاع التى يمرّ بها هناك ، فيكون ماء كبريتيا وماء جيريا وماء ملحيا ، وهكذا من أنواع المياه التى لاتصلح للشرب وإنما تصلح للأدوية ونحوها .

[ بناء عليه ] نقول : إن الأمور اللطيفة إذا اجتمعت بالكثيفة حوّلت إلى طباعها .

هكذا الديانات لما نزلت من السماء نزلت صافية ، ولكن عقول أهل الأرض حوّلت تلك الديانات إلى طبائعها وقلبتها إلى أهوائها ، فهاك الديانة المسيحية التى أخص خواصها المحبة العامة كيف صار رجال دينها كما تقدّم هم أسرع الناس إلى قتل آلاف الآلاف لأىّ ذنب صغير أو كبير .

وهذا دين الإسلام ، انظر كيف نبغ أوائل رجاله فى الزهد والورع كما قرأته هاهنا قريبا عن أبى بكر وعمر ، ثم جاء بعد الصدر الأوّل قوم لايريدون إلا الدرهم والدينار والفخر والرياسة وأخذ أموال الناس بالباطل .

اللهم إن أكثر أهل الأرض يتبعون أهواءهم كما قال تعالى « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ».

اللهم إنك أنزلت آية الأحبار والرهبان وأكلهم أموال الناس بالباطل فى سورة التوبة النازلة أيام ظهور الإسلام وغلبته وارتقائه لتمهد السبيل للقائمين بالأمر ، ألا يجعلوا الرياسة سبيلا للمال ؟ بل يكونون للأمم آباء ؟ ولكن أمم الإسلام المتأخرة نامت نوما عميقا .

اللهم إنى ألفت هذا التفسير وإنى آمل أن يكون سببا فى ظهور جيل جديد يصلح لتلقى تعاليم القرآن التى قام بها أقطاب الصدر الأوّل من الصحابة رضوان الله عليهم ولا يكونون كرجال النصارى المذكورين فى هذا المقام وأن يقطعوا دابر الرجال الذين يأخذون المال من المسلمين مثل مايأخذه رجال الدين للمسيحى، وإنى آمل أن يكون هـــذا التفسير ممهدا لمزرعة إسلامية صالحة تصلح لتعاليم هذا الدين ، والله هو الولىّ الحميد .

انتهى يوم الجمعة ضحى ٢٧ مايو سنة ١٩٢٧ ، وإلى هنا انتهى القسم الأوّل من سورة التوبة .

## ( القِسمُ الثَّانِي )

إلاَّ تنفِرُوا يُعذِّبْكُمْ عَذابًا أليمًا وَيَستَبدِلْ قَوْمًا غَيرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قدِيرٌ * إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الْغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَتَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا فَأنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفافًا وَثِقالاً وَجَاهِدُوا بِأمْوَالِكُمْ وَأنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

### التفسير اللفظى

( إلا تنفروا ) أى إلى الحرب ( يعذبكم عذابا أليما ) وجيعا ( ويستبدل قوما غيركم ) خيرا منكم وأطوع ( ولا تضروه شيئا ) ولا يضرّ الله جلوسكم ( إلا تنصروه ) أى إن لم تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم بالخروج معه إلى غزوة تبوك (فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ) كفار مكة (ثانى اثنين) يعنى رسول الله وأبا بكر ( إذ هما فى الغار ) ثقب عظيم يكون فى الجبل ، هذا الغار فى جبل ثور بقرب من مكة مسير ساعة (إذ يقول) رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لصاحبه ) أبى بكر ( لاتحزن ) ياأبا بكر ( إن الله معنا ) معيننا ( فأنزل الله سكينته ) طمأنينته ( عليه ) على النبى صلى الله عليه وسلم ( وأيده بجنود لم تروها ) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ، وهكذا يوم بدر والأحزاب وحنين أيده بالملائكة ( وجعل كلمة الذين كفروا ) أى دعوتهم إلى الكفر ( السفلى وكلمة الله ) دعوته إلى الإسلام (هى العليا والله عزيز) يعزّ بنصره أهل كلمته ( حكيم ) يذلّ أهل الشرك بحكمته ( انفروا ) اخرجوا مع نبيكم إلى غزوة تبوك ( خفافا وثقالا ) ركبانا ومشاة ، صحاحا ومراضا ، شبانا وشيوخا ، لاسلاح معكم أو معكم سلاح ، قلت عيالكم أو معكم عيال ،

جازيل وسمانا ( وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ) معا إن أمكن أو بأحدها على مقتضى الإمكان ( فى سبيل الله ذلكم) الجهاد ( خير لكم ) من تركه ( إن كنتم تعلمون ) كون ذلك خيرا فبادروا إليه، انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من سورة التوبة .

## ( اَلْقِسْمُ الثَّالِثُ )

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَـكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ

أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ * إِنَّمَا
الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ
تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ *
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ
طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ
يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ * وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن . ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم *
يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير *
يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا
وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا
يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير * ومنهم
من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من
فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما
أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم
وأن الله علام الغيوب * الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين
لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم * استغفر
لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا
بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين * فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول
الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل
نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما
كانوا يكسبون * فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا
معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين
ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا
وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا
وتزهق أنفسهم وهم كافرون * وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله
استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا
مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * لكن الرسول والذين آمنوا معه
جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعد الله لهم

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ
الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ
إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا
مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا
أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا
قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ
وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

### التفسير اللفظى

نزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك ( لو كان عرضا ) وهو ماعرض لك من منافع الدنيا : أى لو كان مادعوا إليه مغنما ( قريبا ) سهل المأخذ ( وسفرا قاصدا ) وسطا مقاربا ، والقاصد والقصد : المعتدل ( لاتبعوك ) لوافقوك فى الخروج ( ولكن بعدت عليهم الشقة ) المسافة الشاطة الشاقة ( وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ) وهذا من دلائل النبوّة لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول ، فقالوا كما أخبر : أى سيحلف المتخلفون بالله عند رجوعك معتذرين يقولون « لو استطعنا لخرجنا معكم » ( يهلكون أنفسهم ) أى حال كونهم مهلكين أنفسهم ( والله يعلم إنهم لكاذبون ) فيما يقولون .

واعلم أن هؤلاء المتخلفين قد استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التخلف فعاتبه الله وقال ( عفا الله عنك ) كناية عن الزلة فإن العفو من توابعها . يقول : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنون فى ترك الخروج معك إلى تبوك ، فهذا أحد الأمرين اللذين عوتب عليهما . والثانى أخذه الفدية من الأسارى وهو مجتهد فى ذلك ، وهذا العتاب لأنه ترك الأفضل ، والأنبياء يعاتبون على ترك الأفضل ( لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا ) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا (بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) وعدهم بجزيل الثواب ( إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ) يعنى المنافقين وهم تسعة وثلاثون رجلا ( وارتابت قلوبهم ) واضطربوا فى عقيدتهم ( فهم فى ريبهم يترددون ) يتحيرون ، فالمتحير من شأنه أن يتردّد والمستبصر ديدنه الثبات ( ولو أرادوا الخروج ) معك إلى غزوة تبوك ( لأعدّوا له عدّة ) أهبة لأنهم كانوا أغنياء ( ولكن كره الله انبعاثهم ) نهوضهم للخروج فإذن هم ماخرجوا ( فثبطهم ) فكسلهم وضعف رغبتهم فى الانبعاث ، ويقال ثبط : وقف عن الأمر بالتزهيد فيه ( وقيل اقعدوا ) أى قال بعضهم لبعض ، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم غضبا عليهم :

أى تخلفوا (مع القاعدين) مع المتخلفين بغير عذر . ثم بين حكمة عدم خروجهم فقال (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) إلا فسادا وشرا : أى مازادوكم شيئا إلا خبالا (ولأوضعوا خلالكم) أى ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يطلبون لكم ماتفتتنون به كأن يقولوا للمؤمنين لاطاقة لكم بعدوكم وستهزمون منهم وسيظهرون عليكم (وفيكم سماعون لهم) أى مطيعون لهم قابلون لكلامهم (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم وزجر (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت أمرك وتفريق أصحابك (من قبل) يوم أحد فإن ابن أبىّ وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ماخرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرب من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد (وقلبوا لك الأمور) ودبروا لك المكايد والحيل ودوّروا الآراء فى إبطال أمرك (حتى جاء الحق) النصر والتأييد (وظهر أمر الله) وعلا دينه (وهم كارهون) على رغم منهم . وهذا القول تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين على تخلفهم وبيان ماثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له (ومنهم) ومن المنافقين (من يقول ائذن لى ولا تفتنى) كالجدّ بن قيس المنافق قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوك ياأبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر ، يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء ؟ فقال الجدّ : يارسول الله لقد عرف قومى أنى رجل مغرم بحبّ النساء وإنى أخشى إن رأيت بنات الأصفر ألا أصبر عنهنّ، ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بهنّ وأعينك بمالى ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى وقعوا فى الفتنة العظيمة وهى النفاق (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم (إن تصبك حسنة تسؤهم) من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وإن تصبك مصيبة) القتل والهزيمة مثل يوم أحد (يقولوا) أى المنافقون (قد أخذنا أمرنا من قبل) تبجحوا بانصرافهم عنك واستحمدوا آراءهم فى التخلف عنك (ويتولوا) عن مقام التحدّث بذلك إلى أهليهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا) من خير أو شرّ (إلا ما كتب الله لنا) قضى الله لنا (هو مولانا) الذى يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحقّ على المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون) تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسنيين) وهما الفتح والغنيمة أو القتل والشهادة (ونحن نتربص بكم) إحدى السوءيين : إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) لهلاككم (أو بأيدينا) بسيوفنا لقتلكم (فتربصوا) بنا ماذكرنا (إنا معكم متربصون) ماهو عاقبتكم (قل أنفقوا) فى وجوه البرّ (طوعا أو كرها) طائعين أو مكرهين : أى غير ملزمين وملزمين (لن يتقبل منكم) ما أنفقتم طوعا أو كرها ، ونحو هذا قوله تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، وقول الشاعر :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة ... لدينا ولا مقلوّة إن تقلت

ثم علله فقال (إنكم كنتم قوما فاسقين) متمرّدين عاتين (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه : أى وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم اعتقدوا أن الإنفاق فى سبيل الله مغرم (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) الإعجاب بالشىء أن تسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه : أى لاتستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا ، فإنما أعطاهم ذلك ليعذبهم بالمصائب فيها (وتزهق أنفسهم) والزهوق الخروج بصعوبة : أى وتخرج أرواحهم (وهم كافرون . ويحلفون بالله إنهم لمنكم) لمن جملة المسلمين (وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية (لو يجدون ملجأ) مكانا يلجئون إليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة

أو جزيرة ( أومغارات ) أى غيرانا فى الجبال جمع مغارة : وهو الموضع الذى يغور فيه الإنسان أى يستتر ( أو مدّخلا ) أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول ( لولوا إليه ) لأقبلوا نحوه ( وهم يجمحون ) أى يسرعون إلى ذلك المكان .

يقول إن المنافقين لشدّة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأمكنة لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم ( ومنهم ) ومن المنافقين ( من يلمزك فى الصدقات ) يعيبك فى قسمها ويطعن عليك (فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ) إذا المفاجأة أى وإن لم يعطوا منها فاجئوا السخط مثل ذى الخويصرة التميمى المسمى حرقوص بن زهير أصل الخوارج إذقال « يا رسول الله اعدل فقال صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل إذا لم أعدل فقال عمر ائذن لى فأضرب عنقه فقال صلى الله عليه وسلم دعه » الحديث فى البخارى ( ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ) ما أعطاهم من الغنيمة ، وذكر الله للدلالة على أن فعل النبى صلى الله عليه وسلم كان بأمره ( وقالوا حسبنا الله ) كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله ) صدقة أو غنيمة أخرى فيناله أكثر ما نلنا ( إنا إلى الله راغبون ) أن يغنينا من فضله وهذه الآية كلها شرط لو والجواب محذوف : أى لكان خيرا لهم .

ثم أخذ سبحانه يبين مصارف الصدقات فقال (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الفقير : هو من لامال له ولا كسب يقع موقعا من حاجته ، من الفقار كأنه أصيب فقاره . والمسكين : من له مال أو كسب لايكفيه من السكون كأن العجز أسكنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل المسكنة ويتعوّذ من الفقر ، والسفينة كانت لمساكين ( والعاملين عليها ) هم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم ( والمؤلفة قلوبهم ) قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فتستألف قلوبهم ، وأشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم ، وأشراف يستألفون على أن يسلموا كعيينة بن حصن وعدىّ بن حاتم وصفوان بن أمية ، فالأول لتقوية إيمانه ، والثانى نيته قوية فى الإسلام ولكن يرجى أن يرغب فى الإسلام نظراؤه ، والثالث كان يميل للإسلام فأعطى ليسلم ، وهناك قسم رابع وهو أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم من الكفار لايبلغهم جيش الإسلام ليمدهم فيعطون من سهم المؤلفة قلوبهم : أى يعطى المسلمون ذلك إذا ضعفت نيتهم فى القتال أو ضعفت حالهم ( وفى الرقاب ) المكاتبين (والغارمين) الذين ركبهم الدين بأن استدانوا لأنفسهم فى غير معصية ولا إسراف وليس لديهم وفاء أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله عليه الصلاة والسلام « لاتحل الصدقة لغنى إلا لخمسة لغاز فى سبيل الله أو لغارم الخ » وذكر من هؤلاء الخمسة العامل عليها ( وفى سبيل الله ) والصرف فى الجهاد بالإنفاق على المتطوّعة أو ابتياع الكراع والسلاح وبناء القناطر والمصانع وجميع وجوه البرّ كعمارة المساجد ( وابن السبيل ) يعنى المسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق ، سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق ، فرض ( فريضة من الله ) أى قسمة من الله لهؤلاء ( والله عليم ) بالمصلحة ( حكيم ) فيما حكم لهؤلاء .

ولما فرغ من الكلام على من يلمزون فى الصدقات شرع يتكلم على فريق آخر من المنافقين فقال (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ) يسمع كل مايقال ويصدّقه . جعل هو نفس الأذن كما يقال للجاسوس هو عين .

روى أنهم كانوا يقولون محمد أذن سامعة نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدّقنا بما نقول (قل هو أذن خيرلكم) لأنه يسمع الخير ويقبله وفسر ذلك فقال ( يؤمن بالله ) يصدّق به لما قام عنده من الأدلة ( ويؤمن للمؤمنين ) ويصدقهم لما علم من خلوصهم ( ورحمة للذين آمنوا منكم ) أى وهو رحمة لمن أظهر الإيمان حيث يقبله

ولا يكشف سره ، فأذن ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) بإيذائه .

وجاء رهط من المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك بعد أن رجع النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون إلى المؤمنين ويحلفون فنزل ( يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ) أى الله وكذلك رسوله وذلك بالتوبة والإخلاص ( إن كانوا مؤمنين ) أى إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة (ألم يعلموا أنه) أى أن الأمر والشأن ( من يحادد الله ورسوله ) يجاوز الحد بالخلاف ، وهى مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق ( فـ ) حق ( أن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم ) الهلاك الدائم ( يحذر المنافقون أن تنزل عليهم ) على المؤمنين ( سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ) أى بما فى قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ، ولقد سميت السورة الفاضحة والمبعثرة .

يقول ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا ، لأن أولادهم كانوا مؤمنين ( قل استهزئوا ) أمر تهديد ( إن الله مخرج ما تحذرون) مظهر ما كنتم تحذرون إظهاره من نفاقكم ، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفى استهزائهم بالإسلام وأهله حتى قال بعضهم وددت أنى قدمت فجلدت مائة وأنه لا ينزل شىء فينا يفضحنا . ثم إنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال لهم قلتم كذا وكذا ، فقالوا يانبى الله والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر فنزل ( ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ) لم يعبأ باعتذارهم لكذبهم واعتبروا أنهم معترفون بالاستهزاء فوبخوا بسبب أنهم أخطئوا مواضع الاستهزاء (لا تعتذروا) أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم وكيف تنفعكم بعد أن افتضح سركم ( قد كفرتم ) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ( بعد إيمانكم ) بعد إظهاركم الإيمان ( إن نعف عن طائفة منكم ) جهين بن حمير لأنه لم يستهزئ معهم ، ولكن ضحك معهم ، أو كل من يتوب ويخلص الإيمان بعد النفاق ( نعذب طائفة ) وديعة بن جذام وجد بن قيس ، أو كل من يصرون على النفاق غير تائبين منه ( بأنهم كانوا مجرمين ) مصرين على النفاق أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء . الرجال ( المنافقون و ) النساء ( المنافقات بعضهم من بعض ) أى كأنهم نفس واحدة فهم متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، وكان عدد الرجال منهم ثلثمائة والنساء مائة وسبعين ( يأمرون بالمنكر ) بالكفر والعصيان ( وينهون عن المعروف ) عن الطاعة والإيمان ( ويقبضون أيديهم ) شحا بالمال أن ينفق فى البر وأنواع الخير ( نسوا الله ) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره ( فنسيهم ) فتركهم من رحمته وفضله ( إن المنافقين هم الفاسقون ) هم الكاملون فى الفسق وهو هنا التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير ( وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) كافيتهم فى التعذيب فلا حاجة لغيرها فى تعذيبهم ( ولعنهم الله ) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين يلعنون كما تلعن الشياطين ( ولهم عذاب مقيم ) دائم بخوف الفضيحة بكشف سرهم إذا نزل الوحى به وما يقاسونه من تعب النفاق ، ثم خاطبهم الله بعد الغيبة فقال فعلتم (كـ) أفعال (الذين من قبلكم) من الكفار فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف الخ ثم وصف هؤلاء الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر مالا وولدا فقال تعالى ( كانوا أشد منكم قوة ) بطشا ومنعة ( وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم ) أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع

الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة ، فالخلاق : النصيب ، وهو ماخلقه الله للإنسان وقدر له من خير ( فاستمتعتم بخلاقكم ) أيها المنافقون ( كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ) وهذا كما تقول أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل ، فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم ( وخضتم كالذى خاضوا ) أى وخضتم خوضا كالخوض الذى خاضوا ، والخوض الدخول فى الباطل واللهو ( أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ) أى بطلت فى الدارين ( وأولئك هم الخاسرون ) أى كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون . ثم رجع إلى الغيبة بعد الخطاب لينشط السامع ولينوّع الأسلوب فقال ( ألم يأتهم ) أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير : أى قد أتاهم ( نبأ ) خبر ( الذين من قبلهم ) يعنى الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ( قوم نوح ) بدل من الذين قد أهلكناهم بالطوفان ( وعاد ) أهلكوا بالريح العقيم ( وثمود ) أهلكوا بالرجفة ( وقوم إبراهيم ) أهلكوا بالهدم ، وكان هلاك نمرود ببعوضة ( وأصحاب مدين ) أى وأهل مدين وهم قوم شعيب هلكوا بعذاب يوم الظلة : أى بنار كانت فيها ( والمؤتفكات ) مدائن قوم لوط ائتفكت بهم : أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل ، أو قريات المكذبين . وائتفاكهنّ : انقلاب أحوالهنّ من الخير إلى الشر وإنما ذكر الله هذه الأمم لأن آثارهم ظاهرة بالشام والعراق واليمن ، وكل ذلك قريب من أرض العرب ( أتتهم رسلهم بالبينات ) بالأمر والنهى والعلامات فلم يؤمنوا فأهلكهم الله ( فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) بالكفر وتكذيب الأنبياء ، وذلك لاستعدادهم النفسى الذى سبق به القضاء على مقتضى الفطر ( والمؤمنون ) المصدقون من الرجال ( والمؤمنات ) المصدقات من النساء ( بعضهم أولياء بعض ) على دين بعض فى السر والعلانية يوالى بعضهم بعضا فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ( يأمرون بالمعروف ) بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره واجتناب نهيه ( وينهون عن المنكر ) يعنى عن الشرك والمعاصى . والمنكر : كل ماينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا فى مقابلة وصف المنافقين ( ويقيمون الصلاة ) المفروضة ويتمون أركانها وحدودها وخشوعها ( ويؤتون الزكاة ) الواجبة عليهم وهو فى مقابلة « ويقبضون أيديهم » ( ويطيعون الله ورسوله ) فى السر والعلانية ( أولئك سيرحمهم الله ) لامحالة لأن السين مؤكدة للوقوع ( إنّ الله عزيز ) غالب على كل شئ ( حكيم ) واضع كلا فى موضعه ( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة ) يطيب فيها العيش . وعن الحسن رحمه الله هى قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد ( فى جنات عدن ) أى فى بساتين خلد وإقامة ، يقال عدن بالمكان : أقام به ( ورضوان من الله ) أى وشئ من رضوان الله ( أكبر ) من ذلك كله لأن الجنة وهى النعيم المقيم تصغر فى جانب خالقها كما يصغر قصر الملك وهداياه وتحفه فى جانب تقريبه لزائره وإقباله عليه وتلطفه معه وإكرامه له وهذا أمر يعرفه العقلاء فى الدنيا مع المخلوق فكيف ذلك مع الخالق؟ ( ذلك ) الرضوان ( هو الفوز العظيم ) وحده دون ما عداه ، ولذلك جاء فى آية أخرى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وفى آية أخرى أيضا « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » ( يا أيها النبى جاهد الكفار ) بالسيف ( والمنافقين ) باللسان ( واغلظ عليهم ) فى الجهادين جميعا ولا تحابهم ، وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن ( ومأواهم جهنم وبئس المصير ) جهنم ، ولقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان مايقول محمد حقا لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فنحن

شر من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس أجل والله إن محمدا صادق وأنت شر من الحمير ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل ( يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ) وهي إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شرّ من الحمير ، فقال الجلاس يارسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته ( وكفروا بعد إسلامهم ) وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإيمان ( وهموا بما لم ينالوا ) وذلك أن الجلاس همّ بقتل الذي سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه ( وما نقموا ) وما أنكروا وما عابوا ( إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ) وذلك أنهم كانوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لايركبون الخيل ولا يحوزون الغنائم فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى ( فإن يتوبوا ) عن النفاق (يك) التوب ( خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ) بالقتل والنار ( وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير) ينجيهم من العذاب ، وقد تقدم أنّ الجلاس تاب (ومنهم) أي ومن المنافقين (من عاهد الله) حلف بالله كثعلبة بن حاطب بن أبي بلتعة ( لئن آتانا ) أي أعطانا ( من فضله ) المال الذي له بالشام ( لنصدّقنّ ) في سبيل الله ولنؤدّينّ منه حق الله ولنصلنّ به الرحم ( ولنكوننّ من الصالحين ) بإخراج الصدقة (فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم ( بخلوا به ) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ( وتولوا ) عن طاعة الله ( وهم معرضون ) مصرّون على الإعراض ( فأعقبهم نفاقا في قلوبهم ) فأورثهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم لأنه كان سببا فيه (إلى يوم يلقونه) أي الله سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة ( بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) أي بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من الصدقة والإنفاق في سبيله وبسبب كذبهم في قولهم « لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » ولا جرم أن هذه الخصال ما عمت في أمّة إلا حلّ بها البوار وأصبح رجالها غير مصدّقين فلا تكون لهم شركات ولا تجارات رابحة ولا مودّة صادقة ، وهذا هو الخراب العاجل للأمم ، فأين الدين إذن ؟ فليجتهد المسلم ألا يخلف الوعد وألا يكذب وألا يفجر في خصامه وألا يخلف العهد ( ألم يعلموا ) أي المنافقون ( أن الله يعلم سرّهم ) أي ما أسرّوه من النفاق بالعزم على إخلاف ماوعدوه ( ونجواهم ) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ( وأن الله علام الغيوب ) فلا يخفى عليه شيء ( الذين ) محله النصب أو الرفع ( يلمزون المطوّعين ) يعيبون المطوّعين المتبرّعين ( من المؤمنين في الصدقات ) متعلق بيلمزون .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا ، وتصدّق عاصم بن عدى بمائة وسق ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر ، فقال : بتّ ليلتي أجرّ بالجرير ( الحبل ) على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وأما صاع أبي عقيل فالله غنيّ عنه ، فنزلت ( والذين لايجدون إلا جهدهم ) إلا طاقتهم على القسم ،

وهو

وهو على الفتح مصدر جهد فى الأمر بالغ فيه ( فيسخرون منهم ) فيهزءون ( سخر الله منهم ) جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى « الله يستهزئ بهم » ( ولهم عذاب أليم ) مؤلم .

روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) فقال صلى الله عليه وسلم لأزيدن على السبعين ، فنزل « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » فكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أولا : أن المراد بالسبعين العدد المخصوص ، فجاء البيان أن المراد التكثير ، والعرب تستعمل السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير ، ذلك لأن السبعة فيها ثلاثة أوتار وثلاثة أشفاع ، ومعلوم أن الواحد ليس من العدد لأنه أصله ؛ فالسبعة أوّل الكثرة من الشفع والوتر ، والسبعون أبلغ من السبعة فقد ضربت فى العشرة ( ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين ) المتمرّدين فى كفرهم كعبد الله المذكور لأنه يخفى الكفر ويظهر الإيمان .

وبهذا تبين أنه ممن لايرجى إيمانهم ، والاستغفار إنما يكون لمن يرجى إيمانهم فهو كالتنبيه على عذر النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار ، والممنوع الاستغفار بعد العلم أنهم مطبوعون على الضلالة كما قال تعالى « ما كان للنبىّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » ( فرح المخلفون ) المنافقون الذين استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك كما تقدّم فى آيات كثيرة ( وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ) فلم يفعلوا مافعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم ( وقالوا لاتنفروا فى الحرّ ) أى قال بعضهم لبعض ذلك ( قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون ) فكيف اختاروها بإيثار الكسل والترف والتنعم ( فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ) من النفاق وهذا كناية عن السرور والغم ، ويراد بالقلة العدم ( فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ) أى ردّك الله إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين ، يعنى منافقيهم ( فاستأذنوك للخروج ) إلى غزوة أخرى بعد تبوك ( فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوّا ) خبر معناه النهى ( إنكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة ) فصار إسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم ( فاقعدوا مع الخالفين ) أى المتخلفين الذين لايليقون للحرب كالنساء والصبيان ( ولا تصلّ على أحد منهم ) أى من المنافقين صلاة الجنازة ( مات ) صفة لأحد ( أبدا ) ظرف ( ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ) تعليل النهى : أى إنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم ، وسببها أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ المتقدّم ذكره طلب أن يكفن النبى صلى الله عليه وسلم أباه فى قميصه ويصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضى الله عنه فى ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم ذلك لاينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه ، وروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقوله « ولا تقم على قبره » أى ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة ( ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ) هذه الآية كررت للمبالغة ولتذكير الناس بأن ماعلى الأرض زينة الدنيا لاغير وبه العذاب فيها ، وأيضا الآيتان نزلتا فى فرقتين ( وإذا أنزلت سورة ) بتمامها أو بعضها ( أن آمنوا ) أى بأن آمنوا ، ويصح أن تكون أن مفسرة ( بالله ) متعلق بآمنوا (وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ) ذوو الفضل والسعة ( وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ) الذين قعدوا لعذر ( رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ) مع النساء جمع خالفة ، والخالفة أيضا الذى لاخير فيه (وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) مافى الجهاد وامتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من السعادة ( لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ) كأنه يقول

إن تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم ( وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ) الفائزون بالمطالب ( أعدّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ) وهذا بيان لما لهم من الخيرات فى الآخرة ، واستأذن رهط عامر بن الطفيل وأسد وغطفان فى التخلف عن الجهاد بغزوة تبوك التى نحن بصدد الكلام عليها وقالوا : إن لنا عيالا وإن بنا جهدا فأذن لنا فى التخلف ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم « قد نبأنا الله من أخباركم » وسيغنى الله عنكم ، وهناك قوم آخرون قعدوا ولم يستأذنوا ، فهذا قوله تعالى ( وجاء المعذرون ) من عذر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى فهو يوهم أن له عذرا ولا عذر له (من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ) وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فهم بذلك كذبوا الله ورسوله فى ادّعائهم الإيمان ( سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ) وإنما لم يقل سيصيبهم لأن منهم من سيخلص فى إيمانه فى علم الله وهؤلاء جميعا لايقبل اعتذارهم. ثم أخذ يبين الذين أعذارهم صادقة فقال ( ليس على الضعفاء ) أى الأصحاء فى أبدانهم العاجزين عن الغزو مثل الشيوخ والصبيان والنساء ( ولا على المرضى ) ويدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة ، وبالجملة كل من كان موصوفا بمرض يمنع من الجهاد ( ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج ) إثم وضيق فى التخلف فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجزين عن نفقة الغزو معذورون كفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة ( إذا نصحوا لله ورسوله ) بأن آمنوا فى السرّ والعلن وأطاعوا ولم يفشوا الأراجيف ولم يثيروا الفتن وقاموا بمصالح المجاهدين فى غيبتهم لأهلهم فى بيوتهم (ما على المحسنين) للمعذورين الناصحين القائمين بشئون المجاهدين فى بيوتهم ( من سبيل ) لاجناح عليهم ولا طريق لعتابهم ( والله غفور ) يغفر لهم تخلفهم ( رحيم ) بهم (ولا على الذين) يعنى ولا حرج ولا إثم فى التخلف عنك على الذين ( إذا ما أتوك لتحملهم ) لتعطيهم الحمولة ليبلغوا إلى غزو العدوّ وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف ( قلت لا أجد ما أحملكم عليه ) أضمرت قد قبله: أى قد قلت، أى إذا ما أتوك حال كونك قائلا « لا أجد ما أحملكم عليه » ( تولوا ) وهذا جواب الشرط ( وأعينهم تفيض من الدمع ) تسيل كقولك تفيض دما وهو أبلغ من يفيض دمعها ، فالعين هنا جعلت كأنها كلها دمع فائض ( حزنا ) مفعول لأجله ( ألا يجدوا ) أى بأن لايجدوا ( ماينفقون ) فى الجهاد ( إنما السبيل ) الحرج والإثم ( على الذين يستأذنونك ) فى التخلف ( وهم أغنياء ) ثم استأنف لبيان حالهم فقال ( رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ) أى بالانتظام فى جملة الخوالف وذلك إشارة الدعة والترف والتنعم ( وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ) أمر الله ولا يصدّقون ( يعتذرون إليكم ) يقيمون لأنفسهم عذرا باطلا ( إذا رجعتم إليهم ) من هذه الغزوة ( قل لاتعتذروا ) بالباطل ( لن نؤمن لكم ) لن نصدّقكم ، وهو علة النهى عن الاعتذار ( قد نبأنا الله من أخباركم ) علة لانتفاء تصديقهم ( وسيرى الله عملكم ورسوله ) أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ( ثم تردّون إلى عالم الغيب ) ما غاب عن العباد ( والشهادة ) ماعاهده العباد ( فينبئكم ) يخبركم ( بما كنتم تعملون ) وتقولون من الخير ( وممن حولكم من الأعراب ) وهم أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم كانت منازلهم حول المدينة : أى ومن هؤلاء الأعراب منافقون ( ومن أهل المدينة ) وهم جماعة من الأوس والخزرج عطف على خبر المبتدأ الذى هو « ممن حولكم » والمبتدأ ( منافقون ) وقوله ( مردوا على النفاق ) تمهروا فيه ، فيه تقديم وتأخير وتقديره: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ( لاتعلمهم ) فإنهم بالغوا فى النفاق بحيث إنك لاتعلمهم ( نحن نعلمهم ) يعنى لكن نحن نعلمهم إذ لاتخفى علينا خافية ( سنعذبهم مرتين ) مرة فى الدنيا بأن يعذبوا بأموالهم وأولادهم وتحيط بهم المصائب ويخرج لبعضهم مرض الدبيلة وهى جروح نارية تظهر فى أكتافهم حتى تخرج من صدورهم بأن يغتاظوا بدخولهم الإسلام كرها الغلبة والقوة وبأن يهانوا بالفضيحة فإن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا

فى يوم جمعة فقال : اخرج يافلان اخرج يافلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم ، فهذا هو العذاب الأوّل ، وهذه الفضيحة لهم بعد أن أعلمه الله بهم وسماهم له . وأما العذاب الثانى فهو عذاب القبر . وأما الثالث فهو عذاب النار وهو قوله (ثم يردّون إلى عذاب عظيم . و ) قوم ( آخرون) سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم ) لم يعتذروا من تخلفهم بالأعذار الكاذبة كغيرهم وكانوا عشرة فسبعة أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين فرآهم موثقين فسأل عنهم فقيل له إنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذى يحلهم فقال : وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فأطلقهم فسألوه صلى الله عليه وسلم أن يتصدّق بأموالهم فيطهرهم ، فقال ما أمرت ، فنزل « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الخ » ( خلطوا عملا صالحا ) وهو إظهار الندم ( وآخرسيئا ) وهوالتخلف وموافقة أهل النفاق ، والواو بمعنى الباء ( عسى الله أن يتوب عليهم ) يقول المفسرون عسى من الله واجب ويتوب عليهم : أى يقبل توبتهم ، وقوله ( إنّ الله غفور رحيم ) أى يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه ، وقوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ) من الذنوب أو حبّ المال المؤدّى بهم إلى المعاصى كالتخلف المتقدّم (وتزكيهم بها) وتنمى حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين (وصلّ عليهم) واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ( إن صلاتك سكن لهم ) تسكن إليها نفوسهم وتطمئنّ بها قلوبهم (والله سميع ) باعترافهم (عليم) بندامتهم ( ألم يعلموا ) أى المتوب عليهم وغيرهم ليتمكن فى قلوب الأوّلين قبول توبتهم وليحرص الآخرون عليها ( أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ) إذا صحت ، والقبول هنا مضمن معنى التجاوز ( ويأخذ الصدقات ) يقبلها قبول من يثيب عليها ويخلف بدلها ( وأن الله هو التوّاب الرحيم ) كثير قبول التوبة والتفضل عليهم ( وقل اعملوا ) ماشئتم ( فسيرى الله عملكم ) فإنه لايخفى عليه خيرا كان أو شرّا (ورسوله والمؤمنون) لأنهم يطلعهم الله على أعمالكم إما بالوحى فى زمن النبوّة كما رأيتم ، وإما بإلهام الناس ماخفى فى نفوسكم كما قيل : [ ألسنة الخلق أقلام الحق ] ثم قال ( وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة ) يوم القيامة ( فينبئكم ) أى فيخبركم ( بما كنتم تعملون ) يعنى فى الدنيا .

واعلم أن المتخلفين فى هذه الآيات على ثلاثة أقسام :

[ أوّلهم ] المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق .

[ وثانيهم ] التائبون المسارعون إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم ، وهم : أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وغيرهم . وهم مختلفون فى عددهم من ٣ إلى ٧ إلى ٨ إلى ١٠ ولا يهمّ معرفة ذلك .

[ والقسم الثالث ] موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله فيهم وهم المراد بقوله ( وآخرون مرجئون ) مؤخرون من أرجأته : أى موقوفون ، وقرئ « مرجون » بفتح الجيم وسكون الواو وهما لغتان ( لأمر الله ) فى شأنهم ( إما يعذبهم ) إن أصروا على النفاق ( وإمّا يتوب عليهم ) إن تابوا ( والله عليم ) بأحوالهم (حكيم) فما يفعل بهم ، وإما للشك وهو راجع إلى العباد ، وهؤلاء ثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع وقصتهم ستأتى فى قوله تعالى « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » فهؤلاء تخلفوا عن غزوة تبوك الخ ما سيأتى .

وروى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب الذى ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم

المدينة قال أبو عامر : ماهذا الدين الذى جئت به ؟ فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم: جئت بالحنيفية دين إبراهيم فقال أبو عامر فأنا عليها ! فكذبه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد جدال قال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا ، فقال صلى الله عليه وسلم آمين : وسمّى أبا عامر الفاسق ، فقال أبو عامر الفاسق : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك حتى كان يوم حنين — فلما انهزمت هوازن فرّ هو إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه ، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ، فذلك قوله تعالى ( و ) فيمن وصفنا ( الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ) مضارّة للمؤمنين ( وكفرا ) وتقوية للكفر الذى يضمرونه ( وتفريقا بين المؤمنين ) أى الذين كانوا يجتمعون للصلاة فى مسجد قباء فأرادوا أن يتفرّقوا عنه وتختلف كلمتهم ( وإرصادا ) ترقبا ( لمن حارب الله ورسوله من قبل ) وهو أبو عامر الفاسق وقد قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال: إنى على جناح سفر وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد : فنزلت عليه ، فقال لوحشىّ قاتل حمزة ومعن بن عدى وغيرهما انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، فانطلقوا ففعلوا وأمروا أن يتخذوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام غريبا وحيدا ، وقوله « من قبل » أى من قبل بناء هذا المسجد . ألا ترى أنه آلى على نفسه أن يحارب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يوم هوازن ( وليحلفنّ ) يعنى الذين بنوا المسجد ( إن أردنا ) يعنى ما أردنا ببنائه ( إلا الحسنى ) أى إلا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين الخ ماتقدّم ( والله يشهد إنهم لكاذبون ) يعنى فى قولهم ( لاتقم فيه أبدا ) أى لاتصلّ فيه أبدا ( لمسجد أسس على التقوى ) وهو مسجد قباء وقد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ( أحقّ أن تقوم فيه ) مصليا ( فيه رجال يحبون أن يتطهروا ) من المعاصى والكفر والنفاق وإضرار المسلمين والتفريق بينهم ومن الحدث والخبث والنجاسة والطهارة الباطنة وما يتقدّمها منْ الظاهرة هى التى تقرّب العبد من الله وتحببه فى الناس ولايقترب العبد من الله إلا بصفاء الباطن ، وكلما صفا قرب وبقدر القرب يكون حبّ الله ( والله يحبّ المطهرين . أفمن أسس بنيانه ) بنيان دينه ( على تقوى من الله ورضوان خير ) على قاعدة محكمة هى التقوى من الله ( أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ) أى أم من أسسه على قاعدة ضعيفة وهو الباطل والنفاق الذى يشبه « شفا جرف هار » أى حرف مكان أكل الماء ماتحته فهو إلى السقوط أقرب ؛ فالشفا الحرف والشفير ، وقوله « هار » من هار يهور : إذا تداعى بعضه فى إثر بعض كما يهور الرمل ( فانهار به فى نار جهنم ) فطاح به الباطل فى نار جهنم ( والله لايهدى القوم الظالمين ) لايوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ( لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ) أى لايزال هدم بنيانهم الذى بنوا حرارة وغيظا فى قلوبهم ، والحرارة والغيظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يورثهم ريبة فى قلوبهم ، وهذه الريبة باقية فى قلوبهم ( إلا أن تقطع قلوبهم ) أى تجعل قلوبهم قطعا وتفرّق أجزاؤها إما بالسيف وإما بالموت : أى فهى باقية إلى أن يموتوا ( والله عليم ) بنياتهم ( حكيم ) فيما حكم به عليهم ، انتهى التفسير اللفظى . وفى هذا المقام لطائف :

[ اللطيفة الأولى ] فى قوله تعالى « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم »

[ اللطيفة الثانية ] فى قوله تعالى « إلا تنصروه فقد نصره الله » الآية .

[ اللطيفة الثالثة ] فى قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » .

[اللطيفة الرابعة] فى قوله تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » الآية .
[اللطيفة الخامسة] فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » .
[اللطيفة السادسة] فى قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب الخ » .
[اللطيفة السابعة] فى قوله تعالى « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم — إلى قوله — ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .
[اللطيفة الثامنة] فى قوله تعالى « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .
[اللطيفة التاسعة] فى قوله تعالى « وهموا بما لم ينالوا الخ » .
[اللطيفة العاشرة] فى قوله تعالى « قل نار جهنم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون » .
[اللطيفة الحادية عشر] فى قوله تعالى « وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » .
[اللطيفة الثانية عشر] فى قوله تعالى « وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون » .
[اللطيفة الثالثة عشر] فى قوله تعالى « سنعذّبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » .
[اللطيفة الرابعة عشر] فى قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » .

اللطيفة الأولى « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم »

حكم الله فى هذه الآية على الأمم الإسلامية أن تصبح فى عداد الأموات إذا هى نامت وادعة ساكنة ولم تسع سعى الأحياء ، وأن تكون فى خبر كان ، وأن يستبدل بها أمما أخرى تحلّ فى أماكنها ، تهديد شديد ووعيد عظيم أنزله الله بمن يتركون الجهاد فى خفض من العيش ودعة .

ولقد أطال فى ذلك أرسطاطاليس فيما كتبه إلى إسكندر يحذره من ترك الممالك الفارسية وادعة ، وعلل ذلك بزوال الدولة وحلول الأزمة وأن الناس يتحملون النقم والشدائد ولا يصبرون على النعم والدعة ، فإن الناس أيام الحروب يكون عندهم من النشاط والحركة وظهور الغرائز والقوى الكامنة مايحرمون منه أيام سلمهم وفى وقت أمنهم ودعتهم ، وضرب الأمثال على ذلك بأمم خلت ودول مضت وأنهم بدعتهم وسكونهم وخفض عيشهم ذهبت ريحهم .

ولقد تبين ذلك فى كل الأمم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، هكذا هنا يقول الله « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم » لأن الوجود فى ارتقاء وتنازع . وكل أمة أحاطت بها السآمة وحلت بها صفات الأمن والدعة والكسل والبطر سلبت القياد لغيرها ممن هم أقدر على الحياة وأصبر على الجهاد وأولى بالقياد ووكلوا إليهم أمرهم ، لأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، والعالم فى صعود ، فمن وقف أو رجع القهقرى حلّ محله من هو أحقّ منه بالحياة ، ذلك هو النظام المستقيم والصراط السوىّ كما غلبت أمة الترك والفرس الأمم العربية فى القرون الأولى من الإسلام ، ثم غلب التتر عليهم أجمعين ، ثم جاء الفرنجة فحلوا فى ساحة الإسلام .

ثم جاء دور الأمم الشرقية وها هى ذه تريد أن تلعب دورها وتأخذ من الحياة حظها « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هى الرحمة الإلهية والنعمة الربانية أن يكون العالم فى ارتقاء وأن يولى زمامه الأكفاء وأن يغلب بخيلهم ورجلهم الأشداء ليقوموا بأمر ربهم ويحفظوا نظام ملكهم فليس لله فى الأرض من ولد ولا والد ولا صاحبة ولا صاحب ، وإنما هو عدل فى أحكامه لايبالى بأهل دين أو لغة أو جنس بل حكمه قاهر على الجميع ، خنس اليهود فأجلاهم وكسلت طوائف من المسلمين فأصماهم ، وخنعت أمم ضالة غيرها فأرداهم « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هى الرحمة فى الوجود ، يميت من لانفع له فى حياته ، ويحيى من يسعى فى الوجود لدرس آياته « إن ربك عليم حكيم » .

اللطيفة الثانية قوله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، الآيات »

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين يوما لما اشتدّ بهم الكرب من ظلم المشركين بمكة « إنى رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين ( وهما الحرتان ) فهاجر من هاجر إلى المدينة ورجع من كان بالحبشة إلى أرض المدينة » ولقد حبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر ثم جاء الأمر بالهجرة فأخبر أبا بكر فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى الراحلتين بالثمن وقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم توجه صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه إلى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال ، وكان يأتيهما بخبر القوم عبد الله بن أبى بكر ، واستأجر رجلا من بنى الديل هاديا خرّيتا ، والخريت الماهر بالهداية وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، وروى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يتردّدون حوله ، وقيل لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه ، ثم إن الدليل الديلى جاء إليهما بعد ثلاث ليال فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة والدليل المذكور فأخذ بهم طريق الساحل ، ثم إن سراقة بن مالك بن جشم طمع فيما أعلنه كفار مكة من الجعل العظيم لمن قتل النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وهو ديتهما فتبعهما يركض فرسه حتى سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ملتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسه فى الأرض حتى بلغتا الركبتين وارتفع من ذلك الأثر دخان ساطع فى السماء فنادى الأمان وأخبرهما بما يريد قومهما من قتلهما وعرض الزاد والمتاع عليهما فلم يقبلا ، وسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتاب أمن فأمر عامر ابن فهيرة فكتبه فى رقعة ، وكان أهل المدينة ينتظرونه حتى نزل يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل فى بنى عمرو بن عوف وبقى عندهم بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته حتى بركت عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ، ثم ابتاع المكان من صاحبيه الغلامين وبناه مسجدا اه .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا »

قد تقدّم معنى الخفاف والثقال [ وملخص المعانى التعميم ] ، فعلى هذا يجب الجهاد على كل امرئ وهذا الأمر منسوخ بقوله « ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآيات » كما سيأتى ، وبقوله « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ومن العلماء من حمل الآية على أن الأمر للندب .

وروى أن أبا أيوب الأنصارى لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون مع أنه شهد بدرا فقيل له فى ذلك ، فقال يقول الله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » ولا أجدنى خفيفا أو ثقيلا ، وكذلك سعيد بن المسيب ذهبت إحدى عينيه ولم يترك الجهاد وقال إن لم يمكنى الحرب كثرت السواد ، وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو ، فقلت ياعم أنت معذور عند الله ، فرفع حاجبه وقال : ياابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا إلا أنه من يحبه يبتليه ، هذا ملخص مايقوله العلماء .

واعلم أن التحقيق فى هذا المقام أن الأمم كلها يجب عليها العمل العامّ ، فأصحاب القوّة للدفاع ، وأصحاب الصناعات لإحضار العدّة وكل امرئ فى الآية مكلف بعمل لأنه لادفاع بلا رجال أقوياء ولا دفاع للأقوياء

بلا سلاح ، ولا وقوف لهم فى وجه العدوّ إلا بالغذاء واللباس والطرق المنتظمة ، ولا طرق ولا غذاء ولا لباس إلا بأعمال هامّة ومدارس منظمة وحكومة قادرة وأمّة مستيقظة وإدارة تامّة .

وهذا ملخص دين الإسلام إذ يقول علماؤنا إن الصناعات كلها فرض كفاية ، فنقول الآن أيها المسلمون أين الكفاية ولا كفاية لديكم ولا صناعة ولا علم ولا حكمة ؟ فالجهاد واجب على الأمّة كلها ، وعلى قادة الأمّة أن يجعلوا كل امرئ فيما استعدّ له من عمل نافع ، لافرق بين كنس الشوارع وتنظيف المساكن وتمهيد الأرض وبين صنع المدافع والطيارات والكهرباء وما أشبه ذلك .

كل هذا واجب على الأمّة كلها يجب أن تكون عامة فإن لم يفعلوا ذلك أثموا أجمعين وعذبوا فى الدارين وذاقوا العذاب الهون اه .

اللطيفة الرابعة « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم »

اعلم أن هذه الآية ذكرت فى هذه السورة مرتين فيقول هنا « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » ويقول بعد آيات ولا تعجبك أموالهم وأولادهم الخ ، وقد جاء فى أوائل هذه السورة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » فذكر هناك ثمانية أشياء : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن ، وحكم على من يقدم حبّ هذه على الجهاد بالهلاك والدمار والعذاب . ويقول أيضا فى هذه السورة « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » فجعل القتل حسنى معادلا للنصر ، وجعل هلاك الأعداء بالقتل ثم موتهم وهلاكهم الأخروى عذابا .

فلخص ما ترمى إليه هذه السورة بل كل دين صادق ، بل كل حكمة وفلسفة احتقار اللذات والحياة وجعل ذلك كله مقدمة لولوج باب الكمال والسعادة ، وعلى ذلك انقلب الأمر فأصبح ما يفرح به الناس فى هذه الدنيا عذابا .

إيضاح هذا المقام

اعلم أن الإنسان فى الدنيا يظنّ أن سعادته فيها بما يناله من لذاته الحسية كالمطعم والملبس والمسكن والأبناء والآباء والأزواج والعشيرة ، وبما ينفى عنه من الآلام والمصائب فيبقى حيا سليما مدى الحياة طويل العمر ، ثم هو أبدا معذب بهذه الأثقال والأحمال فهو أبدا فى نصب بما يصيب الأهل والمال والولد وجميع ما حوله وبما يصيبه فى جسمه وهذا عذاب دائم ، فبينما يظنّ نفسه فى سعادة إذا هو أبدا فى شقاء بما ظنّ أنه سعادة .

ولقد تعزب عنه هذه الأثقال والأوصاب ساعة النوم والإغماء والسكر القوى والتنويم المغناطيسى ، فالنائم لا يحسّ بما يناله من الغم بارتكاب الديون ، وكذا المغمى عليه والسكران وهكذا المنوّم تنويما مغناطيسيا يخيل إليه وقت النوم ما يريده منه المنوّم فيقال له أنت ملك كريم أو ملك عظيم أو بهيمة أو غنى أو فقير فيتشكل كما يوحى إليه المنوّم بالسكر .

ولقد شاهدت ذلك بنفسى فى مصر على مرأى ومسمع من العلماء والأطباء الذين شهدوا هذه الحقائق وأقرّوها ، فها أنت ذا ترى أن ما نحمله من الأثقال قد زال عنا فى بعض الأوقات لعارض كما يزول عنا الألم إذا شاهدنا رجلا يقتل قصاصا أومريضا يشرب شرابا مرا فإنا لا نتألم لعلمنا باستحقاق الأوّل ومنفعة الثانى ، ونرى الطبيب يقطع عضو المريض لغرض الشفاء فنساعده ونشكره ، ونحارب أمّة سطت علينا ونقتل رجالها ونحن فرحون .

فهذه أحوال عرضت لنا غيرت أفكارنا فجعلت المكروه محبوبا وصيرت المؤلم لذيذا ، ولطالما غيرت البيئات أحكامنا ، فجعلنا الضعة شرفا والشرف ضعة فيقول الفرنجى لابد من أن يرقص رجل مع امرأتى وإلا كان ذلك عارا على ، ويقول الشرقى إن حصل ذلك فهو عار على .

كل ذلك فعل البيئة ، فتعجب كيف انقلبت اللذات آلاما والآلام لذات بأحوال عارضة ؟ فانظر كيف جاء القرآن بما هو أهم وأعم وجعل كل ما غلبكم وما يلذنا نعمة علينا إن أمسكناه لذاته ونعمة إذا جعلناه للنفعة العامة وأفادنا « أن ذلك فى كتاب ، وأن ذلك على الله يسير » وقال « لاتحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » أما وقت النوم أرحتكم من تبعة المصائب ، ووقت الإغماء والضعف العظيم المغير للقوى العقلية كحالة المحرم التام .

وهكذا أجعل العاشق لايبالى إلا بأن يصل إلى ما تمنى من محبوبه ولا يبالى بغيره فى الدنيا ، وربما عشق الإنسان وطنه أو علما من العلوم فذهل عما سواه ، فبالنوم أرحتكم وبالإغماء وبالعشق العادى والوطنى والعلمى غيرت أحوالكم القلبية .

فها أنا ذا أوجهكم بالدين إلى الاجتهاد ، وإذا كان بعض عبادى يعشقون إنسانا عشقا مفرطا فيغيبون عن كل ما سواه ، سواء أكان المحبوب ذاتا أو وطنا أو علما ، فها أنا ذا فتحت لكم باب العشق العام فلجوه وطريق الحب الحقيق فاقصدوه فلتكونوا آباء كراما لأممكم ، ولتكن أموالكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم ، وهكذا علومكم وقوتكم وجبلتكم وقفا على الجهاد فى سبيلى ، فإذا نصرتم فالنصر منى ، وإذا قتلتم فإلى ترجعون .

ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها الرحمة

إن هذه السورة نزلت بالسيف وقد تركت البسملة فى أولها لأن التسمية رحمة ولا رحمة هنا ، هذا ما قاله العلماء كما تقدم ، ولكنك إذا تأملت سورة الفاتحة وأن الإنسان يقرأ صباحا ومساء « الرحمن الرحيم » و« الحمد لله رب العالمين » ، إذا تأملت ذلك أيقنت أن الرحمة غالبة ، وها أنت ذا تراها ظاهرة فى هذه السورة فإنه وإن طلب فيها ضرب السيف فقد أزال أغلال الحياة عن الأعناق ووجه القلوب إلى وجهة واحدة .

ويقول علماء هذا العصر إن الأمة وقت الحرب تحس بنشاط وفرح لاتحلم بهما وقت السلم ، فانظر كيف انقلب الأمر وأصبح الحرب الذى يكرهه الناس نعمة والسلم والدعة والنعمة التى لاحركة فيها نقمة ؟ وهنا هو سر هذه السورة .

فالمساكن والملابس والأولاد والمال كل ذلك مصائب عاجلة بالتوانى والكسل والنوم وهى نعمة باستعمالها فيما خلقت له ، وإن أردت تحقيق المقام فاقرأه فى سورة البقرة فى النصف الأول منها فافهم .

## السعادة لاتشترى بالمال

### رجل ينتحر وفى جيوبه ٦٠٠٠ جنيه

جاء فى بعض مجلاتنا المصرية فى ١٠ إبريل سنة ١٩٣٦ ما يأتى :

يرى زائر شواطئ بحيرة كومو الجميلة فى إيطاليا قصرا أنيقا يقع وسط حديقة زاهية مترامية الأطراف وإنه ليحير البصر فيه طويلا ثم يتساءل لمن هذا القصر الباذخ والروض الناضر فى هذا الجوار الخلدى والبقعة المسروقة من الجنان ويتمنى لو قدر له أن يمضى بقية حياته فى ذلك النعيم الشامل ، ثم يسأل أحد المارة من

الوطنيين عن اسم صاحبه السعيد ، ولكن ما أعظم دهشته عند ما يرفع هذا أكتافه ويجيبه بأن صاحبه كان (جوزب بوجيتى) الذى كان يعيش فيه وحده مع خدمه العديدين وكلابه التى كان يحبها ، وكان أهل البقعة لايعلمون من أمره كثيرا ولكن كانت تسرى الإشاعة بأنه كان شيخا تعسا لايعرف السعادة رغم ثروته الطائلة .

كان (بوجيتى) وحيدا وحدة قاسية ، وكان يمكنه أن يشترى الأصحاب بماله الكثير وبذخه الوافر ، ولكنه ماكان يأبه لذلك فلم يكن له أصحاب حقيقيون ، وكان يندر أن يزوره زائر ولم يكن له أقارب ولم يتزوج وكانت حياته حياة عزلة ونسك .

كان (بوجيتى) فى وقت من الأوقات عاملا بسيطا فى نيويورك حيث تجنس بالجنسية الأمريكية ، وبمرور الزمن جمع ثروة تقدّر بالملايين ثم رجع إلى موطنه الأصلى ليتمتع بثمرة ماجمعته حياة الكد والاجتهاد ، وظهرت له بحيرة كومو بعد غيبته الطويلة جنة خالدة لاينقص كمالها أىّ ترف أو رغد يشتريه المال فآمن بالسعادة هناك ، ولكن جاءت بعد حين ساعة الخيبة التى تنهار فيها صروح الآمال والأحلام ، فقد اشترى بماله القصر والروض وكل أسباب الراحة والكمال ولكنها لم تشتر له راحة الفكر والرضا بكل ذلك فملّ كل ذلك وسئمه وحنت نفسه إلى تلك الأيام التى كان يكدّ فيها ويكدح طول نهاره من أجل ضعة الدراهم القليلة التى كان يكسبها فى يومه ، والآن قد أنهى (بوجيتى) حياته القلقة الثائرة حيث وجده خدمه فى صبيحة يوم مشنوقا فى شجرة من أشجار روضه الزاهر ، وبجانبه هذه الرسالة الوجيزة [ لقد كشفت أثناء حياتى الطويلة أن أكوام المال لاتشترى السعادة الحقيقية ، وإنى أذهب من هذه الحياة لأنى لا أقوى على احتمال وحدتها وما أشعر فيها من سأم عند ما كنت عاملا بسيطا فى نيويورك كنت سعيدا جذلا ، ولكن الآن مع هذه الملايين أشعر بحزن دائم وأفضل الموت ] .

ووجد فى جيوبه ستة آلاف جنيه كتب عليها (إلى الجحيم) ثم أخذ البوليس يبحث عن ورثته اه .

جمال هذه الآيات

كثرت ذرية أدنى الحيوان وأغذيته ولم يجشم نصبا ولا ألما . والإنسان ناله الألم بذريته مع قلتها وعاملك من الأموال ليعلم أنه فى دار ليست بدار قرار وأنه سائر إلى ربه يعيش بجواره كما قال تعالى « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » جمال هذه الآية « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم الخ » هو الظاهر فى هذا الوجود المخبوء عن القلوب لأن أكثر الناس لايعلمون .

اللهم إنك أنت الظاهر بجمالك ، العظيم بحكمتك ، الجليل العجيب الصنع البديع الإتقان ، اللهم إنك أنت الذى ملأت السهل والجبل والنهر والحقل بذرّية الذبابة والجرادة وحشرة أبى دقيق ولم تجشمها نصبا ولا ألما فى تلك الذرية وملكت بعض تلك الحشرات عيوننا وأجسامنا وأمتعتنا والذيذ من أغذيتنا وسلطتها علينا بالعذاب فتلقى فى أغذيتنا وفى أجسامنا بذور الأمراض والحميات وللهلكات « إن ربى لطيف لما يشاء » أنت الذى جعلت الحيوان على ثلاثة أقسام : قسم يترك بيضه فى العراء كالجراد والذباب الخ ولكن هذا القسم أنت أعطيته إلهاما عجيبا ليضع بيضه فى أماكن تناسبه كأغذية الإنسان وروثه وعيون صغاره والقاذورات وذلك فى الذباب وفى حقول مناسبة على بعد مخصوص فى الأرض وذلك فى الجراد وهكذا ، ثم إن الذبابة والجرادة ونحوهما تموت ، وأنت الذى تتولى شئون ذريتها فتملأ السهل والجبل والناس يحاربونها ولكن تلك الحشرات وأمثالها غالبات قاهرات على طول الزمان ، وقسم أمرته بأن يحضن بيضه إلى أمد معلوم ، وذلك لأنه أرقى ، فألهمت الدجاجة والحمامة والإناث من أنواع الدرّاج والبط أن تحضن بيضها ، فإذا فقس

أمرتها أن تلاحظها إلى أمد قليل ثم تستقل الذرية وتفعل ما فعل الآباء ، ومع هذه العناية كانت الذرية أقل من ذرية تلك الحشرات كحشرة القز وحشرة أبي دقيق والذباب الخ . والقسم الثالث ما حكمت عليه بالحمل والإرضاع وهي ذوات الأربع ، وكلما ازداد هذا القسم كمالا زدته عذابا في ذريته كالخيل والفيلة والقردة والإنسان وهو أكثر تلك الحيوانات عذابا بذريته وماله ، وكلما ارتقى في سلم المدنية ازداد عذابا بالذرية فيعيش الإنسان مجدًا كادحا لتربية بنيه وبناته الذين قل عددهم ولا يقتصر على الإرضاع والكسوة والتغذية بل يدخلهم المدارس ويضيع حياته فيهم ، وهو كلما كثرت آماله وأمواله وذريته ازدادت همومه ، فاعجب لهذا الوجود ، ذبابة تكون الأجيال الناشئة من ذريتها في السنة تزيد عن مليون ذبابة وهي كلها تملك أجسامنا وأغذيتنا ولا نصب يغشاها ولا تعب ، وإنسان يلد عدّ أصابع اليد الواحدة أو أقل فيعيش في نصب وتعب وهو مكدود وهو قليل المال كثير النصب والتعب لايتسنى له أن يدخل منزل جاره إلا بإذن ، ولا يأكل إلا بنصب وتعب ، وهذه أبيحت لها الدنيا وغلتنا وقتلتنا وأكلت زرعنا .

هذه صورة الحيوان والإنسان ، فاعجب أيها الذكي مني وتأمّل كيف تلد الذبابة مئات الألوف بالتناسل في الأجيال كل سنة ويلد الإنسان قليلا وهي لاتتعب وهو في العذاب مغمور ، وكيف يشاهد الناس ذلك صباحا ومساء وهم لايعقلون .

اللهم إن العلم مشاهد محسوس وأكثر الناس لايعقلون ، أنت يا الله بسطت العلم أمام أعيننا وأمرت الذباب فباض في أفنيتنا وأمرته أن يلقي علينا دروسا من الأمراض في أغذيتنا وقلت له نبه هذا الإنسان ياذباب وقل له ها أنا ذا منعم بمالك كثير الذرية وأنت تشقى بمالك وولدك قليل الذرية ، سلطني الله عليك لتبغض عالم المادّة وتحنّ إلى عالم الأرواح وتبحث بعقلك عن حياة أسعد وهي التي بعد موتك بلقاء ربك والعالم الروحي .

فها أنا ذا أريك أيها الإنسان أنى أسعد منك حالا ومالا وذرية لأوقظك للخروج من حياة المادّة ، ولما جهل الناس منطق الطير ولم يعقلوا ما حولهم من الضر والشر ألقاه على ألسنتهم في محافلهم ومحاوراتهم بطريق الإلهام .

### ألسنة الخلق أقلام الحق

لما حكم الله على الناس بعذابهم في أموالهم وأولادهم ولم يفهموا منطق الطير كما قدّمنا ولم يدركوا سر هذا الوجود ولم يفقهوا أنه بذلك يريد إحراجهم حتى يحنوا إلى عالم أرقى خاطبهم بما يلقيه على ألسنة الرجال والنساء في كل زمان ومكان فتراهم يتبرمون ويتأففون من هموم المال وهموم الذرية ، وتقول المرأة ماذا أصنع يابني وقد قل لبني وقل مالي ؟ ويقول الرجل ماذا أصنع إني لا أجد مالا لتعليم ابني ، وإذا أصابه ألم ونصب بكى وبكت امرأته .

وهكذا تراهم مغتمين إذا اجتاحت المال جائحة أو أصابته ملمة ، كل هذا وهم يشاهدون الحشرات ملايين فرحات سعيدات كثيرة الذرية ، فكل ما نسمعه من تألم الرجال والنساء لأموالهم وأولادهم هو نفسه ما يشاهدونه في الطبيعة . فألسنة الخلق في ذلك ناطقات بما خطه الله في هذا الوجود وكتبه بحروف كبيرة مجسمة منظورة يشاهدونها ولكنهم لايعقلون وقرّبها إليهم بالألسنة صباحا ومساء ، فإذا قال الرجال والنساء ما أتعس هذه الحياة الخ فهو نفسه الذي ألقته الذبابة والحشرة عليهم وهم لايعقلون .

### ظهور هذا السر على ألسنة الشعراء

ولما كان الشعراء هم أصح هذا النوع الإنساني وهم الناطقون بما له من وجدان ، أبرز الله هذا السر على ألسنتهم وتراه كثيرا في الشعر العربي فترى المتنبي يقول :

كل من فى الكون يشكو دهره  ليت شعرى هـذه الدنيا لمن ؟

وترى الشاعر الإنجليزى (ترنش) يقول ما ملخصه :

إن الناس قسمان : قسم صفت الدنيا لهم فأقل ألم يزعجهم فهم دائما فى نصب وألم . وقوم عاشوا فى شظف العيش فأحسوا بأقل نعيم وانشرحوا صدورا ، وهذا نص ما ترجمته من شعره إلى لغتنا العربية إجابة لطلب التلاميذ بالمدارس الثانوية فى كتابى المسمى [ جوهرة الشعر والتعريب ] .

## أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء ؟

[ من شعر ترنش الشاعر الإنجليزى ]

قوم صفت الدنيا لهم  وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر  لم تحجبهم عنها حجب
فإذا ما اغـبر بأفقهم  مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم  ليل فيه السود النوب
فإذا لحـوا من بارقة  فرحوا جذلا وبهم طرب
هـذا مثل فيـه عظة  لذوى التوفيق إذا ضربوا
فانظر زمرا سكنوا مصرا  وبنوا قصرا ولهم ذهب
ولهم نعم فيهـا نعم  فإذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا  إن شاكهم ورد صخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا  مما من عليهم حرب(١)
وكأن المال جهنمهم  وثراء المال لهم عطب
وترى رهطا سكنوا الأكوا  خ فذا شعر هـذا قصب
وحياتهم فى مخمصة  ومعيشتهم أبدا وصب
حمدوا الرحمن على نعم  وبه فرحوا وله انتسبوا
فكأنهم لما سلبوا  ما أعطاهم منه كسبوا
فالحب كساهم من حلل  وبكأس سعادته شربوا

وهناك موازنة بين أبى العلاء وبين شارل ، وكذا شكسبير منقولا مما نظمته ترجمة فى ذلك الكتاب قال أبو العلاء :

العمال بالقدر اللطيف تغير  فلبئس عنك تفاؤل وتطير
من أحسن الأحداث وصفك ظافرا  فى الترب يأكله تراب أغبر
ماقيل فى عظم الملوك وعزهم  فالله أعظم فى القياس وأكبر
وكأنما دنياك رؤيا نائم  بالعكس فى عقبى الزمان تفسر
فإذا بكيت بها فتلك مسرة  وإذا ضحكت فذاك عين تعبر
فالعين تبكى فى المنام وتجتلى  فرحا وتضحك فى الرقاد وتعبر
والنفس ليس لها على ما نالها  صبر ولكن بالكراهة تصبر
يغدو للدجج بازيا أو أجدلا  فيروح محتكما عليه القبر

(١) سلب المال .

وقال أيضا :

آليت لاينفك جسمى فى أذى ... حتى يعود إلى قديم العنصر
وإذا رجعت إليه صارت أعظمى ... تربا تهافت فى طوال الأعصر
هوّن عليك أنلت نصرا فى الوغى ... أم طال جدّك صادقا لم تبصر
كسرى أصاب الكسر جابر ملكه ... والقصر كرّ على تطوّل قيصر

وقال شارل :

لاتفخرن بما أوتيت من نعم ... ماذا التكاثر بالأوهام والعدم
لايدفع القدر المقدور سابغة[1] ... من الدروع ولا حصن على علم[2]
بل ينتضى للموت أسياف الفناء على ... هام الملوك ذوى التيجان والأمم
والفأس والمنجل المعوجّ صفحته ... كالصولجان وتاج الملك فى الرغم[3]
كم فارس بطل بالسيف مشتمل ... يسطو على أجل فى الحلّ والحرم
وحاصد هام قوم من منابتها ... فأنبتت أرضها زهرا بسفح دم
فصار إكليله فى يوم زينته ... قد أبسلوا للمنايا فاقدى الشمم
إما على عجل للموت أو مهل ... خروا جثيا[4] ونال الرغم كل فم
حتى قضوا نحبهم صفرا وجوههم ... عبدان ذل فما يشكون من ألم
وزهر إكليلهم ذاو ومنتثر ... ولم يكن قبل إلا عقد منتظم
لايعجبنك ما أوتيت من شرف ... أو نلت من ذهب أو بطش منتقم
وانظر إلى القاهر المقهور كيف قضى ... وهاطل الدم فى الأعصاب كالديم
وأودعوا حفرا يا بئسما نزلوا ... عليهم سجف من دجية الظلم
لكن على جدث الصدّيق قد عبق الـ ... ـريحان والندّ من عدل ومن كرم

وقال شكسبير « كلّ من عليها فان » .

إن الحياة وإن غرّت مظاهرها ... فإنما هى وهم ذائب الصور
قد مثلت فى خيال الوهم بارزة ... فى ساحة العدم الممتدّ فى الفكر
كما ترى فى خيال الظلّ من صور ... حتى إذا كلت بادت على الأثر
وكل قصر رفيع شاده ملك ... فيه التماثيل تخشاها قوى البصر
كذا البروج مشيدات على صعد[5] ... مكللات بما فى السحب من أطر[6]
وكل ما أورثته الأرض من عرض ... تبيدها عدما يوما يد القدر
وإنما عنصر الأجسام من سدم ... مكوّنات من الأحلام والدعر[7]

ضاع من المؤلف كتاب له فيه تعليق فقال قبل أن يعثر عليه :

يقولون إن العلم الهمّ دافع ... فكيف رأيت العلم يدنى من الهمّ
ألم ترانى ضاع منى مؤلف ... نفيس فلم أصبر على ذلك الغرم

(١) الدرع السابغة : الضافية . (٢) العلم: الجبل . (٣) جمع رغام: التراب .
(٤) جلوسا على الركب . (٥) الصعد جمع صعود : ضد هبوط .
(٦) أطر ، جمع إطار : ما أحاط بالشئ . (٧) الدعر : الفساد .

لأنى قد نظمت بين عقوده   فرائد حق لايشذ عن الفهم
قضاء قضاه الله فى عالم الدنا   فرارا من الآساد تغرق فى اليم

هذه أقوال المشهورين من شعراء الغرب والشرق ، اتحد المتنبي وأبو العلاء من الشرق مع ( ترنش وشكسبير وشارل ) من الغرب ، بماذا نطقوا ؟ نطقوا بما نطقت به هذه المخلوقات حولنا ، نطقوا بما نطقت به الطير والحشرات القائلات بلسان حالها أنتم أيها الناس مسجونون فى أموالكم وأولادكم ، أما نحن فإنا فى بحبوحة النعيم ، نلد الألوف ولا نحزن ولا نجزع ولا ننصب فى التربية والله تولاها عنا ، هذا كلام حشرة أبى دقيق والجراد والذباب وحشرة دود القطن .

إن العالم الذى حولنا كله ناطق ونطقه أفصح من نطق اللسان . إن العوالم التى خلقنا فيها جميلة وناطقة ولكن أكثر الناس لايعقلون ولا يفهمون ، وبهذا نفهم قوله تعالى « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فنحن خلقنا العوالم حولكم أزواجا فتوالدت وكثرت ولم تعان ما تعانون مع قلتكم .

نريد بذلك أن تتذكروا وتعقلوا وتفهموا أن حياتكم الحقة لاتكون هنا على الأرض ولا فى عالم المادة التى ترونها بل فى عالم أجمل ، ولذلك رتب عليه قوله تعالى «ففرّوا إلى الله» والآية هنا موضحة لذلك الفرار إذ أبانت أن الناس فى عذاب بأموالهم وأولادهم ، فهذا هو سبب الفرار وطلبه .

ويقول الله فى آية أخرى « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا » فالمال والولد يعذبان وهما لايقرّبان إلى الله لأنهما وسيلة والوسيلة لا تكون مقصدا ، فإذا جعلت مقصدا ساءت الحال وكانت سجنا وكفرا كما قال تعالى هنا « وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

## إيضاح

لما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد الفضلاء من أهل العلم ، ولما اطلع عليه سألنى قائلا : أين النطق الذى فى المخلوقات حولنا والناس لايفهمونه كما تقول ؟ فقلت : نطق الطير ونطق المخلوقات كلها ، فقال : مامعنى هذا القول الذى يشبه قول الصوفية والرموز التى لاتفيد ؟ فقلت : نحن الآن فى مقام الحكمة والعلم والبرهان ، إن الطير ناطقات بما ذكرناه الآن . ولكن العامة والجهلاء يظنون أن النطق هو ماتتغنى به أو تناغى به أمثالها ، كلا ! بل نفس الطير والحشرات وجميع الدواب عبارة عن كتاب كتبه الله بيده ، كتبه لنا وأكثر الناس لايعلمون .

ألم تر إلى ماذكرته من حكم الحشرات وتبيان حياتها وموازنتها بحياة الإنسان ، ألم يكن هذا أفصح من نطق اللسان ؟ أليس نظام ذرّيتها وتدبير الله فى حفظها وحبسه لنا فى أموالنا وأبنائنا كافيات فى فهمنا أن حياتنا عذاب ؟ فلما أن جهل الناس هذا الكتاب الذى كتبه بيده أنطق الله بهذا المعنى الرجال والنساء وختم بالشعراء من العرب والعجم كما تقدّم ، وأنزل فى القرآن ماتقدّم من الآيات يقول « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » ، ويقول « ومن كل شىء خلقنا زوجين الخ » كما تقدّم ، ويقول هنا « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم » .

أليس هذا هو الذى يقوله الطير فى جوّ السماء ؟ فقال : مامعنى هذا ؟ فقلت : الطير مخلوق ترفع فى الهواء وتعالى عن الهوام فى التراب ، والسمك فى البحر ، والبهائم فى الأرض ، نظر إليها الطير نظر احتقار وفارقها وساح فى الهواء والحرية ، الناس يرون هذا وكأن الطير يقول : أيها الناس اعبروا البحر وسيروا فى الأرض وطيروا فى الجوّ . فهذا كله لايغنيكم شيئا ، فأنتم محبوسون فى الكرة الأرضية وفطركم نحن إلى عالم أرقى فاخرجوا إلى عالم أعلى بالعمل كما خرجت أنا من عالم الماء والتراب وظاهر الأرض إلى الهواء .

هذا هو بعض النطق الذى نطقه الطير لسليمان عليه السلام فى قوله تعالى على لسانه «يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين » فهل ترى أن إيتاء كل شىء وإيتاء الفضل المبين لمان شملت تخطر بغرائز الطيور فى جوّ السماء ، أم هى هذه المعانى وأمثالها التى نطق بها كل شىء قبل نزول القرآن كما قال تعالى « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » فنطق الناس بالتبرم من الحياة ، ونطق الشعراء كذلك ، ونطق الطير فى الهواء ، ونطق كل شىء هو الذى نزل به القرآن ، فقال لنا ماقالته الطيور والحشرات والهوام والشعراء ، وذمّ لنا المال والولد اللذين هما وسيلتان لامقصدان ، لماذا ؟ لأن الإسلام دين الفطرة ، فها أنت ذا رأيت الفطرة فى هذا المقال واطلعت عليها ؟ وهذه الفطرة التى أبرزها الله بتنويعه لخلقه فى طير وحشرات وغيرها وفى كلام الناس والشعراء أبرزها فى القرآن ، هذا معنى كون القرآن « ذكرى للعالمين » أى يذكرهم بما حولهم وما تحسّ به نفوسهم وهم عنه غافلون .

غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم عامة

قاعدة : قد يكون الناس أشدّ غفلة عن أعظم النعم وأوضح النطق وأبهر الجمال ، ألا ترى أنهم لايعتبرون الهواء نعمة مع أنه أهمّ من الخبز والماء ، ذلك لأنه مبذول لهم وهم لايقدرون النعمة حق قدرها إلا إذا منعت ، وعلى قدر المنع يكون حفظ الجميل ولذلك يفرحون بالحلى من الذهب والفضة أكثر من الخبز وبالخبز أكثر من الماء ، فأما الهواء فلا يذكرونه .

إذن معرفة النعمة معكوسة مقلوبة ، ثم إنهم يخاطبون بلسان أفصح من المقال فى أنفسهم وفيما يتعلق بهم ، واللسان الذى يخاطبون به أفصح من اللسان المعتاد جدًّا ، فالجوع والبرد والمرض والعطش وآلام الأم لبكاء الرضيع : كل هذه ألسنة ناطقة تحثهم على الأكل والشرب واللبس والتداوى وإرضاع الولد فقد يمتثلون ولكنهم لايعقلون أن هذا إفهام وتفهيم بل يساقون لها كما تساق الأنعام ، وإذا ساقتهم تلك الآلام التى جعلناها أفصح من الألسنة فإنهم كثيرا ما يألمون ولا يعقلون مثل ما يألمون من هموم الحياة فلا يعقلون ما المخرج .

ومثل ما يحصل للمسلمين الآن من الذلة بسبب جهلهم وقلة اتحادهم وتخاذلهم فأذلتهم الأمم ، كل ذلك حاصل وهم لايعلمون أن ذلك كله أفصح من اللسان وأوضح بل هو أفصح من منطق الجوع والمرض ، لذلك أنزل الله فى كتابه « ففرّوا إلى الله » وأنزل « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو » وأنزل ماهنا وهو أن الأموال والأولاد عذاب ، وكما غفلوا عما ينزل بهم من العذاب غفلوا عما حولهم من الجمال الذى يطالبهم بارتقاء نفوسهم ؟ فبينا أموالهم وأولادهم تعذبهم يرون النجوم الجميلة الرائعة تنظر إليهم باسمة وتشرق حولهم ضاحكة وتشير إليهم مسلمة وهى باهرة الجمال ، حسنات الأشكال تناديهم أن انتهزوا الفرصة اليوم واجعلوا أموالكم وأولادكم معينين على إسعاد المجموع الإنسانى حتى لاتسجنوا فيهما ، فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل المنافع العامة حتى تحظوا بالجمال الذى تجهلونه اليوم .

إن من الناس من يدرك جمال النجوم وهو فى الدنيا فيعشق العلوم عشقا فيكون عنده المال والولد ولكنه مغرم القلب بالعلوم ، فلا يصدّه مال ولا ولد عن ذلك الجمال ويجاهد بنفسه وماله فى سبيل المصالح العامة التى سيقت لها هذه الآية حثا لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على الجهاد والخروج من سجن المال والولد إلى إسعاد المجموع .

ظهور بعض سرّ هذه الآية فى هذا الزمان

لاتظننّ أن النوع الإنسانى غافل عما ذكرناه ، فاعلم أن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال والاستعمار والاستئثار بالسلطان .

ظهرت الاشتراكية فانظر الكلام عليها فى سورة البقرة عند آية الربا ، هناك تعلم أن القوم يريدون أن يكون كل امرئ مساعدا للمجموع ، أى أن يكون الناس كأعضاء جسد واحد وتكون المنافع أكل ، وهناك ذكرت لك أن الإسلام لم يقتصر على الزكاة بل جعل مال المسلم للمجموع طوعا لا كرها .

ومن عجب أن هذه الفكرة منتشرة بين مئات آلاف الآلاف من الناس ، فقد جاء فى الأخبار أيام كتابة هذا الموضوع فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢٧ أن شابا فقيرا اشتراكيا لا يجد قوت يومه قد وفقه الله إلى كشف حديث فى التصوير الشمسى أكثر إسراعا فى إبراز الصور بأعمال قليلة فباعه بنحو مائتى ألف جنيه فنزل عنه جميعه ، فبعضه إلى المعوزين من المصورين وبعضه من غيرهم .

إذن هذه التعاليم فى أصلها موافقة للفطرة ، لأنها تجعل الناس ينفع بعضهم بعضا ويخرجون من ذل الذل بالمساعدة العامة ، إذن القرآن نطق بما فى الفطرة ، والفطرة أبرزت هذا المذهب .

وإياك أن تظن أنى أبيح الاشتراكية ، كلا ! وإنما أقول معنى هذا أن الناس لما رأوا الشح المطاع والهوى المتبع خرجوا بعقولهم من ذلك بما يقولون ولسنا ندرى ماذا يصنعون ، وإنما المهم أن القرآن طلب أن يكون الإنسان مساعدا للجميع فعرفناه ، فإذا كان عملهم موافقا له كل الموافقة أقررناه وإن انحرف عنه نبذناه أو هذبناه ، فليس المقام فى الاتباع وإنما المقام فى الحكمة والعلم وموافقة القرآن لفطرة الإنسان ، وهذا هو معنى كونه دين الفطرة « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » اهـ .

اللطيفة الخامسة « إنما الصدقات للفقراء » الآيات »

(١) لا يجوز صرفها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة والشافعى ، وقد سقط سهم العامل وسهم المؤلفة قلوبهم إذا قسم المرء زكاته بنفسه ويعطى ثلاثة من كل صنف .

(٢) لو صرف الكل إلى صنف واحد أو إلى شخص واحد جاز من هذه الأصناف كلها ، وهو قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثورى وأصحاب الرأى وأحمد بن حنبل .

(٣) إن كان المال كثيرا يحتمل الأجزاء فرّقه على الأصناف كلها وإن كان قليلا وضعه فى صنف واحد .

(٤) يقدّم الأولى فالأولى من أهل الحاجة ، فإذا رأى الفقراء حاجتهم أولى قدّمهم وهكذا ، وهو قول مالك ، ومتى أعطى أحدا صدقة وجب أن لا يزيد المعطى عن أقل مقدار يسمى به غنيا فأقل الغنى لا تجوز الزيادة عليه .

وللأئمة هنا مجال فى المقدار الذى يعطى وكلٌّ يرى بحسب اجتهاده ؛ فالشافعى يقول بوجوب دفع الحاجة من غير حدّ ، وأبو حنيفة يكره أن يعطى رجل واحد مائتى درهم ، وأحمد بن حنبل كره أن يعطى أكثر من خمسين درهما اهـ .

واعلم أن الحق يؤخذ من مجموع هذه الأقوال ، فعلى رجال الحل والعقد فى الأمم الإسلامية أن يؤلفوا لجانا تنظر فى أحوال الأمة ، وهناك توزع الصدقات توزيعا شريفا ، وأهمها أن تصرف لأرباب الحرف الشريفة النافعة للأمة فيكسبون من كدّ أيديهم ، ويجب أن يمنعوها عن الكسالى ويأمروهم بالشغل ويعطوهم من الزكاة على مقدار ما يساعدهم فى اجتهادهم ولا يعطوهم جزافا .

فالحق فى هذه المسألة قد تضمنه أقوال الأئمة رضوان الله عليهم وعلى الأمة الإسلامية الجدّ والاجتهاد .

وها هم أولاء قد رأوا بأعينهم كيف أدّت الغفلة إلى ضياع بلادهم وجهالتها العمياء ، وإلى الله عاقبة الأمور .

اللطيفة السادسة قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب الخ »

اعلم أن هذه السورة قد خالفت أكثر القرآن ، ألا ترى أن الله ماترك صغيرة ولا كبيرة فى غزوة تبوك إلا أحصاها .

فياعجبا ! ضحكة يضحكها الأصدقاء فينزل الوحى بالمؤاخذة عليها ، إن هذا لأمر عظيم وقد عهدنا النبوّة لاتبالى بمثل هذه ، والنبى صلى الله عليه وسلم عفوّ ، فكيف رأينا الله فى هذه السورة يحصى على الناس ضحكهم فى أوقات خلواتهم ، فإذا سئلوا قالوا « إنما كنا نخوض ونلعب » ثم إنهم يهدّدون بالهلاك العاجل والعقوبات العظيمة ، وانظر كيف يقال لهم « كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوة » وذكر قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

كل ذلك تهديد للمنافقين الذين يعدّ عليهم تلك الهنات والضحكات ، فياليت شعرى ! كيف انقلب الأمر فى هذه السورة حتى أصبح المسلم يؤاخذ على ضحكة يضحكها ويهدّد بأنه أصبح كالأمم السابقة .

الجـــواب

اعلم ألهمك الله الرشد أن هذا هو النظام الذى يجب اتباعه ، فإن الأمة إذا تركت بعض أفراد منها خارجين عن نظامها يحقرون دينها وعقائدها ويخرجون عليها كان هؤلاء جرثومة فساد يسرى فى غيرهم ، ومثل هذا الداء إذا انتشر فى الأمة ضاعت قوّتها وذهبت ريحها .

فالاتحاد لايكون إلا بفكرة جامعة ، ولا جامعة فى هذا المقام إلا الإسلام ، فإذا سخروا منه فلا دولة ولا نظام ولا حرب ، إنما يحاربون باسم الدين ، فإذا سخروا منه فقد دلّ على كرههم له ، فإذن لاحرب ولا نظام ولا غلبة على الأعداء .

واعلم أن الأمة الإسلامية اليوم لم يضعفها إلا جهلها ، فلا هى بالدين اتحدت ولا بغيره اتفقت ، وسيكون لها بعد اليوم شأن ورفعة ومجد « والله هو الولىّ الحميد » .

جوهرة فى الكلام على قوله تعالى « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ »

الكلام عليها ينحصر :

(١) فى الاستهزاء بالنبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٢) وفى الاستهزاء ببعض المنسوبين للدين .

(٣) وسبب ذلك الاستهزاء .

(٤) ونتيجته من ازدياد الجهل فى المستهزئ وازدياد العلم والسعادة فى الدنيا والدين للمستهزأ به .

(١) أمّا الاستهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم فقد علمته ، وذلك أن بعض المنافقين أخذوا يخوضون فى الحديث فى غزوة تبوك ويقولون : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام إلى آخر ما تقدم .

ولا جرم أن ذلك الاستهزاء راجع لقصر النظر وضعف البصيرة .

(٢) أمّا الاستهزاء بالمتدينين فذلك مستفيض فى الأمم الإسلامية المتأخرة .

وبيانه أن المسلمين بعد العصور الأولى خارت عزائمهم وضلّ كثير منهم طريق التعليم بسبب الأحاديث التى وضعها الواضعون كما فى كتاب [الإتقان فى علوم القرآن] للسيوطى وغيره رحمهم الله تعالى ، فقد تطوّع قوم ووضعوا أحاديث فى فضائل السور وقراءتها ترغيبا فى القرآن وتحبيبا فى تلاوته لزعمهم أن الأئمة رضوان الله عليهم مثل أبى حنيفة والشافعى قد صرفوا الناس عن القرآن إلى مذاهبهم وقد أقروا بذلك وأنهم يرغبون الثواب من الله بهذه الأحاديث فانقسمت الأمة إلى طائفتين : طائفة تحفظ القرآن عن ظهر غيب تعبدا

أو

أو طلبا للمكسب أو للهرب من الجندية ، وطائفة تحفظ كالأوّلين ولكنها تعرف العلوم العربية والفقه وأصوله وفنّ التوحيد والمنطق وما أشبه ذلك .

وهذه الطائفة بقسميها ينظر لها بعض الأمة نظرة الاستهزاء ، يقولون : إن حفاظ القرآن ليسوا بمتعلمين فيعدّونهم فى مصاف الجهلاء ، وعلماء الدين غالبا يجهلون نظام هذه الدنيا ويظنون الفقه والأصول والتوحيد هى كل مايطلبه الدين ، فههنا يكون استهزاءان : استهزاء من هؤلاء العلماء بجميع العلوم وتكبر عليها غالبا ، واستهزاء من بعض الناس بهم لما يرون فيهم من قصور الباع فى نظام هذه الدنيا وعلوم الفلك والطبيعة وما أشبه ذلك .

ومن أسباب الاستهزاء بحفاظ القرآن وبعض علماء الدين كما قرّره ابن خلدون أن المتعلم على الطريقة القديمة كان يلقى إليه العلم ويضرب ويهان فيمرّن من صغره على الذلة والاستكانة والضعف فتموت فيه غريزة الشرف والنخوة والشمم والعزيمة وتخور قواه فلا يصلح للدفاع عن البلاد ، ولذلك ينظر له الناس نظرة المستضعف المستكين الجبان ، ذلك لما اعتاد من صغره على الذلة وانكسار القلب والضرب والخضوع الأعمى .

هذا ملخص ما يقوله العلامة ابن خلدون فى المقدّمة ، أما سبب استهزاء العالم الدينى نفسه بالعلوم الأخرى فذلك لنقص التعليم فيشب ويشيب معتقدا أن ماعدا فقه الشافعى والحنفى مثلا وما وراء الكتب الموضوعة فى التوحيد والأصول إنما هو هراء لامحصل له .

وأضرب لذلك ثلاثة أمثال :

[ المثل الأوّل ] أنه جاء إلى مصر منذ نحو ٢٠ سنة أمير هندى يسمى جمال وهو من مدارس بالهند ومعه مترجمه وقد مرّ على الإستانة وأخذ فتوى من شيخ الإسلام هناك ، ولما جاء إلى مصر أخذ فتوى من شيخ الإسلام ، ثم جاء إلىّ ليأخذ منى كتابة عما يأتى :

قال : قد فتحت مدرسة فى مدارس على نفقتى الخاصة فحرّم علماء الدين التاريخ والجغرافيا ، فكتبت أقول : [ إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون جميعا آثمون بتركها ] .

[ المثل الثانى ] جاء إلى مصر سرىّ من سراة الهند ، وقد أدخل ابنا له فى المدرسة التحضيرية بدرب الجماميز واتفق أنى كنت هناك فعرّفوه بى ، فقال لى مايأتى : إن أسرتنا كبيرة جدّا فمنها فى كل مدينة طائفة وهم جميعا يرون أن إدخال أبنائهم فى المدارس عار وعيب ومغاير للشرف فأنا لم أقدر أن أدخل ابنى فى مدارس الهند فأتيت به إلى هنا بعيدا عنهم حتى لايسلقونى بألسنة حداد .

[ المثل الثالث ] جاء إلى بلادنا منذ ثلاث سنين عالم صينى يسمى ( وان ون كين ) وقد قال لى مايأتى :

إنى أرسلت من قبل أربعة قوّاد من قوّاد المسلمين فى الصين لهم أمر مطاع ، ولما فتحوا أعينهم إلى بلادهم وجدوا أن المسلمين أجهل الخلق فى الصين على الإطلاق وكل علمهم راجع إلى الطلاق والبيوع والحيض والنفاس وما أشبه ذلك ، أما الوثنيون فقد ضربوا فى كل علم بسهم ، قال : فها أنا ذا مررت على بلاد جاوه والهند لأعرف كما طلبوا منى هل ديننا مجرّد من العلوم وقاصر على الفقه ، والعلم محرّم على المسلم ولا ينعم به إلا كل كافر بديننا ؟ قال : فلما مررت فى تلك البلاد لم أجد أثر العلم فوق ماهو معلوم بديارنا ولكن فى مصر وجدت حركة أخرى ، وها أنا ذا ترجمت كتابك [ القرآن والعلوم العصرية ] وترجمت أيضا [ تفسير الفاتحة ] وسأرجع إلى بلادى بذلك وبغيره من كتب العلماء بمصر .

هذه أمثال ثلاثة تعرف بها كيف كان استهزاء علماء الدين فى أمة الإسلام بالعلوم فى زماننا وذلك بالمران والتلقى والسماع من الشيوخ الجاهلين ، والجاهل يكون تلميذه مثله .

نتيجة الاستهزاء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وفى زماننا

أما نتيجة الاستهزاء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فهى واضحة فقد سماهم الله منافقين ، ومعلوم أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار .

أما عواقب الاستهزاء فى زماننا الحاضر ، فاعلم أن عاقبة الاستهزاء بالشىء الانصراف عنه احتقارا واستكبارا ، وإذا كان الله يقول فى الكفار « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وإذا كان سبحانه يقول « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » فهذا وإن كان فى الكفار فليس معناه أن يكون المسلم المنصرف عن العلم تكبرا واستهزاء واحتقارا قد انصرف عنه الذم والتقريع بل هو ملوم مذموم داخل فى العذاب الهون الذى ليس بمخلد ويلحقه شؤم عمله وذلك بطريق الاعتبار .

وإذا كان الله يقول فى الكافر « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء الخ » فهكذا المسلم القادر على العلم المحتقر له يلحقه الذم والتقريع بطريق الاعتبار وإن كان موقنا مسلما ، ولكن هذا رجل ناقص أو فاسق لأنه ترك فرض الكفاية أو فرض العين ، فهؤلاء من أىّ دين ومن أىّ نحلة لاتفتح له طرق العلم التى لاتفتح أبواب السماء لهم إلا بمفاتيحه ؟

قاعـــدة

كلما زاد المستهزأ به كمالا يزيد المستهزئ وبالا ، فإذا استهزأ عالم الدين الذى جهل علم الفلك وعلم النبات وغيرهما بمن يتعلم ذلك ، فإنه لامحالة يقف فى موقفه ولا يتخطاه فيرى غيره سبقه إلى تلك العلوم وأدركها .

فكلما زاد غيره علما من العلوم زاد هو له احتقارا فيكون هو أكثر جهلا والذى كان موضع احتقاره أكثر علما ، ولهذا الإشارة بقوله تعالى « الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فكلما كان الصحابة يزدادون هدى بالآيات القرآنية كان الكفار يزدادون طغيانا بالكفر بها وجحودا .

هكذا هؤلاء الناقصون فى العلم فى الإسلام كلما زاد غيرهم علما بجمال الله وآياته وعجائب سمواته وأرضه ازدادوا هم إثما وجهلا .

ويرى بعض المسلمين بل السواد الأعظم منهم أن أهل أمريكا والصين واليابان وأوروبا والأمم الوثنية قد اغترفت من موارد رحمة ربهم وإن كانوا منحرفين عن التعاليم الإسلامية وهم لايزالون مستهزئين بتلك العلوم محتقرين لها ظنا منهم أن الإيمان يكفيهم والنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها تشفيهم بلا علم وفاتهم أن يقرءوا قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الخ » فالكفار ظنوا أنهم يحسنون صنعا فهم أخسرون أعمالا بكفرهم .

هكذا المسلم إذا ترك أكثر الدين وظنّ أنه كامل فهو من الأخسرين أعمالا وإن كان لايخلد فى النار لأنه يحسب أنه يحسن صنعا وهو غافل عن آيات ربه .

الاستهزاء بالآيات المذكورة فى هذه السورة وضحت فى ( سورة يس ) والقرآن يفسر بعضه بعضا وعبر هناك بما هو أشدّ للاستهزاء وهو الحسرة إذ قال تعالى « ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون » ثم عدّد مايعتبرون به فذكر هلاك القرون الماضية ، وذكر أن الأرض من آيات الله ، وهكذا الحبّ والجنات من النخيل والأعناب والليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك الحمل فى بطون الأمهات

أو

أو حملهم فى سفن البحار وهكذا ، فهذه مجامع الآيات المستهزأ بها وهى تشمل أكثر العلوم فهى عبارة عن العلوم الأرضية والعلوم السماوية .

هذا هو الذى أخرجه الله فى معرض التحسر على عباده وهو آيات الله المذكورة هنا ؛ فالمسلم وإن كان لم يستهزئ بالرسول فقد أتى بأعمه وهو الجهل بهذه العلوم ، فالحسرة عليه كالحسرة على الكافر ، وإن كانت الحسرة على المؤمن لفسقه بالجهل إذا كان قادرا على العمل بجمال الله وآياته وترك ذلك احتقارا له ، والحسرة على الكافر لأنه ترك الإيمان ، والإيمان رأس العلوم كلها .

قاعـــدة

أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكابرهم ، فما من رسول ولا نبى ولا عالم نافع إلا كان فى أول أمره موضع السخرية من عارفيه احتقارا لعلمه واستصغارا لشأنه ثم يظهر أمره ويعلو شأنه والمستهزئون فى غمرة ساهون ثم يموتون فلا تسمع لهم ركزا ، وأكثر الناس استهزاء أقلهم علما وأحطهم شأنا .

ولعلّ لذلك الإشارة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ » وبقوله تعالى فى نوح « ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون الخ » .

ومن أكبر العار والشنار على الأمم الإسلامية أنها تركت الصناعات التى ملأت الشرق والغرب استهزاء واحتقارا لشأنها ؛ فأصحاب هذه الصناعات قد أحاطوا بنا من كل جانب .

ولقد نشأت ببلاد الشرقية فى بلاد زراعية فلم أجد لأحد شرفا فى نظرهم فى قريتنا إلا أصحاب المزارع الواسعة ، أما النجار والحدّاد وغيرهما فليس لهم احترام ، مع أن أمريكا بلغ عدد الصناعات فيها ( ٧٠٠٠ ) صنعة .

كل ذلك للعادة والإلف والجهل والاستهزاء « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » .

وملخص ماتقدّم أن الاستهزاء لا يصدر إلا من نفوس ناقصة ، وأن كثيرا من المسلمين يستهزئون بالعلم وبالصناعات وذلك كان من أهم أسباب الضعف والانحلال الذى عمّ الأمّة ، وليس يخرجها من مأزقها إلا تعميم التعليم وجعل التعليم الدقيق بهيئة مشوقة فيها جمال العالم كله بحيث يحبها الأطفال فيرغبون فى العلم شوقا ولا يرهبون ويضربون ، وليأخذ المتعلم من كل فنّ طرفا ولتوزع العلوم على مجموع الأمّة وليكن رجال الدين جميعهم قادرين على حمل السلاح ليكون عندهم الشمم والإباء ويتعلموا علم الجندية ، بل ليكن المسلمون جميعهم شجعانا مدرّبين وهم فى قراهم على الكفاح والجلاد ، فهذا مجامع مايمنع الاستهزاء ويصرف الحسرة عليهم إلى إغداق النعم لهم والحمد لله رب العالمين .

آثار الاستهزاء فى بلاد الإسلام

مرّ فى بلاد الإسلام وسل عن الصناعات وقل لهم إن العالم قد ارتقى بالصناعات فلا تسمع إلا احتقارا .

إيضاح أتمّ للاستهزاء بآيات الله

ضرب مثل للاستهزاء بآيات الله ، مواكب الله ومواكب للملوك والدول فى عصرنا

(١) مواكب للملوك والدول هى الجيش والسلاح تعرض على الجمهور .

(٢) مواكب الله ثلاثة صفوف :

(ا) الشمس والقمر والنجوم .

(ب) الجبال والشجر والدوابّ .

(ج) المنطاد والطيارة والبريد البرق (التلغراف الذى له سلك والذى لاسلك له) .

شرح هذه المواكب وكيف يكون الاستهزاء بها والإعراض عنها وما نتيجة ذلك

الكلام على مواكب الملوك والدول والاستهزاء بها وكيف يكون ذلك

إنّ الله عز وجل أنزل القرآن وضرب الأمثال على أننا فى الأرض لانعقل المعانى الإلهية إلا بضرب الأمثال من أنفسنا كما قال تعالى « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء الخ » أى أن الإنسان إذا كان له عبيد فإنه يأبى أن يشاركوه فى ملكه ، هكذا ضرب مثلا لنوره بالمشكاة التى فيها المصباح الذى فى زجاجة الخ ، فها نحن أولاء نريد أن نعرف معنى الاستهزاء بضرب مثل مما نشاهد فى الدول الحاضرة لنعقل معنى الاستهزاء ونعمل بما نفهمه كما ضرب هو الأمثال ، فنشرح أوّلا كيف يكون الاستهزاء بالمواكب الدولية لنقيس عليه الاستهزاء بالمواكب الإلهية ليظهر لعلماء الإسلام فى الأرض أننا وقعنا فى هذا الاستهزاء وإن كنا به غير عالمين .

لقد جرت عادة الأمم الحاضرة أن تظهر عظمتها أمام الأمم المحكومة فتبعث الجيوش مدججة بالأسلحة وتأمر بمرورها فى الشوارع وفى الميادين العامّة فى عواصم البلاد التى حكمتها أو احتلتها أو ملكتها فتوقع الرعب والهيبة والإجلال والإعظام فى قلوب الرعايا فتحصل النتيجة وهى الخضوع للأمّة الحاكمة ، ولكن فى عصرنا الحاضر لما تنوّرت العقول وأضاءت البصائر فكرت بعض الأمم فى ذلك فقابلت تلك المواكب بالإعراض والاستهزاء .

فانظر لما حصل فى الهند فى عصرنا الحاضر إذ أرسل الإنجليز ولىّ العهد إلى بلادهم فأعرضوا فى بعض العواصم وتولوا مدبرين وأقفلوا الحوانيت والبيوت كأنهم يقولون نحن لانأبه بولىّ عهدكم ولا بجيوشكم . وهكذا فى إرلانده كانوا إذا أرسلوا فرقة وعرضوها بسلاحها أقفل القوم منازلهم وحوانيتهم وتركوا المرور فى ذلك الشارع الذى تمر فيه الجيوش .

هكذا أمّتنا المصرية سنة ١٩١٩ م لما ثارت ثائرتها على الأمّة الإنجليزية فإنهم أرسلوا لجنة يرأسها عظيم منهم يسمى ( ملنر ) وهو من لورداتهم الفخام فقاطعه جميع أهل البلاد ، وإنما فعل أبناء بلادى ذلك اتباعا لما يسمعون عن الأمم الأخرى العاقلة إذ يفعلون ذلك ، وهذه الأفعال تنتج نتائج : إمّا تخفيف العبء عن المحكومين ، وإمّا إرسال المدافع لهم وإذلالهم ، وإذا عرفنا المثل الأول الذى يختص بأهل الأرض فلنشرع فيما هو المقصود وهو الموكب الإلهى والإعراض عنه فنقول :

عرفت فى المثال الأوّل الذى ضربناه مثلا للاعراض عن مواكب الله تعالى وأن الإعراض والاستهزاء ليسا باللفظ وإنما هو بالعمل ، هــــذا هو الاستهزاء العملى وهو أقوى وأشد وأسرع وأمضى من الاستهزاء اللفظى .

فانظر ما يقول الله فى الاستهزاء بمواكبه ، يقول الله فى سورة الجاثية « أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم » إلى أن قال « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » إلى قوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرّتكم الحياة الدنيا » إلى قوله « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وقال فى سورة أخرى « وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » وقال فى آية أخرى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

علم الله أن المسلمين سيغفلون عن آياته ويظنون أن النطق بالشهادتين والاعتقاد بالله وأنبيائه كافيان لحفظ

أمة الإسلام فى الدنيا والدين ، فماذا فعل الله ؟ هاهو ذا أبرز لنا الصفين المذكورين فى مواكبه : صف الشمس والقمر والنجوم ، وصف الجبال والشجر والدواب ، هذان الصفان معروضان لأنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عرضها الله علينا جميعا وخلق لنا الأسماع والأبصار ورأيناها بأعيننا ففعلنا مع هذه المواكب مافعله أهل إرلاندة مع الجيوش الإنجليزية ومافعله المصريون أهل بلادى معهم ، وهكذا بعض أهل الهند ، أرانا الله هذه المواكب وهى ستة أنواع : أربعة منها نهارا وهى الشمس والجبال والشجر والدواب، واثنان منها ليلا وهى القمر والنجوم وقال لنا« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » وقال« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » وهكذا فأفادنا أن هذه آياته كلها ، فالشمس آية والقمر آية والنجوم آية وهكذا .

فهاهو ذا عرضها علينا فرأيناها بأبصارنا وأسمعنا بالآيات القرآنية أن هذه آياته ، لماذا قال ذلك ؟ ليسجل علينا أن الاستهزاء بها والإعراض عنها استهزاء بآياته فانطبق على أكثرنا قوله تعالى « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها الخ» وقوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا الخ» فهذه آيات الله بنص القرآن وهى مواكبه التى عرضها علينا .

علم الله أن بعض الأمم ستقابل حكامها بالإعراض فيكون ذلك علامة على العصيان فأنزل قوله تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » فجعل مجرّد الإعراض كافيا لعقاب الكفار . وهاهو ذا الإعراض عرفناه بأنفسنا فى الأرض من الأمم المحكومة وترتب عليه ماعرفه الناس .

أعرض المحكوم عن الحاكم وموكبه فأوجب الإعراض أثره ، هكذا أعرض المسلم عن مواكب ربه فحصل أثر إعراضه فى أحوال الحياة ، قد عرفت آية الجاثية إذ يقول « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا » ثم أتبعها بذكر أنه له الحمد وأنه رب العالمين وأن كبرياءه فى السموات والأرض ، فإذا استهزأ الناس بآياته فهو متصف بوصفين . وصف الكبرياء والتعالى ، ووصف التربية ، هو المربى وهو المتكبر ، فماذا يفعل المربى المتكبر المتعالى بمن يستهزئ به ممن رباهم على موائد كرمه وإحسانه وعرفت أنه حفظ السماء التى أعرضنا عنها وإنما حفظها من أمرين : إدراك أسرارها ، والعروج من أهل الأرض إليها .

فأما إدراك أسرارها فلم يعرف الناس منه إلا النزر اليسير ، وأما العروج إليها فإن الطيارات فى وقتنا الحاضر ترتفع إلى حد معين وأعظمها وأقواها لاتتجاوز حدا محدودا ثم لاتقدر أن تتجاوزه . إذن السماء حفظت من صعودنا إليها ومن إدراكنا لأسرارها ، ولم يكن لنا منها إلا أنها مواكب قد عرضت علينا فكنا عنها معرضين .

حفظت السماء وحرست بالشهب وحرم على الناس أن يعرفوا إلا ما وصل إليهم ، تكبر الله وتعالى وتعاظم وعلم أننا أعرضنا عن آياته فأرسل لنا الصف الثالث من مواكبه وهو الطيارة والمنطاد والتلغراف ، هذه مواكب غير طبيعية بل هى صناعية ألقاها إلى العقل الإنسانى من وراء الحجب والأستار التى أسدلها على علوم السموات والأرض وأنزلها إلينا مع كبريائه . فالكبرياء هى الصفة التى اقتضت حجب العلوم عنا ولا ينزل علما منها إلا بالجدّ والتعب والتشمير إذ لم يعلم الناس الطيارة والمنطاد والبريد البرق بقسميه إلا بعد الجهد والنصب والتعب ، إنه متكبر وإنه مربّ ، فلكبريائه أحرس السموات وعلومها فمنعها ، ولتربيته أعطانا منها ما اجتهدنا فى البحث عنه ، وسترى الكلام على الطيارة والمنطاد الخ فى سورة النحل عند قوله « ويخلق ما لاتعلمون » والكلام على الشمس والنجوم والشجر قد مرّ فى سورة الأنعام وغيرها ، وسيأتى الكلام على الجبال فى سور كثيرة كسورة الغاشية وكسورة الرعد وغيرها .

ها أنانا قد أوضحت لك بفضل الله كبرياء الله بأن حرس السماء وجعلها سقفا محفوظا وتريته فإنه يعطينا حد التعب وكيفية الاستهزاء الفعلى الذى ظهر نظيره فى الأرض ، إذا علمت هذا فاعلم أن الله لما عرض الصفين الأولين من المواكب وهى الشمس وما بعدها والجبال وما بعدها ونحن لانستيقظ بهما أردفهما بصف ثالث وهو الطيارة والمنطاد والبريد البرقى فأصبحنا نرى ثلاثة صفوف لاصفين .

ذلك عامل المسلم الآن معاملة الدولة القوية المتكبرة القاهرة إذ ترسل المدافع للمرضين عن مواكبها ، إنما جهلنا بما فى السموات والأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب قد عصينا ربنا بالإعراض عن معرفة كماله وجماله وحكمه ، وهذا نوع من الاستهزاء العملى بالإعراض وكفى به ذنبا ولاينفع المسلم ما يتعلل به من أن الإيمان كاف فإن هذه حيلة العاجزين .

ألم تسمع قول الله تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » فالإيمان وحده ليس يكفى الأمة الإسلامية ، إن الله فتننا وامتحننا بعرض السموات والأرض والجبال فأعرضنا فعرض علينا الطيارات فقربت منا بخلاف النجوم والشمس والقمر التى هى بعيدة عنا .

يقول الله لنا أيها المسلمون إن آياتى العظيمة الكونية أعرضتم عنها فهلا تفهمون آياتى الصناعية التى قربت منكم تتلقون رصاصها وقنابل مدافعها وآثار ضربها؟ . وأنا أقول : أيها المسلمون كفى استهزاء بآيات الله .

يقرأ المسلم القرآن وهو عن العلم معرض ، وينظر فى مواكب الله وهو لايعقل ، ويرى أمم الأرض اغترفت من أنهار أنعمه فلايبالى كأننا لم نخلق فى هذه الأرض أوكأننا ميتون .

ها أناذا أقول لكم [ أخاطب قراء هذا التفسير لأنهم هم أصحابى الذين عليهم أعوّل فى إيقاظ المسلمين ، بهم تشرق شمسها ويضىء نهارها ويفلح جمهورها ] .

إن الفقيه والأديب والعالم المسلم الذى يعيش ويموت وهو لايفرح ولا يعقل ولا يتفكر فيما ذكرناه كالمستهزىء وهو معرض عن آيات ربه بل هو ليس بعالم البتة هو جاهل وإنما هو صاحب صناعة يعيش منها كالقضاء وكالتدريس ، هل يرضى المؤمن أو العالم أن يتصف بأنه مستهزىء بآيات ربه ؟ .

أيها المسلمون اقرءوا هذه العلوم ولكن عامة فى الأمة كلٌّ بقدره ، وإلا فقد صدق علينا قوله تعالى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » وصدق علينا قوله تعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » ولامعنى للإعراض من أهل سبأ إلا أنهم تركوا سدّ العرم ولم يصلحوه ولم يحافظوا على نظام البلاد ، وقوله « فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون » هذا هو الذى فهمته فى معنى قوله تعالى هنا فيما نحن بصدده من هذه السورة « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » اهـ .

اللطيفة السابعة « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

تقدّم الكلام عليها فى اللطيفة قبلها ، وأزيد عليه : أن الله فى هذه السورة يقول للمسلمين ما ملخصه : إنى أهلكت الأمم السابقة بظلمها وأنزلت عليها المصائب والخزى ببغيها فلا تظنوا أنكم باسم الإسلام ناجون ولا باتباع نبىّ بحسب الظاهر من العذاب خارجون ، وكيف ينفعكم اسم الإسلام إذا غاب مسماه ، ألم أقل لكم فى أوّل سورة الأعراف « كتاب أنزل إليك ـ إلى قوله ـ لتنذر به وذكرى للمؤمنين » فذكرت فى السورة هناك هلاك الأمم وخراب الدول من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وقوم شعيب ، فكما ذكرت تلك الأمم هناك مخاطبا الكفار ذكرتها هنا مع زيادة ونقص فليكن الخطاب مع المسلمين الذين نافقوا إيذانا بأن اسم الإسلام لايمنع العذاب ، وهاهو ذا قد حقت كلمة العذاب اليوم على كثير من المسلمين لإعراضهم عن فضائل دينهم وهم نائمون حقت عليهم كلمة العذاب .

تتعجب كيف قدّم فى سورة الأعراف أنه أنذر الكفار بعذاب كعذاب هذه الأمم ثم جاء فى سورة التوبة وأوعد المسلمين أنفسهم : أى المنافقين منهم بنفس ما أوعد به الكفار وقال هناك « وذكرى للمؤمنين » ولم يقل للمسلمين .

إن المسلمين قسمان : منافقون أنذروا فى سورة التوبة ، ومؤمنون ذكروا فى سورة الأعراف بما أصاب الكفار قبلهم ؛ فالكفار منذرون ، والمنافقون منذرون ، والمؤمنون يذكرون ، وكل بنى آدم فى الدنيا لحوادث الأيام متعرّضون

اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم »

قوله « ذلك » راجع لرضوان من الله . اعلم أن أحوال الإنسان كلها ترجع إلى ما فى نفسه فلا جنة ولا نار ولا لذّات ولا نعيم ولا حور ولا ولدان ولا غيرها فى الدنيا ، ولا فى الآخرة لا ألم لها ولا لذة إلا إذا استعدّت نفسه لقبول ذلك ؛ فالنفس مركز الآلام ومهبط اللذات ومنبع النعيم ومقام الجحيم ، فمن وضع فى الجحيم أو الجنة وفقد الإحساس بما حوله بل هو فى غفلة عنه فلا نعيم له ولا جحيم ، وكل نعيم وكل جحيم وكل لذة وكل ألم صادرة بإرادة خالق العالم ، فإذا أيقنت النفس أن لها بربها صلة وأنه راض عنها كان ذلك غاية الأمانى ونهاية السعادة ، لأن القلب محل السعادة والشقاوة ، وها هو ذا قد أيقن بالرضا وأنه مقبول وأن العناية الإلهية رمقته فهو ذو صلة قلبية ؛ وهناك يحسّ بلذة لا نتصوّرها نحن فى الدنيا إلا بضرب مثل كأن تنظر إلى من يتقرّبون من الملوك ورضوا عنهم كيف يحسون بسعادة ؟ وكأن تنظر إلى العاشق إذا علم أن معشوقه راض عنه لا صدود ولا هجر ، كيف يحسّ بلذة وسعادة لا يشعر بها بقية الناس .

فأما مقام الرضا من الله فهذه درجة يعرفها من صرفوا أعمارهم فى الإخلاص والذكر والفكر والعبادة مع الفضائل النفسية « ولكل درجات مما عملوا » وهؤلاء لا يبالون بجنة ولا يخافون من نار ، لأن رب البيت أشرف من البيت ، والنظر إلى خالق الجنة أشرف وألذّ من النظر إلى الجنة ؛ كما أن محادثة الملوك ومجالستهم ألذ وأشرف من التمتع بطعامهم وشرابهم عند ذوى النفوس الشريفة والعقول المنيفة ، هذا ما يشير إليه قوله تعالى « ذلك هو الفوز العظيم » .

اللطيفة التاسعة قوله تعالى « وهموا بما لم ينالوا »

قد تقدم تفسيره ، ويقال أيضا إن اثنى عشر رجلا من المنافقين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك ، ويقال إن حذيفة لما سمع وقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح قال : إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، ويقال أيضا إن المنافقين قالوا إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبىّ ابن سلول تاجا فلم ينالوا ، أقول وكل ذلك محتمل والآية لا تمنع .

اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشد حرّا لو كانوا يفقهون »

ياليت شعرى ! أين الفقه وأين كون نار جهنم أشدّ حرّا من حرّ الشمس على المسافر إلى تبوك ؟ فما للفقه وما لذلك ؟ الإنسان يتأذى من حرّ الشمس وهو مسافر ولا سيما إذا كانت الشقة بعيدة ، فأين نار جهنم حتى ننظرها ونقول إنها أشدّ حرا من هذه الحرارة الشمسية ؟ هذا هو السؤال الذى يختلج فى العقول وإن لم تنطق به الألسن

الجواب

اعلم أن الفقه لا يذكر إلا فى الأمور الدقيقة ، وهذا المقام دقيق لا يعقله إلا المفكرون ، فإن التوانى

والتكاسل والتباطؤ عن الحرب داع إلى اجتماع الأمم التي حول الكسالى عليها فيطئون أرضها ويذيقونها العذاب الهون .

وأيضاً قدّمنا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الأمم التي لم تحركها عواصف الدهر ولم تهجها مصائب الزمان ولم تهذبها الحروب يحيق بها الهلاك ، فإذا شئت أن توقظ أمّة فحرّك فيها حركة الحرب والجهاد فإنها تنشط من عقالها وتقوم من سباتها وتستيقظ من غفلتها ، وإذا رأيت أمّة هادئة ساكنة عاكفة على تقاليد عتيقة نائمة فاعلم أنها صائرة إلى الزوال ولا تغرّنك ظواهر الأحوال ، وقد قدمنا خلاصة رسالة أرسطاطاليس إلى الإسكندر في هذا المعنى فلا نعيدها .

فإذا كان ترك الحرب في الدنيا هكذا شأنه فما بالك بالآخرة وقد قال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ومن أصابهم الجهل والكسل في الدنيا فإنه يكون طبعهم اللازم في الآخرة فيرسلون إلى دار تليق بهم ، وهذا هو عذاب النار ، فهل هذه المعاني التي لاتعرف إلا بمزاولة العلوم يعرفها إلا كل فطن لبق فهيم ، هذا هو المراد بقوله « لو كانوا يفقهون » .

اللطيفة الحادية عشر ، والثانية عشر ، والثالثة عشر

في قوله « وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » وفي قوله « وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون »
وفي قوله « سنعذبهم مرّتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم »

يقول في المخلفين تارة « وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » وتارة « وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون » نفى عنهم الفقه مرة والعلم أخرى وحكم عليهم بأن قلوبهم منعت الحكمة بما طبع عليها فهي لاتعى مايرد لها من معقول ولا منقول ، وهذا يكون الكلام فيه كالكلام في الذي قبله سواء بسواء فإن الكسالى عن الحرب تأخذهم صاعقة العذاب الهون ، ولعذاب الآخرة أشدّ (راجع اللطيفة المتقدّمة) وأما قوله تعالى « سنعذبهم مرّتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » ولقد تقدم أن العذاب ( عذابان ) عذاب الدنيا بالمصائب الكثيرة وعذاب القبر ، والعذاب العظيم عذاب جهنم .

واعلم أن الظلمة والقتلة والفتاك وجميع أرباب النفوس الشريرة لهم أنفس تطالبهم بالكمال وتهددهم وتذيقهم ألوان العذاب كما نص عليه سقراط في جمهوريته إذ قال : [ إن أولئك الملوك الظالمين والناس من حولهم يشئون يحسون بألم في نفوسهم على مقدار ما أجرموا جزاء وفاقا وحياتهم شقاء ووبال ] هذا معنى ماقاله سقراط ، وأقول : زد على ذلك في هذا المقام أن هؤلاء ظلموا بترك الجهاد فيحسون بوخس في ضمائرهم وأنهم عالة على غيرهم ولا أحد في الدنيا إلا وهو معذب بما فيها من المصائب في الأموال والأولاد والصالحون والطالحون سواء ، ولكن إذا كان للنفس مشرب ديني ومنهج أخلاقي احتسبت ثواب مافاتها من أهل أو مال عند ربها وانقلب الحزن بالرضوان سعادة وأصبحت هموم الدنيا لاقيمة لها ويصبح الإنسان كأنه ملك عند ربه وكأنه رضي عنه ، فإنه إذا رأى المال والولد والرزق والذكر الحسن والصيت وكل مايناله من خير وكل مايصيبه من شرّ من عند ربه وما فاته من الخير يعتقد أن له عوضا في الآخرة وما أصابه من الشرّ يعتقد أنه تكميل لنفسه في الدنيا وثواب له في الآخرة ، فهذه الاعتقادات هي سبيل الرضا .

وقد تقدّم أن الرضوان هو الفوز العظيم ، وهذه الدرجة قد حرم منها المنافق فهو أبدا مضطرب لفقد مال أو ولد أو صديق ولا يؤمن بالآخرة ، فانظر كيف كان الفرق بين النعيم والعذاب فكرة للفكرين ، فالجاهل معذب بالنعيم والعالم الحكيم سعيد على كل حال .

اللطيفة الرابعة عشر

وقد أخرت لطول الكلام عليها ، اعلم أن الله ذكر أصنافا من المنافقين فمنهم :

(١) المستأذنون فى التخلف ليكونوا مع القواعد وهم أغنياء .

(٢) ومنهم من يقول ائذن لى .

(٣) ومنهم من يلمزك فى الصدقات .

(٤) ومنهم الذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أذن .

(٥) ومنهم من عاهد الله الخ .

(٦) ومنهم الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين الخ .

(٧) ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما .

(٨) والذين اتخذوا مسجدا ضرارا .

(٩) وممن حولكم من الأعراب منافقون .

(١٠) ومن أهل المدينة الخ .

فهذه عشرة أصناف أهمّ من ذكر من أهل النفاق فى هذه السورة ، والمهم فى هذا المقام قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » .

روى أكثر المفسرين قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى على غير الوجه الذى ذكرناه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يرزقه مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لاتطيقه ، ولما كرر ذلك قال له : أما لك فى رسول الله أسوة حسنة ؟ والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت فلم ينثن عن الطلب وعاهد الله أن يعطى كل ذى حقّ حقه ، فدعا الله رسوله فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فبعد أن كان يصلى الظهر والعصر مع النبى تباعد عن المدينة لكثرة غنمه حتى صار لايصلى إلا الجمعة، ثم صار لايشهد جمعة ولا جماعة ، ثم سأل عنه فأخبروه : فقال ياويح ثعلبة ! ولما نزلت آية الصدقة أرسل له النبى صلى الله عليه وسلم عاملين الصدقة ، فقال : ماهذه إلا الجزية ماهذه إلا أخت الجزية ، ثم قال اذهبا حتى أرى رأيى : فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرهما بالذى صنع ثعلبة بطريق الوحى ، فنزلت الآية « ومنهم من عاهد الله — إلى قوله — وبما كانوا يكذبون » فأخبر ثعلبة بذلك فجاء ومعه صدقته فلم يقبلها النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يحثو التراب على رأسه ، ولما تولى أبو بكر لم يقبلها كذلك وكذلك عمر .

ثم اعلم أن المقصود من هذه الآية أن نقض العهد ونحوه من إخلاف الوعود إثمه عند الله عظيم جدّا حتى أنه ورد فى الحديث « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » وعدّها فى حديث آخر أربعة : «إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ،وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر »

واعلم أن علماء المسلمين لم ينبهوا الأمة لمثل هذه الأمور وتركوا الأمة تكذب وتخون وتخلف العهد ولم يشيعوا بينها هذه الإنذارات والعظات كما أشاعوا نواقض الوضوء وشروط البيع وعدد الطلاق مع أن هذه المسائل أهم وأولى وأقرب إلى أصول الدين من غيرها ، ويجب على العلماء أوّلا أن يتخلقوا بها ثم ليشيعوها بين الشعب .

ومن كان فى شك مما قلت فليتأمل حال الأمة الإسلامية اليوم ، أو لايرى أن تجارتهم بائرة وجماعاتهم متنافرة وأموالهم خاسرة .

أليس إخلاف الوعد وكذب القول والغشّ فى البيع كل ذلك نفر بعضهم من بعض فضاعت الأمانة

وصدق الفرنجة فصاروا هم القائمين بالأعمال ولم يزلوا هكذا حالا بعد حال حتى احتلوا البلاد واستولوا على العباد واستعبدوا الناس فى عقر دورهم ، ما هكذا يكون المؤمنون .

إن إخلاف الوعد والكذب والخيانة جعلت الناس أشبه بالمنافقين حتى أصبحنا فى مصر نرى أن العامة لايحترمون الصادق ذكيا بل يقولون إنه غبى جهول ، اللهم أصلح أحوال العلماء والأمة الإسلامية بالصدق والأمانة « إنك أنت السميع العليم » .

ولتعلم أرشدك الله أن هذه الأخلاق التى فشت فى المسلمين اليوم وأوقعتهم فى براثن الفرنجة جاءت مصداقا لهذه السورة .

ألا ترى أنه تعالى قد أوعد المنافقين بتذكيرهم بقوم نوح وعاد وثمود الخ ، وهذه الأمم عذبت بألوان من العذاب وما ذلك الوعيد للمسلمين إلا على النفاق كما أوعد الكفار فى السور الأخرى ، وهاهو ذا يقول فى الحديث إن الكذب والخيانة ونقض العهود وما أشبه ذلك نفاق وأنت تعلم من الآية أن النفاق يضيع سلطان الأمم فيجعلها فى قبضة أخرى ويهلكها .

وهذا هو عذاب المؤتفكات : أى المنقلبات ، وهذا انقلاب للأمم من حال إلى حال فتصبح فى ملك أعدائها وتستخدم كالدواب ، فبعد أن كانوا سادة أصبحوا عبيداً .

فانظر كيف نص الحديث على أن الكاذبين الخائنين الغادرين منافقون ، وانظر كيف أوعد الله المنافقين فى الآية بعذابهم وضياع دولهم وتمزيق شملهم ولم يعين نوع العذاب ، وانظر كيف حصل الأمران فى أمة الإسلام : نفاق كما فى الحديث ، وتمزيق الشمل كما فى الآية ؛ وهذا هو القول الحق .

ولهذا جاء القرآن ، وبهذا وأمثاله فليفهم المسلمون الدين فلترتعد الفرائص ولتتمزق الأفئدة وليتعظ العلماء ، وليصدقوا هم أولا فى كلامهم ، ولا يخلفوا وعدهم ، ولا يخونوا أحدا ، ولا يغدروا فى المخاصمة ، ثم ليحملوا الأمة على ذلك وليبلغوها أمثال هذه المعانى التى هى حقائق ثابتة ومعجزات القرآن واضحة حتى تلمّ الأمة شعثها وترجع مجدها وتروج تجارتها ويكون تجارها من الصادقين كما قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ولما ترك بعض المسلمين الصدق بارت تجارتهم وذهبت ريحهم ، وقد أذن الله اليوم باسترداد مجدهم ، وتمكين أمرهم ، وصدقهم ، وسيكون فى هذه الأمة عاجلا من يرشدونها والله هو الولىّ الحميد ، انتهى الكلام على القسم الثالث .

## ( القِسْمُ الرَّابِعُ )

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ

استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه
إن إبراهيم لأواه حليم * وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم
ما يتقون إن الله بكل شيء عليم * إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت
وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار
الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم
إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما
رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا
إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين * ما كان
لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا
بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله
ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل
صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون
واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * وما كان المؤمنون لينفروا
كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا
إليهم لعلهم يحذرون * يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا
فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم
زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم
مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون في كل
عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر
بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم
لا يفقهون * لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *

التفسير اللفظى

( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) تمثيل لإثابة الله لهم الجنة على بذل نفوسهم وأموالهم، ومرّ أعرابى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها، فقال بيع والله مربح لانقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو واستشهد ثم استأنف لبيان ما لأجله الشراء ، فقال ( يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ) ثم أكده فقال ( وعدا عليه ) فهو مصدر مؤكد لما دلّ عليه الشراء ( حقا ) واجبا ( فى التوراة والإنجيل والقرآن ) أى إن وعد الله للمجاهدين بالجنة مذكور فى الكتب السابقة من التوراة والإنجيل كما هو مذكور فى القرآن ، وقد علمت فيما تقدّم أن الجهاد هو المرقى للانسانية كلها فهو معها يوم أن وجدت على الأرض ( ومن أوفى بعهده من الله ) تقرير لكونه حقا ( فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ) أى افرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم النعيم المقيم ( وذلك هو الفوز العظيم ) من أهل الجنة ( التائبون ) عن الكفر وعن المعاصى فتحزن قلوبهم على المعاصى ويندمون ويعزمون على الترك ويكون لهم على ذلك رضوان الله لامدح الناس وذمّهم ، فهذه شروط أربعة لتوبة العاصى ( العابدون ) الذين عبدوا مخلصين ( الحامدون ) لنعمائه ولما نابهم من السراء والضراء ( السائحون ) :

(١) الصائمون ، لأن الصيام عائق عن الشهوات وأيضا من الصائمين من وصلوا فى رياضتهم إلى الاطلاع على خفايا الحقائق .

(٢) والسائحون للجهاد . (٣) والسائحون لطلب العلم .

وأعلاهم الثالث وأوسطهم الثانى وأقلهم الأوّل ، فهؤلاء كلهم سائحون ( الراكعون الساجدون ) فى الصلاة ( الآمرون بالمعروف ) بالإيمان والطاعة وحفظ الأمّة ونشر العلم ( والناهون عن المنكر ) عن الشرك والمعاصى ( والحافظون لحدود الله ) أوامره ونواهيه وهذا مجمل الفضائل والسبعة قبله مفصل ، ثم إن عادة العرب أنهم بعد السبعة يأتون بواو ويقولون إنها واو الثمانية ، ولذلك قال « والحافظون » ولم يقل الحافظون ( وبشر المؤمنين ) المتصفين بهذه الصفات .

يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب لما حضره الوفاة قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله فأبى ، فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه ، فنزل « إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء » وكان ذلك فى مكة ولا زال يستغفر لأبى طالب حتى نزلت هذه الآية فى المدينة مع السورة وهى ( ما كان للنبى والذين آمنوا ) معه ( أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ) أى ماجاز لمحمد والذين آمنوا به أن يدعوا للمشركين ولو كانوا ذوى رحمهم من بعد ماظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ، أما الأحياء فالاستغفار لهم جائز ليطلب به توفيقهم للإيمان .

وروى «أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلى ! والله لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله هذه الآية : ما كان للنبى والذين آمنوا الخ » ثم عذر الله إبراهيم ، فقال تعالى ( وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ) وعدها إبراهيم أباه بقوله « لأستغفرنّ لك » أى لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان ( فلما تبين له أنه عدوّ لله ) بأن مات على الكفر

أو

أو أوحى إليه بأنه لايؤمن ( تبرأ منه ) قطع استغفاره (إنّ إبراهيم لأوّاه) لـكثير التأوّه ، وهذا كناية عن كثرة ترحمه ورقة قلبه (حليم) صبور على الأذى ، وهذه الجملة لبيان ماحمله على الاستغفار ، وقد خاف جماعة من المؤمنين أن يكون استغفارهم قبل المنع معصية ، فأنزل الله ( وماكان الله ليضلّ قوما بعد إذ هداهم ) للاسلام يسميهم ضلالا ويؤاخذهم مؤاخذة الضالين ( حتى يبين لهم مايتقون ) أى حتى يبين لهم خطر مايجب اتقاؤه سواء كان ذلك فى الاستغفار للمشركين قبل المنع أم فى شرب الخمر قبل العلم بتحريمها من قوم بعدت ديارهم عن النبى صلى الله عليه وسلم، أم فى التوجه لبيت المقدس وقد حوّل إلى الـكعبة والقوم لايعلمون لبعد الديار ، فـكل ذلك قد ذكر فى سبب هذه الآية ؛ فالمراد كما قال الضحاك : وماكان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايأتون وما يذرون ( إن الله بكل شىء عليم ) من المنسوخ والناسخ وما خالط نفوسكم من الخوف عند مانهاكم عن الاستغفار للمشركين ومابين لـكم من الأوامر والنواهى ( إن الله له ملك السموات والأرض ) ملك السموات كالشمس والقمر والنجوم ، وملك الأرض كالشجر والدواب والجبال والبحار ( يحيى ) للبعث ( ويميت ) فى الدنيا ( وما لـكم من دون الله ) من دون عذاب الله ( من ولىّ ) قريب ينفعكم ( ولا نصير ) مانع .

ولما كان ماتقدّم يقتضى البراءة من ذوى القربى إذا كانوا مشركين بين الله بهذه الآية أن الله هو مالك الخزائن كلها فلتتوجهوا إليه وهو الناصر وحده ( لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار ) وهذا كقوله « وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون » يأمر الله جميع الناس أن يسعوا للارتقاء فى الدرجات ، فـكما ينظم حالهم من صبا إلى شباب إلى كهولة إلى هرم إلى موت ، هكذا يجب أن يترقوا فى أحوالهم المعنوية من كامل إلى أكمل منه .

وكل من كان فى درجة من درجات الـكمال يشرئبّ إلى ماهو أعلى منها ، وما دام فى الدرجة الدنيا فإنه مطالب بالرقىّ إلى ما هو أعلى ، فيكون الارتقاء عن المرتبة الدنيا إلى العليا توبة من النقيصة واعتناق الـكمال ، وهذه هى التوبة المذكورة فى هذه الآية وهى المراد بقوله « ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخر » وهذا معنى توبة الله على النبىّ والمهاجرين والأنصار ( الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ) أى وقت الشدّة ، فهم جميعا ينتقلون من حال إلى حال أكمل ، وهذه الشدّة والعسرة كانت من الزاد ومن الحرّ ومن العدوّ ومن بعد الطريق ، فـكان ذلك كله ضيقا وشدّة، وغزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيها كان يسمى جيش العسرة فـكان منهم عشرة يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم لاك التمرة حتى يجد طعمها ثم يشرب عليها جرعة ماء وهكذا صاحبه حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة ( من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ) عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه ، وفى «كاد» ضمير الشأن والجملة بعده فى موضع النصب ، وقرأ حمزة وحفص «يزيغ» (ثم تاب عليهم) كرره للتأكيد ( إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة ) أى وتاب على الثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأوائل أسمائهم مضبوطة بلفظ [مكة] وآخرها بلفظ [عكة] ثم قال ( الذين خلفوا ) تخلفوا عن غزوة تبوك وهم المذكورون فى قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله » فيما تقدّم ( حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ) أى برحبها : أى مع سعتها كأنهم لشدّة حيرتهم وفرط قلقهم لايجدون ملجأ يلجئون إليه ، فمثل ذلك بأن الأرض الواسعة الأرجاء البعيدة الأطراف لاتسعهم ، والنابغة فيما يقرب من هذا :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

( وضاقت عليهم أنفسهم ) أى قلوبهم لايسعها أنس ولا سرور من فرط الوحشة والغم ( وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ) وعلموا أن لاملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم منع أصحابه أن يكلموا هؤلاء الثلاثة ولبثوا على ذلك خمسين ليلة .

وقد زادت الشدّة عليهم أن أمروا أن يعتزلوا نساءهم بعد أن مضى عليهم أربعون يوما من الخمسين ، وكان أحدهم يطوف السوق والمساجد فلا يكلمه أحد . قال كعب بن مالك : آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، ومن حديث كعب بن مالك أيضا أنه قال : « جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فسلمت فتبسم تبسم المغضب وصدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك فقمت » . وفى الحديث طول قد ذكرت مايهم منه وهو قوله تعالى ( ثم تاب عليهم ) بالتوفيق للتوبة ( ليتوبوا ) ليكونوا من جملة التوابين ( إن الله هو التوّاب ) لمن تاب وإن عاد فى اليوم مائة مرة ( الرحيم ) المتفضل عليه بالنعم ( ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ) فيما لايرضاه ( وكونوا مع الصادقين ) فى إيمانهم وعهودهم وفى دين الله نية وقولا وعملا ، والمراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة وأمثالهم ممن صدقوا فى نياتهم واستقامت قلوبهم ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة .

ومن ألطف مايكون أن أبا بكر يوم السقيفة إذ قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، قال يامعشر الأنصار يقول الله « للفقراء المهاجرين - إلى قوله - أولئك هم الصادقون » من هم ؟ قالت الأنصار : أنتم ، فقال أبو بكر : إن الله تعالى يقول « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء . ( ما كان لأهل المدينة ) أى لساكنى المدينة من المهاجرين والأنصار (ومن حولهم من الأعراب) أى سكان البوادى من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وغيرهم ( أن يتخلفوا عن رسول الله ) يعنى إذا غزا : أى ليس لهم ذلك ( ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ) أى ولا يرغبوا بأنفسهم أن تصيبهم الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله فى مشقة السفر ومقاساة التعب ، وبعبارة أخصر ولا يكونوا على أنفسهم أشفق من نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقال ولا يرغبوا بصحبة أنفسهم عن صحبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد .

روى أن أبا خيثمة بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظلّ وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظلّ ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضحّ والريح ، ماهذا بخير ؟ فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح ، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : كن أبا خيثمة فكان هو ، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ( ذلك ) الخروج ووجوب المتابعة ( بأنهم ) بسبب أنهم ( لايصيبهم ظمأ ) شىء من العطش (ولا نصب) تعب (ولا مخمصة ) مجاعة ( فى سبيل الله ولايطئون موطئا ) ولايدوسون مكانا (يغيظ الكفار) يغضبهم وطؤه (ولا ينالون من عدوّ نيلا) كالقتل والأسر والنهب ( إلا كتب لهم به عمل صالح ) إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المتابعة ( إن الله لايضيع أجر المحسنين) على إحسانهم تنبيه على أن الجهاد إحسان لأنه تنكيل الكفار وصيانة للمسلمين عن استيلاء الكفار

وهذه الجملة تعليل لقوله « كتب » ( ولا ينفقون ) فى سبيل الله ( نفقة صغيرة ولا كبيرة ) أى تمرة فما دونها أو أكثر منها ( ولايقطعون واديا ) أى ولا يجاوزون فى سيرهم واديا ( إلا كتب لهم به ) إلا أثبت لهم ذلك ( ليجزيهم الله ) بذلك ( أحسن ما كانوا يعملون ) أى يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق مادونه به إكثارا لأجرهم وتوفيرا لثوابهم وإسعادا لهم .

واعلم أن هذه الآية قد حتمت على جميع الناس أن ينفروا للقتال ويتركوا الأعمال الأخرى ، فإذا جمعت الجموع ورفعت البنود واصطف العسكر للجهاد وجب على جميع المسلمين النفرمعهم ، وهذا أمر يوجب ضياع المدن ، لأن الناس إذا غزوا جميعا فمن لمدارسهم وطرقهم وزرعهم وتجاراتهم ؟ لذلك أعقبه بما يفيد أن أعمال الأمة يجب أن توزع على الأمة وعلى كل مايناسبه ، فالعلماء يعلمون ، والخطباء يعظون ، والحكماء يؤلفون ، والزراع يزرعون ، والسوّاس يفكرون ، وهكذا كما قدّمناه مرارا فى التفسير وكما أوضحته فى أواخر سورة البقرة .

وقد قلنا مرارا إن الجهاد أمر دائم ، فالناس إذا رجعوا من الغزو فالحياة كلها جهاد ، بل إن الجهاد بالحجة أبلغ من الجهاد بالسيف ، والتفقه فى الدين هو الجهاد الأكبر ، فإذا سمعت الله فى هذه الآيات يقول ولا يفعلون كذا وكذا إلا كتب لهم كذا وكذا ، فاعلم أنك الآن وأنت تقرأ هذا التفسير وفى غد وأنت تنظر فى أمر الأمة وتنظم شئونها وتربى أبناءها وتنصح جماعاتها ، فى عمل من هذه الأعمال بل هو الجهاد الأكبر ، وكيف لايكون أكبر وهو اللبّ ، ومن عجب أن الجمعيات المسيحية تعتمد فى نشر دينها على التعليم وفتح المدارس فكأنهم عملوا بما قاله علماؤنا من أن تعليم العلم هو الجهاد الأكبر وهو المقصود الأعظم .

انظر كيف يقول الله تعالى ( وما كان المؤمنون لينفرّوا كافة ) أى وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لايستقيم لهم أن يقعدوا جميعا فإن ذلك يخلّ بأمر المعاش ولتوزع الأعمال كما أوضحناه فى قوله تعالى « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ) فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل مصر أو قرية جماعة قليلة ( ليتفقهوا فى الدين ) ليتكلفوا ويتجشموا مشاق تحصيل الفقه ( ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم قصدهم من تحصيل الفقه أن يرشدوا قومهم ينذروهم ، لا أنهم يترفعون على الناس ويتبسطون فى البلاد ( لعلهم يحذرون ) إرادة أن يحذروا عما ينذرون ، وإنما خصّ الفقه بالذكر لأنه أهمّ .

وهناك وجه آخر وهو أن الآية من بقية أحكام الجهاد ، وذلك أن هذه الآيات لما فضح المنافقون فيها وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم السرايا نفر الناس كلهم للغزو ولم يتخلف أحد فنزلت هذه الآية وهى تقتضى أن ينقسم المسلمون قسمين : قسم يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم يسمع مايتجدّد من الوحى ، وقسم يسافر للجهاد ، فإذا رجع الغزاة أخبرت الطائفة القاعدة من رجعوا بما سمعوا من الحديث والقرآن والأحكام الشرعية ويصير معنى الآية ، فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد : أى وقعدت طائفة ليتفقهوا ، أى القاعدون فى الدين ولينذروا قومهم المجاهدين إذا رجعوا إليهم : أى إلى القاعدين ، لعلهم : أى لعلّ أولئك الراجعين يحذرون مخالفة أمر الله وهذا واضح وليس فى مرجع هذه الضمائر منافاة للفصاحة لأن المقام يفهم المقصود منها .

واعلم أن التفسيرين يرجعان لغرض واحد فالمقصود توزيع الأعمال بين الناس ، وقد كان أهمّ عمل بعد الغزو تلقى العلم عن النبى صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فالأمر جدير بالعناية ، فجميع العلوم واجبة وقراءتها وفهمها من فروض الكفايات سواء أكان ذلك العلم فقها أم حديثا أم تفسيرا أم هندسة أم طبا أم علم المعادن

أم الطبيعة أم الفلك أم صناعة الحرب أم بناء السفن أم علم الكهرباء أم علم المراقى ، كل ذلك لابدّ منه لقيام أمر الأمّة ، وهذه الآية واضحة ذكرت بعد الجهاد ليعرف المسلمون أمر دينهم .

فكل المسلمين يجب أن يكونوا فى جهاد ليلا ونهارا ، بل النوم نفسه جهاد لأنه به تقوى أجسامنا على العمل والطعام والشراب والرياضة البدنية ، كل ذلك متى قصدنا أنه مقوّم لصحتنا نافع فى قيامنا بأعمالنا كان جهادا ، فعلى المسلمين جميعا أن تكون أوقاتهم كلها عملا وعلما .

وحرام عليهم أن يتركوا فنا أو علما أو صناعة ، وكل ذلك جهاد ، فقد اتضح أن توجيه المدفع والبندقية والديناميت لصفوف العدوّ ليس هو كل الجهاد بل أفضل من هذا إقامة الحجج وإبانة السبل وإيضاح الحقائق ولقد سمى ذلك علماؤنا الجهاد الأكبر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » فتأمل وتعجب كيف نام العلماء فى سائر الأقطار عن مثل هذه الآيات ولم يوضحوها للعامّة والخاصة ولم يفهموا الأمّة أن الأعمال العلمية والعملية جهاد .

وإذا كان المسلمون فى القرون الأخيرة لايصدّقون إلا بكلام العلماء السابقين فأنا أقول لقد أقاموا الحجة وبيّنوا فى كتبهم ذلك فليس للمتأخرين عذر ، ولقد قال القدامى بفصيح العبارة : إن تعلم العلم والتفقه فى الدين هو الجهاد الأكبر ، وقالوا أيضا إنه فرض كفاية وهكذا بقية العلوم والصناعات .

فكيف نام الوعاظ والعلماء عن إيقاظ الأمّة وإشاعة هذه الأقوال وتنبيه النفوس وإثارة الحمية فى القلوب وإبلاغ الناس وعد الله وثوابه وتفهيمهم أن الحياة كلها جهاد حتى إذا مات الإنسان أحسّ براحة ونعمة بعد ما قاسى من المشاق . وإنى أطلب منك أيها الذكى القارئ لهذا الكتاب أن تدلّ الأمّة على هذه المقاصد توصى الناس بها ، وأقسم لك بالفجر والشمس والضحى « والعصر « إن الإنسان لفى خسر » لأنه يظن أنه يعيش كالحيوان يطلب أنثاه ويلد ثم يموت « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فارتقوا عن تلك الطبقات وعرفوا أن الإنسانية لها مطالب سامية وسموا فى الأعمال النظامية العامّة « وتواصوا بالحق » ولم يبالوا بما يصيبهم فى سبيله « وتواصوا بالصبر » على الأذى . فكن أنت من هؤلاء فالأمر عظيم . ثم قال ( يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ) اعلم أنه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين أمر أن يغزو الأقرب فالأقرب من الأمم فقاتل صلى الله عليه وسلم أوّلا قومه فسائر العرب فأهل الكتاب من بنى قريظة والنضير وخيبر وفدك ، وغزا الروم فى الشام ثم فتح الصحابة الشام فالعراق ثم سائر الأمصار ( وليجدوا فيكم غلظة ) شدّة وقوّة وشجاعة وصبرا على الجهاد ( واعلموا أن الله مع المتقين ) بالعون والنصر ثم ذكر المنافقين فقال ( وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ ) أى تصديقا ويقينا وقربة من الله : أى إذا أنزلت سورة من سور القرآن يقول بعض المنافقين لبعض ذلك القول استهزاء فأجابهم الله بأن الذين آمنوا تزيدهم هذه السورة المنزلة إيمانا لأن الآيات المتجددة تزيد المؤمن إيمانا ، وأما الكافر فإنه بها يزيد كفرا ؛ لأن عدد ما كفر به قد زاد كما زاد عدد ما آمن به المؤمن ، وهذا قوله تعالى ( فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ) تصديقا ( وهم يستبشرون ) يفرحون بنزول القرآن شيئا فشيئا ( وأما الذين فى قلوبهم مرض ) أى شك ونفاق (فزادتهم) سورة من القرآن (رجسا إلى رجسهم) شكا وكفرا إلى شكهم وكفرهم لأن الخبائث يتبع بعضها بعضا والشك يستتبع الشك .

والقلوب إذا خلت من الحكمة وابتليت بالجهالة وأحاط بها سوء الظنّ وأقلق مضاجعها جهل الحقائق والوساوس فأصبحت فى شك من الليل مظلم زادها مايرد عليها من المسائل جهالة وظلمة خلاك ليلها وأظلمت سبلها . وما مثل الشك والحيرة والاضطراب إلا كمثل المرض يزداد سوءا بتطاول الزمن ويتشعب ويقوى وينمو كما ينمو النبات والحيوان .

فهذا

فهذا تفسير قوله تعالى « فزادتهم رجسا إلى رجسهم » كما فى قوله فى سورة البقرة « فى قلوبهم مرض » أى شك ونفاق « فزادهم الله مرضا » على قاعدة النمو والتشعب واستفحال الداء وتفاقم الأمر .

فالشك والحيرة يكونان فى أول الأمر بذرا ثم ينبت فى القلب ثم يثمر كفرا عظيما فاستحكم ( وماتوا وهم كافرون ) ثم أبان ذلك وأوضحه بأنهم فى كل عام يغزون مع النبى صلى الله عليه وسلم ويعاينون مايظهر عليه من الآيات ، ومع ذلك لايتوبون لأن النفاق استحكم فى قلوبهم والمرض غشى على أفئدتهم فلا تصلح قلوبهم للإيمان وهذا كالدليل على ما قبله ، وهذا قوله تعالى (أولايرون أنهم) أى المنافقين (يفتنون) يبتلون ويختبرون بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون مايظهر عليـه من الآيات ( فى كل عام مرّة أومرّتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون ) لايتوبون من نفاقهم ولا يعتبرون ( وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ) تغامزا بالعيون إنكارا لها وسخرية ( هل يراكم من أحد ) إن قمتم من حضرة الرسول ، فإن لم يرهم أحد قاموا ، وإن رآهم أحد أقاموا ( ثم انصرفوا ) عن الإيمان بتلك السورة لما تقدّم من المرض الذى نما فأثمر هذا الإنكار فزادهم الإنزال كفرا ، وهذا كله إيضاح وتفصيل لزيادة المرض فى قلوبهم ثم دعا عليهم فقال ( صرف الله قلوبهم ) أى أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بأنهم) أى بسبب أنهم ( قوم لايفقهون ) أى لسوء فهمهم وعدم تدبرهم .

ثم أخذ يبين عدم تفقههم وبلادتهم فقال كيف تعرضون عن رسول منكم أيها العرب جاء لهدايتكم وسعادتكم وسعى لجمع كلمتكم وهو رحيم بالمؤمنين ، وأن من أعرض عن هديه فقد أعرض عن سعادة نفسه ومن أعرض عن سعادة نفسه فقد كره نفسه وجمع فى نفسه (خصلتين) يحبّ نفسه طبعا وهو قد كرهها بالبرهان فهو كاره محب فى آن واحد وهذا أعظم البلادة فأين الفقه ؟ فهذا هو تقرير « أنهم قوم لايفقهون » ولو فقهوا لأدركوا أن اجتماع كلمة العرب تخيف الأمم حولهم فيحصل لهم عزّ الدنيا الذى هم به مغرمون وهو كظل لعز الإيمان والدين ، فهو وإن جاء للإيمان بالله والتقوى أصالة فقد جاء بعز الدنيا تبعا كما ظهر حالا فى تلك الأيام ، وهذا قوله تعالى ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) من جنسكم عربى مثلكم ( عزيز عليه ماعنتم) أى شديد شاق عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه ، وذلك المكروه إنما يكون بترك الجهاد والأعمال النافعة والعلوم والفقه ، فلذلك طلب منكم الجهاد ( حريص عليكم ) على إيمانكم وإيصال الخير لكم وهدايتكم وصلاح شأنكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم ( رءوف رحيم ) والرأفة وإن كانت أشدّ من الرحمة قدّمت محافظة على الفاصلة ( فإن تولوا ) عن الإيمان بك ( فقل حسبى الله) فإنه يكفيك شرّهم ويعينك عليهم ثم استدل عليه بقوله ( لا إله إلا هو عليه توكلت ) فلا أرجو إلا هو ولا أخاف إلا منه ( وهو رب العرش العظيم ) الملك العظيم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن آخر ما نزل هاتان الآيتان » .

### لطيفة

قد كنت كتبت عدة مقالات خطابا للمسلمين فى الجرائد وفيها ما يناسب قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة » فهاهى ذه المقالة السابعة .

قد ثبت فى المقالة السابقة أن فرض الكفاية ظاهر واضح من قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الخ » ونحن بحمد الله ذاكرون فى هذا المقام كيف كانت درجات العلماء السابقين فى البحث وانحطاط العلماء المتأخرين فى ديار الإسلام ، وكيف قصرت عقول كثير منهم فهم لايعلمون .

أقول : لما وصلت إلى هذا المقام ؛ قال لى ذلك العالم صديق : إن علماء الإسلام لم ينكروا فرض الكفاية وعمموه فى كل شئ ، قلت لم ينكروه علما إجماليا ولكن عند العمل يسكتون عنه ، وقد كان المتقدمون مدققين باحثين مفكرين ، فأما الآخرون فإنهم ناموا وعكفوا على القليل من العلوم كأنهم لايعلمون ، قال فاذكر مسألة واحدة لتبين بها تقصير المتأخرين ، قلت ألم تقرأ مذهب الإمام الشافعى ؟ قال بلى ، قلت ألم تقرأ فى كلام الأئمة السابقين منهم وتبعهم اللاحقون فقد قالوا : إن الإنسان يجب عليه أن يغسل جزءا من العضد إذا غسل الذراع مع المرفق ،وعللوا ذلك بقولهم : مالايتم الواجب إلابه فهو واجب ، فإذا كان المتقدمون عنوا أشد العناية بالدين .

ولما سمعوا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » أقول : لما سمعوا ذلك قالوا علينا أن نحتاط ونغسل جزءا من الساق وراء الكعبين وجزءا من العضد وراء المرفقين فإنه لايتحقق تمام غسل المرفقين وغسل الكعبين إلا بغسل جزء مما فوقهما لأن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب .

هذه مسألة يعرفها صغار الطلبة فى الأزهر والمعاهد الدينية .

فياليت شعرى كيف يعرفون هذا ولا يفكرون فى أمر الجهاد ؟ ياسبحان الله ! أفليس الجهاد واجبا كما وجب الوضوء ؟ فلماذا لم يتابع المتأخرون هذه المباحث بعناية أشد ويقولوا إن الجهاد لايتم إلابالطرق الحديدية وبالزراعة التامة وبالصناعات وبالأمانات وبالأخلاق وبنظام البلاد حتى تضارع وتفوق أهل أوروبا ، فقال العالم الدينى صديق : إن هذه الآراء مذكورة فى ثنايا الكتب . فقلت وهل هى أقل وجوبا من وجوب الوضوء إن الوضوء فرض عين ، ووجوب هذه العلوم كلها فرض كفاية ، وفرض الكفاية إذا لم تقم به جماعة عذبت الأمة كلها فى الدنيا والآخرة ، وفرض العين يعذب عليه تاركه وحده .

إن فرض الكفاية هو القلعة والسياج الذى لا يكون فرض العين إلا بعد وجوده وإلا فكيف يصلى الناس أو يتوضئون أو يحجون أو يزكون أو يصومون وبلادهم محتلة وحكوماتهم محتلة ، ففروض الكفايات بتركها تخرب الأمم وتذل لغيرها ولا تستطيع القيام بالفرض العينى ، فإذا عرف كل طالب فى بلاد الإسلام أن غسل جزء من العضد وجزء من الساق وراء المرفقين ووراء الكعبين واجب . فلماذا لايعرف كل طالب أن العلوم التى فى أوروبا وفى أمريكا وفى اليابان وفى الصين يجب على المسلمين جميعا أن يعرف كل طائفة منهم قسما منها حتى يكون المسلمون كأهل أوروبا فى علومهم ومعارفهم ونظمهم .

ولعمرى إذا عرف كل طالب وجوب غسل جزء من العضد وجزء من الساق احتياطا لدينه فبالأولى يجب عليه قبل كل شئ أن يعرف أن البلاد لاحياة لها والدين لابقاء له إلابدراسة جميع العلوم وتعميم القراءة والكتابة فى بلاد الإسلام .

أقول : ولقد أنذرت أمة الإسلام بالقرآن وحذرتها وأوضحت لها طرق الواجبات ، وإنى أطالب كل مطلع على قولى هذا أن يفكر فيه وأن يقوم بنشره عند من يفقهون .

إن الأمة الإسلامية لما تركت هذه العلوم لم تبشر بالنصر ولم تكن مهدية إلى أقوم طريق ولم يكن كثير من هداتها رجالا من أولى الألباب .

يقول الله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » فاستماع القول واتباع أحسنه عام شامل لجميع العلوم والصناعات والأحوال . فقال إنك إذا عممت هذه الآية هدمت الدين وخالفت المتقدمين والمتأخرين وكأنك بهذا تقول للمسلمين إذا استحسنتم أمرا

فاتبعوه

فاتبعوه واتركوا دين الإسلام من الكتاب والسنة ، فأنت بفهمك هذا هدمت جميع الدين ولا يرضى بهذا المسلمون ، فقلت إن أحسن القول المذكور لايصادم الدين ولا يخالفه بل هو مايجب فيه لأن أحسن الأحوال هي التي يطلبها الدين ، فقال لو استحسن رجل أن لايصلى إذن يكون من أولى الألباب ، فقلت له ليس هذا قولا حسنا وإنما هو هوى وشهوة وغرض ، فكل صناعة أو زراعة أو علم وجدنا فيه خيرا في حياتنا فلنتخذ أسهل الطرق لحوزه لنستخلص أجمله ونقرأه ولنعمل به ، فقال وكيف السبيل إلى معرفة هذا القول الأحسن ؟ فقلت [ لتشكل لجنة في مكة وليرأسها عظيم من عظماء الإسلام ] فكما أن لدول أوروبا جمعية أمم فليكن لأمم الإسلام جمعية علم . وليكن في هذه الجماعة من كل طائفة من المسلمين : من الترك والهند والأفغان ومصر وسوريا الخ ، وليكن في هؤلاء متضلعون في علوم : فهذا في الطب ، وهذا في العلوم الرياضية ، وهذا في العلوم الطبيعية ، وهذا في التاريخ . وليكن فيهم عارفون بأهم اللغات . ثم ليدرسوا نظم الأمم الأوروبية والأمريكية ثم ليبحثوا عما عندهم من العلوم وليأخذوا منها أجمل مافيها ومن الصناعات ثم لتنشر في بلاد الإسلام .

فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « فبشر عباد الذين يستمعون القول » فإنهم استمعوا القول بلغات مختلفة «فيتبعون أحسنه» فلذلك وصفهم بأنه هداهم ووصفهم بأنهم أولو الألباب وإنما كانوا أولى ألباب لأنهم استخلصوا لب الأشياء .

ولا جرم أن اللب أحسن من القشر فإنه هو المقصود ، فاللب إذن أحسن من غيره فلذلك وصفهم بأنهم أولو الألباب ، فهؤلاء بشرهم الله بالنصر وبالجنة وبالنعمة في الدنيا والآخرة . فقال ذلك العالم صديق لم يبق إلا شيء واحد وهو هل عندك من دليل يؤيد أن المسلم يستخلص من كلام الكافرين ويتبع أحسن مايقولون إن المفسرين لم يقولوا ذلك ، فإن أوسع قول عندهم يرجع إلى أقوال علماء الإسلام ، فأما أخذ الأحسن من قول الفرنجة وعلماء اليابان فهذا لايقبله المسلمون ، قلت له : قال الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون» فقال فهل أهل الذكر أهل أوروبا ؟ فقلت له: الذكر في كل شيء بحسبه ؛ فعلم الفقه عن الفقهاء ، وعلم الحساب عن العلماء به ولو كانوا كافرين ، وعلم الزراعة عن العلماء بها وهكذا ، فقال لايزال المقال يحتاج إلى دليل ، قلت أفيكفيك عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال وماذا يكفيني إذن ؟ قلت ألم تعلم أنه صلى الله عليه وسلم والمدينة قد حاصرها الأحزاب من كفار مكة وغيرهم جاء له سلمان الفارسي وأخبره بأن الفرس كانوا يحفرون الخنادق حول مدنهم إذا هاجمهم العدو ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أمر بحفر الخندق ولم تكن العرب يوماما تعرف الخندق ولاحفره . فهذا القول قاله سلمان الفارسي وهو مسلم ولكنه نقله عن أمم مجوسية يعبدون النار ، فلو كان الأخذ عن أوروبا وأمريكا غير حسن ، ولو كان اتباع الأحسن مما يوافق ديننا غير مرغوب فيه لكان صلى الله عليه وسلم نهى سلمان الفارسي عن هذا وقال له إن هؤلاء كافرون فلا نسمع قولهم ولا نتبع طريقهم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع القول عن عباد النار وعن غيرهم فاتبع أحسنه ، فهناك طريقتان :

الأولى : أن يقف الرجال حول المدينة ويدافعوا عنها وهي طريقة العرب الجاهلة .

الثانية : أن يحفروا خنادق وهي طريقة عباد النار فاتبع الأخيرة وهي أحسن القول فبشره الله وبشر أصحابه ونصرهم وأعزهم وهداهم ، وهؤلاء هم أولوا الألباب .

أفلا يسع المسلمين ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أفما آن الأوان أن يتذكروا ويعتبروا ؟ لقد شددت أيها الأستاذ في قولك وسرني منك ذلك التشديد تريد بذلك أن لايبقى لأحد من المسلمين مطعن

فى القول ولاشبهة ، وإنى أحمد الله عز وجل أن وفق لهذه الرسالة وأرشد إلى مايجب على المسلمين فى مستقبل الأيام لحفظ كيانهم إذ لم يبق عذر لمعتذر ، وحرام وإثم عظيم على من قرأ هذه الآراء وأمثالها فلم يتناقش فيها ولم يفكر ولم ينشر ما يماثلها إن كان قادرا بين جماعة المسلمين فى الأمم الإسلامية لاسيما الأمم العربية والله هو الولىّ الحميد .

فهذه هى المقالة التى اخترتها من تلك المقالات فى هذا المقام ، وهناك مقالات نشرتها فى الجرائد أيضا بمناسبة ما جاء فى الأخبار أن دولة (هولانده) قد حتمت على المسلمين من رعاياها أن لايصلوا إلا برخصة فى بعض الأوقات ، وأيضا راقبت التعليم مراقبة شديدة فكتبت هذه المقالات الست الآتية فى جرائدنا المصرية قبل أن يلغوا هذا الأمر ، وبعد كتابتها جاءت الأخبار أنهم قد أرادوا محاسبة المسلمين ، وهذه المقالات توبيخ للمسلمين على ترك العلوم الذى أورث الذل المذكور ، وهذا المقام هو المناسب لهذه الآية التى أوجبت فروض الكفايات .

## الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين

### المقالة الأولى

فى شهر يونيو سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة الهولاندية قانونا فيه اثنا عشر فصلا تتضمن الشروط التى بمقتضاها يجوز مباشرة التعليم الإسلامى أهمها ما يأتى :

(١) من أراد أن يباشر التعليم فى العلوم الإسلامية فعليه أن يرفع ذلك إلى أمير البلد أو الوزير ويشرح له مقاصد التعليم .

(٢) وأن يتخذ دفترا مخصوصا للتلاميذ وشرح أحوالهم ولا يلقى عليهم شيئا إلا بعد مصادقة الحكومة عليه .

(٣) ورجال الحكومة لهم أن يتفقدوا ذلك فى كل وقت لينظروا هل قال لهم شيئ غير ما صادقت عليه الحكومة المذكورة .

(٤) ولرجال الحكومة أن يحضروا مجلس التعليم ويسألوا عما يشاءون من الأمور المتعلقة بمهمة التعليم، ولهم أن يدخلوا متى شاءوا المدارس أو الأقسام الداخلية ، وإذا رأت الحكومة أن التعليم مخالف لما تقدّم فلها أن توقف التعليم إلى مدّة سنتين .

(٥) تسجن الحكومة ثمانية أيام على الأكثر أو تغرّم ٢٥ روبية على الأكثر كل من ارتكب الأعمال الآتية :

(١) من يعلم العلوم الإسلامية بغير إذن من الحكومة .

(ب) من يقدّم للحكومة تعريفات كاذبة بشأن تعليمه .

(ح) من يتهاون فى إملاء الدفتر المذكور .

(٦) تسجن الحكومة شهرا على الأكثر أو تغرم ١٠٠ روبية كل من ارتكب الأعمال الآتية :

(١) من يلقى التعاليم فى مدة إيقاف الحكومة إياها .

(ب) من يرتكب الأعمال المتقدمة أعلاه .

هذا هو أهمّ ما فى هذا القانون لحصته .

هذه هى أحكام (هولانده) التى لاتبلغ عدّ الأصابع من الملايين فى أربعين مليونا من المسلمين ، بماذا تعاملهم ؟

تعاملهم ؟ لايصلون فى الصحراء إلا برخصة ، لايعلمون فروض الوضوء إلا إذا سمعها الحاكم العام وأقرها ، لاينطقون فى منازلهم وفى مزارعهم إلا بما يقرّ عليه الحاكم العام لأنه إذا حرم عليهم نفس الدين إلا بإذن فبالأحرى لايتمتعون بعلم ألبتة ما دام فيه حياة للجموع .

ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، جهالة المسلمين . أيها المسلمون ، اسمعوا : أتدرون لماذا حلّ بنا ماذكرناه ذلك لغرور الأمراء والعلماء فى الأعصر الغابرة ورؤساء الدين جميعا ، إن رؤساء الدين سواء أكانوا صوفية أم علماء فقه أم أمراء فى الأعصر الغابرة ، كانوا يفهمون المسلمين أن ليس عليهم سوى ما يقرءونه لهم من العلوم وما يدرسون لهم من مقدماتها خوفا من أن ينبغ الشبان ويظهر العلم فيمقتوا الجاهلين من رؤسائهم وظلت الحال على هذا المنوال آمادا وآمادا حتى أصبح ذلك خلقا راسخا وسجية ثابتة وعادة متبعة ، ومن خالف تلك العادة عدّ فاسقا أو مبتدعا الخ .

ولكم قام فى المسلمين قبلنا من دعا للإصلاح أى تعميم العلوم كالعلامة ابن رشد بالغرب فحكموا عليه بالإلحاد فمات شريدا وحيدا ونقل تلاميذه من اليهود علمه إلى أوروبا فأيقظها من رقدتها فارتقت وأخرجت من الأندلس المسلمين الذين كانوا لهم معلمين ، ولقد فعل قبل ذلك أهل الشرق بتعاليم الغزالى فأصبحوا بها جاهلين ، لم يكن هذان العالمان وأمثالهما مارقين من الدين ، كلا بل كانا يأمران بتعليم جميع العلوم الطبيعية والفلكية فأبى الرؤساء خيفة على رئاستهم فظلوا جاهلين .

ذلك تاريخ أسلافنا فى العصور المتأخرة ، جهل عميم ، وغرور كبير ، وذل مهين .

أيها المسلمون ، لم يكن الله ليعطيكم أرضه وأنتم بها جاهلون ، ولا لهبكم الأعضاء والحواس وأنتم عنها غافلون ، إن الله لايعطى إلا لمن يشكر النعمة ولا شكر لمن غفل عن استعمالها .

أيها المسلمون : أتظنون أن الله يلهم الأمم التعليم العام فى ( هولانده وسويسرا وأمريكا واليابان ) ثم يبقى المسلمون جامدين عاكفين على الغرور .

أيها المسلمون ليعم التعليم أبناءكم فى الحجاز ، فى العراق ، فى الشام ، فى مصر ، فى بلاد شمال أفريقيا ، فى بلاد جاوه .

ليعم التعلم . أقول هذا واجب شرعا وجوبا كوجوب أركان الصلاة ، وأقول فوق ذلك يجب تعلم الصناعات والعلوم التى أبرزها الله فى الأرض وألهمها للأمم ، أقول يجب ذلك وجوبا شرعيا .

سيقول قائل إن هذا الوجوب لم يرد فى كتاب ولا سنة ، فأقول : كلا لقد أجمع علماء المذاهب أن الصناعات واجبة وجوبا كفائيا ، ومعنى هذا أن كل صناعة يجب على المسلمين أن يقوم بها جماعة دون الباقين وتكون أعمالهم كافية للمسلمين ، فهذه الكتابة والقراءة إحدى الصناعات .

ولقد ظهر فى عصرنا الحاضر أن الأمم التى عمّ التعلم بها جميع الأفراد أرقى من غيرها ، وأما الأمم الجاهلة فهى ذليلة حقيرة غبية جامدة .

فإذن إن لم تعمّ القراءة والكتابة فى أمم الإسلام فهى فى خطر ، فإذن لا كفاية لأمم الإسلام إلا بتعميم القراءة والكتابة ، وهكذا يجب أن نخصص جماعة فى كل أمة كمصر لكل علم ولكل صناعة بحيث يكون أطباء الأسنان يكفون البلاد ، وأطباء العيون وأطباء الأجسام ، وهكذا الزراعة والتجارة والحدادة والكهرباء وما أشبه ذلك .

وبعبارة أخرى : يجب أن يجدّ المسلمون فى جميع الصناعات والعلوم وإلا فالإثم عام على كل فرد ، وإنى أرفع صوتى لأمة الإسلام مبينا لهم الحقيقة ، فلا فرق بين التبحر فى علم الفقه وعلم الطب وعلم الهندسة

وجميع العلوم وجميع الصناعات ، فإن لم يقم فى الأمة من يغنيها عن الأجانب فيها فالأمة كلها مذنبة ، ففى ترك أىّ صناعة يكون العقاب على المجموع ، أما من ترك الصلاة فالعقاب عليــــه وحده او على من رضى بتركه ، هذا وسأوضح هذا المقام فى المقال التالى .

المقالة الثانية

خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين

ومن هم تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء الإسلام وعظمائه

إن الله أوجب علينا النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين ، إننا معاشر المسلمين مقصرون جدًّا فى أمور ديننا ، إن العاكف على علم واحد أو عبادة واحدة أو ورد واحد أو ما أشبه ذلك وظنّ أن هذا وحده فيه رضا الله فهو مغرور جهول .

إن الله أنعم عليكم بأممكم وبأرضكم ، وخلقكم وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، فهل أعطاكم هذه المواهب لتنيموها ؟ أو منحكم هذه الأرض لتعطلوها ؟ كلا . ألم يقل الله « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ألم يقل « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » فهل خص الله هذه النعم بأمم غيرنا ؟ أم نحن داخلون فى الخطاب ؟ فوالله عار على أمة الإسلام أن تكون أوّل الجاهلين بهذا الدين .

ربما كان يعتقد بعض الجهل إذا كان المتقدّمون ساكتين عن هذا الموضوع متغفلين له ولكنهم أوجبوا جميع الصناعات ، وأقلّ التفاتة تعرّفنا قيمة الصناعات والعلوم اليوم .

فياليت شعرى من هذا الذى أفهم المسلمين أن علوم الدين خاصة بالفقه ومقدّماته ؟ من ذا الذى قال به ؟ إن من يقول إن الفقه وحده هو الواجب وبقية العلوم غير واجبة غير موجود فى أمة الإسلام إلا إذا كان لاقيمة لقوله ، أيجمل فى دين الإسلام أن يكون المسلمون وحدهم هم المتقاعدون عن العلم ؟ أيجوز هذا ؟ أين دعاة الإصلاح ؟ فوالله ليسألنّ الله كل عالم بقولى هذا ولا يرفع صوته ، وليسألنّ الله كل من عرفه ، نعم إن كثيرا من الناس عن هذا غافلون ، وغفلتهم ناشئة من العادة والتقليد وإلا فالعلوم كلها والصناعات واجبة وجوبا كفائيا .

اللهم لا كفاية إلا بتعميم القراءة والكتابة جميع أفراد الأمة بقدر الإمكان ، اللهم لا كفاية إلا بنشر جميع العلوم من رياضية وطبيعية وفلكية وسياسية وصناعية ، اللهم إن هــذا صار معروفا عند الخاص والعام .

فياعجبا لأمة الإسلام ! تلك الأمة التى تخطت البحر الأبيض إلى عدوة الأندلس وعلت أوروبا ورجعت بخفى حنين خائبة إذ قدر لها قادة جهلاء فى تلك القرون وعلماء غافلون فأقعدوهم وأناموهم حتى ذهبوا طحين الرحى ممزقى الأشلاء ، وهم خامدون ، أيجمل هذا أيها المسلمون .

أيها العلماء . أيها القادة لاعطر بعد عرس ، ولا مخبأ بعد بوس ، قد حمّ الأمر واقترب الوعد الحقّ والأبصار شاخصة ، وهل يجمل ذلكم بكم أيها المتعلمون ؟ إنى أذكر علماء الإسلام بقول الله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » فهل لكم أن تبينوا للناس أن العلوم كلها واجبة وأن أرض الله يجب أن يعمرها عباده ويستخرجوا منافعها وإلا سلبها منهم وهم صاغرون .

أيها الأمراء ، أيها العلماء . أما آن لكم أن تتذكروا ؟ أو مارأيتم كيف أذل الله الأمم الجاهلة وحفظ العالمة .

يا أمراء

يا أسماء العرب ، يا أبناء الأبطال . ألا أذكركم بمجدكم القديم ؟ انظروا فى التاريخ تجدوه ناطقا بأن آباءكم هم الذين قلبوا الكرة الأرضية فامتلأت علما بعد أن كانوا بالجهل قانعين وقد خلعنا عليهم ملابسنا العلمية وأصبحنا منها مجرّدين .

لعمري لئن اختلف الشيعى والسنى والوهابى فى أمور فرعية فهل يختلفون فى التوحيد ؟ وهل يختلفون فى العلوم ؟ وهل يختلفون فى وجوب مايلزم الأمة من العلوم والصناعات ؟.

لحى الله الجهالة الخرقاء ، لحى الله الجهالة التى أسدلت الحجاب على وجوه العلم ومعاهده الباسمات وحجبت ذلك الشعاع الباهر والحسن الناضر والجمال الساحر عن عيون العاقلين ، لحى الله أياما قضت على بناة المجد أن يرزحوا تحت أثقال الرؤساء الجاهلين .

أما والله لئن لم ينته الأمراء عن التقاعد وأهل الفطنة عن التغافل لتنزلنّ الصواعق على الغافلين ولتقطعنّ رءوس أينعت إذ حان قطوفها وليحقق الله وعيده فى المسلمين إذ قال « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » .

من الآن فصاعدا يجب أن يكون قوّاد هذه الأمة وأفرادها من المطلعين على سائر العلوم ومن المفكرين؛ فالرئيس الصوفى أو الدينى أو الأمير إذا لم يكن ملما بالعلوم فإن أتباعه غالبا على شاكلته « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوىّ عزيز » اه .

## المصلحون فى الإسلام اليوم
### المقالة الثالثة

أكثر المصلحين من الأمم الإسلامية اليوم إنما يوجهون وجوههم إلى مقصد واحد وهو خلوص العقائد من الزيغ وطهارتها من الضلال ، وتراهم يقصرون على ذلك هممهم ويصرفون إليه وكدهم قرونا وقرونا .

وما مثلهم فى ذلك إلا كمثل من أخذ يقول لابنه [ إياك والسرقة والكذب والفسوق ثم عطله من جميع المكاسب ] .

واعلم أن أحوال العقول الإنسانية ثلاث : إما أن تكون ملوثة بالعقائد الزائفة كأرض الزراعة السبخة لاتنبت إلا ما لانفع فيه من النبات . وإما أن تكون طاهرة خالصة من الزيغ ولكنها معطلة كأرض صالحة الزراعة وأهلها لايزرعون . وإما أن تكون غنية بالعلوم مزدانة بالحكمة كأرض تنبت كل نبات وفاكهة ونخل ورمان .

فإذا دأب المصلحون فى الإسلام على قولهم : دعوا الزيغ والإلحاد وطهروا العقائد ثم تركوا العقول خالية من العلم ، بعيدة عن الحكمة ، غافلة عما أبدعه الله فى الأرض والسموات ، غير عالمة بما أحاط بها فى الشرق والغرب من الأحوال ضرب بينها وبين العلم بسور عظيم ، فإنما مثلهم كمثل الفلاح الذى نق أرضه وأصلحها وجعلها أهلا للزراعة ثم أخذ يفتخر بما صنع فهو لامحالة حاصد بعد ذلك زرع الندامة والخزى والتقهقر المبين ، هكذا دعاة الإسلام المصلحون إذا كان هذا دأبهم فليعلموا أن الأمر يخرج من أيديهم ، وليعلموا أن وقت حساب الأمم قد آن وأن الله سبحانه قد أنزل القصاص فى الارض ليطهرها من المقصرين .

أيها الرؤساء والعلماء ورجال الصوفية اتقوا ربكم وحرضوا الأمة على التعليم واعلموا أن عزّ الإنسان بعز أمته وذله بذلها ، فكم من عقول دفنت ، وكم من مواهب ذهبت ضحية الجهالة ، وكم من قوى قيمة عظيمة أبدعها الله فى أبناء الفلاحين فى القرى والكفور ثم طاحت وضاعت وسال دمها على مذبح الجهالة والغفلة والتقصير .

الله قسم القوى والقدر على عدد الناس ولم يذر قوة صناعية أو قوة علمية إلا خلق لها فى كل أمة من هم أهل للبراعة فيها ، وهل يستخرج تلك الكنوز إلا التعليم ؟

أيها المسلمون ، أيها الأمراء فى الإسلام ، أيها القادة أقول لكم قولا حقا : مادام المسلمون يحتاجون إلى إبرة أو مفتاح أو مدفع أو محراث أو أىّ شىء من الخارج وهم مقصرون فى صنعه فهم معذّبون يوم القيامة جميعا ، والعذاب اليوم ظاهر فى الدنيا فإن إذلال الأمم إذا نزل بها عمّ سائر أفرادها « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » .

أيها المصلحون فى الإسلام : بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، ولم يبق فى القوس منزع ، وحمّ الأمر ، فماذا أنتم فاعلون ؟ أيسركم أن يكون فريق من المسلمين كالأمة العربية متجاورة البلاد متحدة اللغة والدين لافاصل بينها إلا الحدود الطبيعية تسرى متنافرة جاهلة لايعرف المراكشى منها السورى ؟ ولا العراقى منها المصرى ؟ بل هم مشتتو المشارب ، مقطعو الأوصال ، فلماذا هذا ؟ أقول : إنهم لم يتعلموا ، والمتعلمون منهم تعليمهم غالبا أبتر وناقص ، وإلا فبالله خبرونى كيف يكون ممالك تعدّ بالعشرات تدخل فى مملكة واحدة وهى الممالك المتحدة بأمريكا وبينهم من سائر الأجناس والأمم والأديان ؟ فيهم اليهودى والمسيحى والمسلم ، فيهم الألمانى والسورى والهندى واليابانى ، فيهم من كل أمة وهم متحدون ، أما أبناء الإسلام المتجاورون فلجهلهم ولقلة علمهم لم يعرف بعضهم بعضا ، ألا ساء مايفعل الشرقيون ، اجتمعت الممالك المتحدة بالعلم ، وافترق المسلمون بالجهل سواء أكانوا عربا أم غير عرب .

أيها المسلمون ، عمموا التعليم واجعلوه على أساس متين ؛ فليكن التعليم الأوّلى عاما ، ولتكن جماعات تختص بكل علم أو صناعة وبغير ذلك لاحياة ولا شرف ولا حرية ولا سعادة ، ألم تقرءوا قول الله تعالى ؟ « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم » فانظروا كيف قرن الله العلم والقلم بخلق الإنسان فى أوّل سورة نزلت ، انظروا كيف يقول « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ » فقد ذكر العلم ولم يذكر العلوم ليكون التعليم على حسب مايقتضيه الزمان .

إن الله يسأل العلماء والرؤساء والأغنياء فى مصر وفى سوريا وفى العراق وفى أفغانستان والترك عن مجموع الأمة ، والله المستعان .

الإسلام والاستعمار . المقالة الرابعة

تهافت الآراء فى بلاد الشرق ولا سيما فى بعض البلاد الإسلامية

إن العلم الناقص يؤدّى إلى الاختلال والخبال ويضيع الأمم ويوردها إلى دار البوار .

إن المتعلم الناقص أضرّ على الأمة من الجهلاء الأغبياء ؛ فالمتعلم الدينى والمتعلم المدرسى كلاهما إذا كان ناقص العلم ألدّ أعدائها وأنوى مخربها فإن أعينهم فى غطاء ، فهم « الأخسرون أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » يسيئون حيث يحسنون ، ويهدمون حيث يبنون ، ويخرقون حيث يرقعون ، ويقطعون حيث يصلون ، ألا أحدّثك حديثين : حديثا اتفق لى مع قاض عظيم ، ومؤلف كبير قد مضى إلى ربه وذكره مشهور فى أقطارنا المصرية وغيرها وهو المتعلم المدرسى بالعلم المصرى ، ثم أتبعه بحديث الإمام الغزالى عن علماء الدين فى زمانه أيام عصر الدولة العباسية فى الأيام الخالية والقرون الماضية لتعلم إلى أىّ حدّ يصل الجهل والضلال ، وإلى أى مدى يصل الغرور بالجهلاء .

حديثي مع ذلك القاضي الشهير

منذ بضع عشرة سنة عهد إليّ من قبل وزير المعارف أن أطالع كتاب [الرسالة القشيرية] في علم التصوّف مع عظيم من عظماء الفرنجة ليترجمه إلى اللغة الفرنسية ، والذي أمره بترجمة ذلك الكتاب أستاذه الألماني المسمى ( ماركس ) فلما أخذنا في فهم تلك الرسالة التي ألفها الأستاذ القشيري الصوفي سنة ٣٥٠ هـ تقريبا وجعلها رسالة منه إلى الصوفية في بلاد الإسلام ، قال لي ذلك الإفرنجي يوما : إني أودّ أن أرى فلانا القاضي لشهرة اسمه في بلادنا فأرسلت إليه فحضر له وكلمه بالفرنسية ، ثم إن ذلك الإفرنجي أخذ في بعض أعماله فسألني ذلك القاضي قائلا : أنت من دار العلوم ؟ فقلت نعم ! فقال : هي مدرسة حسنة وقد خرج منها عظماء ، فقلت نعم ! ولقد أفادت البلاد بالمدرسين والمفتشين ولكن بقي شيء ، قال : وما هو ؟ قلت إن أستاذنا المرحوم على مبارك باشا ، قال لنا : إنكم انتخبتم من الأزهر والأزهريون إذا قرءوا علوم أوروبا وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الإسلام وأينعت وأخذت زخرفها وازّينت ، وما دام العلم في ناحية والدين في ناحية فإن بلاد الإسلام تبقى وحوشا يبابا ، وقاعا صفصفا ، وصعيدا جرزا تذروه الرياح ، ذلك لأن هذه الأمة تعتقد بدينها وتتمسك به ، وهذا التمسك يوجب الضدّين ويحدث النقيضين ، فإن علم الدين إن كان جاهلا فهم له تابعون ، وإن ارتقى في الدين كانوا عالمين ؟ فالأمة الإسلامية اليوم لقلة العلم بهذه الدنيا ونظامها وجهل القائمين بإرشادها واقعة في براثن الاستعمار والإذلال ، فإذا قام فريق من أهل العلم الديني وكانوا على نور من ربهم في العلوم العصرية اتبعتهم الأمة وأسرعوا إلى الرقيّ أكثر من جميع الأمم ، لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر في العلوم وتحصيلها عظيم ، فقال القاضي : وماذا تقصد بذلك ؟ قلت : أقصد أننا معاشر المتخرجين من مدرسة دار العلوم قد وضعت في أعناقنا هذه الأمانة وهي تطبيق العلم على الدين كما قاله أستاذنا المرحوم على مبارك باشا ، وهذا فرض كفاية علينا لأننا قرأنا الدين وقرأنا قسطا من العلوم المعروفة اليوم ، فقال : (وكنت أنا أعلم أنه ينكر جميع الديانات) أما أنا فإني أقول : العلم شيء والدين شيء آخر ، فقلت له : لكن ذلك ؟ فسر أنت بعلمك وعقلك ! ولأسر أنا بديني ، فعلم أنت الناس الأمور المعقولة ، وأنا لقلة عقلي أعلمهم أشياء ليست من الدين وأدخلها عليهم وأنا الغالب ، لأن الناس يتبعوني وأقلهم هم الذين يعقلون ، فأنا يتبعني ٩ وأنت يتبعك واحد ، ولا تزال الأمّة في ارتباك إلى ماشاء الله ، فقال : إن الخرافات اللاصقة بالعقول تزيلها العلوم الرياضية والطبيعية ، فقلت نعم ! ولكني أقول إني لا أمكنهم من قراءتها وأقول لهم هذا كفر فيتبعني الناس ويتركونك ، فسر بعقلك ولأسر بما عندي وأنا الغالب ، فقال : وما الذي في القرآن ؟ أليس الذي فيه ( الجوّ جميل ) يريد بذلك أن الذي في القرآن إنما هو التشويق للعلوم ؟ فقلت نعم ! وإذا ظهرت أمة وأريد رقيها وقيل لها أيتها الأمة إن ربك يقول لك ( الجوّ جميل ) فهذه الجملة يكفي أن تقود الأمة متى كان هناك قوّاد ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : هذه الجملة تجعل كأنها عصا يساق بها الناس إلى العلم ويجب أن تصقل وتوضع بين السماء والأرض ويقال انظروا جمال الجوّ بجمال النجوم وجمال الزهر ، ومن هنا يدور البحث وتقرأ كل العلوم ، لأن العلوم كلها ترجع إلى ما فوق الجوّ وما تحت الجوّ ، ثم قلت : من العجب العجيب أن أرباب الفكر في الإسلام غاب عنهم أن أوروبا لما أرادوا الارتقاء لم تقل نترك ديننا ، فأما نحن فإننا نريد تركه . قام لوثر المصلح المعظم فأنعش العقول ، والإسلام لايحتاج إلا إلى نظرة بسيطة وقراءة العلوم لاغير .

ياعجبا ! لقد قال علماء الاجتماع إن الإصلاح الديني أسرع لرقيّ الأمة من الإصلاح السياسي ، فكيف غابت هذه عن عقول الشرقيين ؟

قام المصلحون فى أوروبا منذ ثلاثة قرون وهم مصلحون دينيون ولم يقولوا نترك الدين ، فيجىء الشرق ويقول : كلا ! أنا لا أنظر فى الدين بل أتركه ، فنقول له: هلا فكرت فيما يطلب من العلوم ؟ وهل أوروبا تركت دينها إلى الآن ؟

فلما سمع منى ذلك قال : « الحق أحق أن يتبع » أنا جادلت الشيخ فلان ، وأشار إلى عظيم دينى متوفى يحترمه أكثر المسلمين فما أقنعنى ، ولكنى الآن مقتنع ، كل ذلك وذلك العالم الإفرنجى مشغول بعمله فلما رجع ودّعه القاضى المصرى وانصرف ، فقال العالم الإفرنجى هذا مغرور ، فقلت له: لماذا ؟ قال : ألم ترنا رفعنا أصواتنا ونحن نتكلم ؟ قلت بلى ! قال لقد سألنى : ما الذى تدرس لى أنت ؟ قلت : [ الرسالة القشيرية ] فاستهزأ بعلوم الإسلام فحقرته وقلت له : قد أخطأت وعرفت أن الغرور فى بلادكم عظيم ، ويظهر أن العلم عند هؤلاء قليل ، ولقلة العلم يدعون أنهم تركوا الديانات احتقاراً لها ، ولكنهم هم أنفسهم لا هم فلاسفة ولا هم مفكرون ، انتهى حديث القاضى والإفرنجى .

والآن أذكر آراء الإمام الغزالى منذ نحو ٩٠٠ سنة .

الإسلام والاستعمار ، المقالة الخامسة

ذكرت فى المقالة السالفة حديثى مع قاض عظيم مصرى مضى إلى ربه لتعرف مقدار آراء بعض من لهم الزعامة فى بلادنا المصرية آنفا .

والآن أنقل لك رأى الإمام الغزالى فى القرون الأولى ، والدولة الإسلامية لم يكن لها نظير فى الشرق والغرب ، ولم تخلق إذ ذاك انكلترا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها ، أى لم تظهر تلك الدول العظيمة بل كانوا فى غيابات الجهالة يرتعون ، وفى حندس الظلام يهيمون ، وفى قيافى الهمجية يرتعون ، ولم يكن للأمم الإسلامية إذ ذاك من يعلوها فى العلم والحكمة .

فانظر إلى ما يقوله الإمام الغزالى عن أهل زمانه من رجال الدين الذين انكبوا على علم الفقه جهالة وغباوة وتركوا بقية العلوم التى لا تأتى بالمال ووبخهم وذمّهم وحقر شأنهم وجعلهم طلاب مال لا طلاب دين .

فإذا كان ذلك فى زمان عزّ الإسلام فما بالك بهذا الزمان الذى أصبحت أقلّ دولة فى أوربا أقوى من كثير من الأمم الإسلامية ، فلأنقل لك ما قاله ذلك الإمام مما كتبته فى سورة البقرة وأتبعه بما يناسبه فأقول :

قال الإمام الغزالى فى الإحياء : ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التعريفات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهاراً فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهمّ فى الدين ، وإذا روجع فيه قال أشغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها إلا طبيب واحد من أهل الذمة ، ثم لا ترى أحداً يشتغل به من علماء الدين ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعرى ! كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء

والحكومة

والحكومة والتقدّم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات ! قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فالله المستعان وإليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان انتهى المقصود منه .

وأنا أقول : أيها الإمام ، قد مضى نحو ٩٠٠ سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون جاهلون ومصر التى ظهرت فى طليعة البلاد الإسلامية لاتزال كالعهد الذى تركت الإسلام عليه .

فيها معاهد دينية ولا تزال تلك المعاهد فى التلبيس وتبعهم رجال المدارس الذين لايعلمو لهم إلا مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعى .

كل هذا للظهور وتولى الحكم والمحاماة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهى منبوذة إلا قليلا ، فليس عندنا مبرزون فيها إلا قليلا ، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة وسبقونا فى الاقتصاد والسياسة .

ثم إن المدارس عندنا تعليمها لفظى ظاهرى لايعشق الشبان فى العلوم والبحث فهو تعليم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة فى هاوية الاحتلال الأجنبى .

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلبا تاما فى المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل مارغب فى حب الأمة ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية وعلم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وإنما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور فى قوله تعالى « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ولعلك تقول : كيف تذم التعليم فى مصر وفيها نبوغ ظاهر لذى عينين ؟ فأجيبك بمقال سيأتى فيما يلى تحت هذا العنوان .

هل فى الإسلام نابغون ؟

المقالة السادسة

لقد سألتنى قائلا فى المقال السابق : كيف تذم التعليم فى مصر وفى بلاد الإسلام وعندنا نابغون ؟

أقول : إن هؤلاء النابغين فى الأزهر والمدارس (ولعلّ الإصلاح الحديث فى المعارف وفى الأزهر ينمو) إنما جاء نبوغهم من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فإنه ناقص جدّا ، وأهمّ من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما تحتاج إليه الأمة ، الإمام الغزالى يقول لنا فى المقال السابق : إنّ البلاد مشحونة بأهل الفقه وهى خالية من الأطباء وينددّ على علماء الدين ويقول : قد ذهب الدين وضاع ، لماذا ضاع ؟ لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمّة ، وأنا أقول : ياضياع المسلمين اليوم ، ياضيعة الإسلام ، أيها الإمام : المسلمون لايزالون كما تركتهم ؟ فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملئون بلاد الإسلام وكذلك المحامون والقضاة فى مصر ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء طبقات الأرض وعلماء الأجنة وعلماء الميكروب وعلماء الحشرات وعلماء السياسات وهكذا فأوروبا هى التى أنجبتهم فى بلادها وليسوا عندنا إلا قليلا ، وأنت أيها الإمام تقول إن الدين ضاع ، وأنا أقول إن كثيرا من أهل بلادى يجهلون أن هذا من الدين ولا يعترفون بأن ديننا يحرّم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ، ولا يتصوّر أكثرهم أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذى به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك إنه قد أخبرنى عالم صينى أن علماء الإسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية

مخالفة القرآن فتأخروا عن أهل الصين التابعين للدين الوثنى فأصبح الإسلام فى زماننا مانعاً من العلم فى نظرهم والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليوناً .

ولقد جاء من الهند أمير بالله جمال الدين من مدينة مدراس من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ ، وقد أفتى عليها شيخ الإسلام فى بلاد الترك قائلاً : إن هـذه العلوم لابأس بها ، فقلت له : هذا تساهل من شيخ الإسلام ، بل العلوم كلها فروض كفايات والمسلمون جميعاً مطالبون بتلك الواجبات ، فكل صنعة وكل علم تلزم المسلمين جميعاً ، فعليهم أن يكلفوا طوائف منهم بإتقان تلك العلوم والصناعات المختلفة ، ثم قال لى : إن جميع علماء بلدى حرّموا هذه العلوم . أقول وقد أخبرنى صديق لى من علماء تونس قائلاً : إن بعض العلماء فى بلادهم يقولون إنه لايجب شئ غير علم الفقه ، أما النظر للعالم العلوى والسفلى فيكفى أن ينظر الإنسان بعينيه ، فالإسلام اليوم أضعف منه فى كل زمان .

وقد جاء فى الجرائد منذ أيام ( يوليه سنة ١٩٢٧ ) أن ملك الأفغان أقفل مدارس البنات لأن علماء الدين حرّموا تعليمهنّ حتى استفتى علماء الأزهر وعلماء الهند فأفتوه بتعليمهنّ ففتح المدارس كرة أخرى ، كل ذلك لقصور التعليم الدينى فى بلاد الإسلام وعكوفهم على علم خاص ومقدّماته .

وإنى أطالب كل من وقع هذا فى يديه [ هذا فى كتاب تفسير للمؤلف : نداء العقلاء فى الإسلام ] أن يبحث فى هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرفعها لولاة الأمور ، فإنه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصاً بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعاً لشجرة واحدة هى الحياة الإنسانية ، كل ماعندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة ، فليقلب التعليم فى المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك فى المدارس المصرية ، ولتكن للأمة حال جديدة فهذه الحال لايجوز إبقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة ، فالإسلام وأمة الإسلام اليوم فى خطر ولا نجاة منه إلا بما ذكرنا واتباع قوله تعالى « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » .

## الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية فى البلاد الإسلامية

إذا تقرّر أن فروض الكفايات تشمل العلوم والصناعات وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علم النحو والصرف والمعانى وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه ، وكذا الحساب والهندسة والنظر فى الكون .

أفلا ينبغى أن ينظر فى أمر الشهادة النهائية ويقال إن هذه العلوم كلها فروض كفايات لافرق بين مايسمى علوم الدين وما نسميه علوم الدنيا إذ ظهر أن هذه التسمية غلط وخطأ من المسلمين .

فإذا نظر رجال الحلّ والعقد فى المجالس النيابية والوزراء والأمراء فى أمر ماتحتاج إليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرّروا أن يكون فى تلك المعاهد شهادات عالية أيضاً للهندسة وأخرى للطبّ والصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وأن كثرة المتعلمين فى البلاد من نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا إذا حصل ذلك فإنى أراه موافقاً للدين بل أقول فوق ذلك إن مخالفة هذا تنافى الدين كما قرّر الإمام الغزالى من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء فى زمانه .

الله الله عباد الله ! اتقوا الله فى دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوّع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقلّ ممن أخذها بالفقه لأنهما درسا معاً هذا الفنّ ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمرّ بحسب استعداده فى الفقه ، وكذا الهندسة وأمثالها ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم فى الامتحان التحريرى بالأكثر .

ثم

ثم ينظر أهل الحل والعقد والأمراء فى مختلف البلدان فى الأوقاف الإسلامية وتنظم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هى الآن ، ويحرم الإنفاق على العاطلين القادرين على العمل بل توجه لما هو أصلح لرقى الأمة واستخراج ما كمن من القوى والقدر فى نفوس الناشئين .

تبيان معنى التفقه فى الدين

ولما أتممت هنا كتابة هذه المقالات فى جريدة ( كوكب الشرق ) على الملأ من علماء الإسلام واطلع عليها الأخ المتقدم ذكره قال حسن ما كتبت : ولكن هل هذه الآية تحتاج إلى هذه المقالات كلها ؟ يقول الله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ثم أمرهم أن يكونوا فريقين : فريق للجهاد ، وفريق التفقه فى الدين ، فهل التفقه فى الدين هو هذا الذى ذكرته كله ؟ فقلت : اعلم أن تقسيم الأعمال على الناس مأخوذ من هذه الآية بطريق الاستنتاج والقياس وإن أبيت إلا أن يكون بطريق النص فكر فى معنى التفقه فى الدين ، قال : علم الفقه معروف ، فقلت : إن القرآن نزل على نبينا العربى صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين ، فأما هذا المعنى الذى ذكرته أنت فهو اصطلاحى ، والاصطلاحى غير اللغوى ؟ فالقرآن لم ينزل على قلوب علماء الفقه الاصطلاحى بل أنزل قبل وجودهم فمستحيل أن يكون الفقه المعروف هو المقصود ، فقال : مامعنى الفقه فى اللغة بالتحديد ؟ فقلت : قال فى القاموس المحيط : الفقه بالكسر العلم بالشئ والفهم له والفطنة ، ثم قال : وفقهه كعلمه كتفقهه وفقهه تفقيها : علمه كأفقهه وفاقهه : باحثه فى العلم ؟ اهـ .

فإذن الفقه هو نفس العلم وقد يلاحظ فيه الفطنة ، فيكون من فقه الشئ أدق وأوفى علما من غيره ، فقوله تعالى « ليتفقهوا فى الدين » إما المراد العلم به وإما المراد العلم الأتم مع الفطنة ، وهذا المعنى ليس خاصا بالأحكام الشرعية ، فالعلم الذى يورث خشية الله والخوف منه فقه ، والذى به الوعظ فقه ، وتدبر القرآن فقه وعدّ نعم الله فقه ، والعلم الذى به الورع والعفة فقه ، والعلم بالله وآياته وأعماله فى عباده فقه ، لأن العلم والفقه بمعنى واحد كما عرفت ، قال : إذن كل ماعليه المسلمون خطأ وأنت بهذا تخطئ أمة بتمامها وهذا لايقرك عليه أحد ، فقلت : لم أقل هذا بل لايخطر لجاهل ، قال : ألم تعلم أن علم الفقه خاص بهذا الذى دونوه ولم يقل منهم أحد بما ذكرته أنت ؟ فقلت : هذا كما قلته لك اصطلاح والاصطلاح غير اللغة ، ولا مشاحة فى الاصطلاح وإلا فالآية تعطى هذه المعانى التى ذكرتها لك ، فقال : لئن تخلصت بهذا القول فلن تفر مما بعده . قلت : وما هو ؟ قال : وهل جميع العلماء السابقين كانوا فى غفلة فلم يقولوا ماقلته أنت ؟ إن هذا لعجب عجاب ! فقلت : أما لست مخترعا لهذه المعانى بل هى نفس ما قاله الإمام الغزالى فى الإحياء ، فقال : اذكر ما قاله بالنص ، فقلت : قال فى الربع الأول مانصه :

بيان مابدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة .

فهذه أسماء محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم .

اللفظ الأول : الفقه

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لابالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه .

ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول، مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله عز وجل « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وهى الآية التى نحن بصدد الكلام عليها ، ثم قال : وما يحصل به الإنذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له ، وقال تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » وأراد به معانى الإيمان دون الفتاوى .

ولعمرى إن الفقه والفهم فى اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما نتكلم فى عادة الاستعمال به قديما وحديثا ، قال تعالى « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه .

فانظر أكان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتعريفات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم ، وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكماء فقهاء » للذين وفدوا عليه ، وسئل سعد بن إبراهيم الزهرى رحمه الله : أىّ أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى ، فكأنه أشار إلى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية ، وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ! قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب ، قال فالتفت إلىّ زيد الرقاشى وزياد النميرى وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا وإنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعدّ نعم الله علينا تفقها » فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقها ، قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » وروى أيضا موقوفا على أبى الدرداء رضى الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا » وقد سأل فرقد السبخى الحسن عن شىء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ؟ فقال الحسن رحمه الله : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع ، الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ولم يقل فى جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك فى القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذى هو اسم محمود فى الشرع ، انتهى ما قاله الإمام الغزالى .

فأنهم هذا المعنى أن الفقه يشمل أمرين : أحدهما تعداد نعم الله وهى العلوم كلها التى تدرس فى مدارس أهل الأرض اليوم ، وعلوم تهذيب النفس الذى سماه علم الباطن وبعبارة أخرى . علم النفس وعلم الآفاق ، هذا هو ما يطلق عليه الفقه .

وفى هذا التفسير الاهتمام أكثر بعلم الآفاق الذى هو تعداد النعم وبه خشية الله تعالى كما قال تعالى « إنما

يخشى

يخشى الله من عباده العلماء » بعد ذكر ألوان الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام ، فقال صاحبي : قد ذكرت كلام الإمام الغزالي في الفقه ، فماذا قال في العلم ؟ قلت : قال إنه يطلق على العلم بالله وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، وذكر أن هذا تسعة أعشار العلم التي كان يحملها عمر رضي الله عنه ، قال : ثم خصصوه بالفقه ونحوه كسابقه ، وقال : إن ذلك صار سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم ، وجعل التوحيد أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى فيترك الإنسان شكاية الخلق ويرضى ويترك الغضب ولا يتبع الهوى لئلا يكون تاركا للتوحيد .

ويرجع التوحيد لظواهر القرآن التي تتسابق للأذهان فكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وقال في الذكر والتذكير إنهما يرجعان لمعرفة عيوب النفس وحقارة الدنيا والتذكير بنعم الله تعالى وتقصير العبد في الشكر ، وقال في الحكمة نحو ذلك ، ثم قلت له : فهل أدلك على ملخص ذلك كله ؟ قال نعم ! قلت : هو مجمل في سورة الفاتحة مفصل في القرآن .

إن العلم والفقه والتذكير والتوحيد والحكمة يرجع أغلبها إلى أمرين كما قدمناه :

أولهما : علم نعم الله وهي العلوم كلها من الطبيعيات والرياضيات وهي التي يعرف بها جمال الله تعالى .

ثانيهما : معرفة جمال الباطن وسلوك النفس ، فمهما اختلفت العبارات فالمرجع لجمال أنفسنا بالصفاء وتهذيبها حتى تقبل معرفة العلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم ، وهذان الأمران مذكوران في الفاتحة .

الأمر الأول : أن الفاتحة فيها ذكر الحمد على نعمة تربية هذا العالم كله. والعلوم كلها هي معرفة هذه الدنيا ، ولا يتم الحمد إلا بمعرفة النعمة ولذلك صرح بها فقال «صراط الذين أنعمت عليهم» والإنعام هنا يرجع إلى نعمة العلم والعمل ، لأن المنعم عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، وهؤلاء نعمهم علمية عملية ، وإلا فالبهائم والجهال والعصاة منعم عليهم بلا علم ولا عمل ، فالله لما ذكر الحمد أتبعه بذكر النعمة. وبعبارة أخرى أن يدرك المرء هذه النعم ويعرفها وذلك بالعلوم كلها .

الأمر الثاني : تهذيب الباطن وتطهير النفس وهو المقصود من هداية الصراط المستقيم .

هذا هو إجمال معنى التفقه في الدين في آياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها .

### تفصيل هذين الأمرين في سور القرآن

ثم قلت : اعلم أن هذا المجمل في سورة الفاتحة فصله الله في القرآن فأنزل نحو ٧٥٠ آية في معرفة العوالم المحيطة بنا في السموات والأرض ، وذكر بنحو عددها أيضا آيات لأجل تهذيب النفس وعلم السلوك والتطهير وآيات القسمين مذكورات بنصها في كتاب [ جواهر القرآن ] للإمام الغزالي .

ثم اعلم أن هذا التفسير قد قام ببيان أهم ماذكرناه الآن بفضل الله تعالى ، ولقد ظهر فيه أن بقية آي القرآن تنحو هذا المنحى فإنك إذا نظرت إلى القصص التي لم تدخل في تهذيب نفس ولا ترغيب في علم قد رجعت إلى هذين الأمرين كما تطلع عليه في هذا التفسير بإيضاح ، فآيات القرآن كلها ترجع لتهذيب النفس ولتعليم العلوم الكونية وهما الأمران المذكوران في الفاتحة ، وهذا كله يسمى تفقها في الدين ويسمى علما ويسمى بعضه توحيدا ووعظا وتذكيرا وحكمة ، ثم قلت له : فتبين لك أيها الفاضل أن لفظ التفقه في الدين يشمل العلوم التي بها نعرف الله والعلوم التي نهذب بها نفوسنا ، فأما ماعدا ذلك من الصناعات المنتشرة في الأرض فإنها تسمى فروض كفايات وهي تعين على الأمرين المذكورين ، فلما سمع ذلك قال : لقد استوفيت المعاني استيفاء ، ولكن ثقلك كلام الإمام الغزالي فيه اعتراض ، فقلت : قل مابدا لك ، فقال : أكثر أحاديثه

ضعيفة ، فقلت : إنما طلبت منى ما يأتى : هل قال هذه المعانى أحد ؟ فقلت لك نعم وذكرت ذلك ، أما ضعف الأحاديث فليس يضرنى لأنه يقول المعانى الشائعة عند الصدر الأول ، فضعف الحديث ليس ينقص موضوعنا ، قال حسن : ثم قال لماذا لم تنشر هذا بين الأنام وتبين كيف يعلم المسلمون هذا فى مدارسهم حتى يتفقهوا فى الدين ؟ فقلت : أما النشر فإن هذا التفسير قد قام به على مقدار طاقتى وهذا هو الممكن لى ، فقال : فلتكتب فى الجرائد ؟ قلت : قد كتبت بضع عشرة مقالة فى جريدة [ كوكب الشرق ] فى نحو هذا المعنى بعنوان : [ خطاب إلى الأمم الإسلامية ] وقد أدرجت منها فيما تقدم المقالة السابعة ، وسأذكر هنا المقالة الرابعة المنشورة فى يوم ١٦ نوفبر سنة ١٩٢٧ م الموافق ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ هجرية ، وهذا نصها :

## من هم الأولى أن يسموا علماء الإسلام ؟

قال الله تعالى « ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

يخاطب الله كل عاقل مقررا له أنه أنزل من السماء ماء ، ومن هذا الماء خلق الله الثمرات المختلفات الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، وذكر أن الجبال بها طرائق مختلفة الألوان كاختلاف ألوان الأثمار : من طرائق بيض وأخرى حمر وثالثة سود شديدة السواد ، وهكذا الدواب من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الإبل والبقر والغنم ، كل هذه مختلفات الألوان كالثمار والجبال ، ثم قال بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فياليت شعرى ! أىّ علماء يخشون الله ؟ أعلماء الطهارة والنجاسة والبيوع والميراث ؟ أم العلماء الناظرون فى ملكوت السموات والأرض الذين آتاهم الله الحكمة وتفكروا فى خلق السموات والأرض تفكيرا مبنيا على براهين ثابتة فى علم الحكمة .

ألا قبح الله الجهل والغرور ! ألا قاتل الله الكبرياء ! لقد صرف الله المتكبرين عن آياته فقال «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» .

يقول الله فى القرآن « إنما يخشى الله من عباده العلماء » بعد ذكره عجائب الأرض والسموات ، فيقول بعض الزعماء فى الإسلام : العلماء ، أى بالفقه ويكتفون من التوحيد بتلك الكتب التى وضعت للردّ على قوم كانوا ضالين .

أيها المسلمون إنى أنصحكم أن علم التوحيد هو جميع العلوم من الفلك وعلم النبات والحيوان والإنسان وطبقات الأرض وجميع ما خلق الله .

يقول الله « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ؟ » يوبخ الناس على تقاعسهم ووقوفهم عن النظر فيما خلق الله فى السموات والأرض ، يسمى الله هذه الطائفة المفكرة فى بديع صنعه علماء وأنهم يخشون الله .

ولعمرى لا يخشى هؤلاء الناظرون الله إلا إذا كانوا ينظرون من طريق الدين ، فالدين الإسلامى يحرّض على النظر ، ومن فكر فى هذه العجائب التى خلقها الله فإنه يحسّ فى نفسه لله بالعظمة التامة والحبّ العظيم

وهناك

وهناك ينبغ فى الإسلام « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » هؤلاء هم العلماء الذين إذا كثروا فى أمة الإسلام أضاءت بهم الأرض وازّينت وأشرقت بنور ربها .

أيها المسلمون : أليس هذا كلام ربنا ؟ أفليس هذا قول الله تعالى ؟ يقول الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » ( بكسر اللام ) فجعل فى خلق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان دلالات للعلماء لا للجهلاء ، وأىّ علماء هؤلاء ؟ أهم علماء الفقه ؟ أم علماء الجدل المسمى بالتوحيد ؟ لا ، لا ! هو العلم بالفلك وعلم المواليد الثلاثة من معدن ونبات وحيوان وعلم طبقات الأرض وفروعها .

إن علم الفلك ليس يكون إلا بعد علم الحساب والهندسة والجبر ، فهذه العلوم لايتمّ علم الفلك إلا بها وهكذا علوم عجائب الخلق فى الحيوان والنبات والإنسان لاتتم إلا بالعلوم الرياضية أيضا ، والعلوم كلها شجرة واحدة أصلها ثابت فى القرآن وفروعها فى جميع أعمال الحياة وعنان السماء وأطراف هذه الدنيا .

العلوم كلها متصلة متحدة متآلفة ، فمن عطل بعضها حرم الجميع ولم ينل إلا ظواهرها .

فياليت شعرى ! ألم يقرأ علماء الإسلام قوله تعالى « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ابتدأ الآية بجملة اسمية تفيد التأكيد وجمل تسخير البحر لنا وجمل فوائده أربعا : أكل لحم السمك منه ، واستخراج الدرّ والمرجان ليكونا حلية منه ، وأن الفلك تجرى فيه بين أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا ، يقول العلماء إننا نستفيد بذلك التجارة وتبادل المنافع فى الأقطار المختلفة .

هذه عناية الله بخلقه ورحمته بهم وتكريمه لبنى آدم ، كرّم الله بنى آدم فحملهم فى البر بالدواب والقطر ، وفى البحر بالسفن ورزقهم الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، فالله جعل من تكريم بنى آدم حملهم فى البرّ والبحر المذكور فى هذه الآية آية تسخير البحر ، فقد سخره لتجرى السفن فيه بأمره وهى تحملنا وتحمل بضائعنا .

هذه بعض عناية الله بالأمم ولكن المسلم لما كرمه الله بهذه وأباح له استخراج الدرّ والمرجان من البحر ولى بجانبه وأعرض عن نعمة ربه وقال : مالى وللدرّ والمرجان ومالى وللسفن فى البحار ، فلتصنع السفن ألمانيا وأمريكا وفرنسا ولتحملنا عليها إذا سافرنا ، أما الدر والمرجان فهما لا فائدة فيهما . فنقول :

أيها المسلم ، أيها العاقل ، أيها الفقيه ، انظر بعقلك أوّلا وانظر فى الآية ألم يفتح الله لك خزائنه البحرية ألم يقل لك هاهو مرجانى فى البحر فلك أن تستخرجه ؟ فيقول فقيهم وهو متكبر محتقر : أىّ فائدة من هذه ؟ أليس المرجان خرزات تنظمها النساء يجعلنهنّ زينة ؟ وأىّ فائدة فى هذه ؟ نقول له : اقرأ علوم الأمم الحاضرة ، اطلع على كتب الأمم العظيمة وأنها دخلت فى قوله تعالى « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فإذا استهزأت بهذا وأمثاله اتبعك الشبان وهم الذين يصيرون قادة فتكون عقولهم كعقلك فيموت العرب وبقية أمم الإسلام وذلك من كبرك وعظمتك ، والله يقول « فبئس مثوى المتكبرين » ويقول « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » ويقول « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » فالاستهزاء والتكبر سبب خراب بلاد الاسلام الآن .

فربما يجيبك بعد هذا الكبرياء ويقول لك : حدّثنى عن منافع هذا المرجان ، إذا قال لك ذلك : فقل له إن المرجان عبارة عن هياكل حيوية ترسب فى أبدان حيوانات دنيئة جدا شكلها كشكل الأزهار ذات ألوان

مختلفة كاختلاف أزهار الأرض نظاما وبهجة وهى أجمل منها بما لايقاس ، وهو يوجد حول جزائر بحر الروم فى قاع البحر من ٣٠ قامة إلى ١٣٠ قامة ، وهو أشبه بشجر قائم فى البحر لايزيد ارتفاعه عن قدم ، وأهمه يكون أمام تونس والجزائر ومراكش وبقرب نابولى وجنوى وسردينيا وكورسكا .

أتدرى من يغوص على هذا المرجان ؟ يغوص عليه الفرنجة وهو ينمو فى عشر سنين وكل سنة يغوصون على قسم منها ، ففى بعض السنين كانت الزوارق الإيطالية ١٥٠٠ زورق وفيها ٤٢٠٠ نوتى وكسبوا فى تلك السنة أربعة ملايين ومائتى ألف فرنك ، والفرنسيون والأسبانيون فى تلك السنة كسبوا مليونا وخمسمائة وخمسين ألف فرنك .

أليست تونس والجزائر ومراكش بلادا إسلامية يأخذ الأوروبيون المرجان من بحرهم وهم لايعلمون شيئا ؟

وياليت شعرى ! أليس الله يقول فى آخر الآية ؟ « ولعلكم تشكرون » وكيف يشكر المسلم على نعمة لم يعرفها ؟ نعمة فتحت لأهل أوروبا بسبب علمائهم وأقفلت على المسلمين بسبب جهل بعض رجال دينهم ، ألا ساء مثل القوم المتكبرون الغافلون !

إن الله سيسأل كل من يقرأ هذا المقال من العقلاء فى الإسلام ولا يفكر فيه ولا يجدّ فى البحث والتنقيب ، لأن هذا فتح لباب الفكر فى آيات القرآن كلها « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : عرفت نوع الكتابة للعموم فى هذا المعنى ، فأرجو أن تفى بما وعدت به من كيفية التعليم فى مدارس الإسلام لبلوغ السعادة حتى يتفقه الناس فى الدين ، فقلت : قد علمت فيما سبق أن النظر فى عجائب السموات والأرض هو العلم الواجب شرعا ، فأرى أن يبتدأ فى القسم الابتدائى فى المعاهد الدينية فى بلاد الإسلام بمجموعة من المعادن والنبات والحيوان ويذكر فيها نبذ من تلك العجائب والحكم الغالية بحيث تكون سهلة التناول ، كأن يذكر الدرّ والمرجان ويبين مثلا أن أنفس الزينة وهو الجوهر من حيوان بحرى وهو المحار ، وأن ألذّ المطعومات من حشرة فى البرّ وهى النحلة الطائرة فى الهواء ، وأن أجمل مايلبسه الناس من صنع دودة فى الأرض وهو الحرير ، فيقول المعلم مثلا : انظر كيف جعل الله عزّ وجل أجمل زينتنا وألذّ مطعومنا وأبهج ملبوسنا مصنوعات بدواب البحر والأرض والهواء ، وهذه الصناعات من أضعف الحيوانات فى الممالك الثلاث : الماء والتراب والهواء ، ويكثر من أمثال هذا وتكون جميع الدروس على هذا النمط ، ويسير على هذا المنوال ويذكر آية من القرآن ويترك الطالب يستنتج ويؤمن بالله ويفرح به ، بهذا وحده يتربى الشعب الإسلامى ، وبهذا وأمثاله يخرج نابغون ، وهذا هو الذى جاء له القرآن ثم يسير الطالب فى كل المعادن من الحديد والنحاس والقصدير والذهب وغيرها مبينا فوائده معظما خالقها مظهرا حكمته وبدائع صنعه ؛ فيذكر قوله تعالى مثلا فى الحديد « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ولا يكثر من الإعراب ولا صنعة الكلام ، بل يقول انظر إلى هذه القطعة من الحديد وهو المسمى بالزهر ، وهذه تسمى بالحديد المطاوع ، وهذه تسمى بالحديد الصلب ، وانظر الفرق بين الحديد الزهر والحديد الصلب .

ألا ترى أن الصلب يقبل الطرق والسحب ، والزهر ليس كذلك ؟ وترى الصلب يقبل القوّة المغناطيسية أما الزهر فليس كذلك لأن الصلب نقى مما يداخله ، والأوّل مخلوط بأشياء غريبة عنه ثم يقول وهذا النوع

فى الحديد لفوائد ويشرحها ويذكر أنه من الجبال وكيف خزن فيها وكيف كان بمقدار الحاجة وكيف هدى الله الناس لاستخراجه ؟ وكيف كانوا قبل ذلك لا عمل لهم إلا بالحجر أو نحوه .

ثم ينتقل إلى مجموعة من علم النبات ويشرح الزهر وجماله وكيف يكون الإلقاح فى زهر الحدائق والمزارع ، ويبين كيف كان الريح والحشرات مسخرات لذلك الإلقاح وأن ذلك من عجائب القرآن إذ قال الله تعالى «وأرسلنا الرياح لواقح الخ» وهكذا يريه عجائب الحيوان البرى والبحرى كالحوت المسمى (بالقيطس) الذى يكون طوله عظيما ورأسه فيه الزيت المسمى (بزيت الحوت) وهو عشرات من البراميل فيتعجب الطالب من حكمة ربه وغير ذلك من العجائب .

وهذا العلم هو المسمى علم الأشياء كان يدرس فى مدارس مصر قبل الاحتلال وفى أوائله ثم رفع بعد ذلك ورجع إليها الآن .

هذا فى القسم الأوّل فى المعاهد الدينية ، أما فى الثانوى فيقرءون نفس علم النبات وعلم المعدن وعلم الحيوان والنظام العام فى علم الفلك حتى يشهد الطالب عجائب الإبداع والتكوين ويتأمل كيف تطلع الشمس وتغرب بمواعيد محدّدة لا تنقص ثانية واحدة ليفهم قوله تعالى «وكلّ شئ عنده بمقدار» ويفهم أيضا قوله تعالى «الشمس والقمر بحسبان» ولا يعرف الطالب ذلك إلا إذا أخذ نموذجا سهلا جدّا من الحساب وقرأ نظام الكواكب السيارة والثوابت وعددها وأنها مئات الملايين وفهم أقدارها وأبعادها التى تعد بمئات الآلاف من السنين بسير الضوء .

هنالك يظهر فى الإسلام «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» وكيف تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله وهم يشهدون صنعه وآثار جماله وحكمته وبدائع صنعه فى النجم والقمر والشمس والزهر والبرّ والبحر .

فإذا انتقل الطالب القسم العالى فى المعاهد الدينية فليخصص بعلم من العلوم العالية التى هى فرض كفاية كالعلوم العربية أو الفقه وأصوله أو التفسير والحديث مثلا كالهندسة أو علم النبات والحيوان أو علم الكيمياء والطبيعة أو علم الطب أو البيطرة ، كل هذه يطلبها الدين بصفة أنها فرض كفاية .

وعلى أولياء الأمور أن يجعلوا القسم العالى للاختصاص ويجعلوا العلوم موزعة على قدر الحاجة ، فلا يطغى الفقه على الهندسة ، ولا علم الطب على العلوم الرياضية ، وكما يجب أن يعتدل المرء فى أحواله فيربى القوى التى فى نفسه تربية متساوية ، فلا الذاكرة تطغى على المفكرة ولا المفكرة على المخيلة . هكذا يجب أن يكون أفراد الأمّة متعلمين بقدر الحاجة إليهم .

هذا هو الصراط المستقيم ، والله يؤتى الحكمة من يشاء «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب» اهـ .

ولما أتممت هذا المقال قال صاحبى المتقدّم من أهل العلم والصلاح لما اطلع عليه : لقد أجدت كل الإجادة وفتحت بابا واسعا لرقىّ الأمم الإسلامية فى المستقبل ، ولكنى أريد أن أسألك ؛ هل كانت الأمم المحمدية نائمة عما تذكره أنت الآن ؟ فقلت كيف تقول عما أذكره أنا الآن ؟ ألم تقرأ ما تقدم فى سورة المائدة عند قوله تعالى «فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض» وإنى ذكرت هناك كلام الإمام الغزالى فى أن فروض الكفايات تشمل أعلى الأمور الدنيوية كالسياسة وأوسطها كالحياكة ، وأدناها كالزبالة والكناسة ، فالحرف كلها والعلوم كلها فروض كفايات ، إذن ليس هذا الرأى حديثا ، وأذكر لك أيضا الآن ما جاء فى كتاب «جمع الجوامع» للإمام ابن السبكى وشرحه للجلال المحلى فقد قال : إن فرض الكفاية مهمّ يقصد حصوله

من غير نظر بالذات إلى فاعله ، وزعمه الأستاذ أبو إسحق الاسفرايني وإمام الحرمين والشيخ أبو محمد الجويني أفضل من فرض العين لأنه يصان بقيام البعض به الكافي في الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الإثم المرتب على تركهم له ، وفرض العين إنما يصان بالقيام به عن الإثم القائم به فقط .

هذا نص كلام المتن والشارح . فإذن فرض الكفاية عند هؤلاء الأعلام وإن خالفوا غيرهم أفضل من فرض العين ، فإذن يكون الملوك المنظمون للأمم أفضل من العلماء الذين قاموا بأمور العبادات ، وعلى ذلك جاء في بعض كلام علمائنا [ أيهما أفضل العالم أم الملك ؟ ] فكان الجواب هكذا [ من كان أثره للناس أكثر انتشارا فإنه أفضل ] فلما سمع ذلك قال هذا كلام العلماء ولكني أريد العمل ، فهل قام المسلمون قديما بفروض الكفايات ، فقلت إن المسلمين هم الذين بعثهم الله نورا للناس كما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم نورا لنا ، فقال هذه عبارات شائعة على الألسنة وقد عودتنا أن يكون كلامك مبرهنا عليه ، ومن ذا الذي يوافقك على أننا بعثنا لرقي الناس مع أننا اليوم أقل الأمم علما وعملا ، فقلت نحن اليوم كما تقول ولكن أسلافنا كانوا كذلك ، فقال هذه دعوى لادليل عليها ، فقلت قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فلم يجعله رحمة للمسلمين وحدهم ، بل جعله رحمة للعالمين وليس يمكن أن يرحم صلى الله عليه وسلم الفرنجة مثلا وأهل أمريكا واليابان والصين إلا بواسطة أمته ، قال هذا إغراق منك في القول ورجوع عن طريق التحقيق إلى الخيال ، فإما أن تقول هذا كلام سماعي فحسب ، وإما أن تأتي بقول يقنع الناس قاطبة ، فقلت له سأسمعك الساعة مايقنع الناس قاطبة وأقدم قبله مقدمة فأقول :

إن الله عز وجل يقول في آخر هذه السورة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم الخ » فلحرصه صلى الله عليه وسلم أنذرهم بالقرآن وخوفهم العاقبة فقرءوا علوم الأمم وأفادوا أهل أوروبا وأهل أوربا أفادوا العالم بعد ذلك ، ثم قلت وهل يقنعك في ذلك شهادة علماء أوروبا؟ قال نعم . قلت هاك ماقاله العلامة (سيديو) أحد مشاهير علماء فرنسا المولود بباريس في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠٨ م الموافقة ١٢٢٣ هجرية فقد جمع في عشرين سنة تاريخا في سفر من مؤلفات من يوثق بهم من العرب والفرنج ونشره في أوروبا فتحول الناس هناك عما رسخ في أذهانهم وأخذوا يقدرون العربية وعلماء العرب حق قدرهم وظهر فضل العرب لدى الفرنج وأنشأوا في ممالكهم مدارس لتعلم اللغة العربية وأخذوا يسارعون إلى حيازة الكتب العربية ويبذلون فيها النفيس ، ولم يقتصروا على ذلك بل رغبوا في حوز صور مبانيهم وجميع ماكان لهم من الزينة ونحوها وآلات الملاهي وغير ذلك .

ولذا أخذ السياحون يجوبون البلاد الدانية والقاصية ليعثروا على ذلك غير مبالين بما يلقون من المشاق الهائلة لحصلوا على مافي بيوت التحف والآثار من الأمثلة المتنوعة بقدر تنوع الحرف والبضائع وعلى مافي خزائنهم من الكتب التي هي في جميع ماكتبه الإنسان من هزل وجد .

هذا هو نص ما قاله أستاذنا منشيء مدرسة دار العلوم قبل اليوم بخمسين سنة المرحوم علي مبارك باشا في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب من الفرنسية إلى العربية ، وهاك مقدمة الكتاب للمؤلف المذكور الذي هو المقصود الذي به تعرف أيها الفاضل بأن العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات لولا آباؤنا من الأمة المحمدية لكان العالم كله اليوم في ظلام .

قال العلامة سيديو المذكور [ مازلت منذ نيف وعشرين سنة أبين ما للعرب من توسيع نطاق العلوم والتقدم في القرون التي بين عصر يونان إسكندرية مصر وأعصر الدول الحديثة الأفرنجية ، ورأيت أن أذكر مجمل أخبار هذه الأمة المحتقرة لدى الفرنج من أمد بعيد وأن أضاهي ماجمعته بما أذاعه غيري لأكون أول

من دون تاريخا عاما فى أخبار العرب وهو ميدان عام واسع المجال ربما كان فوق طاقة الواحد من الرجال ] .

ثم أخذ يمدح الأمة العربية بجميل أخلاقها واستقلالها إلى أن قال : «ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فربط علائق المودة بين قبائل بحيث جزيرة العرب ووجه أفكارها إلى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج المار بأسبانيا وبرتغال إلى نهر (الكنج) أعظم أنهار الهندستان ، وانتشر نور العلوم والتمدن بالمشرق والمغرب ، وأهل أوروبا إذ ذاك فى ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسيانا كليا ما وصل إليهم من أحاديث اليونان والرومان ، واجتهد العباسية ببغداد والأموية بقرطبة والفاطمية بالقاهرة فى تقدم الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية فاقتصروا على السلطة الدينية التى استمرت لهم فى سائر أرجاء ممالكهم ، وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاستكشافات ما استفاده منهم نصارى أسبانيا حين طردوهم منها ؛ كما أن الأتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم وأدوا إليهم مرتبات ، ولما انحصرت العرب فى (بحيث) جزيرتهم وصحارى أفريقية عادوا إلى عيشتهم البدوية مستقلين عمن عداهم حتى ألزمتهم الدولة العثمانية الانقياد وأجحفت بهم فانقادوا منتظرين فرصة أراد الوهابية انتهازها فى غرة هذا القرن التاسع عشر من الميلاد لعتق رقاب الأمة العربية من تسلط الأجانب عليهم فلم ينجحوا ولبثوا مستعدين للعصيان بإشارة من كبرائهم ولا مانع من حصول ذلك فى ممالك تونس ومراكش وكذا الجزائر التى حكمتها فرنسا فإن جميعهم على غاية من الاستعداد لإجابة رؤسائهم .

وهنا ذكر المؤرخين من الفرنجة قبله مثل (بوكوك) و (شولتنس) وغيرهما إلى أن قال : والمستمدات الأصلية المشتملة على سير العرب لم تزل إلى الآن كنوزا مغلقة فإنا معشر الفرنج وإن وقفنا على حقيقة تواريخ أبى الفداء وأبى الفرج والمسين النصرانى المعروف بين أهل الشرق بابن العميد ، لكن ليس عندنا الآن إلا تراجم قطع من تواريخ ابن خلدون والمقريزى وابن الأثير وتواريخ كثير من المؤرخين من العرب والفرس ولعلنا نحوز جميعها مترجما باللغة الفرنساوية ، ومع ذلك يكفينا ما لدينا من تواريخ السلف فى ضبط الحكايات وتحقيق الحق فيها ، بل نقدر بها على فهم ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم غير مغترين بما اعتاده المؤلفون من ستر خلقه الباطنى كالقائل إنه كان رجلا مجذوبا محتالا طماعا يتعذر حصر هواتفه ، والقائل إنه كان ذا قريحة لا نظير لها وإنه من نوادر الوجود التى يحدثها الله لإصلاح الدنيا فإن هذين القولين لا يلتفت إليهما ، بل يجب رفضهما ، والمعول عليه فى وصفه صلى الله عليه وسلم ما قاله العلامة (أولسنير) فإنه فهم حقيقة الرسول وحكم دين الإسلام على جميع الممالك التى انتشر فيها على ما قاله فى تذكرته التى وقعت موقع القبول سنة ١٨٠٩ ميلادية لاشتمالها على المأمول لدى أرباب مدرسة العلماء المشتغلين بالعناوين والكتابات على الآثار القديمة ثم بالعلوم الأدبية .

وأما تواريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية فى دمشق وقرطبة والعباسية ببغداد والفاطمية بمصر ووصف تمزيق الممالك الإسلامية الشرقية التى أغار عليها الأتراك ثم المغول فدونها الفرنج تدوينا حسنا وأضفنا إليها ما تركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربى الذى تمكنت أصوله فى آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن ، ولا نزال إلى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادى ما نحن عليه من المعلومات الأوروباوية فإن العرب فى غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا بحوز المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقة وأصفهان وسمرقند تفاخر بغداد فى حيازة العلوم والمعارف ، وقرئ ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان فى المدارس الإسلامية ، وبذل العرب همتهم فى الاشتغال بجميع

ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا فى غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف ، ولنا شاهد صدق على علوّ شأنهم الذى تجهله الفرنج من أزمان بعيدة مديدة .

الأول ما أثر عنهم من تواريخ القرون المتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس ما اشتهر من الأمكنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة .

الثانى ما كان لديهم من الصناعات الفائقة والمبانى الفاخرة والاستكشافات المهمة فى الفنون وما أوسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء الصحيحة التى مارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر من الميلاد (من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية) وزعم المؤلف (شليجل) سنة ١٨٣٢ ميلادية الموافقة سنة ١٢٤٨ هجرية أن الهنود والصينيين أعلم من العرب وأخبر أنه سيقف على كنوز معارف هاتين الأمتين مع أنه لم يحصل بعد دعواه بعشرين سنة أجلّ الفوائد الفلكية والرياضية والجغرافية إلا من الكتب العربية القديمة .

ثم ألف الفرنج الباحثون عن الأمور الهندية كتبا كثيرة ، لكن لم يحصل منها أدنى تقدم فيما هى بصدده ، كما أن الفرنج المستخرجين فوائد من تواريخ المملكة الصينية التى هى أقدم الدول لم ينجحوا إلا فى إشهارهم الصينيين بأنهم أجهل أهل الأرض كالترك كما قاله المؤرخ أبوالفرج ، وأما المدرسة البغدادية المدوّنة للمعلومات التمدينية فى الفترة التى بين عصر يونان الإسكندرية والأعصر الأخيرة فكانت مساعدة على استيقاظ أهل أوروبا من رقدة الجهالة ونشر أنوار المعارف فى جميع ممالك آسيا ، فقد انتشر علم العرب ( الفلك ) فى الهندستان بواسطة العلامة البيرونى المعمور بمكارم السلطان محمود الغزنوى حين انتقل إليها سنة ١٠١٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٠٧ هجرية كما نشره بين السلجوقيين العلامة عمر خيام سنة ١٠٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٦٩ هجرية وبين المغول العلامة نصير الدين الطوسى مؤسس الرصدخانة بمدينة المراغة سنة ١٢٦٠ ميلادية الموافقة لسنة ٦٥٩ هجرية وانتشر بين العثمانيين سنة ١٣٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٧٣٨ هجرية ونشره بين الصينيين العلامة ( كوشيوكنغ ) تلميذ الأستاذ جمال الدين سنة ١٢٨٠ ميلادية الموافقة سنة ٦٧٩ هجرية فى عهد السلطان كوبلاى خان كبير عائلة الملوك البوانية ، وشيد ( أولوغ بغ ) لعلم الفلك رصدخانة بسمرقند سنة ١٤٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٨٤١ هجرية وانتهى اشتغال المشرقيين بالعلوم والفنون عقب زمان ( أولوغ بغ ) ثم اطلع أهل الغرب من أوروبا على أسرار تلك العلوم فأخذوا يشتغلون بها حتى جدّدوا فى البلاد الافرنجية التمدين واللغة العربية وفنونها الأدبية التى أخذت كل يوم فى زيادة الانتشار بين الفرنج وما زلنا إلى الآن نستكشف أمورا مهمة من الكتب العربية القديمة وإن عزى ابتكارها زورا إلى بعض المتأخرين من الفرنج ، ولاشك أن فتح أمتنا الفرنساوية إيالة الجزائر المغربية وكثرة علائقها بسواحل إفريقية ( ممالك المغرب ) يزيد فيما اهتم به الفرنج المولعون باللغات والآثار المشرقية من البحث عن كتب المعلومات العربية التى لم يحص سلف الفرنج ما فيها من جواهر المعارف الثمينة ، وما أعظم اشتغالنا بتلخيص جميع تاريخ الأمة العربية التى ظهرت أخبارها أعجب مظهر وبهرت أنباؤها دون غيرها من التواريخ كل من قرأ وتبصر ، ولذلك نافت أبناء أوروبا على ممر الزمان إلى تلك الآثار الجليلة التى خلفتها هذه الأمة .

هذا ما قاله المؤلف فى المقدمة . ثم قال فى صفحة ٢٣٥ عند الكلام على العلوم الطبيعية ما يأتى :

باب فى العلوم الطبيعية التى كانت عند العرب وفيه مقدّمة وأربعة مباحث

المقدّمة

قد اتسعت العلوم الطبيعية زمن اتساع العلوم الرياضية ولكن لانعرف عصر نشأتها لتسلسل التصوّرات

فى جميع

فى جميع الأشياء التى يجول العقل فيها ، ثم الاشتغال بمعرفة حقائق الكائنات العلوية والسفلية وتفصيل ما يتعلق بها وضبط قياس الحركة والفضاء الذى تم فيه بواسطة التأمل فى الطبيعة حدث زمن أرسطاطاليس على أن ذلك البحث كان فى الغالب متعلقا بالأجسام العضوية وهى الحيوان والنبات ثم ارتقى ذلك زمن العرب إلى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأولية التى تحلل لإدخالها فى مركبات أخرى لأنهم كانوا يسكنون بحيث جزيرة العرب ما بين مدينة مسكات ومكة الذى به كثير من البهارات والصموغ البلسمية والجواهر النافعة والضارة بالإنسان فالتفتوا إلى مزايا ما بأرضهم من النباتات النافعة فى الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور ومثلهم من فى سواحل مالابار وسرنديب (سيلان) والسواحل الشرقية من قسم أفريقية فتحصل كل على مزية لم يعلمها الآخر إلا بواسطة تجارات أتت من مخزن (جرها) الذى بين الخليج الفارسى واليمن وجابت بحيث جزيرة العرب حتى بلغت كنعان والشام .

وأما البحث عن الجواهر الطبية التى مدحه ديوسقوريدس لأهل مدرسة الإسكندرية ، فمن مخترعات العرب أنهم المنشئون للأجزخانات الكباوية والموروث عنهم ما يسمى الآن بقواعد تحضير الأدوية التى انتشر بعد من مدرسة (سالرنه) فى الممالك التى فى جنوب أوروبا .

المبحث الأول فى علم الكيمياء

قد أدى إنشاء الأجزاخانات والمادة الطبية اللتين هما أول ما يلزم لفنّ الطب إلى الاشتغال بعلم الكيمياء الذى كان ابتداء العرب فى التمدن مبدأ للاشتغال به وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب لا تركيب الذهب والفضة المسمى بالكيمياء السرية والإكسير والحجر المكرم وقد أوصلت العمليات الهرمسية وهى تراكيب الملاغم والمخلوطات المعدنية التى عملت فى المعادن المطروقة إلى أبدع الاستكشافات المعدنية وعرف تركيب الكبريتيك والماء المعشر والماء الملكى وتحضير الزئبق وتخمير الجواهر الكؤولية وغير ذلك من مؤلفات أبى موسى جعفر الكوفى المشتهر فى القرن الثامن من الميلاد والفخر الرازى المتوفى سنة ٩٢٣ من الميلاد .

المبحث الثانى فى علم النباتات والمادة الطبية والاقتصاد الزراعى

لسعة اطلاع العرب على مزايا النباتات أدخلوا فى الأدوية نباتات جهل اليونانيون خواصها كالراوند وشحم التمر الهندى وخيار شنبر وورق السنا المكى والإهليلجات والكافور وعرفوا أنواع الطيب الزكية كجوز الطيب والقرنفل وغرسوا عدة أشجار من ذوات الزهور المذكرة والمؤنثة وعرفوا ما يتعلق بخصب آلات الذكورة والأنوثة ورأوا استعمالهم السكر فى الطب أفضل من استعمال القدماء العسل فأدخلوه فى مركبات كثيرة كشراب الورد وأشربة جلابية (بضم فشد) ومعاجين كثيرة واشتغلوا بعلم الجيولوجية وهو معرفة تركيب طبقات الأرض .

وتكلم ابن سينا فى المادة الطبية على شجرة الأرز المسماة (ديودفارة) النابتة فى جبال (هماليه) وجعلها نوعا من الشجر المسمى (جونيبريس) الداخل من تركيب زيت الترمنتينا .

وقد أنشأ عبد الرحمن الأول خليفة قرطبة بستان نباتات بقربها وبعث إلى الشام وغيره من الممالك الشرقية سياحين لجمع البذور النادرة وكان قد غرس بقرب قصره فى الرصافة أول نخلة فى قرطبة .

وبالجملة بذل العرب صادق الهمة والعزيمة فى تعلم وتعليم جميع فروع العلوم المتعلقة بالمولدات الطبيعية . ولذا أنصفهم المؤلف (ليل) فى كتابه الجديد بما حكاه من اشتغالهم بعلم الجيولوجيا ، ونقل (دساسى) عدة فصول من كتاب القزوينى المشهور باسم (بلين المشارقة) واشتهر حياة الحيوان للدميرى الذى هو عند العرب بمنزلة (بوفون) عند الفرنج ، وبلغت العرب فى علم الزراعة أقصى درج الكمال ، وأحدثوا فى أسبانيا

السواقي ذات القواديس المعتادة الآن ، وكان عندهم في الاقتصاد الزراعي معلومات شيبت بأوهام فاسدة إلا أنهم كانوا يعرفون طرقا عملية تستحق التفات الفلاحين إليها .

المبحث الثالث في علم الطب والمدرسة اليونانية العربية والفخر الرازي وابن سينا

أحضر ملوك الفرس الأكاسرة من ابتداء القرن الثالث بعد الميلاد العيسوي أطباء اليونان فنشروا في البلاد الشرقية آراء أبيقراط الطبية حتى ساجلت المدرسة التي بجنديسابور مدينة الاسكندرية أيام البطالسة ثم فتحت العرب البلاد فكان مركز التعليم ( أنطاكية وحران ) وظهر منهما أطباء جامعون في الغالب بين العلوم الرياضية والفلسفية عارفون باللغة اليونانية كالعربية التي ترجموا إليها كتب أرسطو واقليدس وبطليموس منهم يحيى بن ماسويه طبيب هارون الرشيد ألف في الطب كثيرا من المؤلفات المعتبرة عند المشرقيين ، منها شرحه المشتمل على ثلاثين كتابا ، وكتاب في تحضير الأدوية ، ورسائل في أصناف الحمى والأغذية والنزلات والحمامات وأنواع الصداع والشقيقة وغير ذلك ترجم كثير من مؤلفاته إلى العبرانية ويوجد بكتبخانات أوروبا كثير منها بالعبرانية والعربية . مات سنة ٨٥٥ ميلادية وله ثمانون سنة فخلفه تلميذه حسين وأخذ من المأمون على كتاب ترجمه من اليونانية إلى العربية زنته ذهبا ، ترجم كتابي جالينوس وأبيقراط وغيرهما ، وألف كتبا كثيرة في الطب والمنطق الفلسفي ، واختبره المتوكل حيث سأله عن سم قاتل بمجرد تناوله فقال لا أعرف إلا الأدوية الحافظة للصحة فاتخذه طبيبا وأغدق عليه . توفي سنة ٨٧٤ ميلادية ، ومنهم جبرائيل المشتهر في علاج كثير من الأدواء . والفخر الرازي محمد بن زكريا قام بإدارة المستشفيات في بغداد والري وجنديسابور وهو أول من أحدث المسهلات اللطيفة في الأجزاخانات والتراكيب الكيماوية الطبية واستعمال الحزام وأول من ميز القصب الحنجري عن القصب الراجع الذي يكون أحيانا مضاعفا من جهة اليمين ، وكان يرى أهمية التشريح في الطب الذي ألف فيه أكثر من مائة مؤلف ، منها كتاب ضخم سماه [الحاوي في علم التداوي] ورسالة في الجدري والحصبة استمد منها سائر الأطباء ، وأهدى إلى الأمير المنصور حاكم خراسان في القرن العاشر من الميلاد أحد أبناء العائلة السامانية عشرة كتب حسنة الترتيب والأسلوب طبعت في مدينة ( ونديق البنادقة ) سنة ١٥١٠ ميلادية وهي أول ما بحث فيه عن الحمرة عمي كبيرا فمنع أن يعالجه من الأطباء إلا من عرف عدد أغشية العين وساح في الشام ومصر وأسبانيا ، توفي سنة ٩٣٢ ميلادية واشتهر بعده بخمسين سنة علي بن عباس الفارسي المجوسي ألف في الطب كتابا عشرين مجلدا ، عشرة في قواعد الطب وعشرة في عملياته سماه (الملكي) وأهداه إلى السلطان عضد الدولة البويهي ترجمه إلى اللاتينية اصطفان الأنطاكي سنة ١١٢٧ ميلادية وطبعه ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ في مدينة ليون بفرنسا ولم يكن في حكماء العرب مثل الفخر الرازي وأبي علي الحسين بن سينا المولود في ( افشانه ) من ضواحي شيراز سنة ٩٨٠ ميلادية ، كان والده حاكما على شيراز وتعلم هو الطب في بخارى وعالج وهو ابن ١٨ سنة الأمير نوح الساماني وشفي من مرض عظيم فتقدم عند الملوك السامانية ووعده محمود الغزنوي الإغداق عليه إن أقام عنده فأبى ودام على التغرب في البلاد وأقام عند قابوس حاكم إقليم جرجان وجدد في ديوانه أعمال الطبيب اليوناني (ابرازاستراطس) وجدد له موئلا في مدينة الري حين كان سلطانها مجد الدولة ثم في مدينة همدان حين اختاره ملكها شمس الدولة أن يكون وزيرا وطبيبا له ثم دعاه علاء الدولة للقيام بوظيفتي الوزارة والطب بأصفهان ، ألف كتبا من أجل المؤلفات منها (القوانين) وهي خمسة كتب ترجمت وطبعت مرارا ، وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا ، مات سنة ١٠٣٧ ميلادية .

المبحث الرابع ، في مدرسة أسبانيا وابن القاسم وابن زهر وابن رشد وغيرهم

ظهر أيضا في مدرسة أسبانيا من الأطباء جم منهم أبوالقاسم خلف بن عباس المعروف عند الفرنج

بالبوقاريس

بالبوقاريس وضع علم الجراحة ووصف آلاتها وكيفية استعمالها وما يحصل فى بعض الكيفيات من الأخطار وعين لإخراج الحصوة موضع البضع الذى عينه متأخرو الجراحين من الفرنج ولم تعرف مؤلفاته بين الفرنج إلا فى القرن الخامس عشر من الميلاد ، مات سنة ١١٠٧ ميلادية . وأبو مروان بن عبد الملك بن زهر ولد فى بلدة ( بنافلور ) أدخل فى المادّة الطبية عدّة أدوية ، وأحدث فى علم الجراحة فتح شعبق التنفس ووصف أمراضا لم تكن موصوفة قبل ، مثل المرض المعروف بالتهاب الحجاب المنصف للتامور المحيط بالقلب وتعين لردّ العظام المنتقلة إلى مواضعها وجبر المنكسر منها ، ترجمت كتبه الكبيرة إلى اللاتينية غير مستوفاة الترجمة ، استخدم عند الأمير يوسف بن تشفين صاحب مراكش فأغدق عليه ، ومن تلامذة ابن زهر أبو الوليد محمد بن رشد اتبع أصول الفلسفة الأرسطاليسية . وألف رسالة فى الترياق وكتابا فى السموم وأنواع الحمى وشرحا على كتاب أرسطاطاليس ، وشرحا على قوانين ابن سينا ، وكتابا ضخما مشهورا (بالكليات) طبع فى مدينتى وندبق وليون وغيرهما .

وكان عبد الله بن أحمد بن على البيطار أعلم الأطباء بعلم النباتات ساح فى البلاد المشرقية زمنا طويلا وأكرمه السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى والكامل صاحب دمشق ، اشتمل مجموعه المسمى ( بالأدوية المفردة ) المنقسم أربعة أقسام على وصف جميع النباتات والأحجار والمعادن والحيوانات ذات الخواص الطبية أصلح فيه غلطات ديوسقوريدس وجالينوس وأوريبان .

وبالجملة كان ملوك الشرق يدعون العلماء إلى دواوينهم ويستقبلونهم بأنواع التشريف والأموال الجزيلة فكان منهم عدد لا يحصى حفظت أسماؤهم فى التواريخ ؛ اشتهر منهم فى الطب ثابت بن قرّة الطبيب الفلكى سنة ٨٥٠ ميلادية وأبوجعفر أحمد بن محمد الطالب الذى ألف سنة ٩٧٠ ميلادية فى داء البرسام والسرسام وغيرهما ، وعلى بن رضوان سنة ١٠٦٠ ميلادية ، وجزلة بن جزلة سنة ١١٠٠ ، وعبد الرزاق سنة ١١٥٠ ، وهبة الله سنة ١١٥٥ والجلدكى الذى ألف سنة ١٢٥٢ كتابا فى الحجر المكرم المسمى أيضا ( بالكيمياء السرية والصنعة الإلهية ) وأبوالفرج سنة ١٢٨٦ وإسحق بن إبراهيم سنه ١٣٠٠ .

باب فيما كان عند العرب من الفلسفة والإلهيات والفقه، والمعارف الأدبية ومخترعاتهم وفيه مباحث

المبحث الأول فى عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس

زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وما ذاك إلا لجهلهم بأشغال العرب ، فإن جميع الدروس بمدارس أوروبا فى القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية وكانت ترجمة حسين الطبيب ويحيى النحوى كتب أرسطاطاليس مبدأ لاشتغال العرب بالمعلومات الفلسفية التى كان من رجالها الكندى ومحمد بن مسعود وأبوتمام النيسابورى وأبوسهل البلخى والاسفرايني والعميرى ثم ظهر الفارابى وابن سينا فكانا أشهر رجال الفلسفة لتدوينهما لها على الصورة المذهبية التى نقلها عنهما ابن باجه وأثير الدين الأبهرى وعلى الخونجى وابن رشد وأبو الصلت ونصير الدين الطوسى ثم جالوا فى مدارس المغرب ، ولا تظنّ أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو ، بل كانوا يعرفون تأليف أفلاطون لاسيما كتابه الأكبر المؤلف فى الشرائع وعدّة كتب منسوبة إلى (فيثاغورس) وكانوا يذكرون من قدماء اليونان كثيرين أورفيه وأوميروس المحتوية أشعاره على الفلسفة الدينية والفلاسفة السبعة وانكزاغورس وايراقليط وديمقراط والايلياطية وسقراط وتلامذته وإقليدس والفلاسفة الاسطوانية وكان عندهم فى الجزء الثانى من تاريخ علم الفلسفة مسائل فيمن كل فلسفة أرسطو ومن شرحها وفيما يخص مدرسة الاسكندرية ، وكانوا يعتمدون أقوال (بلوتين) و (برقلوس) ويلهجون كثيرا بالقضايا العلمية ، وكانوا واسطة بين زمن الفلسفة القديمة والفلسفة المدروسة فى أوروبا ،

وكانت المجادلة بين أهل الظاهر منهم والباطن عدة قرون فضل فيها بعض أهل المدارس الشرقية على بعض وكان منهم معتزلة بصرية ومعتزلة بغدادية وحكماؤهم الفلاسفة الذين ظهرت فلسفتهم على علماء الفرنج في القرون المتوسطة بل وعلى أرباب الأسرار الروحانية ومثل مارى بونانتطور . انتهى .

فلما سمع صاحبي ذلك قال ياعجبا كل العجب هذا القول لم أسمعه إلا الآن ! وكيف يكون أسلافنا من الأمة المحمدية هم آباء العالم كله ؟ وكيف يكون ذلك شأنهم ونحن اليوم على مانحن عليه جهال غافلون ؟ فقلت : ذلك لثلاثة أسباب :

السبب الأول : أن ملوك الإسلام إن كانوا صالحين صلحت الأمة ، وإن كانوا طالحين ضلت الأمة لافرق بين الأمويين والعباسيين في الشرق والأمويين ومن بعدهم في بلاد الأندلس ، فهؤلاء الملوك جميعا إن استقاموا استقامت الأمة ، وإذا فسدوا فسدت لجهلهم وظلمهم فتضيع العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات . مثال ذلك من كلام المؤرخ المذكور أن محمدا الأحمر في الأندلس بعد ماظن المسيحيون أنهم كادوا يطردون العرب من الأندلس أخذ يثير الهمة والتنافس بين أهل الصنائع ويشوقهم إلى الاختراع ويعطى مكافآت لمن أتى بشيء من ذلك فنجحوا وبرعوا في نسج أقمشة الحرير وغيره ، وكذا في النبات براعة أهل قرطبة وكفى بقصر السباع المعروف بالحمراء شاهدا على ماكان لأهل غرناطة من الغنى والمهارة في فن البناء مع مالهم من الاجتهاد التام بعلوم الفلك والطب والكيمياء والرياضة والنحو والمنطق .

وأخذ هذا الملك يعمل بغرناطة أعيادا لتمثيل الوقائع الحربية وأعيادا لمناضلة الفرسان ومواسم لمقاتلة الأثوار وأخرى للتسابق ولعب أخذ الخاتم ، ويدعو أعيان الرعية إلى الأعياد والولائم العظيمة ، ولم يكن ذلك نتيجة جوره بل رفاهية المعيشة في سائر الرعية .

ولذا كانت مدينة غرناطة كرسي مملكته مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة جميع من لم يرد الإقامة تحت حكم نصارى أسبانيا ، وكثرت المهاجرة إليها حين أخذ الملك ( جاك ) يطرد المسلمين من مدينة ( والنسة ) سنة ١٢٤٩ .

ولم يزل ملوك غرناطة متولين الحكم بها من سنة ١٢٣٨ إلى سنة ١٤٥٢ ميلادية محسنين ترتيبهم السياسي ، فقد رتبوا في كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحا يستعملونه حالة هجوم العدو فرفعوه مرات على ملوكهم المتعدين من أداء واجباتهم الملوكية أو الذين لايعبأون بمشاورة الأمة ، وجعلوا للعساكر المحافظين بالثغور إقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلاتهم لتبعثهم على الوقاية من الأعداء ، وألزموا أنفسهم مثل ملوك الأقاليم الغربية بالقيام بما يلزم طوائف الفقراء من نحو المأكل والمشرب . وأكثروا في الأسواق للبيع الضروري ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية ، وفي كل ثمن منها ضابطا ورتبوا عساكر تدور ليلا في الأماكن التي لم يكثر طارقها ، وعملوا قوانين لزمن إغلاق المحال العامة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ، وعاقب كثير منهم من أفرط في شرب الخمر ، وأمروا اليهود أن يتميزوا بعلامة من غير إساءة معاملتهم ، ومنعوا الربا في النقود وابتكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة ، وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العلمية وانقاد الأئمة والفقهاء لقوانينهم النظامية بعد أن كانوا إلى زمن هذه السلطنة مطلقي التصرف يفعلون ماشاءوا ، وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنبيء عن كمال إيمانهم وعلو أفكارهم وشرف التأديب والتهذيب الديني منها انعزال النساء عن الرجال في المساجد وخروجهن قبل الرجال وإكثار الطاعة في رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء وأهلها أو إبقاؤها لتنفق في عمارات عامة النفع ، ومنع اجتماع الناس ليلا وإبطال الندب على الأموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم ودفن الموتى عارين عن الخاتم وباقات الأزهار المعتادة قبل هؤلاء الملوك .

وكان

وكان المستعمل فى قوانين العقوبات على الجنح والجنايات الضرب بالسوط والنفى عن الأوطان وإشهار المذنب بوضعه على خشبة فاستبدل هؤلاء الملوك ذلك بحبس المذنبين فى مكان يشتغلون فيه ، وأبطلوا رجم المذنبين ، وأمروا بدفن من يقتص منه بالقتل مثل دفن سائر المسلمين .

وبما سلف يعلم أن مملكة ( غرناطة ) نظرا لما كانت عليه من الأمور الجليلة تستحق أن تعتبر فى التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقررا على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديرين بتعجب الأجيال المستقبلة من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التى عجلوا زوالها من بحيث جزيرة أسبانيا .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : قد عرفت السبب الأول : وهو أن المسلمين لما جعلوا الملك ميراثا تولاه ملوك جهلاء فأضاعوا ما أسسه الفضلاء . قلت :

السبب الثانى أن هذه العلوم التى بها حياة الإسلام حقيقة ما كان الناس يدرسونها باعتبار أنها دين ، بل كانوا يدرسونها بأمر الملوك وتقربا إليهم كما تقدم آنفا ؛ إذ كان المأمون يعطى زنة الكتاب ذهبا لمن يترجمه ، ولذلك كنت تجد أكثر المترجمين من المسيحيين كأن المسلمين ظنوا أن هذا مخالف للدين مع أنه هو قوام الدين .

السبب الثالث أن علماء الدين كانوا لايتكلمون على فرض الكفاية بتوسع ، بل ترى ذلك فى كتاب [ جمع الجوامع ] المنتشر فى بلاد الإسلام فى علم الأصول لم يذكره إلا فى الكلمات اليسيرة التى رأيتها حتى نسى المسلمون عماد ديننا فقعدوا عنه ، وذلك لجهل التام فى الأعصر المتأخرة ، فقال صاحبى : زدنى من هذا ، فقلت : أما الآن فلا ! وإن أردت المزيد فسترى هذا المقام جميل المحيا ، باهر الطلعة ، باسم الثغر ، شريف المنقبة ، فى سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمناسبة قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » فهناك ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور فى نفس الآيات ، وأن موسى ذكر قومه بأيام الله كما أمره الله فذكرهم بخروجهم من ذل فرعون والمصريين وما بعد ذلك ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم ذكر قومه كما تقدم فى سورة الأنفال وفى كثير من الغزوات مثل قوله تعالى « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء » إلى آخر ما ذكرناه من النعم التى هى (١٤) نعمة ، وأنه يجب علينا فى هذا الزمان أن يذكر أئمة الإسلام بالحوادث السابقة من عصر النبوة إلى الآن وستراه هناك مفصلا مع الإيجاز وترى عصر النبوة وما بعده من العباسيين والأمويين وخراب بغداد والأندلس وانتشار العلوم وتقلصها وإذلال العلماء كابن رشد وانتقال العلم إلى أوروبا وضياع بلاد الإسلام بعد عزها ، ثم ذكر علماء أوروبا فى القرن السادس عشر وما بعده إلى نهاية التاسع عشر وأنهم حملوا العلم الذى أعطاه آباؤنا لهم وأننا يجب علينا أن نسترجع المجد ونخدم الإنسانية لأننا لهذا خلقنا فلنرجع إلى سيرتنا الأولى ، فلما سمع ذلك صاحبى قال : سأنتظر حتى أقرأ تفسير سورة إبراهيم ، ولكن بقى عندى سؤال وهو : لماذا نرى بعض المتعلمين من أبناء مصر وغيرها من المسلمين يعتقدون أن المسلمين الأولين ما عملوا شيئا ؟ ما السبب فى ذلك ؟ قلت : السبب فيه أمران :

[ الأول ] أن بعضهم بذلك يظهر تفوقه وعظمته على أبناء بلاده ، وهذه العظمة لاتظهر إلا بطمس معالم الأجداد وجحد الديانات ليقول الناس إنه فيلسوف عظيم .

[ الثانى ] أنهم لم يطلعوا على مثل ما نقلناه لك عن الفرنجة حتى يعرفوا ما عرفته الآن من هذا المقام ، بل إن أكثر هؤلاء يجهلون تلك العلوم فلا يعرفون إلا لغة من لغات الفرنجة ويأخذون شهادات فى تاريخ أو أدب أو نحو ذلك فيفرحون بما نالوا ويموتون شهداء الجهالة والغرور اهـ .

## حديث جميل

### فى عجائب القرآن ومدهشاته إذ يشبه فيه الدين بشجرة ذات فروع

قال صاحبي : قد فهمت ذلك ، ولكن أرجو أن تحدثني حديثا جميلا يكون فيه سمر البادى والحاضر أعرف به أن جميع العلوم يطلبها القرآن غير ما ذكرته سابقا حتى أزيد اطمئنانا وعلما ويثبت فى قلبى أن مافعله آباؤنا من التقاعس عن العلوم العصرية خطأ وأن ديننا يطلبها جميعها لافرق بين دنيوى وأخروى ، فقلت : اعلم أن جميع العلوم كشجرة أصلها ثابت فى العقول وتستمد من النور الإلهى وفرعها يسمو إلى العلا ويمتد على طول الزمان ، وإذا نمت الشجرة إلى أعلى فإن فروعها تكون قسمين : قسم منها فى القلب ، وقسم منها فى الأطراف ، والقسم الذى فى القلب عليه مدار الشجرة ، والقسم الذى فى الأطراف يحيط بالقلب ، وأنت إذا بحثت الشجر كله وجدته على هذا النمط .

ولا جرم أن القلب فى فروع الشجرة أهم من الأطراف ، أفتوافق على ذلك ؟ قال نعم ! قلت انظر : أليست العلوم فى الدنيا كلها على قسمين : قسم به حياة الأمم وسعادتها وهى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وقسم به حفظ البلاد والعباد كالقوانين وكالطب وما أشبه ذلك ، قال نعم ! قلت : فدين الإسلام له قلب كقلب الشجرة وأطراف كأطراف الشجرة ، قال نعم ! قلت : والقلب هى علوم الفلك والطبيعة من معدن ونبات وحيوان وإنسان وعلم النفس ، وهكذا علم طبقات الأرض ، وكذلك علوم الحساب والهندسة والجبر التى لاتتم حياة إلا بها ولا يعرف الفلك إلا بدرسها ، وعلم الفلك لابد منه لأمور كثيرة منها سير السفن فى البحار وهكذا ، قال نعم ! وهذه العلوم بها شكر الله وبها التوحيد ، وبها معرفة جمال الله ؛ فبها حب الله ، وبها عبادة الله ، وبها شكر الله ، وبها توحيد الله ، والزيادة فى التوحيد والزيادة فى الشكر واجبان عينيان على كل قادر .

وقد أجمع العلماء على أن شكر المنعم واجب ، ولا معنى للشكر إلا على نعمة ، ولا شكر على نعمة لانعرفها ولا معرفة لنعم الله حقا إلا بدراسة ماحولنا من السماء والأرض .

وعلى مقدار دراسة ذلك يكون الشكر ، إذ لاشكر على مجهول ، ولا حب لله بغير سبب ، وأهم الأسباب الوقوف على دقة صنعه ، وجمال وضعه ، وبديع حكمته ، قال صاحبي : إذن هذه العلوم واجبة على كل مكلف وهذا محال . قلت نعم محال ! بل أنا أقول كل من قدر على المزيد منها بحيث لايخل ذلك بأحواله وجب عليه لقول الله تعالى « وقل رب زدنى علما » وقوله « واشكروا لى » ولا شكر إلا بما علمت .

فهذا هو قلب دين الإسلام ، وهو نفس علم التوحيد ، وهو الذى به تحفظ الأمة نفسها وتنفع الأمم وتعلو ، وهذا سر قوله تعالى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

فمن عكف على علم الفقه وهو قادر أن ينظر فى جمال النجوم وبهجة القمر والشمس وجمال الزرع والزهر وبهجة الأنهار والبحار فهو غير شاكر لله ، بل هو غافل نائم ساه .

وهذه حال أغلب المسلمين اليوم ، فلا علم بالله ، ولا سعادة فى الحياة ، ولا ثروة ولا استقلال ، لأنهم أعرضوا عن هذه العلوم ، وهذا نفسه هو معنى قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » فقال صاحبي : واها لك ! واها لك ! واها ! أتتلو آيات سيقت فى الكفار فتجعلها فى المسلمين ؟ فقلت له : يا عجبا لك ! أليس يقول الله ؟ « ومن أعرض عن ذكرى » هو لم يقل كفر بى ، بل قال تعالى « ومن

أعرض عن ذكرى » والمسلم بجهله هذه العلوم أعرض عن ذكر الله الحقيق ، ألم تسمع قوله تعالى ؟ « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك الخ » .

فقال : إذن أغلب المسلمين يحشرون عميا ، قلت : لست أقول هذا ، بل أقول الإيمان بالله يورث دخول الجنة ، ولكن عمى البصيرة يؤخر الدخول فيها ، فإذا كان شكر الله واجبا وزيادة التوحيد واجبة فإن تركهما حرام ، وهذه معصية من الكبائر ، والكبائر القلبية أعظم جرما من الكبائر الجسمية ، وعليه يكون الضنك الذى حلّ بالمسلمين اليوم هو الذى جاء فى قوله تعالى « فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى » .

إنّ الله عزّ وجل سيعذب المسلمين حتما بعد الموت ويوم القيامة كما عذبهم فى الدنيا على ترك علوم تعدّ بالعشرات ، وعلى ترك صناعات تعدّ بالآلاف ، أحرمهم الله بها فناموا عنها ومضها واجب عينا وأكثرها واجب وجوبا كفائيا ، وأعظم المصاب على المسلمين ترك الواجب الكفائى ؛ فالمسلم الواحد منا يعذبه الله يوم القيامة وفى الدنيا بترك أمته صناعة واحدة أو علما واحدا .

هذا هوماقاله علماؤنا رحمهم الله تعالى . فإذا مات أحدنا وهو يحمل من الأوزار بعدد العلوم والصناعات أفليس يكون أعمى يوم القيامة؟وكيف يكون بصيرا والله يقول له « أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » فالمسلمون الذين يسمعون هذا القول ولا يقومون بنشره يحشرون يوم القيامة عميا على مقدار تقصيرهم ، وهاهم الآن يعذبون فى الدنيا بإذلال الأمم لهم ، فإن تابوا وأقاموا بذلك خفف عنا عذاب الخزى فى الدنيا بإزاحة الأمم الظالمة عنا وفى الآخرة بالخروج من جهنم ، فقال صاحبى : عرفت الكلام على قلب الشجرة الإسلامية فأحب أن أسمع الكلام على القسم الثانى وهو الأطراف ، فقلت : أما أطراف الشجرة الإسلامية فهى الفروع الفقهية والعلوم الإلهية من النحو والصرف وأمثالهما . فهذه العلوم مكملات ومتممات للقسم الأوّل محيطات به كإحاطة فروع الشجرة الجانبية بالفروع القلبية ، ولا سبيل للقضاة أن يحكموا بالشريعة إلا بسياج يحفظ البلاد ، والسياج الذى يحفظها هو الصناعات والعلوم الطبيعية والرياضية التى بها تنمو مصالح البلاد ، وإلا فهل يقضى القاضى بين خصوم لايعيشون وإنما الحكام لموجودين أحياء ؟ قال : حسن ماقلت .

### بيان أن تشبيه الإسلام بالزرع والشجر سيأتى فى سورة إبراهيم وسورة الفتح

فهل ورد فى القرآن مايشير إلى هذا التشبيه الذى ذكرته ؟ فقلت نعم ! سترى فى سورة إبراهيم وفى سورة الفتح أن الله يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » ويقول « ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه الخ » .

إنّ الله عزّ وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سيقعون فى هذا الجهل والذل المشين فأنزل هذين التشبيهين اللذين أبرزا العلوم كلها كأنها فروع لشجرة واحدة ، فالإخلال بالقلب أهمّ من الإخلال بالأطراف ؛ وسترى هذا المقام واضحا فى السورتين إن شاء الله تعالى .

### حسن نظم القرآن فى هذا التخيل

ومن عجب أن الله عند الأمور المهمة يوقظ النفوس لها بالتعبير ، فهاهو ذا فى سورة إبراهيم يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة الخ » فانظر كيف قال « ألم تر كيف الخ » كما قال فى سورة البقرة

« ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه » فالإتيان بألم إيقاظ لنا نحن كأنه يوبخنا على عدم العناية بالعلوم المكنونة المخزونة فى التعبير بالشجرة الطيبة ذات الفروع المذكورة كما وبخنا على عدم التفكر فى عظام الحمار كيف تكسى باللحم ، أى على جهل علم التشريح ونحوه كما تقدم فى سورة البقرة موضحا هناك ، فأنا أذكر المسلمين أن ينظروا فى سائر العلوم كما أذكرهم بعلم التشريح الذى هو أحدها .

ذكر حديثين

أحدهما بينى وبين عالم مسلم عظيم ، والثانى بينى وبين الأستاذ ( ادوارد براون ) الإنجليزى

وها أنا ذا أيها الأخ أحدثك حديثا دار بينى وبين أحد أفاضل علماء الشيعة من جهات حضرموت مشهور الاسم عظيم المقام ، وإنما لم أذكر اسمه لأنى لم أستأذن منه فى ذلك لأنه مسافر وقت كتابة هذا الموضوع .

فى يوم العيد الأكبر من سنة ١٣٤٤ هجرية زرت رجلا عظيما ردّا لزيارته بمنزله بالعباسية ، ومنزله محط رجال العلم والأدب من سائر الأقطار ، فما استقرّ جلوسى حتى قدم ذلك العالم الحضرمى الكبير وكنت لم أره من قبل وقد بلغنى عنه قبل ذلك بأسبوع أنه يعترض على ما أكتبه فى هذا التفسير ، فلما جلس أخذ يذكر المجلس بما لديه من علم جمّ وبراعة فى الحديث والعلم فأعجبت أنا وأعجب الحاضرون به ثم دار الحديث بينى وبينه على ما يأتى :

ما تقول فى الوهابية الذين هم قد استولوا على الحجاز ورأيت من كلامه أنه يبغضهم ، وهكذا جرّ الحديث إلى الشيعة وأهل السنة ، فقلت له : إن جميع هذه الأمة على حقّ ؛ فالوهابية والشيعة وأهل السنة قوم مخلصون وليس عند أحدهم إلا ما أعتقده هو وعلم الفقه عند الجميع قد قام بما هو منوط به ، إن علم الفقه به تحفظ العبادات والحقوق وتحفظ البلاد بالقضاء .

ولا جرم أن هذه الطوائف كلها قد حافظت على بلادها وعلى عباداتها ولكنهم جميعا مقصرون ، قال جميعا : قلت نعم جميعا ! ألا ترى أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذى جرى عليه المسلمون منذ ١٣ قرنا لامعنى لتكراره الآن ؟ ومن اطلع على كتاب المواقف وغيره من كتب العقائد عرف كيف كان القادة يكيد بعضهم لبعض لأجل الملك ، وهكذا ترى الملوك العباسيين قد فضلوا مذاهب أهل السنة حتى لايتبع الناس آل البيت ويبقى الملك لهم ، هذا الخلاف الآن مضى زمانه ، ومن المحزن أن يعيش المسلم فى القرن الرابع عشر ويتخيل نفسه فى القرن الأوّل الهجرى .

وها أنا ذا أقصّ عليكم قصصا مع عالم إنجليزى شهير جاء إلى مصر فى سنة من سنى العشرة الأول من القرن العشرين المسيحى ، أى منذ نحو (٢٠) سنة يسمى ( ادوارد براون ) وقابلنى وحادثنى فى أمور الإسلام وكان يجيد العربية والتركية والفارسية ولغات أخرى ، فقال : قد كلفتنى دولتنا الإنجليزية أن أبحث فى أهل السنة والشيعة من المسلمين هل يتفقون ؟ فسافرت إلى تركيا وجلست بين ظهرانيهم مدّة وهكذا إلى بلاد فارس وعاشرتهم فرأيت مدهشات ، رأيتهم جميعا يكرهون أهل السنة ، يتخيلون أنهم هم الذين قتلوا الحسين رضى الله عنه مع أن الحسين مضى له (١٣) قرنا ، ولقد قال لى طالب من طلابهم : إنى قد حاربت مع الروس ضدّ الترك ، حاربتهم بسيفى هذا لأنى أفضل الكافر على التركى لأنه سنىّ ، قال الأستاذ : وأنا موقن أن هذا الجبان ماذبح دجاجة مدّة حياته ولكن البغض ملأ قلبه ، ثم قال : فعلمت من هذا أن هذين الشعبين لايتحدان ، قال : وعجبت كل العجب من هذه البلاهة الحمقاء ، كيف يرى هؤلاء أن قيصر الروس يجوس رجاله خلال ديارهم ويتغلغلون فى البلاد ويوشك أن يبتلعوها ثم يرجعون إلى (١٣) قرنا مضت ، فهل

الحوادث التي مضى عليها تلك القرون كلها تهمهم أكثر مما يصرفونه داخل بيوتهم وما هو محيط بهم من كل جانب ؟ فقلت له : ذلك لأن المسلمين أكثرهم تركوا عقولهم ومواهبهم التي وهبهم الله تعالى وتركوا القرآن الذي قال الله فيه في مثل هذا المقام « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » قال الأستاذ ادوارد : وقدمت تقريرا لحكومتنا وسردت فيه هذه الوقائع وقلت هذان الشعبان لايتحدان ، انتهى .

هذا رأيه إذ ذاك ، ثم قلت بعد ذلك : فهذه الحادثة تبين مصائب المسلمين المقصرين في العلوم ، فقال بعض الحاضرين : أي العلوم تعني ؟ قلت : إن في القرآن (٧٥٠) آية كلها في معرفة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، وما هي إلا العلوم الرياضية والطبيعية ، فلماذا تركوها وحصروا عقولهم في علوم جدلية وظنية ، أليسوا جميعا ملزمين بالتوحيد ؟ قالوا بلى ! قلت : أليسوا جميعا مأمورين بشكر الله ؟ قالوا بلى ! قلت : كيف ناموا من هذه العلوم ؟ نعم ناموا عنها لأنها صعبة عليهم تحتاج لزمن عظيم ومشقات فاستسهلوا الجدال والطعن والقدح والرجوع إلى الوراء ، وتركوا علوم آبائنا إلى أوروبا ، علوم آبائنا التي لولاها ما كانت أوروبا ولا أمريكا ولا اليابان الحديثة ولا الصين الحديثة كما رأيته في كتاب [ سديو ] الفرنسي ( وقد تقدم في هذا المقام ) أمة تنام عن الحقائق وتقتنع بالجدل والشقاق والخلاف جهالة فاشية وموت أدبي ، الله الله ! فليقرأ السني كالوهابي والشافعي والحنفي ، وليقرأ الزيدي والإمامي ، ليقرءوا كلهم هذه العلوم . ألم يقرءوا قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ألم يعلموا أن هذه العلوم هي حياة أممهم ؟ فقال بعض الحاضرين : ألست تخشى أن يرد عليك بعض المشهورين في الفقه الإسلامي فقلت له : اعلم أنه لن يقدر عالم أن يدفع ماقلته لأني أقول قال الله ، وأقول إن العقل قضى بكذا ، وأقول إن علماءنا السابقين نصوا عليه في كتبهم ، فأي حجة لقائل بعد ذكر هذا ؟

العلوم شجرة متفرعة عن أصل ثابت وفرع في السماء ولم ينزل دين من السماء ولا حدث علم في الأرض إلا كان أولا أصلا منتظما ثم تفرع على مدى الزمان .

وها هو ذا الفقه أصله من العصر الأول ثم تفرع طرقا ومذاهب ، والفقه كله من مائة وخمسين آية ، فأين التفرع في سائر العلوم التي آياتها كثيرة جدًّا تعد بالمئات ، فأقر الحاضرون جميعا ماقلته واستحسنوه ، بل فرحوا به ، بل صاروا من أنصار هذه الدعوة اه .

ثم قلت لصاحبي : هذا وإني موقن أن هذا الذي أذكره سيعم أقطار الإسلام جميعها وسيكون لهذا القول أنصار وأنصار ورجال عظماء يقومون به وسينشر الله هذا في القريب العاجل « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

## خاتمة

ختمت هذه السورة بقوله تعالى « وهو رب العرش العظيم » وقيل أيضا فوق ذلك إنها خاتمة ما نزل على رأي .

والحكمة في ذلك أن هذه السورة جاءت للقتال والجهاد والبراءة من المشركين ، وقد جاهد المسلمون بتبوك بعد غزوات أخرى .

وهذا فيه ابتداء سقوط عروش ملوك العالم المعروف اذ ذاك ، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين

بفتح فارس والروم ، ولم يفتحا فى زمانه ، فها هو ذا يقول « عليه توكلت » ومن توكلت عليه له العرش العظيم .

وهذه الأمم التى أحاربها لها عروش أقل من عرشه ، فهو لامحالة غالبها وستسقط تلك العروش فى سلطان أمتى وتصبح فى عداد قوتها .

وسيأتى فى ( سورة النمل ) حديث الهدهد وما فى قصته من ذكر العرش إذ جاء فيها « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم — إلى قوله — ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » فنكر عرشها وعرف عرش الله إشارة إلى أنه أعظم من عرشها ، ولذلك نقل عرش بلقيس فأصبح أمام سليمان الذى هو مرسل من عند رب العرش العظيم ؛ فالعرش الذى هو لمخلوق أصبح فى ملك من أرسل من عند رب العرش العظيم فى سورة النمل ، فهاهنا ذكر العرش العظيم فقيل « لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ولم تذكر العروش الأخرى بل اكتفى فيها بالحض على الغزوات لاغير .

وفطن الأذكياء إلى أن هذه العروش ساقطة لامحالة فى يد المسلمين كما أصبح عرش بلقيس بين يدى سليمان عليه السلام .

وهذا من لطائف القرآن وعجائبه وهى الحكمة فى اختتام السورة بهذه الجوهرة الثمينة ، ومن المناسبات قوله « ثم استوى على العرش » بأول يونس .

تذييل لتفسير سورة التوبة وأن الرحمة فيها من أسرار الصلاة

اعلم أن سورة التوبة فيها سر الرحمة المتجلية فى الصلاة . إن المسلم فى صلاته يناجى ربه بالفاتحة والتشهد وبعض الأدعية وكلها مرجعها الرحمة العامة ، وإرجاع الأمور إلى الله .

ففى الفاتحة يقول المسلم إن المحامد كلها لله على تربيته العالم العلوى والسفلى الذى شملته الرحمة وعمه الإحسان والعدل فى الجزاء . فله وحده الخضوع والتوجه ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه تكون الهداية للصراط السوى ، صراط المنعم عليهم الذين هم وسط بين طرفين ، وفى تشهده يفوض كل شئ لله ، فالثناء فى الفاتحة ، والتعظيم فى التشهد خاصان بالله تعالى ، وهكذا سائر الأمور ، وكما أنه طلب الهداية من الله فى الفاتحة أقر هنا بأن السلام عام من الله على الأنبياء وجميع الصالحين ، ثم هو يناجى ربه طالبا ازدياد الرحمات على النبى صلى الله عليه وسلم وصالحى أمته والتحاقهم بالصالحين من الأمم السابقة ، ثم يستعيذ بالله من العقبات التى تعوقه عن الترقى لربه ، وترى المسلم فى الاعتدال من الركوع يقول نحو ذلك فيحمده حمدا يملأ السموات والأرض وغيرها ، ويبالغ فى التبرى من الحول والقوة ، فلا عطاء لغيره ولا مانع لعطائه ، وهناك لاينفع الاجتهاد بلا إعانة وهكذا .

فملخص مايقول المؤمن فى صلاته التبرى من الحول والقوة والاعتماد على الرحمة الواصلة من الله إليه وتفويض الأمور له وتسليمها إليه .

هذه هى المقصود من الصلاة وهى لاتصح ولا بقاء لها ولا ثواب إلا إذا حضر قلب المصلى فيها ، ومتى حضر أشربت هذه المعانى فى قلبه ولا بد من العمل بها ، لأن الإنسان يعمل بما يعتقده وا'تقاد المسلم إذن أن الله هو المربى وهو المستعان وله الخضوع وله العبادة ومنه الهداية ، ولا عطاء لغيره ولا عمل للعبد ، وهذا كله تفويض تام .

هذه هى صلاة المسلم يكررها طول النهار وطول الليل ، وأعماله الدنيوية تتخلل هذه الصلوات ، وإذا عقلها أثرت فى أحواله وأعماله وأقواله مادام حاضر القلب فى الصلاة .

وهنا بيت القصيد ، هنا تجلى ما أريده فى هذه الخاتمة ، فلقد رأيت كيف تخلى المسلم عن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن وقيل له إياك أن تكون الثمانية أحب إليك من الله فإنها منه وإليه ، وفيها يرى المسلم أنه إن قتل فالقتل مغنم ، وإن نصر فهو مغنم ، وإن عاش عدوه أو مات فذلك كله مغنم للمسلم لأن صدره اشتفى من عدوه بعذاب جهنم أو عذاب القبر إن مات أو بموته قتلا بيد المسلم .

فالحياة فى نظر المسلم كلها سعادة ، فلا فوات المال يحزنه ، ولا ذهاب العمر يؤذيه وإن افتقر فالله سيغنيه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، فإذن يكون قلبه غنيا وهو منشرح الصدر .

فانظر كيف أصبح هذا الوجود كله والأحوال جميعها فى حق المسلم رحمة وسلاما تحقيقا للرحمة المقروءة فى الفاتحة المتكررة فى كل صلاة والسلام الذى يرفرف عليه فى كل تشهد .

فالمسلم إذن فى رحمة وفى سلام دائمين وأصبحت الرحمة فى العقيدة الراسخة التى تغذيها تلك التلاوات ، فالحرب والفقر والموت والهزيمة والنصر والحياة والغنى ، كل هذه المتناقضات يصحبها الرحمة والسلام للمؤمن وإذا أصابه النصب والتعب والمخمصة والفقر فهو فى رحمة وسلام ، لأن المسألة حوّلت من المادّيات إلى المعنويات ، ومن الظواهر إلى البواطن ، وإذن سرّ الفاتحة وسرّ الصلاة قد تجلى تجليا أعظم فى سورة التوبة .

هنا ظهر سرّ الصلاة ، وسرّ الفاتحة ، وسرّ التشهد ، وسرّ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى صالحى أمته ، وسرّ القنوت وغيره .

ولعمرى إن هذا كله هو سرّ الحياة وسرّ السعادة ، أتدرى أيها الذكى ماذا قال الحكماء والفلاسفة فى هذا المقام ؟ أتدرى ماذا صنف الفلاسفة المتقدمون فى هذه المسائل ؟ إنى أحيلك على ما تقدم فى سورة البقرة ، فلقد ذكرت لك هناك أن فيلسوفا يسمى ( قابس ) قبل الميلاد بخمسمائة سنة ألف كتابا يسمى [ لغز قابس ] لخصته لك هناك ، ويرجع الأمر فيه إلى أن السعادة ليست فى المال وجمعه ، ولا الجمال وبهجته ولا الولد وكثرته ، ولا العلم وعزته ، ولا الصيت وشهرته ، ولكن فى الصبر والثبات والرضى فى مختلف الحالات ، فإن شئت فارجع إليه وإن شئت زدتك اليوم بيانا وأفدتك يقينا وحكمة وإيمانا .

تعجب كيف اتفق العلم والدين ! وكيف صنف الفلاسفة بقولهم ما نزل الوحى على نبيه ، وكيف يرى بعض الناس أن هذه المواعيد الإيمانية ، والآيات القرآنية ، والبشارات الأخروية إنما جعلت لترغيب الجاهلين والضحك على أذقان الغافلين ، ذلك لأنهم يظنون أنهم امتازوا بعلمهم عن بقية المسلمين إذا هم لا فى العير ولا فى النفير ، فلا هم بقوا مع العامة المقلدين ، لا هم وصلوا إلى رتبة الحكماء المحققين .

فياعجبا ! كيف يضلّ العلم أكثر المتعلمين ؟ وكيف يكون العلم ضلالا والتنوّر به سرابا ؟

إن الذين يسعدون فى الدنيا رجلان : جاهل له إيمان ، وعالم تم الحكمة والعرفان ، فأما المتوسطون فهم الذين تملكتهم الحيرة والشك فى هذه الحياة ، فهم أبدا معذبون ويتلهون بالشهوات الجثمانية فى هذه الحياة ظانين أنها هى السعادة إذ لا سعادة فى سواها ، وما الشهوات إلا « ظلّ ذو ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب » فهم يتقون الحرّ بالنار ● كالمستجير من الرمضاء بالنار ● « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

حكاية الكوخ الهندى

ألف عالم من علماء أوروبا لا أذكر اسمه الآن كتابا يسمى [ الكوخ الهندى ] لخصه سياحة من الغرب

إلى الشرق ، فطاف مصر وسوريا وسائر البلاد باحثا عن الحق أين هو ؟ فوجد المسيحيين والمسلمين واليهود جميعا مختلفين ، فقال في نفسه : أين السعادة إذن ! فوصل إلى الهند واتصل بالبراهمة فلم يبيحوا له الاتصال برئيسهم بل ألزموه أن يجلس في مؤخر المجلس بعد أن اغتسل فأخذ يلقي أسئلة على آخر رجل في المجلس وهذا يلقيه لمن يليه وهكذا حتى وصل إلى رئيسهم ، وصورة السؤال : [ أين الحق ؟ ] فكان الجواب أنه عند البراهمة ، وبعد أخذ ورد وجدال هزئ الجمع بهذا الفرنجي فخرج يتعثر في أذيال خيبته ، وبينما هو سائر إذ عثر بامرأة تبكي حظها وتندب أيامها ، فسألها : ماذا دهاك ؟ فقالت : إن زوجي مات ولم أحرق معه ، وكل امرأة مات زوجها ولم تزج نفسها معه في النار فتموت تعتبر نجسة فأنا نجسة فلا يكلمني أحد ، فقال لها : وأنا مثلك لأني رجل مسيحي يعتبرونني نجسا فاصطلحا أن يتزوجا وعاشا في القفر يشاهدان جمال الله في طلوع الشمس وغروبها وجمال النجوم والقمر وبدائع الطبيعة في النبات والأنهار والحيوان والهواء الطلق ثم رزقا ولدا .

ومما اتفق لهذا الرجل أن مر به سائح فأخذ يحدثه وقال له : أنت سعيد ، قال إني لم أحس بالسعادة إلا في هذه الحياة ، فجمال الله مشرق علي أطالعه في نجومه وشمسه وقمره وزهره وشجره ونهره ومائه وهوائه وتغريد طيره وحسن صنعه ، فأنا في أنوار وجمال وبهاء ، وهذا ولدي قرة عيني وعين أمه وقد ابتعدنا عن ضوضاء المدن ودخانها وآلامها وكذبها وقضاياها وشقائها الخ ، فقال له : كيف نلت هذه السعادة ؟ قال له : بعد أن كلت نفسي بالمصائب وصبرت على النوائب ، فالمصائب هذبتها ، والنوائب صقلتها ، وحوادث الأيام كلتها ، وقوارع الدهر شذبتها ، فأصبحت نفسي كالجلد المدبوغ ذهب نتنه وصلح عمله ، فأما الذين لم تهذبهم الأيام ولم تصهرهم المصائب فهم أبدا في حزن وألم ، فلا المال يغنيهم ، ولا الجمال وحده يرضيهم ، ولا الصيت يسعدهم ، ولا الولد يكفيهم ، فهم عرضة للهوان والذلة على كل حال ، فقال له : أيها الأخ كيف تقول إن احتمال النوائب يسعد مع أن النوائب هي الشقاء ، وهي الذلة وهي الهوان وهي العذاب ، وإذا لم تكن هي عذابا فأين العذاب إذن ؟ لقد جعلت الجحيم نعيما ، والغنى فقرا ، وقلبت القضايا ، ولم تصب الحقيقة ، فهل يكون الليل نهارا ؟ أم يكون الظلام ضياء ؟ أم الموت حياة ؟ إن هذا هو العجب العجاب !

فقال اسمع ياصاح : إن الجبل صعب المرتقى فإذا تحققت أن فوق هذا الجبل حديقة غناء ، وطيورا مغردة ، وأنهارا جارية ، فأنت لامحالة مرتق إليه ، فما دمت في الارتقاء فأنت في عناء ، ولا يكون العناء إلا حيث لم تصل إلى قمته ، ومتى وصلت إلى أعلى الدرجات ، فهناك لا ألم ولا شقاء بل هناك مايسر القلوب ويشرح الصدور .

هكذا يكون المرء في الحياة ، فما دامت نفسه لم تصقل بالنوائب فإنه لايزال في نصب وتعب ويهتم لها كثيرا ، فأما إذا استكملت نفسه بها فإنه لايهمه أمرها وتمر عليه اللذات والآلام كما يمر الليل والنهار والصباح والمساء ، فحمد صاحبه له هذا البيان وأدرك مالم يعلم في المدارس من قبل .

فانظر أيها الذكي لدين الإسلام كيف رأيت في هذه السورة أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم بلا تعلم ولا فلسفة ولا حكمة عقلية قد نالوا هذه الأمنية وأصبحوا لايبالون بالأهل والإخوان والحياة حتى قال أبو خيثمة : [ ظل ظليل ، وتمر يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله في الحر وشظف السفر والله لايكون ثم ركب ناقته ] وكيف رأيتهم يتذوقون الجرة ليشربوا الماء عليها ، وكيف رأيتهم راضين فرحين مبتهجين في قلوبهم ، وكيف رأيتهم يتقدمون للموت ، فالمال مبذول والعمر مبذول ، كل هذا بشيء واحد وهو الإيمان .

فانظر كيف فضل الإيمان ماعجز عنه العلم والفلسفة والحكمة ، وكيف جهل أكثر الناس أن السعادة راجعة للوجدان والفلسفة شرحتها والقرآن أبرزها .

انظر كيف كان أكثر الناس لايعلمون « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » وهم عن سعادة هذه الحياة نفسها معرضون ، وبأسرارها جاهلون ، وعن الحقائق غافلون « والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » اه .

ذكر المناسبة بين سورة التوبة والسور التى بعدها، وهى سورة يونس

اعلم أن المناسبة بين السورتين من ثلاثة وجوه :

[ الوجه الأول ] أن سورة التوبة لآداب الجهاد وهداية الكافرين وقسم الغنائم وأكثر ذلك فى السفر أما سورة يونس فإنها لتعليم الناس وهم آمنون مطمئنون .

[ الوجه الثانى ] اعلم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن الأمم الإسلامية ستنبذ العلوم وبدائع آياته فى سمٰواته وأرضه ظهريا وبذلك يذل كثير منهم للأمم المحيطة بهم ، فلذلك يقول فى آخر التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة الخ » فأمرهم أن ينقسموا فريقين : فريق السفر والجهاد ، وفريق التفقه فى الدين .

وعلم سبحانه أن هذه الكلمة سيصطلح الناس قرونا متطاولة بعد الصحابة والتابعين على اختصاصها بفروع من المسائل ليست هى كل الفقه كما تقدم بأوضح عبارة ، فلذلك جعل هذه الكلمة فى أواخر هذه السورة وأعقبها بسورة يونس وشرح فى أولها مايفيد ذلك التفقه ، شرحها شرحا مستوفيا ، يقول الله هنا لتبق طائفة يتفقهون فى الدين ولينذروا قومهم الخ وينكر على الناس تعجبهم من إرسال أحدهم لينذرهم ويبشرهم .

ثم أخذ يبين خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش وتدبير الأمر وأنه أضاء الشمس ونوّر القمر وقدّره منازل ليعلم الناس الحساب ، وأبان اختلاف الليل والنهار وحذر من اليأس من الآخرة والاكتفاء بالدنيا والاطمئنان إليها والغفلة عن هذه الآيات السماوية والأرضية وغيرها ، ومدح الصالحين المهتدين .

وختم هذه الجمل بأن أهل الجنة يختمون دعاءهم بتنزيه الله وبحمده على تربيته العالمين . لاجرم أن هذه هى مجامع التفقه فى الدين . هذا الشرح المذكور فى أول سورة يونس هو عينه ماذكرناه سابقا ونقلنا معناه من كتب الأئمة ومن كلام الإمام الغزالى .

إن الله عز وجل ليس عن الخلق غافلا كما قال « وما كنا عن الخلق غافلين » وسترى إن شاء الله عند تفسير هذه الآية كيف عرف علماء الغرب عجائب هذه الدنيا التى هى داخلة فى هذه الآيات القرآنية ، وعسى أن تطلع هناك على بدائع ألوان الحيوان وأشكاله التى عرفها القوم وعرفوا أن تلك الألوان وتلك الأشكال إنما خلقت لتكون وقاية لتلك المخلوقات الضعيفة من أعدائها القاتلات ، فترى الحشرة تخلق على هيئة حصاة من حجر الصوّان مثلا ليجهلها الطائر الذى يعيش عليها فتبقى محفوظة إلى أمد .

فهكذا هنا ألهم الله الإمام الغزالى قبل نحو ٩٠٠ سنة أن يذكر العلماء بعده بأن الفقه الذى لم يعرفوا سواه إنما هو فقه اصطلاحى ، ولكن التفقه المذكور هنا غير ذلك وقد عرفته وعرفت أيها الذكى أنه يرجع فى أكثره إلى أمرين اثنين : تهذيب النفس وإشراقها بالعلم .

وهذان الأمران هما المذكوران فى سورة الفاتحة التى ابتدئت بهذه الجملة « الحمد لله رب العالمين » ولفظ « العالمين » يشمل العالم العلوى والسفلى ، وهو مبسوط فى تفسير الفاتحة .

لجميع العلوم التي عرفها أهل أوروبا وأمريكا وبلاد اليابان هي داخلة في قوله « الحمد لله رب العالمين » أفلا تتعجب معي كيف ذكرت الجملة بتمامها هنا في دعوى أهل الجنة ولم تذكر بهذه الهيئة بعد الفاتحة إلا هنا وفي أثناء سورة الأنعام التي ذكر فيها عجائب السموات والأرض ، لايحمد الناس محسنا عليهم إلا إذا عرفوا نعمته وعلى مقدارها يكون إعظامهم له بقلوبهم وقيامهم بقضاء حوائجه بجوارحهم وثناؤهم عليه باللسان .

فهنا ثلاثة أمور : إعظام بالقلب وحب وهذا بالنسبة لله مطلوب ، ولكن ليس هذا بالتكلف وإنما هو نتيجة الشعور بالنعمة والقيام بقضاء الجوارح والأعمال هنا في حق الله مستحيل ، فيرجع ذلك إلى الإخلاص في خدمة الناس والعمل لإسعادهم ، أما الثناء باللسان فإنما هو وظيفة اللسان ، فاللسان هو آخر أنواع الشكر الثلاثة .

إذن الحمد نتيجة من نتائج الإنعام المذكور في قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » ولما أنعمت عليها وعرفوا النعمة قاموا بإعظامك بقلوبهم وخدموا أممهم ونطقوا بالثناء عليك فقالوا « الحمد لله رب العالمين » وهذه الجملة مذكورة هنا لنذكيرنا بنعم الله ؛ وبعبارة أخرى : لتذكير المسلمين بقراءة عجائب السموات والأرض التي ذكر منها هنا الشمس والقمر والحساب وتقدير المنازل الخ .

فهذه كلها من تربية الله للعالمين ، فسورة الفاتحة ثناء ودعاء ، والثناء في أولها بالحمد وفي قسم الدعاء سبب الحمد وهو النعمة ، ففي الفاتحة ذكر السبب بعد المسبب ، ثم أقول هنا . فكما لم يغفل الله عن الحشرات وأنواع الحيوان فخلقها على أشكال وهيئات تكون سببا في بقائها إلى أمد .

هكذا هو نظر الأمم الإسلامية الحالية قبل أن يحققها فهيأ لها الأسباب ونظم الكتب وألهم العلماء شرحوا لفظ التفقه مثل مارأيته عن الإمام الغزالي وبقي ذلك في الكتب مذكورا والناس عنه غافلون ، وبقي الخلف يتبع السلف تسعة قرون والأمم من حولهم يعلمون وهم نائمون .

وأول ضربة وقعت على عالم بعد موت الإمام الغزالي تلك الضربة التي وجهت إلى العلامة ابن رشد إذ كفروه لأنه مع مابينه وبين الغزالي من الخلاف وافقه في أن هذه العلوم كلها هي التوحيد وهي المطلوبة، فآذاه المسلمون وأهانوه ، ويقال إنهم بصقوا في وجهه ، ومرة طردوه من المسجد ، وأمر الملك بنفيه من العاصمة إذ ذاك بالأندلس ، وبقي في بلدة لايسكنها إلا اليهود احتقارا لشأنه ، ثم رضى عنه ومات بعد قليل فتناقص العلم من بلاد الإسلام وذل المسلمون في أقطار الأرض ذلا عظيما ، ذلك لأنهم جهلوا التفقه في الدين الذي أمر به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعرفوا كيف ينذرون قومهم ويبشرونهم ، بل عكفوا على قشور من العلوم .

يقولون للصبي إذا دخل المدارس الدينية اقرأ فروض الوضوء ويطيلون في ذلك إطالة ويجعلون كل حياته في ذلك ولا يظهرون له جمال الله وعجائبه وبدائع صنعه ، ولا يشرحون له شرحا مستفيضا إخلاف الوعد والحقد والحسد وما أشبه ذلك ولا يهذبون نفسه ، وصار ذلك خلقا في الأمة الإسلامية فذلوا ذلا عظيما وفقدت الإنسانية العامة هذه الأمة المسكينة ، فلم تنفع نفسها ولم تنفع الناس وصارت عالة على الأمم فأذلوها كما فعلت النحل في قفيرها ، إذا ترى ملكتها القائمة بتدبير مملكتها قد حصل لقاحها فحملت وهناك في القفير ذكران النحل فتحمل سكان القفير من النحل المذكور على أولئك الذكران فتبيدهم من الوجود لأن الله لايبقى في خلقه مالاعمل له .

هكذا الأمم التي خلقها الله لما رأت الأمم الإسلامية غافلة جاهلة حملت عليها فأخذت بلادها وجعلتها تحت

إمرتها

إصابتها إلا تلك الأمم التي استيقظت كالترك وكالفرس وكالأفغان فإنها لما استيقظت هذه الأيام أخرج الله منها الفرنجة«لا وإن عدتم عدنا» .

أقول فمعنى التفقه الذي شرحه الإمام الغزالي بقي في الإحياء وقد نام عنه المسلمون ، ناموا عنه نوماً عميقاً لموت العلماء والمفكرين ، وبقي المسلمون بعد تلك القرون مكبين بعلوم الصوفية حتى إنك ترى العلامة محيي الدين بن عربي قد أدخل جل الفلسفة والدين في كتابه [ الفتوحات المكية ] وخلطه بالتصوف حرصاً على العلم ولم يرد أن يعلمهم الفلسفة والعلوم الحكمية وبدائع السموات والأرض لأنها كفر عندهم وقد رآه فوق طاقتهم فانحط المسلمون حتى جاء العصر الحاضر فأعان الله على هذا التفسير وأعان غيري على تأليف كتب في ذلك ، وهذا أوان رقي المسلمين .

فلن يقدر صغار العلماء على الطعن في عالم ولا مفكر لأن الأمم المتعلمة أحاطت بالمسلمين من كل جانب فليس يقدر أحد من جهلة المسلمين على مناوأة ما يكتب الآن لنشر العلوم والتفقه في الدين الذي شرحه أسلافنا وغفل عنه من بعدهم ونحن نستأنس بكلامهم ليعلم المسلمون أن هذه الآراء التي أذكرها في هذا التفسير ليست حديثة بل قالها آباؤنا ونام عنها من بعدهم ، وأن الله عز وجل أراد إيقاظ الأمة اليوم ولا رادّ لما أراد وستبقى هذه الأمة أمداً يعلمه الله وسيحفظها كما حفظ تلك الحيوانات الضعيفة فإنه يقول « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وإني أسأل الله عز وجل أن يوفق عند تفسير هذه الآية برسم صور تلك الحيوانات التي حفظها الله بسبب أنه خلقها مشاكلة لما حولها من شجر أو حجر أو مدر لتعلم أنه هكذا سيفعل بأمة الإسلام فيحفظها لأنها ستكون مشاكلة للأمم في علومها ومعارفها بل ستكون هي الأرقى .

فتبين بهذا أن التفقه في الدين قد جاء ملخصه في أول سورة يونس ليعرف هذا المعنى المسلمون ويخرجوا من جمودهم القديم إلى مجدهم الحديث ويقرءوا جميع العلوم ويعرفوا آيات ربهم ويفرحوا بجماله وتعمر بلادهم وهم مبتهجون .

وسترى أيها الذكي في سورة يونس من عجائب إتقان الصنعة الإلهية ما يبهر الأبصار كالصور الكوكبية المرسومة بالتصوير الشمسي وكذلك الصناعة البشرية التي وضعها قدماء المصريين في معابدهم وفوق جثثهم المحنطة؟ وكيف أبدع الله مئات آلاف من المجرّات التي كل منها تشتمل على مئات آلاف الآلاف من الكواكب وعرف الناس أبعادها إجمالا ، وكيف عرفت تلك الأمم حولنا فرسمت بعض الصور السماوية بهيئة جميلة تسرّ الناظرين ، وكيف حذر الله من الغفلة عن آياته سواء أكانت بصنع يديه كالصور السماوية أو بصنع عباده كحفظة تلك البروج التي ستراها برسم قدماء المصريين .

وهذا قوله تعالى في سورة يونس « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » هذا تمام الكلام في الوجه الثاني من وجوه المناسبة بين السورتين .

الوجه الثالث : ختم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من نوعهم تعز عليه مشقتهم حريص على إيمانهم رءوف رحيم بالمؤمنين منهم . ثم تلا ذلك في أول يونس بأن هذا الكتاب الذي جاء به كتاب ذو حكمة وقال « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » فهذه الآية تكملة وتتميم لآية آخر السورة هنا . وليس في القرآن من سورة مبدؤها يوافق نهاية التوبة إلا سورة يونس فظهرت المناسبة بين السورتين .

وهذه المناسبة كالتي بين سورتي الطور والنجم ، ففي آخر الأولى « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وفي الثانية « والنجم إذا هوى » وكآخر المائدة وأول الأنعام إذ يقول في آخر الأولى « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » إلى قوله « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير » ويقول في أول الثانية « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » إلى قوله « يعلم سركم وجهركم الخ » فخلق السموات والأرض راجع لقوله « لله ملك السموات والأرض » و « يعلم سركم وجهركم » راجع لقوله « تعلم ما في نفسي الخ » وهذا القرآن لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي غرائبه ؛ والحمد لله رب العلمين اه .

تكملة الكلام في مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس

الفقهاء في الإسلام في الماضي وفي الحال والاستقبال

مرّ بك أيها الذكي الكلام في هذه المناسبة وأنها من ثلاثة وجوه ، ومن أهمها أن التفقه في الدين جاء في آخر التوبة ، وجاء بعدها في الترتيب سورة يونس ، وجاء في أوائلها ذكر ضوء الشمس ونور القمر إلى آخر ما مرّ ، وأتبعه الآن بذكر ماضي الفقهاء وحاضرهم ومستقبلهم .

اللهم إن الحكمة والعلم أثمن ما في هذه الدنيا وخير العلوم ما به يعرف الإنسان قيمة نفسه وخير ما يكتبه المفكرون في الإسلام البحث في أحوال أمم الإسلام وعاداتها وأخلاقها ، وها أنا ذا باحث في الفقهاء بما يناسب المقام .

الفقهاء في عصر الصحابة

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما مرّ بك من كلام الإمام الغزالي يعدّون الفقهاء أنهم هم أولو الألباب « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » ويعدّون نعم الله عليهم « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وهم الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا الخ » .

الفقهاء بعد الصدر الأوّل

ذهب الصدر الأوّل فتضاءل التفقه في الدين وانحاز إلى ما هو معروف اليوم من الفروع العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، فأما ما عدا ذلك من خشية الله وحبه والولوع به والتفكر في جماله فذلك قضي عليه القضاء الأكبر وصار نسيا منسيا ، وهذا هو العصر الذي كان فيه الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري وقبله وبعده للآن .

الفقهاء في زماننا

قد قلت لك قبل هذا إن أكابر علماء الإسلام قاموا على تلك الطريقة العقيمة المنتشرة في أنحاء الإسلام إلى اليوم وذمّوها وشنعوا على القائمين بالدين ، ولكن رؤساء الدين في الإسلام لم تزعجهم تلك الصيحات ولم توقظهم تلك المنبهات ولم يغيروا نهجهم بل الخلف يتبع السلف ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » فتبع السني السني ، والشيعي الشيعي ، فالحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي والإمامي ، كل هؤلاء عاكفون على ما درسوه عن أشياخهم موقنون أنهم أهدى من غيرهم محلا وأشرف أملا نابذين ما عدا ذلك مما ليس لهم به علم فحافظت الأمة على حصر أفكارها في واد ضيق فنام المسلمون نوما عميقا أدّى إلى اضمحلالهم إلا قليلا منهم فهم مستيقظون .

ثم اتسع نطاق التسمية بالفقيه فلم يقتصر الناس فى التسمية به على من يحفظ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والرهن والسلم والإجارة والوديعة والهبة والميراث والدعاوى والعتق والحيض والنفاس الخ ، بل صار هذا الاسم يطلق على كل من حفظ القرآن عن ظهر قلب وإن كان من أجهل الجاهلين ، وهذه طريقة منتشرة فى بلادنا المصرية يسمون من حفظ القرآن فقيها وإن لم يدرك من معانيه حرفا واحدا .

والله يقول « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » وفى الحديث « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه » وهذه التسمية لهذه الطائفة التى هى أعمّ من سابقتها قد تكون مصحوبة باحتقار نوعا ما وباستهزاء لسببين :

السبب الأوّل : أن هؤلاء غالبا كانوا قبل الآن يعلمون بالعصا والإذلال فتذل نفوسهم وتخنع .

السبب الثانى : أن النفوس الإنسانية فيها نور إلهى عام تخترق الحجب وتعرف بعض الحقائق وإن لم تحسن التعبير عما تعقل فهنا يظنّ العامة أن هذا الفقيه لحفظه القرآن عنده علم وفى الوقت نفسه تعلم نفوسهم أن قيمته العلمية منحطة ولكن لا يحسنون أن يعبروا عن ذلك .

آثار ما تقدّم فى الإسلام

فانظر كيف كانت الأمم الإسلامية صورة مكبرة لفقهائها ، فلما كان فى الصدر الأوّل أمثال أبى بكر وعمر كانت الأمة شامخة الرأس عزيزة الجانب ، ولما صار الفقيه محصورا فى الفروع فى الأزمان المتأخرة أو حافظا للقرآن صارت الأمم الإسلامية كلها صورة مكبرة لفقهائها ، فكما عكف الفقهاء على حفظ السور أو على حفظ الفروع وغفلوا عما سواها ، هكذا الأمة غفلت ونامت ثم ذلت وخضعت ، ذلك هو تاريخ الأمم الإسلامية وفقهائها قديما وحديثا .

الفقهاء فى مستقبل الزمان

أما الفقهاء فى مستقبل الزمان فى أمم الإسلام فإنهم سيكونون أشبه بالحكماء فى أمة اليونان ، فيكون الفقيه فى دين الإسلام هو المتمكن من العلوم المطلع على حقائقها الباحث المدقق ، فإذا قرأ سورة يونس بعد التوبة كما تقدم بحث فى الشمس والقمر والمنازل المذكورات فى أول السورة وأتبع ذلك بفهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويتمادى فى فهم يونس إلى أن يرى فى آخرها أن الله نجى أجساد بعض الفراعنة لتكون تلك الأجساد البالية والعظام النخرة المحفوظة فى الأبنية المشاهدة عبرة للأمم المتأخرة فيدهشه ما يرى فى مصر ( كما ستراه موضحا فى سورة يونس قريبا ) من إقبال الأمم من أعيان أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا على الاعتبار بتلك الجثث المحنطة والتفكر فى تلك الصناعات العجيبة والدروس الشائقة المنيفة وغرائب العلم وعجائب الحكمة والرسوم الفلكية المرسومة فى محالّ عبادتهم وعلى الصناديق التى فيها أجسامهم ( وستنظر هذا هناك قريبا ) وإذ ذاك يقول هذه من معجزات القرآن لأن الله لم يذم للمعرضين عن آيات الله إلا فى موضعين فى يونس :

الأول : عند ذكر السموات والأرض فى أول السورة .

الثانى : عند ذكر الاعتبار بأجساد الفراعنة وأنها من آيات الله ، وهذه الآيات لم يفكر فيها الناس إلا فى هذه الأيام ، إذن هذه معجزة قرآنية .

ثم ينتقل من ذلك إلى أن يحضّ الأمة على الاعتراف من بحور علم الأوائل من أىّ دين ونحلة وأمة حتى إنهم يدرسون خرافات الأمم وأساطيرها ليستخلصوا منها الأخلاق والآداب التى كانت عليها تلك الأمم فتزيد

العقول حكمة والنفوس عملة ، فالأولى يدرسون رسوم مبانيها وهندستها وعلمها وحكمتها ويعملون مانفعله ألمانيا اليوم وبقية أهل أوروبا فإن لهم طوائف خصصوا كلا منهم لعمل أولعلم أولتاريخ أمة كما نعلم علم اليقين أن أهل ألمانيا عندهم قوم مخصوصون بالبحث عن علماء الشرق الأدنى مثلا وهكذا فالمسلمون أولى بهذا لأن الله يقول « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس الخ » .

[ نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن ] ثم إذا قرأ سورة هود بعد سورة يونس وجدها قد جاء في أوائلها شيء عجب ، ذلك أن الله ضرب مثلا لتدبيره في خلقه بالملك على عرشه ، فإذا كان الملك يدبر أمر الرعية ويحافظ على ثغورها وتجارتها وزراعاتها وسياساتها ، فهنا قبيل ذكر العرش يقول « ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » فيضاهي الفقيه إذن بين عرش الملوك وعرش ملك الملوك .

فعرش الملوك لتدبير الجيوش وحفظ الثغور والبلاد الخ ، وعرش ملك الملوك لنظام السموات والأرض وإغداق الرزق على الحيوان والإحاطة به علما والمحافظة على حياته والتكفل به في غدوه ورواحه ، ثم يرى هذا المعنى يدخل في قصص السورة كقول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ومن استقامة صراطه أن يأخذ بناصية الدواب وبناصية الإنسان . فكل حيّ تكفل الله به لافرق بين الإنسان والحيوان .

ثم يتأمل الفقيه إذ ذاك فيقول : لماذا ذكرها هود وقد ذكرت في أول السورة ؟ ثم يجيب على ذلك بأن علوم الحيوان في زماننا مدهشة عجيبة .

مثل ذلك ماستراه في سورة المؤمنون في قوله تعالى « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » فإنك سترى هناك ما لا عين رأت من عيون الغافلين ، ولا أذن سمعت من آذان المتكبرين ، ولا خطر على قلب الجاهلين من حكم غالية وجواهر باهرة وغرائب مدهشة ، إذ ترى هناك رسوما شمسية لأشكال حيوانية :

(١) كفراش ذي أجنحة تشبه في صورتها ولونها وشكلها أوراقا جافة منبوذة .

(٢) وكنوع من الحشرات قد وقع على جذع شجرة عتيقة والتصق بها فيظن من يراه أنه غصن ضخم من أغصانها قد قطع من أعلاه حديثا .

(٣) وكدود الفراش الملون باللون الظاهر الباهر حتى يتبينه كل ناظر ويعرفه كل صادر ووارد وهكذا من كل شاردة غريبة ونادرة عجيبة ستراها هناك برسمها إن شاء الله ، وتطلع على سر هذه الأشكال وضرب تلك الأمثال وتفهم فهما حقا معنى « وما كنا عن الخلق غافلين » وأن الفراش ذا الأجنحة التي تشبه الورق الجاف إنما خلقت على هذه الصفة لتكون تلك المشابهة وقاية لها من الطيور التي تصطادها فتعيش عليها . فمتى مرت عليها لم تميزها من الورق الجاف فلا تصطادها ولا تفترسها .

وأما الحشرات الواقعة على جذوع الأشجار المناسبة لأغصانها فكذلك للاحتراس من أعداء تلك الحشرات .

وأما المسألة الثالثة فذلك أن هذا الدود الذي ظهر والتكشف بلونه وجسمه وتميز عن الشجر المحيط به فإنما ذلك لأنه كريه الطعم قد جربه الطير المفترس قديما فكرهه ، فلذلك منحه الله لونا زاهيا ليكون ذلك اللون علامة للطيور الآكلة للحشرات تعرفها أن هذا طعمه كريه فتجتنبه لمجرد منظره ولولا هذا اللون الذي به امتاز ذلك الدود لكان دائما محط أنظار تلك الطيور فتأتي إليه فتذوقه وتريد أكله فلا تقدر فيكون الطير في شغل بما لاينتفع ، وذلك الدود دائما خائف وجل من ذلك .

بهذا يفهم الفقيه قوله تعالى فى سورة هود « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلّ فى كتاب مبين » ويفهم لماذا أعاد هذا المعنى هود فى قوله « إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فمن درس هذه العلوم وأتقنها أيقن أن الله نظر لكل حيوان نظرة خاصة وأعطاه شكلا ولونا وحجما يوافق كل الموافقة حاله .

فإذا عرف ذلك الفقيه عرف أننا معاشر بنى آدم لسنا فى حجاب عن نظر الخالق لنا ، فإذن هو يعامل كلا منا معاملة خاصة تناسب أحواله نتيجتها نافعة له .

فإذا رأينا لون الحيوان لحكمة وشكله لحكمة حتى إنك سترى فى تلك الآية أن من الحشرات ما إذا جثم على ورقة أو غصن يرى على شكل زرق الطيور وذلك الشكل جعل وقاية له من الطيور الآكلات له ، فهذه الحشرات حين وقوعها على شجر أو ورق أو حجر لاتلتقمها الطيور ، وكيف تلتقم ما لاتشك فى أنه زرقها ، فبهذا يتبين الفقيه أن الله حقيق بالتوكل عليه ، وأن كل ما نحن عليه من عز أو ذلّ أو حزن أو فرح أو إقامة أو حال لله فيه حكمة تضلّ عنا كما تضل تلك الحكمة عن تلك الحشرات التى أشبهت زرق الطير لو كانت ذات عقل وقالت : لم خلقتنى يارب على شكل زرق الطيور ولم لم تخلقنى بهيئة بهية كالحباحب المضىء فى ليالى الظلام؟ فبهذا يفهم الفقيه الإسلامى لماذا قال هود بعد قوله « إنى توكلت على الله الخ » « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فإن أخذه بنواصى الدواب كما علمت وكما ستعلم عند تفسير آية سورة « قد أفلح المؤمنون » دليل على أنه آخذ بنواصى كل امرىء من بنى آدم وأن كل عمله فينا لحكمة تضلّ عنا فلنتوكل عليه .

وذلك الفقيه إذا قرأ أمثال ما سمعته الآن فى الطير وغير الطير فى موسوعات الكتب الفرنجية كما اتفق لى فى هذا المقام يأخذه العجب كل مأخذ لأمرين :

[الأول] أن أمم الفرنجة المتأخرين قد برعوا فى تلك المعانى التى هى حقا وصدقا تضمنها القرآن والمسلمون غافلون .

[الثانى] أنه يدهش حينما يرى القوم يشرحون تلك العلوم لذات العلوم فتتسع قرائحهم وتنمو دولهم ويزيد رزقهم وحكمهم ( كما رأيت أنا ) لايكترثون بذكر أنها فعل الخالق ، ولا بأن ذلك دالّ على جماله وحكمته إلا قليلا جدا مثل ما يذكره ( اسبنسر وأوليفر لودج ) و ( اللورد أفبرى ) وأمثالهم ، فهؤلاء يذكرون الخالق تبارك وتعالى عند ذكر بعض هذه العجائب ، وأكثر القوم لايهتمون بذلك ، وعليه سيكون فقهاء الإسلام مخالفين للأوروبيين فى طريقة تدريس هذه العلوم ويصنعون فى العلوم كما صنعنا بوجه ما فى هذا التفسير فيحب الناس صانع العالم ويفرحون بالعلم غراما دائما ، هذا ما يراه الفقيه المستقبل فى سورة هود .

ما سيراه الفقهاء الإسلاميون فى سورة يوسف بعد هود

فإذا قرأ ذلك الفقيه سورة يوسف سمع الله يقول « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » وأخذ يسرد نظام آداب يوسف فى بيت العزيز إذ عفّ عن الشهوات ، وهذا هو تهذيب الشخص وآدابه فى السجن إذ أحسن المصاحبة مع المسجونين من المصريين وأخذ يعظهم ويدعوهم للإيمان وهذا أشبه بتدبير المنزل ، ثم قبض على أزمة الأعمال العامة فى الأمة المصرية والاقتصاد وتدبير الدولة ، فكأن هذا هو السياسة العامة وهذه هى نهاية علم الفلسفة ، لأن الفلسفة قسمان : قسم علمى ، وقسم عملى .

القسم العلمى : هى الرياضيات والطبيعيات والإلهيات .

القسم العملى : تهذيب الشخص وتدبير المنزل وتدبير المدينة .

فهذه الثلاثة هي القسم العملي ، وهناك يسمعه يناجي ربه شاكرا له إتمامه عليه بالملك والحكمة الخ ، وطالبا منه وفاته على الإسلام ولحوقه بالصالحين .

ومعنى هذا أن الفقيه يقتدي بيوسف في الحكمة العملية بأقسامها ، وبعد تمام النعمة يشكر الله على نعمه التي أفاضها عليه ويشهد له بإبداع السموات والأرض ثم يطلب الثبات على الإيمان واللحوق بالصالحين .

فإذا عرف هذا الفقيه في الإسلام أخذ يبحث في تلك الآيات في أول السورة والآيات في آخرها أي الآيات التي قبل قصص يوسف والآيات التي بعد قصته بتمامها فيجد عجبا ، يجد أن التي في أول السورة جاء فيها أن هذه القصة فيها آيات للسائلين ، وأن التي في آخرها جاء فيها « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » هنالك يأخذ في الفهم ويقول :

يقول الله تعالى إن قصص يوسف إنما هو آيات للذين يسألون ولكنه في آيات أخرى يقول « إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ويقول : إن خلق السموات والأرض من آياته واختلاف الألسن من آياته واختلاف الألوان من آياته والشمس من آياته والقمر من آياته وهكذا كل مخلوق هو من آيات الله ، ويقول تارة إنها للمتفكرين ، وتارة للمؤمنين ، وتارة لمن يعقلون ، وتارة يقول إنها آيات لقوم يعلمون أو يقول « للعالمين » بكسر اللام ، وتارة يقول بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولكن في هذا القصص لم يذكر معه إلا السائلين عنه ، وإذن يفهم الفقيه أن هذه القصة إذا كانت آيات للسائلين فهنالك آيات لاتخص السائلين بل تعم العلماء والعقلاء والمؤمنين ، وهي التي في السموات والأرض والناس يمرّون عليها وهم عنها معرضون ، إذن الآيات قسمان : قسم مسموع وهذا لمن اعتادوا أن يأخذوا العلم بالسماع والتقليد والاعتبار .

وهذا القسم من العلم المسموع يفرح به الجاهل ويعتبر به العالم ، فهو للجاهل علم ، ولدى العقل اعتبار كما قال تعالى « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » أما القسم الآخر وهي الآيات المعقولة فهي درجات بعضها فوق بعض للمؤمنين تارة وللعقلاء أخرى وللعلماء آونة .

ثم ينظر في سورة يوسف فيجد أن هذه القصة ليست كل آيات الله بل هناك من الآيات مئات ومئات في مئات لاتحصى قد أعرض الناس عنها ، بل من الآيات مايختص بالعلماء الذين يدرسون العلوم كما سيأتي ذكره في سورة الحجر في قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » إذ نظام الأوراق وأنه موضوع بحساب رياضي هندسي له جداول متناسقة بديعة تشمل أوراق الفصائل النباتية مرتبة كترتيب تلاميذ المدارس في الفصول كما ستراه مرسوما مشروحا موضحا .

هنالك يأخذك أنت ويأخذ الفقيه العجب إذ يرى نظاما يجهله جميع أهل الأرض إلا علماء النبات .

فهؤلاء عرفوا نظام الأوراق وجداوله المنظمة والدوائر المشتملة على عدد من الأوراق معلوم مرسوم بأشكال حلزونية لها أعداد خاصة متناسبة كل المناسبة مع أوراق وأشكال النباتات الأخرى .

ثم يرى هو وترى أنت أن هذا كله معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى ومن الأدلة البديعة على إبداع وإحكام صانع هذه الدنيا .

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى فيقول : اللهم إن هذا العلم اليوم غير معروف في بلاد الإسلام اللهم إلا لمن تعلموا علم النبات تعلما تاما ، وهؤلاء لايعرفون شيئا من الدين إن وجدوا في الشرق واختصت هذه المعرفة بالعلماء بهذه العلوم .

اللهم إن قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » لم يظهر أكبر سرّه إلا فى عصرنا ، فإن اختلاف الألوان والألسنة لم تظهر خبايا سره إلا فى هذه الأيام ؛ إذ استبان أن ألوان الحيوان لها آثار فى حياتها كما تقدم بعضه فى هـذا المقال وكما سيأتى فى قوله « وما كنا عن الخلق غافلين » وفى غيرها ، إذن سرّ القرآن يظهر فى هذا العصر .

من ذا الذى كان يظنّ أن للألوان أثرا فى حياة الحيوان ، ومن ذا الذى كان يعرف أن جمال الزهرة سائق وداع للحشرة أن تدخل الزهرة فتشرب عسلها ، من ذا الذى كان يعرف أن الحشرة التى تماثل زرق الطير لونا وشكلا قد جعل ذلك فيها لحمايتها وحفظها وبقائها ؟.

حقا حقا ! إن هذا لايفهمه إلا علماء قد اختصوا بهذا الفنّ ، إذن هذا سرّ قوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

ولا جرم أن هذا من الآيات التى ليست للسائلين الذين لم يشترط فيهم أن يكونوا علماء بل هى آيات العلماء بهذه العلوم ، وهذه معجزة جديدة يسجلها العلم للاسلام .

هذا مايفهمه الفقهاء فى المسلمين بعدنا فى سورة يوسف .

نظر الفقيه الإسلامى فى سورة الرعد بعد سورة يوسف

ثم ينظر نظرة فى سورة الرعد فيجد أن الآيات الإلهية التى لم يذكر منها فى سورة يوسف إلا التنبيه عليها والحثّ على الإقبال عليها قد كثرت فى سورة الرعد كرفع السموات بغير عمد ، ثم تمثيل عظمة الله وسلطانه بما يشاهد الناس فى الدنيا من عروش الملوك وتدبير الجمهور ونظام المدينة فقال « ثم استوى على العرش » ثم أخذ يفصل تدبير المملكة وحسن نظامها فأبان أنه ليس هذا العرش كعروش ملوك الارض الذين ينظمون الممالك إلى آخر ماتقدم فى السور السابقة فى هذه المقالة بل هنا « سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » فأما ملوككم فأعلى ماتطلبه عروشهم وغاية مايقصده وزراؤهم أن يسخروا الأمم لشهواتهم ويقودوا الجنود لتسخيرهم ، فلا مناسبة بين المُلكين كما لامناسبة بين التسخيرين .

ثم ذكر أنه مدّ الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا ونباتا مكوّنا من ذكر وأنثى ، وفى الأرض أماكن متجاورة مختلفة التربة للنظام العام ، ثم ذكر البرق والرعد والسحاب وأنه إذا كان الناس يخضع بعضهم لبعض بحسب القوّة والضعف حتى إن الذليل ليخضع للقوى منكم .

فهاهو الله يسجد له من فى السموات والأرض وطائفة من الناس كما فى ملوككم ، وهناك سترى ويرى الفقيه الإسلامى بعدنا قوله تعالى فى تلك السورة « وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » ويطلع على المقادير الحسابية والهندسية فى العوالم المختلفة مابين علوية وسفلية لاسيما ( القطع الثلجية ) التى لحظها القوم فى الجهات الشمالية إذ أنك سترى هناك أشكالها الهندسية المسدسة البديعة النظام المتلألئة المبتهجة التى عدوها بنحو الألف وقد رسموا منها جملة صالحة ، وهذا الذى رسموه ستطلع عليه وتعجب من أن التسديس تام فى كل شكل مع أن كل واحد من تلك الأشكال اختص بحكمة بحيث إنك لاترى شكلا منها مع اتحادها فى التسديس يوافق الآخر فى إبداعه ونقشه ورقته وبهجته وحسن نظامه فبعضها ترى أضلاعه كأنها أغصان محلاة بالأوراق متقنة الصنع مع أن كل مسدس من تلك المسدسات فيه ٦ مثلثات متساويات الزوايا كل زاوية ثلثا القائمة (١٢٠) درجة .

وهكذا سترى هناك عجائب القطع المتجاورات حتى أن امتزاج الرمل ببعض المواد كانت منه أنواع الزجاج المقعر والمحدب فى وجه أو فى وجهين وتتائج ذلك فى منافع الإنسان من تقريب الأشكال تارة وتكبيرها

أخرى ومنافع ذلك فى إصلاح خطأ الأنظار فى عينى الإنسان ، وهكذا ترى رسوم تلك الزجاجات وعجائبها مما يشرح الصدر وبه يهنأ الحكماء .

نظر الفقيه فى سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ثم ينظر الفقيه الإسلامى فى سورة إبراهيم فيجد أنه تعالى فى أول السورة أفاد أنه أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولم يخص الناس بالعرب بل الأمم كلها هم الناس ، وقال فى هذا الصدد إن الله أمر موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور إذن موسى لقومه .

وهذا هو الذى حصل الآن ، فإن الذين يتبعون موسى فى شريعته هم قومه وحدهم الآن ، وإن كان التوحيد ليس خاصا بهم فنحن اتبعناه واتبعنا رسولنا صلى الله عليه وسلم فى التوحيد ، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيه « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فإذن نحن جئنا فى الأرض بعد نبينا للناس كافة لا لأمنا وحدهم .

لهذا انتشر المسلمون فى الصدر الأول فى الكرة الأرضية ولم ينتشر الدين اليهودى إلا فى بنى إسرائيل مع أنه قد نسخ بالبعث المحمدى .

وسترى فى تلك السورة عجائب التذكير ، جاء موسى لإخراج قومه من الظلمات إلى النور بنص الآية وجاء نبينا صلى الله عليه وسلم بعده كذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

ثم إن موسى ذكر قومه بأيام الله وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مأمور أن يذكر قومه بأيام الله .

وسترى ويرى الفقيه فى سورة إبراهيم ما الذى به ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أيام الله للمسلمين كما ذكر موسى قومه بأيام الله من أنهم كانوا أذلاء عند فرعون وقومه ثم نجوا من ذلك وأمم الله عليهم ثم ما الذى يجب على علماء الإسلام بعدنا من تذكير شعوبهم بأيام الله فى كل أمة بحسب الوقائع التى حصلت لها وكيف تعتبر الأمم الإسلامية بتاريخها وسترى هناك النموذج الذى ذكرته للأمم الإسلامية من تاريخها العام من عصر النبوة إلى الآن .

وكيف كان جهل ملوك الإسلام وعلماء الإسلام فى القرن السادس والسابع إذ هجم التتار والمغول على المسلمين وهم قد جهلوا علم الجغرافيا وعلم تعداد الأمم وأحوالها كما ظهر جهل أمتنا المصرية من أمرائها وعلمائها إذ دخل نابليون البلاد وهم كانوا يظنون أنهم أقوى من أوروبا كلها لجهلهم علم الجغرافيا وقد « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فهزم جمعنا فى أقل من ساعة من الزمان ، ذلك كله للجهل العام « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

هكذا سترى هناك كيف أراد الفرنسيون أن يحتاطوا للناس عند وقوع الطاعون الذى هو من تربيتنا ومن نظام ديننا وله فى الأحاديث النبوية والآيات القرآنية شأن عظيم ، فأخذ الناس يفرون من القاهرة لاعتقادهم هم وعلماؤهم أن هذا ليس من الدين مع أنه فى الحديث مذكور فى قصة سفر عمر رضى الله عنه فى بعض غزواته ، وكذلك فى قوله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » .

ثم سترى ويرى الفقيه الإسلامى بعدنا فى سورة إبراهيم المذكورة ذكر الدهاة من أوروبا بعد ذهاب دولة الإسلام الذين علموا الناس علوما وصناعات نفعتهم من ابتداء نهضتهم التى جاءت على أنقاض دولتنا الإسلامية العلمية إلى زماننا الحاضر .

كل ذلك هناك لنذكر الناس بأيام الله فى زماننا كما ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم الأمم فى زمانه وكما ذكر موسى قومه وكما يذكر فقهاء الإسلام بعدنا أممهم « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » والحمد لله رب العالمين .

هذا ما قصدت ذكره هنا من آراء فقهاء الإسلام الذين سيكونون بعدنا وهم الذين سينير الله بهم أمم الإسلام وغير أمم الإسلام تحقيقا لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

[ تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ]

ويليـــه

الجزء السادس ، وأوله : سورة يونس عليه السلام

# فهـــرس

## الجزء الخامس من كتاب تفسير الجواهر

صفحة

٢ تفسير سورة الأنفال وهى تشتمل على خمسة أقسام : مقدّمة السورة .
٣ ذكر موجز فى ملخص السورة السابقة ، ولماذا رتبت هكذا إلى هذه السورة .
[ القسم الأوّل ] « يسألونك عن الأنفال – إلى قوله – ورزق كريم » .
٥ التفسير اللفظى .
لطائف القسم الأول لسورة الأنفال .
[ اللطيفة الأولى ] فى حال المسلمين اليوم يتقاطعون على صغائر الأمور وقد جهلوا سبب نزول هذه الآية إذ أمر الله بتقسيم الغنائم بالعدل فزال شقاق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بسبب العدل ، فلماذا لايفعل أمراء الإسلام ذلك ؟.
٦ [ اللطيفة الثانية ] المتوكل على الله يستفيد فائدتين ، [ اللطيفة الثالثة ] تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح .
٧ حكم ظهرت فى هذه الآيات ، ههنا أمران : أمر مقاصد السورة العامّة ، وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأوّل سورة الأنفال .
٨ سورة الأعراف منذرة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والغنيمة .
٩ حديث « إن مما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا الخ » وكيف جهل المتأخرون من المسلمين إنذار سورة الأعراف ، وتحذيرهم من الطغيان فى سورة يونس التى بعد سورتى النصر والغنائم المؤذنة بأن الطغيان بعد التمكن هو دليل الهلاك فى الدنيا .
دواء هذا الداء ، وذلك بعرض نماذج من جمال هذا العالم تعشق الأطفال فى العلم عند قراءة آيات من القرآن .
١٠ الكلام على الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان والتوكل على الله ، وحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة » .
بيان خلاف الأئمة فى قول المسلم : أنا مؤمن حقا ، وتبيان أن النبوّة قد أومأت إلى شرحه ، وتبيان هذا المقام بإيضاح .
١١ الإيمان فى ديننا قد ابتلع جميع العلوم لأنها داخلة فى الشعب المذكورة ، والمؤمنون كلهم كأنهم إنسان واحد ونقص علم أو صناعة نقص فى إيمانهم .
١٢ الصلح فى بلاد الإسلام .
الايمان أمر واحد كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح .
١٣ الكلام على صلح ذات البين .
الكذب فى القرى وفى المدن ببلادنا ، كيف استعاض الناس عن سماحة القلوب بذكر سعادة الباشا الخ فاستغنوا باللفظ عن المعنى ، الأمم الإسلامية وجمعية الأمم فى أوروبا .

صفحة

١٤ الإصلاح العام وله شروط سبعة ، تحسر المؤلف على الأمم الإسلامية وأنهم لم يجعلوا التعليم عاما إجباريا
تفسير القرآن فى الحقول والحشرات .
١٥ وصف حشرة ( بق المبسكس الدقيق ) .
انتشار هذه الحشرة فى نباتاتنا المصرية ، عدواها تنتقل بالماء والهواء والحيوان .
١٦ نسلها كثير ، يحاربها الإنسان وهى تكثر إذن ، الله أكثر من الحشرات النافعة للنبات بالإلقاح والفاتكة به قال تعالى « ونبلونكم بالشر والخير فتنة » إن الأنثى من هذه الحشرات قد تلد بدون ذكر كما تكون الذكورة والأنوثة فى نبات واحد معا ، إذن الذكورة والأنوثة فى جميع الأحياء متحدتان إما فعلا وإما بالشوق .
١٧ كل ذلك يفسر معنى قوله تعالى « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »
فههنا درجتان : إصلاح ذات البين بين المسلمين وتعارفهم مع جميع الأمم .
١٨ مافوق المادة ، تذييل لهذا المقام .
١٩ إن لذتى بفهم مايضرنا وما ينفعنا دليل على أن هناك عوالم أرقى منا تستلذ بذلك ولا تحب إلا النظام العام .
٢٠ الله مافرق الناس إلا ليجمعهم .
٢١ تذكرة آية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » سيأتى معناها وهو الملخص الذى كتبه الأستاذ ( ستلانه ) التليانى لكتابى [ أين الإنسان ] وذلك ستقرؤه فى سورة الحجرات لأن الكتاب مبنى على تعداد الذكور والاناث فى الأرض كما فى الآية وهكذا جميع أحوال الناس ومنافع الأرض فهى مختلفة وبهذا الاختلاف يتم النظام .
٢٢ كيف قصر المسلمون فى قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .
فريدة مشرقة فى سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات .
[ القسم الثانى ] فى قوله تعالى « كما أخرجك ربك ـ إلى قوله ـ وأن الله مع المؤمنين » .
٢٣ مقدمة فى سبب غزوة بدر ، والكلام على العير والنفير .
٢٥ التفسير اللفظى لهذه الآيات .
٢٩ خمس لطائف : [ اللطيفة الأولى ] فيها استبان اقتحام الأخطار فى قوله « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين »
[ والثانية ] : أن هذا العالم المادى خاضع لناموس العقول .
٣٠ [ اللطيفة الثالثة ] دقة الملاحظة والبحث الصادق فى أمور هذه الحياة فى قوله تعالى « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » .
[ اللطيفة الرابعة ] الثبات وقوة العزيمة ، [ اللطيفة الخامسة ] عدم الإعجاب بالنفس وترك الكبرياء .
٣١ [ القسم الثالث ] « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ـ إلى قوله ـ والله ذو الفضل العظيم » .
تفسير بعض الألفاظ ، بيان مايحيى القلوب وهو أربعة أمور :
٣٢ فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » أربعة أمور أيضا .
تفسير بقية الألفاظ فى هذه الآيات .
٣٣ سبع لطائف : [ اللطيفة الأولى ] فى قوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم » .

صفحة

٣٣ مشابهة الإنسان فى حال نقصه لأنواع الحيوان ، [ اللطيفة الثانية ] « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » .

٣٤ [ اللطيفة الثالثة ] كيف يحول الله بين المرء وقلبه وذلك بالنوم والجنون والإغماء والسكر وأحوال المرض ، تأثير الخطباء والشعراء والوسط والبيئة ، كلام العلامة ( جوستاف ليون ) .

أدوار التنويم المغناطيسى وعجائبه وأن هناك ثلاث درجات يتذكر فى كل منها ما لايتذكره فى الأخرى فها هو ذا الله قد حال بين المرء وقلبه .

٣٦ لمحات الأنوار وبواهر الأسرار فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » والحيلولة تنحصر فى ثلاثة أقسام :

[ الأول ] الأصول الصناعية ، والأصول الخلقية ، والأصول العلمية ؛ فالأولى كالبخار والكهرباء والمنطاد والطيارة قبل العلم بها وجهل المسلمين بأكثر الصناعات اليوم ، لأن الله حال بينهم وبين قلوبهم إلا قليلا منهم .

٣٧ [ القسم الثانى ] الأصول الخلقية وذلك كاعتياد الخمر وغيره .

[ القسم الثالث ] الأصول العلمية ، وفيه فصلان :

( الفصل الأول ) فى العلوم العامة .

٣٨ ( الفصل الثانى ) فى معرفة الله عز وجل .

٣٩ الله جعل الشمس مثالا لنفسه فهى كبيرة مضيئة بعيدة قريبة مقابلة لكل امرئ فى الأرض لاحصر لضوئها ، هكذا الله عظيم كثير الإنعام الخ . إيضاح بعض صفات هذا المثل وآية « الله نور السموات والأرض » وحديث « إنكم سترون ربكم عيانا الخ » تشبيه النبى صلى الله عليه وسلم رؤية الله لكل امرئ مخليا به بما يرى الإنسان القمر مخليا به .

٤١ شفاء الصدور ومشرق النور من شموس بازغات ومعان باهرات فى هذه الآيات « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول الخ » .

٤٢ وصف السماء وكواكبها ونور القمر وجمال الصباح وشروق الشمس ووصف قوس قزح وأبيات جميلة فى وصفها والكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكمية .

الجسم الإنسانى .

٤٣ النظر فى النفس ، غفلة الناس عن القلب ذلك الذى جمع وصف السماء وكواكبها وأنوار أقمارها وشمسها وصباحها ومسائها وكيف كانت الأعداد لها وجود فى ذهنى فالقلب يجمع بين الموجود فى الخارج والذى لا وجود له فيه فهو أوسع والناس عنه غافلون إلا قليلا .

٤٤ الغذاء فى تحوله إلى سمع وبصر دليل على أن اللذة فكر لأن الثمرة من جنس البذر ، النفس تتصور الواجب والجائز والمستحيل فهى من عالم أوسع من عالمنا .

٤٥ النفس فى حال النوم تعطيك صورة من الدنيا والآخرة ، استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت . ياقوتة فى عقد هذا المقال .

٤٦ ليس المدار على كثرة العلوم ، وإنما المدار على حسن التصرف والتعقل .

نفسى وشمسك فيهما قدرة مدهشة وقد حيل بيننا وبينها ، غرائب زهاد الهند .

صفحة

٤٧ بيان «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان». التنويم المغناطيسي وغيره كالهندي الذي دفن ستة أشهر ثم خرج حيا الخ .

ضوء الياقوتة وازدياد عجائبها كمسألة الوسيط الأمريكي (جيمس) وكغلام صيرفي يجادل أعظم الفلاسفة في حال استيلاء الروح عليه ، ولكنه في حاله الاعتيادية لايدري شيئا من العلوم .

٤٨ آراء علماء الإسلام في النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب .

٤٩ ما قاله الإمام الغزالي من أن النفس الإنسانية متى ذكرت الله في خلوة وغابت عن الوجود خاطبتها الملائكة ، فالانكشاف في النوم وفي الموت وفي صفاء النفس ، الجوع والصمت والسهر والعزلة هي الأركان الأربعة للفتوح ، طريقة الجوع بحيث يأكل قليلا وذكر مضارّها .

٥٠ اتجاه الأمم لفتح الحسّ الباطني دائما يورثها الأخطاط .

اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في قوله تعالى « واتقوا فتنة الخ » وفي قوله « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون » وفي قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » وفي قوله « واعلموا أنما أموالكم » الخ .

٥١ [القسم الرابع] : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » إلى قوله « ونعم النصير » .

٥٢ التفسير اللفظي .

٥٣ بقية التفسير اللفظي .

٥٥ لطيفة في قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » وفي بقية الآيات .

[القسم الخامس] « واعلموا أنما غنمتم » إلى آخر السورة .

٥٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات .

٥٩ بيان التحليل العقلي في قصة بدر وكيف فصل الله فيها ١٤ مسألة فلم يذر نعاسا يغشاهم ولا نصرا ولا خاطرا إلا استخرج منها حكما لمنفعتهم .

٦١ الكلام على تكثير القليل وتقليل الكثير لإصلاح هذه الدنيا .

٦٣ بقية التفسير اللفظي .

٦٨ كيف صحّ أن قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » ليس بمنسوخ كما حصل في حرب مراكش حديثا إذ غلب الواحد عشرة كما هو معلوم . وهذا من عجائب القرآن في هذا العصر .

٦٩ لطيفتان : الأولى قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وبيان آثار الوهم في الإنسان .

٧٠ بيان مانقل من مجلة في (برازيل) أن امرأة خرج ولدها ضفدعة .

٧١ كيف يتمرّن الهندي على الزهد في الحياة ؟ وكيف يكون شؤم التفكر المحزن سببا في الحزن ؟ وكيف جرّب أحد الأطباء قوة الاستهواء في قتل مجرم بالوهم الخ . وكذلك بائع اللبن في إنكلترا الذي أوهمه المشترون أنه مريض فمرض .

٧٢ طريقة (اميل كويه) الفرنسي في قوة الاستهواء وأنها تشفي كثيرا من الأمراض ، وقال إنه يجب على الأطباء المداواة بالاستهواء .

صفحة

٧٣ إذا ردّد الإنسان كلمات كل يوم تدل على أنه قد شفى من مرضه فذلك نافع عند (كويه) الطبيب .
اللطيفة الثانية « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » الخ .

٧٤ الحرب من مقوّمات الأمم ومنشطاتها فى الحياة ، والكسل والخمول مميتان .

٧٥ المفرقعات فى الحروب من القطن والموادّ الملتهبة . كيف يصنع الديناميت . الجلاتين المفرقع وغيره .

٧٦ القطن والكبريت والنتريك قد حولت إلى مادّة محرقة . الله أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب .
نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب .

٧٧ تناسق آى القرآن وتلاحقها فى مسألة عدة الحرب والقتال . التعجب من أن القطن الذى نلبسه كنت فيه قوّة مهلكة .

٧٨ بيان أن هذه الخواص من عجائب خلق السموات والأرض . الابتهاج بالعلم والحكمة والتعجب من القطن وغيره ، فكيف كمنت فيها تلك المهلكات ؟

٧٩ زهرة ناضرة بهجة فى قوله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » .

٨٠ كيف أدرك أبومسلم الخراسانى غايته فى الحرب بسبب الكتمان . وكيف كان الجيش الفرنسى قد كاد ينحل ، ولولا تكتم الرؤساء لخسروا الحرب ، وهذا السرّ ظهر اليوم . أسامرك أيها الذكى فى تكثير القليل وتقليل الكثير ، فتقليل الكثير كما فعل اليابانيون فى الحرب مع الروس إذ أخفوا سفنهم بالتلوين وكصغر الشمس فى أعيننا ، والعكس كالطفل عند أبويه .

٨٢ تفسير بقية السورة من قوله تعالى « ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى الخ » .

٨٣ حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم الخ » وبقية التفسير لهذه الآيات .

٨٥ لطيفة ذكر فيها أن الأئمة لو كانوا أحياء ورأوا جهل المسلمين لعلومهم ولأمروهم بما نكتبه لهم الآن ، والكلام على ذمّ المتقاعدين عن هذه العلوم .

٨٦ الميراث ميراثان : ميراث الحىّ ، وميراث الميت وشرح هذا المقام .

٨٨ سورة التوبة وبيان أنها أربعة أقسام ( القسم الأول ) من أول السورة إلى قوله « إلا قليل » .

٩٢ الكلام على سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر .
تفسير هذه الآيات تفسيرا لفظيا .

٩٧ خمس لطائف فى هذا القسم .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وبيان أن الصدّيق رضى الله عنه أبى أن يترك الزكاة التى قرنت فى القرآن بالصلاة ، وقد فصل الله الآيات لقوم يعلمون ، فهو بهذا من الذين يعلمون ، أما المسلمون اليوم فكيف صرح القرآن بالعلوم وهم نائمون ؟

٩٩ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية .
اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » .

١٠٠ اللطيفة الرابعة « أجعلتم سقاية الحاج الخ » .
اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » .
تفسير بقية الآيات من قوله تعالى « ويوم حنين ـ إلى قوله ـ عن يد وهم صاغرون » .

صفحة
١٠٣ مقدار الجزية ، مناكحة المجوس والصابئين وذبائحهم . وقالت اليهود عزير ابن الله الخ وحكاية بولس الرسول وحيله .
١٠٤ حقيقة مسألة بولس وأنه رجل فريسى الخ ، نتائج الخلاف فى النصرانية ، تنازع النصارى فى أمر المسيح ، وذلك فى أوائل الجيل الرابع وقد انقسموا حزبين : مقر بألوهية المسيح ، ومنكرها وظهور ( أريوس ) وإسكندر أسقف الإسكندرية ، التشاتم بين آباء النصرانية ، أقام قسطنطين مجمعا فى أنطاكية .
١٠٥ تفسير قوله تعالى « ذلك قولهم بأفواههم الخ » .
١٠٦ تفسير « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » .
١٠٧ تفسير « إن عدة الشهور عند الله ـ إلى قوله ـ إلا قليل » .
١٠٩ اللطيفة الأولى فى تحقيق الكلام فى الأشهر الحرم .
بيان أن من يقول بنسخ تحريم القتال فى هذه الأشهر ومن لايقول به متفقان مآلا .
اللطيفة الثانية الشهور العربية والأفرنكية والقبطية وعلة تسميتها بأسمائها ، كأن يقال المحرم لتحريم القتال فيه ، وينار مأخوذ من يانوس معبود خرافى كانوا يمثلونه بوجهين الخ ، وتوت هو تهوت إله الحكمة والقلم عند القبط .
١١١ اللطيفة الثالثة « يوم يحمى عليها فى نار جهنم الخ » وبيان أن الاطلاع على علم الأرواح معجزة للقرآن فى مثل هذه الآية .
١١٢ جوهرة باهرة فى هذه الآيات وهى : « قل إن كان آباؤكم ـ إلى قوله ـ عما يشركون » مظهران وهما : (١) آثارها فى الأمم الإسلامية القديمة وإهمال المتأخرين . (٢) وآثارها فى أمم الإسلام .
آثار هذه الآيات فى صدر الإسلام .
١١٣ ذكر حكايات عن أبى بكر وعمر وزهدهما ، ثم ذكر غرور المتأخرين من الأمة الإسلامية .
المقام الثانى آثار هذه الآيات فى الانقلاب الأوروبى .
١١٤ الكاثوليكية وكيف كان البابا رئيسهم يذل الملوك فى أوروبا إذ ابتدأ حكمهم من سنة ١٠٨ هجرية . كلام المؤرخ ( كرنبوس اهريا ) فى بيع الغفران بالنقود ، وكيف تاجروا بالضمائر الخ .
١١٥ مخازى البابوات ورؤساء النصارى أيام ( شرلمان ) التكفير والإحراق والقتل والحرق والقتل صبرا ، وقد أحرق لويس الحادى عشر ١٨٣ شخصا مع راعيهم وهكذا غيره ألوفا وألوفا .
١١٦ ذكر المحكوم عليهم بمحكمة التفتيش بأسبانيا وأنهم ٥١٠٠ فى مدة ١٨ سنة والذين أحرقوا مابين ثمانية وعشرة آلاف الخ ، وقتل من المسلمين مائة ألف بإيعاز رئيس أساقفة بأسبانيا ، وقتل فى انكلترا وإيكوسيا لأجل الدين فى مائتى سنة ألفى ألف نفس الخ .
١١٧ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت تحت عنوان : [ رجال الدين ] قد ذكرت ظلم رجال الدين فى أوروبا وأن ( فولتير وروسو ) وأمثالهما لم ينشروا مبادئهم إلا بعد أن قرءوها فى كتب المسلمين فأعتقت أوروبا من ذل رجال الدين بفضل الإسلام . تنبؤها بأنه سيأتى وقت قريب تسلم فيه أوروبا وأمريكا .
١١٨ تذكر أن عمر كان عادلا والله يقول « وشاورهم فى الأمر الخ » .

صفحة

١١٨ القانون المدنى ، صورة محوّرة من الشريعة الإسلامية . تحمرها على الشرق وعلى الإسلام .
١١٩ ذمّها لعلماء المسلمين فى مصر والحجاز وفى بنى غازى الخ .
١٢٠ [ المظهر الثانى ] ماجاء عن علماء الأرواح حديثا بأوروبا ، معجزات القرآن فى هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا للقرآن ، [ الجوهرة الأولى ] مجمل هذه الآيات .
[ الجوهرة الثانية ] فى تحليل النفس الإنسانية وكيف قبلت جميع الوجودات وشاركت كل حىّ وتوقفت على كل موجود وتودّ لو تبتلع العالم كله وشرح هذه الأربعة شرحا مستفيضا .
١٢٣ [ الجوهرة الثالثة ] معجزات القرآن التى ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدّثوا الأرواح ، وذكر ( عمانوئيل سودنبرج ) وتاريخ حياته ومنزلته فى المملكة .
١٢٤ ماذا يحدثنا عمانوئيل ، يقول إن الإفريقيين من بين جميع الأمم المحبوبون أكثر من الجميع فى الجنة ولا جرم أن الافريقيين مسلمون ، وذمّ المسيحيين وقال إن نصيبهم فى الآخرة مزعج محزن ويقول إن الأرواح أخبرته بأن الله واحد وأن اعتقاد الثلاثة محير فى الآخرة وأن الأطفال يدخلون الجنة ولاعبرة بمسألة ماء المعمودية عند النصارى وهكذا .
١٢٥ كلامه فى جهنم وأن أبوابها تحت صخور وفيها خرابات ومنازل بعد شبوب نيران ، وقال إنه رأى الأرواح الشريرة تدخلها ، وقال إن الله يرى كالشمس وكل ذلك موافق تمام الموافقة للقرآن .
١٢٦ اعتراض على المؤلف بأن هذا لادليل عليه ، جوابه بأنه ذكره لثلاثة أمور : أوّلا هذه الآراء توافق كتاب الأرواح ، ثانيا توافق آراء خواص علماء الإسلام ، ثالثا إنى نظرت فى هذه الدنيا بعقلى الخ .
١٢٧ تبيان نظام هذا الوجود ، وكيف كان كله متحدا وإذن لايتمّ نظام الإنسانية إلا إذا أصبحت كلها نظاما واحدا مشاكلا لنظام هذا الوجود وإلا فهى إنسانية حقيرة دنيئة كما هى الآن .
١٢٨ بيان سقراط أن الذين يحكمون الجمهورية يكونون أعفّ الناس وأعلمهم ، وبيان أن أهل كل دين فى الأرض طغوا وبغوا كالمسيحيين وكالمسلمين وغيرهم وذكر آيات من القرآن والإنجيل .
١٢٩ دين الصين القديم للنبى ( بوالكير ) ثم الفيلسوف ( ليوتسو ) ثم ( كونفسيوس ) وبيان أن الناس هم الذين يجعلون الدين الطاهر جاريا على حسب أخلاقهم فينزل صافيا من السماء وهم يجعلونه كدرا .
١٣٠ [ القسم الثانى ] « إلا تنفروا يعذبكم – إلى قوله – إن كنتم تعلمون » .
التفسير اللفظى « إلا تنفروا يعذبكم الخ » .
١٣١ [ القسم الثالث ] « لو كان عرضا قريبا – إلى قوله – والله عليم حكيم » .
التفسير اللفظى لهذه الآيات .
١٣٦ « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا الخ » .
١٣٧ « ومنهم من يلمزك فى الصدقات الخ » .
١٣٨ « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم الخ » .
١٣٩ « فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم الخ » .
١٤٠ « يحلفون بالله ماقالوا الخ » .
١٤١ « فيسخرون منهم سخر الله منهم الخ »

صفحة


١٤٢ « وأولئك لهم الخيرات الخ » .

١٤٣ « وآخرون اعترفوا بذنوبهم الخ » .

١٤٤ ذكر ١٤ لطيفة .

١٤٥ بيان اللطيفة الأولى « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم » .
بيان أن الأمم الإسلامية إذا تركت الأعمال العامة استبدل الله بها غيرها .

١٤٦ اللطيفة الثانية « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين الخ » وفيه بيان لهجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . اللطيفة الثالثة « انفروا خفافا وثقالا » .

١٤٧ « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » وهى اللطيفة الرابعة . إيضاح هذا المقام ببيان أن الفكر هو الذى له أثر فى عذابنا ونعيمنا ، فمن كان فى جنة أو نار وهو لايحسّ بهما فلا عذاب ولا نعيم عنده .

١٤٨ ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها النعمة . السعادة لاتشرى بمال . وبيان الإيطالى المنتحر تخلصا من الغنى والثروة مع أنه لاعمل له .

١٤٩ جمال هذه الآيات ، وبيان أن الحشرات تلد الآلاف وهى لاتعذب بالذرية ، والإنسان يلد الآحاد وهو معذب بها ، وهذا سرّ قوله تعالى « ففرّوا إلى الله » بعد قوله « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » الآية .

١٥٠ ألسنة الخلق أقلام الحقّ ، وبيان أن الناس يتبرّمون من الحياة وهذا تعبير عما سطر بقلم الحكمة فى الظاهر أمام الناس وإن كانوا لايشعرون .

١٥١ شعر ترنش الانجليزى مترجما شعرا بالعربية فى أن الفقراء يحسون بالسعادة أكثر من الأغنياء .
موازنة بين شعر أبى العلاء ، وبين شعر شارل وكذا شكسبير الانجليزى مما نظمته سابقا فى كتاب [ جوهرة الشعر والتعريب ] .

١٥٢ شعر شكسبير مما ترجمته إلى الشعر العربى بما يفيد « كل من عليها فان » شعر المؤلف فى كتاب ضاع منه قبل أن يرجع إليه .

١٥٣ كيف ينطق الطير للناس بلسان الحكمة يقول : اتخذوا لكم مكانا فى العلا كما اتخذت .

١٥٤ بيان نطق الطير لسليمان فى قوله « يا أيها الناس علمنا منطق الطير » غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم العامة ، فالجوع والشبع والمرض وغيره كل هذا نطق أفصح من نطق اللسان .
فهم بعض سرّ هذه الآية فى هذا الزمان وأن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال .

١٥٥ الكلام على الاشتراكية . اللطيفة الخامسة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الخ » وإيضاح المقام .

١٥٦ اللطيفة السادسة « ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب » وأن الاستهزاء بالدين يورث افتراق العقائد فتفرّق الأفراد فتضيع الأمة . جوهرة فى قوله تعالى « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » الاستهزاء بالمتدينين .

١٥٧ استهزاء علماء الفقه بجميع العلوم واستهزاء بعض الناس بهم .
حكاية أمير هندى وسرىّ من سراة الهند والعالم الصينى .

١٥٨ نتيجة الاستهزاء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وفى زماننا ، قاعدة كلما زاد المستهزأ به كلما زاد المستهزىء وبالا . الآيات المستهزأ بها واضحة فى سورة يس .

صفحة

١٥٩ قاعدة : أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكابرهم ، آثار الاستهزاء فى بلاد الإسلام .
إيضاح أتمّ للاستهزاء بآيات الله .
١٦٠ مواكب الله ومواكب الملوك والدول فى عصرنا .
إعراض أهل الهند وأهل إرلانده وأهل مصر عن عظماء الإنجليز وجنودهم احتجاجا على احتلالهم لبلادهم ، فالإعراض عن مواكب الدول له نظير وهو الإعراض عن مواكب الشمس والقمر والنجوم فالله أرسل مواكب أقرب وهى الطيارات والمدافع .
ذكر ستة أنواع من مواكب الله تعالى التى عرضها وأعرضنا عنها كما تعرض الأمم المحكومة عن عظمة حكامها .
١٦١ أعرض المحكومون عن بطش الحكام فأوجب ذلك أثره ، هكذا إعراضنا عن مواكب الله فى الأرض وفى السماء .
١٦٢ اللطيفة السابعة « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »
١٦٣ اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .
اللطيفة التاسعة « وهموا بما لم ينالوا » .
اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون » .
١٦٤ اللطيفة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة .
١٦٥ اللطيفة الرابعة عشرة فى أصناف المنافقين وهم عشرة .
١٦٦ [ القسم الرابع ] « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .
١٦٨ التفسير اللفظى لهذه الآيات .
« فاستبشروا ببيعكم الخ » .
١٦٩ « إن إبراهيم لأوّاه حليم الخ » .
١٧٠ « وضاقت عليهم أنفسهم الخ » .
١٧٢ « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار الخ » .
« فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون الخ » .
١٧٣ ذكر مقالة أدرجت فى الجرائد تناسب هذا المقام .
١٧٦ الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين [ المقالة الأولى ] وفيها الأوامر التى صدرت فى بلاد هولانده وتلك المقالة كتبت قبل إلغاء ذلك الأمر ومعاملة المسلمين بالحسنى .
١٧٧ بيان أن المسلمين لاينبغى لهم أن يعيشوا مع أمم أعلم منهم فلابدّ أن يساووهم .
١٧٨ [ المقالة الثانية ] خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين ومن هم تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء الإسلام وعظمائه .
١٧٩ المصلحون فى الإسلام اليوم [ المقالة الثالثة ] .
١٨٠ [ المقالة الرابعة ] تهافت الآراء فى بلاد الشرق ولا سيما فى بعض البلاد الاسلامية .
١٨١ حديثى مع قاض شهير . وذلك أن المؤلف كان يقرأ الرسالة القشيرية مع عالم فرنجى أمره أستاذه الألمانى بذلك . وقد حضر لزيارة العالم الفرنجى قاض مشهور فى مصر بالتأليف ، وملخص الحديث :

أن

صفحة

أن القاضى يحقر الديانات وإن لم ينطق بذلك ، والمؤلف يوجب مزج العلوم بالدين والقاضى يأبى ذلك ثم إنه خضع لحجج المؤلف .

١٨٢ اعتراف القاضى الأهلى المذكور بأنه مقتنع ولم يقنعه أكبر عالم فى مصر قبل ذلك ، حديث الإمام الغزالى إذ يذم علماء الدين فى زمانه ويصفهم بأنهم شر من الشياطين لصدهم الناس عن هذه العلوم المعروفة الآن فى أوروبا وأمريكا ، وذلك فى مقالة عنوانها [ الإسلام والاستعمار ] .

مخاطبة المؤلف للامام الغزالى يقول له المسلمون اليوم هم لايزالون كما تركتهم لايحبون إلا علم القضاء والمحاماة والراغبون فى العلوم الأخرى قليل . الواجب على المجالس الشورية .

١٨٣ [ المقالة السادسة ] هل فى الإسلام نابغون ؟

١٨٤ ذكر ماجاء فى الجرائد سنة طبع هذه السورة أن ملك الأفغان كان قد أقفل مدارس البنات فاستفتى علماء مصر والهند فأفتوا بأن الأنثى كالذكر ففتح المدارس لهن ثانيا .

١٨٥ بيان أن تقسيم الأعمال مأخوذ من الآية بطريق الاستنتاج بل بطريق النص ، وفى هذا ذكر المعنى اللغوى للتفقه وهو غير الاصطلاحى المعروف ، وبيان مابدل من ألفاظ العلوم وهى خمس الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة .

١٨٦ أقوال السلف فى هذه الألفاظ وأن الفقه كان يطلق على تعدد نعم الله وعلى مابه الخوف منه الخ .

١٨٨ من هم الأولى أن يسموا علماء فى الإسلام .

١٨٩ منافع المرجان النابت فى البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ونحوهما فى قاع البحر من ٣٠ قامة إلى ١٣٠ ويغوص الإيطاليون عليه والفرنسيون والأسبانيون وبيان النقود التى كسبوها فى بعض السنين والمسلمون نائمون .

١٩٠ ذكر أن المطعومات والملبوسات والجواهر من حشرة برية ودودة وحيوان بحرى الخ .

١٩١ نقل الكلام فى فروض الكفايات من كتاب [ جمع الجوامع ] وشرحه

١٩٢ أيهما أفضل : الملك أم العالم ؟، نقل كلام المؤرخ الشهير ( سيديو ) الفرنسى الذى اجتهد فى إظهار علوم العرب وأنهم هم الذين أناروا أوروبا .

١٩٣ ذكر أنهم ملكوا من نهر ( التاج ) إلى نهر ( الكنج ) وأنهم بعد العز والملك لزموا جزيرتهم كرة أخرى .

حقيقة النبى صلى الله عليه وسلم الباطنية عند الفرنجة .

وصف المدنية العربية .

١٩٤ ذكر من اشتهر من علماء العرب وبيان أنهم أعلم من الترك ومن الصين بعد البحث الطويل وانتقال علمهم إلى الهندستان بواسطة البيرونى ، وإلى المغول بواسطة الطوسى ، وإلى العثمانيين أيضا ، ثم أهل أوروبا بعد ذلك ، وذكر أن العرب هم الذين أيقظوا أوروبا من الجهل وهكذا نشر علم العرب بين أهل الصين ( كوشيو كنغ ) ، الكلام على العلوم الطبيعية عند العرب .

١٩٥ مبحث علم الكيمياء عندهم ، مبحث علم النباتات عندهم أيضا ، وكذا المادة الطبية والاقتصاد الزراعى .

١٩٦ مبحث فى علم الطب عندهم والمدرسة اليونانية العربية والفخر الرازى وابن سينا .

صفحة

١٩٧ مبحث فى عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس وتكذيب العلامة (سديو) للذكور علماء الفرنجة القائلين إن العرب ليس لهم إلا النقل عن اليونان .

٢٠٧ بيان أن الله ليس عن خلقه غافلا ، ولذلك حفظ فى كتب المتقدمين معنى التفقه لتعرفه فى هذا الزمان، كما أنه جعل بعض الحشرات على هيئة حصاة ليكون هذا الشكل وقاية لها يصد عنها الطيور التى تصطادها

٢٠٨ إذلال المسلمين سابقا العلماء كابن رشد بصقوا فى وجهه ونفوه فلذلك هرب العلم إلى أوروبا من بلاد الاسلام وصار الناس يقرءون التصوف وحده ولكن فى عصرنا لن يقدر أحد أن يقاوم المفكرين لأن الأمم كلها استيقظت والمسلمون أدبهم الدهر ووعظهم .

٢٠٩ ملخص التفقه فى الدين قد جاء فى أول سورة يونس .

[الوجه الثالث] ختم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من جنسهم الخ وأول سورة يونس فيها مثل هذا

٢١٠ تكملة الكلام فى مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس .

الفقهاء فى الماضى والحال والاستقبال . الفقهاء فى عصر الصحابة . الفقهاء بعد الصدر الأول .

الفقهاء فى زماننا .

٢١١ آثار ماتقدم فى الإسلام .

بقية نظرات الفقيه فى سورة يونس .

٢١٢ نظر الفقيه فى مستقبل الزمان فى سور أخرى من القرآن كسورة هود ، وكيف يفهم استواء الله على العرش ؟ وما الفرق بين عرش ملك الملوك وعروش أولئك الملوك ؟ ويفهم معنى كون الله آخذا بناصية كل دابة ومناسبتها لتوكل هود وما مثال هذا فى الكشف الحديث . وذكر الفراش ذى الأجنحة التى تشبه أوراقا جافة أو التى تشبه غصنا ضخما على شجرة عتيقة أو الدود الملون الظاهر الباهر لأن طعمه كريه فكان ذلك وقاية له . فهذه أخذ الله بناصيتها فهكذا يأخذ بناصية الإنسان لاسيما الأنبياء .

٢١٣ بيان أن من درس علوم الحيوان وأتقنها فهم هذه الآية حق فهمها . وبيان أن الفقيه فى مستقبل الاسلام ينظر فيما فى موسوعات الفرنجة من الحكم العجيبة ويعجب كيف كان أكثرهم لايتعجب إلا من نفس الصنعة ثم لايتعجب من الصانع ، وذكر ما يراه الفقهاء الاسلاميون فى سورة يوسف بعد سورة هود عليهما السلام ذكر مايراه الفقيه فى سورة يوسف ولم قال « آيات للسائلين » .

٢١٤ بيان أن القصص المسموع غير الآيات المشاهدة أو المعقولة ولكل أناس مذاهب فى العلم ، فمنهم الذين يستمعون ومنهم الذين يفكرون ؛ فللأولين قصة يوسف وغيرها ، وللآخرين آيات السموات والأرض التى هم عنها معرضون .

بيان أن بعض الآيات الكونية كغرائب الترتيب فى نظام الأوراق على النبات اختص به علماء هذا الفن ، وأن نجاة الحيوان بسبب لونه كما تقدم لم يظهر إلا فى زماننا ظهورا واضحا وهذا يفهم من قوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ولم يقل للسائلين الخ .

٢١٥ نظرة الفقيه الإسلامى فى سورة الرعد بعد سورة يوسف .

ذكر القطع الثلجية التى ستذكر فى قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » وسترسم هناك وبيان أنها مشتملة على مسدسات كل مسدس فيه ست مثلثات كل مثلث منها متساوى الزوايا كل زاوية منها (١٢٠) درجة .

٢١٦ نظر الفقيه فى سورة إبراهيم عليه السلام ، وأن موسى ذكر قومه وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهكذا نبينا فى الأمرين معا .

# الجواهر

# في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

---

## الجزء السادس

---

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

---



---

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بباشرة محمد أمين عمران

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
( قرآن كريم )

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس مكية ، وهى تسع ومائة آية
وهى سبعة أقسام

[ القسم الأوّل ] فى دلائل معرفة الله تعالى واليوم الآخر ونعيم الآخرة من أوّل السورة إلى قوله « أن الحمد لله رب العالمين » .

[ القسم الثانى ] فى أدلة مختلفة على التوحيد من النظر فى النفس والنظر فى القرون الخالية ، من قوله « ولو يعجل الله للناس » إلى قوله « فننبئكم بما كنتم تعملون » .

[ القسم الثالث ] فى أدلة البعث وأحوال المبعوثين من قوله « إنما مثل الحياة الدنيا » إلى قوله « وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » .

[ القسم الرابع ] فى إثبات النبوّة وتقريع الجاهلين وتوبيخهم مع أدلة إثبات الربوبية من قوله « قل من يرزقكم من السماء والأرض » إلى قوله « بما كانوا يكفرون » .

[ القسم الخامس ] قصة نوح عليه السلام من قوله « واتل عليهم نبأ نوح » إلى قوله « كذلك نطبع على قلوب المعتدين » .

[ القسم السادس ] قصة موسى وفرعون من قوله « ثم بعثنا من بعدهم موسى » إلى قوله « فيما كانوا فيه يختلفون » .

[ القسم السابع ] فى تقرير ماتقدّم كله من القصص والدلائل — من قوله « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك » إلى آخر السورة .

## ( القسم الأول )

بسم الله الرحمن الرحيم

الر * تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون * إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

اعلم أن أول هذه السورة كالمتمم لآخر السورة السابقة فإن آخر تلك يرجع إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) أرسل من العرب . (٢) وهو رءوف رحيم بالمؤمنين .

(٣) وعلى الله وحده توكله . (٤) ثم وصف الله تعالى بأنه رب العرش العظيم .

وفى أول هذه السورة :

(١) أنه ليس من عجب أن يرسل الله للناس رسولا منهم وهو متمم للأول من السورة السابقة ، فكأنه يقول إنه ليس للعرب خاصة بل للناس عامة . وكما أنه من العرب هو من سائر الناس فهو لهم مرسل .

(٢) وأنه يبشر الذين آمنوا أنهم لهم منزلة رفيعة عند ربهم وهذا فى مقابلة الأمر الثانى فى السورة السابقة وهو أنه رءوف رحيم بالمؤمنين .

(٣) ثم وصف الله بأنه استوى على العرش وهو فى مقابلة الأمر الرابع هناك .

(٤) وقوله «إليه مرجعكم جميعا» يفيد الوحدانية المستفادة من اختصاص التوكل به ، ثم إن هذه السورة جاءت بعد الأنفال والتوبة اللتين اختصتا بالقتال والغزوات وقسمة الغنائم وذكر المنافقين ووعيدهم وما حكم عليهم به من العذاب والتوبيخ والتقريع ، وفيهما ذكر الصدقات وقسمتها على المستحقين فهما المسائل الفقهية والأحكام العملية فناسب أن يؤتى بعدها بما يغذى العقل من الحكمة والعلم فهناك عمل إسلامى وهنا علم حكمى ولذلك ختمت سورة التوبة بأن الله ذو العرش العظيم توطئة لما سيذكر فى أول هذه السورة من الجمال الإلهى والحكمة العلية وذكر الشمس وضيائها والقمر ونوره وأقسام منازله ومعرفة عدد السنين والحساب واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والعجائب المصنوعة، والارتقاء من ذلك إلى تغذية الأرواح الإنسانية بهذه العجائب النورية والانزعاج عن العالم الكثيف والاطمئنان بالعالم اللطيف ، فمن الناس من يكتفى بالجنات الجارية أنهارها ، ومنهم من يرتقى إلى سبحات الجلال ومقامات السلامة من المادة وتغيراتها ثم يرتقى إلى مقام الحمد الذى تتغذى النفس فيه بالمعارف العلية ومعرفة ترتيب الكائنات ونظامها .

تفسير الألفاظ

( الر ) قد علمت حكمة هذه فى أول سورة آل عمران واستبان هناك سر الحروف التى فى أوائل السور وكيف كانت ١٤ وجعلت فى أوائل ٢٩ سورة وكيف توعت إلى أحادية وثنائية وثلاثية الخ ، وكيف كان عدد ٢٨ من الأعداد التامة وهو مما له علاقة بتشريح كثير من الحيوانات الفقرية وفقراتها وكيف كان فى ذلك رموز وإشارات تلائم عقول الأمم التى نزل القرآن عليها لاعتيادها الرموز والإشارات فى الكتب السماوية والعلوم القدسية فى نظرهم ، وكيف اتصل الكلام من ذلك إلى ما هو أتم وأكمل من حيث إن اللغة العربية النازل بها القرآن ستبقى الى آخر الزمان لمناسبتها للمنازل الفلكية والفقرات الحيوانية وبعض الأحوال الطبيعية وكيف وافق ذلك رأى مؤلف المانى فى روايته مستنتجا ذلك من تغير اللغات وثبات لغة العرب لبقاء القرآن بها فارجع اليه إن شئت ( تلك آيات الكتاب ) أى الآيات المذكورة الآتية فى هذه السورة وما تقدمها ( الحكيم ) من الحكمة فهو ذو الحكمة ، أو هو قد وصف بوصف من تكلم به قال الشاعر :

وغريبة تأتى الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وهو الحاكم فى الاعتقادات وحكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى الخ وبالجنة لأهلها والنار لأهلها (أكان للناس عجبا) استفهام إنكار للتعجب وعجبا خبر كان واسمها (أن أوحينا) والعجب حالة تعترى الإنسان من رؤية شئ على خلاف العادة ، وقد كانوا يقولون [ العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس إلا يتيم أبى طالب ] (أن) هى المفسرة (قدم صدق) سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدما لأن السبق بها كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد وأضيفت للصدق لتحققها وفى ذلك تنبيه على أنهم ينالونها بصدق القول والنية ( لسحر مبين ) أو « لساحر مبين » أى « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم » فلما جاءهم بالوحى وأنذرهم قال الكافرون الخ (استوى على العرش) استعلى بالقهر والغلبة كما جاء فى آية أخرى « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » والعرش إما بمعنى الملك وإما بمعنى البناء ، فكل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا ، قال تعالى « ومن الشجر ومما يعرشون » أى يبنون وقال فى صفة القرية « فهى خاوية على عروشها » والمراد أنها خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها « وكان عرشه على الماء » أى بناؤه ( بالقسط ) أى بعدالتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم وذلك لايتم إلا بإيمانهم (الحميم) للماء الحار ( الشمس ضياء ) ذات ضياء ( والقمر نورا ) ذا نور وما بالذات يسمى

ضوءا وما بالعرض يسمى نورا ( وقدّره منازل ) أى القمر وإنما خصه لأن سيره أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين والشرع اعتبر الأهلة أى قدّره ذا منازل ( لتعلموا عدد السنين والحساب ) حساب الأوقات من الأشهر والأيام فى معاملاتكم وتصرّفاتكم ( إلا بالحق ) ملتبسا بالحقّ مراعيا فيه مقتضى الحكمة (يفصل الآيات لقوم يعلمون ) إذ لاينتفع به سواهم ( اختلاف الليل والنهار ) بمجىء كل واحد منهما خلف الآخر ( وما خلق الله فى السموات والأرض ) من أنواع الصور والأشكال والعجائب التى لاحصر لعددها (يتقون) العواقب (لايرجون لقاءنا) لايتوقعونه لإنكارهم البعث وغرامهم بالمحسوسات عن المعقولات (ورضوا بالحياة الدنيا ) لغفلتهم عن الآخرة (واطمأنوا بها) سكنوا اليها مقصرين هممهم على لذاتها وزخارفها ، أو سكنوا فيها سكون من لايزعجون عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا ( والذين هم عن آياتنا غافلون ) لايتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادّها فهم جامعون بين الخستين : الانهماك فى الشهوات والغفلة عن عجائب الآيات ( بما كانوا يكسبون ) بما واظبوا عليه وتمرّنوا عليه من المعاصى حتى صار سليقة لهم ( يهديهم ربهم بإيمانهم ) أى بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدّى إلى الجنة أو لإدراك الحقائق ، ثم استأنف فقال ( تجرى من تحتهم الأنهار ) حال كونهم ( فى جنات النعيم ) وقوله ( دعواهم فيها سبحانك اللهم ) أى دعاؤهم لأن اللهم نداء لله ومعناه يا ألله إنا نسبحك تسبيحا (وتحيتهم) مايحيي به بعضهم بعضا وتحية الملائكة إياهم وتحية الله أيضا لهم ( فيها سلام ، وآخر دعواهم) دعائهم (أنّ الحمد لله رب العالمين) أى أن يقولوا ذلك وأن مخففة من الثقيلة ، انتهى التفسير .

هذه الآيات التى فى هذه السورة والتى تقدّمتها آيات القرآن الذى تنزلت فيه الحكمة وحكم فيه بين الحق والباطل والضلال والهدى .

ياعجبا للناس كيف يعجبون منا أن أرسلنا رسولا منهم لينذرهم أجمعين ويبشر المؤمنين ؟ أظنوا أن العلم والحكمة والوحى تابعات للمال والبنين فلكل وجهة هو موليها .

أليس الله بأعلم بمن استعدّ للعلم ومن حرم الحكمة ؟ هما ضدّان لايجتمعان ، وكيف ينزل الوحى إلا على المستعدّ له ؟ وليس الاستعداد بالعظمة والجاه ولا بكثرة الأتباع ،وإنما هو استعداد فى القلوب وعطاء من علام الغيوب ،فكيف إذن يعجبون ممن أوحينا اليه لينذرهم ويبشر المؤمنين أن لهم منزلة سامية ومقاما رفيعا ومجدا يوم يلقون ربهم ،فلما أرسلناه اليهم قال الكافرون إن ماجئت به سحر مبين ، إن هذا ليس بسحر بل هو حقّ قام عليه البرهان .

أليس ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى أزمان متطاولة عددها ستة وسميت أياما واليوم عند كلّ بحسبه .

### فصل فى بيان قوله تعالى « ستة أيام »

فإذا نظرنا لأهل الأرض رأينا اليوم عندهم عبارة عن دورتها مرة واحدة حول نفسها وكانت هذه المدة معتبرة فى أزمان أخرى أنها بسبب سير الشمس حول الأرض كل يوم وليلة من الشرق الى الغرب ، فلما تبين بطلان هذا استقرّ الأمر على أنه بسبب دوران الأرض على محورها نفسها ، فإذن أهل العقول مستعدّون أن يقبلوا أن يكون اليوم مقدّرا بمقدار سير كوكب حول كوكب آخر ، وبناء عليه لو اعتبرناه كذلك ونظرنا لكوكب من الكواكب الثابتة فإنه قد يتمّ دورته فى مئات السنين بل فى آلافها ومئات الآلاف وآلاف الآلاف كما تقدم فى مواضع من هذا التفسير ، فإذا قرأنا فى القرآن « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون » وقرأنا « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ونظرنا فى علم الفلك الحديث

فإنا نقول إن اليوم إذا اعتبرناه من هذه الناحية وإن لم يكن عندنا كذلك والعقل الإنسانى قبل ذلك سابقا قلنا إن اليوم قد يكون آلاف الآلاف من السنين ، وإذن تكون تلك الأيام المذكورة فى القرآن لتفتح العقول إلى البحث ، فإذا سمع الناس أن الله خلق العالم فى ستة أيام صدق الجهلاء المؤمنون وكذب وشك أكثر المتعلمين وتركوا الدين وأصبحوا فى حيرة وفى شك من ليل الجهالة مظلم ، ثم يبحث الحكماء منهم والصابرون فى تحقيق ذلك فتكون نتيجة ذلك معرفة علم الفلك ، فهو يبحث عن عقيدته عسى أن يجد لها مصدقا من العلم ولو بالتأويل فينتهى الأمر أن الأمة قد ظهر فيها عالم بهذا العلم ، وهذا هو مقاصد الديانات أن تكون الشكوك مبدأ للباحث ، والبحث يولد الحكمة والفلسفة وإذن يخرج النابغون فى الأمة ، فالنابغون من هذا الباب خلقوا ، ومن عش الشك درجوا ولا مفر من هذه المباحث فى الدين ليخرج علماء مختلفون فى علوم نافعة للأمم .

واعلم أنى قد وفيت هذا المقام حقه فى أول سورة الأنعام فلا أعيده هنا وأبنت هناك كيف كانت تلك الأيام الستة وساعد على ماذكرناه هناك آيات كثيرة من القرآن فارجع اليه إن شئت .

واعلم أن الآية هنا أفادت أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام كان متداولا معروفا عند الناس بدليل التعبير بالاسم الموصول ولا يكون للموصول إلا حيث تكون الصلة معروفة والصلة خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

أقول : إن هذا كان حقيقة معروفا متداولا عند اليهود والنصارى مذكورا فى أوائل التوراة فكانت هذه الجملة شائعة عند رجال الدين ، ولأنقل لك ملخصها من نفس التوراة .

قال فى الإصحاح الأول من سفر التكوين : فى البدء خلق الله السموات والأرض ثم شرح بعد ذلك النور والظلمة والليل والنهار ، وأن الأرض كانت خربة مظلمة وروح الله ترف على وجه الماء . وقال إن الماء خلق الله فيه جلدا فما فوقه صار سماء ومنه المساء والصباح والماء الباقى صار تحت السماء فاجتمع فى مكان واحد وباقى الأرض صار يابسا وأنبت الأرض عشبا وبقلا وشجرا وجعل الله فى السماء القمر والشمس والنجوم ، وجعل فى الماء زحافات ذات نفس ، وخلق طيرا فوق الجلد وتنانين كبيرة والحيوانات الدبابة والبهائم والوحوش . ثم خلق الإنسان على صورة الله فسلطه على سمك البحر وطير السماء وعلى البهائم وجعل الإنسان كغيره ذكرا وأنثى .

ثم ختم الإصحاح بما نصه [ورأى الله كل ماعمله فإذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا] وقد كان الملخص الذى ذكرته لك مقتبسا على الأيام الستة اختصرته مخافة التطويل عليك ، وعلى ذلك كانت الأيام الستة معلومة مشهورة من التوراة المتعارفة بين الناس فلذلك ذكرها القرآن بالاسم الموصول .

فصل فى قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

أى خلق الله السموات والأرض فى أزمان متطاولة وأحوال متغايرة عدها ستة وسماها أياما ، ومجرد الخلق ليس تمام القصد وإنما أهم الأمور نظام الملك وإحكامه وحسن هندامه ، لذلك عطف بثم للترتيب الذكرى إشارة لتباعد مابين المرتبتين : مرتبة الخلق ، ومرتبة إدارة الشئون ونظام الأمر ، فقال ثم استوى على بنائه الذى بناه بالتسطيح والتشكيل بالأشكال ورفع السمك ونظام الكرات وإدارتها وتنظيم ماعليها من مخلوقات وحساب دورانها ونسبتها إلى غيرها ونظام أيامها وشهورها وسنيها وغير ذلك ، وهذا على اعتبارنا أن العرش هو البناء ، أو يقال ثم استولى على الملك الذى شكله فى الوجود وذلك للملك كالفصول الأربعة

والمعادن والنبات والحيوان والإنسان وجميع ماخلق الله فى الأرض والسماء من الصور والأشكال على اعتبار أن العرش عبارة عن الملك والملك عبارة عن المخلوقات والمعنيان يئولان إلى مقصد واحد مع فرق دقيق .

فصل فى قوله تعالى « يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه »

أى يقدّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيئ بتحريكه أسبابها وينزلها بقدر ، والتدبير تنزيل الأمور فى مراتبها وعلى أحكام عواقبها لئلا يدخل فى الوجود مالاينبغى ، فهو يدبر أحوال الخلق فى ملكوت السموات والأرض فلا يحدث فى العالم السفلى ولا العلوى حادث إلا بتدبيره ، وقوله « مامن شفيع إلا من بعد إذنه » أى لايشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له فى الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة فى تدبيرهم ، فليس يجوز لأحد أن يسأله ماليس له به علم ، وفى هذا ردّ على الكفار القائلين بشفاعة أصنامهم .

وتدبير العرش المذكور هنا يقرب منه ماسيأتى فى سورة هود عليه السلام « وكان عرشه على الماء » فالعرش هنا مقرون بالتدبير وهناك فوق الماء والمعنى متقارب ، فإن معنى الماء هناك ما أشارله الله تعالى فى قوله « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال » فقد جعل الماء هو الذى يبقى فى الأرض لنفع الزرع والضرع والإنسان وقد نزع عنه الزبد فصار جفاء وجعل مثلا القرآن والعلم . وجاء فى حديث البخارى « مثل مابعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا الخ » فصرّح صلى الله عليه وسلم بأن الماء مثل العلم . وهكذا جاء فى سورة البقرة « أو كصيب من السماء الخ » فجعل القرآن هناك كالمطر النازل من السماء وعليه صار الماء هنا هو العلم والحكمة والتدبير ، فافهم هذا المقام تجد أن قوله هنا « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » نظير قوله « وكان عرشه على الماء » فهنا يدبر العرش بالحكمة والعلم ، وهناك كان العرش على الحكمة والعلم ، وأيضا إن المخلوقات على أقسام : فمنها ماهو خير محض ومنها ما كثر خيره ومنها ماقلّ خيره أو عدم ، والقسمان الأخيران لاوجود لهما إلا فى مخيلات الناس والأوّلان موجودان ، وترى المخلوقات الطبيعية من هذا القبيل كالإنسان والحيوان وأعمّ هذه المخلوقات وأظهرها الماء ، فبه حياة النبات والحيوان والإنسان والطهارة ، ومع هذه النعم الجليلة يغرق فيه عالم نافع وناسك صالح وعجوز مسكينة ويغرق السفن ، وهذا الشرّ القليل اقتضت الحكمة أن يحتمل للخير الكثير ، فالماء مثل للعلم والحكمة ومن الحكمة أن يغتفر الضرر القليل فى جانب النفع الكثير ، فعرش الله مبنى على الحكمة ومن الحكمة ألا تترك هذه المخلوقات الطبيعية وأن يتحمل الناس مايصيبهم من الآلام فى جانب النعم الكثيرة وأيضا إن هذه العوالم الأرضية خيرها أكثر من شرّها فلذلك بقيت وما أبقاها الله إلا لهذه الحكمة الظاهرة فى الماء المكنونة فى كل مخلوق مادّى .

فهذا من لطائف التعبير بلفظ الماء الذى استوى العرش عليه ، فكأنه سبحانه يقول اقتضت حكمتى أن أدبر الأمور على الخير المحض وعلى ما غلب خيره لأن من ترك الخير الكثير للشرّ القليل باء بالجهالة ورجع بالندامة وهو حسير ، لما أجمل التعبير بالماء هناك ، فتدبير العرش هنا للعامة والعلماء ، وكون العرش على الماء هناك للخواص والحكماء « وما يعقلها إلا العالمون » وما أبدع هذا التعبير ليرضى المفكرين وليقنع الجاهلين وكأنّ قول الله « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » رمز إلى حكمة الحكماء فى هذا المقام ، فإنه لايبقى فى الوجود إلا ما غلب نفعه والماء كذلك فلذلك مكث فى الأرض ، وهذا المقام معانيه فى الحكمة مسطورة ، ومقاصده فيها مبرهن عليها مبسوطة ، فانظر كيف أشار الله فى القرآن بلفظ الماء إلى غاية الحكمة ونهاية

العظة فرمز بالماء إلى ما أطال به العلامة ابن سينا فى كتاب الإشارات وشرح الشراح كالرازى والطوسى بأطول العبارات ، ولكن تالله ما أجمل الحكمة والفلسفة إذا تجلت فى كتاب سماوى ورمز لها فى الوحى النبوى ، فلله درّ الحكمة الدينية والعلوم النبوية والآراء الحكمية .

فانظر كيف اتفق العلم والدين والإيمان واليقين ، وإذا طالت الحياة وكتبت فى سورة هود لا أذكر من هذا شيئا إن شاء الله ، وإنما أحيلك على ما سطرته هنا ، فافرح بنعمة الله وبهجة العلم وكن من الشاكرين .

جمال فى إشراق شمس المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

إنما اخترت لك هذا العنوان فى هذا المقام لأنك سترى فيه بهجة الناظرين وقرّة أعين المفكرين وزينة الدنيا والدين وجمالا يأخذ بالألباب وحسنا قصرت عن أقله زينب وليلى والرباب وحكمة تسرّ الحكماء وتدهش الأدباء .

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

ذلك أنه بينما أنا جالس أرتب مسوّدات هذا التفسير لأقدّمها للطبع إذ حضر صديق لى فقال :

يذكر الله تدبير الأمر ويقول فى بعض آياته « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فهل لك أن توضح لى هذا التدبير بشكل يفهمه الخاصة والعامة وأرجو ألا تحيلنى على علم الفلك وطبقات الأرض وما أشبه ذلك ، وإنما أنا أحبّ أن تحضر لى موضوعا واحدا يكون فكاهة للتفكهين وزينة العاقلين وسمر الجالسين بحيث أحدّث به ابنى وأسرّ به جليسى وأنتفع به فى حقلى وبستانى وتجلى وتسير به الكهرباء وتستعين به السيارات ويشفى المرضى وتحتاج اليه الأندية العلمية وأكثر أهل هذه الكرة الأرضية ، فعرضت عليه أنواعا من النبات والحيوان فلم يرقه ما أقول ولم يعجبه المنقول ولا المعقول فتفكرت مليا وقلت قد وقفت على ضالتك المنشودة وعرفت غايتك المحمودة خذ القول على واسع التفصيل منى ، ذلك أن هناك شجرا لا ينبت إلا فى (البرازيل) بأمريكا وفى (رنيو) وفى جنوب أمريكا وفى وسط استراليا وربما ينبت قليلا فى جهات أخرى كإفريقيا ولكن أثره فى كل مكان مشهود ، ثمرته ليست بمأكولة كالتفاح ولا بمشروبة كنقوع الأقاح ولا بدواء كالسنا المكى وغيره من العقاقير ولا بزيت كشجر الزيتون ، وإنما تستخرج منه مادّة سائلة هى عدّة للمسافرين وزينة الكاتبين وشفاء المرضى ومتاع للمقوين ، تسقى الحدائق والمزارع وتدفع النار عن المنازل ، لا يستغنى عنها مهندس ولا كاتب ولا يقوم بدونها درس مدرّس ولا حساب حاسب عمت سائر طبقات المتعلمين ودخلت جميع الدواوين وجالست الوزراء والأمراء وحافظت على قوّة الكهرباء وكانت خير الحافظات للماء فهى نور الله فى أرضه وإشراق شمس حكمته وعجيب حكمه وبديع صنعته ، يحسبها الجاهل من سقط المتاع وهى عند الحكماء نور أضاء سائر البقاع ، فلما سمع ذلك منى قال صف لى هذه الشجرة وصفا مدققا وبين أعمالها محققا ودع الإجمال وهات التفصيل ، فقلت هذه الشجرة عظيمة الحجم كبيرة الساق قد ألهم الله الأمم قديما فثقبوا قشرتها السميكة ووضعوا تحت الثقب إناء ينزل فيه سائل لبنىّ ، وذلك السائل يصير جامدا بعد نزوله فى الإناء ، وهذه تسمى ( كاوتشوك ) باللسان الإفرنجى ( ربرانرى ) يعنى (شجرة الأستيك) كما قدمنا أو (مطاط) الأوّل بالفرنسية والثانى بالإنجليزية والثالث بالعربية .

وذلك أننا نشاهد فى بلادنا وفى جميع المدارس والدواوين مادّة تحافظ على حجمها دائما سواء أردنا مدّها أم أردنا ضغطها فهى ترجع إلى حالتها الأصلية ، بها نمحو ما أردنا محوه مما كتبناه ونزيله وهى (الأستيك) المذكور نراها فى أيدى التلميذ والأستاذ والكاتب والحاسب وهكذا ، وهذه المادّة بعد أن يقوها

فى الأوانى

فى الأوانى يغلونها وينظفونها ثم يضعونها بين اسطوانتين من الصلب بهما تضغط وتصير قطعا شتى وهذا هو الأستيك النقى الذى يكون فى الصيف طريا لزجا وفى الشتاء صلبا ثابتا .

إن منفعة هذا النوع خاصة بأسلاك الكهرباء ، وأنه يمنع انفلات أى ذرة منها فهو حافظها الأمين ، إن هذا النوع تمكن إذابته بسائل متخذ من (البترول) المعلوم ومتى أحيل بذلك سمى إذن (الاستيك الحلول) وهذا منفعته فى إطار العجلات التى تجرى بها الدراجات (بيسكل) التى يركبها الناس اليوم ويحركونها بأرجلهم فإذا ثقب ذاك الإطار أمكن رتق فتقه بهذه المادة التى هى فى الحقيقة من مادته .

الاستيك والكبريت

هذه المادة النقية المتخذة من الشجرة إذا أضيف إليها مقدار قليل من الكبريت فهى التى نراها بين ظهرانينا وهذه لها خاصتان :

إحداهما : محافظتها على حجمها .             ثانيتهما : أنها أقوى مانع يمنع مرور الماء

فبالخاصة الأولى تصنع منها إطار العجلات فى الدراجات التى وصفناها هنا وفى العربات وفى السيارات التى هى باللسان الافرنجى (متركار) فهذه الآلات تصلح للركوب بهذه المادة وتريح الراكبين .

وبالخاصة الثانية تصنع منها قلل الماء التى تحفظ على درجة الحرارة الكامنة فيه والوسائد التى يكون حشوها هواء ، والأوانى التى يجعل فيها الماء الحار ليستدفئ بها المرضى بمقتضى أمر الطبيب ، وتصنع منها الأنابيب التى فى أيدى الرجال القائمين بإطفاء النار المشتعلة فى المنازل والمدن والقرى ، وهكذا الأنابيب التى تسقى بها الحدائق وتصنع منها (معاطف وأردية) تمنع المطر عن لابسها .

وهناك حال أخرى لهذه المادة ، وهى أن يضاف إليها من (٢٠) إلى (٣٠) جزءا من مائة جزء من الكبريت ، وإذ ذاك تصبح ذات خواص وأوصاف مغايرة لسابقتها صالحة لأعمال غير أعمالها ، ذاك أنها مادة سوداء لامعة صلبة كصلابة قرن الحيوان ، وهذه تصنع منها مساطر ومقابض توضع فى نهايتها أسنة الأقلام وتدخل فى كثير من الزينة وحلية نوع الإنسان ، انتهى وصف هذه الشجرة ومنافعها وخواصها .

رسم شجرة الاستيك



شكل (١)

ألا ترى رعاك الله عجائبها ؟ انظر ثم انظر كيف خصها الله بأرض دون أرض وجعلها فى أمم دون أمم وانظر كيف جعل لها ثمرة غير ماعرفه ، نحن نأكل التمر ونشم الورد ونأكل اللبن والقشدة من شجرة القشدة المعلومة ونلبس من الكتان والقطن ، كل ذلك معروف مفهوم إنما هذا له فائدة غير ماعرفناه وحكمة غير ما أدركناه ، فانظر كيف خزن الله هذه المنفعة فى الشجرة حتى احتجنا إليها ، علم الله أننا نحتاج إلى الكهرباء بعد آلاف السنين ، فماذا صنع ودبر ؟ خلق هذه الشجرة قبل خلق الناس ووضع فيها هذه الخاصية ، ولما جاء هذا العصر قال أنتم لن تحفظوا ذرات الكهرباء إلا بهذه المادة وهى نقية فلا كبريت يخالطها ولا غبار يمتزج بها فإذن تحفظ الكهرباء للإضاءة والإشراق فى كل مكان ، مد الناس الأسلاك البرقية ( التلغراف ) فى الأرض ولم يجد الناس سبيلا

لدها فى البحر حتى عثروا على هذه المادّة فحفظت الأسلاك البحرية من أضرار الماء لها فيها كان تواصل الأمم وتعارفها كما قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فهذه إحدى دواعى التعارف ، أليس هذا هو التدبير ؟ يقول الله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ويقول « يدبر الأمر يفصل الآيات » فهذا من تدبير الأمر وهذا من تفصيل الآيات ، هذا بعض أنواع التدبير والتفصيل .

علم الله قبل أن نخلق حاجتنا إلى الأسلاك البحرية التى سيخلقها فدبر هذه الحكمة والخاصة المذكورة .

دبر الله هذه المادّة ووضعها فى هذه الشجرة ، وخزن الفحم فى أعماق الأرض ، ولما أراد ارتقاء نوع الإنسان علمه البيان وأرسله إلى باطن الأرض فاستخرج الفحم وجرت به القطرات وأدار الدولاب وسق الأرض وحمل على ذات ألواح ودسر فى البرّ والبحر واستخرج الكهرباء واحتاج إلى ما يحفظها فأرسله إلى تلك الشجرة فقرّت عينه واستخرج منها ذلك السائل .

(١) فكان حافظ الكهرباء

(٢) ثم ألهمه أن يذيب تلك المادّة فأصبحت رتقا لفتق العجلات فى سفره .

(٣) ثم ألهمه أن يضيف إليها الكبريت قليلا فكانت ساقية لبستانه مطفئة لنار احتراق منزله الخ ماتقدم .

ثم زاد الكبريت فعظمت المنفعة فى الكتابة ونظام رسم الخرائط وجمال الكتب وزينة نوع الإنسان ، تبارك اسمك وتعالى جدّك دبرت بحكمة .

(١) جعلت هذه الشجرة قليلة فى الدنيا لأن كثرتها فى الأرض معطلة للمنافع بأثرة التجارة ، كيف لا وهل هى تشابه النخل نحتاج إليه فى حوز الرطب والتمر وما أكثر حاجتنا إليه ، أما هذه الشجرة فإنها وإن عمت الحاجة إليها فإن ما نستعمله منها لا يوازى عشر معشار ما نحتاج إليه من النخل وكثير من أشجار الفاكهة والزيت ، لذلك قلت هذه الشجرات فى الأرض .

(٢) ثم هى متباعدة فى أقطار المسكونة ليرحل الناس إليها ولم تقرب من متناول كل حىّ فهى كالعلم يحرم منه من لا يستعدّ له وإن كان المعلوم مشاهدا محسوسا ولا يحظى به إلا من هم له مشوقون وبتحصيله مغرمون ، إن هذا الإنسان خلق ليكون فى حركة جسمية وعقلية أمد الحياة ، تباعدت مطلوباته لتكثر أعماله فتقوى روحه ويتعوّد الصبر والثبات ؛ فالحكمة فى هذه الشجرة أشبه شئ ببعض الحكم فى الحج ، جعل الله الحج ليكون من فضائله التدريب على فراق المألوف والتعرّف بغير ماهو معروف والتنائى عن الكسل والمبادرة إلى العمل والسعى لصفاء النفوس والمروءة لتتجلى للناس معانى هذا الوجود .

(٣) كلما كان الشئ أشرف كان أعزّ مطلبا وأغلى ثمنا وأبعد فى طلبه كما نرى فى الذهب والفضة والأحجار الكريمة وهذه الشجرة .

آراء نوع الانسان فى أمثال هذا المقام

اعلم أن الناس فى أمثال هذا الموضوع ثلاث طبقات :

(١) طبقة دنيا وهم العامة وكثير من أصناف المتعدين ينظرون الى مثل هذه المادّة وأمثالها نظرهم الى ما يألفون ولا ينظرون الحقائق الكامنة فيه .

(٢) وطبقة وسطى وهم الذين يدرسون منافعها كما يدرسون منافع كل مخلوق .

(٣) وطبقة عليا وهم الذين نجلت مواهبهم ونظروا لهذا وأمثاله نظرة عامة محيطة ترجع الى التدبير العام والنظام الكلى أولئك هم أعلى نوع الانسان وهم آباء والناس جميعا أبناؤهم ونسبتهم الى الناس كنسبة الملوك والأمراء الى عامة الشعوب ، فهؤلاء يقودون المفكرين فى الأمم الى النظرات العامة الشارحة للصدور ولنحو هذا جاء الأنبياء بطريق الوحى ، فهؤلاء نظرهم كلى وحسبك ماترى فى القرآن من أمره للناس بالنظرات العامة ،وكلما قلت هذه الطبقة من أمة قلت سعادتها ، وكلما كثرت زاد ارتقاؤها ، هؤلاء هم الذين يدرسون هذا الوجود درسا يفهمون به التدبير العام ، وهذه الطائفة تقل فى نوع الانسان كما قلت هذه الشجرة من بين الأشجار ولكن علمهم يعم الأقطار كما عمت منافع هذه الشجرة الأمصار .

هذا كله تدبير محكم منظم ، إن هذا الوجود كله ساعة منظمة وهيكل محكم ، هذا الوجود كله لافرق بينه وبين جسم الإنسان والحيوان من حيث الإتقان والنظام ، انظر كيف علم الله احتياج الناس فى أسفارهم فى عصرنا إلى ماير تقون به فتق العجلات فوضع هذه الخاصية فى تلك الشجرة . فكما ترى العين فى الإنسان والأذن وبقية الحواس لاتتم منفعتها إلا بالأيدى والأرجل والأحشاء وبقية الأعضاء وأعصاب الحس والحركة بحيث ترى هناك اتصالا بين المخ وبين أطراف اليد والرجل وجميع الشعر ، هكذا ترى هنا ارتباطا وثيقا بين الناس وبين منافع الأرض فى سائر الأقطار ، وهذه الشجرة من شواهد ذلك فهناك ارتباط الفحم بالكهرباء بهذه الشجرة بحياتنا بعلومها بمدارسنا بالشمس بالقمر بالكواكب .

كل هذه متصلات اتصال أعضاء أجسامنا ، هذا هو معنى قوله تعالى « ثم استوى على العرش » ، وقوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقوله « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

انظر إلى قوله « يفصل الآيات » وانظر إلى أنه أتبعها بقوله « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » لماذا جعل هذه الجملة بعد التى قبلها وأتبعها بها ، أما تفصيل الآيات فها هو ذا كثير فى هذا التفسير ، أما الإيقان فلماذا يكون عقب ذلك ؟

الإجابة على هذا السؤال

يجيب عالم البلاغة على هذا السؤال ويقول لما بينهما من الجامع العقلى أو الوهمى أو الخيالى إلى آخر ماتراه مسطورا فى كتب البلاغة كالمفتاح للعلامة السكاكى وككتاب السعد التفتازانى وغيرهما ، وهذه إنما تنفع المتعلمين أثناء دراسة اللغة ولكننا نحن الآن نريد أن نبين مايمس ذلك فى عصرنا الحاضر : أى فى القرن العشرين ، انظر إلى علماء القرن التاسع عشر فإنهم كانوا غالبا لايفكرون فى النظام العام باعتبار التدبير والإحكام بل باعتبار النشوء والارتقاء ، وكثير منهم من أنكر صانع الوجود المنظم لكل موجود لأن أنظارهم اقتصرت على مادون النظام التام ، فلما أن بزغت شمس العلم فى عصرنا ظهر فى الأمم مجددون وحكماء مفكرون ، منهم :

(١) العلامة ( إبلى دوسيون ) فى كتابه [ الله والعلم ] الصادر سنة ١٩١٢ قال [ الفرضان اللذان يقوم عليهما مذهب القائلين بالانتخاب الطبيعى وانتقال الصفات المكتسبة قد نقض الأول ( سبنسر ) و ( ويسمان ) نقض الثانى ] وقال إن انتقال الصفات بطريق الوراثة لا أصل لها وبرهن على أن هذه المشاهدات المزعومة لاتقوم إلا على حكايات مخترعة لاتعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكاية المرضعات ، وترى أمثاله كثيرين فى عصرنا أمثال الدكتور (ادوارد هارتمان) إذ قال : [ إن الذين قالوا إن هذا العالم وجد بلا قصد كلامهم من الأمور الموهومة التى لا أساس لها ، وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكى ، ولا يمكن النظام بلا قصد كما

لا يمكن القصد بلا نظام ، وكل ما لانظام له فهو مهمل فى فوضى كالثيران الهائمة والطبيعة التى يعللون بها ليست كذلك ] اه .

وأمثال ( لويز بوردو ) إذ قال : [ يجب أن يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر فى تلازم الحوادث ويثبت به ] .

وأمثال الأستاذ ( فون باير ) الألمانى فى القصد قال : [ إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لاقصد فى الطبيعة وأن الكون لايقوده إلا ضرورة عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى فى ذلك وهى أنى أرى أن هذه الموجودات تؤدى إلى أغراض ومقاصد سامية ] .

وأمثال ( كاميل فلامريون ) الذى قال . [ إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررا وغاية دفع به إليها ، إن التبصر الذى يظهر فى النباتات والحشرات والطيور الخ وهى غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان المشاهدات فى التاريخ الطبيعى يستنتج منها أن فى الطبيعة عقلا مدبرا ] .

وهكذا كثير من الحكماء ذكرناهم فى غضون هذا التفسير كلهم نطقوا بمعنى هذه الآية « يدبر الأمر » وهذه شهاداتهم طرّا ترجع إلى قوله تعالى «لعلكم بلقاء ربكم توقنون» فعطف الجملة التى فيها الإيقان فى سورة الرعد التى تناسب مافى هذه السورة ظهر أثره فى هذا الزمان فإن العلماء الذين أثبتوا وجود مدبر للكون رجعوا فى براهينهم إلى هذا التدبير المحكم ، فالتدبير والتفصيل كما رأيته فى الشجرة المذكورة هنا هو الذى أورث اليقين واليقين أشرف من الإيمان وهو المذكور فى قوله تعالى فى سورة الأنعام « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » فلما سمع صاحبى ذلك قال : هل من علماء غير هؤلاء بحثوا فى هذا الموضوع وأتى لهم اليقين كالسابقين ، قلت : قد كتب العلامة ( ادمون بربيه ) فى مجلة [العالم الحى] سنة ١٩١٢ ، قال إن ثقة الأستاذ ( چينو ) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيف جدا ، فإن هذه البيئات على مايقول لاتصلح لإيجاد أىّ تغيير وراثى ثابت ، فالبط وسائر الطيور المائية ترى مجهزة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها ولكن بالعكس من ذلك فى مذهب المسيو (چينو) فإنه يقول بأنها وجدت لها مقدما بدون تأثير من الخارج وأخذ البط يعوم لأنه وجد له أرجلا مغشاة تصلح للعوم ، فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل العوم : أى أنها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها من العوم .

(٢) وأيضا الأستاذ ( بلوچر ) الألمانى الشهير قال : [ لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة ] وأيضا قال الفزيولوجى الكبير ( دوبوار عند ) [ إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرّد تعليل الحوادث المراد تعليلها وأنها هى نفسها من المفترضات الغامضة ] فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذه أقوال لا أفهم لها معنى ، ماهى الصفات المكتسبة والموروثة ؟ هذا كلام غامض ، قلت : أنا قلت لك إن علماء القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يقولون إن هذه الحيوانات يكتسب الفرع منها صفات الأصل ، وهذا أصل من الأصول الأربعة التى هى مذهب ( دارون ) .

(١) وهى أن الحياة ذات أطوار وتغيرات وانتقال من حال إلى حال .

(٢) وهذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل .

(٣) وأن الأحياء جميعها بينها تنازع البقاء .

(٤) وكلما كان الحى أتمّ وجودا وأقوى وأكمل كان أصلح للحياة والبقاء والأضعف محكوم عليه بالفناء .

فهؤلاء

فهؤلاء العلماء فى القرن العشرين نازعوا فى بعض هذه القضايا ، ومعنى هذا أن المذهب الأول يقول : إن العالم لاصانع له وهذه التنوعات كافية فى بقائه ، وعلماء هذا القرن الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم هم الذين يقولون كلا إن للعالم صانعا وبرهانه مايشاهدون من نظام الحشرات والإلهامات والعجائب كما شرحناه فى هذا التفسير وهو مضمون قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر ـ هنا وقوله ـ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » ثم قلت : وبهذا ظهر أن هذه الدنيا ومن عليها من الناس أشبه بأم تربى أولادها ؛ فكما أن الأم يخلق لها الثديان قبل خلق الولد ، واللبن يخلق فى الثدى قبل الولادة ، هكذا الناس خلقت لهم قبل أن يخلقوا هذه الحيوانات ، وهذه الشجرة التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك من التدبير ويناسب قوله تعالى « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم » .

هذا ، وسترى فى سورة النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من السور عجائب الحيوان وبدائع تلك الإلهامات والقوى التى أجمع حكماء عصرنا فى الأمم كلها على دلالتها على حكمة نظمتها ، وهكذا سترى فى سورة المدّثر عند الكلام على قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » إفاضة الكلام على بعض الحشرات اللاتى خلقت لتعيش فى أجسام الحيوان والإنسان ، فالناس حرم عليهم أن يأكل بعضهم لحم بعض لا بالغيبة ولا بالأكل الحقيقى ، ولكن أحل الله ذلك لذرات صغيرة خلقها لتعيش فى أجسام أناس مستعدة للمرض والموت لتخلو الأرض لغيرهم وتصلح بسكانها ، فلها شأنان : شأن أنفسها تعيش وتنمو وتلد ويخلفها غيرها لتفهمنا قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » فالمثلية هنا سيظهر أثرها فى بعض أحوالها ، إذ تعيش هذه الحيوانات الذرية فى أجسام الناس والحيوان ، وأما بالشأن الآخر فهى أنها أشبه بالشرطة الذين يكونون فى المدن ليحفظوا النظام ويمنعوا تصادم المارة فى الطرقات والشوارع ، هكذا هذه الحيوانات الذرية خلقت لتقلل من الإنسان والحيوان « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » ولو كره الناس أجمعون ، وهناك ترى أن هذه أيضا من جند الله التى لايعلمها إلا هو وإنما علمنا بعضها لأنه قال « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » فالذى نعلمه الآن مما شاء الله أن يعلمه الناس من جنوده .

واعلم أن هذا التفسير جعله الله مقدمة لنهضة الأمم الإسلامية فهو أشبه بثدى الأم قبيل الولادة ، إذ يكون مستعدا لدرّ اللبن وكهذه الشجرة المسماة فى بلادنا ( بالاستيك ) وأيضا ( كاوتشوك ) مأخوذة من كلمة فرنسية وتقدم ذكرها بالإنجليزية ، ويقال لها فى بلادنا المصرية أيضا ( مطاط ) ، فكما خلقت هذه الشجرة قبل خلق الكهرباء وأفادتها هكذا ظهر هذا التفسير الذى سبق ظهور آلاف من قادة الإسلام فى مستقبل الزمان وسيقرءونه ويكون لهم شأن فى رقى الأمم الشرقية « ولتعلمن نبأه بعد حين » انتهى ما أردت ذكره فى هذا المقام

فريدة فى التدبير العام

إن التدبير العام نوعان : نوع لتدبير القوّة ، ونوع لتدبير المادة ؛ فالنوع الذى هو لتدبير القوى ، فذلك أنا نرى غرائز حيوانية وعقولا إنسانية وقوى قدسية ، أما الغرائز الحيوانية فهى أدنى الدرجات أنها قد ألهمت جميع ما تحتاج إليه فى حياتها وبناء مساكنها وتربية أولادها ونظام أعمالها .

ناهيك ماترى من نسج العنكبوت ودقته ومسدّسات النحل وهندسته وحرص الحشرات على تربية ذريتها سواء أكانت من التى تكفل تربيتها كالنحل والنمل أم كانت تموت قبل أن يفقس بيضها كما ترى فى الناموس الذى ستعرف تفصيله فى سورة المدثر عند قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » والجراد ودود القز

إذ الناموس لايضع بيضه إلا فى المستنقعات والأماكن التى تكون مرعى خصيبا لذريته قبل استكمال قوتها .
هكذا الجراد لايضع بيضه إلا فى أماكن خاصة وهى يدفنها فى الأرض بحيث لاتكون أبعد ولا أقرب من الوضع الذى يصح معه التفريخ فى الأرض . وهكذا سائر الطيور علمت وألهمت جميع ما تحتاج إليه فى أنفسها وذرياتها ، وهذا التفسير قد جمع مايكفى ذا اللب فى مثل هذا ، وهكذا العلوم اليوم فى الأمم المحيطة بنا تكفلت بهذا البيان وأعطت اليقين للمفكرين . وهذا كما قال الله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وقال «سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى» فهذا هو التقدير وهذه هى الهداية وبهذا وأمثاله يكون العلم واليقين .

العقول الإنسانية

أما العقول الإنسانية فإنها أرقى من الغرائز الحيوانية ، إن الغريزة خاصة بعمل لاتحيد عنه ، ينسج العنكبوت ويصطاد بشبكته ويطير بنسيجه كما يطير الإنسان اليوم فى الجو ويعمل له مايشبه القنطرة ويبنى مساكن من نسيجه . وهكذا مما ستراه فى سورة العنكبوت مفصلا موضحا وهكذا غيره ، كل هذا لايصل إلى درجة الإنسان ، فإن الحيوانات وإن كانت غرائزها عجيبة هى قاصرة ، أما العقل فهو أوسع نطاقا وأرقى وأقوم وأقوى فهو أعلى من الغريزة ، ناهيك ماتراه اليوم من الإبداع والارتفاع والارتقاء .

القوة القدسية

أما القوة القدسية فهى أعلى من القسمين . فالعقل وسط بينها وبين غريزة الحيوانات ، ولعلك تقول أين القوة القدسية ؟ إنها خاصة بالملائكة وأنت عوّدتنا فى هذا التفسير أن تجعلنا نلمس الحقائق بعقولنا . العقل عرفناه والغريزة فهمناها ، أما هذه القوة القدسية فإنا لم نعرفها إلا نقلا من كتب الديانات أو من كلام الفلاسفة ، قلت اعلم أنّ هذه القوة نعرفها نحن بأنفسنا ، ذلك أنا رأينا طائفة من هذا الإنسان لهم قوة غير القوة العاقلة وهى أشبه بغرائز الحيوان وغرائز الأمهات بالنسبة لأولادها ، قال هذا لم أفهمه فأوضحه ، قلت إنّ الأم والأب لهما غريزة أشبه بغريزة الحيوان من حيث العطف على ولدهما ، إن للإنسان غرائزه كالحيوان فى الأكل وتربية الولد وغيرهما ، ثم هو امتاز عن الحيوان بأن العقل ساعد الغريزة فى تربية ولده ولكن الطائفة الممتازة التى ألقيت إليها القوة القدسية أو بعض آثارها هم طائفتان : الأنبياء والنابغون ومنهم الحكماء ، فالأنبياء يتلقون الوحى عن الملائكة . ولا جرم أن هذا فوق متناول العقل .

ثم إن الأنبياء اليوم ليس منهم أحد على الأرض وإن الله عز وجل خلق فى كل أمة من أمم الأرض أناسا استعدادهم خلق للعموم لا للخصوص ، فهم أبدا مغرمون بإسعاد المجموع أو بتعليمه يجدون ذلك فى صدورهم ويحسون به فى أنفسهم لايقرّ لهم قرار ولا يكون لهم اصطبار إلا إذا جدّوا فى الأسفار وقطعوا القفار وركبوا متن البحار واستخدموا الكهرباء والبخار لنيل الأمانى والأوطار وإدراك المعالى وحوز العلوم ونفع العموم ، وهؤلاء ليلهم ساهر ونهارهم عامل ، فهذه الحال لاتفارقهم ، وهذه الأخلاق لاتغادرهم فهم مع العلم ومع أممهم أشبه بالأم الوالهة على ولدها ، المولعة بفلذة كبدها ، ولكن هذه الصفة فى هؤلاء الأشراف أعلى مقاما وأرفع منارا وأشرف مقصدا ومحتدا فلم تنحط إلى غرائز الحشرات ولا إلى عطف الأمهات من الآدميين والحيوانات بل إنها تعلو على العقل وتسخره فتجد تلك الموهبة تسوق العقول التى جاورتها فى الأجسام التى حملتها فتحمل المتصفين بها على تحمل المصاعب وقطع السباسب وإفراغ الجهد فى استخدام العقل ، ذلك هو وصف النابغين فى سائر الأمم والله لم يخل الأرض قديما ولا حديثا منهم ، وكل يظهر فى أمته ما وفق له من أمر مادّى أو معنوى ، كل ذلك لإلهام يلهمونه كإلهام الحيوان وعامة الإنسان ولكن هذا أعلى من العقل فهذا إفاضة من الملائكة ، وترى الإلهام فى الأمم المادّية كأهل أوروبا يرجع إلى المادّة

وفى الأمم التى قصرت همها على الأمور الروحية نبغت فيها فقط وكلاهما إلهامه ناقص ، فأما الأمم الإسلامية التى ستظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فإنها سيكون إلهامها جامعا للأمرين معا فلا يقفون عند المادّيات كأهل أوروبا غالبا ولا على المعنويات والروحيات كبعض الأوروبيين وعامة أهل الهند فيكون الإلهام شاملا للأمرين نافعا فى الروح والجسم والمعنى والمادّة .

وبهذا عرفت القوى الثلاثة : الغريزة والعقل والقوّة القدسية ، وأن هذه القوة فى عالم أعلى منا وتتنزل على أفراد فى الأمم المختلفة وتظهر على أيديهم منافع للناس وسعادة مادّية أو معنوية ، وأرقى هذه الطائفة هم الحكماء الذين يدرسون هذا الوجود وهم مغرمون بربهم وبنظامه وبنظام الأمم ، فوجود هؤلاء فى الأرض دليل على أن هناك قوى أعلى منهم يستمدّون منها إلهاماتهم وهم يبنون عليها سواء أعلموا ذلك كالأنبياء أم لم يعلموه كالحكماء وبعض النابغين .

فهذا هو النوع الأوّل من النوعين العامّين للتدبير وهو تدبير القوة ، فظهور أناس فى الناس امتازوا بقوة أرقى من غيرهم ، وعموم العقول فى الناس وعموم الغرائز فى الحيوان فى ذلك كله معنى التنزل من السماء إلى الأرض بكون الوحى للأنبياء فيعلمون العقلاء وهؤلاء العقلاء يفكرون فى الوحى ويذهبون مذاهب شتى لنفع الناس ، فهذه العقول كلها مسخرة لهذه الموهبة القدسية ، ثم إن غرائز الحيوان والإنسان تحت ذلك كله مسخرة مطيعة كما سخر الله الإنسان فنفع الحيوان طوعا أو كرها ، ألا ترى أنه يقدّم الطعام للثور وللفرس وأنه يزرع القطن فيأكله الدود . فهو ذا الإنسان سخر طوعا وكرها ككل مخلوق .

وملخصه : أننا نرى القوة القدسية ألقت شعاعا من العلم على العلماء التابعين للأنبياء ، وبالإلهام للنابغين والحكماء ، وبالقوة العقلية زرع الناس ونظموا الأرض فأكل الحيوان أردنا أم لم نرد ، هذا هو معنى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فى هذا المقام وهو الكلام على القوى الثلاث وبه تمّ النوع الأول وهو تدبير القوة .

النوع الثانى من التدبير العام : تدبير المادّة

إن تدبير المادّة أيضا داخل فى قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فكما رأينا القوى يمدّ أعلاها أسفلها ، هكذا نرى المادّة يمدّ أعلاها أسفلها .

ألم تر إلى الشمس كيف كان أهل الأرض لا يعيشون إذا لم يكن ضوءها مرسلا إلى أرضهم فسترى فى سورة « والشمس وضحاها » كما رأيت فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب مثل ما فى سورة الفاتحة وغيرها ، أن كل مخلوق على الأرض لا يحيا إلا بوجود الشمس فلولاها لم يكن ريح تهبّ ولا ماء يجرى ولا حيوان يدبّ ولا إنسان يوجد بل تكون الأرض قاعا صفصفا ، ثم إنك ترى السحاب يجرى والرياح تهبّ كل ذلك لمنافع الناس على الأرض . فهاهو ذا الأعلى نفع الأدنى كما نفعت القوة العالية وحافظت على من دونها طوعا أو كرها ، سخرت العوالم المحيطة بنا لحياتنا ، وامتلأ الجوّ بالبخار والسحب ونزلت الأمطار وزمجر الرعد ولمع البرق وهبت العواصف فنبت الزرع وازّينت الأرض للناظرين وبهرت النجوم فى سمواتها وأرسلت أشعتها تترى لأهل الأرض فساروا على هداية ضوئها فى البرّ والبحر فكانت نورا لسارِيهم وهداية لمسافرهم ومرشدا لربانهم ونجاة لسفنهم وإسعادا لبدوهم وحضرهم وهم آمنون .

مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين

ها أنت ذا أيها الذكى قد اطلعت على ترتيب التدبير من السماء إلى الأرض فى القوى والموادّ ، وها أناذا أذكر لك نتائج ذلك فى الأمم فأقول :

قد تبين لك أن العقول موزعة على الناس والمنافع على الأرض فى مواطن من هذا التفسير وأهل الأرض متضامنون وليس لهم دخل فى إنزال المطر ولا ضوء الشمس ولا خلق الهواء ولا خواصّ الأرض ، تضىء الشمس وتثير الرياح بحرارتها فتجرى السحب فتنزل على الأرض والناس يتقون الماء فيها ويزرعون والماء يجرى فى الأنهار إلى البحر الملح ، يظنّ الإنسان لأول وهلة أن هذا الماء الجارى إلى البحر ضائع لافائدة منه كما فى ماء النيل بمصر ودجلة والفرات المحيطين ببلاد الجزيرة ، وكنهر الكنج بالهند وكنهر الأمزون وغيرها .

يقول الناس إن الماء يجرى أيام الفيضان إلى البحر ولافائدة منه بل هى قوى معطلة وليس الأمر كما يظنون . إن الماء إذا سقى الحقول وأنبت العشب وعاشت به الأمم فإنما مثله مثل رجل يسعى أولا لما يبقى جسمه ثم تراه يسعى ليربى أولاده ليعيشوا بعده ، هذه حال هذه الأنهار ، الناس يعيشون بها ثم هى تجرف الطين والرمل والحصى إلى البحر كل سنة ليكون ذلك طبقات وراء طبقات بها تتكون الجبال فى قاع البحار فيعلو هناك كما تعلو اليابسة كل سنة (بالقرين) الذى يحمله الماء ، فجميع الجبال التى تراها كالمقطم وكجبال هملايا وغيرها كما ستراه مفصلا فى هذا التفسير فى السور التى بين سورتى يوسف والنحل إن شاء الله تعالى ، وفى قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » إلى قوله «وإلى الجبال كيف نصبت» فى سورة الغاشية إنما تتكوّن أولا فى البحار فى مئات الآلاف من السنين ، فهى أجنة فى بطون البحور تخرج بعد أمد طويل ، إذن ليست القوى معطلة ، فالنهر إذا عشنا بمائه فوق الأرض فإن مافضل يستعمله بإذن الله فى إحداث عوالم ستكون بعد قرون ، فالجبال مكوّنات من فضلات الأنهار كما كوّنت الأجنة مما فضل من غذاء الأبوين فى أجسامهما . فالنطفة منهما من فضلات الدم الجارى فى عروقهما ودم الحيض الذى لايكون إلا زمن القوة واللبن المغذى للطفل ، كل ذلك فضلة فائضة من القوى كما فاض النهر وجرى فتكونت به هذه الجبال ، وليس معنى هذا أن الناس على الأرض ينامون ويتركون أنهارهم ؟ وإنما هذا تدبير محكم ونظام عجب عام .

ازدياد الناس على الكرة الأرضية

ازداد الناس اليوم على سطح هذا السيار الذى نعيش فيه وازدحمت القرى والأمصار بسكانها واشرأبوا إلى منافع الأرض وقد علموا أنهم متضامنون وإن لم يعملوا بهذا التضامن ، والذى أراه أن الناس سائرون إلى حال ستجمعهم طوعا أو كرها ، سيفكر الناس فى استخدام جميع المواهب العقلية فى الإنسان والخواص فى الأرض كما ستراه فى ملخص كتابى [ أين الإنسان ] فى تفسير قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وذلك بقلم الأستاذ ( سنتلانه الطليانى ) تقريظا له وهو مترجم إلى العربية من الطليانية ، فإن هذا الملخص هناك هو معنى الآية وهو موضح لهذا المقام .

قرب الوقت الذى تحاسب فيه كل أمة على مافرّطت فى عقولها وما أهملت من أرضها كما فى الكتاب المذكور ، قد رأيت ألا شىء فى الوجود معطل وأن ماء النهر الجارى إلى البحر له عمل فسيضطر الناس إلى أن يحاسب بعضهم بعضا على ما أضاعوا من قوى ، وستقول كل أمة للأخرى إن عندك قوى مخزونة فى جبالك أوفى مائك أوفى أرضك أوفى عقول أبنائك فاستخرجها لأن المنافع تعود منك علىّ فى التجارة والمبادلة وغيرها فإذا أبت قهرها غيرها واستخرجوا المنافع وشاركوها ، ذلك سيتم متى ازداد عدد السكان سيضطرون لذلك اضطرارا لأنهم متضامنون كما قدّمنا ، وأضرب لك مثلا :

خذ ملابس صبىّ من صبيان المدارس فى أنحاء الأرض الآن فهى مركبة من :

(١) صوف يحضرونه غالبا من استراليا أو من جنوب أفريقيا .

(٢) أو قطن مستحضر من مصر أو أمريكا أو بلاد الهند .

(٣) أو كتان مستحضر غالبا من بلاد الروسيا أو بلجيكا أو إرلنده .
(٤) ويحتاج إلى سير من جلد مخصوص وهو يجلب من أمريكا الشمالية .
(٥) ويصنع ذلك كله في بعض ممالك أوروبا .
(٦) وأزرة من فضة تستجلب من بلاد (المكسيك) .
(٧) ومشابك أخرى إما من نحاس أصفر مستخرج من النحاس الأحمر المستجلب من أسبانيا .
(٨) أو من قصدير من شبه جزيرة بلاد الملايو .
(٩) وكل هذه تحملها السفن فتعبر البحار .
(١٠) وقس على ذلك كل ما تحتاج اليه .

واجب المسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب

أيها الذكى إياك أن تظن أن إطالة هذا الموضوع خارجة عن الآية فى التدبير العام ، والتدبير العام انحصر فى القوى والمادة وقد رأيت تدبير القوى من الأعلى إلى الأدنى ، والمادة أيضا من الأعلى إلى الأدنى وهذا ملخص ما ذكرنا وهذا الكتاب للمسلمين وأنت المخاطب لأنه لا يفهم هذا إلا أناس لهم قوة بها يفوقون المجموع والذى ذكرته علم والعلم إن لم يصحبه عمل ضاع فها أناذا أوصيك المسلمين ، إن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم من كل جانب وقد سبقهم النصارى والمجوس واليهود فعم التعليم اليهود واليابان وأوروبا ولم يبق جاهل إلا المسلم ولا يتعلم غالبا إلا القليل ، فجد كل الجد واتخذ سبيلا إلى تعميم التعليم حتى تلحق بالأمم وهذا لا يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة ، ومتى عم التعليم فى الأمم الإسلامية أمكنها استخراج النافع من العقول ومن المادة كما شرحنا ، يدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض ونحن مكلفون أن نعمل بقدر طاقتنا ، ومتى ارتقت أمم الإسلام صارت مجارية للأمم الأخرى وحينئذ تكون مساوية لهم فلا تتهم أنها عطلت عقول أبنائها ولا منافع أرضها وخواصها ولا المطر النازل فى أرجائها ، فإن لم تكن سابقة الأمم فى ذلك فلتكن مساوية لهم .

هذه هى السبل التى يجب اتباعها ونشرها وأن هذا التفسير وأمثاله فى هذا العصر مقدمات لذلك الرقى المنشود والحمد لله رب العالمين .

فصل فى قوله تعالى « وقدّره منازل »

هى ثمان وعشرون منزلة أولها الشرطين وآخرها بطن الحوت وهى مقسومة على اثنى عشر برجا أولها الحمل وآخرها الحوت لكل برج منزلتان وثلث منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، وإن كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة .

القمر أصل الشهور والأسابيع

اعلم أن القمر لولاه لم تكن شهور ولا أسابيع ولكان اختلاف الناس عسيرا فى حسابهم ؛ وبيانه أن دورة القمر التى تتم فى ٢٨ يوما كما تقدم جعلت مقياسا للشهر ، ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع جعل مقياسا لها فجعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر .

فدورة القمر هى التى نبهت النوع الإنسانى إلى أقسام السنة الاثنى عشر المسماة شهورا ، فأما سير الشمس فلم يعط الناس إلا الفصول الاربعة باعتبار بعد الشمس وقربها وهى الدورة السنوية ، ههنا أخذت الأمم تفصل أيام السنة وشهورها بحسب ما يعن لها فإنهم لما رأوا الأسبوع سبعة أيام لم ينظروا لليوم بنظر واحد .

(١) الكلدانيون والفرس يجعلون مبدأه من شروق الشمس ويجعلونه ٢٤ قسما متساوية هى الساعات .

(٢) اليهود يبتدئون من غروب الشمس إلى شروقها ليلا ، ومن شروق الشمس إلى غروبها ، فالساعات ليلا ونهارا تختلف طولا وقصرا بحسب الفصول عندهم بخلاف الكلدان والفرس فهى متساوية مع اختلاف الفصول .

(٣) الإيطاليون فى أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحسبون كاليهود .

(٤) العرب يحسبون النهار من مرور الشمس على خط الزوال مبتدئين من الساعة الأولى إلى الرابعة والعشرين التى تنتهى بمرور الشمس عند خط الزوال عينه فى اليوم الثانى .

(٥) لم تتفق الأمم الكبرى كفرنسا وغيرها فى مصالحها العمومية لاسيما فى مواعيد السكك الحديدية على ما كان عند العرب إلا فى زمن قريب جدا ، وأسماء الأيام مستنبطة من أسماء الكواكب السيارة :

(١) الاثنين القمر عند الفرنجة .

(٢) الثلاثاء من مارس عند الفرنجة : أى المريخ .

(٣) الأربعاء يرجع عند الفرنجة إلى عطارد .

(٤) الخميس يرجع إلى جوبتر عندهم : أى المشترى .

(٥) الجمعة يرجع إلى الزهرة .

(٦) السبت يرجع إلى ساتون : أى زحل .

(٧) الأحد يرجع للشمس وهذه كانت معروفة عند آبائنا العرب . فإذا قال الفرنجة مثلا إن الأربعاء وهو (مركردى) مشتق من مركور : أى عطارد ، فإن آباءنا قالوا إن يوم الأربعاء لعطارد وهكذا بقية الأيام بالنقل عن الأمم .

ولقد اتفقت الأمم كلها على تحديد عدد أيام السنة ابتداء من القرن الثالث للميلاد واعتبر أكثرهم أن مدة الأسبوع معادلة ربع دورة القمر حول الأرض .

(١) وكان الفرس والمصريون لذلك العهد يعتبرون السنة (٣٦٥) يوما مقسمة إلى اثنى عشر شهرا ، والشهر ٣٠ يوما يضاف إليها فى آخر كل سنة خمسة أيام ( أيام النسىء ) ومع ذلك لم تطابق السنة الحقيقية . والأشهر عند قدماء المصريين هى (توت ، فاووفى ، أوثير ، شوكا ، توبى ، مشير ، مامينوت ، فرمونى ، باخون ، بونى ، أبيفى ، ميسورى ) والشهر الأول منها وهو (توت) يبتدىء فى الاعتدال الخريفى (٢٢) سبتمبر من كل عام .

(٢) الصينيون كانوا يعرفون السنة الشمسية وقد ضبطوها مرات عديدة .

(٣) العرب : السنة تتألف من (١٢) شهرا والشهر مؤلف من (٢٩) يوما ويليه شهر مؤلف من ٣٠ يوما ، والسنوات الكبيسة يزاد عليها يوم واحد ، والكبيسة فى كل ٣٠ سنة إحدى عشرة سنة والباقى وهو ١٩ بسيطة .

(٤) اليهود تقويمهم الدينى بالقمر وتقويمهم للدنى شمسى يبتدىء من فصل الربيع .

(٥) قدماء الرومان تبتدىء السنة عندهم من فصل الربيع ولكن (روملوس) مؤسس رومية قسمها عشرة أقسام ذاهلا عما رسمه القمر فى سيره من تسمته السنة ١٢ قسما . وأسماء الشهور بعضها مشتق من أسماء الآلهة عندهم ، هكذا : مارس ، ابرليس ، يونيوس ، وبعضها أسماء أعداد وأضاف بعض ملوكهم شهرين آخرين وهما ( جانواريوس وفبرواريوس ) ثم أضافوا شهرا آخر فصارت الشهور ١٣ شهرا وهو أمر غريب . فانظر ماذا حصل ؟ جاء الامبراطور ( يوليوس قيصر ) فوضع التقويم اليونانى بأن تكون السنة مؤلفة من ١٢ شهرا بعضها يحتوى على ٣٠ وبعضها على ٣١ يضاف إليها كل أربع سنوات يوما فى السنة

الكبيسة

الكبيسة ، ولما كان الرومانيون يجهلون نظام الأسابيع وسقطت الدولة الرومانية غيروا نظام الشهر الرومانى وجعلوه على مانعلم اليوم من الأسابيع المعروفة اليوم المجهولة عند الرومان .

وقد نقش الامبراطور أغسطوس على ألواح النحاس التقويم الذى وضعه قيصر وأطلق اسم يوليوس (يوليو) على شهر يسمى ( كنتيكبس ) تخليدا لاسمه ، كما أطلق اسمه هو وهو أوغسطس على شهر يسمى ( سكتيليس ) .

فانظر كيف اضطرت الأمم كلها أن تجعل السنة ١٢ شهرا لماذا ؟ لأن القمر لما دار حول الأرض ١٢ مرة كان هذا قريبا من السنة ينقص عنها نحو ١١ يوما فكأن القمر فى سيره نطق بلسان فصيح قائلا : ها أنا ذا رسمت لكم الشهور فانسجوا على منوالى حتى اضطر الرومانيون بعد ماقاسوا المشاق فى تعديل السنة وقد غفلوا عن سير القمر إلى حذف الشهر الزائد عن اثنى عشر ، وأول من تفطن لهذا يوليوس ورجع إلى الشهور الاثنى عشر كسائر الأمم . وهذا هو سر قوله تعالى « وقدره - أى القمر - منازل لتعلموا عدد السنين » فأفاد أن نظام القمر هو الذى يقيد السنين ويبرّنها ويقسمها ولولاه لاختلفت شهورهم وضاعت مصالحهم .

ولما كانت الأمم بعضها محتاج إلى بعض نظم الله لهم سير القمر حتى يتبعوه فى الحساب فتنتظم معاملاتهم ، فنظام السموات تبعه نظام أهل الأرض .

فصل فى معنى قوله تعالى « والحساب » من قوله « لتعلموا عدد السنين والحساب »

اعلم أن السنة الشمسية كما قدمنا فى كل أربع سنين فيها سنة كبيسة وثلاثة بسيطة ، وقاعدتها أن تقسم سنى التاريخ المسيحى على أربعة ، فإن قبلت السنة القسمة فهى كبيسة وإلا فهى بسيطة ، ولا شك أن هذه السنة التى أكتب فيها هذا التفسير وهى سنة ١٩٢٤ تقبل القسمة على أربعة وإذن فهى كبيسة ، أنا فى هذه الساعة أكتب ليلة السبت نصف الليل الليلة السادسة من شهر سبتمبر من هذه السنة ، ومع ذلك السنة على هذا الحساب لم تزد على ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات وهى فى الحقيقة ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٥٠ ثانية أعنى ٣٦٥٫٢٤٢٢١٧ يوما وسطيا وحينئذ تكون كل سنة يوليوسية تزيد عن المدة الحقيقية للسنة الفلكية بكسر من اليوم مساو إلى ٠٫٠٠٧٧٨٣ أعنى ١١ دقيقة تقريبا ، وهذا الفرق وإن كان قليلا يصير يوما كاملا فى كل ١٣٢ سنة ، وفى سنة ١٥٨٢ ميلادية قد وصلت هذه الزيادة إلى عشرة أيام ، فأمر البابا (جريجوار ليليوس) الطليانى بأن يصلح هذا الخلل فأسقط ١٠ أيام من تلك السنة إذ جعل الخامس من شهر أكتوبر الخامس عشر ، ولما كان الفرق وهو ١١ دقيقة يصير ١٨ ساعة تقريبا فى كل مائة سنة وثلاثة أيام فى كل أربعمائة سنة وجب إذن طرح ثلاثة أيام من كل أربعمائة سنة فأضاف إلى القاعدة اليوليوسية قاعدة أخرى وهى أن كل ثلاث سنين مئينية عوضا عن أن تكون كبيسة تكون بسيطة والرابعة تبقى كبيسة وهلم جرا .

والمراد بالسنة المئينية ماينتهى عدد التاريخ فيها بصفرين مثاله سنة ١٦٠٠ ، ولزيادة السهولة اتفقوا على أن السنة المئينية الكبيسة هى التى عددها يقبل القسمة على ٤٠٠ ، فسنة ١٦٠٠ كبيسة و ١٧٠٠ و ١٨٠٠ و ١٩٠٠ بسيطة .

وقد قبل هذا التعديل جميع الأمم ماعدا المسكوف والأروام والأقباط فإنهم بقوا على التعديل اليوليوسى ولذلك ترى فرقا ١٢ يوما بين حسابهم وحساب الافرنج ١٠ منها هى الأيام التى أسقطها (جريجوار) والاثنان ناشئان من جعلهم سنتى ١٧٠٠ و ١٨٠٠ كبيستين والافرنج جعلوهما بسيطتين ، ومع ذلك لايزال هناك فرق يبلغ ربع يوم تقريبا كل عشرة قرون فيكون يوما واحدا كل ٤٠٠٠ سنة بحيث يجب أن يضم يوم واحد

لسنة ٥٥٨٢ لأجل تعديل الخطأ المجتمع القليل جدا فتعجب من الحساب كيف بلغ فى الدقة مبلغا شغل العالم الإنسانى أجمعه وقد كان ابتداؤه سير القمر الذى قسم السنة ١٢ قسما ، وهذه الأقسام تنقص ١١ يوما تقريبا فبدلت الشهور من حال إلى حال ، ومتى زادت عن ١٢ تأذى الناس وحذفوا الزائد ثم أخذوا يحذفون ويزيدون أجيالا وأجيالا إلى أن وصلوا إلى الثوانى من آلاف السنين .

أليس هنا هو سر قوله تعالى « لتعلموا عدد السنين والحساب » أولم يكف أن يقول « عدد السنين » حتى أضاف لها الحساب إشارة إلى هذه الدقة المتناهية ، فالقمر حكم عليهم أن يجعلوا السنة ١٢ شهرا ، وهم اضطروا بالحساب أن ينظموا أيام الشهر ، فبدل أن يكون ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة بحساب القمر زادوه نحو يوم تقريبا فى الشهر الشمسى ، ولا يزال الحساب يتناهى فى الدقة إلى الآن .

فياعجبا كيف كان القمر دليلا على الحساب ؟ وكيف شغل الناس بالفرق بين الشهر القمرى والشمسى والسنة القمرية والشمسية ؟ وكيف كانت السنين الكبيسة والبسيطة فى الحساب العربى فى كل ٣٠ سنة لا تزيد الزيادة للكبس فيها على ١١ يوما دائما أبدا ، وكل دور (٢١٠) من السنين وهذا الدور مشتمل على أدوار صغيرة كل دور منها ٣٠ سنة وهى سبعة أدوار ، فتعجب كيف كانت الكبيسة الشمسية محتاجة إلى دقة أتم كما رأيت وكل هذا سر قوله تعالى « لتعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » يعنى أن الله راعى فى خلق ذلك الحكمة والمصلحة ولم يذر القمر والشمس يتخبطان فى سيرهما ويدوران فى جريهما بل ضبطهما بحساب على مقتضى احتياج الناس وحسابهم . وبهذا الحساب يزدادون دقة وحكمة ، فلو أننى جعلت الحساب سهلا صحيحا لا كسر فيه لأدى ذلك إلى جمود عقولهم وموت نفوسهم وجهالة عقلائهم ، ولكن ذلك الكسر فى السنين الشمسية والقمرية يؤدى إلى نبوغهم فى الحساب فترتقى الأمم ، وإذا كانت الحرب فى الأمة وشدة الحاجة إلى العلوم والصناعات تؤدى إلى ارتقائها ، هكذا هنا فى الحساب ودقته تؤدى الأمم إلى رفعة الشأن ، فكلما ازدادوا حيرة ازدادوا اجتهادا وفكروا ، هذا معنى قوله «ماخلق الله ذلك إلا بالحق» وختم الآية بقوله : لمن أفصل هذا ؟ أفصله لقوم يعلمون ، يعنى أن مثل هذا المقام لا يعرفه إلا العلماء به ، فأما الجهلاء به ولو كانوا أعلم الناس بالنحو والصرف واللغة والفقه فإن التفصيل ليس لهم ، فعار على أمة الإسلام أن تخلو من النابغين فى هذا الفن ، وكيف نرى التعديل يأتى من أوروبا والمسلمون نائمون اليوم وليسوا كآبائهم الأولين .

اللهم إنك أنزلت هذا الكتاب وطلبت فيه أن تكون الأمة فيها علماء فى كل علم ، فإذا قصرت الأمة كما هو حاصل الآن وليس أحد عالما بهذه العلوم إلا الفرنجة ، فلمن يفصل لهم القرآن ؟ ولمن يقرأ ؟ وكيف يفصل الله الآيات لقوم لا يعلمون ؟.

يارب إن المسلمين اليوم لا يعلمون أكثر العلوم ويمرون على مثل هذا القول مر الكرام ولاحظ لهم منه إلا حظ الجائع من النسيم .

فياليت شعرى لمن هذا التفصيل ولمن هذا القول ؟ يا ألله إنك قد سلطت الفرنجة علينا لجهلنا .

يارب إنك فصلت هذه الآيات لقوم يعلمون الفلك ، والأمة غافلة فنقلته أنت إلى الفرنجة وصرنا نقرأ القرآن ولا نبالى بما سمعنا ، إنك تفصله لقوم يعلمون لأن المسلمين اليوم قوم على الفلك يجهلون .

فاللهم اجعل منهم قوما عاشقين لعلوم مختلفة وبث المحبة فى قلوبهم واجعل منهم من يحثون على كل صناعة وكل علم واجعل كتابى هذا مما يحرضهم على عشق العلوم وحب الحكمة والتخلق بخلقك وخلقك العلم والحكمة لأنك العليم الحكيم اهـ .

بهجة

بهجة العلم فى هذه الآيات

إن تقدير المنازل والبروج للشمس والقمر وسيرهما بحساب متقن هو الذى جعل الناس آمنين على أمرين : حساب الدرجات الأرضية ونظامها ، وحساب الميزان والكيل والمساحة ، ولأبين ذلك فى مقامين ،

المقام الأول : حساب الدرجات الأرضية ومعرفتها وكرويتها ودورانها .

١ ـ لم أن أول من فكر فى كروية الأرض رجل يقال له (أراتوستانس) هذا الرجل ولد فى القيروان سنة ٢٧٦ قبل المسيح ودرس فى الاسكندرية وأثينا ثم دعى إلى الاسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد فأقام بها إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٤ ق. م وهذا الفلكى ألف كتابا فى معرفة جرم الأرض ، وقال إن الشمس تكون عمودية فوق الأرض فى مدينة أسوان وقت الانقلاب الصيفى ، فإذا نصب عمود فى الأرض هناك لم يظهر له فى الظهيرة ظل ممتد شمالا ، وإذا نصب عمود آخر مثله فى الاسكندرية ظهر له ظل شمالى فى تلك الدقيقة عينها ، وإذا رسم خط من أعلى هذا العمود إلى طرف ظله وجدت الزاوية التى تكون بينه وبين الظل سبع درجات وخمس درجة فهى المسافة بين الاسكندرية وأسوان .

ولبيان هذا المقام حق البيان أقول : إن هذا الفلكى قد تربى فى الجامعة المصرية بالإسكندرية التى أسسها بطليموس الأول وقد تخرج منها كثير من العلماء والأطباء ومنهم هذا الفلكى فتاقت نفسه يوما أن يسافر من الإسكندرية إلى أسوان فسافر فى نهر النيل فلاحظ أمرين :

[أولهما] أنه كلما أوغل فى جهة الجنوب سفرا يرى بعض النجوم الشمالية الظاهرة تغيب تدريجا .

[وثانيهما] أن بعض النجوم التى لم تكن ظاهرة تبدو تدريجا فخطر له أن هذا لايكون إلا إذا كانت الأرض كروية وكيف يقيس الأرض كلها ؟ إذن هنالك اجزاء يقياس بعضها ثم يحسب الباقى وما ذلك البعض يارى ؟ هو ما بين الإسكندرية وأسوان فقاسه فوجده (٦٨٠) ميلا وهذه المسافة هى التى ارتفاعها الشمسى عند الإسكندرية أكثر من أسوان ٧ درجات وخمس درجة ، فإذن هذه المسافة جزء من خمسين من الدائرة التى تحيط بالكرة وبضرب هذا العدد فى خمسين يساوى (٣٤٠٠٠) ميل ، ثم قال فى نفسه إذا أنا سافرت من أسوان أيضا جنوبا واستمررت فإنى أرجع إلى الاسكندرية من الشمال ثانيا إذا قطعت قدر هذه المسافة المذكورة خمسين مرة ، هذا ماقاله ذلك الفلكى ولكن الحساب الآن ليس كذلك فإن الدائرة حول الأرض لاتزيد عن (٢٣٧٠٠) ميل ، والسبب فى ذلك الخطأ القدر بنحو (١٠٣٠٠) ميل ، أن أسوان ليست فى جنوب الاسكندرية تماما بل هى تنحرف جهة الشرق الجنوبى قليلا فلذلك طالت المسافة جدا ، انتهى ماترجمته من الكتب الانجليزية مقتصرا على الفائدة .

ومن المؤلم أن هذا العالم لما عمى فى آخر حياته ترك الأكل حتى مات قائلا [ لاخير فى حياة لاتصحبها لذة المطالعة والعلم ] فلذلك آثر الموت انتحارا .

انظر إلى الآية التى نحن بصددها وتفكر فى عمل هذا الفلكى اليونانى المصرى كيف عرف بارتفاع الشمس الدرجات السبع والخمس وأنها هى جزء من خمسين من الدائرة المحيطة بالأرض وحسب المحيط كله ، لولا دوران الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ما أدرك هذا العالم هذا الحساب ، انتهى الكلام على كروية الأرض .

٢ أما دورانها فإنه قد وضح فيما كتبته فى كتاب [ جواهر العلوم ] وقد جعلته فى محاورة بين فتى وفتاة فلأنقل مادار بينهما من الحديث لتقف على ما كنت أكتبه فى أول أيام تأليفى ولترى أن دوران الأرض حول الشمس ليس غير مخالف للقرآن فحسب بل له منه دلائل كما ستراه فيما يأتى ، وهنا ننقل مافى [ جواهر العلوم ] .

فصل فى الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر فى الأفلاك
ومسألة الدوران والشمس هى الدائرة حول الأرض أم بالعكس ؟

فقالت ياسيدى أرجوك ذكر مقال شاف يكشف لى حجاب الخفاء عن الهيئة فقد أشكل القول فيها وخالف السلف الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون . فإنى لا أدرى ما الصواب فيها ؟ أقول الأقدمين الذين قالوا إن الأرض ساكنة وإن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها ، أم قول العصريين القائلين بأن تلك الأجرام لاوجود لها وإنما السماء لها معنى آخر وهو الشموس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات وأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهى الأقدار السبعة المعلومة ، وأن الأرض هى التى تدور حول الشمس ثم ما الذى حملهم على ذلك حتى جدّوا فيه وما الفائدة فى تلك المباحث ؟ فقال اعلمى أن المتقدمين والمتأخرين أفرغوا وطابهم فى البحث عن الأجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يألوا جهدا فى البحث عنها لميل الطباع البشرية إلى اقتناص شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم ، ولذلك ترى كل إنسان يعجب بعلمه ولو فى مسألة من دنايا المسائل ، فقالت ياسيدى وهل فى العلم أدنى وأعلى ؟ فقال نعم إن المعلومات تنقسم إلى علوية شريفة وإلى سفلية تستضيء منها مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدثور ، واللذة فى العلوم على حسب شرف المعلومات ، فكلما كان العلوم أشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة أكثر ، وكلما نقص عن رتبة الشرف والفضل بأن استمد من غيره أو كان قريب الدثور والانحلال قلت البهجة به واللذة وأين يستوى لذة معرفة موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر عمرو وغير ذلك بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دوراتها وسنيها وشهورها وأيامها وانتظام سيرها فى دوائرها فإن اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثانى فهى عظيمة جدا دائمة بدوام العلوم ، وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكماء والدول الكبيرة ألذّ من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوى على السفلى . ولذلك كان البحث عن كمال الله وجماله أبهج وألذ فى النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم .

وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ ولذلك اتجهت أفكار الأمم بأجمعها إليه وصوبت أسهم آرائها لغرضه ، ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجمهم وعربهم وعثهم وسمينهم فوجدت موضوع أبحاثهم دائرا على محورين :

[ الأول ] القوانين الحسابية التى بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحجنا وصومنا وإفطارنا وغير ذلك وهو فنّ التقويم المسمى علم الفلك وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والمتأخرين كبير خلاف بل هى متقاربة ولا خلاف إلا فى أمور جزئية لاتهدم أصلا من الأصول ولا توجب خطأ فى مقول .

[ الثانى ] البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فنّ يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من أجزاء العالم ، والعالم هو سائر المحدثات فهو صنعة عظيمة تكلّ العقول عن الإحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات وعن الأبعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعن السيارات والثوابت وعن الشمس أهى التى تدور حول الأرض أم الأرض هى التى تدور حولها وعن حقيقة السموات وغير ذلك ؟

وهذا هو الفنّ الذى حمى فيه وطيس الخلاف بين الأوائل والأواخر ، وعلماء هذا الفنّ مقرّون بأن أدلتهم ظنية ، غاية الأمر أن بعضها أقرب إلى الظنّ من الآخر ويشهد له أنهم كانوا مطبقين على تقدير بعد الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها ، ثم فى سنة ١٢٩٣ أرسلوا الناظرين إلى الجهات وحرروها فعرفوا

أن

أن جميع حساب السابقين خطأ محض وأنها أقل من ذلك كله بعدا وجرما ، ومن الجائز ظهور الخطأ فى هذا التحرير أيضا فى وقت آخر .

وحيث كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الإجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض ، فقد كان علماء الهيئة فى غابر الأزمنة على ماوصل إلينا يدرسون فى مدارسهم ويعلمون تلامذتهم هذه الهيئة الجديدة المعروفة الآن ، فقد كان (فيثاغورس) الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته فى مدرسة ( كروتونيا ) من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بعدة خمسمائة عام معتقدين أن هذا المرئى الذى نسميه سماء أو فلكا هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتناف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية ، وأن الكواكب الثابتة فى ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه ، وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوائب كما حول شمسنا ، وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا ، ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات .

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الأرض التى نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض إلى حيث لايحيط به النظر ولايدركه الفكر « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فالسموات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة .

ولما شاعت هذه الطريقة فى زماننا هذا وأراد العلماء تطبيقها على ماثبت عندهم من ظواهر الشريعة من كون السموات سبعة قالوا معلوم أن الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى فى غاية الظهور والإضاءة فهو الطبقة الأولى ويقال لها الرتبة الأولى والقدر الأول وما كان أبعد منها غير كثير وأقل فى الظهور والإضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا إلى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التى قبلها وأقل منها ظهورا واستنارة ، والطبقة السابعة هى التى خفيت كواكبها فلا ترى إلا بالمنظرة المعظمة ، فهذه الطبقات هى طباق السماء ، وفى قوله تعالى « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التى نحن فيها المزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذناب وغيرها من متعلقاتها إلى نحو ذلك من التأويلات التى شرحها علماؤهم وكم ورد عليهم من اعتراض وكم أجابوا عنه .

وقد رأيت فى بعض رسائل العلامة المرحوم عبد الله باشا فكرى أن تلك المباحث مستوفاة التفصيل فى كتاب [ أسرار الملك والملكوت ] وشرحه الموسوم [ بأفكار الجبروت ] والشرح المذكور فى دار السلطنة السنية وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية .

ثم إن هذه الطريقة كما قدمناها هى التى كانت سارية فى أنحاء المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء ( بطليموس ) قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة فاختار القول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها وبنى مذهبه على ذلك فشاعت قاعدته بين الناس واشتهرت فى البلاد .

ولما جاء الإسلام وترجمت الكتب اليونانية إلى اللغة العربية نقلها الفارابى من فلاسفة الإسلام فى مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره . فمن جاء بعده وهجرت الطريقة المتقدمة التى كان عليها (فيثاغورس) وقد قال هؤلاء العلماء إن السموات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات

(البصلة) متماسة ولا تقبل الخرق ولا الالتئام وليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا لون لها ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل .

وبالجملة فهى أجرام أثيرية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الأرضية فى جميع أوصافها وهى التى تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسرا والسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السموات : أى أن السموات تدور من المشرق إلى المغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من المغرب إلى المشرق كنملة على دولاب تسير متجهة إلى غير جهة حركته وبهذه الحركة المخالفة تتكون الفصول والسنون وانتظمت أحوال العالم ودوّن ذلك فى كتب المتقدمين .

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الإسلام أخذ بعضهم فى تطبيقها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق ، وفريق كفر القائل بذلك المذهب ثم برهن محققوهم كالغزالى وغيره على أن هذه لاتصادم الدين وأن من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضلّ سواء السبيل وأضلّ الناس فإن الدين لاينفى ولا يثبت ، وكما أن من يقول إن الله خلق (البصلة) ست طبقات أو سبعا أو ثمانيا وإنها كروية أو مثلثة أو مربعة لانكفره كذلك لانكفر من يبحث فى العلويات إذ كلها من مخلوقاته عز وجل ولم نذكر إلا الاستدلال على صانعها والدلالة واضحة على كل حال وعلى أى شكل ، وكثير من علماء الكلام كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطئونهم ويضللون فهمهم حتى قال العلامة الفخر الرازى إن الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابحة فى السماء كما يسبح السمك فى البحر ، وأدحض حججهم فى قولهم إن الخرق والالتئام مستحيل على الفلك واستدل بقوله تعالى « كل فى فلك يسبحون » وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفيضة الآن ويقارن بين الطريقتين ويميل إلى هذه الطريقة كما سيظهر قريبا ثم نبغ ببلاد لهستان رجل يقال له ( كوبرنيكوس ) تمهر فى العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهى سنة ٩٣٧ من الهجرة فرجع إلى الطريقة التى كان عليها (فيثاغورس) المؤسسة على حركة الأرض وقرّر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها ، فأوّلا عطارد ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل ، وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك فى كتاب له عنوانه [ حركات الأجرام السماوية ] فحكم عليه فى مجمع كنيسة رومة بالزيغ والإلحاد ولو أمكنهم قتله لقتلوه ونهوا عن إشهار كتابه ومع ذلك شاع هذا المذهب فنسب إليه وقيل هيئة ( كوبرنيكوس ) ثم قام بعده جماعات فى جهات متعدّدة وأزمان مختلفة فى أنحاء أوروبا وعوّلوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التى قبلها بالقديمة ، وأنت ترى من هذا أنها فى الحقيقة هى القديمة وأن تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة ، والطريقتان مذكورتان مستفيضتان فى الكتب الإسلامية وقد ذكرها العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة فى كتابه المسمى بالمواقف وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ، ثم كر على تلك الاعتراضات بالنقض والردّ وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ فى شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وليتأمل البصير كيف كان علماء الإسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر (كوبرنيكوس) .

ويدعى البعض أن ما تلقفوه من أفواه أساتذتهم من الافرنج تقليدا لهم مخترع ممن عندهم لم يسبقهم به أحد وهكذا نسبة كثير من المسائل إليهم مع أنهم فى الحقيقة ناقلون عن غيرهم ويدعون أنهم هم السابقون فليتأمل المنصفون ، راجعى تاريخ العلامة (سديو) المؤرخ الشهير الفرنساوى ، تجلى الحجج الدامغة التى أقامها على أن أكثر الاختراعات لبنى جنسه كذب محض وأنها فى كتب العرب من قبل ، فقالت له قد طال

الـكلام فى هذا الموضوع فما رأيك ؟ فقال : إنى قدّمت الأسباب إلى رأيى فى صدر هذه المقالة وأزيده الآن وضوحا فأقول :

إن الله عزّ وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه ، ولو نظرنا لجميع الحيوانات التى على وجه الأرض وكذا الإنسان لوجدنا كل فرد منها يعلم مايحتاج إليه حق العلم ويجهل ماعداه لطفا من الله تعالى به ، ولما كانت الكواكب والأفلاك لانحتاج منها إلا إلى القوانين الحسابية أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطعة ولم يحم وطيس الخلاف بين الأمم فى الأزمنة المختلفة فيها والخلاف فيها يسير جدا لايهدم أصلا من الأصول ، أما معرفة أجرام السماء وسكانها وهل الأرض التى تدور أم الشمس ؟ فجهلنا به وعلمنا سيان لايتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لايختلف سواء اعتبرنا الأرض هى الدائرة أم الشمس .

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالاثبات والنفى وكأن الله أراد أن يرينا أن أقرب شىء إلينا جهلناه ! وبالعجب كيف نجهل حالنا مع أرضنا ؟ أنحن مقيمون أم ظاعنون ؟ ومستقرون أم متحركون ؟ وذلك مصداق لقوله عز وجل « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فكم من شىء جهلناه وهو قريب منا كمسألة الروح فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء فى كل عصر ولم يهتدوا إلى الآن ، وما علم الهيئة إلا كعلم الطب فإنه ظنى أيضا ، فقالت الفتاة لقد بنيت كون الهيئة علما ظنيا على أنه ليس مما يحتاج إلى تحقيقه فى المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب ، وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيته فى كتب القوم من البراهين فلا أسلم أن علم الهيئة ظنى ، فقال اختصرى فى البراهين فالوقت لايسع والقصد أن يكون مجلسنا نبذا لطيفة وإثمار علوم لاجدليا ، فقالت : استدلوا [أولا] بأنه لايصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر فالعكس هو الطبيعى [ ثانيا ] كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض [ ثالثا ] تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها تبع لها [رابعا] ذبذبة البندول فقد وضعوه وضعا بدقة لايتأثر بمؤثر خارجى عليه فرسم خطوطا تتقاطع وتكون رؤوسها أقواسا تطول كلما قرب البندول من القطبين وتقصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائما [خامسا] أنهم وضعوا مقدارا من الزيت فى الـكؤول وأداروه بإبرة فدار وتكوّر وتفرطح فى قطبيه إلى آخر ماقالوا فلعلها مثله ، فقال لها إنما هم بعض هذه الأدلة أقيسة تمثيلية وهى لاتثبت حكما . وبعضها مبنى على الاستبعاد وهما لايفيدان القطع ولـكن باجتماعها أفادت الإقناع لا اليقين ، فقالت الفتاة : هل القرآن ينافى هذا المذهب على فرض أنه يقين ؟ فقال إن القرآن كلام الحكيم الذى أعجز جميع البلغاء والفصحاء ولم يكن القصد منه أن نشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث فى العالم وعقول الناس تتفاوت، ولو طبقناه على هذا المذهب هل نأمن أن تحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضا ؟ كيف ولم تذكر العلويات فيه والـكائنات الأرضية إلا ليعرف كمال الصانع بالصنعة ؟ أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحثه ، وكم حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التى أدرجت فى الأكفان مع أن كثيرا من ظواهر الألفاظ كان يخالفها حتى جاء اكتشاف الافرنج فأبطل المذهب السابق وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب البائد لم يصادف محله ، على أن علماء الإسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بآرائهم الثاقبة حتى وافقوا من قبل علماء الإفرنج فى هذه الأيام ، فقالت وهل تذكر شيئا من ذلك ؟ فقال نعم .

أولا : نفس دوران الأرض ، فقد شمّ من كلام صاحب المواقف أنه يعتمده وهذا كان قبل أن يعرفها الإفرنج .

ثانيا : كانوا يعتقدون النحس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثا : عدم الخرق والالتئام فى الفلك .

رابعا : أن الأفلاك لها نفوس وإرادات

خامسا : أن بعد الهواء كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الإسلام ووافقهم الإفرنج فى هذه الأيام ، على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا فى القرآن لوجدنا مايشير إلى الطريقة الجديدة وإن لم يذكر فى كتب المتقدمين ، منها قوله تعالى « صنع الله الذى أتقن كل شىء » بعد قوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » ومنها أنه قال « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار » فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير إلى أنها من آثار الأرض ويقوى ذلك أنه قال « يغشى الليل النهار » فجعل الليل الذى هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس فهيه تلميح إلى أن الأرض هى التى تحدث ذلك بفعل الله تعالى ، ومنها « والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها » فجعل النهار الذى هو فى مقابلة وجه الأرض الشمس مجليا لها ، والليل الذى هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيا لها فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار الذى هو من آثار الأرض ، وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسى ، ومنها قوله « وكلّ فى فلك يسبحون » بعد ذكر الأرض والقمر والشمس ، ومع ذلك كله فالقرآن لايعارض شيئا من هذه الأشياء على أننا لانحتاج لتأويل القرآن إلا لليقينيات وهذا ليس منها ، فإن نوع بنى آدم لايمكنه أن يحيط بشىء من علم الله تعالى إلا بما شاء ، وهل يشاء الله أن نعلم ما لامصلحة لنا فى علمه ؟ بل علم مثل ذلك ربما أضرّ بمصالح الإنسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه وربما يشغله عن أمور معاشه ، بل الأغرب أن أحد العلماء الفرنساويين المتأخرين قال مانرجمته [ إن للعقل حدًا محدودا لايتجاوزه ، فإتعاب العقل فى معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كإتعاب البصر فى أن يرى مافوق السقف من أسفله ، فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فإنه لايمكن أن يخترق السقف حتى يرى مافوقه ] ويناسب هذا ماصرّح به عالم الفرنساويين المسمى (فيلكس لاميروس) فى القرن التاسع عشر من قوله [ إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب ، فإن هذا المعنى بحث عنه الطبيعيون لم يوفوه الخ ما قال ] . فكلام هذين العالمين يؤيد ماقلنا من أن هـذه ظنيات ، انظره فى كتابنا [ ميزان الجواهر ] وسيرد عليك فيه أيها القارىء إن شاء الله تعالى أن كل حيوان له حد ومقدار فى المعارف لايتجاوزه ولا ينقص عنه ولولا ذلك لاختل نظام العالم . ههنا انتهى الكلام على المقام الأول وهو دوران الأرض وكرويتها .

## الشمس وشفاء الأمراض

قبل الانتقال إلى الكلام على [ المقام الثانى ] يحسن أن أقف وقفة معك أيها الذكى أريحك فيها من عناء الفكر وإتعاب الذهن بذكر بعض منافع الشمس فأنتقل بك من مسألة الدوران وما يتبعها إلى منافع نورها فى صحة أجسامنا وتقوية قواها لنرى اتساع هذا النظام ، فبينما نراها تقسم الفصول بقربها وبعدها ويحيا الحيوان وينمو النبات بها ، إذا بها تقوم مقام الأدوية التى امتلأت بها الصيدليات التى يشقى بعض المرضى بها وكثيرا منهم تضره الأدوية لعدم تحرّى الطبيب ولجهله وقلة علمه وعدم إحاطته بأطراف موضوع المرض ، وقد أجمع العلماء أن المعالجة بالأمور البسيطة أفضل من المعالجة بالمركبة ، والبسيطة مثل الهواء والماء والشمس . فهاك ماقاله طبيب فاضل فى مقالة نشرها فى صيف هذه السنة (سنة ١٩٢٧ م) قال مانصه :

الاستشفاء بنور الشمس فى المصايف

عند حلول فصل الصيف يؤمّ كثيرون من سكان المدن شواطىء البحار والجبال للاصطياف تمتعا بالراحة واستنشاق الهواء النقى لتصح أجسامهم وتستقيم صحتهم ، ونظرا لحلول موسم الاصطياف هذا العام رأينا لفت نظر الجمهور وكل من يهمه الاحتفاظ بصحته وصحة عائلته وأولاده إلى أن هناك فائدة كبرى ، بل هناك كل الفائدة من تعريض الأجسام للشمس .

ولما كانت الأشعة فوق البنفسجية وهى العنصر الفعال فى الطيف الشمسى لاتتوافر بكثرة إلا على الجبال وشواطىء البحار وفى الحقول وذلك نظرا إلى صفاء نور الشمس ونقاوة الهواء فى الجهات المذكورة . فإن هذه الأشعة لاتتوافر تماما فى المدن حيث يضيع معظمها باختلاط نور الشمس برطوبة الهواء والغبار والأبخرة .

والبرهان المحسوس على ذلك أن مدة قليلة يقضيها المرء فى الحقول أو على شواطىء البحار والجبال يجعل الجزء المعرّض للشمس من جلده أحمر اللون فى حين أن الإنسان لاتتغير بشرته لو تعرّض للشمس فى المدن ولو كان ذلك مدة طويلة

إن الحمام الشمسى مفيد جدا إذا استعمل بالعناية التامة مع مراعاة الإرشادات التالية حتى يدرأ المرء عن نفسه ماعساه يتعرض له من الضرر ، أما طريقة تعريض الجسم للشمس فتكون بالكيفية الآتية :

يجب أن يتلقى الإنسان ضوء الشمس مباشرة على جلده من غير أن يجعل بينهما حائلا كالملابس والزجاج والحمام الشمسى يجب أن يعم الجسم ماعدا الرأس ، فإذا تعذر تعريض الجسم كله لسبب من الأسباب وجب تعريض أكبر مسطح مستطاع منه .

ويؤخذ الحمام الشمسى تدريجا لأنه إذا عرّض الجسم كله دفعة واحدة من أول مرة مدة طويلة أصيبت الأحشاء بالاحتقان والبشرة بالتسلخ ، ويؤخذ الحمام الشمسى كل يوم حتى فى الأوقات التى يكون فيها الجوّ ملبدا ببعض الغيوم ، ويجتنب التعرض للشمس فى الأوقات التى يكون فيها الحرّ شديدا، كما يلزم تغطية الرأس بقبعة من القش واسعة الأطراف ، أو يستظلّ بمظلة فاتحة اللون مع وضع نظارات ذات زجاج ملوّن .

وعلى السيدات أن يضعن شاشا ملونا على وجوههنّ وأن يلبسن قفازات منعا لتأثير نور الشمس واحمرار وجوههنّ وأيديهنّ ، ولابدّ من اجتناب تيار الهواء .

وتراعى فى الحمام الشمسى أمزجة الأشخاص بالنسبة إلى السنّ ولون البشرة وحجم الجسم ، لأن الذكور والبدينين والسمر الألوان يتحملون حرارة الشمس وتعريض أجسامهم لها مدة أطول من المدة التى يتحملها الإناث والأطفال ونحيفو البنية وذوو البشرة البيضاء .

وعلى من يريد الاستشفاء بنور الشمس أن يشرب كمية كبيرة من مياه الشرب أثناء ذلك ، ويحسن أن يكون التعرض مرتين كل يوم : مرة فى الصباح بعد طلوع الشمس بمدة قصيرة وقبل الفطور بنصف ساعة تقريبا ، ومرة أخرى قبل الغروب بنحو ساعة لأنه لوحظ أن الأشعة فوق البنفسجية تكثر فى الطيف الشمسى صباحا ومساء أكثر من وجودها وسط النهار ، والمواعيد التى هى أكثر ملاءمة فى هذا الفصل هى مابين الساعة السادسة والتاسعة صباحا ، ومابين الساعة الخامسة والسادسة مساء والتعريض يكون بالطريقة الآتية :

يضطجع الإنسان فى الشمس ويغطى رأسه كما تقدمّ ، وفى اليوم الأول يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه مدّة خمس دقائق ، وفى اليوم الثانى يرفع ملابسه عن أطرافه العليا والسفلى ، وبعد خمس دقائق يغطى ذراعيه وفخذيه ، وخمس دقائق أخرى باقى الأطراف ؛ وفى اليوم الثالث يرفع ملابسه عن بطنه وأطرافه ،

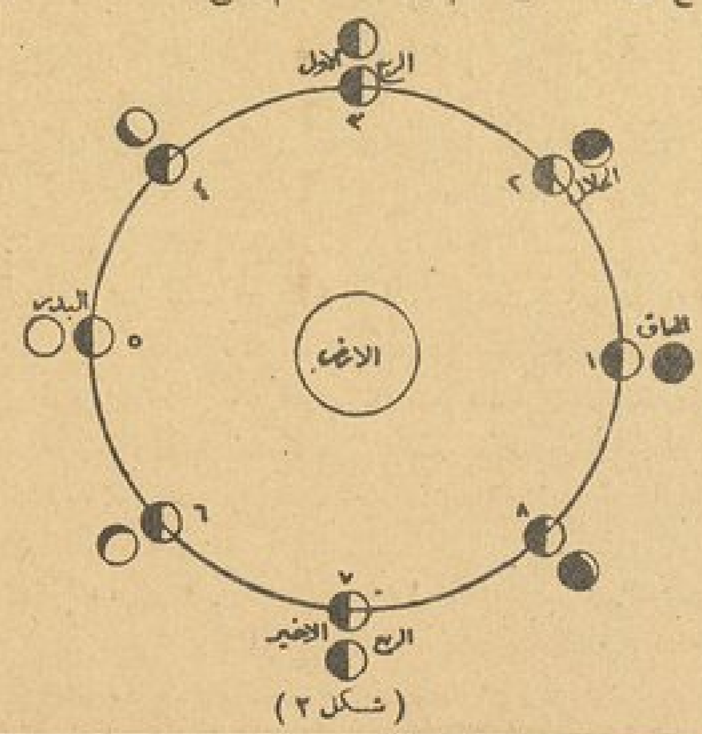
وبعد خمس دقائق يغطى بطنه ، وخمس دقائق أخرى يغطى ذراعيه وفخذيه ، وخمس دقائق ثالثة يغطى باقى الأطراف ؛ وفى اليوم الرابع يرفع ملابسه عن جسمه وبعد أن يعرّض صدره للشمس مدّة خمس دقائق يغطيه ثم يغطى بطنه بعد خمس دقائق ، ثم ذراعيه وفخذيه بعد خمس دقائق أخرى ، ثم باقى أطرافه بعد خمس دقائق، من ذلك ويعرّض ظهره مدة خمس دقائق؛ وفى اليوم الخامس يرفع جميع ملابسه عن جسمه ويعرّض عنقه مدة خمس دقائق ثم يغطيه وهكذا يوميا بالتدريج إلى اليوم السابع الذى فيه يعرض المرء جسمه جميعه مدة ساعة من الزمن ويستمر بعد ذلك على هذا المنوال مدة ساعة أو أكثر حسب استعداده .

والنتيجة المؤكدة لتعريض الجسم للشمس هى تنبيه القوى وتحسين الشهية للطعام وإزالة فقر الدم وتنشيط الجسم الخامل وتنظيم الدورة الدموية وإنعاش الجهاز العصبى وإصلاح وظائف الأحشاء وإبادة المكروبات التى قد توجد على سطح الجلد وتحسين وظائفه ، كما أنها تضاعف الفعل الشافى للأدوية ومختلف طرق العلاج.

هذا ، والفائدة التى تعود على من يستعمل الحمام الشمسى هى أعظم بكثير مما لو اقتصر المرء على استنشاق الهواء التى دون تعريض جسمه للشمس الأمر الذى دعا مصلحة الصحة العمومية لأن تجعل تعريض الأطفال لنور الشمس لوقايتهم من الكساح فى المقام الأول من نصائحها للجمهور المنشورة فى الصحف أخيرا مع العلم أن الأفكار اتجهت فى أوروبا وأمريكا وخصوصا فى ألمانيا لتعريض أجسام الأطفال إجباريا للأشعة فوق البنفسجية سواء كانت مباشرة من الشمس أو من الجهاز الصناعى لوقايتهم من مرض الكساح كما هى الحال عندنا فى التطعيم الإجبارى للوقاية من مرض الجدرى ، ولذلك ننصح المصطافين سواء كانوا على شواطىء البحار أو على الجبال أو فى الحقول أن يهتموا بتعريض أجسامهم للشمس فى الصباح والمساء أكثر من أن يهتموا باستنشاق الهواء النقى فقط انتهى .

تذكرة

تقدم الكلام على الشمس والقمر فى سورة الأنعام عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وقد رسمت هناك صور الشمس وتوابعها ولم يرسم هناك القمر فوجب أن نرسم هنا وجوه القمر ، لأن ماهنا من الآيات مكملة لما هناك إذ جاء فى هذه السورة ماهو أوضح ، وسنرسم أيضا صور المجموعات الكوكبية والسدم ليكون المطلع على هذا التفسير قد ألمّ بجمال هذا العلم وفرح بالحكمة، فهاك صورة أوجه القمر :




( شكل ٢ )

الكلام على المقام الثانى

وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال فى بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس

ستعجب أيها الذكى من هذه الجرأة وتقول أى مناسبة بين الرطل والأقة والوقية والدرهم والقنطار وبين سير الشمس وقول الله تعالى « لتعلموا عدد السنين والحساب » فى هذه الآية تتعجب وحقّ لك أن تتعجب منى أن أدّعى دعوى يصعب تصديقها بل لا تعقل ، وكيف يعقل أن الكيلة والربع والملوة والقدح والأردب فى بلادنا المصرية منسوبة لسير الشمس ، وأىّ عقل يتصوّر ذلك ، إن الأردب ١٢ كيلة والكيلتان وبية والكيلة الواحدة ربعان والربع ملوتان ، وستدهش من قولى لك إن الفدان منسوب مساحته لسير الشمس فى السماء ، سيدهشك قولى وتقول : أىّ مناسبة بين مساحة الفدان وسير الشمس وآيات القرآن .

كل ثلاثة فدادين (١٠٠٠) قصبة والقصبة ثلاثة أمتار ، و (٥٥) سنتيمترا ، فأين الشمس هنا وأين القرآن ؟ .

ثم إن الناس يقيسون الأثواب بالذراع البلدى المعروف وبالهنداسة وعندهم ذراع يسمى ( الذراع النيلى ) لامناسبة بين هذه كلها وبين الشمس وآيات القرآن ، هذا ماخطر ببالك وقت كلامى فى هذا المقام .

أما الجواب عليه فهو وإن كان يعرفك السبب فإنه لايدفع العجب ، بل إنك عند ماتعرف الحقيقة تزيد دهشا وعجبا ، فهاك ملخص ماسيأتى فى سورة الرحمن ألخص لك منه مايكفيك الآن ، وهناك يزيد الإيضاح .

إن الله يقول هنا « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » لماذا قدره منازل ؟ « لتعلموا عدد السنين والحساب » إذن تقدير المنازل يعلمنا عدد السنين ويعلمنا الحساب ، والحساب يدخله الكيل والوزن والمساحة المعبر عنها فى سورة الرحمن بالميزان إذ يقول هناك « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » يقول هناك إنى رفعت سمواتى ووضعت فيها الميزان بحيث يكون سير الشمس وغيرها بحساب لأجل أنكم لاتزيدون فى ميزانكم ولا تنقصون بل يكون الميزان حقا ، فهذا هو قوله « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » هذا كلام الله فانظر عمل الإنسان قبل أن ينزل القرآن بآلاف السنين .

عمد المصريون القدماء إلى ( الهرم الأكبر ) فبنوه على مقياس مدار الشمس السنوى فجعلوا :

(١) محيط (الهرم الأكبر) جزءا من مليار من محيط مدار الشمس السنوى أى من ألف ألف ألف جزء منه .

(٢) ارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض أى مليار .

(٣) ضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم .

(٤) فالارتفاع نفسه يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض .

(٥) ضلع الهرم يساوى جزءا من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٦) الضلع المذكور يساوى (٤٠٠) ذراع بلدى أو (٣٦٠) هنداسة .

(٧) الذراع البلدى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط أى من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٨) ربع الذراع البلدى المكعب ألف درهم من الماء المقطر .

(٩) وكل ١٢ درهما أوقية وكل ١٢ أوقية رطل فالرطل ١٤٤ درهما والقنطار مائة رطل ، ثم إن المقاييس منها عشرى ومنها اثنا عشرى .

(١٠) الأردب ذراع بلدى مكعب .

(١١) الأردب إذن جزء مكعب من (٤٠٠) من الضلع المذكور ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية .

(١٢) الفدان (١٠٠) هنداسة فى (١٠٠) هنداسة تساوى (١٠٠٠٠) عشرة آلاف هنداسة فطوله مائة وعرضه (١٠٠) فهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من (٣٦٠) جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية .

(١٣) الذراع النيلى ٥ من ٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان (١٢٠) ذراعا نيليا ، والفدان (١٤٤٠٠) ذراعا نيليا ويكون القيراط (٦٠٠) والسهم (٢٥) والدانق (١٠٠) فالذراع النيلى والهنداسة كلاهما يحسبان الفدان (١٠٠ فى ١٤٤) يساوى (١٤٤٠٠) .

هذا هو الذى فعله قدماء المصريين ، انظر كيف يقول الله « لتعلموا عدد السنين والحساب » وانظر كيف كان نفس هذا السر هو الذى صنعه قدماء المصريين كيف علموا أنه لن يستقيم لنا وزن ولا كيل ولا مساحة إلا بنسبة محفوظة وعلموا أن أرضنا ليس بها شىء ثابت فلم يروا أثبت من مدار الأرض حول الشمس فى مدارها السنوى الذى هو مدار ظاهرى للشمس حولها ، علموا ذلك فبنوا الهرم الأكبر على مقتضاه حتى إذا تهدم رجع الناس إلى الدائرة الفلكية فقاسوها وإذن يصححون مقاييسهم .

هذا كلام الله وهذا سره الذى ظهر على يد قدماء المصريين قبل نزول القرآن بآلاف السنين ، وهذا أعجب العجب .

إن الفرنسيين لما أرادوا أن يجعلوا لهم وحدة حاولوا أن يصنعوا ماصنعه قدماء المصريين ، فماذا فعلوه ؟ قاسوا درجة أرضية كما فعل الفلكى المصرى المتقدم ذكره هنا ثم ضربوها فى (٣٦٠) درجة التى هى الدرجات لكل دائرة وجعلوا ذلك (٤٠٠٠٠) أربعين ألف كيلومترا أو (٤٠) ألف ألف متر وقالوا إن المتر الواحد جزء من (٤٠) مليون جزء من محيط الكرة الأرضية ، وعليه أخذ الناس يقيسون به ثم بعد ذلك علموا أن محيط الكرة الأرضية لم يكن قياسه مضبوطا بل هناك خطأ ، والإنجليز نظروا نظرة أخرى فإنهم عندهم ( الياردة ) التى هى أقل من المتر فهى نحو (٩١) من مائة من المتر ، هم أيضا حاولوا الرجوع إلى نظام الطبيعة ، فجعلوا الياردة هى المقياس لأنها عبارة عن طول الساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة الذى يتحرك مرة واحدة فى الثانية إن رقاص الساعة إن طال قلت حركته ، وإن قصر أسرعت فهذا الرقاص الذى يتحرك مرة واحدة فى الثانية هو الذى جعلوه مقياسا ، وإنما أوردت لك فعل الفرنسيين والإنجليز لتعلم وجهة النوع الإنسانى فإنهم جميعا يريدون أن تكون مقاييسهم على نظام ثابت وأى ثبات لغير النظام العام ، فالأوروبيون رجعوا للعالم الأرضى ونظامه ، وقدماء المصريين رجعوا لدائرة الشمس ، ثم إن الفرنسيين نسبوا جميع المكاييل والموازين إلى المتر كما فعل قدماء المصريين سواء بسواء .

ههنا عرفت الحقيقة وأدركت سرا من أسرار القرآن ، وههنا يتبدى لك العجب الأكبر ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى هذه السورة «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون» .

أليس من الآيات التى أظهرها الله على أيديهم وغفل عنها أكثر الناس قبل زماننا ماذكرته لك الآن فى الهرم وبنائه ؟ أليس الهرم محلا تدفن فيه جثث أحد الفراعنة وإن لم يكن فرعون موسى ؟ وسترى فى هذه السورة أنهم وجدوا صورة البروج مرسومة على تابوت أحد القدماء من المصريين كما ساوضحه هناك ، فالله أبقى جثث الفراعنة وألهم علماءهم أن يضعوا أسرار السموات على تلك الأبدان تارة بالرسم والتصوير كما ستراه فى هذه السورة ، وتارة بالأبنية التى أسست على نظام السموات وسير الشمس

إن هذه هي الآيات التي وبخ الله العالم الإنساني على جهلها فقال « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ذم الله الناس على التغفل عن علوم قدماء المصريين التي دوّنوها على توابيتهم أو مبانيهم وهندستها كما عرفت في الهرم

هذا هو السر المكنون ، وهذا هو العلم المخزون ، وهذا من أجلّ أسرار القرآن ، وليس التوبيخ قاصرا على المسلمين بل يعم الناس كلهم كالفرنسيين والإنجليز الذين أسسوا موازينهم ومقاييسهم على نظم ليست أدق من نظام قدماء المصريين .

فياليت شعري كيف يعيش المصري المسلم ويموت وهو يجهل أن السكة والذراع البلدي ومساحة الفدان منسوبة للهرم ولسير الشمس ؟ أم كيف يعيش المسلمون ويموتون وهم لايعلمون أن هذا قد جاء في القرآن وأن موازين المصريين ومكاييلهم قد ذكرها الله في القرآن وهي له معجزة وأي معجزة ! .

اللهم إن المسلمين اليوم قوم نيام وقد آن استيقاظهم وأقبلت أيام مجدهم « ولينصرن الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز » .

تذكرة للأمّة المصرية وللأمم الإسلامية

قد كنت وعدت في سورة الأعراف أن أكتب في هذا المجلد ما كتبته لمجلس النواب المصري ومجلس الشيوخ والوزارة في شأن التعليم في المدارس المصرية أيام الاحتلال الأوروبي فإن هذه الآية جمعت العلوم التي يجب أن يعرفها المسلمون ولا يحرمون من علوم القرآن التي تمتع بها أهل أمريكا واليابان والصين وأوروبا لحسد الأوروبيين لنا خيفة رجوع مجدنا ، فعلينا الآن لما رجع التعليم إلى حظيرة الوطن وردّت بضاعتنا إلينا أن ندرس العلوم كلها ، وهذا نص المذكرة :

مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية

قدّمت إلى أصحاب المعالي رئيس مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب ووزير المعارف

(١) لكل جماعة متحدة من الطوائف الإنسانية صفات خاصة تشملهم وأحوال معلومة تجمعهم وتثبت وحدتهم وتصون ألفتهم ، فإذا انتفت تلك الصفات أو نقصت زلت قدمهم وزالت وحدتهم فتفرقوا شذر مذر وهم غافلون .

(٢) إنّ أقوى دعائم الوحدة مايتعلمه الطلاب في المدارس العامّة من العلوم ، فإن أواصرها تربطهم وتجمع الأبناء في ساحة الآداب والكمال .

(٣) ليس التعليم الابتدائي يغني فتيلا في هذا المضمار ، كلا بل هو ممهد لما هو أعلى مراما وأثبت نظاما ، وكذلك التعليم في المدارس العالية فإنما هو لاختصاص الطلاب في أمور عملية . إن مدرسة الطب والصيدلة لمداواة الإنسان ، ومدرسة البيطرة للحيوان ، والزراعة لنظام الحقول ، والحقوق والقضاء للفصل في المخاصمات ، والهندسة للريّ وللبنيان ، والحربية والشرطة لحفظ الثغور ونظام الجمهور .

(٤) فإذن التعليم الذي يشترك فيه أبناء الأمّة ويحفظ وحدتهم ويوسع مداركهم العامّة هو التعليم الثانوي وعليه المعوّل في الأمم الراقية الآن وفي مصر قبل نحو ٣٥ سنة وماعداه فإما ممهد له وإما صناعات عملية .

(٥) فلننظر نظرة عامّة في مدارسنا المصرية الثانوية ، إنها خالية من العلوم التي بها الحياة فليس بها علم النبات ولا علم الحيوان ولا خلاصة من تشريح الإنسان ولا نبذة في علم الهيئة ؛ الطالب في الثانويّ لايدرس طبقات الأرض الضرورية للحياة ولا مافي الجبال المصرية من المعادن ولا الأقوام الذين ولدوا المصريين وسكان

السودان ولا أواصر القرابة التى تربطهم ولا يعرف من تاريخ عظماء مصر قديما وحديثا إلا قليلا مبعثرا غير مشوّق لحب الوطن .

لقد حدّثنى الأستاذ ( ادوارد براون ) الإنكليزى المستشرق حينما زار مصر أيام اللورد كرومر قال : [ أرسلت لى حكومتنا البريطانية ثياب عشرات من رؤساء القبائل المجندلين فى حرب التعايشى لأترجم الأوراق المحفوظة فيها فوجدت منها مايشابه الدولة العباسية خطا وإنشاء ، ومنها مايناسب دولة الأمويين ] فعجبت كيف يعرفون قبائلنا ونحن عنها غافلون ؟ .

(٦) إن الطالب فى الثانوى ليس لديه مايشوّقه للعلوم وهو يجهل مابين يديه وما خلفه وما تحته ، يجهل طبقات الأرض ومعادنها إلا قليلا ، ويجهل مافى داره من حيوان ، ومافى حقله من نبات ، ومافى جسمه من أعضاء ، ودورة دموية ، ودورة تنفسية ، ودائرة عقدية ، ومافوقه من نجوم لامعات ؛ اللهم إلا تلك النبذة الضئيلة فى كتب الجغرافيا ، إنه لايدرس نفسه ، ولا هضم طعامه ، ولا نظام الضياء والظلام ولا هرّته التى يألفها ولا فرسه التى يركبها ، ولا الزهرة التى يستحسنها ويشمها ، إن التعليم فى الثانوى يحوّل العقول إلى الخيال ويصرفها عن المحسوسات ، وهو الذى صرف بعض الأذهان عن حقائق العلوم إلى خيال الروايات وضياع الأوقات ، إن حاسة البصر جردت من أكثر مدركاتها العلمية فانصرفت النفس إلى شهواتها إلا من لهم قدم فى الفضل ثابتة وجدّ عظيم ، ومن أغمضت عينه عن الماديّات ناب عنها سمعه فاحتاج إلى قائد كالعميان ، هكذا يفعل الغرب إذا نصح الشرقيين ، لوكان التعليم الثانوى تاما كما فى البلاد الغربية أو كما كان فى مصر قبل الآن لكان ذلك نورا على نور الذكاء وظهر الذكاء المصرى فريدا .

(٧) لولا الذكاء المصرى والاجتهاد الفردى والتعليم فى أوروبا وعموم الجرائد والمجلات والنهضة العلمية المصرية ما رأينا فى البلاد نابغين ولا قادة ماهرين ، لقد كان التعليم الثانوى شاملا فى مصر فى أوائل الاحتلال وقبله أكثر هذه العلوم المفقودة الآن ، ولقد كانت مدّته خمس سنين وكانوا يدرسون العوالم المحيطة بهم ، ثم اعترى التعليم مااعتراه بالتدريج وحرم أبناء النيل ارتشاف مناهل العلم بأصول الكائنات وجمال مصر وعجائب السودان وغرائب مافيه من المعادن والغابات .

(٨) إن التعليم فى المدارس الثانوية إن لم تتوجه همم أصحاب الشأن وأولى الأمر بالبلاد إلى ترقيته أصبح المهندس أو القاضى أو كل من له رياسة عامة فى الأجيال المقبلة فى دائرة محدودة من العلوم ، يقول العلماء : [ البلادة خير من الفطانة البتراء ] وإذا كان الجهل شرا فشر منه نقص يدلى إلى غرور ، فأوّلهما جهل بسيط ، وثانيهما جهل مركب تجعله الأمم المغيرة سلاحا لتقتل به الضعفاء ، ووسيلة لتغلب الأقوياء ، فأما الأمم المستقلة فهى التى تراعى النظام التام وتفتح باب العلم واسعا ليهرع طلاب الثانوى شوقا إلى العلوم ، إن اتساع التعليم الأولى فى البلاد لايغنى شيئا عن التعليم التام ، إن متعلما واحدا خير من آلاف الآلاف من المتعلمين تعلما أوليا ، فهو رأسهم يقودهم إلى طريق الفلاح ، فإكمال التعليم الراقى لقوّاد الأمم ألزم لها من تعميم التعليم الأولى فى البلاد .

(٩) لقد أدرك هذه الحقيقة فى مصر الأستاذ لمبير الفرنسى ناظر مدرسة الحقوق سابقا وظهر ذلك فى حادثته المشهورة بينه وبين وزارة المعارف إذ أبان لها ذلك النقص الشائن فى التعليم الثانوى قائلا إنه لاصلة بين نقصه وبين الكمال فى دراسة الحقوق ، وكيف يكون دارس الحقوق خاليا من مبادئ المنطق وبعض العلوم ؟ فكان جزاء ذلك الحرّ الشجاع أن قدّم استقالته وسافر إلى ليون وأصبح أبا وأستاذا لطلاب الحقوق بفرنسا من المصريين إعجابا بذكائهم وهم مجدّون .

(١٠) إن لم يغيرهذا المنهج أصبح طبيعة راسخة وهيهات هيهات أن يغيره متخرجون فى مستقبل الأجيال. وكيف يعلمون غيرهم ما يجهلون ؟ وكل امرئ بعلمه مفتون ، والغرور يعمى ويصم ، والناس أعداء ما جهلوا ، فإليكم أيها القادة أوجه خطابى هذا موقنا أنه يوافق مقاصدكم النبيلة التى اتجهت أنظاركم إليها حتى نرى زهرة البلاد مقبلين على العلوم عاكفين على البحث والتنقيب فلا نعود نسمع من أكبر تاجر للكتب فى مصر أن أبناء البلاد معرضون عن الكتب العلمية عاكفون على الأدبية ونحوها .

إن المتعلم إذا فقئت عين بصيرته العلمية فلم يعشق العلوم كان آخر عهده بها نيل الشهادة ويكون ذلك مفتاح الشره والحرص فيود لو تفتح له الحكومة خزائنها ليقضى منها لباناته ويكون عالة عليها وهو فى غرور ، أما إذا انفتحت عين بصيرته بما ذكرناه من العلوم فإنه يعرج بأمته إلى مراقى الفلاح ، وإذا كانت مدارسنا الثانوية قبل عهد الاحتلال وفى عهده حافلة بهذه العلوم وكان المتعلمون فخر البلاد بها وكنا نتحسر على تلك الأيام .

فما أسعد هذا اليوم إذا خاطب شيوخ الأمة ونوابها وحكوماتها الوطنية وغراتها الناضجة أن أغيثوا البلاد وأنتم خلاصة الأمة وقادتها وفيكم فطاحل المتعلمين والناجين قبل فوات الفرصة ، وليدرس المنهج الثانوى الذى كان فى مدارسنا قبل مسخه ولنزد عليه ما يناسب هذا الزمان حتى يقول أبناؤنا :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وها أنا ذا قد أديت ما وجب على ولهيئتكم الموقرة الرأى الأعلى .

جوهرة سنية فى أن جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجلت فى هذه الحياة

اعلم أن الجمال على قسمين : جمال يثير فينا ما كمن من اللذات الحيوانية والشهوات الجسمية الداعية للتناسل فهذا أدنى القسمين ، وهذا نوع من العذاب المعجل فى الدنيا وذلك يشير له قوله تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وكل جمال لاحظناه فى شجر أو زهر أو قصور أو حور فى هذه الحياة وكان قصارى أمره الشهوات الطبيعية أو التملك أو ما أشبه ذلك فهذا قد شيبت لذته بالألم وجنته بجهنمه وسعادته بشقائه ، فإننا نفرق بين جمال بستان نملكه وآخر لا نملكه بأن الأول يخالط جماله تكاليف الملك وعذاب الحرص وحسد العدو وغيرة الصديق ومطالب نموه ورعايته وحفظه بأن نسقيه ونقيم عليه الحراس وما أشبه ذلك .

أما الذى لا نملكه من تلك المزارع والبساتين وما أشبهها فإن خطر بأنفسنا الموازنة بيننا وبين المالكين له وتحسرنا أو حسدنا فإن ذلك من نوع العذاب ، فأما إذا لاحظنا أنه كشجر البادية أو كالغابات العامة فإن ذلك الجمال لا ألم فيه يدعو لراحة النفس وسرورها وبهجتها على مقدار نصيبها من تعقل الجمال .

ولذلك تجد أن لكل أمة من الأمم الراقية حدائق عامة وبساتين ومتنزهات تسر الجمهور ، فتراهم يحرصون الحرص كله ألا تكون الأشجار مثمرة ولا الأزهار أرجة ذكية الرائحة ، ذلك لتتمتع أبصار الجمهور ولا تتناوله الأيدى ، ولو أن هناك أثمارا مأكولة لحرص الناس على أكلها وتسابقوا إلى نيلها ونسوا جمالها فتصبح تلك البساتين أشبه فى جمالها بالرجال عند النساء وبالعكس ، فإن جمال كل من الصنفين يدعو الآخر إلى التناسل الداعى إلى العمل فى الحياة والشقاء .

إذن البساتين العامة فى المدن جعلت لراحة الناس من مشاق الحياة وأسقامها وآلامها ونسيان مرارتها وسعيرها لتحيل بينها وبين الشهوات البهيمية التى فر منها الناس إلى الضواحى والخلوات .

ألا ترى رعاك الله أن جمال الذكور والإناث إنما هو طليعة الذرية وما هو إلا كالحب يرمى به للطائر فيقع فى الشبكات ، إنه مقدمات لنظام الأسرات لا غير وكلما ازداد سنهما وكبر بنوهما وبناتهما رأيت الحب

تحوّل من الجمال الأدنى إلى الجمال الأعلى ، جمال المعاشرة والمسابقة فى تربية الذرّية والتعاون والأنس والاشفاق بعد أن كانا فى مبدأ التعارف لايلحظان إلا حمرة الخد وجمال الوجه واعتدال القدّ وطول الشعر ودعج العين ولمس الشفة وألا يفتر الثغر إلا عن لؤلؤ رطب أو برد أو أقحوان ، أصبحا لايذكران إلا صحة الولد وإسعاده وتربيته وآدابه وقوّته وتعلمه وما أشبه ذلك من مطعمه وملبسه .

فهذا كله دليل على أن الجمال فى الجنسين وسيلة لاتقصد لذاتها بخلاف جمال الحدائق العامّة والمتنزهات ، فإن الجمال هناك مقصود لذاته ولو خالطته المواد الشهوية كالفاكهة لرجع إلى ماسئم الناس منه فى منازلهم وحياتهم الحيوانية ، إذا عرفت هذا فأقم وجهك إلى النجوم وانظر جمالها ولألاءها .

الكواكب جنات مجلت للمفكرين ولكنّ أكثر الناس عنها محجوبون

ياسبحان الله وباسمدائه . نظرت بالله إلى الأمم الأرضية المهذبة فأرحتهم بالحدائق فى ضواحيها وزرعت لهم فى الطرق أشجارا وجعلت لهم أوقاتا يسمعون فيها الموسيقى وهكذا ، هذه لذات تكاد تكون خالصة من الآلام ليريحوا نفوسهم من الأعمال الشاقة ، فانظر ماذا فعل الله بعد ذلك ؟ أقفل العيون وأقفل الجفون وأطفأ السراج الوهاج وأبرز النجوم وأشرقت الأرض بنور ربها فى الليالى المدلهمات وقال للحكماء والعلماء : هذه هى الرياض فتمتعوا فيها وانظروا معانيها أنتم اليوم فى حظيرتى فيها كونها ، فلئن أعدّت أممكم الرياض العامّة لرياضة العامّة ، فها أناذا أعددت حدائق السماوية لرياضة الخاصة فأنسيتهم أسقام الحياة وآلامها أضعاف أضعاف ما أفعل مع العامّة ، إن العامّة ألهمت الأمم أن يبدوا لهم ماهو أقرب لعقولهم وأدنى إلى فهمهم ، فلم أخرجهم من سجن الحياة وذل للعيشة إلا لما هو أقرب إليها وهى البساتين العامّة فهى بساتين أرضية ، أما أنتم أيها الخاصة الذين أعددتكم لجوارى والقرب منى بالعلم والحكمة فهاكم رياضا جميلة واسعة هى مبادئ الجنات فهناك تلحظون عظمة الوجود ، فلئن ابتهج العامّة والجهلاء بمنظر زهرة فى شجرة فأنتم تبتهجون بدل كل زهرة بكوكب مشرق فى ظلمات الليالى ترونه بأعينكم صغيرا وتلاحظونه بعقولكم كبيرا ، فبينا أعينكم ترمقه على شبكيتها كأنه لجونة إذا عقولكم ترمقه أكبر من أرضكم وأعظم من شمسكم ، وها أناذا أبحت لخيالكم أن يتصوّر مايشاء من الصور الحسان الجميلات فتتخيلون ماسمعتم عن الأرواح فى العلم الحديث من أن هذه الكواكب ربما كان فيها سكان وأنهم أرفع مقاما من سكان أرضكم وأسعد حالا وأنعم بالا وأشرف منزلة وتتمنون اللحاق بهم لتعيشوا معيشة أهنأ وتسعدوا سعادة أكمل ، فها أناذا ملأت خيالكم بجمال باهر من النجوم ثم فتحت الباب على مصراعيه لتتسابقوا إلى الخيرات وتقولوا فلتكن أعمالنا مرضية وقلوبنا نقية حتى نسارع إلى ذلك الجمال ونعيش فى باحات الكمال .

أقول هذا هو البستان الذى زرعه الله للمفكرين من سائر أمم الأرض ، وهذا البستان يجهله العامّة فى جميع الأمم ولا يعقلونه ، هذا البستان لا ألم فيـــه البتة ، فجمال الحور الحسان فى هذه الحياة مشوب بالألم .

أما جمال النجوم فإنه مشوّق لما وراءه من علم وحكمة ودراسة ، وكما أن جمال الحور الحسان داع للتناسل ، هكذا هنا جمال النجوم داع لدراستها ، فليقرأ الناس أقدار الكواكب وأبعادها وأنوارها فتصبح العقول ونحن على الأرض فى عوالم أرق وأرق ويمدّون المراصد فى الممالك فيشاهدون مشاهد تنسيهم لذة العقول الصغيرة على الأرض ويرون أن الضوء الذى يسير فى الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف كيلو متر يحتاج فى وصوله إلينا من بعض الكواكب التى نراها ليلا إلى ثلاث سنين بل إلى (٥٠) بل إلى (١٠٠) بل إلى (١٠٠٠) بل إلى (١٠٠٠٠٠٠) ألف ألف ، بل إلى ستين ألف ألف سنة ، وقد تقدم هذا فى هذا التفسير فى مواضع مختلفة ، وأيضا يرون اختلافا فى أضوائها كالاختلاف فى أبعادها ، فإذا جعلنا ضوء شمسنا واحدا

فهناك كواكب من هذه تكون أضوأ منها (١٠) مرات بل (٢٠) بل (١٠٠٠) بل (٨٠٠٠) ثمانية آلاف كالسماك الرامح بل أكثر بما لانعلم ، وهكذا فى أقدارها بما لاحصر له .

هذا مجمل مايفكر فيه المفكرون فى عالمنا ، إن الله عز وجل جعل على هذه الأرض أناسا أرقى من الناس وهم المفكرون وفتح لهم باب الجنة فى هذه الحياة وهم على قسمين : قسم فرح بتخيل الأنوار فى أضواء الكواكب وهذا لذته خيالية ، فهو إذ ذاك فى سلام وأمان من الهموم والأحزان مادام على هذه الحال ، وهذه الطبقة من الناس قد دخلوا فى اللذة الخيالية التى سيكونون فيها فى البرزخ بعد الموت ، وقسم نظر فى علوم تلك العوالم ونفع الناس بها وأرشدهم وهذا أسعد ممن قبله ، وللأول الإشارة بقوله تعالى هنا « وتحيتهم فيها سلام » وللثانى الإشارة بقوله « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

رياض الجنات التى أعدها الله فى هذه الدنيا للعارفين وهيأها للمفكرين فى قوله تعالى

« إنّ فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض الخ »

لقد ذكرت لك كيف جعل الله للناس فى الأرض رياضا فى المدن وأعدّها للعلماء وللجاهلين وقد ذكرت لك بعض رياض الحكمة فى السموات ، فلأرك فى هذه المقالة الرياض الغناء فى السموات التى كشفها الله اليوم وهيأها لمن بعدنا من الأمم الإسلامية ليكونوا بها عالمين .

تعلم أيها الذكى أن أرضنا التى نسكنها قد عرف الناس مساحتها ووزنها وبعدها كما تقدم فى سورة الأنعام وأنها تابعة للشمس ، وهناك سيارات أخرى معروفة مذكورة فى سورة الأنعام أيضا وللسيارات أقمار وكلها للشمس تابعات ، وهناك أيضا النجوم ذوات الذنب التى يقول العلماء فى عصرنا إنها كعدد السمك فى البحار وكلها دائرات حول شمسنا ، وما شمسنا هذه العظيمة التى هى أكبر من أرضنا بنحو ثلثمائة ألف مرة وألف ألف مرة إلا إحدى الشموس وهى من أصغرهنّ قدرا وتلك الشموس تعدّ بمئات ألوف الألوف فيقال إنها تبلغ نحو (٢٤٢) ألف كوكب شمسى ، كل هذا معروف فى هذا التفسير مرارا ، فهذه الشموس كلها هى المكوّنة للمجرّة ، والمجرّة يراها الناس بأعينهم كل ليلة صافية الأديم كأنها سائل لبنىّ أو كأنها تبن ولذلك تسمى عند العامّة [ طريق التبانة ] وعند الإنجليز [ الطريق اللبنى ] وعند علماء الدين [ أبواب السماء ]

هذه هى المجرّة التى شمسنا واحدة من شموسها وهى ترى واضحة ظاهرة كما قلت لك فى ليلة ليس فيها سحاب ، يراها الإنسان بعينه معترضة السماء من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى والناس لايعلمون عنها شيئا ولم تعلم حقيقتها حقّ علمها إلا قريبا ، فقد كنا منذ نحو (٤٠) سنة ونحن نطلب العلم فى دار العلوم نتلقى عن أساتذتنا فى الفلك أن الشموس التى أمكن معرفتها فى تلك المجرّة لاتزيد على (١٨) ألف ألف شمس ، أما الآن فقد عرف العلماء منها أكثر من (٢٤٢) ألف ألف شمس ، وربما كان لكل شمس سيارات وتوابع ، هذه هى المجرّة التى شمسنا واحدة من شموسها ، وما هذه المجرّة إلا روض واحد من رياض الله التى زرعها فى هذا الجوّ الفسيح المملوء من الأثير ، فهاك ما تلقيناه عن أستاذنا المرحوم حسن أفندى حسنى الذى هو أستاذنا فى هذا العلم ثم أتبعه بما عرفه العلماء فى عصرنا لترى الرياض الزاهرة والجمال الفتان فى السماء لتعرف معنى هذه الآية ، وهذه صورة المجرة فى الصحيفة التالية :



( شكل ٣ )

هذه هي الروضة الكوكبية التي شمسنا شجرة من أشجارها ، وأرضنا غصن من أغصان تلك الشجرة ، ومصر ورقة من أوراق ذلك الغصن ، والقاهرة ذرّة من ذرّات الورق وسكانها وأنا منهم نعيش حول تلك الذرّة الصغيرة ، ونحن إلى الله ذاهبون ، وكما أن القاهرة بلدة مما لاعدّ له من البلدان في الأرض ؛ هكذا المجرة ماهي إلا روضة واحدة من رياض لاحصر لها في هذا الجوّ الفسيح

وقد قسموا تلك الرياض البهجة في السماء إلى ثلاثة أقسام :

قسم منها يسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليلها بالنظارات إلى جملة نجوم وتسمى مجموعات كوكبية .

والقسم الثاني يسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليل جزء منها إلى نجوم بالنظارات .

والقسم الثالث يسمونه (سدام) لايمكن أقوى النظارات تحليله .

هذه هي الأقسام الثلاثة التي اصطلح عليها العلماء ، والقنوان : جمع قنو ، فكأنّ النجوم في هذين القسمين قنو النخلة أو عنقود العنب ، ومن القسم الأول جملة الثريا الموضوعة في صورة الثور وهي مركبة من (٨٠) نجمة تقريبا ؛ ستة منها ترى بالعين المجرّدة ، والسدام : جمع سديم وهو في اللغة السحاب الرقيق وفي اصطلاح الفلكيين سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لاتحلل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية .

## المجموعات الكوكبية

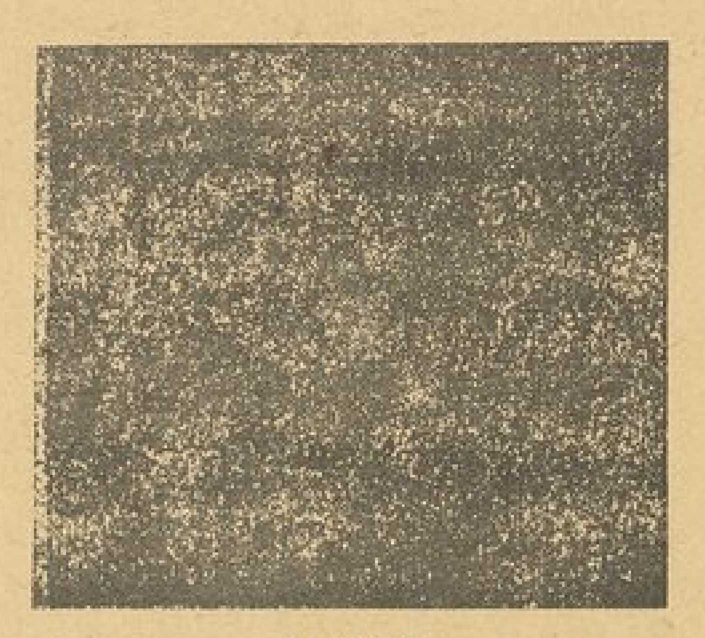


( شكل ٤ )

تظهر المجموعات الكوكبية بشكل مستدير غالبا حتى يظنّ في مبدأ الأمر أنها من ذوات الأذناب ولكن عدم تغير شكلها وعدم تحركها يميزانها عن ذوات الأذناب ، والنجوم المتكوّنة منها المجموعات الكوكبية تظهر في جهة المركز أكثر عددا مما في الأطراف ، وقد حسب العلم (هرشل) أن بعض هذه المجموعات التي شكلها كروى لاتشتمل على أقلّ من (٥٠٠٠) نجمة منضمة إلى بعضها في سعة قطرها الظاهري لايزيد عن عشر قطر القمر ، وأشهر هذه المجموعات قنوتوكان وهي في السماء الجنوبي وترى دائما بالعين العارية (شكل ٤) والجزء المركزى منها ذو لون أحمر برتقالي فاقع

ومثل هذا القنو ماهو مبين في شكل ٦ ( رسم قنوتوكان ـ شكل ٥ ) .

شكل

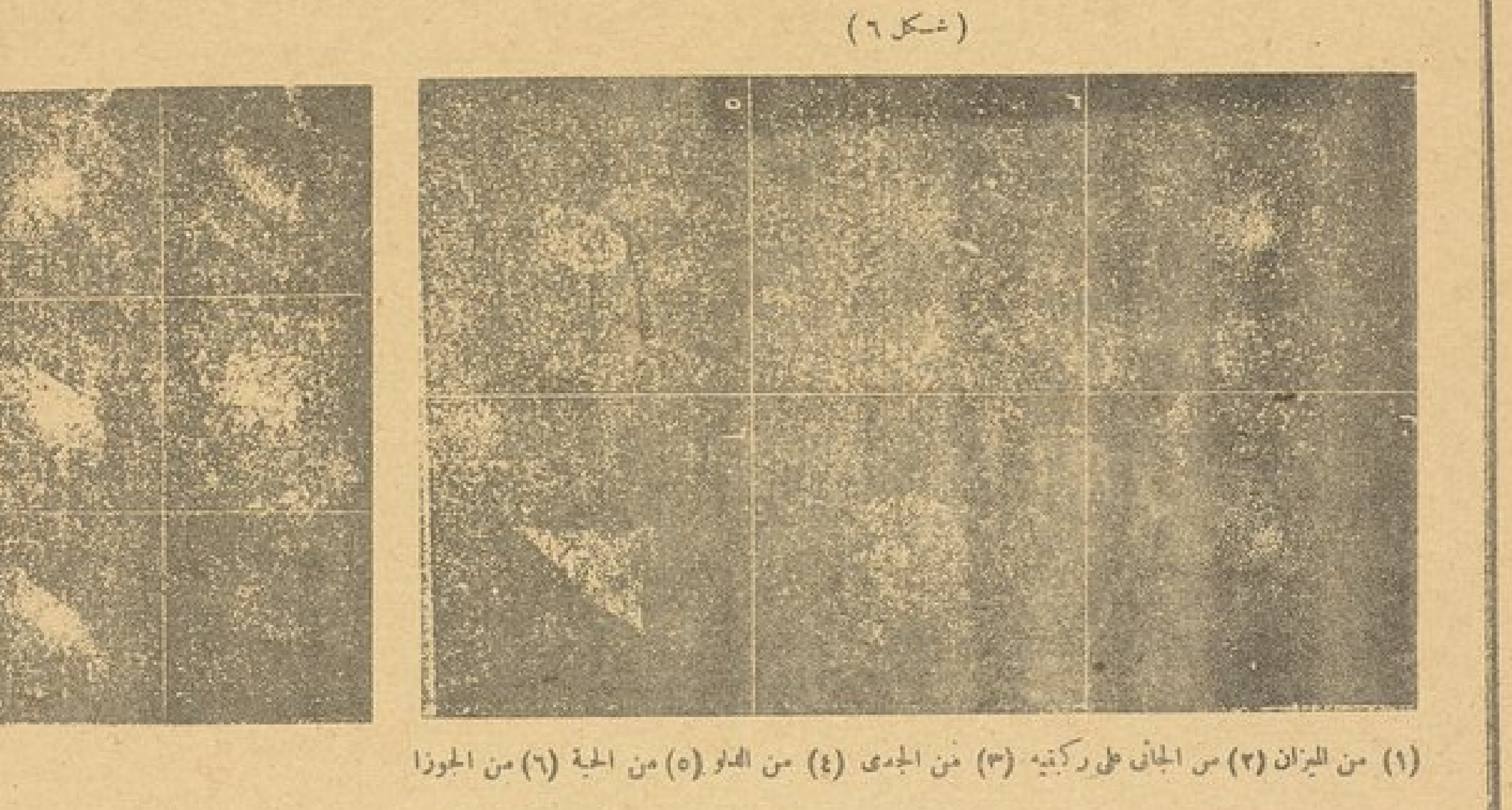


( شكل ٥ )

القسم الثانى السدام التى يمكن تحليل بعضها

السدام التى ينحل جزء منها تظهر فى الغالب على شكل منتظم قليلا أو كثيرا ولا شك فى أن هذه المجموعات هى من المجموعات الكوكبية ، غير أنها موضوعة بعيدا جدًا أو أنها مركبة من نجوم صغيرة جدا يمكن تحليل بعضها بالنظارات ، وبعض السدام ذات الشكل المنتظم مستدير وبعضها بيضاوى وبعضها ناقص مطاول جدا يقرب من المستقيم ( شكل ٧ ) وبعض السدام البيضاوية حلق كما يرى فى ( شكل ٨ ) وأحيانا ترى نجوم على نفس الحلقة .

(شكل ٦)



(١) من الميزان (٢) من الجاثى على ركبتيه (٣) من الجدى (٤) من الدلو (٥) من الحية (٦) من الجوزا

(شكل ٧)

ومن ضمن السحابات المنتظمة ما شكله مخروطي أو كشكل ذات الذنب ، ويمكن أن يكون انتظام الشكل مترتبا على قوة الآلة بحيث إن الانتظام لايكون إلا ظاهريا فعلى رأى (هرشل) تظهر سحابة كلب الصيد مثلا على شكل حلقة مضاعفة فى نصف دائرها وفى وسط الحلقة توجد سحابة لامعة جدا وخارجا عن الحلقة على بعد منها توجد سحابة صغيرة مستديرة .

[ القسم الثالث ] السدام الغير المحلولة ذات الشكل غير المنتظم ، توجد سدام لايمكن أقوى الآلات حلها وهى سدام الرتبة الثالثة ، وهذه السحابات تظهر عموما بشكل غير منتظم ، وذلك كسديم المرأة المسلسلة ( شكل ٩ ) والسديم الحلق الناقص للأسد ( شكل ١٠ ) .



( شكل ٩ — سديم المرأة المسلسلة )



( شكل ١٠ — سديم الأسد )

وهذا القسم الثالث وهو السدام لم يعلم منه العلماء أيام تلقينا هذا العلم منذ أربعين سنة إلا خمسة آلاف فقط فهذه ترى كأنها سحاب أو ضباب ولكنها ليست واضحة وضوح المجرة ، أما الآن فهاك مقاله الدكتور

(هبل) يقول إنه رأى فى ألواح التصور المتصلة بالتلسكوب الأكبر الذى قطر مرآته نحو (١٠٠) بوصة نحو ( ألفى ألف ) أى مليونى سديم يبلغ بعدها عنا (١٤٠) مليون سنة .

ومعلوم أن شمسنا يصل ضوءها لنا فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية وهذه المسافة يقطعها القطر فى نحو ٣٦٥ سنة ، وقلة المدفع فى نحو ١٢ سنة ، فانظر كيف يكون بعد تلك السدم التى لاتبعد بأقل من مائة وأربعين مليون سنة فتعجب .

وهذه السدم منتشرة فى أبعاد شاسعة جدا يبلغ البعد بين الواحد والآخر منها ( ١٨٠٠٫٠٠٠ ) سنة نورية ، وفى كل سديم منها مادة تكفى لتكوين مليون شمس مثل شمسنا ، ومعلوم أن شمسنا نجم من نجوم المجرة كما تقدم ، والمجرة نفسها سديم من السدام ، فانظر أيها الذكى وتعجب .

هذه هى الرياض الواسعة ، هذه هى جنات العلم والحكمة ، أرضنا صغيرة وحدائقها وبلدانها وبحارها حقيرة وشمسنا صغيرة ومجرتنا إحدى المجرات ، والمجرات بلغ المعلوم منها اليوم نحو ألفى ألف .

ياسبحان الله وبإسعدانه ، نحن محبوسون فى الأرض هذه الأرض الصغيرة ، أما أنا فلا أرى فرقا بين المسجونين فى السجون وبيننا نحن على الأرض ، فالمسجون يستروح بالأخبار عن أحوال أمته وأحوال حكومته ويتشوق لذلك وهو فى حجرة ضيقة والناس فى الخارج أحرار ، هكذا نحن فى هذه المجرة الضيقة عشنا محكوما علينا بالبقاء فى الأرض إلى الموت وقد حرمنا من الصعود إلى السماء لنبتهج بتلك الشموس وأنوارها وسكانها وعجائبها ونفرح لأخبارها ، وهذا قوله تعالى « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » وقوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء » .

لاجرم أن الجنة ليست تحتنا بل هى فوقنا ، إذن هى فى السماء ( راجع مانقلنا من الأحاديث وأقوال العلماء فى سورة آل عمران ) .

أفلست ترى معى أن مثل هذا هو المقصود من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » أفليس هذا هو النظر فى السماء ؟ ترقب فى الليالى الصافية أديم السماء فترى قبة زرقاء جميلة المحيا بها مجموعات كأنها ضباب ، وهذه المجموعات تبدو ضئيلة ثم بحث العلماء عنها فوجدوها نحو مليونين ، سبحان الله إن البعد شاسع بين العالم والجاهل ، الجاهل لايرى فى السماء شيئا والعالم يراها موطن الكرامة والحكمة والمخلوقات العظيمة .

هذا هو مانشير له الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها ، فبعد أن ذكر الله ضوء الشمس ونور القمر والحساب واختلاف الليل والنهار قال « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الخ » فهاهو ذا سبحانه ذكر الاطمئنان بالحياة الدنيا والغفلة عن آيات الله وعدم الرجاء فى لقاء الله واستحقاق جهنم ، كل ذلك بعد ذكر جمال السماء وكواكبها . فعلوم السماء فتح لأبواب الجنة والغفلة عنها فتح لأبواب جهنم ، لأن الإنسان لايشتاق إلى حياة أعلى إلا إذا علمها ، إما باتباع الوحى وإما به مع الدراسة العلمية كما أوضحناه غير مرة فى هذا التفسير .

## جوهرة فى إشراق نور العلم فى القلوب بإشراق نور الكواكب

هاأنت ذا أيها الذكى رأيت صورة المجرة وصورا لعوالم أخرى غير المجرة ، ورأيت أن عالم المجرة والعوالم التى تشابهها تزيد على مليونين ، ورأيت كلام العلماء فى أبعادها التى بعدت جدا ، ومعلوم أن كل ذلك تقريب ، فهاك الآن آخر ماوصل له نوع الإنسان من العلم فيما رأيته فاقرأه وانتظر غيره واقرأ علوم الأمم حولنا بعد أن تفقه ما ذكرناه .

انظر

انظر إلى المجرّة التى رسمت هنا فى صورة (٣) ارجع البصر كرتين لها تجد أنها هى التى فيها كواكب كثيرة منها شمسنا ، إن المسافة التى يقاس بها البعد بيننا وبين الشمس التى هى كوكب من كواكب هذه المجرّة نحو ٨ دقائق و١٨ ثانية كما تقدم بسير النور وقد عرفته بسير قلة المدفع وسير القطار فى الأرض فلا نعيده ، نحن لانقيس بعد هذه المجرّة إلا تدريجا ، إذا عرفت بعد الشمس منها فإن بعد أقرب كوكب من كواكب هذه المجرّة وهو (ألفا قنطورس) يبلغ بسير النور ثلثمائة ألف ضعف بعد الأرض عن الشمس : أى ثلاث سنين ونصف سنة نورية .

فياليت شعرى ماذا يكون ذلك البعد بالقطار أو بقلة المدفع ؟ مع العلم بأن النور يسير فى الثانية مايسيره القطار فى نحو ٤٥ سنة ، وما تقطعه قلة المدفع فى نحو سنة ونصف ، ولننظر نظرة عامّة فى المجرّة فنقول :

يقول علماء عصرنا لنتخذ الشمس مركزا ولنرسم حولها كرة قطرها ألفا سنة نورية ، فهذه الكرة تشمل جميع الكواكب التى نراها بالعين المجرّدة ، وإذا أوسعنا هذه الكرة حتى يصير قطرها خمسا وعشرين ألف سنة نورية شملت جميع الكواكب التى فى نظام المجرة التى هى مرسومة أمامك .

صفة المجرّة : هى تشبه حبة العدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، والمسافة التى بين وجهيها عند مركزها عشرة آلاف سنة نورية ، وخارج هذه المجرة عالمان آخران فى غيوم (مجلان) يبعدان نحو (٢٠٠) ألف سنة نورية وهناك كون آخر يبعد (٧٠٠) ألف سنة نورية ثم على مليون سنة نورية تجد السديمين الكوكبين فى المرأة المسلسلة وكوكبة المثلث وكل منهما طوله الأطول نحو (٥٠) ألف سنة نورية وهو طول قطر المجرّة .

ولكن هذه المجرّة وأبعادها الشاسعة عالم صغير جدا من العوالم ، فماذا بعدها ؟ الجواب : هناك مجاميع من النجوم وقد رأيت بعضها مرسوما أمامك فى هذه الصفحات ، وكل مجموعة منها فيها نجوم كنجوم المجرّة وكلها منثورة فى الفضاء كأنها بساتين زرعها الله فى الفضاء المتسع ، أو كأنها جزائر فى البحر ، كجزائرنا الأرضية فى البحار المائية ، وهذه جزائر فى البحار الأثيرية التى تظهر لنا كأنها فضاء ، ويقولون فى عصرنا الحاضر : إنها الأكوان (الجزرية) .

ولأذكر لك على سبيل المثال سديم المرأة المسلسلة المتقدم ، وجده العلماء يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره خمسون ألف سنة نورية وفيه ألوف الملايين من النجوم أكثرها لايمكن رؤيته ، والكواكب التى نراها فيه تزيد ألوف الأضعاف على شمسنا من حيث النور واللمعان بدليل أننا لو أقصينا الشمس عنا مسافة مليون سنة نورية لم يمكن رسمها بالمصوّر الشمسى ، أما هذه النجوم التى تبعد عنا هذا البعد الشاسع فإنها ترسم فإذا كانت شمسنا بالنسبة للكواكب التى عرفت صغيرة جدا وضوءها ضئيل ، وإذا كانت المجرّة فيها مئات الملايين من الشموس وكانت المجرّات الأخرى فيها كواكب مثلها أو أكثر وهى أضوأ ثم أضوأ ثم أضوأ ، أفليس هذا معناه أننا صغر فى هذا الوجود ؟ وإذا قال الشاعر :

* إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل *

فهكذا نقول إذا صغر أهل الأرض بجانب الأرض وبحارها وجبالها ، وإذا صغرت الأرض بجانب الشمس ، وإذا صغرت الشمس بجانب مئات الملايين من كواكب المجرّة ، وإذا صغرت المجرة بجانب مائة ب من عدد مليونين من المجرّات فما نحن فى هذا العالم إلا صغر ، وبهذا نفهم قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فعلمنا قليل كقلة أرضنا بالنسبة لشمسنا ، وشمسنا بالنسبة لمجرتنا ، ومجرتنا بالنسبة للمجرات ، وقد يئس الناس أن يعرفوا لهذه العوالم نهاية .

وسيعرف المسلمون من ذلك معنى قوله تعالى « ويخلق مالاتعلمون » وقوله « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » اه .

إذا عرفت هذا فهمت تفسير هذه الآيات ، فإذا سمعت الله يقول « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وختمها بأنه فصل ذلك لقوم يعلمون أدركت ماقدّمناه من أن البساتين التامة للعموم ، أما السموات فهى للعلماء بها وهم الخواص ، وإذا سمعت قوله تعالى « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ثم وصفهم بالاطمئنان بها والغفلة أدركت ماقدمناه من الحياة المنزلية وشقائها الذى لامندوحة عنه وهو عين ماجاء فى قوله تعالى عند ذكر الأولاد والأموال أنهما للعذاب فى الدنيا

ثم لخص المقام كله بقوله « دعواهم فيها سبحانك اللهم الخ » وبيانه أن الإنسان فى الأرض أشبه مسجونا أبعد عن ملكه كما تقدم ، فهذا المسجون له أربع أحوال : حال السجن ، وحال الخروج مع عدم الأمن من السجن ، ثم حال الأمن من السجن ، ثم أن يعطى له ملكه ، فهذه الدرجات الأربع تحصل لنا فنحن الآن فى سجن تكاليف الحياة والشهوات ، وإذا خرجنا منها ربما وقعنا فى شقاء آخر وهو المعبر عنه بجهنم ، فإذا سلمنا منها فهو نعمة ، فإذا أعطينا الكمال اللائق لنا فهذا غاية المراد ، فقوله تعالى « سبحانك اللهم » تنزيه لله عن الحوادث ملحوظ فيه تشبه العبد به فى الخلوص من العلائق الدنيوية وهو المرتبة الثانية المتقدمة وقوله « سلام » هو المرتبة الثالثة ، والرابعة كمال العلم بهذا الوجود الذى هو جنة العارفين فى الدنيا وفى الآخرة الذى لاتحقق للحمد إلا به ، إذ لامعنى للحمد على تربية العالمين إلا بعد العلم بها ، ومن العالمين هذه الكواكب والشمس والقمر المضيئات المذكورات فى الآيات التى يتمتع بها الخواص فى الدنيا والآخرة والله يعلم أن العامة محرومون من هذا الجمال فألهم رجال الحدائق فزرعوا لهم من تلك البساتين بعض روضات منظمة على أشكال (بيضاوية) أى اهليلجية وهى المسماة بالقطع الناقص التى تشبه دوائر الكواكب فى السموات كدائرة الأرض حول الشمس فإنها ليست دوائر تامة والشمس تكون فى إحدى بؤرتيها صيفا وشتاء كما أوضحته فى غير هذا المقام فى التفسير ، فبساتين العامة فى بعضها ذلك الشكل كأنه يذكر العوام بدوائر الكواكب التى لايعقلها إلا الخاصة .

### تذكرة

أيها الذكى سيقرأ هذا التفسير إن شاء الله شبان من المسلمين فى حياتنا وبعد موتنا وسيسرعون إلى بناء المراصد فى الممالك الإسلامية فى بلاد المغرب ومصر والشام والعراق وبلاد جاوه والملايو وسائر بلاد الهند الشرقية ، وسيكون هذا القول من أوكد الأسباب لارتقائهم فى علوم النجوم وسائر علوم الحكمة ، لاسيما إذا قرءوا ماسيأتى فى تفسير قوله تعالى فى سورة إبراهيم « وذكرهم بأيام الله » كيف كان موسى يذكر قومه بأيام الله وكيف ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم قومه بأيام الله ؟ وكيف ذكرت أنا الأمم الإسلامية بأيام الله وكيف يتجلى لك هناك مابرع فيه آباؤنا الأوّلون من العلوم فى الفلك وغيره ، وكيف شهد لهم العلامة (سديو) الفرنسى بأنهم سادات أوروبا وأساتذتها فى العلوم ، وأنهم هم الذين أصلحوا علم اليونان كما وضحه هو إيضاحا تاما ونقلت أنا هناك بعضه ، ثم كيف كان بعض ملوك الدولة العباسية يحاربون ملك الروم لأجل بخله عليهم بعالم يسمى (ليون) من شدة ولوعهم بالعلم ، وكيف غير الله عقولهم فى أواخر الدولة فطاردوا العلماء كما فعل الملك يعقوب فى الأندلس بابن رشد ، وكيف ذلّ المسلمون شرقا وغربا بعد نبذهم العلماء ؟ وكيف كان الجهل سبب خراب بغداد ومصر وبلاد الأندلس وتفصيل ذلك كله مع الإيجاز ، ستقرأ هذا التفصيل هناك وتقرأ مانبغت به بعد ذلك أوروبا لما أخذت علوم ابن رشد وكشفت من العلم ما انتفعنا به وأصبحنا عالة عليهم

فى علومهم وصناعاتهم ، سيقرأ هذا وذاك أبناؤنا المسلمون والشرقيون ، وسيطيرون للعلم سراعا ويرجعون مجدا ضاع وعزّا ذهب ، والله هو الولىّ الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



( شكل ٨ )

فصل فى قوله تعالى « إنّ فى اختلاف الليل والنهار
وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون »

اعلم أن اختلاف الليل والنهار قد فصلته تفصيلا فى سورة البقرة ، وأما الكلام على ما خلق الله فى السموات والأرض فها أنا ذا أزيدك بيانا فوق ما مضى منه فى هذا الكتاب لينشرح صدرك ولتكون رياضة بعد العناء فى حساب السنين وأذكر لك لطائف :

اللطيفة الاولى : النبات المفترس

إنّ الحيوان المفترس يسطو على الغزلان والأرانب والمعز والغنم وما أشبهها ، وهكذا كل حيوان يسطو على النبات فيأكله ليتغذى به ، والأكثر فيه أن يكون غير مفترس ، وماذا تقول إذا قصصت اليوم عليك نباتا مفترسا .

ذلك أن العلامة ( آليس ) الإنجليزى قد كشف نباتا فى ( أمريكا الشمالية ) له ورق كأنه مصيدة الفار وللورق مفاصل كمفاصل اليدين والرجلين فى الإنسان والحيوان وعلى ظاهرها زغب يقوم مقام الأعصاب فى ظهر الإنسان ، ثم هناك شوك يحيط بها من كل جانب فإذا جاءت حشرة صغيرة على الورقة أحسّ الزغب بها حالا فتنبهت الورقة فتنطبق عليها ولا تدعها تفلت وتفرز مادّة عليها كما تفرز نحن عصارة البنكرياس فى المعدة والريق فى الفم على طعامنا ، وكما تفرز الحية المادّة السمية فتهضم طعامها بلا أسنان ولا معدة ، وحينئذ تمتص الورقة تلك الغنيمة وقد اقتصت لأنواع النبات من عدوّها الحيوان وهى تقول :

فيوم لنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسرّ

وتقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

اللطيفة الثانية

نبات مائى يسمى عند النباتيين (بفاليستيرياسبراليس) وهو ينبت فى مجارى الأنهار ، ولقد علمت فى هذا الكتاب أن لكل نبات ذكرا وأنثى ، وقد يكون الذكر فى زهرة والأنثى فى زهرة أخرى من الشجرة الواحدة كنبات القرع ، وقد يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة كالقمح ، وقد يكون كل منهما فى شجرة كما فى النخل ، ومن النوع الأول هذا النبات المائى الذى نحن بصدد الكلام عليه ، فإن للزهرة الأنثى منه ساقا لولبيا طويلا ، وهذا الساق يحمل الزهرة ويعوم بها فوق الماء مرقصا لها فى الهواء ، أما الزهرة التى

فيها لقح التذكير فإنها ليست تعوم بل هي قريبة من النبت تحت الماء فإذا جاء الأجل وحل أوان الحمل ، فماذا يحصل ؟ أتنزل الزهرة الأنثى حتى تصل في الماء إلى زهرة الذكور ، أم يطول ساق الذكر حالا فيصل إلى أعلى فيحصل الإلقاح ؟ كلا . لاهذا ولاذاك وإنما تنفصل زهرة التذكير وتصعد فوق الماء حتى تجتمع بالأنثى وهي منفصلة ومتى حصل الإلقاح ينقبض لولب الأنثى حتى تصير في قاع مجرى النهر عند ساق النبات في أسفلها وهناك يتم البزر ، فتعجب وزد علما واقرأ « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

اللطيفة الثالثة : شجرة تفترس إنسانا

جاء في بعض المجلات المصرية العصرية أن في بعض الجزائر شجرة يقدسها أهل تلك الجزيرة ويعبدونها ويقدمون لها في كل سنة فتاة يختارونها لذلك فيحضرون ومعهم آلات الطرب من طبل وغيره ويضعون هذه البنت في أعلى الشجرة في مقعد هناك فيه مادة حلوة لذيذة من نفس الشجرة تشرب منها الفتاة فتسكر وتغيب حواسها فلا تلبث تلك الشجرة أن تجتمع أوراقها وأغصانها وأشواكها النافذة وقضبانها الملتوية التي تشبه الحبال فتنضم جميعها على الفتاة والأوراق تكتم أنفاسها والحبال تلتف حولها والشوك ينفذ في باطنها من أعلى ومن أسفل وتأخذ الشجرة إذ ذاك تمضغ الفتاة وتهضمها وهي لاتقدر على النجاة والقوم يدقون الطبول فرحا بهذا العيد الديني وفي الحال لايسمعون تأوه الفتاة وأنينها وعويلها وصراخها ثم ينصرفون بعد ألا يبقى لها إلا مالفظته الشجرة من عظام لا لحم عليها ولا عرقا وهكذا ، وذلك أيضا من انتقام النبات من الحيوان جزاء مايفعل الحيوان في النبات « وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

اللطيفة الرابعة : كيف تظهر صور المخلوقات في فصول السنة الأربعة

انظر للدنيا في فصل الربيع [ من إخوان الصفا ] فإذا نزلت الشمس أول دقيقة من برج الحمل استوى الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهب النسيم وذابت الثلوج وسالت الأودية ومدت الأنهار ونبعت العيون ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلألأ الزرع وأورق الشجر وتفتح النور واخضر وجه الأرض وأخرجت زخرفها وازينت وفرح الناس واستبشروا وصارت الدنيا كأنها صبية شابة تزينت وتجلت للناظرين .

فصل الصيف

إذا بلغت الشمس آخر الجوزاء وأول السرطان تناهى طول النهار وقصر الليل وأخذ النهار في النقصان وانصرف الربيع ودخل الصيف واشتد الحر وحمي الهواء وهبت السموم ونقصت المياه ويبس العشب واستحكم الحب وأدرك الحصاد ونضجت الأثمار وسمنت البهائم واشتدت قوة الأبدان وأخصبت الأرض وكثر الريف ودرت أخلاف النعم وبطر الإنسان وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة رعناء ذات جمال .

فصل الخريف

إذا بلغت الشمس آخر السنبلة وأول الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى وأخذ الليل في الزيادة وانصرف الصيف ودخل الخريف وبرد الهواء وهبت ريح الشمال وتغير الزمان وجفت الأنهار وغارت العيون واصفر ورق الأشجار وصرمت الثمار وديست البيادر وأحرز الحب وفنى العشب واغبر وجه الأرض وهزلت البهائم وماتت الهوام وانجحرت الحشرات وانصرف الطير والوحوش إلى البلدان الدفية وأخذ الناس يحرزون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب .

فصل الشتاء

إذا بلغت الشمس آخر القوس وأول الجدى تناهى طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار فى الزيادة وانصرف الخريف ودخل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وانجحرت هوامّ الحيوانات فى بطن الأرض وضعفت قوى الأبدان وعرى وجه الأرض من زينته ونشأت الغيوم وكثرت الأنداء وأظلم الهواء وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة مدبرة قد دنا منها الموت ، فإذا بلغت الشمس آخر الحوت وأول الحمل عاد الزمان كما فى العام الأول وهذا دأبه « ذلك تقدير العزيز العليم » اهـ .

هذه صورة ماخلق الله من شئ فى فصول السنة الأربعة وقد قال « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » أى تناقض ولا اختلال ، وها أنت ذا قد شاهدت أن هذه الرواية تمثل كل سنة تمثيلا متواصلا لا اختلاف فى فصول الروايات من حيث العموم وإنما تختلف فى أحوال جزئية « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل فى قوله تعالى « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا الخ »

لابدّ فى ذكر المناسبة بين هذه وما قبلها من بيان مقدّمة فى جبلة الناس وغرائزهم وما فطروا عليه .

اعلم أن الناس فى هذه الدنيا مولعون بما خلقوا له مغرمون بما استعدوا له لا يرجون سواه ولا يحبون إلا الوصول إليه .

(١) فالفتاة فى المدرسة مغرمة بالعرائس تلبسها وتلعب بها .

(٢) والصبيان فيها لايهنأ لهم إلا حبّ السلاح وآلات الحرب غالبا والمغالبة فى اللعب . ذلك أن الفتاة خلقت للولادة والتربية ، والفتى سيكون من شأنه مدافعة الأعداء عن البلاد .

(٣) وترى قوما يميلون بحسب ماطبعوا عليه إلى التجارة .

(٤) وقوما للزراعة . (٥) وقوما للامارة . (٦) وقوما للملك . (٧) وقوما للعلم .

(٨) وكل هؤلاء يختلفون اختلافا كثيرا .

وقد ظهر بالاستقراء أن من طلب شيئا وهام به ناله كله أو بعضه على مقتضى حاله ، وليس يكون الإنسان مغرما إلا بما شاكله وقد يناله ، فهل تغرم الفتاة بآلات الحرب والقتال ؟ أم المستعد للإمارة بصناعة البدال ؟ ففى الحديث « كلّ ميسر لما خلق له » فليست ترجو الفتاة سلاح الحرب غالبا وليس يحبّ الفتى أن يكون مرضعا وظئرا للأطفال وهكذا ، وإذن أصبح الناس بالنسبة إلى الأشياء على قسمين : قسم مستعد الشئ يرجوه ، وقسم ليس بمستعد له ليس يرجوه ، فالحدّاد مثلا عادة لايستعدّ للحكمة والفلسفة فهو لا يرجوها ومن خلق مستعدا لها يرجوها فينالها الثانى ويحرم منها الأول .

فلننظر إذن نظرة فى هذه الآيات نجد وصف السموات والكواكب وسير الشمس والقمر وهذا من نوع الجمال العالى وفى نوع الإنسان عشاق لهذا الجمال وفيه من لايعشقون بل هم مكتفون بالمأكل والمشرب والتناسل كالدواب والأنعام وللمغالبة كالآساد ، فعشاق هذا الجمال يعكفون على الحساب والهندسة والجبر والفلك وحساب المثلثات ويهرعون إلى المراصد فينظرون النجوم ويتأملون أشكالها وجمالها وحركاتها ويدققون ويحسبون وهم بذلك فرحون مستبشرون . فهؤلاء يتمنون لو يساعدهم المقدور ويسبحون فى عوالم السماء حتى يقفوا على كنه تلك العوالم ويعرفوا جمال الصنعة الإلهية ، وكلما ازدادوا علما ازدادوا سرورا وبهجة بتلك العجائب والبدائع ؛ فالنظر للعوالم العلوية يبهج الصدور ويجعل الإنسان مغرما بالاطلاع على جميع العوالم ، أقول فهل هذا الغرام خلق فى بعض هذا الإنسان باطلا كيف وقد خلقت الفتاة ومعها غريزة تربية الصغار فى اللعبة وهى طفلة وكذلك الفتى يغرم بالسلاح الذى هو من جنس مايكون فى مستقبله وهكذا أرباب

الصناعات والحرف كل يميل إلى ماخلق له كما كانت أمة اليونان فى قديم الزمان تدخل الصبيان فى الهياكل وقد وضعوا فيها صور جميع الحرف ويسألون الصبى عما يميل إليه فيجيبهم فيحكمون عليه بأنه من أهل هذه الحرف وقد خلق لها .

فإذا كان الاستقراء أثبت هذه القاعدة فلنقس الغائب على الشاهد ولنقل : إن من أغرم بهذه العجائب يكون له مستقبل فى الوصول إليها وإن العالم الأخروى أى ماوراء بعد الموت قد أعد لكل امرئ فيه ما استعد له فى الدنيا ، فأهل الغرام بالجمال فى صور هذا العالم من حيث الحكمة ودقة الصنع وإدراك المحاسن سينقلون هناك على تلك الحال وينالون حظا مما أغرموا به وعشق هذه الأفلاك عشق لخالقها ومنظمها ومبدعها فهذه غرائز أو شبه غرائز فى النفوس فلابدّ من الوصول إلى ما استعدت له وهذا هو بيت القصيد ولذلك قسمت الآية هنا الناس (بعد الكلام على عجائب الأفلاك والطبيعة) قسمين : قسم لايرجو لقاء الله ورضى بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن هذا الجمال ، وقسم فى جنات النعيم ولهم ثلاث درجات فى تلك الجنة [أولا] ينعتون الله بنعوت الجلال وهى صفات التنزيه وهم منغمسون فى لذات الجنة ونعيمها ثم يرون بفكرهم أن خالق الجنة أكبر من هذا كله وأعظم فيسبحونه : أى ينزهونه عما هم فيه من النعيم [ثانيا] تبتدئ أيام سعادتهم فيحيى بعضهم بعضا بالسلام وهو الأمان من المخاوف فيقولون لبعضهم إن هذه اللذات فى الجنة لايعتريها نقص ولا فقر ولا هم ولا غم فهذا هو السلام الذى يدور بينهم وبين بعضهم وهذا من أعظم السعادات إذ يرى الإنسان نعيمه لانقص فيه وقد فهموه من أنفسهم ثم يترقون من هذه المرتبة الإنسانية فيسمعون سلام الملائكة كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » وهذا سلام أعلى ويحسون إذ ذاك بسعادة أجمل من الأولى لأن سلام الملائكة من عالم منزه عن المادّة فيكون أجمل وألطف وهذا يعدّهم لسماع السلام من الحق فإذا سمعوه خروا ساجدين ونسوا نعيم الجنة وحقر فى أعينهم كما يحقر طعام الملك عند من حظى بمجالسته ومؤانسته وإذن يكون غذاؤهم هو النظر فى ذلك الجمال الأبهى وفى عجائب القدرة وهذه هى المرتبة الثالثة مرتبة الحكماء والعلماء والأنبياء الذين مارسوا هذا الجمال فى هذه الحياة الدنيا فيقولون « الحمد لله رب العالمين » وذلك أنهم يطلعون على تربية العوالم المحسوسة والمعقولة وهناك تكون السعادة الروحية التى يحس الناس ببعضها فى أوقات قليلة ، بل إن كثيرا من الناس قد أولعوا بالعلم حتى نسوا كل شئ فما بالك إذا كان ذلك فى تلك الساحات البديعة والمقامات الشريفة ، وإن أردت شاهدا على ذلك من العالم الأخروى ولم تكتف بالاستنتاج فاسمع ما قالته روح (غاليلو) الفيلسوف الفلكى حين أحضروها ليستطلعوا رأيها فى أحوالنا بعد الموت فأملت عليهم مقالا مصداقا لهذه الآية ، فلقد أوضح هذا المقال أيما إيضاح وكشف عن هذه الحقيقة اللثام وجاءنا من عالم الغيب يخبرنا أنه منعم بالتفرج على عجائب الفلك وأنواع النجوم بحيث يراها بأنفسها وأقدارها وأشكالها وأنه شاهد عوالم أرقى نفوسا وعقولا وأخلاقا ومدنية ولهم أعمال غير أعمالنا وعقول غير عقولنا وأنه هو يطوف فى تلك الأرجاء ويبتهج بمرآها ، وأفاد أن الكواكب هناك مع عظم قدرها تتفرّج عليها الأرواح الفاضلة كما نتفرج نحن على الزهر فى الشجر ، وبين أن أرضنا هذه ستزول من الوجود وأما أرواحنا فإنها تبقى ثم ترتقى فى عوالم أخرى عند الله وتكلم عن المجرة وكيف يطلع هو اليوم على الملايين من النجوم فيها ثم ينتقل إلى مجرة أخرى وهكذا فى العوالم الشاسعة العجيبة ، وهذا القول من روح (غاليلى) هو مايقوله علماؤنا [ إن جنة العارفين هى العلوم والمعارف ولا نهاية لها ، أما جنة المغفلين فهى المآكل والمشارب ] وأنا لا أطيل لك أكثر من هذا وإن أردت الاطلاع على هذا المقال للقيد الطويل فاقرأه فى تفسير سورة آل عمران المتقدم فى المجلد الثانى ، ولعلك تقول : كيف يقول (غاليلى) ذلك وهو كافر بالله ؟. أقول

هذا

هذا القول لم أجزم به وإنما نقلته ليعلم الملحدون من المسلمين أن عقيدة الآخرة موجودة بأوروبا التي هم يقدّسونها ، فإذا كفروا بذلك فهم لاشرقيون ولا غربيون لأن الإلحاد قد جعله بعض صغار العقول من المتعلمين صناعة يرتزقون بها إذ يوهمون الناس أنهم علماء حتى كفروا بعلمهم ، وهناك إجابات أخرى على هذا الاعتراض فى تفسير آل عمران فارجع إليه هناك ، انتهى تفسير القسم الأول من هذه السورة .

مناسبة هذه السورة لآخر التوبة

قبل الانتقال إلى القسم الثانى يحسن أن نذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها بإيضاح فنقول :

لقد ذكرت فى آخر سورة التوبة هذه المناسبة ، وأريد الآن أن أذكر المناسبات المتشابهة من أول سور القرآن إلى هذه السورة غير ماذكر لكل منها خاصا به ، إن الجزء الثانى من سورة الفاتحة يشتمل على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم ، وأول البقرة يفيد أن هذا الكتاب « هدى للمتقين » وهم الذين عبر عنهم فى الفاتحة بالمنعم عليهم ، وآخر سورة البقرة جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين آمنوا بالقرآن وبالملائكة والكتب والرسل بعد ذكر أن لله مافى السموات ومافى الأرض وأنه سبحانه يعلم ماتخفيه وما نظهره ، وهاهو ذا فى أول آل عمران يذكر القرآن والتوراة والإنجيل وكل مايفرق بين الحق والباطل وهذا راجع للأمر الثانى فى البقرة ، ويقول لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وهو راجع للأول أما آخر سورة آل عمران فهو طلب التقوى من المؤمنين ، وأول سورة النساء طلبها من سائر الناس ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عام للأمم كلها ، وقبيل آخر سورة النساء « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » وأتبعه بجواب استفتائهم فى مسألة الكلالة ، وأول سورة المائدة خطاب هؤلاء المؤمنين بأوامر بعد أن أجاب استفتاءهم وآخر سورة المائدة أن الله له ملك السموات والأرض ومافيهن ، وأول سورة الأنعام بيان سبب كون الملك مختصا به ، ذلك لأنه خلقهم فهو يقول له ملكهما ثم يقول هو خلقهما وخلق الظلمات والنور ، وفى آخر سورة الأنعام يتبرأ من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أتبعه بطريقة الهداية وبإخلاصه لله إيذانا بأن الذين فرّقوا دينهم يخالفون هذا التسليم له وهذه الهداية ، وفى أول الأعراف أخذ ينذر من كفر ويذكر للمؤمنين تبيانا لنتيجة تبرئه منهم ، وفى أواخر سورة الأعراف يقول « يسألونك عن الساعة » فأجابهم بأن علمها عند الله وأتبع ذلك بأنه لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا وأن الناس كلهم كذلك لأنهم فى قبضته لأنه خالقهم واستطرد بذم الأصنام والشيطان وبطلب الإصغاء للقرآن الخ ، ثم أتبعه بقوله « يسألونك عن الأنفال » فكما سألوه عن الساعة فكان العلم عند الله ، هكذا سألوه عن الأنفال فكانت الإجابة عنها من الله ، وآخر الأنفال « إن الذين آمنوا وهاجروا — إلى قوله — بعضهم أولياء بعض » وهكذا الذين بعدهم .

فلخص ذلك أن هنا صلة دينية عامّة وصلة رحم خاصة فلم يبق إلا ذكر الكفار بالبراءة منهم ، أما آخر براءة فإنه يفيد :

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم . (٢) يهتم بأمرهم .

(٣) وهم ربما يعرضون عنه . (٤) وهو يتوكل على الله رب العرش العظيم .

وأول سورة يونس إنكار على الناس تعجبهم من إرسال رجل منهم إليهم وهو راجع للأول وكان حق التعجب أن يكون من إرسال ملك ، لأن الموعظة إنما تكون ممن يشاكل لاممن المخالف فى الجنس ، وقوله وأن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا الخ » راجع إلى الثانى وهو الاهتمام بأمرهم ، وقوله « قال الكافرون إن

هذا لساحر مبين » راجع الثالث ، وقوله « إن ربكم الله » إلى قوله « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » راجع إلى الرابع فهو توكل عليه لأنه رب العرش العظيم فى آخر التوبة ، وهنا فصل ذلك بأن استواءه على العرش بعد خلقه السموات والأرض لأن الملك إنما يدبر الملك بعد تأسيسه ، فههنا المناسبة دقيقة ثابتة إنما الذى يعوزه التفصيل أنه عبر هنا بقوله « رب العرش العظيم » ثم عبر بأنه خلق السموات والأرض الخ يقول صلى الله عليه وسلم إن الله كافيه لأنه ملك متصرف فى ملكه .

بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم وتوكل هود فى سورته الآتية

فأما هود فإنه يقول « إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » فهود توكل على من بيده نواصى كل دابة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم توكل على من له العرش العظيم وخلق السموات والأرض فكل منهما ذكر من صفات ربه مادل على نزعة نفسه ، فهود يريد السلامة له ولمن اتبعه لأنه عادل فى عمله فهو يحفظ كل نسمة ويكلؤها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يفكر فى أمر الملك العام والنظام ، فهمته متجهة إلى النظام العام وهذا هو الذى يليق باتباعه .

أيها المسلمون انظروا كيف كان اتجاه النبى صلى الله عليه وسلم واتجاهه إلى النظام والملك والعرش والاصلاح العام فأعطى ذلك واتبعه أصحابه وأنتم منهم فهدوا إلى الحكمة والعلم والنظر العام . أيها المسلمون كأنى أرى بعين رأسى أقواما منكم نبغوا فى العلوم كلها وفاقوا الأمم . تلك الأمم التى لاتريد إلا أنفسها ولا تحافظ إلا على كيانها . أما أنتم فإنكم الأعلون وأنتم تنظرون إلى العـ. نظام السموات والأرض ونظام الأمم .

كونوا على قدم نبيكم صلى الله عليه وسلم ولاينبغى لكم ذلك إلا بالفكرة التى ذكرها فى التوكل عليه فوجه وجهه شطر العرش العظيم وفصل ذلك فى يونس بأنه « يدبر الأمر » .

إن أفضل صفة الانسان أن يتشبه بالله بقدر طاقته البشرية والله يدبر الأمر فليدبر المسلمون الأمور فى الأرض تابعين فى ذلك ربهم بعد درس نظامه ونظام الأمم وليكونوا خير أمة أخرجت للناس . ومستحيل أن يتم ذلك لنا نحن فى المستقبل إلا بالعلم والعمل الذى شرحناه فى هذا التفسير . المسلمون يتخللون القارات كلها فاذا صلحوا أصلحوا كل الأمم . والاصلاح العام هو تآخى جميع الإنسانية الذى ورد فى الأحاديث أنه الاصلاح العام المظنون عنه بنزول عيسى عليه السلام ولقد شرحته فى هذا التفسير مرارا وقلت فى غير موضع إنه لن يتم ذلك إلا بأخذ العدة له وتعميم التعليم فى بلاد الاسلام الخ .

لم يكن الله ليجعل الإصلاح طفرة فذلك مالانراه فلم يخلق الطفل فى لحظة بل أبقاه فى بطن أمه تسعة أشهر ولم يجعله شيخاً إلا بعد مروره على أحوال شتى ، اللهم إن الاصلاح العام وتدبير الأمر فى الأرض ونظام العرش الانسانى المناسب لعرشك العظيم الموزون المنتظم لم يحصل فيما مضى ومستحيل أن يحصل فى المستقبل إلا بعد إعداد الأسباب واتخاذ الوسائل وتمهيد الطرق وتسهيل السبل له بارتقاء الأفراد والأمم سنين وسنين ، هنالك يصح القول أن الناس يستأهلون أن يقبلوا تعاليم المهدى أو المسيح ، أما أن فردا سينزل إلى الأرض بضع سنين فيغير الأخلاق ويصلح الاحوال إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين فهذا لم نعرفه فى عمل الله عز وجل .

إن ولادة الجنين إنما تكون فى حينه بعد استعداده للخروج ، فالله مدبر الأمر كما فى هذه الآية مستو على العرش والتدبير يتطلب النظام والترتيب ، إذن لن يكون المسلمون قائمين بمعنى هذه الآية إلا بنشر العلوم ومعرفة نظام هذه الدنيا والسعى فى التعاون العام . هذا هو الذى يؤخذ من هذه الآية وبعض ضعفة العقول فى بلاد الاسلام يتكلون على المسيح اذا نزل بل هم يظنون أنهم ينامون على فراش الراحة الوثير ويقضون

أوطارهم

أوطارهم وهم آمنون بلا مقدمات ولا أسباب ، وهـذا معناه الكسل والنوم ، وهـذا ضد النبوة والدعوة المحمدية على خط مستقيم فنحن نتوكل على الله رب العرش العظيم الذى يدبر الأمر ، فهكذا نحن يجب أن نتشبه بمن نتوكل عليه فى تدبير الأمر ، لا أننا نميت قوانا ونتكل على من سيرسله الله الينا فيسعدنا ونحن نائمون ، كلا ثم كلا .

العقائد لمقاصد

إن العقائد انما أنزلت لحثنا على الفضائل لا لاقتراف الرذائل ، عقيدة المسيح وإن كانت أشبه بالظنيات لأنها من الأحاديث الصحيحة قد جاءت لتعد العدة ولنكون المثل الأعلى فى هـذه الأرض ونقود الأمم قيادة المحبة والسلام والوئام كما تقدم مرارا فى هذا التفسير بإيضاح حين تضع الحرب أوزارها . هـكذا عقيدة الإيمان بالملائكة لنعلم أن هناك حالا أخرى بعد الموت أشبه بحال الملائكة للأبرار وبحال الشياطين للفجار .

فعقيدة الملائكة لإصلاح الأخلاق ، وعقيدة المسيح لإصلاح الأمم بالعمل لا بالأمل ، هـذا ما وقر فى نفسى الآن بمناسبة توكل النبى صلى الله عليه وسلم على الله ذى العرش العظيم الذى يدبر الأمر ، وأن همة المتوكل تتجه إلى صفة من صفات المتوكل عليه ، وقد حصل ذلك فى هذه النبوة فكان لهذه الأمة عروش ملك فى الأرض ولكن العرش العظيم لهذه الأمة هو النظام العام فيها بنظام الحب كما فى نظام السموات والأرض القائم بالجاذبية والحب العام ، والحمد لله رب العالمين اهـ .

## ( القِسْمُ الثَّانِي )

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ

فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

## التفسير اللفظي

قال تعالى ( ولو يعجل الله للناس الشر ) إذا طلبوه مستعجلين بأن يدعو الرجل عند الضجر والغضب على أهله وولده ويتعجل البلاء والنقمة فيقول لعنكم الله ولا بارك الله فيكم ، يقول الله لو أن الله أجابهم إذا دعوه بالشر الذى يستعجلونه به (استعجالهم بالخير) أى تعجيله لهم الخير : أى لو عجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ( لقضى إليهم أجلهم ) أى لأميتوا وأهلكوا جميعا . ولكنا لا نعجل ولا نقضى وإنما نمهلهم إمهالا ( فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم ) معاصيهم وشركهم وضلالهم ( يعمهون ) يترددون ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاما للحجة عليهم ( وإذا مس الإنسان ) أصابه ( الضر دعانا ) لإزالته مخلصا فيه ( لجنبه ) ملقى لجنبه : أى مضطجعا ( أو قاعدا أو قائما ) أى فى جميع أحواله ( فلما كشفنا عنه ضره مر ) مضى على طريقته واستمر على جهالته وكفره ومعاصيه ونسى موقف الدعاء والتضرع ( كأن لم يدعنا ) أى كأنه لم يدعنا واسم أن المخففة ضمير الشأن ( إلى ضر مسه ) إلى كشف ضر ( كذلك ) مثل ذلك التزيين لهذا الإنسان الذى نسى موقف الدعاء (زين للمسرفين ما كانوا يعملون) من الانهماك فى الشهوات والإعراض عن العبادات ( ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ) يا أهل مكة ويا جميع الناس ( لما ظلموا ) حين ظلموا بالتكذيب وصرف مواهبهم فيما لا ينبغى (و) الحال أنهم قد ( جاءتهم رسلهم ب) الحجج (البينات) الدالات على صدقهم ( وما كانوا ليؤمنوا ) أى وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم ( كذلك ) مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم ( نجزى القوم المجرمين ) نجزيكم فوضع المظهر موضع المضمر دلالة على أنهم مجرمون (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر ( لننظر كيف تعملون ) أى أخيرا تعملون أم شرا ؟ فنعاملكم على مقتضى عملكم ( وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ) أى المشركون لما غاظهم ما فى القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد (ائت بقرآن غير هذا ) ليس فيه ما يغيظ مما ذكر ( أو بدله ) فتسقط ذكر

الآلهة ودمها وتجعل مكان آية العذاب آية رحمة فأجاب (قل مايكون لى) ما يحلّ لى (أن أبدّله من تلقاء نفسى) من قبل نفسى (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى لا أتبع إلا وحى الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل (إنى أخاف إن عصيت ربى) بالتبديل من عند نفسى (عذاب يوم عظيم) أى يوم القيامة (قل لو شاء الله) غير ذلك (ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) ولا أعلمكم بالقرآن على لسانى (فقد لبثت فيكم عمرا) مقدار عمر أربعين سنة (من قبله) من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه (أفلا تعقلون) أن من عاش أربعين سنة لم يمارس فيها علما ولم يدخل مدرسة ولم يشاهد عالما ثم جاء بأخبار الماضين والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق وهذه العجائب المتكرّرة لايمكن أن يكون أمرا عاديا ، بل هو من طور آخر وهو الوحى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) سواء أكان بإسناد قول إلى الله تعالى لم يقله بادّعاء النبوّة ، أم بادّعاء أن لله شريكا أو ولدا (أو كذب بآياته) فكفر بها (إنه لا يفلح المجرمون . ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) إن تركوا عبادته كالأصنام (ولا ينفعهم) إن عبدوها (ويقولون هؤلاء) الأصنام (شفعاؤنا عند الله) فى أمور المعاش لأنهم ما كانوا يقرّون بالبعث لقوله تعالى «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت» وبعض العرب كان يقرّ بالبعث (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو لا يعلمهم (فى السموات ولا فى الأرض) وإذا لم يكن عالما بهم وهو يعلم كل شئ فذلك دليل على عدم وجودهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه نفسه أن يكون له شريك ، ولما كانت هذه الأحوال مما يدعو إلى التعجب من هذا النوع الإنسانى ، وكيف يعبدون ما يصنعون ، ويقلدون من لا يعلمون ؟ وكانت النفوس الإنسانية تميل إلى الحقائق أتى بعد هذا بإحدى الحقائق الطبيعية الحكمية الإلهية فأفاد أن نوع الإنسان يولد على الفطرة والحال الطبيعية فهم فيها متفقون لا مختلفون ، ومتحدون لا متفرّقون ، ولكن الحكمة فى هذا الوجود تقضى الاختلاف والافتراق ليجتمع بعد التفرق المختلفون وليتعارف بعد التجاهل المتفرّقون فخالف بين لغاتهم وأوطانهم وأزيائهم وعاداتهم وبيئاتهم وأحوالهم وألوانهم وممالكهم كما اختلف الزهر فى الأشجار وطعوم الأثمار ، فإن هذا العالم على الاختلاف مخلوق وعلى الافتراق مجبول فإن لم يكن الاختلاف كان العالم هباء منثورا ، فإذا كان الاختلاف مبدأه ومنتهاه فكيف يتفقون فى الدين ، وإذا لم يتفقوا فى حال من الأحوال التى لا تكاد تحصى فهم فى الدين مختلفون وفى الحقائق متفرقون وإن كانت فطرهم واحدة وإنسانيتهم فى الأصل غير مفترقة ألا ترى أن تعريف الإنسان بالحيوانية والناطقية ، فهذا هو الأصل السارى فى كل إنسان ، وبعد هذا افترق فى سائر الصفات والأحوال ومنها الدين ، وهذا قوله تعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة) بحسب فطرهم ومقتضى إنسانيتهم (فاختلفوا) فصاروا فى الدين وفى سائر الأحوال مختلفين (ولولا كلمة سبقت من ربك) أن الاختلاف سنة طبيعية وحكمة إلهية وغايتها الكمال واتحاد النفوس فى كثير من الأطوار وتآلفهم بما زاولوا من الأعمال على درجات مختلفة وأحوال متباينة فيكون الناس بعد أعمالهم طول الحياة قد صاروا فى حال أكمل ، وكل جماعة منهم تتحد فى عمل أو خلق فيكون هذا الاختلاف جميلا فى مقاصده نبيلا فى نهايته ، لأنه يثمر عقولا مختلفات الجمال كما اختلفت الأشجار فى الأزهار والأثمار فصارت بساتين بنفس الاختلاف ، هكذا تكون النفوس بعد الموت بفنونها فى الأخلاق والأعمال كالرياض الزاهرات والحقول الباهرات ، فلولا اختلاف الثمر ما جمل البستان ، ولولا تنوّع الزهر والشجر ما استحسنها الإنسان ، فعقول الناس بساتين العالم الأعلى كما أن الأشجار والأثمار بساتيننا ، وكل ذلك إنما نشأ من الاختلاف .

يقول الله «ولولا كلمة سبقت من ربك» بهذا الجمال (لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) ليمتاز الحقّ من الباطل ، ومن الجمال أن يكون فى العالم الروحى أرواح شريرة كما نرى فى الأرض الحنظل وشوك القتاد

وضروبا من الأشجار المرّة ، ونظير هؤلاء فى نوع الإنسان الفجار والكفار ليكون ذلك دليلا على الجمال فإن الشىء لا يعرف إلا بضده. وبضدها تتميز الأشياء. فبقاء الكافر والمؤمن والصالح والطالح إلى أجل معدود لتكمل آجالهم فتظهر أحوالهم ظهورا أجلى ويكون الحنظل مع اللوز والأثل مع النخل وهذا هو النظام الجميل وهذا القول ظاهر فى علم الفلسفة الحاضرة والعلم الموروث فإن العالم كله من أصل واحد هى الهيولى التى لا تعرف إلا بالعقل ، وعند بعض الحكماء المحدثين أن العالم يرجع إلى الجواهر الفردة وهى متماثلة ، وعند المحققين إلى حركات ، فأما الإنسان فإن الأرواح قبل حلولها فى الأجسام فى أول نشأتها تكون متماثلة لا تمايز بينها وهكذا أجسام الأجنة فى بطون أمهاتها تكون فى أول أمرها متشابهة مع حيوانات أخرى ثم ترتقى شيئا فشيئا حتى تخالف سائر الحيوان باستكمال الخلق ، وعند الولادة يكون الاختلاف بين المولودين من الإنسان فى أمور محدودة فإذا كبروا وتربوا كان هناك خلاف عظيم ولذلك خلقهم الله كما قال فى آية أخرى « ولذلك خلقهم » وهذا هو الحق والعلم الصحيح وما عداه فأقوال متفرقة وآراء غير محققة اختلط فيها الحق بالباطل والذهب النقى بالزبرج والزيف بالجيد ، والله هو العليم الحكيم

ثم أتى بمسألة أخرى كانت سبب الاختلاف فى النبوّة وهو اقتراح آيات خاصة فقال ( ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله ) وهو وحده العالم أن هذه الآيات المقترحة فيها مفاسد لا نفع فيها (فانتظروا) نزول ما اقترحتموه ( إنى معكم من المنتظرين ) لما يفعل بكم بجحودكم ما نزل من الآيات (وإذا أذقنا الناس رحمة) خصبا وسعة وصحة (من بعد ضرّاء مستهم) أى من بعد شدة وبلاء كأهل مكة إذ حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم رحمهم الله فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد فلم يتعظ الناس بذلك بل رجعوا إلى الفساد كما مرّ فى قوله « وإذا مسّ الإنسان ضر دعانا لجنبه » إلى قوله « مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه » ولذلك جاء جواب « وإذا أذقنا » موافقا لذلك الجواب مع إيضاح وتنويع فقال (إذا) هى المفاجأة واقعة فى جواب إذا الأولى كما تقع الفاء : أى ففى الحال (لهم مكر فى آياتنا) بالطعن فيها والاحتيال فى دفعها ( قل الله أسرع مكرا ) منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، وقد تقدم عقابهم فى سورة الأنفال والتوبة وآل عمران ، والمكر : إخفاء الكيد وهو من الله الاستدراج والجزاء على المكر ( إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ) الرسل هنا الحفظة فليس يخفى على الله خافية ، ولما كان هذا القول وما مرّ قبله وهو « وإذا مس الإنسان ضر الخ » دالين على سرعة تقلب الإنسان وعدم وفائه واتماطه وكان هذا المقام يحتاج إلى إيضاح أردفهما بثالث دلالة على أنه أمر يجب النظر فيه ، فإن عدم الثبات وسرعة التقلب وجحود النعم يورث العذاب الأليم ، ولذلك قال ( هو الذى يسيركم فى البر ) بأرجلكم وبالدواب والقطرات الجاريات والعربات والسيارات الجاريات بالكهرباء وغيرها وفى الهواء بالمراكب الهوائية والطاود جمع منطاد (والبحر) بالسفن العائمة والناطحة ( حتى إذا كنتم فى الفلك ) السفن ( وجرين ) أى السفن (بريح طيبة) لينة الهبوب ( وفرحوا بها ) أى بتلك الريح للينها واستقامتها (جاءتها) أى الفلك وهنا اعتبرت جمعا كأسد وهى مفردة كقفل ( ريح عاصف ) ذات عصف : أى شديدة الهبوب ( وجاءهم الموج من كل مكان ) يجيئهم الموج منه ( وظنوا أنهم أحيط بهم ) أى أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص ( دعوا الله مخلصين له الدين ) من غير إشراك لأنهم رجعوا إلى فطرتهم لزوال العوارض المانعة من ذلك قائلين ( لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ) نعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ( فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض ) يفسدون فيها ( بغير الحق ) مبطلين فيه ( يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ) فإن وباله عليكم ، وأيضا هو على أمثالكم وبنى جنسكم وجميع الناس متضامنون والبغى على من تعمه عائد عليك ضارّ بك ، تتمتعون (متاع الحياة الدنيا)

على

على النصب ، أو ذلك متاع الحياة الدنيا على الرفع ( ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ) بالجزاء عليه ، انتهى التفسير اللفظي .

اعلم أن هذا القسم متصل بما قبله وصلته بقوله تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء » إلى قوله فى آخر القسم « وتحيتهم فيها سلام * وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

لقد تبين لك هناك أن السلام على ثلاثة أنواع :

سلام الناس بعضهم على بعض يوم القيامة ، وسلام الملائكة ، وسلام الله تعالى ، ولابدّ من شرح هذا الموضوع شرحا وافيا حتى يعرف اتصال هذا القسم بما قبله وإذن يظهر لك سر مكنون وجوهر بديع وعجب عجاب .

وهنا أصلان [ الأصل الأول ] أن هذا المقام عبارة عن مبحث فى السعادة والسلام والأمن ، فكل من كان من الناس أهدأ بالا ورضى فهو إلى السعادة أقرب ، وكل من كان جزع النفس مضطرب القلب حزينا متألما أو طامعا أو ما أشبه ذلك فهو إلى الشقاوة أقرب على مقتضى ما اتصف به قلة وكثرة ، وإذا كنت أيها الذكى ممن تابعوا هذا التفسير فقد عرفت ذلك [ الأصل الثانى ] أنه لايتفق الأمن والسلام والراحة ، لجميع الناس فى الدنيا دائما فى ألم ومطالب تزعج لبّ اللبيب وتوغر صدر الحليم ، فالخير والشرّ مقرونان فى قرن ، وعليه تكون السعادة محالة فى هذا الوجود ، فبانضمام الأصل الثانى للأول يتناقضان ولا يجتمعان وهذا الرأى وهو عدم السعادة فى الدنيا قال به كثير من العقلاء ، وهناك سعادات اكتسابية يكتسبها الناس تقرّبهم إليها وهى :

(١) أنا نجد المسلم فى الصلاة يسلم ٢٦ فى الصلوات الخمس المفروضة ، فإذا انضمت إليها النوافل بلغ القدر ضعفا أو أضعافا .

(٢) ولا معنى لهذا السلام إلا تذكرة المسلم بالأمن وراحة الضمير وبعد المكروه وجميع المصائب فهو يسلم على الأنبياء والصالحين وعلى نفسه بهذا المعنى ، فالمسلم مأمور بطريق دينه أن يعتقد أنه فى أمان من كل مكروه ، وأين هذا ؟ ذلك بثلاث طرق :

الطريق ١و٢ طريق الإيمان ، فكلما أصابته مصيبة يقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » وليس يكون ذلك باللسان وحده فيرى أنه يحمد الله رب العالمين ؛ أى ربام باللين والشدة للعبر عنهما بالرحمة وملك يوم الجزاء ، ويقول تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » فمتى أحضر المرء فى نفسه أن المكروه من الله وأن الله لايفعل إلا خيرا واطمأن لذلك كما فى قوله تعالى «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» وقوله «هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » فإن عنده نوع سعادة ، فههنا أمران :

[ الأمر الأول ] إسناد الأمر لله وهذا عند المستعد له يعطى بعض الراحة للقلب ولهذه الإشارة بقوله «إنّ ذلك فى كتاب إنّ ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فمتى أيقن العبد أن كل شئ معلوم عند الله ارتاح قلبه جدا ووصل إلى السلامة على شرط الإيقان فتكون الحوادث مثل الليل والنهار .

[ الأمر الثانى ] أن يرى كل مكروه ظاهرا هو محبوب باطنا ، ويرى كل شر أشبه بالحجامة أو شرب الدواء الكريه فيكون متألما منه ولكنه راض وهذا نوع من السعادة وله الإشارة بقوله « هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » حيث جعل القتل حسنى وأى مصيبة أعظم من الموت حتى إن الصحابة كانوا يسرعون إلى الحرب لذلك . الطريق الثالث طريق الصبر وقوة العزيمة وهى التى شرحتها لك سابقا فى لغز قابس

في سورة البقرة ، وكذلك طريق كتاب [ الكوخ الهندي ] الذي أعطيتك صورة منه سابقا تلخص مقصوده ، وإليه الإشارة بقوله تعالى «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» وقوله «وبشر الصابرين» وما أشبه ذلك .

فهذه الأمور الثلاثة تعطي الإنسان سعادة نسبية مادام في هذه الحياة : ومستحيل أن يصل الإنسان إلى تمام السعادة في هذه الحياة إلا قوم مذهولون ذهولا دينيا أو دنيويا بأن فارقوا إحساسهم فكيف يحزنون؟ فالسلام في الصلاة وتكراره في الركعات يوقظ نفس المسلم إلى أحد هذه المراتب عسى أن يصل إلى درجة الراضين وإن كانوا في مكروه وهذه نوع من السعادة والسلام في هذه الحياة ، هذا هو السر في تكرار السلام في الصلاة ، فإذا مات المسلم أحس بالسلامة من الآفات وبالأمن إذا كان صالحا ، ويحس إخوانه بذلك فيحيونه به ، وليس ذلك تحية لفظية كما في الدنيا ، بل المعاني هناك متجلية كما تجلت الألفاظ في هذا العالم ، فإذا ارتقوا عن هذه الدرجة حيتهم الملائكة ثم حياهم الله ، ففي الآية «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب» وفي آية أخرى « تحيتهم يوم يلقونه سلام » فمتى حصل لقاء الله كان هناك السلام ، والمقاء هنا على فمن كان أكثر علما بالله كان أقرب للسلامة والأمن ، فقد يموت المرء ، ولا يلقى إلا العذاب ويحجب عن ربه فأين السلامة ؟ ولن يلاقي ربه إلا بريئا من الذنوب كامل النفس ، هنالك تفاض عليه العلوم ويدرك سر الخليقة وإذن لايكون هناك غم ولا هم لأنه وصل إلى منتهى السعادة .

فعلى الإنسان أن يجد في الأخلاق والعلم ومنفعة الناس حتى ينال السعادة الروحية ويزيد من ربه قربا ولن ينال السعادة في الآخرة وهو لم يحصل أوائلها في الدنيا بالاكتساب وتطمئن نفسه في الدنيا بعض الاطمئنان وهذا يكمل له بعد الموت ، أما الذي مات مضطرب الفكر لاثبات عنده إما لجهالته وإما لذنوبه فذلك لايسعد في الآخرة لأنه لا سعادة في الآخرة إلا إذا كانت أوائلها في الدنيا ، فقوله « تحيتهم فيها سلام * وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » مردد لصوت السلام في الدنيا وفي المقابلات بين الناس وللمحامد التي يحمدها الله وللمعاني العلمية التي أدركها الإنسان في نظام هذا الوجود ، فمبدأ السلام والسعادة في الألفاظ في الصلاة ، وأوسطها في اكتساب ذلك بالإيمان وتهذيب النفس ، ونهايتها حصول السعادة والسلام فعلا وهو المعبر عنه بسلام الملائكة ثم سلام الله تعالى ( تحيتهم يوم يلقونه سلام ) هذا هو القسم المتقدم ، ثم أتبعه بما هو في معناه كالتتمم له فقال : إن الناس يبعدون عن السعادة والسلامة بعدا شاسعا جدا لتفريطهم في المقصود من معنى السلام في صلواتهم وجهلهم القصد من تكرار السلام ، ذلك أنهم إذا أصابتهم مصيبة وهم لم ينالوا درجة من درجات السعادة المتقدمة سئمت أنفسهم وكرهوا الحياة ولعن الرجل أهله ومن حوله وتمنى الموت ، ولو أننا سارعنا إلى إجابة الشر كما نسرع إلى الخير لهلك الناس ، فهذا دليل أن هذا الإنسان خلق هلوعا يعني « إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا » وكان يجب أن يكتسب صفة الثبات بأحد الأمور الثلاثة المتقدمة ، وإنما عبر بقوله « لايرجون لقاءنا » إشعارا بأن هذه الآية من توابع ما قبلها ولقاء الله إنما يكون للروح المهذبة الكاملة علما وأخلاقا وغيرها منحط عنها فلا يلقاه فلا يرجو لقاءه .

ثم أتبعه بمجمل أخرى فذكر أن الإنسان لاصبر عنده وإذا مسه الضر دعا الله هلعا ، فإذا زال الضر نسي ، وإنه إذا ذاق النعمة بعد الشقاء والغنى بعد الفقر ساقه البطر إلى تكذيب الآيات واتباع سبل الضلالات .

وزاد ذلك بما يعتريه في البحر إذا اضطربت الرياح واختلفت الأمواج كيف يدعو خالقه ؟ فإذا نجاه نسيه ، فهذه الآيات قررت أن الإنسان سريع الانفعال يتمنى الموت إذا أصابه الشر المعد لتكميله لجهالته

ويهلع ويطلب النجاة ، فإذا نالها غفل وهذه الغفلات علامة الشقاء والبعد عن السلامة * وبضدها تتميز الأشياء *
انتهى تفسير القسم الثاني .

لطيفة

إن ابتهال الإنسان لله إذا أصابه الضر أو أحاطت به الأمواج أو وقع فى كرب عظيم دليل على أن للعالم خالقا ، ألا ترى أن الطفل يلجأ لأمه والفصيل والعجل وأمثالهما كلها ملتجئات إلى أمهاتها ، هكذا حبات البزر فى ظلمات الطين ملتجئات فى تغذيتها إلى الأرض والماء ، فإذا ماشب الطفل وقوى الحيوان واشتد النبات اعتمد كلٌّ على نفسه بتناول الغذاء من البخار والهواء فهى مستقلات إذا قويت مبتهلات إذا ضعفت ، هكذا الإنسان القوى إذا أصابه الضرّ وأحاطت به الأنواء كر راجعا إلى ما فى داخل قلبه من نور مخبوء وهو الوجدان الذى يرى أن له مرجعا خارجا عن المادّة فيناديه قائلا [يارب] فإذا نجاه رجع إلى قوته ونسى ربه كما تغذى النبات بالهواء وحرارة الشمس لما قوى واكتفى الحيوان بالنبات مثلا فهذا برهان وجدانى إقناعى على وجود الله .

## ( القِسْمُ الثَّالِثُ )

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

### ﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى ( إنما مثل الحياة الدنيا ) حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ( كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ( مما يأكل الناس والأنعام ) وهى الزروع والبقول والحشائش ( حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ) زينتها بالنبات

واختلاف ألوانه ( وازّينت ) وتزينت بأنواع الزين وقد أدغمت التاء فى الزاى . وقرئ « تزينت » على الأصل . فقد مثلت الأرض بالعروس وقد أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فا كتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين ( وظنّ أهلها ) أهل الأرض ( أنهم قادرون عليها ) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ( أتاها أمرنا ) عـذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ( ليلا أونهارا فجعلناها ) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع فى قطعه واستئصاله ( كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها . أى لم يلبث : أى كأنّ الأشجار القائمة والنباتات الطيبة والزروع البهجة لم تـكن غنيت من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وقوله ( بالأمس ) هو مثلٌ فى الوقت القريب والممثل به مضمون هذا القول وهو زوال خضرة النبات فجأة فيصير حطاما بعد ما كان غضا والتف وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ( كذلك ) كما بينا لـكم مثل الحياة الدنيا كذلك نبين حججنا ودلائلنا لمن تفكر لزوال الشبهات ويكون اليقين .

هذا القول متصل بما قبله من تقلب الأحوال على الإنسان تارة يطلب الموت والهلاك ويلعن الزوج والأبناء لشوكة يشاكها أو زلة قدم يزلها وأخرى يدعو بالنجاة من الضرّ قاعدا أو قائما فاذا نجاه الله نسى الدعاء والدعو وهكذا شأنه عند كل نعمة أزالت الضرّ فانه يكيد كيدا ويصدّ عن سبيل الإيمان وإذا غشيه الموج ودعا بالخلاص وجاءه الفرج لايذكر النعمة ويرجع إلى سابق عهده . ثم أتبعه بهذا المثل إذ جعل حياة الانسان أو حظوظه أشبه بعروس ذات جمال وبهجة ودلال قد ازينت للناظرين فلبست من الثياب ألوانا وأخذت من كل زينة أشكالا فصارت حوراء فى حللها وحلاها .

فلما أعجبهم حسنها وفرحوا بها وظنوا أنهم منها متمكنون أتتها صاعقة أو برد أوريح جعلتها حصيدا كأن لم تـكن قائمة بالأمس . وهـذا مثـل للمتشبث بالدنيا الراغب فى زهرتها وحسنها [ ذلك ] أن الله لما قال « ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » أتبعه بهذا المثل لمن بغى فى الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة . فالمتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل مايكون . فحظوظ الدنيا كبهجة النبات معرضة للزوال فجأة كهلاك النبات بصاعقة . ونفس الحياة كذلك يخترمها الموت فجأة والانسان لايشعر بذلك . فحياة الانسان للموت معرّضة كل حين وشبابه وقوّته وصحته وماله وولده وسروره ولذاته كل ذلك قد ضرب له هذا المثل . فالحياة كتلك العروس والقوّة والبأس والذكر والصيت والجمال . كل ذلك داخل فى المثل إذ يعتريها الذهاب والفناء فى لمح البصر أو هو أقرب . فـكم من جميل أذهب جماله المرض . وغنى أهلك ماله الجوائح . وعاقل ذكى قتل الله كاء والعقل هموم وأشجان فذهب إلى المارستان وذى بنين شهود المحافل قواد الجحافل حصدتهم المنون وهم لايشعرون فأصبح فريدا وحيدا ، وكم من ذى صيت بعيد وذكر جميل أخنى الدهر على ذكراه برية ذكروها وشنعاء تبينوها وذنوب أشاعوها فأصبح الممدوح مذموما ، وكم من معجب بشبابه وصحته وهو مبتهج مغرور جاءه الموت فجأة فأصبح من أهل القبور، هذه المعانى وأمثالها داخلة فى هذا المثل .

واعلم أن هذا المثل وما تقدمه إنما جاء بعد قوله فى آخر القسم الأول « تحيتهم فيها سلام » تبيانا لما عليه الناس فى الدنيا من عدم السلامة ومن الشقاء والذلة وذم الحياة والهلع والجزع وما أشبه ذلك من كل مايوجب الاضطراب كما تقدم فى مثل البحر وأمواجه والنجاة منه الخ ماذكرنا وقررنا ، وهكذا نفس الحياة وحظوظها الخ . فلما أبان ذلك أيما تبيان وأظهر كيف تـكون عدم السلامة فى هذه الدار وكيف يكون الاضطراب والزوال أتبعه بما هو المقصود فقال ( والله يدعو إلى دار السلام ) ومعلوم أن النكرة إذا أعيدت

معرفة كانت عين الأول فهو سبحانه يقول : ها أنتم هؤلاء عرفتم حياتكم وتعبها وتقلب قلوبكم وحظوظكم واخترام آجالكم فى هذه الدار التى لاسلام فيها بحسب طبيعتها ، فها أنا ذا أدعوكم إلى دار الأمان والاطمئنان والسلامة المذكورة فى قولى « وتحيتهم فيها سلام » فها أنا ذا أدعوكم إلى دار السلامة من الآفات بعد ماتبين لكم المهالك والمشاق ، ثم قال ( ويهدى من يشاء ) بالتوفيق ( إلى صراط مستقيم ) لأن الناس مختلفون استعدادا ، ولما قال هناك « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » بعد قوله « تحيتهم فيها سلام » أتى بنظيره هنا بعد دعوته الناس إلى دار السلام ، فقال ( للذين أحسنوا الحسنى ) أى الجنة ( وزيادة ) هى النظر إلى وجه الله الكريم .

والنظر لوجه الله الكريم هنا معناه ازدياد العلم بآياته وجماله وحكمه وعجائبه وبدائعه ، وكلما ازداد علما ازداد بهجة ، فهذا النظر بهجة الحكماء والأنبياء ، وهو يقابل « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » هناك ، فقد تبين هنا كيف تكون دار البلاء ، ثم كيف تكون دار السلام ، ثم كيف يكون ازدياد العلم بالله المعبر عنه بالنظر ، وأنت أيها الذكى تعرف من نفسك الآن أمن أهل الجنة أنت أم من أهل النظر لوجه الله ؟ فإن كنت صالحا ولكن لاشغف لك ولا لذة فى العلم بهذا العالم فأنت تكون فى الجنة وهى دار السلامة ، فأما إذا كنت فى جمال العلوم راغبا ورأيت فى نفسك لذة وغراما بها فاعلم أنك ستنظر وجه الله حتما بعد الاستعداد التام .

روى صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) » أخرجه مسلم .

فالعامة يتصورون شكلا ينظرونه كما ينظرون للملوك ؛ فأما الخاصة فان النظر لوجه الله يبتدئ لهم فى الدنيا بعشق مصنوعاته وقراءة العلوم قديمها وحديثها فينفع أحدهم الناس بالعلم كما ينفعهم الله بالخلق ثم أحدهم يعرج فى معارج الكمال متشبها بمحبوبه سائرا فى طريقه ، محبا لخلقه ، ناظرا إلى جماله الذى تبدى فى أصناف الشجر والنجم والقمر حتى إذا فاجأته المنون أصبح عند من كان محبوبه ، وصار الغائب مشهودا ، والمحبوب موجودا وأدرك إذ ذاك أنه كان معه ولكنه هو عنه محجوب ، وإذا سمعت سيدنا عليا كرم الله وجهه يفسر الزيادة بلؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، فما ذلك إلا عين ما ذكرناه ، وما اللؤلؤة إلا هذا العالم المخلوق يظهر العالم مجلوًّا جميلا بهيا كاللؤلؤة وهو مبدأ النظر لوجه الله الكريم ، فان العالم الذى نحن فيه جميل كاللؤلؤة ، ومستحيل أن يعرف الإنسان جماله إلا بالعلم ، ومتى عرف الجمال عرف من هو الجميل وهذا هو النظر عينه ؛ فسيدنا على يرمى إلى هذا المقام لأنه يعز على الأفهام فعرفه بمثال ، لأن الحقيقة تخفى على العوام وكثير من الخواص ، وقوله ( ولا يرهق وجوههم ) لايغشاها ( قتر ) غبرة فيها سواد ( ولا ذلة ) هوان : أى لايغشاهم حزن وسوء حال ( والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ) عطف على قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ( مالهم من الله من عاصم ) مامن أحد يعصمهم من سخط الله ( كأنما أغشيت وجوههم ) غطيت (قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها ، وقوله ( ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ) أى الزموا مكانكم حتى تنظروا مايفعل بكم ( فزيلنا بينهم ) أى فرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ماكان بينهم من التواصل فى الدنيا ( وقال شركاؤهم ) أى الأصنام وكل معبود لهم ( ماكنتم إيانا تعبدون ) تبرأ المعبودون من العابدين ، فما كانت العبادة فى الحقيقة إلا لأهوائهم ولمن زين لهم تلك العبادة ( فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ) أى كفى الله شهيدا وهو تمييز ( إن كنا عن عبادتكم لغافلين ) إن مخففة من الثقيلة

واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) فى ذلك المكان (تبلو كل نفس) تختبر وتذوق (ما أسلفت) من العمل فتعرف أقبيح هو أم حسن؟ (وردّوا إلى الله) إلى جزائه (مولاهم الحق) ربهم ومتولى أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مولى (وضلّ عنهم) ضاع عنهم (ما كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كان يدعون أنها آلهة اهـ.

لطيفة فى النظر لوجه الله تعالى

لقد اطلع على هذا المقال أحد العلماء ممن لهم قدم فى العلم راسخة، فقال لئن سرّنى فى هذه المقالة حال لقد ساءنى حال، فقلت وكيف ذلك؟ قال كيف تجعل النظر لوجه الله الكريم عبارة عن العلم وأىّ شىء العلم؟ إن الإنسان إذا رأى وجها جميلا التذ به وفرح؟ فأما العلم فهو معروف ولا شىء فيه من ذلك، فقلت له إن هذا المقام ليس يعرف إلا بعد البيان، حقا إن الإنسان إذا نظر وجه الجميل سرّه القدّ والشكل واللون والأنف والفم والعين والخدّ وحسن الهيئة وجمال الزينة، والعطف بكسر الأول، والهيف والحور والشنب وسائر مايقوله الشعراء فى أشعارهم ويبدو فى أقوالهم، ولكن العلم شىء والشعر شىء، فإن حاسة النظر إحدى الشبكات الظاهرة الخمس التى يصطاد بها العقل المعلومات والحب على مقدار العلم، فإذا نظرنا إلى الجميل وسمعنا نغمته وفصاحته وشممنا طيب ريحه وذقنا مايذاق منه ولمسنا جلده، هنالك يضم إلى النظر هذه المذكورات فتتضاعف اللذة وتزداد الحبّ، فكيف بنا إذا تغلغلنا فى باطنه وعرفنا مواهبه الباطنة من عفة وحلم وكرم وأدب وحسن خلق ومعارف وعلوم، هنالك يحصل لذلك العالم به من اللذة به مالا يوصف ومن الحب ماهو أعظم؛ وإذن قد تبين لك أن النظر الذى أعظم قدره الناس ماهو إلا وسيلة من وسائل العلم وليس خارجا عنها وأن اللذة بنظر العين جزئية، فإذا كان المخلوق المشاهد المحسوس لايستلذ به إلا باستكمال العلم به ظاهرا بالحواس الظاهرة وباطنا بإدراك العلم، فما بالك بمن لاتدركه عيوننا ولا تصل إليه مشاعرنا، فنحن إذن نلتجئ إلى العلم الذى عرفت أن النظر من جزوده وندع الفرع ونتمسك بالأصل ونقول المقصود هو الأشرف وهو العلم.

ولا ريب أن العلم مبدؤه فى الدنيا ومن لم يبتدئ ذلك فى الدنيا فليس له حظ من هذا العلم فى الدنيا، وذلك هو النور المذكور يسعى بين يديه بعد الموت، ومن لا نور له هنا لانور له هناك.

اللطيفة الثانية

التقصير فى علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من الغلبة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم

قد تبين أن النظر لوجه الله الكريم مبدؤه العلم فى الدنيا، ومن لم يعلم لم ينظر، والعلم يرجع إلى النظر فى جمال هذه المخلوقات وعجائب النفس وبدائع الصنع وتركيب الأجسام ونظام الوجود.

والناس فى الدنيا إذا قرءوا هذه العلوم على ثلاثة أقسام: قسم يقرؤها لمعاشه كالعلوم الرياضية لنظام الدواوين ونظام الجند وما أشبه ذلك، وقسم يقرؤها ليتحلى به فى المجالس ويتفاخر به على الأقران، وقسم يقرؤها كما يقرؤها القسمان المتقدمان ولكنه يتحرى النظام والجمال ويعجبه بهجة التشريع ونظام النبات وحساب الطبيعة وبهجة النجوم وعجائب حركاتها وبدائع أشكالها ويتغلغل فى ذلك، وهذا لاشك يبهجه إلى الفرح بمن هو السبب الأول فيه وهذا مبدأ النظر، وكلما ازداد علما زاد حبا للصانع، ولا نهاية لهذا العلم كما لانهاية للحب ولا للذة، هذا هو الحق الصراح الذى لامحيص عنه.

والأمة إذا حظيت بهذه النعمة سعد أحياؤها بالغلبة والمجد وفرح أمواتها بالنظر لوجه الله الكريم.

فياعجبا كل العجب لأمة الإسلام! تلك الأمة التى جاء القرآن بترغيبها فى الآخرة وخاطبها بما يعرفه

الخلق من الجنات المحسوسة ولم يشأ أن يترك الجنة الحقيقية والسعادة الأبدية التى هى أعلى من المحسوسات حتى يستنتجها الفلاسفة والعقلاء ، كلا بل لوّح لها بقوله « وزيادة » وجاءت السنة فعرّفتنا الزيادة وقالت هى النظر لوجه الله الكريم وأرتنا أن هذا سيكون ألذّ عند أهل الجنة وهنا وصلنا إلى مقام الحكمة والعلم .

فالكتاب والسنة عندنا أريانا أن النظر لوجه الله أعظم اللذات والنظر يقصد منه العلم ، فإذا قيل إنه يبين تخلق لنا خلاف هذه فى الآخرة فهى أيضا علم ، وإذا كانت أعيننا فى الدنيا من شبكات العلم فالأمر هناك ظاهر . فكيف تغفل أمة هـذا دينها عن علوم هى النعمة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

أليس من عجب أن يكون فى هذه الأمة من يكفر قارئ هذه العلوم وما هى إلا سعادة الأحياء وبهجة الأموات ، انتهى تفسير القسم الثالث .

## ( القِسْمُ الرَّابِعُ )

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ • وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ
كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ • إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ •
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ • وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ • وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ • أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ • ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ • وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ
لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ • وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ • هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ • يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ • قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ •
قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ • وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ • وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا
مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ • لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ * وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

التفسير اللفظى

( قل من يرزقكم من السماء والأرض ) بأسباب سماوية كالضوء والمطر ومواد أرضية فيكون منهما النبات والحيوان الخ ( أم من يملك السمع والأبصار ) يستطيع خلقهما وتسويتهما تسوية بديعة تقدم شرحها فى سورة آل عمران ومن يحميهما من الآفات العارضة (ومن يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ) أى من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه مثلا ؟ وشرح ذلك مذكور فى تفسير سورة الأنعام ( ومن يدبر الأمر ) ومن يلى تدبير أمر العالم كله علويه وسفليه ( فسيقولون الله ) فسيجيبونك عن سؤالك أن القادر على هذه هو الله ( فقل أفلا تتقون ) الشرك فى العبودية إذا اعترفتم بالربوبية ( فذلكم ) أى الذى تولى هذه الأمور المستحق للعبادة (ربكم الحقّ ) الثابت ربوبيته، فهو الذى أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم وهو المالك لسمعكم وأبصاركم ( فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ) استفهام إنكارى : أى ليس بعد الحق إلا الضلال ( فأنى تصرفون) عن الحق إلى الضلال : أى فكيف تعدلون ذلك ؟ وكما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال ثبتت كلمة الله وحكمه على الذين تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن جادّة الإصلاح وفسدوا لأنهم لا يؤمنون ، وهذا هو قوله تعالى ( كذلك حقت كلمة ربك ـ إلى قوله ـ أنهم لايؤمنون ) ثم أخذ يقيم الحجة عليهم فوق ماتقدم فأخذ يحاورهم بطريق الاستفهام الإنكارى فى أمرين :

(١) خلق هذه العوالم ابتداء منظمة وإعادتها .

(٢) وإيجاد الأدلة والمعانى والآراء والحجج التى تهدى النفوس إلى مطالبها الحقة، فأجاب عن الأول بأن الله هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لأن لجاجهم لايدعهم يعترفون بها ، وعن الثانى بأن الله هو الذى يهدى للحق لأنه نصب فى هذا العالم دلائل وجعل نواميس تبهر العقول وتنتج علوما كثيرة يستخرج منها الناس أمور معاشهم ومعادهم ، ثم أخذ يتم الكلام فى القسم الثانى لأنه المهم فى مقام الهداية ، فقال هل الذى ينير للسالك ويوضح للمشكلات وينصب الأعلام أولى بالاتباع أم الذى هو كالأعمى العاجز لايهتدى إلا أن يهديه سواه ، فكيف تحكمون أيها الناس بما يقضى صريح العقل بطلانه ؟ وكيف تكون الأصنام القائمة الصماء التى لاعلم لها هادية ؛ فالله الذى ملأ هذا العالم بالنواميس المنيرة السبل أولى بالاتباع . يقال هدى للحق وإلى الحق وكلاهما فى الآية، وقوله (أمن لايهدى إلا أن يهدى) أى من لايهتدى إلا أن يهدى . وقرئ «يهدّى» بفتح الياء والهاء، وتشديد الدال وبكسر الهاء وفتح الياء، وبكسر الياء والهاء وبسكون الهاء وتشديد الدال :

أى يهتدى فى الجميع ، وهذا قوله تعالى « قل هل من شركائكم » إلى قوله ( فما لكم كيف تحكمون ) ثم قال ( وما يتبع أكثرهم ) فيما يعتقدون ( إلا ظنا ) مستندا إلى الخيال ، والمراد بالأكثر الكل ( إن الظن لا يغنى من الحقّ ) من العلم والاعتقاد الحق ( شيئا ) من الإغناء ( إن الله عليم بما يفعلون ) هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن وإعراضهم عن البرهان ( وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ) أى افتراء من الخلق ( ولكن ) كان ( تصديق الذى بين يديه ) مطابقا لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود بصدقها والنبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ولم يأخذ عن أحد ، وقد جاء فى القرآن قصص وأخبار مطابقة لما فى التوراة والإنجيل ، فكيف يكون ذلك وهو لم يتعلم ولو أنه لم يطابق مافى تلك الكتب لشنوا عليه الغارة الشعواء ولأنزلوه فى منزلة هو منها براء ، فهذا معنى قوله «ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ» وتفصيل ماحقق وأثبت فى العقائد والشرائع ( لاريب فيه ) منتفيا عنه الريب كائنا (من رب العالمين) فأخبار كان أربعة : تصديق ، وتفصيل ، ولا ريب فيه ، ومن رب العالمين ( أم يقولون ) بل أيقولون ( افتراه ) محمد صلى الله عليه وسلم ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ( قل فأتوا بسورة مثله ) فى النظم والبلاغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلى فى العربية ، بل أنتم أشد تمرّنا وأقرب تمكنا منها بأساليب النظم والنثر ( وادعوا من استطعتم من دون الله ) أى وادعوا للاستعانة على الإتيان بمثله ما استطعتم من خلقه ( إن كنتم صادقين ) أنه خلقه ( بل كذبوا ) سارعوا إلى التكذيب ( بما لم يحيطوا بعلمه ) بالقرآن أوّل ماسمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه كالقصص التى قصها وأخبار البعث والنشور والجنة والنار التى ذكرها فإنهم ينكرونها لجهلهم بها ( ولما يأتهم تأويله ) ولم تبلغ أذهانهم معانيه ولم يعرفوا بعد تأويل مافيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أصدق أم كذب ( كذلك كذب الذين من قبلهم ) أنبياءهم ( فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ) فسيعاقبون كما عوقبوا إذا أصروا على العناد ( ومنهم ) من المكذبين ( من يؤمن به ) أى سيؤمن به ويتوب عن كفره ( ومنهم من لايؤمن به ) فيما يستقبل بل يموت على الكفر ( وربك أعلم بالمفسدين ) بالمعاندين أو المصرّين ( وإن كذبوك ) ويئست من إجابتهم ( فقل لى عملى ) جزاء أعمالى ( ولكم أعمالكم ) أى جزاء أعمالكم ( أنتم بريئون مما أعمل ) فلا تؤاخذون به ( وأنا برىء مما تعملون ) من أعمالكم فلا أؤاخذكم بها وهذا فى حال الضعف ، فلما حان حين القوّة تغيرت الحال ( ومنهم ) أى من هؤلاء ( من يستمعون إليك ) حين تقرأ القرآن وتعلم الشرائع ولكنهم لايقبلون كأنهم صمّ ( أفأنت تسمع الصم ) أى أتقدر على إسماعهم ( ولو كانوا لايعقلون ) أى ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم بما أسدل على العقول من الأوهام وما أوحت إليه العادة وما انخدعت له من الأضاليل ( ومنهم من ) ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة صدقك وأعلام نبوتك ولكنهم لايصدقون كأنهم عمى لاينظرون بأبصارهم ( أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون ) أى أتحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، فهؤلاء كالصم العمى الذين لاعقول لهم وهؤلاء لايمكن إيمانهم ، وكل ذلك بنظام ثابت وحكمة عالية ، فإن ذهاب البصائر وقلة التفكر والعلم والانهماك فى التقليد إنما جاء كله بالاستعداد ، والاستعداد فى النفوس سائر بنظام الخليقة وهذا النظام هو الصالح للوجود فلا ظلم فيه ، لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ( إن الله لايظلم الناس شيئا ) لأنه لايفعل إلا على مقتضى العلم ، والعلم متعلق بالحقائق الثابتة التى تقتضيها الحكمة ( ولكن الناس أنفسهم يظلمون ) لأن هذه هى حقائقهم التى علمها الله وعلى مقتضاها كان الاستعداد ومن الاستعداد الناقص والتام ، وهؤلاء فى نقصهم كالخشب يصلح للوقود ولا ظلم فى ذلك وغيرهم كالثمر يأكله الإنسان وكلاهما يقتضيه النظام العام .

ثم هناك وراء هذا أبحاث لايجوز ذكرها فى مثل هذا التفسير العام ، وليس ماذكرناه بمثلج الصدور ولا شاف لما فى القلوب ، فان هذا وراءه أسئلة كثيرة توجه على هذا ولـكن لاسبيل إلى الإجابة عليها ، فيجب على طالب الحقائق أن يفتح لنفسه باب العلم والعلم واسع بابه والله يعطى من يشاء .

والتصريح بالحقائق يريك جمال الله بأوسع معانيه وأن رحمته واسعة فاطلب هذا منه هو ولا تفهم العامة لئلا يقدحوا عليك فى دينك وأنت على علم تام .

ثم قال: واذكر يامحمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحشر، ومعنى الحشر إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم أو فى الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وذلك لهول مايرون : أى ويوم نحشرهم حال كونهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة وحال كونهم ( يتعارفون بينهم ) وهى حال مقدرة : أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلا ، وهذا أول مايشرون ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم وحال كون الذين كذبوا بلقاء الله قد خسروا أنفسهم ( وما كانوا مهتدين ) إلى مايصلحهم وينجيهم ( وإما نرينك ) نبصرك ( بعض الذى نعدهم ) من العذاب فى حياتك كما أراه ذلك يوم بدر والغزوات بعده وفتح مكة كما تقدم فى سورة التوبة ( أو نتوفينك ) قبل أن نريك ( فإلينا مرجعهم ) فنريكه فى الآخرة : أى إما نرينك بعض الذى نعدهم فبها ونعمت ، أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، فهذه الجملة جواب « نتوفينك » ( ثم الله شهيد على مايفعلون ) أى مجاز عليه ، فالشهادة أريد نتيجتها وهى المجازاة (ولـكل أمة) من الأمم (رسول) يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ( فإذا جاء رسولهم ) بالبينات فـكذبوه ( قضى بينهم ) بين الرسول ومكذبيه ( بالقسط ) بالعدل ، فأنجينا رسلنا وأهلكنا المـكذبين (وهم لايظلمون) والنجاة والهلاك فى الدنيا وهو معلوم وفى الآخرة بأن يشهد الرسول عليهم بالـكفر والإيمان فيقضى بالعقاب والثواب كما قضى بالهلاك والنصر فى الدنيا (ويقولون) استبعادا لهذا الوعد واستهزاء به ( متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) يا أيها النبى ويا أيها المؤمنون ( قل لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا ) فـكيف أملك لـكم فأستعجل فى جلب العذاب لـكم ( إلا ماشاء الله ) أى ماشاء الله من ذلك كائن ( لـكل أمة أجل ) مضروب لهلاكهم (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) لايتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلوا فيجىء وقتكم وينجز وعدكم ( قل ) يامحمد لأهل مكة ( أرأيتم ) أى أخبرونى ( إن أتاكم عذابه ) الذى تستعجلون به ( بياتا ) ليلا ( أو نهارا ) وأنتم فى طلب معاشكم ( ماذا يستعجل منه المجرمون ) أى أىّ شىء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لايلائم الاستعجال وهذه الجملة الاستفهامية جواب إن ، والجملة الشرطية كلها متعلقة بأرأيتم أى أخبرونى أىّ شىء تستعجلون من العذاب إن نزل بكم وكله مكروه لايلائم الاستعجال (أ) تستعجلون العذاب ( ثم إذا ماوقع ) عليكم ونزل بكم ( آمنتم به ) أى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس كما سيأتى فى هذه السورة من إيمان فرعون وقد أدركه الغرق ، وقيل لـكم ( آلآن ) أى أحين وقع العذاب تؤمنون ( وقد كنتم به تستعجلون ) تـكذيبا واستهزاء كما قيل لفرعون فيما سيأتى « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » فانظر كيف ذكر هذا هنا ليطبق عليه قصة فرعون حتى يعتبروا ويصدقوا أن الإيمان يجب أن يكون وقت القوة والإمكان لاوقت اليأس ، ثم عطف على قيل المقدرة ( ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ) الدوام ( هل تجزون إلا بما كنتم تـكسبون ) من الشرك والتكذيب ( ويستنبئونك ) ويستخبرونك فيقولون إنـكارا واستهزاء ( أحق هو ؟ ) أى ماجئت به من وعد وقرآن ونبوّة تقوله بجدّ أم باطل تهزأ به ( قل إى وربى إنه لحق ) نعم وربى إن العذاب لـكائن وإى من لوازم القسم ، ولذلك يوصل بواو فى التصديق ، فيقال إى والله ولا يقال إى وحده ، ومنه [ ابوه ] مجزل إى والله (وما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب ( ولو أن لـكل نفس

ظلمت ) بالشرك أو بالتعدى على حقوق الناس أو حقوق الله تعالى ( مافى الأرض ) من المعادن والأنهار والخزائن ( لافتدت به ) لجعلته فدية لها من العذاب فان مايملكه يقصد به نفع نفسه ( وأسرّوا ) فعل أسرّ يستعمل لإخفاء الشيء ولإظهاره فهو من الأضداد وهو هنا بمعنى أظهروا ( الندامة لما رأوا العذب ) لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر فلم يقدروا على الكتمان ( وقضى بينهم بالقسط ) أى وحكم بالعدل بين المؤمن والكافر والرؤساء والمرءوسين والظالمين والمظلومين من الكفار ( وهم لايظلمون ) فيخفف من عذاب المظلوم ويشدد فى عذاب الظالم ، وقوله « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض » لو فيه حرف امتناع لامتناع ، وإنما امتنع ذلك لأن الملك لله فمن أين يأخذ الكافر الفداء، وهذا قوله ( ألا إن لله مافى السموات والأرض ) وقوله ( ألا إن وعد الله ) أى ماوعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب وعقاب ( حق ولكن أكثر الناس لايعلمون ) إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ( هو يحيى ويميت ) هو القادر على الإحياء والإماتة ( وإليه ترجعون ) وإلى حسابه وجزائه مرجعكم فيخاف ويرجى ( يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ) الموعظة مايدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة ، وشفاء الصدور خلوصها من الشكوك وسوء الاعتقاد ؛ فالمعنى إذن قد جاءكم كتاب جمع الحكمة العملية التى تبين محاسن الأخلاق ومقابحها والحكمة العلمية التى تشفى الصدور من الجهالة والشك ، ثم قال « وهدى » إلى الحق واليقين « ورحمة للمؤمنين » لأنهم نجوا به من الضلال فى الأخلاق وسوء الاعتقاد ( قل ) يامحمد ( بفضل الله وبرحمته ) فليفرحوا إن فرحوا بشيء ( فبذلك فليفرحوا ) والفاء فى قوله « فليفرحوا » زائدة نظيرها فى قول الشاعر :

* فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى *

وكرر ذلك للتأكيد : أى ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته : أى ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ، وهذا يقرب من قول قتادة : [ فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ] وقول غيره : [ فضل الله القرآن ورحمته السنن ] وقول أبى سعيد الخدرى : [ فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله ] .

وهذه الأقوال كلها متقاربة ترجع إلى أن العلوم والمعارف علمية أو عملية خير من الأمور المادية ، وهذا هو قوله ( هو خير مما يجمعون ) من حطام الدنيا فإنها سريعة الزوال .

واعلم أن المعارف هى مصادر المال ؛ فالعلوم مقدمة على الأعمال ، ولذلك قيل [ نية المرء خير من عمله ] والنية من نتائج العلم ، والعمل نتيجة النية .

وقد ظهر فى هذا الزمان بأجلى مظهر أن الأمم المتعلمة تتغلب على الجاهلة فأصبح العلم مصدرا للقوة والمال ؛ فالعلم يرقى العقول ويصلح الأحوال ويجلب الأموال ، فأما جلب الأموال بالطرق العقيمة فإنه يضيع الوقت ولا يرفع النفس إلى معالى الأخلاق ، فأما العلم واقتناؤه فإن صاحبه يعرف من ضروب الأسباب مايسعده ويسعد أمته بأدنى عمل كالكهرباء فإن استعمالها فى إنارة البيوت وجرى المركبات أراح الإنسان من عناء المشى ، والحيوان من تعب الكد ، فلله در العلم فإنه راحة للأجسام وسعادة القلوب ، فبالعلم فليفرح العالمون وبالنعم الدنيوية فليفرحوا لاباعتبارها أنفسها بل باعتبار أن الله أنعم بها : أى فليفرحوا بفضل الله على العبد لابنفس النعم ، فمن أنعم الله عليه بولد أو مال أو ذكر فليكن فرحه بأنه صدر من الله وأن الله تفضل به عليه لابنفس النعم لأنها زائلة خسيسة واللذات الحسية صائرة للزوال ، فأما العلوم والمعارف والفضل الإلهى فى ذلك وفى النعم المادية فهو الذى يفرح به العبد .

وإذا كان القرآن شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وبه وبأمثاله من فضل الله ورحمته يفرح المؤمنون . فكيف جعلتم مما رزقكم الله حلالا وحراما فحرّمتم على أنفسكم فى الجاهلية شيئا وحللتم آخر ؟ كما تقدم فى سورة الأنعام إذ قالوا : مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا إلى آخر ماتقدم شرحه هناك ، وكتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام . فكيف تفعلون ذلك ولا ترجعون فى التحريم والتحليل إلى ماأنزل فى القرآن الذى هو شفاء الخ . وهذا قوله تعالى ( قل أرأيتم ) أخبرونى ( ما أنزل الله لكم من رزق ) ، أى أىّ شئ من زرع وضرع خلق الله لكم بإنزال الماء من السماء وضوء الشمس وإلحاحه على الأرض وإنبات النبات وخلق الحيوان وإنمائهما ( فجعلتم منه ) أى من ذلك الرزق ( حراما وحلالا ) كما تقدم ( قل ) يامحمد ( آلله أذن لكم ) أى أخبرونى « آلله أذن لكم » فى التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ( أم على الله تفترون ) أم أنتم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . وقوله « ما أنزل » ما استفهامية العامل فيها أنزل ، وكرر « قل » للتأكيد ؛ ولما كان الافتراء على الله عظيما أردفه بقوله ( وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب ) أى أىّ شئ ظنهم ( يوم القيامة ) أيحسبون أنهم لايجازون عليه ، ويوم منصوب بالظن : أى أىّ شئ ظنّ المفترين فى ذلك اليوم مايصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهذا القول وعيد عظيم لأنه أبهم أمره ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لمن يفترى على الله الكذب وليس تقريع الكاذبين وتوبيخهم إلا لهدايتهم وإنارة السبل لغيرهم إذا لم يهتدوا ، فعذاب الله وتوبيخه وأمثالهما يقصد بها جميعها هدايتهم وإنارة سبلهم ، وهذا من جملة النعم . فلذلك أعقبه بقوله ( إن الله لذو فضل على الناس ) ببعثه الرسل وإنزال الكتب وتبيان الحلال والحرام وتقريع الكاذبين كما فى هذه الآية ( ولكن أكثرهم لايشكرون ) هذه النعمة ولا يتبعون الهدى . ولما كان عموم الفضل من الله لايتمّ إلا وهو عالم بجميع أحوال العباد ظاهرها وباطنها أعقبه بذلك فقال ( وماتكون فى شأن ) أمر مهمّ ويكون أيضا معناه القصد فهو على الأول اسم وعلى الثانى مصدر ( وما تتلو منه من قرآن ) أى وما تتلو من أجل الشأن قرآنا ( ولا تعملون ) أيها الناس جميعا ( من عمل ) أىّ عمل ( إلا كنا عليكم شهودا ) شاهدين رقباء مطلعين عليه نحصى عليكم ( إذ تفيضون فيه ) تخوضون فيه وتندفعون . من أفاض فى الأمر إذا اندفع فيه ( وما يعزب عن ربك ) وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ، وأصل العزوب البعد ( من مثقال ذرة ) وزن نملة صغيرة حمراء وهى خفيفة الوزن جدا ( فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ) يعنى من الذرة ( ولا أكبر ) يعنى منها ( إلا فى كتاب مبين ) يعنى فى اللوح المحفوظ ، ولا نافية للجنس وفى كتاب خبرها ؛ وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ( ألا إن أولياء الله ) الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ( لاخوف عليهم ) من لحوق مكروه فى المستقبل ( ولا هم يحزنون ) على ماخلفوا من خلفهم ، فلا من المستقبل يخافون ولا على الفائت يحزنون ثم بين من هم فقال أعنى أو هم ( الذين آمنوا وكانوا يتقون ) الشرك والمعاصى ( لهم البشرى فى الحياة الدنيا ) بالذكر الحسن وثناء الناس عليهم ومحبة الناس لهم وببشارة الله فى القرآن بالجنة لهم وبالرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له وبأن يرى الولىّ عند النزع مكانه فى الجنة وبنزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت لهم فهذه البشارات الستة واردة فى كتب التفسير وبعضها فى الحديث وسيأتى إيضاح هذا المقام ( وفى الآخرة ) هى الجنة وأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وهذا بيان لتوليه إياهم ( لاتبديل لكلمات الله ) أى ولا تغير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ومنها ماوعد به أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله ( ذلك ) أى كونهم مبشرين فى الدارين ( هو الفوز العظيم ) أى النجاة الوافرة فازوا بالجنة وما فيها ونجوا من النار

وما فيها . وهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق للبشر به ، وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله .

واعلم أن اولى هو الذى إذا رؤى يذكر الله وهو المؤمن التقى وهو الذى يحب لجلال الله لا لمال ولا لجاه وهو الذى يذكر الله بذكره ويذكر إذا ذكر الله وهو من الولاء وهو القرب والنصرة ، فهو يتقرب لله بكل ما افترض عليه وهو مشتغل القلب بالله مستغرق فى معرفة نور جلاله ولا يرى بقلبه غير الله .

ولا جرم أن هذه الصفات اتصف بها الأنبياء ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الولى لايخاف إذا خاف الناس ولا يحزن إذا حزنوا فالأنبياء أولى ، ولذلك قال ( ولا يحزنك قولهم ) أى تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وكيف تحزن وأنت ولى الله كما فى آية أخرى « إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » وإذا كان العبد كذلك فلا يخاف من شئ ولا يحزن على شئ لوثوقه برحمة الله فى السراء والضراء صح أو مرض حيى أو مات ؟ وكيف يحزن والحياة والموت عنده سيان كما فى آية « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » جعل النصر والقتل حسنيين ، فالقتل فى الجهاد حسنى والنصر حسنى .

ولعمرى كيف يحزن من يرى النصر والملك يساويان الموت وترك الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف به إذا كان الله وعده بالنصر وله العزة وحده فإن عدم الحزن أحرى ، فلذلك أعقبه بقوله ( إن العزة لله جميعا ) كأنه يقول كيف تحزن من قولهم فإن الغلبة والقهر والقدرة لله جميعا وقد وعدك بالنصر ، فأنت ستنصر عليهم فعلام الحزن إذن؟ وقوله ( هو السميع ) أى لأقوالهم ( العليم ) أى بعزماتهم فيكافئهم عليها ، وقوله (ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) أى من الملائكة والثقلين وإذا كان هؤلاء مملوكين لا يصلحون للربوبية فغيرهم من باب أولى ، وهذا استدلال على مابعده وهو ( ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وكيف يكونون شركاء وهم مملوكون ( إن يتبعون إلا الظن ) أى إنما يتبعون ظنهم أنهم شركاء ( وإن هم إلا يخرصون ) يكذبون فيما ينسبون إلى الله ، وقوله ( هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ) أى مضيئا لتبصروا مطالب أرزاقكم ومكاسبكم . تقول العرب [ أظلم الليل وأبصر النهار ] أى صار ذا ظلمة وذا ضياء ( إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ) أى سمع اعتبار وتدبر ( قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ) تنزيها له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمهم الجاهلة ، وكيف يكون له ولد ، والولد إنما يكون لأمرين : أن ينفع أبويه فى كبرهما وأن يكون بقاء لذكرهما بعد فنائهما ، والله ( هو الغنى ) وإذا كان الولد لتقوية ضعف الوالد ولغناه من فقره وليتشرف به من ذله ، فكيف يكون لله ولد وهو غنى عن ذلك كله ( له ما فى السموات وما فى الأرض ) ملكا ولا تجتمع النبوة مع الملك ، وهاتان الحجتان تدحضان أن له ولدا فلا حجة لكم أيها الناس فى ذلك ، وهذا قوله ( إن عندكم من سلطان بهذا ) أى ما عندكم حجة بهذا القول فان الولد لمن افتقر إليه ، ولا فقر عندى والولد لا يكون مملوكا وأنا أملك السموات والأرض ومن فيهن فكيف أملك ما ألد والملك والولادة لا يجتمعان ، فلذلك وبخهم فقال ( أتقولون على الله ما لا تعلمون ) فهذا توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم ، ولذلك رتب عليه قوله ( قل إن الذين يفترون على الله الكذب ) باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ( لا يفلحون ) لا يفوزون بالجنة ولا ينجون من النار لافترائهم ( متاع قليل ) يقيمون به رئاستهم فى الدنيا وهم كافرون (ثم إلينا مرجعهم) بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ( ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم ، انتهى التفسير اللفظى لهذا القسم .

غرائب القرآن فى سورة يونس وهود ويوسف

بمناسبة قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والأرض – إلى قوله تعالى – ذلكم الله فأنى تؤفكون » جلّ الله وجلّ العلم والحكمة وعظمت المنة وظهر النور وبهر وتجلت الآلاء باهرة زاهرة .

يارب هل نامت الأمم الإسلامية هذه القرون عن هذه البدائع القرآنية ، يقول الله فى أول سورة يونس التى نحن بصدد الكلام عليها ماملخصه :

(١) إن الذى رباكم هو الذى خلق السموات والأرض

(٢) وهو الذى استوى على الملك .

(٣) وهو الذى يدبر الأمر .

ويقول هنا فى مقابلة الأول « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وفى مقابلة الثانى : إنه يملك أسماعكم وأبصاركم ويخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهذه الأعمال من مقتضى الاستيلاء على الملك ، وفى مقابلة الثالث : « ومن يدبر الأمر » .

ذكر هذه الأمور فى أول السورة على هيئة الخبر وذكرها هنا على هيئة الاستفهام وذكر فى ختامهما تدبير الأمر ، فالعناية متوجهة إلى تدبير الأمر ، وهذا كقوله فى سورة الطلاق « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير . وأن الله قد أحاط بكل شئ علما » فالعناية موجهة فى هذين المقامين إلى التدبير العام والنظام ، هذا مقام الشهود .

فهذا هو المقام المحمود ومقام الشهود الذى جاء فى سورة آل عمران « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » أنزلت ياألله القرآن وصرّفت فيه من كل مثل وقلت فى هذه السورة كما قلت فى غيرها ، ياعبادى ها أناذا أدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، فانظروا هذه المشاهد وزوروا هذه المعاهد . أما أنا فقد عجبت كل العجب من أمم ينزل كتابها موجها عنايته إلى هذا المقام المحمود ، ومقام الشهود مقام العلم ، والحكمة مقام الحكماء الذين يقرءون علوم هذه الدنيا فيها يعيشون وبها يوقنون وبها يعرجون إلى العالم القدسى .

ياليت شعرى هل يعلم الناس بعدنا ، هل يعلمون أن سياسة القرآن وإن كانت متوجهة إلى الدعوة إلى الله قد تضمنت جميع مطالب الدنيا فإنه يستحيل علينا أن نشهد هذا التدبير والنظام إلا بعد دراسته ومتى درسناه قام فريق منا ، فاختصّ بالمقام المحمود مقام الشهود فعرجت روحه إلى المقام الأقدس ، وهذا كقوله فى سورة البقرة « لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » فجميع العلوم الكونية مبدؤها النظام الدنيوى ونهايتها الرقىّ العقلى وشهود التدبير .

وإنى أحمد الله وأشكره أن هيأ الأسباب وأعد العدد لهذا المقام بهذا التفسير فهو إن شاء الله كاف لمن قرأه أوجله وفهمه يهديه إلى مقام الشهود ، وبه يكون من أولى العلم الذين هم معطوفون على الملائكة الذين يشهدون الوحدة سارية فى هذا العالم مع العدل والقيام بالقسط ، ولهذا وأمثاله يقول الله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » هذا مقام العلماء والحكماء والأولياء . هذا مقام الحمد ومقام الصدّيقين ، وسيكثرون فى هذه الأمة عما قريب .

هذا ما تجلى فى نفسى اليوم صباح السبت السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ [ أما سورة هود ] فلقد تجلى فيها ماستراه هناك من العجب ، فستجد هناك من آيات الله الباهرة التى لم تعرف حق معرفتها إلا فى زماننا وستشهد هناك مشهدا يبهرك ، وترى نور الله مشرقا على الحيوانات وتحرك منها ما لم يكن ليخطر ببال حكيم

من أكابر الحكماء ، فبينما ترى حيوانا أمامك له لون أو شكل فتمرّ عليه بلا فكر إذا بك أمام مشهد إلهى باهر عجيب ، أتدرى لم هذا ؟ هذا لأن الله ذكر فى أول السورة أنه مامن دابة فى الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها ، ثم بعد آيات كثيرة جاءت قصة هود وأعاد الكرّة على مسألة الحيوان فقال « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » إذن يعلم العقلاء أن هنا سرا يجب التنبه له ؛ فكما كان السرّ فى سورة يونس تدبير الأمر العام ، هكذا كان السرّ فى سورة هود تدبير أهمّ الأمور فى الأرض وهو عالم الحيوان ، ولعله لذلك سميت السورة بهود ، لأن أهم مافيها إنما هو الأخذ بناصية الحيوان المذكورة فى قصة هود ، يرشدنا الله بعنايته بتدبير الأمر وإعادة ذكره وبنظام الحيوان وكلاءته إلى أن القرآن أنزل لمثل هذا .

أنزل القرآن لأقوام يعقلون هذه النعم ويفكرون فى التدبير المحكم العام تارة والخاص أخرى ، أفلا تعجب معى ياصاح كيف نام المسلمون وهم يقرءون القرآن ويدرسون التفاسير ؟! أين كانت عقول المتأخرين ؟ .

اللهم إنى قد نصحت وأديت ماعلىّ ، اللهم فاشهد فإنه لاعذر للمسلمين بعد ما كتبته فى هذا التفسير ولاعذر لمن عرف هذا ولم يصرف حياته فى نشر هذه الفكرة فى أمم الإسلام .

أما سورة يوسف فقد جاء فى أولها « تلك آيات الكتاب المبين » ثم أعاد ذكر الآيات قبيل أواخر السورة فقال « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

يقول : ليست قصة يوسف ولا غيرها هى كل الآيات ، إن أهل الأرض مغمورون فى الآيات تحيط بهم من كل جانب ولكنهم عنها معرضون ، إذن سورة يوسف عنايتها بالنظام العام ، وسورة هود عنايتها نظام الحيوان ، وسورة يوسف وجهتها أن التدبير العام والتدبير الخاص كلاهما دلالات على الله وهى كثيرة جدا حتى ذكرها بلفظ « كأين » .

## مقاصد قصص القرآن

اعلم أن قصص الأنبياء أشبه بأشجار ذات فروع وأوراق وأزهار ؛ فالجهلة يكتفون منها بظواهرها ، والحكماء والعلماء يجتنون ثمراتها ، فترى صغار العلم يبحثون فى الآثار وفى كتب التاريخ يقول أحدهم أين قوم عاد ؟ أين آثار ثمود ؟ وهل نجد فى آثار المصريين ذكر يوسف ؟ وهل حقيقة كان يوسف وزير المالية ودبر الأمور ؟ فبينما هؤلاء يضيعون أوقاتهم فى ذلك عسى أن يعثروا على ضالتهم المنشودة فيؤمنوا إذا بالطائفة الحكيمة تعرض عن هذا وتقول هذه أشجار وأزهار جاءت لمواعظنا نحن آمنا بها والإيمان لن يكفينا ، فلابدّ من اليقين ، وأين هو اليقين ؟ ثم يجدون ذلك اليقين فى ثنايا القصص ؟ إذ يقول هود : إن كل دابة أخذ الله بناصيتها ، وفى يوسف أن قصته ليست هى كل شىء ، فالدنيا كلها آيات ؛ فاليقين والرقى فى الدنيا والآخرة إنما يكون بالتوجه للمقاصد والثمرات لا للأغصان والزهرات ، ولذلك ختم سورة يوسف بأن فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، إشارة إلى أن الناس قسمان : قوم أولو ألباب ، وقوم أولو قشور ؛ فأولو الألباب يعمدون إلى لبّ هذه القصص ، وأهل القشور يرجعون إلى قشور العلوم كعلم الآثار فى المتاحف أو فى نواويس قدماء الأمم عسى أن يعثروا على تصديق هذه .

كل له غرض يسعى ليدركه ﻭ والحرّ يجعل إدراك العلا غرضا

## التدبير ثمرتان : ثمرة علمية ، وثمرة عملية

إن تدبير الأمر الذى ذكره الله هنا وفى آيات أخرى قد ظهر لك أيها الذكى ظهورا على قدر الطاقة الإنسانية ، وقد رجع إلى نظام هذه الدنيا وحسن إتقانها وعجائبها ومن نال هذا الحظ فى هذه الدنيا فإنه

يجلس

يخلس له أوقاتا يلحظ فيها جمالا لا يعقله الغافلون فينسلخ من هموم هذه الدنيا انسلاخا مؤقتا ، وهذا الانسلاخ يقرب من السعادة ويبعده من شقاوة المادّة ، وهذا هو المعنى فيما ورد « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا . قالوا وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال مجالس الذكر » ولسنا نبحث الآن فى صحة سند الحديث وإنما معناه صحيح ، لأن الذين أدركوا معنى هذه الدنيا يتخلصون من ذل الحياة وأسر المادّة فى بعض أوقاتهم وهذا هو الذى يشير له الحديث « أرحنا يابلال بالصلاة » وإليه الإشارة فى قوله تعالى « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » فأثقال هموم الحياة فيها آلام قد تصير أشد من ألم النار بل كثيرا ما يحرق الإنسان نفسه فى أيامنا هذه تخلصا من هموم هذه الحياة ، إذن هموم حياتنا قد تعادل النار وقد تكون أشد منها ، وكم ورد من الأخبار فى هذه السنة عن قوم أحرقوا أنفسهم وأنا نفسى أعرف رجلا بعينه فى قرية ( المرج ) بالقرب من القاهرة علمت منذ شهرين أنه تخلص من آلامه المرضية بإيقاد النار فى جسمه فمات محترقا بالنار تخلصا من نار المرض الشديد . فإذا جعل الله النار المحسوسة على إبراهيم بردا وسلاما فهو يجعل نار الحياة التى تشبهها أو تزيد عليها بردا وسلاما أيضا ، وذلك بابتهاج النفس بالعلوم العامة الداخلة فى قوله « يدبر الأمر » .

ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستغراق بمشاهد التدبير

اعلم أن جميع العلماء الذين أغرموا بعلم خاص كالطب وكالهندسة وكعلوم اللغة وكعلم الحيوان ، وهكذا يحسون براحة من هموم الحياة فى الوقت الذى يحصرون همتهم فى علمهم ويحسون بلذة ، فهناك أمران : نسيان هموم الحياة فى لحظة الاشتغال بالعلم ولذة تعقل هذا العلم ، فإذا كان هذا فى علم جزئى فما بالك بمن نظره فى هذا النظام العام كما هو مذكور خلال هذا التفسير .

لاجرم أن هذه الطائفة لها لذة أعلى من لذات غيرها ثم يعقبها آلام الحياة المعتادة وهكذا ، فهذه هى الثمرة العلمية للعلم بالتدبير العام .

الثمرة العملية لذلك التدبير

أما الثمرة العملية فاعلم أن التدبير كلما كان أتم كانت الوحدة أقوى وأكمل ، وكلما كان التدبير أنقص كانت الوحدة أضعف ، ولعلك تقول هذا لغز ، فما معنى ضعف الوحدة وما قوّتها ؟ أقول :

اعلم أن الأمم التى فوق هذه الأرض ونعيش معها من أمم الشرق والغرب قسمان : أمم تمدنت وعقلت فقامت بالعدل فى أمور الحياة واتصفت بصفات الإنسانية فهذه يكثر عددها كأمم الألمان والطليان وهكذا الولايات المتحدة ، فهذه الأمم عظمت وقويت وحدتها وهذه الوحدة لم تتم لها إلا بنظام وتدبير ، ولولا حسن التدبير والتعقل ما اجتمعوا ، فالاجتماع نتيجة حسن التدبير والنظام ، فأما الأمم الجاهلة فهى التى يقل فيها حسن التدبير فتتفرّق شيعا ويذوق بعضها بأس بعض ، فالأعراب فى البوادى والأمم الجاهلة تراهم متفرقين يحارب بعضهم بعضا .

واعلم أننا فى زماننا نرى الأمة العظيمة الواسعة الأكناف الكثيرة العدد تسطو على التى قلّ عددها ، وكأن الله بذلك يذكرنا بأنكم أيها الناس مادمتم غير عاملين بنظامى غافلين عن حكمتى فى تدبيرى فأنتم مغلوبون على أمركم .

ألا ترون أنكم لما قلّ عددكم سلطت عليكم من هم أكثر جمعا لأنهم غالبا ما كثر جمعهم إلا لصلات بينهم وحكومات تقضى بالحق فى مشكلاتهم ، فأما المتنابذون المتشاكسون فانى أسلط عليهم الأقوياء الذين قلدونى فى عملى إنى دبرت هذه الدنيا وجعلتها عالما واحدا ، ولذلك تراه متصلا غير منفصل يستمد بعضه من بعض

والناس لما عجزوا عن تقليدى فى صنعى عذبتهم على مقدار هذا العجز ، ولو أنهم قلدونى فى تدبيرى لكانوا أوفر جما لخاف عدوهم منهم لوحدتهم القوية المستمدة من وحدانيتى .

هذا ما فهمته من قوله تعالى « ومن يدبر الأمر » فى هذه الآيات . وملخص هذا كله أمران :

[ الأمر الأول ] أن الناظر فى هذا العالم الذى درسه يكون له أوقات يلمح فيها جناب القدس وينال بهجة لايعرفها سواه .

[ الأمر الثانى ] أن الأمم التى هى أتم نظاما تكون أوفر عددا والعكس بالعكس ويكون العز غالبا لكثرة العدد المنظم أو لقوة الجماعة التامة ، والذل لمن ليس كذلك .

كيف يشهد الناس التدبير فى هذا النظام

اعلم أننا مادمنا فى هذه الأرض فإننا لانشاهد صانع هذا العالم بحواسنا كالسمع والبصر الخ . لأن هذه لاتدرك إلا الأجسام وإنما ندرك آثاره فى نظامه وتدبيره وتبتهج ويكون ذلك سعادة معجلة فى الدنيا وهى أرقى السعادات لأنها خاصة النفس الإنسانية . فإذا انسلخنا من هذه الأجسام إما بالموت وإما بالرياضات ، فقد نرى فوق مانراه الناس فى الأرض ولكن لانشاهد الله عز وجل قط إلا إذا خلصت أرواحنا من كل مايلازمها من عوائق الكمال . فإنها بعد تلوث مادامت ملطخة بالآثام فإنها تكون أشبه بالمادية ولا تزال ترتقى فى الصفاء طبقا عن طبق حتى تصير روحا خالصة أشبه بالملائكة فتعاين الله .

ولما كان الإنسان فى هذه الأرض على هذه الحال ذكر فى المرتبة الثالثة فى قوله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » فأولو العلم فى الأرض يشهدون آثار النظام والملائكة يشهدون مشاهد أرقى ولا يعلم الله حق معرفته إلا الله تعالى ، وليس كلامنا فى الأنبياء فهذه طبقة لها مقام لسنا من أهله حتى نخوض فيه ، انتهى .

لطيفة فى قوله تعالى « ألا إن أولياء الله الخ » وتحقيق هذا المقام

اعلم أن قوله تعالى « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ـ متصل بقوله تعالى ـ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » فأما مابينهما وهو قوله تعالى « إن الله لذو فضل على الناس » وما اتصل به من ذكر أن الله مطلع علينا حين نندفع فى شئوننا وحين نتلو القرآن لأجل تلك الشئون لنعمل بمقتضاه وحين نعمل أى عمل وأن الله عز وجل لايغيب عنه شئ صغير أو كبير وذكر الأولياء وأنهم لاخوف عليهم الخ وذكر صفاتهم وأمر النبى صلى الله عليه وسلم ألا يحزن وتذكيره بأن العزة لله جميعا وذكر أن لله مافى السموات وما فى الأرض ، فهذا كله كمقدمات لقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » لتأييد قوله أولا « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » واعلم أن عادة القرآن أن يدخل فى غضونه من المصالح والمعارف والحكم مايثلج له قلوب المستبصرين ، فبينما تراه يثبت عدم الشريك وخطأ الكافرين تراه يأتى لك بالعجب العجاب من عموم علمه ونصر أوليائه ، وكأن حكاية الكفار كانت سببا فى إدخال هذه الحكمة العجيبة الجليلة .

واعلم أن مدار المقال فى هذا المقام على عموم علم الله لكل صغيرة وكبيرة ، وأولياء الله تعالى هم الذين تقدم تعريفهم بأنهم المتحابون فى الله كما فى حديث مسلم « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى » . وفى رواية الترمذى « لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » . وفى رواية « يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون » وتقدم أيضا تعريفهم أنهم يذكرون بذكر الله ويذكر الله بذكرهم ، فقد روى أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تبارك وتعالى : إن أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم » وهذا ذكره البغوى بغير سند .

فهؤلاء الأولياء لايخافون ولا يحزنون ، واعلم أن فى الولاية معنى القرب وليس القرب من الله بالمكان وإنما القرب له بالعلم ، فإذا علم العبد أن الله سبحانه هو الذى نظم هذه الكائنات وأحاط بها علما وربط العالم العلوى بالسفلى بحيث جعل ضوء الشمس والقمر والكواكب نافعا لزرعنا ولنا وللحيوان وجعل حركات تلك الأجرام معلمة لنا وهادية بحيث نعرف بها أوقاتنا وسير سفننا فى البحر بمواقع النجوم ، وكأن هذا العالم كله جسم واحد ، فكل حركة وسكون معلومة عنده جعلت لمصلحة حتى أدنى حركة من كوكب ، وهذه الأرض التى نحن عليها ومن هم فوقها مرتبطون بالعوالم الأخرى ارتباطا لا انفكاك له .

فإذا عرف العبد هذا وأيقن به ثم زاد ذلك الإيقان بما يرى من الأدلة والبراهين الدالة على علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة فإنه لايخاف ولا يحزن ، وقد قال الله تعالى فى آية أخرى « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهذه الآية تشير إلى أن العبد متى أيقن أن الله يعلم كل شئ وقد كتبه فى اللوح المحفوظ فإنه لايحزن ولا يفرح لأنه يعلم أن ذلك لابد منه وأن الله يفعل لمصلحة العبد . ولا يظلم ربك أحدا وأن العبد إذن لاتقصير عنده لأن القدر غالبه ، فالمدار على إيقان العبد بأن الله يعلم كل شئ وهذا اليقين عزيز الوجود ، وإنما الذى فى القلوب إنما هو الإيمان والإيمان أقل من اليقين .

ولما كان المقام مقام العلم وعمومه لكل شئ أتبعه بذكر الأولياء للاشارة إلى أن ولايتهم إنما جاءت من جهة اقترابهم بالعلم ، ومن عجب أن يذكر فى الحديث « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ، فعن عبادة بن الصامت قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ـ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ـ قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » أخرجه الترمذى ، وفى البخارى عن أبى هريرة قال صلى الله عليه وسلم « لم يبق بعدى من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة » وفى البخارى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وروى مسلم « وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه » .

قال العلماء إن ولى الله لاستغراق همه فى جلال الله يكون عند النوم مشغول القلب بالله فلايرى إلا صدقا . ويقال إنما كانت جزءا من ستة وأربعين لأن مدة الوحى ٢٣ سنة وكان فى ستة منها يؤمر فى النوم بالإنذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءا .

أقول : إن فى ذكر الرؤيا هنا إشارة إلى أمر أعجب وعلم أحكم ، فإن الناس كما قاله بعضهم لم يصدقوا الأنبياء إلا لما ركز فى نفوسهم من أن فيهم من يرى بعض رؤيا صادقة تقع كما رؤيت . فلذلك جوزوا أن يكون من الناس من يطلع على المغيبات الدينية كالأنبياء ، وأيضا إن الإنسان إذا رأى رؤيا وقعت كما هى وكان قد رآها قبل وقوعها فإن ذلك دليل أن الله تعالى يعلم كل شئ قبل حصوله ، وإذا كان العبد قد علم ذلك قبلها بزمن يسير ، فالله علمه قبل خلق الإنسان فعليه تكون الرؤيا الصادقة من الدلائل عند الناس أن الله يعلم كل شئ قبل حصوله ، والإيمان لا يكفى لذلك لأن الإيمان لايعطى الناس اليقين وإنما الإيقان بأحوال أخرى فوق الإيمان .

فاعجب لذكر أولياء الله بعد ذكر علم الله وكيف كانت الولاية هى القرب والقرب إنما تكون بالعلم ،

ومن زاد علمه بهذا العالم ونظامه وأيقن بانتظامه ورأى تناسق العوالم العلوية والسفلية وارتباط بعضها ببعض وأن حركات الكواكب لها اتصال تام بعالمنا ونظامه ، وهذا النظام أشبه بما فى الصلاة من الدعاء بالهداية العامة ، إذ يقول المصلى « اهدنا الصراط » ولا يقول اهدنى وحدى ، ويقول إن المحامد لله لأنه رب العوالم كلها ، ويقول إن التعظيمات كلها لله ويلقى نظرة على النبوة العامة وعلى الناس الصالحين كأنهم شخص واحد تسلمهم السلامة من الله الذى يسلم عليهم يوم القيامة .

أقول : نحن ننظر العوالم وهى مرتبطة ارتباطا محكما والأمة كلها وارتباطها فى دعاء المسلم وأنهم جميعا متضامنون متحابون يدعو آخرهم لأولهم ويعلم آخرهم أولهم كما ارتبطت العوالم كلها بعضها ببعض فإنه يعتريه الدهش من نظام بديع وثيق ويحار له لاسيما إذا لاحظ تألق الأنوار المشعة فى نواحى هذا العالم وحسابها الدقيق البديع فإنه يخر ساجدا لتلك العظمة ويحب ذلك الجمال ويبحث فى العلوم عن ضالته المنشودة ، ويرى أن بغيته أن يقف على ذلك السر المصون وأن العالم كجسم واحد تدبره ذات واحدة لايعزب عنها صغير ولا كبير من أموره ، ثم إذا ازداد هذا الرأى عنده فعرف أنه لايفعل إلا لمصلحة لذات المخلوق نفسه وأن الخير والشر الجاريين على كل مخلوق إنما هما لكماله ، وإذا تأكد عنده أن الله يعلم كل شئ وهو المحرك لكل شئ فإنه لامحالة يزول عنه الخوف والحزن فلايخاف من مستقبل ، لأنه يرى الله الرحيم هو الذى يتولاه كما تولى كل حيوان ونبات ولا يحزن على ماض لأنه يعلم أنه لافعل له فكيف يندم على مالاقدرة له عليه .

واعلم أن الناس وإن كانوا مؤمنين لايزال يساورهم الوسواس ويقولون : لو فعلنا كذا لحصل كذا ، ويخافون من أحوال آتية فى الحياة وبعد الموت وذلك لعدم ثقتهم بأن الله مطلع على الصغيرة والكبيرة ، ولو علموا ذلك مع علمهم أنه أرحم من الأم ماهلعت قلوبهم ولا جزعت نفوسهم ولكنهم إلا قليلا منهم لايعلمون ذلك فكانت الرؤيا التى وردت فى البخارى ومسلم أنها من المبشرات نافعة أيضا فى إيقان الناس بأن الله يعلم الأشياء قبل حصولها فيستيقظون لذلك العلم ويفتح لهم باب المعرفة فيرون الله مطلعا على العباد ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيقل الحزن والخوف .

واعلم أن الأولياء والأنبياء والعلماء والأكابر والحكماء جميعا يخافون ويحزنون ولكن الخوف والحزن عندهم جزئى لا كلى لأنهم يعتقدون نهاية كل شئ وأن الله هو الخالق فيفوضون الأمر إليه ، وأيضا إذا جد العبد واجتهد وفعل كل ماوجب عليه ثم نزل المقدور فحزنه يكون ضئيلا بالنسبة لحزن الجهلاء الذين قصر نظرهم .

هذه هى الحال العامة فى سائر الأولياء والأنبياء بجميعهم هذه حالهم على سبيل الإجمال وهناك حال خاصة ، ذلك أن العبد إذا استغرق فى معرفة الله بحيث لايخطر بباله فى تلك اللحظة شئ مما سوى الله ، فى هذه الساعة تحصل الولاية التامة وصاحبها لايخاف شيئا ولا يحزن بسبب شئ ، وكيف يعقل ذلك والخوف والحزن لايحصلان إلا بعد الشعور بالشئ ، والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله فيمتنع أن يكون له خوف وحزن ، وهذه درجة عالية والناس فى كل وقت يشاهدون من هو مغرم بمعشوقه حتى ينسى ماله وولده ، ومن هو مغرم بقتال عدوه فينسى ولده وماله وقت الانهماك فى القتال ، ومن هو مستغرق الهم فى شئون أخرى ، وكلهم على هذا المنوال وهذه حال خاصة ليست دائمة .

وكل هذا الذى ذكرناه فى الدنيا ، أما أحوال الناس فى الآخرة فالأولياء والأنبياء هم الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهذا تفصيل للمقام

حكاية

حكاية

عن إبراهيم الخواص أنه كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفت بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا على نفسه منها والشيخ ماكان فزعا من تلك السباع ، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة ، فقال المريد : كيف تليق هذه الحال بما قبلها ؟ فقال الشيخ إنما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبى فلما زال ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله .

وهذه الحكاية سواء أصحت أم لم تصح رمز لحال جميع الناس أنهم إن ورد وارد عليهم أهمهم شغلهم ذلك الوارد ، فرب رجل تقطعه السيوف فى الحرب وقد غاب شعوره من خوف أو ذهول ، وهنا فى حب الله قد يغيب الشعور للحب أو لمشاهدة جمال غالب فى النفس ، وعلى ذلك تفهم ما يتغنى به كثير من الناس من قول ابن الفارض : وبما شئت فى هواك اختبرنى فاختيارى ما كان فيه رضاك

فإن هذا القول نقله صاحب الإحياء الذى كان قبل ابن الفارض بأكثر من قرن عن بعض الصوفية وقال إن قائله أصيب بحصر البول ثلاثة أيام فاضطر أن يجمع الأطفال ويقول لهم قولوا فلان كذاب فلان كذاب ثم عفا الله عنه وشفى

والحاصل أن الناس فى الدنيا أقسام :

(١) منهم من يرى أن العالم مادى لاعقل فيه ، وكل ما فيه إنما هو مصادفات وحمق وحزن ، وهؤلاء يحزنون ويخافون .

(٢) مؤمنون بإله ولكن هؤلاء فى أكثر الأوقات غافلون عن أنه مطلع ومقدر لكل شىء ، فهؤلاء ربما قل الحزن والخوف عند التذكير ولكنهم فى أكثر الأحوال مثل غير المتدينين يسيرون على مقتضى العادة من الهلع والجزع .

(٣) مؤمنون أتقياء صالحون ، وهؤلاء بتكرار ذكر الله والاعتبار يقل الحزن عندهم ولكن هذا ليس مطردا فيهم ، ومنهم من تغلبه الحال فلا يخاف ولا يحزن إذ ذاك ، فإذا زالت تلك الحال رجع إلى عادته .

(٤) مفكرون عرفوا أن الله مطلع على كل شىء ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهؤلاء ربما يقل الحزن والخوف عندهم ، ولكن ذلك يحوزه أن يقف المرء بنفسه على أن الله يعلم كل ذرة ويكون ذلك نصب عينيه ببراهين لاتقبل الشك عنده ويقتنع هو بها ، وهذا يكون أقرب إلى السعادة فلا خوف ولا حزن عنده إلا قليلا ، وهذا هو المذكور فى قوله تعالى « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا الخ » .

والحق أن الإنسان لايهدأ له بال إلا إذا أيقن وشاهد أن هذا العالم فى يد الله وأنه المطلع على صغير الأمور وكبيرها وأنه لايفعل إلا لمصلحة العبد وأن كل مايفعله العبد أو ينتابه كان مقدرا فى الأزل ، متى تم ذلك تمت سعادة المرء فى الدنيا قبل الآخرة لأنه أصبح ولا حزن عليه ولا خوف ، وكيف يخاف وهو يعتقد أن الله رحيم ، وأن ما أصابه من خير ليس من نفسه ، وما أصابه من شر ليس من نفسه ، وأن ذلك بالقضاء والقدر والله لاتبديل لكلماته ومقدراته فإنها كلها بقضاء الله ولا تبديل لذلك القضاء ، وهذه راحة تامة نفسية ، فإذا انضم لذلك أن يكون المرء متوكلا على الله حقا ، أى قائما بكل الواجبات وكل مايجب عليه وقام فى حياته على السنن المرسوم الطبيعى ، فمثل هذا العبد سعيد اليوم وسعيد غدا ، فلا حزن اليوم ولا خوف ولا شقاء غدا

وإياك أن تظن أن التوكل على هذا النمط غير سائغ ، فلتعلم أن التوكل إن لم يقم بكل ما ذكرته فهو مغرور وليس بمتوكل ، انتهى القسم الرابع .

## ( القسم الخامس )

## قصة سيدنا نوح عليه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

### التفسير اللفظي

اعلم أن الله لما ذكر فى هذه السورة أمر الكفار وأنهم لا يفلحون وأن العزة لله جميعا وأن لكل أمة أجلا وأن العذاب آت وما أشبه ذلك من الوعيد تصريحا وتلويحا ناسب أن يذكر قصة ، لأن التاريخ أحكم فى النفوس وأوفق للعقول وأشد وقعا وأعظم وعظا ، فقال ( واتل عليهم ) يا محمد ( نبأ نوح ) خبره مع قومه ( إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم ) عظم عليكم وشق ( مقامى ) مكانى ، يعنى نفسه ، كقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » أى خاف ربه ، أو مقامى : أى مكثى بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما ( وتذكيرى ) إياكم ( بآيات الله فعلى الله توكلت ) وثقت به ( فأجمعوا أمركم ) فاعزموا عليه : من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ( وشركاءكم ) الواو بمعنى مع : أى اجمعوا أمركم مع شركائكم ( ثم لا يكن أمركم ) فى قصدى ( عليكم غمة ) أى لا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونى به ، والغمة السترة ، من غمه إذا ستره ( ثم اقضوا إلىّ ) ذلك الأمر الذى تريدون بى : أى أدّوا إلىّ ما هو حقّ عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه ، أو اصنعوا ما أمكنكم ( ولا تنظرون ) ولا تمهلونى ( فإن توليتم ) فإن أعرضتم عن تذكيرى ونصحى ( فما سألتكم من أجر ) من جعل يوجب توليكم عن نصحى ويستدعى النصح الحزن على ما يفوتنى إذا توليتم وإنما أذكركم لوجه الله وذلك أوقع فى النفس ( إن أجرى إلا على الله ) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة ( وأمرت أن أكون من المسلمين ) من المستسلمين لأوامره ونواهيه ( فكذبوه ) فداموا على تكذيبه ( فنجيناه ) من الغرق ( ومن معه فى الفلك ) أى السفينة . يقال إنهم كانوا ثمانين ( وجعلناهم خلائف ) أى وجعلنا الذين معه فى الفلك سكان الأرض بعد الهالكين ( وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ) بالطوفان ، وقوله ( فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ) تحذير لمن كفر بالرسول صلى الله عليه

وسلم

وسلم وتسلية له ، وقد تم هذا فإنهم حل بهم ما حل بقوم نوح فى الغزوات المتتابعات فأولئك أغرقوا وهؤلاء قتل منهم قوم والآخرون أسلموا كما أسلم ذرية الذين قتلوا وتم الأمر وهو من عجائب القرآن بل هذه أهم معجزة فكيف يقول هذا فى مكة ثم يصح الأمر ويتم النصر كما أنذرهم وهذا هو العجب العجاب (ثم بعثنا) أرسلنا (من بعده) من بعد نوح (رسلا إلى قومهم) كل رسول إلى قومه (فجاءوهم بالبينات) المعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم (فما كانوا ليؤمنوا) فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة تمسكهم بالكفر (بما كذبوا به من قبل) أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه حتى صار كالطبيعة فيهم ، ثم قال مثل ذلك الطبع (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) أى المجاوزين الحد فى التكذيب ، انتهى تفسير القسم الخامس .

## ( القِسْمُ السَّادِسُ )

## قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ • وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ • آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ • فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ . وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

التفسير اللفظي

قال تعالى ( ثم بعثنا من بعدهم ) من بعد هؤلاء الرسل ( موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا ) بالآيات التسع ( فاستكبروا ) عن اتباعهما ( وكانوا قوما مجرمين ) معتادين الاجرام واجترءوا على تكذيب الرسل لما انطبع فى نفوسهم من الذنوب والقسوة . ثم أخذ يفصل ذلك فقال ( فلما جاءهم الحق من عندنا ) بتظاهر المعجزات الباهرة ( قالوا إن هذا لسحر مبين ) فائق فى فنه واضح ( قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ) هذا استفهام إنكارى والقول محذوف تقديره إنه لسحر ، ثم قال ( أسحر هذا ) وهو استفهام آخر على سبيل انكارىّ يعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتجّ على صحة هذا بقوله (ولا يفلح الساحرون) يقول لو كان سحرا لاضمحلّ ولم يبطل سحر السحرة ولكنه لم يضمحلّ وأبطل سحر السحرة فهو إذن ليس بسحر ولما لم تستقم دعواهم أنه سحر شرعوا يدّعون دعوى أخرى إذ ( قالوا أجئتنا لتلفتنا ) لتصرفنا . واللفت والفتل أخوان ( عما وجدنا عليه آباءنا ) من عبادة الأصنام ( وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ) أى الملك فى أرض مصر وسمى الملك كبرياء لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدّقين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ) حاذق فى السحر وذلك لمعارضة المعجزة التى أتى بها موسى (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ) أى الذى جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ( إن الله سيبطله ) سيمحقه أو سيظهر بطلانه (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبته ولا يقوّيه لأن السحر تمويه لاحقيقة له . وقد شرحت هذا الموضوع فى سورة البقرة فارجع إليه إن شئت ( ويحقّ الله الحقّ ) ويثبته ( بكلماته ) بأوامره وبوعده الصادق لموسى أنه يظهره أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة وأن الحقّ يعلو على الباطل ولو بعد حين ( ولو كره المجرمون ) ذلك ( فما آمن لموسى ) فى مبدأ أمره (إلا ذرّية من قومه ) إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل أى إلا أولاد من أولاد قومه لأنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ولم يجبه إلا طائفة من أبنائهم مع الخوف كما هى العادة أن الشبان أسرع لقبول الدعوة الصالحة . أما الشيوخ فقد تصلبت فيهم الآراء القديمة ولبسوا ثوب الذلة ضافيا عليهم ولم يصل لذلك أبناؤهم كما هو دأب الأمم كلها . فالشبان أوّل سابق للوطنية والسياسة وللانقلاب العام ، فقوله (على خوف من فرعون وملئهم ) أى أشراف آل فرعون ( أن يفتنهم ) أى أن يعذبهم فرعون وهو بدل منه . فهذا القول تبيان لحال كل دعوة دينية أو سياسية فى أوّل أمرها إذ يكون المتبعون من الشبان ومن الضعاف وهم خائفون وجلون من رجال السياسة والملوك وإنما أفرد الضمير الفاعل فى قوله « أن يفتنهم » للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه ( وإن فرعون لعال فى الأرض ) لغالب

فيها ( وإنه لمن المسرفين ) فى الكبر والعتو حتى ادّعى الربوبية . ولما كان الدعاة دائما يشجعون المدعوّين ويثبتونهم على المبادئ الجديدة ورأى موسى شبان بنى إسرائيل خائفين وجلين أخذ يثبتهم ويقوّى إيمانهم ويريهم أن الله هو مدبر الأمور وأمرهم بالتوكل عليه فامتثلوا أمره وطلبوا من الله ألا يبتليهم بتعذيب الظالمين وأن ينجيهم برحمته من كيد القوم الكافرين ومن شؤم مشاهدتهم وهذا هو قوله ( وقال موسى ) إلى قوله ( ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) وقوله ( توكلوا ) أى ثقوا وقوله ( مسلمين ) مستسلمين لقضاء الله مخلصين له ( فقالوا على الله توكلنا ) لأنهم كانوا قوما مخلصين فلذلك قبل توكلهم وأجاب دعاءهم إذ قالوا ( ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ) موضع فتنة : أى عذاب يعذّبوننا أو لاتعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على الحقّ ماعذبوا ويظنون أنهم خير منا فيفتنون بذلك ( ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى وخلصنا برحمتك من أيدى قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الأعمال الشاقة . ولما كان من عادة الأنبياء وسائر المصلحين أنهم بعد أن يطمئنوا قومهم ويسكنوا جأشهم يبثون فيهم روح النظام ويأمرونهم بالاستقامة ونظام المدن وحفظ الحال العامّة أردفه بما يفيد أن الله أوحى إلى موسى وهرون أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا من بيوتها يرجعون اليها ويتوطنون فيها وأمر الجميع أن يجعلوا تلك البيوت مصلى يصلون فيها خيفة من الكفرة من آل فرعون لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان ذلك فى أوّل الإسلام وفى أوّل كل دين جديد من الأديان وأمرهم بإقامة الصلاة فيها حتى يأمنوا على أنفسهم ، ثم أمر موسى أن يبشرهم أنهم لايصل إليهم مكروه وهذا قوله تعالى ( وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون) إلى قوله (العذاب الأليم) ولما كان لكل داع من الدعاة نظرة فيمن بلغهم رسالته فتارة يدعو بالهلاك كنوح ، وتارة يرجو أن تكون منهم ذرّية مؤمنة فيقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتارة يكون الدعاء بين هاتين الخصلتين كما فى هذا المقام، دعا سيدنا موسى ربه قائلا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه مايتزينون به من الملابس والمراكب ونحوها كما هو مشهور فى الشرق والغرب من آثار الفراعنة ، وأنواعا من المال وتكون عاقبة ذلك أنهم يضلون الناس عن سبيلك ويكونون فتنة لمن رآهم من الناس على هذه الحال ، فيارب اطمس على أموالهم وامحقها بحيث لاينتفعون بها بأن يدفنوها فى المقابر والتوابيت ويجعلوها حليا للملوك والملكات فى قبورهم فاجعل يا ألله كل همهم فى ذلك الطمس ، واشدد على قلوبهم : أى قسها واطبع عليها حتى لاتؤمن إلا بدينها القديم ورأيها العتيق من دفن الأموال والتزين بها تحت التراب وتحلية الأموات بها وتبقى البلاد المصرية معرّاة من الحراس لأن الحراسة يلزمها المال والمال معظمه يكون تحت التراب فلذلك تجد بيوت المصريين القدماء أكثرها من اللبن . أما المقابر فإنها مزينة بالرسوم وبالتماثيل وبالذهب وبالفضة وبجميع الأحجار الثمينة . ولما استمرّوا على هذه الحال مدة طويلة وقست قلوبهم دخل البلاد ملك الفرس وأهلك الحرث والنسل وذاقت مصر العذاب الشديد بسبب العقائد الموروثة التى جعلتهم منهمكين فى دفن الأموال مع الأموات وجعلتهم يعبدون الحيوانات كالهرّة. ولما دخل [ قمبيز ] مصر فى مدّة الأسرة السادسة والعشرين التى هى الأسرة الثامنة بعد خروج بنى إسرائيل من مصر لم يساعده على إهلاك البلاد إلا عبادة الهرّة فإنه أمر بإيقاف صفّ من القطط بين الجيشين فتحامى العسكر المصريون أن يضربوا آلهتهم وهى القطط وانقضّ عسكر الفرس على مصر بسبب أن قست قلوبهم على عبادة الحيوانات كما قست بدفن الأموال فى القبور فذهبت مصر سدى ولم يؤمن المصريون إيمانا صحيحا إلا بالدين المسيحى بعد ذلك وإلا بالدين الإسلامى آخر الزمان . فهذه هى القساوة وإنك لترى آثار المصريين الآن فى القبور وأهل الشرق وأهل الغرب ينقبون عليها ، وتعجب من القرآن وحكمه وتعجب كيف ذكر الله هذا وكيف قال اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم وكيف ظهر الأمران . فالأموال ملأت متاحفنا

المصرية ومتاحف فرنسا وأمريكا وانكلترا وسائر متاحف أوروبا ، وطمس القلوب ظهر أثره فى بقائهم على جهالتهم حتى تنصروا لما كانت النصرانية فى أول أمرها ثم أسلموا إلى الآن .

أليس هذا من العجب . أو ليس من العجب أن الله لم يذكر طمس الأموال فيما أذكر ولم يذكر نجاة الأجسام كما سيأتى إلا فى الفراعنة . أو ليس هذا من عجائب القرآن . وكيف يذكر طمس الأموال وقد ظهرت ونجاة الأبدان بغير أرواحها وهذا أمر مشاهد كما سأوضحه قريبا . وكل هذا وذاك فى الأرض المصرية الآن واضح . إن هذا لعجب عجاب وهذا هو قوله تعالى « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون » إلى قوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » فقوله « ليضلوا عن سبيلك » أى ليضلوا الناس عن طاعتك وهو متعلق بآتيت ، وربنا تكرار للأول للالحاح فى التضرع وهذا كقوله « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » والطمس على الأموال هنا معناه دفنها وعدم ظهورها والانتفاع بها وهو المعروف الآن وليس ماقيل فى بعض التفاسير إنها مسخت حجارة بحق لأنه ظهر خطؤه الآن والقرآن معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وقوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » جواب الدعاء والمراد بالعذاب الأليم ماأحاط بالأمة المصرية من العذاب الذى حل بها من العقائد المنحرفة عن سنن دينهم الأصلى الذى كانت فيه العبادة على وجهها فطغوا على الأموال وعبدوا الأحجار والحيوانات فكان ذلك سببا لدخول الأمم بلادهم كما تقدم وهذا هو العذاب العام ولم يؤمنوا بدين خال من الوثنية حتى جاء المسيح فاتبعوا دينه قبل أن ينسخ ثم جاء الإسلام فاتبعه أكثرهم ولم يكن ذلك إلا بعد أن ذاقوا العذاب الأليم من الأمم المحتلة من الفرس واليونان والبطالسة والرومان فهذا هو العذاب الأليم العام ، وهناك عذاب أليم خاص وهو ماحصل لفرعون وجنوده لما غرقوا فى اليم ولم يؤمن فرعون حتى رأى العذاب الأليم بالغرق ولم ينفعه إيمانه كما ستراه قريبا ولما كان هذا الدعاء واردا من موسى موافقا لما فى علم الله وأمره المطرد فى الأمم من أنها تسير على نواميس تلائمها وتوافقها ومن نواميس المصريين ملازمة التفنن فى عبادة الأوثان ودفن النقوش والرسوم والأحجار الثمينة والذهب والفضة أردفه بما يفيد الإجابة فقال (قد أجيبت دعوتكما) يعنى موسى وهرون (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تستعجلا فان ماطلبتما كائن ولكن له وقت معلوم . ويقال إنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى طريق الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى فليس فى الأرض من داع لأمر عظيم إلا إذا كان واثقا بنجاح دعوته وظهور أمره . فأما الذى لاثقة له بمستقبل أمره فانه لانجاح له فى عمله ولا ثبات له فى دعوته . ثم أخذ يشرح العذاب الأليم الخاص المتقدم فقال (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر) أى قطعنا ببنى إسرائيل البحر الاحمر وجوزناهم فيه حتى بلغوا الشط حافظين لهم . وقرئ « جوزنا » كضعف وضاعف (فأتبعهم فرعون وجنوده) أى لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أى ظلما وعدوانا : أى باغين وعادين أو للبغى والعدو (حتى إذا أدركه الغرق) لحقه (قال آمنت أنه) أى بأنه (لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فى وقتها . قال ابن عباس لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان فى مهل ، والإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين وفى آية أخرى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » وفرعون ذكر الإيمان والإسلام واعترف بهما ولم ينفعه (آلآن) أى قال الله أو الملائكة آلآن تتوب وقد أضعت التوبة فى وقتها وتكبرت عنها وآثرت دنياك الفانية (وقد عصيت قبل) كفرت بالله (وكنت من المفسدين) فى أرض مصر بالقتل والشرك والدعاء لغير الله وعبادة العجل المسمى [ عجل أبيس ] وبعض الطيور (فاليوم ننجيك) نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل وغيرهم (ببدنك) فى موضع الحال : أى كاملا سويا (لتكون لمن خلفك) لمن وراءك من بنى إسرائيل وغيرهم من أمم الشرق والغرب

( آية ) أى عبرة وموعظة ليعرف الناس أن أعظم الملوك قدرا وأمجدهم صيتا وأعظمهم ذكرا وأرقاهم منزلة وأساهم مقاما وأرفعهم مجدا قد تخطفته المنون ونزل به الهون . وها هوذا فى اللحد مدفون وفى الصندوق مقفلا عليه . وأيضا يخبر الناس بالقرون الخالية والأمم الماضية فيعرفون صناعاتهم وعلومهم ومعارفهم . ومن عجب أن القرآن لم يذكر هذا القول فى أمة من الأمم ولا فى جيل من الأجيال إلا فى قدماء المصريين فانهم هم الذين سخرهم الله بعقائدهم التى أودعها فى نفوسهم وربطها ربطا وثيقا فى قلوبهم أن يحفظوا أمواتهم فى صناديق مقفلة ، وليس يعرف أحد من المسلمين معنى قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » إلا إذا حضر إلى بلادنا المصرية وشاهد جثث الملوك فى صناديق عجيبة الشكل بديعة الصنع وهى محنطة منذ ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وخمسة آلاف أو ستة آلاف سنة وعليها أكفانها لم يبل منها ثوب ولم يتفتت عضو من الأعضاء فيها ولم يكن رميما ، فهذه الجثث الباقية التى نشاهدها فى متاحفنا المصرية لاسيما ماتجدد حديثا كقبرة [ توت عنخ أمون ] التى أشرنا اليها فى سورة البقرة عند قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » شواهد ناطقة وحجج قائمة على جمال الله عز وجل ونعمه التى أغدقها على الأمم السالفة والأجيال البائدة ، وكيف أعطاهم هندسة وعلما ونظاما عجيبا غفل عنه المحدثون ، وكيف نطقت آثارهم بما لله من مجد وفضل ومن على الأمم القديمة ، وكيف عجز اللاحقون عما أنشأه السابقون ، وكيف ألهم الله قدماء المصريين أن يبقوا هذه الجثث ذخيرة لنا وآية قائمة على جمال الله وجلاله ، وكيف كان ذلك منفعة للأمم الحديثة ودرسا لعلمائها أنهم مسبوقون بأمم أعظم قدرا منهم ، إن هذه الآية من بدائع القرآن، وعلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يدرسوا علوم قدماء المصريين ، أليس من العيب عليكم أيها المسلمون أو ليس من العار المخجل ، أليس من أكبر المصائب التى حلت بأمة الإسلام أن الفرنجة هم الذين يتسابقون إلى تعلم لغة القوم ويمنون علينا أنهم أعلم منا بها ، أو ليس من المحزن المبكى أن أمة الإسلام هى التى تجهل قدماء المصريين الذين قال الله فيهم « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

فياليت شعرى لم ذكر هذه الجملة هنا ، وكيف أوردها فى هذا المقام ، وكيف يقول إن كثيرا من الناس غافلون عن آياتنا لايفكرون ولا يعتبرون بعد ماتقدم ، أليس ذلك لعظم الأمر وأن قدماء المصريين سيكون لهم شأن وأنه بهذه الآية نبه المسلمين إلى ذلك .

وأنا أقول : أيها المسلمون ، أما آن لكم أن تدرسوا الأمم القديمة ، أما آن لكم أن تدرسوا علوم الأمم القديمة والحديثة ، أما آن لكم أن تدركوا مجدكم وشرفكم ، وكيف يسبقنا إلى علمهم أهل أمريكا وأهل ألمانيا وغيرهم ، إن ذلك لهو الضلال الكبير والخزى العظيم والمصاب الجلل .

يا أمة الإسلام ، قد شبعتم نوما فاستيقظوا ، قد أدرككم الغرق فأفيقوا ، قد طحنكم الدهر بكلكله فانتبهوا فها هو ذا كلام الله ، وهذه حوادث أيامه قد أحاطت بكم ولله عاقبة الأمور

واعلم أن كل أمة لها مبدأ وجهاد فكمال ، ثم تناقص واختلال ، فهكذا بنو اسرائيل جاءهم موسى فجاهدوا حتى خرجوا من أرض مصر ونجوا وتم أمرهم واستقام مئات من السنين ثم اختلفوا فى دينهم وهذا قوله تعالى ( ولقد بوأنا ) أنزلنا ( بنى اسرائيل مبوأ صدق ) منزلا صالحا مرضيا وهو [ الشأم والقدس والأردن ] لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ( ورزقناهم من الطيبات ) أى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله بها ( فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ) فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل إلا من بعد ما قرءوا التوراة وعلموا أحكامها ( إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) فيميز المحق من المبطل بالانجاء والهلاك .

﴿ لطيفة فى موازنة هذه القصة بأحوال الأمة الإسلامية ﴾

اعلم أن هذه الآيات أفادت ما يأتى :

(١) إنكار قوم فرعون لدعوة موسى وادّعاءهم أنها سحر .

(٢) احتجاجهم أن هذا فيه هدم المجد القديم وهو مجد الآباء ، فمخالفتهم ذهاب لفضلهم وانحراف عن سنتهم .

(٣) أنكم ترجون أنه يكون لكم الملك فى البلاد .

(٤) إحضار السحرة ومعارضة معجزة موسى سحر الساحرين .

(٥) ذكر إيمان طائفة من أولاد بنى إسرائيل .

(٦) أن هؤلاء خائفون من فرعون وقومه أن يعذبوهم .

(٧) وعظ موسى لبنى إسرائيل أن يتوكلوا على الله .

(٨) موافقتهم له وطاعتهم وتوجههم إلى الله بالدعاء .

(٩) أمر الله لموسى أن يحضّ قومه على اتخاذ المساكن وجعلها مصلى .

(١٠) تبشيره للمسلمين .

(١١) دعاء موسى على بنى إسرائيل بطمس أموالهم وبقائهم كافرين .

(١٢) استجابة الدعاء .

(١٣) عبور بنى إسرائيل البحر .

(١٤) اتباع فرعون لهم وغرقه هو وجنوده .

(١٥) نجاته ببدنه وحكمة ذلك .

(١٦) استحكام أمر بنى إسرائيل ورقيهم .

(١٧) وقوع الاختلاف فيما بينهم .

واعلم أن هذه الصفات التى لحقت بنى إسرائيل هى بعينها التى لحقت بأمة الإسلام ونبينا صلى الله عليه وسلم .

(١) فقد دعا قومه فكذبوه .

(٢و٣) وظنوا أنه يريد الملك فعرضوا عليه أن يملك أمرهم ويترك ذم آلهتهم ، وأيضا أنه يريد هدم ما كان عليه آباؤهم

(٤) آذوه كثيرا وكادوا له كيدا عظيما .

(٥) ما آمن به أولا إلا الضعفاء

(٦) كانوا خائفين من أهل مكة كصهيب وبلال وغيرهما حتى هاجر قوم إلى الحبشة وهاجر الجميع إلى المدينة .

(٧) وعظ النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالتوكل

(٨) موافقتهم له وطاعتهم .

(٩) بنى النبى صلى الله عليه وسلم مسجدا فى المدينة واتخذ المسلمون مساجد كثيرة وسكنوا بيوتهم وصلوا فيها وفى مساجدهم .

(١٠) فى أكثر القرآن بشائر للمؤمنين .

(١١) دعا النبى صلى الله عليه وسلم لقومه فقال « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

(١٢) استجاب الله دعاءه ففتح مكة وأسلم قومه وذريتهم للآن .
(١٣) نصر المسلمين فى زمن النبوة وبعده .
(١٤) هلاك الكافرين فى كل وقعة .
(١٥) نجاة المسلمين فى كثير من الوقائع .
(١٦) استحكام أمر المسلمين وعظمتهم فى القرون الأولى ورقيهم .
(١٧) ائتلاف المسلمين وتنابذهم منذ (٨) قرون فهم فى اضطراب سياسى عظيم .

فهذا التاريخ يضارع تاريخ الإسلام وقد ذكر هنا ليكون عبرة للمسلمين ودرسا لهم ليتعظوا اهـ .

لطيفة فى قوله تعالى « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

تقدم أنى قررت فى هذه الآية أنها تحض على فهم علوم المصريين والبحث فى أطوارهم وأن الله لم يذكر أمة بأن أبدانها عبرة لمن بعدهم وأتبعها بجملة كهذه إلا المصريين ، فلنذكر من آيات الله التى ألهمها المصريين القدماء ليكون ذلك ذكرى للمسلمين وعبرة وليجدّوا فى البحث عما دفنه الله فى الأرض وما أظهره فى الأمم حتى يعرف المسلمون كل شئ بحيث تختص كل طائفة بمباحث خاصة يتقدمون فى معرفتها ، وهذه العلوم كلها فرض كفاية ، فلأنقل لك [أربع نبذ] من علومهم :

النبذة الأولى : محاورة فلسفية بين مصرى وروحه

وجدت فى قرطاس محفوظ فى متحف (برلين) وإليك تعريبها من كتاب الحضارة القديمة :

(١) قالت الروح لصاحبها ليس فى الموت فزع للإنسان .
(٢) أقول لنفسى كل يوم إنه كرجوع الصحة إلى المريض حين يخرج ويذهب إلى الساحة بعد تألمه هكذا حال الموت .
(٣) أقول لنفسى كل يوم كأنه استنشاق شذا العطر أو كالجلسة فى بلد السكر ، هكذا حال الموت .
(٤) أقول لنفسى إنه كمجرى تمرّ به مياه النيل الفائض .
(٥) أو كرجل دخل الجندية ولم يثبت أحد أمامه ، هكذا حال الموت .
(٦) أقول لنفسى إنه كرجل ذهب فى ضياء القمر ليصيد الطير بالشبكة فوجد نفسه فى إقليم لا يعرفه ، هكذا حال الموت اهـ .

النبذة الثانية

اعلم أن من أعجب معجزات القرآن هذه الآية التى نحن بصددها ولم يكن المتقدمون من أئمتنا الإسلامية ولا قدماء العرب ولا المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم يعلمون شيئا عن الجثث المصرية ولا عجائب علومهم ، ولذلك تجد المفسرين يذكرون أن أموالهم مسخت حجارة ، أفلا تعجب القرآن كيف ظهر فى هذا العصر العجب العجاب من الجثث المحنطة والعلوم المخبأة والحكم المنظمة التى أشار لها القرآن بقوله « لتكون لمن خلفك آية » وأفاد أن أكثر الناس غافلون عن العجائب .

فانظر كيف ظهر فى هذا الزمان أيام كتابة هذا التفسير أعظم الكنوز المصرية وهو كنز [توت عنخ أمون] وقد كشفه رجل يقال له ( هوارد كارتر ) بعد أن بحث ٣٢ سنة فى البلاد المصرية مجدًا فى ذلك وقد أحدث ظهوره دهشة إعجاب فى العالم كله .

وفى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ فتح الباب المختوم بختم الملك لبعض الغرف ووجد بالغرفة الثالثة صندوق بديع داخله جثة الملك وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالحجارة الكريمة ويبلغ طوله نحو

ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، ووجدت الغرفة الرابعة مملوءة بأثاث من أنفر الفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفرق منظرها فى بهائها وعظمتها ماوجد فى الغرفتين الخارجيتين ، وتوافد عشرات الألوف من أوروبا وأمريكا على القطر المصرى للتمتع بمشاهدة هذه الآثار الثمينة ، وفوق ذلك قد اهتمت دور الصناعة فى أوروبا وأمريكا الحصول على نماذج للأزياء المصرية الأثرية للملابس وأثاث المنازل والأوانى ليصنعوا نظيرها وهم يضحون عشرات الألوف من الجنيهات فى سبيل الحصول على هذه النماذج وبدأت السيدة الغربيـــة فى مدن أوروبا وأمريكا متجملة بلبس ملابس قدماء المصريات فى عهد [ توت عنخ أمون ] .

وفى صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ أبصر المارة فى شارع ( ففث أفنيو ) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسرن معا وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمات واحتذين أحذية على شكل ( الصندل ) فكن ثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع وهكذا فى انكلترا وغيرها ، وقد اشتد الإقبال فى أوروبا وأمريكا على درس تاريخ مصر وحضارتها القديمة ومشاهدة آثارها الكثيرة المنتشرة فى المتاحف ، فالناس يقبلون زرافات على المتاحف التى فيها آثار مصرية .

وقد أغلق المدفن يوم الاثنين ٢٦ فبراير سـنة ١٩٢٣ على أن يفتح ثانيا فى الخريف المقبل ، وهذه الليلة التى أكتب فيها هذا المقال ٢٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ لم يفتح القبر إلى الآن وسيظهر بعد فتحه العجب العجاب .

أفليس هذا من سر قوله تعالى على سبيل الإشارة والتلميح ؟ « لتكون لمن خلفك آية » فهذه آيات الله التى ظهرت لعباده آيات الصناعة والتطريز والزخرفة والنقش والهندسة والبناء ، وكذلك الاعتبار والاتعاظ وتذكر الموت والبلى ، كل ذلك ظاهر اليوم لجميع الأمم ، فعلى المسلمين أن ينظروا جمال الله فى كل شىء سبحانه وتعالى جل جلالا وعز كمالا .

النبذة الثالثة

أقدم كتاب فى العالم نصائح الحكيم المصرى القديم [ آنى ] لتلميذه [ خونسوهتب ] فى عصر مصر الذهبى فى عهد الملك المعظم [ توت عنخ أمون ] أى منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا وهى ٤٨ نصيحة نقلت عن ورقة بولاق البردية التى عثر عليها [ ماريت باشا ] مؤسس مصلحة الآثار المصرية فى أحد مقابر الدير البحرى بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠ م ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنكليزية وسميت [ ورقة بولاق ] لأنها حفظت بالمتحف المصرى فى وقت أن كان فى بولاق ، ولأذكر لك بعض هذه الحكم تيمنا بالقرآن القائل « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ولأذكر لك ما اخترته منها اختصارا للقول :

(١) أخلص لله فى أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فإنه يهمل من توانى فى خدمته .

(٧) من اتهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .

(٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك فى جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وتهيىء لك مكانا فى الآخرة فإن الأبرار لاتزعجهم سكرات الموت .

(٩) صن لسانك عن مساوىء الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، وتحر محاسن الكلام واجتنب قبائحه فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة .

(١١) لاتهمل الترحم على والديك ، ومتى قمت بذلك قام به لك ولدك

(١٢) اعتن بأبنائك كما اعتنت بك أمك ولا تغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك

(١٥) إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط عليك .

(٢٠) النظام فى البيت يكسبه حياة حقيقية .

(٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها

(٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك

(٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال ، إنما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والعفاف .

(٣٨) لا تستسلم لليأس والقنوط مهما قام فى سبيلك من العقبات والشدائد .

(٤١) لا تثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الخراب العاجل .

(٤٦) تلطف مع ضيفك وحادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف فى الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

(٤٨) لا تكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية . انتهى .

هذا هو الذى اخترته من حكمه ، وهناك ضائع أخرى لرجل يقال له (قاقمنه) وآخر يقال له (بتاح حتب) وهذا الأخير قد وجدت له (٤٤) لوحة قد نقشت عليها حكمه ، ولأذكر لك منه ثلاثة ألواح

[لوحة ١٠] إذا تواضعت امتثالا لرئيس فليكن سيرك مع الله حسنا جدا ، فالسعد لا يأتى إلا عن إرادته وليس هناك أحكام سوى مشيئته .

ومما جاء فى اللوحة الرابعة عشرة [تمسك برأيك متى كان الحق بيدك ، إن الذى يملك نفسه خير ممن غمره الله بعطاياه ، لأن الرجل الذى ينقاد لهواه يكون تحت سلطان امرأته ، بين منهاج سلوكك من غير كلام] .

وجاء فى اللوحة (٣٤) ليكن وجهك باشا ماعشت .

النبذة الرابعة

كان قدماء المصريين يعتقدون بقاء النفس وكانوا يرون أن الإنسان يكون أمام محكمة مكونة أمام الإله أوزيريس و٤٢ قاضيا ويتولى الرئيس عملية وزن القلب ووضعه فى كفة الميزان والعدل فى الكفة الأخرى فاذا رجحت الكفة الأولى أوساوت قبل المتوفى فى مملكة أوزيريس ، وأهم هذه المملكة عندهم الزراعة فتقوم الأرواح بحرث الأرض وبذر الحب وجنى محصول الذرة السماوى وهى أحسن وأجمل من ذرة الأرض ، وفى تلك المملكة تكون الأرواح فى المجارى السماوية وتجلس تحت وارف ظلال الأشجار الباسقة وتلعب الألعاب التى تهواها ، والإنسان يكون له جسم روحى يبدأ فى الوجود من وقت أن يوضع فى القبر ويأكل المتوفى خبزا لا يتعفن ويشرب خمرا لا يفسد وملابسه أردية بيضاء ويجلس على عرش وسط الملائكة الذين يجلسون حول شجرة الحياة ويلبس التاج الذى يعطيه له الإله ويعيش مع الإله (رع) إلى الأبد .

وعملية التحنيط المعروفة عند قدماء المصريين التى أشار لها القرآن بقوله « فاليوم ننجيك ببدنك » محفوظا كسائر قدماء المصريين إنما اخترعوها سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد وبقى إلى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد لاعتقادهم أن النفس بعد أن تمر فى أدوار كثيرة تعود تحل فى الجسم فلهذا كان التحنيط ، ولهم قصة خرافية وهى أن

(أوزوريس) كان يحب أمته المصرية فعلمها وفتح البلاد الأخرى بغير حرب ومعه(توت) ولكن أخوه(سيت) غار منه فصنع له صندوقا وأهداه له على شرط أن يكون على مقدار جسمه ، فلما دخله أقفله عليه وهو متحد مع الضباط وألقاه في النيل فبحثت عنه زوجته ( إزيس ) وعثرت عليه في البحر وخبأته في غابة كانت أشجارها متكاثفة وذهبت تبحث عن ابنها (حوريس) في مدينة (بونو) جنوب البرلس في الدلتا ، ثم إن (سيت) عثر على الصندوق وهو يصطاد في ضوء القمر فقطعه ١٤ قطعة وبعثرها فبحثت عنها ( إزيس ) وجمعتها إلا قطعة واحدة وركبتها في مواضعها من البدن وحنطت الملائكة جسمه وصنعوا له تمائم ولفائف ، فبهذا انتقل من القبر إلى السما. وله فيه قصر عظيم وأصبح ملك (أوزوريس) هوالذى يصعد إليه الأرواح الطاهرة بعد الموت ولابدّ من التحنيط وعمل السحر والطلاسم ، هذا هو السبب في التحنيط عندهم اه .

فسبحان من جعل الخرافات سببا في العلوم النافعة للانسان وحفظها على مدى الزمان، والحمد لله أولا وآخرا .

ويقال إن فرعون موسى عثر عليه منذ سنين في جهات الوجه البحرى فى مديرية الشرقية ، وعسى أن أعثر على هذا النص فألحقه بهذا الكتاب ، والله المستعان .

### فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمتحف المصرى

وبعد كتابة ماتقدم بيومين اطلعت على ما كتبه أستاذنا في علم الآثار المصرية الأستاذ أحمد بك نجيب أمين ومفتش الآثار المصرية في [ الموسوعات ] في أعداد مختلفة ، فلأُلخص ما كتبه بغاية الاختصار قال :

إن رمسيس الثانى (سيزوستريس) هو الذى ربى موسى عليه السلام . وأن ابنه (ريان با) وهو المعروف باسم (منفطه) هو الذى غرق في البحر وهما معا من الأسرة التاسعة عشرة ، قال وقد أجمع العلماء أن فرعون (منفطه أوريان با) هو الغريق والحمد لله على وجود جثته الآن ، وأما العبرانيون فإنهم دخلوا مصر أيام احتلال العمالقة لها وأقاموا في وادى غسان المعروف الآن برأس الوادى بمديرية الشرقية ولفظة (فرعون) كانت اسما عاما لملوك مصر كلفظة (قيصر) علم على كل من ولى الروم ، و (كسرى) لكل من ولى العجم ، و (نجاشى) لكل من ولى الحبشة ، و (أمبراطور) لكل من ولى رومه ، وفرعون أصله (ابرعا) أو (فرعا) معناه (الدار العظيمة) لأن (فر) معناها الدار و (عا) معناه العالية أو الجليلة أو العظيمة كما يقال الآن (الباب العالى) أو (الباب الهمايونى) ، قال : وبعد رمسيس الثانى الذى ربى موسى و (منفطه) أو (ريان با) الذى غرق في اليمّ لم يذكر في الآثار شيء عن العبرانيين ، قال وإنى في اليوم الثانى من شهر مايو سنة ١٩٠٠ فتحت تابوت (فرعون) بمشهد من علماء الآثار وقسته فكان طوله من قمة رأسه إلى قدمه مترا واحدا واثنين وسبعين سنتيا وعرضه عند الأكتاف أربعون سنتيا ، ومن قمة رأسه إلى الكتابة التى على صدره ٤٥ سنتيا ، قال ولم أر وجهه لأنه مسجى بأكفان من قماش الكتان يضرب لونه إلى الصفرة الداكنة من تأثير الحنط عليه ، وتابوته مصنوع من قماش كالورق القوى خال من الكتابة وهو لاشك أنه ليس تابوته الأصلى ، ومعنى (ريان با) شمس العلم أو روح الشمس ، وقال أستاذنا أيضا : إن رمسيس الثانى استعمل العبرانيين في بناء قلاع كبيرة وعمل طريق يمرّ بوسطها يخرج من مدينة رعمسيس ويسلك إلى الشرق مع الجنوب حتى يدخل قسم آسيا ، وهناك قلعة باسم فرعون موسى نفسه ابن رمسيس الثانى وهى مذكورة في ورقة من البردى أرسلها أحد العمال إلى رئيسه يعلمه بما فعله، وهاك نصها [ عما أمرّ به خاطر سيدى هو أنى أخبره أننا أعطينا الحرية التامة إلى قبائل الأعراب الآتية من إقليم (ادوم) لتمر بغاية الحرية من قلعة (خاتوم) للملك ( منفطه) وهو فرعون موسى كما تقدم ، وهناك حجر محفوظ بالمتحف المصرى مكتوب في السنة الخامسة من حكم هذا الملك عليه لفظة (إسرائلو) أى الإسرائيليون ، وهاك ترجمة بعض عباراته ( وقبيلة خاتى سلمت فسلمت ، وقبيلة كنعان قد

سجنت على أقبح كيفية ، وأهل عسقلان أحضروا أذلاء ، وأهل غزة وما حولها جاءوا أسارى ، وقبيلة (أيانواميم) انعدمت ، وأمة (إسرائيليو) هلكت وما عاد لديها حبوب للأكل ، وقبيلة خارو صارت كأرملة حقيرة بمصر ] اهـ .

وقال رحمه الله فى سبب ادّعاء الملك (منفطه) الألوهية : إن هذه عادة هؤلاء الفراعنة جميعا ضعافا كانوا أم أقوياء ، قال وانظر إلى مسلة المطرية تجد عليها ماصورته [ الجليل حياة كل مولود ملك الصعيد والبحيرة دام بقاء صاحب التاج معطى الحياة لكل موجود الإله العظيم ابن الشمس الخ ] وهذا الممدوح هو الملك (أوزرتسن الأول) فى العائلة الثانية عشرة وهو صاحب هذه المسلة ، قال ولقد كان (رمسيس الثانى) والد فرعون مصر أول من سخر العبرانيين فى الأعمال فبنوا له مدينة رعمسيس ومدينة بيتوم ، وهاك نص ورقة بردية محفوظة فى بلاد الإنجليز بقلم رجل مصرى يسمى (كايزاك) أرسلها إلى رئيسه المدعو (بى كانبتاح) يعلمه أنه أنفذ أمر الملك سيده وصورتها [ قد أطعت أمر سيدى رمسيس وفعلت ما أمرنى به حيث قال لى أعط قمحا إلى العساكر الخفراء وإلى العبرانيين الذين ينقلون الحجارة لبناء الحصن العظيم بمدينة رعمسيس الذين هم تحت رئاسة (أمنمان) رئيس فرقة المحافظين على العمال فكنت أعطيهم قمحا فى كل شهر حسب الإرادة السنية التى أمرنى بها سيدى ] وعلى ظهرها مكتوب [ هذا حساب البنائين الذين أدّوا الأعمال المفروضة يوما فيوما بدون انقطاع عن العمل ماعدا الرجال الذين يصنعون الطوب ] ومدينة رعمسيس اختلف العلماء فى مقرها ؛ فقيل إنها مدينة (صان الحجر) بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، وقال أستاذنا بدار العلوم المفتش المذكور إنها فى مكان أطلال (المسخوطة) بالشرقية ، فالمسخوطة المذكورة هى رعمسيس ، وقد وجد اسم رمسيس على لبنها (طوبها) وهذه المدينة أجمل المدن المصرية وقد وجدت ورقة من البردى محفوظة فى بلاد الإنجليز فيها قصيدة لشاعر مصرى اسمه (بنبنا) يخبر أحد الأمراء المسمى (أمنم ايت) وكان الملك رمسيس دعاه لوليمة يوم الفراغ من بنائها ، قال [ لما دخلت مدينة رعمسيس وجدتها فى أحسن حال مالها مثيل فى عمارات (طيبة) ولا عمارات (جبل السلسلة) فهى مدينة النعم وحقولها مملوءة بالأشياء اللذيذة والمأكولات الفاخرة وحيضانها مملوءة بالسمك والطيور المائية تدرج على غدرانها ومروجها خضرة وسفن البحر تأتى إلى ثغرها وتكثر فيها الخيرات طول السنة وينشرح صدر من يقيم فيها إذ ليس بها من يعارض ولا من ينازع والصغار والكبار فيها سيان وترى فيها الجوارى الحسان جوارى الملك قائمات على أبوابها والفرح عاما فى جميع أرجائها ، عشت يارمسيس فى صحة وعافية ] .

وقال بروكش باشا : إن موسى عليه السلام تربى فيها حيث كانت محل إقامة الملك ، أما تخت مصر فكان فى مدينة (طيبة) أو (طيوه) ومكانها الآن الأقصر أو الكرنك والقرنه ومدينة آبو بمديرية قنا اهـ .

وذكر أستاذنا أيضا فى تلك المقالات ماوجد منقوشا باللغة البربائية على جدار معبد الكرنك مما يختص بتعذيب الأسرى ، قال (سطر ٥) لما كان الملك (منفطه) هو الذى يعطى الحياة إلى قومه حضهم على ترك الخول (سطر ١٣) أتى (مرمايو) ملك الليبيين بن ديد بجنوده المؤلفة من الشاواشيين والكحاكين والسردانيين والشكلاشيين وهجم على مصر (سطر ١٦) وجمع ملك مصر رؤساء عساكره وقال لهم اسمعوا أنا الملك (منفطه) الحارس ، أنا رب مصالحكم أنا أبوكم . هل فيكم من يماثلنى ويحمى أولاده مثلى ؟ ها أنتم ترتعشون كالوز أمامى (سطر ١٩) هاهو العدو دخل بلادنا هل يستطيع النيل أن يردّه عنا ؟ كلا ثم كلا (سطر ٢٢) مرادى الآن قتل الأعداء وسحبهم على بطونهم كالسمك ولا عبرة برئيسهم الذى صورته كصورة الكلب (٢٥) أنا الذى بيدى الإعطاء والمنع والدنيا تحت حكمى ، أنا (منفطه) القاهر ملك مصر (سطر ٣٣)

واندفعت عساكر المشاة مع عساكر العربات على العدو فأغرقوه فى بحر الدم (سطر ٤٦) أما عساكر مصر وشبانها فعادوا يسوقون حميرا تحمل الغنائم والأحاليل المقطوعة من العدو مصنوعة حزما وموضوعة فى جلود (سطر ٥٢) أن ٦٣٥٩ لبيون مقتولون وأحضرت أحاليلهم (سطر ٥٦) ٦١١١ رجلا من الأعداء قطعت أحاليلهم بحضرة الملك (انظر لهذا التوحش) . (سطر ٥٧) ٢٣٧٠ أيد مقطوعة أحضرت لدى الملك (سطر ٥٩) ٩٣٧٦ أسرى .

ورجع الملك إلى طيبة فى موكب حافل ، وقد وجد مكتوبا فى ورقة محفوظة مانصه : ما أعظم عودتك أيها الملك إلى (طيبة) تظلك سحابة النصر وعربتك تسحبها الرجال ، أما الرؤساء المغلوبون فيمشون أمامك القهقرى وأنت تسوقهم إلى حتفهم اه .

وإنما نقلت لك هذا لتعرف كيف كان فرعون موسى يعذب الأمم المغلوبة ؟ وكيف سخر بنى إسرائيل كما سخرهم أبوه . وكان يفهم قومه أنه معطى الحياة وفى يده كل شىء وهذا ماجاء فى القرآن من قوله « أنا ربكم الأعلى » وغيره ، وهكذا تعذيب بنى إسرائيل المتكرر فى القرآن اه .

نبذة خاصة ورد اعتراض

لعلك أيها الذكى المطلع على هذا الكتاب تقول كيف أطلت فى هذا المقام ؟ ولماذا تذكر حكم القوم تارة ومظالمهم تارة أخرى ؟ ولماذا تكرر هذا القول ؟ أتريد أن تعلمنا علمهم ؟ أوليس القرآن بكاف ؟ أو ليس ديننا يغنينا ؟ . أقول : على رسلك ولا تلم .

اعلم أن من يظن أن قراءة القرآن وفهم معانيه القريبة والاقتصار عليها يكفى المسلمين مخطىء كل الخطأ بل جاهل كل الجهل ، فقل لى بربك إذا سمعت الله يقول « ولله على الناس حج البيت » أفلا تسعى إلى الحج أم تكتفى بفهم الآية ؟ فلا إخالك إلا قائلا لابد من الحج .

أقول : هكذا يقول الله هنا « فاليوم ننجيك » بامنفطه ( ريان با ) وبحفظك فى أماكن بالبلاد المصرية وبأمر بتحنيطك وبقائك للسائحين والغادين والرائحين «لتكون» أنت وأمثالك من الفراعنة «لمن خلفك آية» ترشدهم إلى العلوم والمعارف والاتعاظ بذهاب القرون ويقف على صنائع قومك وعلومهم أهل أمريكا وآسيا وأفريقيا وأوروبا ، والمسلمون أيضا متى فقهوا وعقلوا « وإن كثيرا من الناس » فى الشرق والغرب «عن آياتنا» فى بلادك وقومك وعلومكم ومعارفكم وسيركم وغيرها مما خلقنا فى السموات والأرض «لغافلون» والغفلة موجبة الحرمان كما سيأتى فى قوله تعالى « ويجعل الرجس على الذين لايعقلون» فأما إذا لم يغفل الناس واطلعوا على علوم الأوائل كقدماء المصريين وشاهدوا فى الحكم السابقة وغيرها أن الله قد أنزل عليهم منذ سبعة آلاف سنة أنه يزن الأعمال وأنها إذا ثقلت نجا صاحبها وإذا خفت لم ينج ، وأن الرجل المظلوم إذا دعا الله ينجيه ، وأن قوى الإرادة لايغلبه النساء ، وأن المخلص لله تلحظه عنايته ومن توانى فى خدمته يهمله وأن من اتهم زورا ورفع مظلمته إلى الله فالله يظهر حقه ، وأن السعادة ليست فى المال وجده بل فى الفضيلة والقناعة ، وهكذا من الحكم الشريفة العالية . إذا فعل الناس ذلك ولم يغفلوا عرفوا أن شرائع الله القديمة كانت كالحديثة وأنها متتالية متتابعة متحدة فى الأصول ويحصل للمرء التناس والاطمئنان .

أوليس الله يأمرنا أن ننظر فى السموات والأرض ، فإذن آيات القرآن تشير إلى آيات السموات والأرض وما أنتجه عقل الإنسان قديما وحديثا ، فآيات القرآن أشبه بالمنظار المعظم ترى به الأشياء القريبة والبعيدة فمن ظن أن المنظار مقصود لذاته فهو جاهل كمن يرى أن القرآن وحده كاف فهو مخطىء . إنما القرآن نزل ليعمل به ولا عمل به إلا بأن نبحث فيما خلق الله فى السموات والأرض من العجائب ونقرأ العلوم وندرس علوم

الأمم

الأمم : أى أن يكون فى الأمة طوائف لكل علم طائفة تقوم بعلم أو صناعة ولو كانت تعدّ بالمئات ، انتهى الكلام على لحسنات المصريين وسيئاتهم العملية .

الكلام على محاسنهم العلمية . نظام السموات عند قدماء المصريين

جاء فى أوائل السورة « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل » وقال « إن فى ذلك لآيات الخ » ، وكرر لفظ الآيات ثلاث مرات وهكذا ذكر الآيات وذم الإعراض عنها فى الكلام على فرعون، فياليت شعرى يمرّ هذا القول مرورا علينا ولا نعطيه حقه ، ذم الله الغفلة عن الآيات عند ذكر الشمس والقمر وذمّها عند الإشارة للفراعنة فما هذه الموافقة فى سورة واحدة ، ولماذا تذم الغفلة عن الآيات فى سورة واحدة ، إن فى ذلك سرا عجيبا فاستمع لما سيأتى :

علم الفلك وقدماء المصريين

جمال الصور السماوية يسحر العقول ـ احتجب عن جميع الناس وهم ينظرونه ـ محاولة قدماء المصريين قبل غيرهم كشف هذا الحجاب ـ رسمهم الصور السماوية التى يقرؤها الناس فى أوروبا والشرق الآن ـ وجوب معرفة نتائج العقول فى الشرق والغرب لأن العقل البشرى صنع الله كما أن عقول الملائكة من صنعه فالعالم كله مصنوعاته وعلى المسلمين أن يعرفوها

اعلم أننا خلقنا فى جوّ من الجمال والبهجة والحسن والإتقان والكمال والسعادة والحبور ، ولو أننا أدركنا ما نحن فيه من الجمال لذهلت عقولنا وأصبحنا فاقدى الشعور والإحساس لا نعقل .

أقول هذا لك أيها الذكى وأنا موقن به ، إن الله وضع أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية تلك الأجسام التى وضعت بحكمة ودقة وأحاطت بها الأنوار من الشمس والقمر والكواكب والجمال ، الشمس تقسم الزمن أياما ، والقمر يقسمه شهورا كما تقدم موضحا ، والشهر الواحد يجعله أربعة أقسام ؛ فمن المحاق إلى التربيع أسبوع ومن التربيع الأول إلى ليلة البدر أسبوع ، ومن ليلة البدر إلى التربيع الثانى أسبوع ، ومن التربيع الثانى إلى المحاق أسبوع .

فالشمس والقمر قد فصلا الزمن تفصيلا ، فالأيام والسنين الشمسية عرفت بسير الشمس كما تقدم والأسابيع والشهور القمرية والسنين القمرية عرفت بالقمر ، إذن الشمس والقمر تكفلا بتقسيم الزمن أياما وأسابيع وشهورا قمرية وشمسية وسنين كذلك ولولا ذلك لم نعرف الأيام وما بعدها ، ونجد القمر والشمس والكواكب لا تخطئ فى سيرها والأنوار الفائضة منها على الأرض جميلة بهجة تتلوّن كما تتلون فى أنوارها العقول فأنوار الكواكب ليلا مختلفة فى الظلام الحالك والقمر يقسم الليل تقسيما بأضوائه ويظهر ويختفى على أشكال مختلفة ، وهكذا أنوار الشمس تختلف فى أثناء النهار . فبينما نرى ضوء أدنى كوكب بالنسبة إلى الشمس أقلّ من مليون مليون وضوء غيره من الكواكب أقلّ من جزء من مليون من ضوء الشمس وضوء البدر أقلّ من جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس نراها أيضا والقمر يتلوّنان ألوانا محسوبة منظمة جميلة لا يستقران فى هيئتهما على حال ، الحيوان حولنا والنبات وعجائبهما لا تتناهى ، فى أرضنا عجائب كثيرة ، أجسامنا مصنوعة من الحكمة بل هى حكمة مدمجة ؛ لو أن أرواحنا خلقت فى هذه الأرض مجردة عن المادّة لذهلنا من الجمال الذى غرقنا فيه ولكن من لطف الله أنه أجاعنا وأعرانا وسلط الحر والبرد علينا وجعل الأرض لنا دار عمل ونصب وشقاء ، لماذا ؟ ليحجبنا عن هذا الجمال ، ولماذا؟ لأجل أن يحفظ عقولنا فيربيها فلا يعطيها هذا الجمال إلا بمقدار شيئا فشيئا بالتدريج وهذا التدريج يكون بالتعلم .

فصل فى أن أول من تفطن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين

قد قلت لك أيها الذكى إن الناس خلقوا فى الجمال وحجبوا عنه وهم بالتعلم يعرفونه شيئا فشيئا ، وها أنا ذا

أذكر هنا أن أول من ابتدأ بمعرفة هذه العلوم هم قدماء المصريين ولا خلاف فى ذلك ، وإنما أردت ذلك ليظهر سر القرآن ولماذا يذكر الغفلة عن الآيات ويذمها فى السموات والأرض وفى معرض ذكر أبدان الفراعنة وسوّى بينهما فى ذمّ الغفلة .

إن هذا الزمان هو زمان ظهور النور الإسلامى ، انظر ماذا ترى ؟ ترى أن الأمم ماعدا المصريين كانوا فى غفلة ساهون قبل العصر المكدونى ، فقد كان العبريون لايعرفون سوى بلادهم وما جاورها من الممالك ، وكان اليونان فى أيام هوميروس الشاعر المشهور : أى قبل المسيح بسبعمائة سنة يظنون أن بلادهم وآسيا الصغرى فى وسط المسكونة بحيث جعلوهما شاغلتين جزءا عظيما من سطح الأرض ، وقالوا إن حولهما جزائر البحر المتوسط وإن مصر وسوريا وإيطاليا حول ذلك البحر المحيط .

وتنبه بعد ذلك (بطليموس) فى عهد الرومان سنة ٢٣٠ إلى شئ من ذلك ، وهكذا أخذ العلم ينمو شيئا فشيئا ، أما الأمة المصرية فإنها كانت قد سبقت هذه الأمم إلى معرفة نظام السموات وصور نجومها وبروجها .

هيئة السماء فى صندوق حتر بطيه وهيئة البروج فيه

وما صاحب هذا الصندوق إلا من الفراعنة الذين نجاهم الله ببدنهم فكان لمن خلفه آية للشرقيين والأوروبيين فهو مصداق القرآن وذلك من آيات الله فى القرن العشرين .

واعلم أنى قد قدمت لك فى سورة الأنعام نبذا من الصور السماوية عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وأن تلك الصور ثلاثة أقسام : الصور الشمالية ، والصور الجنوبية ، والبروج التى هى داخل منطقة فلك البروج ، وذكرنا هناك أن الصور كلها نحو ٤٨ صورة وهى مسماة بأسماء أشياء أرضية من الحيوانات وغيرها ، ثم أقول الآن : إن الناظر إلى السماء لايرى فيها رسم حيوان ولا إنسان ولا شيئا من ذلك فإذا سمعتهم يقولون الثور وهو أحد البروج أو الجدى أو السنبلة أو الحوت فاعلم أنه لاحوت ولاسنبلة ولاثور ولا شئ من ذلك ، وإنما هى صور خيالية تخيلوها وسموها ، وتجد أمم الأرض قد اتفقوا جميعا على تسمية مجموعات النجوم بأسماء ولكنهم لم يتفقوا على تلك الأسماء ولا فى واحد منها ؛ فالصينيون أكثروا من أسماء المجاميع حتى بلغت ثلثمائة اسم وسموا بعضها بأسماء عظمائهم ، والعرب سموا المجاميع بأسماء حيوانات وغيرها كالدب الأصغر والدب الأكبر وبنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى ، والآريون سكان الهند صوّروا السماء بصور أخرى فى كرتهم التى أتموها قبل المسيح بنحو تسعة قرون ، فرسموا فيها نجمة وزنبقا وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجى ضخم الجثة ، والصور اليونانية التى ذكرها بطليموس فى المجسطى يظهر كما قال بعضهم إنها عملت فى بلاد العرب أيام الجاهلية وأهل (أسكنديناڤيا) سموها بالكلب والمركبة والمغزل و (الإسكيمو) وضعوا بينها صورة حيوان بحرى فى بلادهم ، وترى الثريا فى العربية مشتقة من الثراء أى الغنى وفى اللسان المصرى اسمها الكثرة لكثرة نجومها ، وفى الهندية الدجاجة وفراخها ، وهنود أمريكا يسمونها بما معناه الرجال والنساء أو الراقصات ، والمصريون القدماء كان عندهم كرّات مصوّرة من قديم الزمان ولم تزل آثارها فى قبر الملك (سيتى الأول) فى بيبان الملوك ، وكذلك فى قبر الملك رعمسيس الرابع فى مدينة (أبو) ففيها صور بعض مجاميع النجوم مثل النهر والسهم والكركدن ومغن .

ها أنا ذا الآن أكتب هذا وبين يدى الصور المنقولة من كتاب أبى الحسن الصوفى الذى ألفه فى أواسط القرن الرابع للهجرة نسخت للسلطان ( أولغ بك كوركان ) والصور المنقول عنها كانت ملونة وهى لسائر الصور السماوية وقد أجاد المصور رسمها وتزويقها وأفرغ فيها دقيق الصنعة ورسم الكواكب فيها بالذهب ، وها أنا ذا أشاهد فى الكتاب أمامى الآن صورة التنين من رسم العلامة المذكور ، ولكن ليست هذه

الصورة ملونة كالمنقول عنها ، هذا ما أردت أن أقدمه فى هذا الموضوع قبل الدخول فى المقصود وهو الكلام على صور قدماء المصريين التى صوروها ووجدت الآن فى مقابرها مصورة على صناديقهم مصداقاً للآية إذ يقول الله « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » هانحن أولا. نقرأ آيات الله المرسومة فى مقابر قدماء المصريين .

أكتب هذا وأمامى هيئة البروج الاثنى عشر وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وهاهو ذا صندوق حتر الذى وجدوه بطيبة وفيه رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها وبسترها ثوب طويل وفى رجليها نعلان وعلى رأسها عصابة وقد رسمت فوقها الشمس وعلى جانبى المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهى السرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس ، وستة على اليسار وهى من الجدى إلى الجوزاء ، وترى هذه الصور واضحة جلية فترى صورة السرطان على يمين المرأة الخ .

وهكذا بقية البروج فترى الجوزاء بهيئة امرأتين متقابلتين قد مدت إحداهما يدها إلى الأخرى للسلام عليها وأمسكت كل منهما يد الأخرى ورجل كل منهما تخطو إلى الأخرى والثور واقف قبل تلك الصورة، والدلو عبارة عن رجل واقف يصب الماء من إناء بين يديه ، والجدى نصفه معزى ونصفه الآخر على هيئة السمك .

صورة منطقة فلك البروج التى وجدت فى هيكل (دندرة) فى عصر القياصرة الأول

ها أناذا أرى شكلها أمامى فى كتاب [الحضارة القديمة فى مصر والشرق، الجغرافيا الرياضية] أو [علم الهيئة عند قدماء المصريين] لصديقنا المرحوم الأستاذ الجليل أحمد بك كمال ، ها أناذا أيها الذكى أبنت لك كيف تصور الناس هذه النجوم قديما ؟ وكيف جعلوها مجاميع ؟ وكيف صوروها بما يعرفون ؟ وكيف كان قدماء المصريين قد رسموها وجعلوها فى مقابر عظمائهم وكبرائهم ؟ وكيف صوروا البروج التى نعرفها نحن بنفس الصور التى نعرفها كالثور والسنبلة والحمل والحوت الخ ؟ وكيف كان هذا العمل من النوع الإنسانى كله قديما وحديثا وعند علماء الإسلام وأوروبا ليكشف الناس الحجاب الذى حجب عقولهم عن ذلك الجمال الذى ستره عنهم الشهوات والحروب والنوائب وحدثان الدهر وتقلباته. فهم بهذا الدرس يحتالون ليدركوا جمال هذا العالم الذى نعيش فيه ، وكيف حثّ الله على النظر فى هذه السورة وذكر الشمس والقمر والضياء والنور ؟ وكيف ذمّ المعرضين عن ذلك الجمال فى الآيات كما ذمّ المعرضين عن الآيات فى مقام ذكر نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وكيف كانت الفراعنة قد رسم على صناديقهم تلك الصور السماوية وأودع فى مقابرهم وآثارهم حكمة الله عز وجل فى السماء والأرض .

القرآن يأمر بالنظر لكل ماهو محكم الصنع

إن الله يأمرنا بالنظر فى مصنوعاته كلها كالشمس والقمر والأرض ، وبالنظر فى مصنوعات الحيوان كالعنكبوت والنمل والنحل وفى النبات الذى هو تحت تدبير الملائكة ، وهكذا كل حيوان وإنسان وغيرهما

إن الملائكة بالنسبة لله تعالى « ولله المثل الأعلى » كالعين والأذن واليد والرجل للإنسان ؟ فكما أن أحدنا يقول رأت عينى أو رأيت أنا ويقول سمعت أذنى وسمعت أنا ، فالسامع والرائى إنما هو نفس الإنسان إذ الأذن والعين إنما هما له ، فهكذا يقول الله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ويقول « قل يتوفاكم ملك الموت » فعمل الملك هو عمل الله ، وما الملك إلا نوره سبحانه وتعالى وشأن من شئونه ، وما عمل العقلاء من نوع الإنسان من هندسة وتصوير وعلم وحكمة إلا أثر من آثار الملائكة ، إذ الثابت فى ديننا أن كل عمل إنما يكون من إلهام ملك إن كان خيرا ، ومن وسوسة شيطان إن كان شرا ، إذن علوم قدماء المصريين

المرسومة فى الهياكل وكذا كل العلوم التى ألقاها للملائكة على قلوب العلماء فى الهند والصين وعلماء الإسلام وعلماء ألمانيا والنمسا والمجر واليابان وغيرها ، كل هذه يجب علينا النظر فيها وجوبا كفائيا ، وإذا قصرنا فيها عاقبنا الله بما نحن فيه الآن وزادنا منه ، أما أنا فإنى أديت ماقدرت عليه ونصحت أمتى .

إن الله ذم المعرضين عن آياته فى هذه السورة بعد ذكر الشمس والقمر كما ذم المعرض عن آياته بعد ذكر فرعون الذى نجا ببدنه وجعله آية ، فثبت بهذا أن مصنوعات الله ومصنوعات الحيوان ومصنوعات العلماء والعقلاء من بنى آدم كلها مصنوعاته وآياته ، وإذا كنا مأمورين أن ننظر فى النبات وجماله وفى نظام النحل وأفعاله والعنكبوت ونسجه ، فبالأولى نؤمر بأن ننظر فى فعل من هو أرقى وهو الإنسان ونأخذ بالأحسن والأفضل منه .

اللهم إنى قد أديت الأمانة لأمتنا الإسلامية ، وأنت أيها الذكى القارئ لهذا التفسير مسئول مثلى فعلم أمتك وأدركها وأخرجها من سجن الجهالة وأفهمها كتاب الله والله لايضيع أجر المحسنين اهـ .

تذكرة

اعلم أنى كتبت ماتقدم ولم يكن ليخيل لى أنى أرسم هاتين الصورتين الفلكيتين المصريتين لما فيهما من صور بعض الحيوانات فاتفق أن وقع نظرى على كتاب مؤلف حديثا فيه صور بعض الحيوانات وقد صدر بمقدمة فيها أحاديث وردت يؤخذ منها جواز صور الحيوان إذا كانت لاظل لها ، فعجبت كيف اطلعت على هذا اليوم ؟ ففكرت فى الأمر ونظرت نظرا علميا ففتح لى باب لن يقفل على المسلمين بعد الآن .

ذلك أنه ظهر لى أن الصور الشمسية ماهى إلا أضواء شمسية [ وبعبارة أخرى ] ظلالها والظلال إذا حرمها امرؤ فقد انسلخ من عقله ودينه ، وكل امرئ يباح له النظر إلى صورته فى المرآة فإذا دام النظر وتكرر لم يحرم ، وما الصور الشمسية إلا كالصور فى المرآة الخ ماسيأتى فاعتقدت الإباحة والأحاديث الواردة فى الجواز لما يرسمه الناس بأيديهم لابرسم الشمس إلى آخر ماسيأتى شرحه .

فها أنا ذا الآن أذكر ثلاثة فصول :

[الفصل الأول] فى رسم الصورتين الفلكيتين المنقولتين عن قدماء المصريين مع شرح العلامة أحمد بك كمال .

[الفصل الثانى] فى الكلام على مايجوز من الصور وما يمتنع وما يجب .

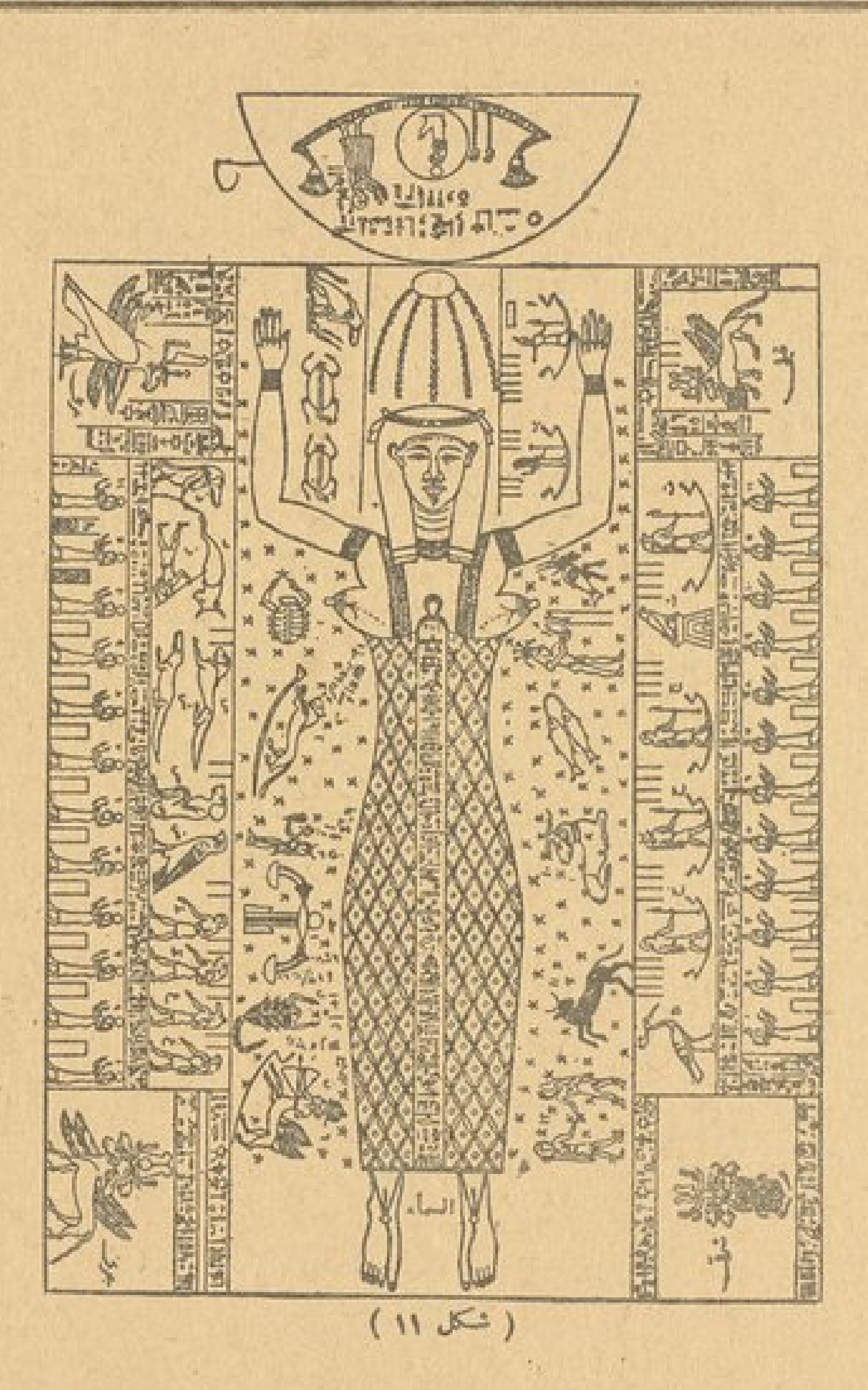
[الفصل الثالث] فى الكلام على بناء الأهرام بمصر لأن ذلك البناء من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة القدماء .

الفصل الأول فى رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما

قال العلامة الأثرى الكبير أحمد بك كمال فى كتابه [ الحضارة القديمة ] مانصه :

إن قدماء المصريين فى عصر اليونان أو الرومان حسبوا هيئة السماء بالكيفية التى وجدت على صندوق حتر بطلية (شكل ١١) وفيها رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل مثبت على الأكتاف بحمالات وفى رجليها نعلان ، وعلى رأسها عصابة وفوق رأسها إشارة هيروغليفية يشار بها إلى الشمس ذات الأشعة ، وعلى جانبى هذه المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهى السرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس ، وستة عن اليسار وهى الجدى والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء ، وأجل شئ يستحق الالتفات إليه الكواكب السيارة الخمسة البادية الذكر وهى بين النجوم المنتشرة عن يمين المرأة (نوت) منها اثنان فوق برج الأسد وهما كوكب المشترى وكوكب زحل أشير إليهما بحرف (ف) كما أشير بحرف (ق) إلى كوكب المريخ الموضوع بجانب برج السنبلة ، وفوق هذا البرج اسمه

وهو (نتر ـ سب تاحم) وبين الميزان والعقرب عند حرف (ك) كوكب عطارد ويسمى (سبك) وتحت ذلك نقوش صعبة الحل مرموز لها بحرف (ل) وهى تدل على برج الميزان ، وبين العقرب والقوس فى المكان المرموز له بحرف (م) كوكب الشعرى اليمانية (نتر ـ دوا) والكتابة التى فوق العقرب صعبة الحل أيضا وهى اسم برج العقرب . ويرى فوق القوس اسمه (اشت) وقد وضع فوقه حرف (ن) للدلالة عليه ، أما الصور المرموز لها بحروف (ت ث ج ح خ د) فإنها تدل على كواكب عرفت مدة الفراعنة لأنها وجدت مرسومة على بعض آثار الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ، وقد عرف قدماء المصريين نجوما غير ماذكر كالمرسومة بين ذراعى (نوت) وكالجوزاء المشار إليها بحرف (ا) والشعرى اليمانية والنجم المسمى (حس ـ مون) أو (وتر) أى النسر الواقع والدب الأكبر المرسوم على هيئة فخذ الثور يسمى (ضبس) والنجم (آن) والأسد (س) والتمساح (ش) والصور الأربعة المشار إليها بحروف (ط ظ ع غ) يرمز بها للملائكة الأربعة المختصة بحفظ أحشاء الأموات وهى (أمست) و (حبى) و (دواموتف) و (قبح سنوف) وقد جعلت هنا رمزا للنجوم أما الأربعة والعشرون صورة التى عن يمين ويسار المرأة الدالة على السماء فهى رموز للأربع وعشرين ساعة فساعات النهار جعلت على هيئة نساء فوق رؤوسهن قرص الشمس إشارة إلى النهار ، وساعات الليل رسمت أيضا كنساء فوق رؤوسهن نجمة إشارة إلى الليل وبجانب ساعات النهار كتابة معناها [ السلام عليك أيها المتوفى حزين المرحومة بحر الخ ] .

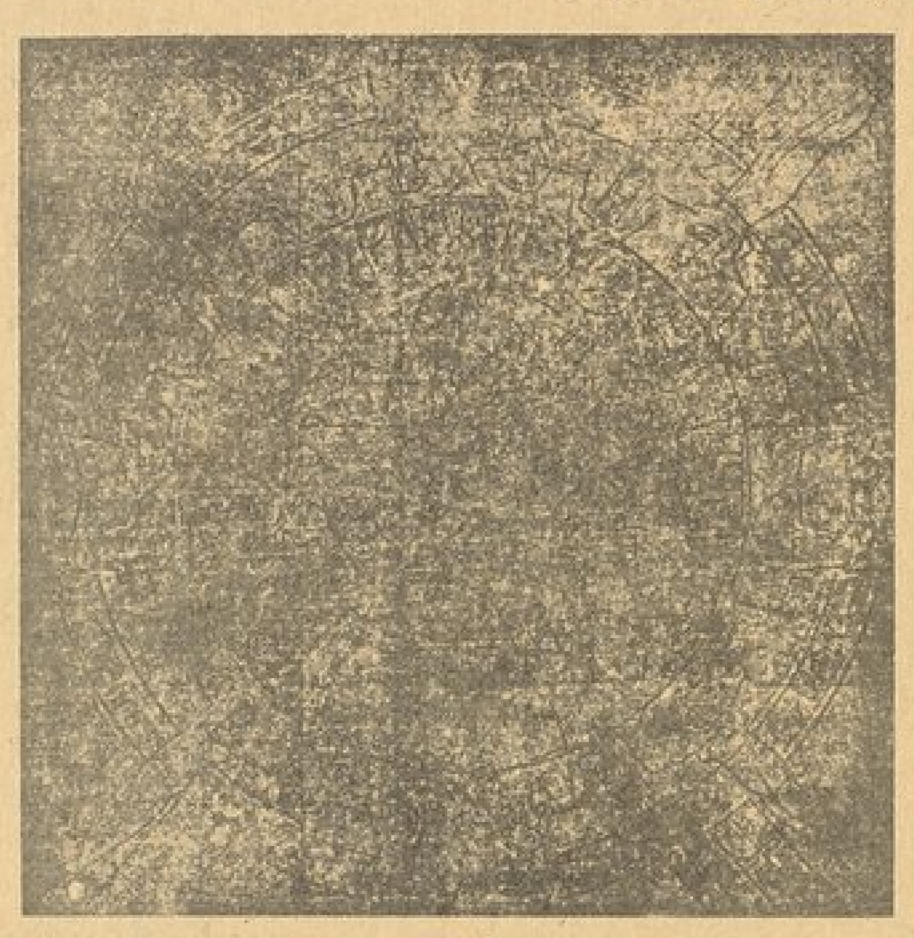



( شكل ١١ )

فالساعة الأولى هى ساعة الفجر والأخيرة هى ساعة المساء ، وقد رمز للنقط الأربع الأصلية فى أركان شكل (١١) أيضا بحيوانات ، فللجهة البحرية سبع له أربعة أجنحة ورأس كبش فوقه قرنان وبينهما قرص الشمس تعلوه ريشتان وبجانبيه ثعبانان وأشاروا للجهة الشرقية بعجل له أربعة رؤوس كباش ، وللجهة الغربية بباشق له أجنحة ورأس كبش عليه ريشة وقرنان فوقهما ثعبانان ، وللجهة القبلية بسبع له أربعة أجنحة وأربع رؤوس كباش ، ويشاهد فى الرسم الذى فوق رأس المرأة (نوت) الدالة على السماء مركب الشمس وفيها صورة للتوفى (حتر) انتهى الكلام على الشكل الحادى عشر .

## الكلام على الشكل الثانى عشر

هو الذى وجد فى هيكل (دندره) وهو رسم لمنطقة فلك البروج صنع فى عصر القياصرة الأول وهو وإن كان متأخرا لايخلو من الفائدة ، وإليك رسمه :



(شكل ١٢)

هذه الدائرة وجدت فى هيكل (دندره) الذى بنى فى القرن الأول وهدم فى آخر أيام البطالسة وتمّ بناؤه فى عهد القيصر أغسطس وذلك فوق معبد قديم من الطبقة الأولى اهتمت به ملوك الأسرة الثانية عشرة وأعظم ملوك الطبقة الوسطى مثل (تحوتمس الثالث) و (رمسيس الثانى والثالث) وكانت المنطقة مرسومة فى سقف الرواق الثانى من جهة الجنوب وقد أخذها الفرنسيون بأمر المرحوم محمد على باشا سنة ١٨٢١ وحملوها إلى مدينة باريس ، فترى فى هذه المنطقة (١) أربعة من صور النساء واقفات جعلت للدلالة على الشرق والغرب والجنوب والشمال وهى تحمل السماء ويساعدهنّ فى ذلك ثمانية من صور (حوريس) جاثيات رؤوسها على شكل الباشق وجسمها بجسم الإنسان ، وهذه المنطقة المحمولة على أيدى هذه الصور الاثنى عشر تنقسم إلى (٣٦) قسما وكل قسم إلى عشرة أقسام فيكون مجموع الأقسام (٣٦٠) قسما والقسم يوم ، وكانت هذه الصور الاثنا عشر التى ترمز إلى الملائكة ترأس منطقة فلك البروج القديمة المصرية فى أقسامها كافة ، ثم لما جاء اليونان بمصر ونشروا منطقتهم الفلكية جعلوا كل ثلاثة من هذه الصور لقسم من الدائرة وبهذه التجزئة بقيت المنطقة معتمدة للآن لدى علماء الفلك ، ويشاهد فى نفس المنطقة وفى أقسامها بعض نجوم رصدها المصريون قديما كالدائرة المشتملة على ثمانية من المذنبين المغلولى الأيدى الجاثين على الركب وعلى

الثعبان الكبير المتوّج بالتاج (اتف) وتبتدى المنطقة فى أعلى هؤلاء المذنبين ببرج الأسد ثم بواسطة البرج الأخير وهو السرطان تدخل فى الدائرة الموضوعة فوق الأسد بحيث يتكوّن من الجميع شكل حلزونى ، ويرى فى داخل الدائرة أن الكواكب قد رسمت كل خمسة معا فى هيئة رجال تسير الهوينا .

قال (شامبليون فيجاك) من تأمّل هذه الدائرة وجدها مبتدئة فى وسطها ببرج الأسد المرسوم كالسبع السائر فوق ثعبان ومن خلفه امرأة ، ثم ببرج السنبلة وهى امرأة فى يدها اليسرى سنبلة قمح ثم يلى ذلك من اليمين إلى اليسار برج الميزان بكفتيه ثم برج العقرب ثم القوس نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور وله أجنحة ثم يليه الجدى نصفه ماعزى ونصفه الآخر سمكى ومن بعده الدلو وهو كرجل يصبّ الماء من إناء بين يديه ثم الحوت وهو أسماك مجتمعة فى مثلث مخصصة بإشارة الماء ثم الحمل وهو أول البروج اليوم عند علماء الفلك وبعده الثور وكلاهما مرسوم فوق صورة إنسان سائر وبينهما الجوزاء ثم السرطان .

هذه هى البروج الاثنا عشر المرسومة داخل المنطقة ولأجل الوصول إلى معرفة ترتيبها والوقوف على أول بروجها نكتفى بالتأمّل إلى السرطان إذ هو الموضوع مباشرة فوق رأس الأسد ، وعليه فالاثنا عشر برجا موضوعة على شكل حلزونى وتعرف الشكل بسهولة لأن مبدأها الأسد كما تقدم ، أما غيره من البروج فيتبعه مرتبة حسب ترتيبه الوارد فى المنطقة ، وأما باقى الصور المنتشرة فى دائرة المنطقة فهى نجوم أشهرها الشعرى اليمانية وهى المرسومة كالبقرة تراها نائمة فى سفينة وعلى رأسها نجمة وفى جيدها هذه العلامة ( ☥ ) الدالة على الحياة وهذا النجم يعرف عندهم باسم (أسيس) ويتبع هذا الفصل [ جوهرتان ] الجوهرة الأولى فى عجائب هذه الصور الفلكية المصرية ، الجوهرة الثانية فى فوائد ذلك للمسلمين .

الجوهرة الأولى

انظر أيها الذكى فى هاتين الصورتين ، لقد تبين فيهما مافى علم الفلك من ثوابت وسيارات وما عرف الناس من البروج الاثنى عشر . وانظر كيف تجلّى ذلك فى الصورة الأولى التى وجدت فى قبر حتر مرسومة على صندوقه بهيئة صفين عن يمين وشمال وفى صورة معبد (دندره) بهيئة شكل حلزونى عجيب ، وكيف أمكن القوم أن يبينوا فى صورة على مقدار راحة اليدين الجهات الأربعة وأيام السنة وفصولها وشهورها وبروجها وقد رسموا ذلك بصور آية فى الحكمة وآية فى الصنعة وغرائب الإبداع ،ههنا تجلى معنى القرآن ، ههنا تجلت بدائع الفرقان .

ذكر الله فى أول السورة الشمس والقمر ونورهما وحسابهما وذمّ المعرضين عن ذلك ، وههنا أبان أن للانسان صنعا فى ذلك وذمّ المعرضين عنه ، إذن الله يذم المعرضين عن صنعه والمعرضين عن صنع عباده .

ألا ترى رعاك الله أن صنعه قد تجلى فى الصور المرسومة فى أول السورة مثل صور أوجه القمر وصور سديم المرأة المسلسلة وسديم الأسد وصورة المجرة .

هذه هى الصور التى لم تمسها يد البشر وإنما وضعت فى السماء بيد خالقها ورسمت على قراطيسنا بضوء شمسه ، ثم إنك ترى هنا صورا أخرى رسمت بيد العباد من آلاف السنين لتجمع أشتات الصور السماوية وتبين للناس مناظر السماء وبروجها موضحة بأشكالها حتى تكون أسهل مأخذا وأوضح تصوّرا وأقرب فهما ، جلّ الله وجلت الحكمة ، ههنا [رسمان] للصور السماوية ، رسم فى أول السورة بيد الله ، ورسم هنا بيد العلماء ، ذم الله المعرضين عن الصورتين ولم يفرق فى الذم بين من أعرض عن الآخرة ومن أعرض عن الأولى ، بل إن صور قدماء المصريين الصناعية أقرب إلى الفهم لأنها صور معدة للدراسة وأقرب إلى الأذهان ، إلا إنها هى أشبه بكتلة المخ الإنسانى ترسم عليه صور شق فيحفظها .

هكذا

هكذا الصور الفلكية لقدماء المصريين جمعت شتات علم الفلك فصارت كرآة النجم وهى صغيرة تريه كل عامرة وقفر ، انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية فى فوائد ذلك للمسلمين

رب مطلع على هذا يقول : كيف ساغ لك أن تحرض على قراءة علوم القدماء وهم قوم عباد أوثان ؟ أليس القرآن يغنينا ! . أقول : هذه شبهة قد نشرها إبليس بين المسلمين ليعدمهم عن ربهم ويذلهم لخلقه ، لم يقل أحد من علمائنا إن هؤلاء قوم محكوم عليهم بجهنم بل أجمعوا أن أهل الفترة ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان .

فالأمم التى لم تبلغها دعوة نبى تحاسب على مقتضى عقائدها وليس محكوما عليها بالهلاك ، فهذه شبهة ضالة خاطئة ، وأيضا هب أنهم ضالون فهل ضلال قوم يمنعنا عن أخذ مالديهم من المنافع .

اللهم إن كل قوم يحرمون ذلك فهم قوم ضالون ، وكيف يحرم الناس ذلك وقد قال الله « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » يقول « لهم قلوب يعقلون بها » ولم يبين أىّ معقول يعقلون ، أعلى يد كافر هو أم على يد مسلم ؟ وإذا كان ابن آدم يقول فى سورة المائدة كما مر هناك « ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى » أى أن الإنسان يتلقى العلم عن الغراب ويأخذ الحكمة عنه إذا وجد نفسه مقصرا عنه فى فضيلة أو عمل ما ، فإذا رأى الغراب يدفن أخاه يكون من النقص أن لا يدفن أخاه ؛ فكما تحسر ابن آدم على نقصه بالنسبة للغراب ، فهكذا يتحسر المسلم على كل ما يمكنه علمه مشتق من علم الطيور وبالأولى ما كان من علم الإنسان ، والمتحسر على نقصه عن الغراب يكون أكثر تحسرا على نقصه عن الإنسان الذى هو أقرب إليه وهو من جنسه .

وهذا هو المقصود فى هذه الجوهرة ، يعنى أننا نكون فى حسرة ونقص شديدين إذا سبقتنا أوروبا التى هى فى زماننا .

وإذا سبقنا قدماء المصريين ولم نعلم ما علموا ، فمن تحسر على معرفة الغراب فى دفن أخيه الغراب فما أحراه أن يتحسر على علوم مكتوبة له مرسومة على ألواح مرصودة فى المقابر مهيئة له ثم هو يولى معرضا عنها فحق عليه قول الله « ياحسرة على العباد الخ » .

حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام

وياليت شعرى إذا كان نبى الله سليمان عليه السلام يقول « ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين » ثم أخذ يذكر قصة النملة التى سمعها فى وادى النمل تقول « ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » سمع النملة سليمان ، فماذا فعل ؟

(١) تبسم ضاحكا من قولها .

(٢) « وقال رب أوزعنى » أى ألهمنى « أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ » .

(٣) « وأن أعمل صالحا ترضاه » .

(٤) « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

تبسم سليمان فرحا بأنه عرف ماتقوله النملة واعترف بنعمة الله عليه وعلى والديه وطلب من الله أن يعمل صالحا الخ ، فيقول سليمان إنه علم منطق الطير وأوتى من كل شئ ، ويقول إن هذا فضل مبين ، فإذا كان منطق الطير مع ماعطف عليه فضلا مبينا ، فما بالك بمنطق الحكماء والعلماء من نوع الإنسان .

إن الإنسان إذا عرف مانطق به الحكماء وما دوّنوه فى الألواح والكتب والطوامير يكون أولى بالشكر والإقرار لله بالفضل .

إن العلم المودع فى الإنسان أعلى من العلم المودع فى الحيوان ، فإعلان النبى سليمان شكره لله على علمه بمنطق الطير حضّ لذوى العقول أن يعرفوا نعم الله فيما نالوه من حكمة الحكماء، وعلم العلماء .

اللهم لم يبق بعد هذا البيان عذر لأمم الإسلام بعدنا ، اللهم قد أبنت بفضلك لهم مايجب عليهم من العلوم ونقل الحكمة ، إن للمسلمين بعدنا هم الذين يعرفون ماقرأته جميع الأمم وما ظهر من عجائب هذه الدنيا .

مرّت على المسلمين قرون وقرون وهم نائمون بعد العصر الأولى ، أنامهم شيوخهم المغرورون فقلّ أولو الألباب وذلت الأعقاب وهذا أوان استيقاظهم ، فليكونوا فيما مضى أشبه بحيوان عاش فى بيضة فصار دودة ثم فيلجة كدودة القز ، وها هو ذا قد جاء أوان استيقاظهم وبناء مجدهم فيكونون أشبه بذلك الحيوان وقد حل وثاقه وصار فى حرية يتمتع بالنسيج والشجر وأعمال الأزهار اه .

فهذا هو قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » انتهى .

ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والعرفان

قد ذكرت فى سورة الأنعام أن عويل نساء قريتنا على عظيم من عظمائها كان ذلك يورثنى حزنا على جهلى ، وأوضح الآن أكثر إيضاحا فأقول :

لقد كانت هذه حالى أيام الشباب ، فكنت إذا سمعت النادبات يندبن بهيئة منظمة موسيقية تحدث فى قلبى رقة وآلاما على جهلى بعلم الفلك ، لأنى كنت أنظر إذ ذاك إلى النجوم فى الليالى المظلمة وهى تلمع خلال النخيل المحيط بالقرية ، فكان يخيل لى أن أصواتهنّ ترتفع فى طبقات الجوّ صاعدة وأنا أصعد الأنفاس حزنا على جهلى بعلم هذه النجوم، وتارة كانت تحدث هذه حزنا فى نفسى على الآثار التى خلفها الأولون وأتحسر وأحزن على ما أودع فيها من عجائب ، ولست أدرى سبب اقتران بكاء النساء بهذا ولا بذاك ، ولكن هذه كانت حالى، وقد كنت أيام الصبا قبل المراهقة أبيت فى الحقل مع أقاربى فأسمع طنين الناموس فى الحقول فأحسّ فى نفسى بحزن عميق على جهلى بهذه الدنيا وهذا الوجود وكأن ذلك الطنين أرسل إلىّ ليذكرنى بالجهل الطويل الممتد كامتداد هذه الدنيا فلا أدرى أوائلها وأواخرها ، هذه كانت حالى أيام الصبا وحالى أيام الشباب .

أفلا يحق لى الآن ، بل أفلا يجب علىّ أن أشكر الله وأعلن فضله علىّ إذ جمعت من عجائب وغرائب النجوم والأفلاك صورا جميلة وبدت بهيئة ظريفة قد زينت الناظرين ، وبعض هذه الصور إلهية وبعضها بأيد بشرية مدفونة تحت أطباق الثرى كما كنت أجد فى نفسى أن فى السماء عبرا ، وفى الأرض وآثارها المدفونة خبرا .

اللهم إنى قد علمت من ذلك على قدر الطاقة البشرية وأدركت بعض نظام هذه الدنيا ، فأنا اليوم أحمدك وأشكرك على فضلك العظيم ومنتك الكبرى إذ أريتنى من عجائب كواكبك ومن غرائب خزائن الآثار التى رسمها القدماء ، وقد انقلب حزنى فى الشباب على الجهل سرورا فى المشيب على العلم والحكمة والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الفصل الثانى فيما يجوز من الصور وما يمتنع

ولما أردت أن أصنع صورة البروج المستخرجة من قدماء المصريين المذكورة حضر صديق لى من قراء

هذا

هذا التفسير وهو من أهل العلم الصالحين المطلعين ومن قرابتى وهو الشيخ محمد السيد دياب ، فقال : كيف تضع صورا فى التفسير والتصوير حرام ؟ فقلت إن الصور على نوعين : نوع ورد ذكره فى الأحاديث وكلام العلماء ، ونوع لم يرد . أما الذى ورد ذكره فى الأحاديث وكلام العلماء فهو قسمان : التصوير الذى له ظل والذى لاظل له ، والأول منهما محرم بالسنة وقد شرط له العلماء أن يكون على هيئة يعيش بها الخ ، والقسم الثانى مباح لما روى عن زيد بن خالد رضى الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة » قال بسر فمرض زيد بن خالد فعدناه فإذا نحن فى بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبدالله الخولانى : ألم يحدثنا فى التصاوير ؟ فقال إنه قال « إلا رقما فى ثوب ، ألاسمعته قال لا ؟ قال بلى ! فذكره » وروى الترمذى بسنده « أنه دخل على أبى طلحة الأنصارى يعوده فوجد عنده سهل بن حنيف ، فقال . فدعا أبوطلحة إنسانا ينزع نمطا تحته ، فقال سهل لم تنزعه ؟ قال لأن فيه تصاوير وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ماعلمت قال : أولم يقل إلا ماكان رقما فى ثوب ، فقال بلى ! ولكنه أطيب لنفسى » وقال الترمذى حسن صحيح . وروى « أن عائشة رضى الله عنها كان لها قرام ( ستر ) سترت به جانب بيتها فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم أميطى عنى فإنه لاتزال تصاويره تعرض فى صلاتى » اه .

وجاء فى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى والترمذى عن أبى هريرة « أن جبريل أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأمر بالستر الذى فيه تماثيل فيجعل منه وسادتان توطآن » فهذا يدل على أن تلك الصور ترجع إلى المقصود منها وهى مباحة .

أما النوع الذى لم يرد ذكره فى الأحاديث ولا كلام العلماء فهو التصوير الشمسى وما هو إلا صور رسمها الله بشمسه فاحتال الناس على سكونها فسكنت كما يرى الإنسان صورته فى المرآة ، فهل يباح لنا أن نراها فيها ولا يباح بقاؤها ؟ إنها من نوع الظلال الشمسية ومن حرم الظلال الشمسية تحت جبل أو حائط أو جمل فقد انخلع من عقله ودينه معا .

فالصورة الشمسية لم ترسم بأيدينا والنظر إليها كالنظر إلى الظلال المعروفة ، على أن هذه كالمعجزات القرآنية فى هذا الزمان ، يقول الله سبحانه « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا » فهاهوذا سكونه المرموز له فى الآية ، فقال الشيخ محمد السيد إذن هذا مباح : قلت بل هو واجب ، فقال أين الدليل ؟ قلت هو هنا للتعليم والتعليم واجب وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما يقول الشافعى رضى الله عنه فى غسل المرفق مع غسل الذراع ، قال وهل هذه هى تعاليم إسلامية ؟ قلت بل هى لب الإسلام وقلبه ، إنها صور البروج والبروج تشمل المنازل المذكورة فى هذه السورة فى قوله تعالى « وقدره منازل » فكيف يعرف الناس المنازل إلا برسمها ؟ فهى تفسير القرآن وهى توحيد لله تعالى وهى شكر له .

إن التوحيد هو العلم بما هو فى هذا الوجود ، وهذا الوجود لايعرف إلا بأمثال ماذكرناه وهو من ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله إبراهيم الخليل ، فقال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » فبهذا يكون الإيقان الذى هو أرقى من الإيمان ، ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا لب العلم وهو الذى حض النبى صلى الله عليه وسلم على تعلمه فقال « نحن أحق بالشك من إبراهيم » ومعنى هذا أن علينا أن نبحث ونجد حتى نوقن ، ولا معنى للبحث والجد إلا فى علوم هذه الكائنات التى يكون بها اليقين تشبها بالخليل عليه السلام الذى نظر فيها وأيقن وإن كنا لانصل إلى مقامه ، فقال ذلك الصالح : ولم خصصت الرسم بما نقل عن قدماء المصريين ؟ فقلت :

[ أولا ] إن هذه أرقى وأكمل من غيرها فى التعليم .

[ثانيا] إن الله سبحانه ذكر المنازل فى هذه السورة ثم جاء فى نفس السورة فذكر فرعون وهو من قدماء المصريين وقد جعل بقاء جسمه آية ، فنحن نرى الناس بعض هذه الآية التى وجدت فى مقابرهم لتخلص من الغفلة عن الآيات فى قوله « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » فهاهنا استبان أن الغفلة عن آيات الله [ومنها الآيات التى خبأها الله فى قبور الفراعنة] مذمومة منهى عنها . وهذه الأسرار لم تظهر إلا فى هذا الزمان فوجب علينا أن نظهر للناس أن القرآن قد أشار إلى علوم قدماء المصريين ، وهذا منها لاسيما أنه هو المذكور فى نفس السورة وهى صور البروج والمنازل .

فهذه العلوم من جهة فرض عين على كل قادر على الازدياد من التوحيد ومن الشكر ، وفرض كفاية بحيث يكون فى الأمة من يعرفونه مثل جميع العلوم والصناعات .

ملخص ماتقدم

إن هذه الصور وضعت فيما هو فرض عين على كل قادر من وجهين : وجه التوحيد ، ووجه الشكر ، وفرض كفاية على الأمة بحيث تخصص له جماعة يقومون به من وجهين أيضا : وجه أنه علم الفلك ، ووجه أنه علم قدماء المصريين فيكون ثوابهما مضاعفا ، والقائم به قائم بغرضين معا لكفاية الأمة ، ثم قلت له أيها الفاضل لنفرض أن أحاديث الجواز وإباحة الصور لم ترد وأن حديث أبى طلحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم «لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة» لم يذكر فيه مابعده وهو إباحة التصوير إذا كان رقما فى ثوب . وبالإجمال لنفرض أنه لم يرد شئ من الحل ولم يرد إلا النهى ، فهل تمنع رسم الصور ؟ قال نعم ! قلت له قد ورد فى رواية من نفس هذا الحديث « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » قال أذكر ذلك ، قلت إذن سوّى الحديث بين الكلب والصورة ! قال نعم ! قلت فهل هناك نهى عن كلب الصيد أو حراسة الغنم؟ قال لا قلت لماذا ؟ قال لأن كلب الحراسة ينفعنا لحفظ غنمنا ، قلت ثم ماذا ؟ قال وأيضا كلب الصيد يفيدنا فى حياتنا نأكل مما يصطاد لنا ، قلت إن الصور فى عصرنا الحاضر أنفع لنا من كلب الصيد وكلب الحراسة إنها تحرسنا وتفيدنا ، قال هذا لا أعقله ، قلت أنت تعقله ولكنك تريد أن تعلم الناس ، قال حقا ، قلت له اعلم أن الناس اليوم فى أوروبا وأمريكا واليابان وبلاد الترك قد عرفوا من العلم مايجهله كثير من الناس ، ذلك أن الحيوانات على قسمين : قسم نراه ، وقسم لانراه ، والذى نراه بالنسبة لما لانراه قليل جدا .

إن جميع ماعلى الأرض من الأنعام والبهائم والحشرات والطيور لاتساوى فى تعدادها مافى جسم رجل أصابه طاعون أو حمى أو مرض الجدرى أو الحصباء أو حمى التيفوس أو حمى التيفود ، فهؤلاء جميعا لايمرضون ولا يموتون إلا بحيوانات دقيقة تحدث ذلك .

وقد احتال علماء هذه الأمم فصوّروا تلك الحيوانات وعرضوها على الناس وهى مكبرة ألف مرة وعشرة آلاف ومائة ألف ، فظهرت خراطيمها مع أجسامها فعرفها الناس فاحترسوا منها بأن أتوا بما يضادّها فأهلكوها فأنجوا كثيرا من الناس بذلك ، ولولا مافعلوه مابلغ قطرنا المصرى اليوم (١٤) مليونا بعد أن كان (٣) ملايين أيام المرحوم محمد على باشا تقريبا وهكذا جميع الأمم .

وأيضا هذه الحيوانات وغيرها لما رسمت فى الكتب وظهرت صورها عرف الناس جمال ربهم وحكمته وإتقانه وإبداعه فآمنوا به .

ألا ترى إلى ماذكرته لك فى سورة الأعراف عند قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شئ » فقد قلت لك هناك إن علماء القرن العشرين من المعاصرين لنا فى أوروبا أدهشهم نظام ربهم فى حيوانه ، فقالوا إن علماء

القرن التاسع عشر آراؤهم فى العالم كآراء العجائز وهو أقرب إلى الخرافة ، إذ يظنون أن هذا العالم جاء بالمصادفة والانتخاب الطبيعى الخ .

فإذا كان هذا شأن الصور الحيوانية المكبرة إذا فرضنا أنها مرسومة بأيدينا ، أفلا تساوى تلك الصور كلاب الصيد وكلاب الحراسة ؟

وإذا جاز لنا أن نحرس غنمنا بكلبنا ونصطاد الغزاله به ، والصيد واقتناء الغنم مباحان : وقد خرجنا بذلك عن كراهة اقتناء الكلب ، أفلا نخرج عن كراهة الصور أو تحريمها إذا كانت مرسومة فى الورق ! قال أما هذا القول فهو حسن ، قلت ماذا تريد بحسنه ؟ قال إنه يثبت الجواز إن لم يرد فى الحديث جوازه مع أن الأحاديث نطقت بجوازه ، قلت ليس هذا جوازا إنما هو وجوب ، وكيف لا يكون وجوبا ونحن لو تركنا معرفة هذه الحيوانات وحرّمنا رسمها على أطبائنا لجهلوا أمراضنا ولفتكت بنا تلك المخلوقات ، أفلا يكون ترك ذلك حراما ؟ قال بلى ! قلت إذن حراسة الإنسان والحيوان من الطاعون والموت أفضل آلاف المرات من حراسة غنيمات فى البادية لأعرابى ، قال نعم ! قلت إذن رسم الصور وتكبيرها يكون واجبا لأمرين : معرفة الله وشكره ، وحفظ الأمم الإسلامية من الهلاك، فقال يا للعجب ! إن هذا القول جميل، وإن من البيان لسحرا، وأودّ أن ينشر هذا القول بين المسلمين لأن هذه الأمة قد رسخت فيها هذه العقيدة وأكثر الناس لا يفرقون بين صورة وصورة ، ولا بين حالة وحالة ، بل الناس غافلون نائمون يسمعون تحريم الصور فيأخذونها على علاتها ، والعامة يتبعون صغار العلماء ، وصغار العلماء أعينهم فى غطاء عن ذكر الله ومن الغطاء عن ذكر الله أن تخفى صور الحيوانات العجيبة فلا يفطنون لها .

فالمسلمون اليوم وقعوا فى براثن أسدين مفترسين : أسد جاء من الخارج وهى الأمم الراقية يذلونهم ويفترسونهم للجهل المخيم عليهم ، وأسد من الداخل وهم صغار الفقهاء فى الدين الذين تصدروا للفتيا واتبعهم الناس وأعينهم فى غطاء عن ذكر ربهم فضاعت الأمة فريسة للأسدين : أسد الأعداء الخارجين ، وأسد الأعداء الداخلين بجهلهم وهم الأعداء حقيقة . وفى المثل [عدوّ عاقل خير من صديق جاهل ] فهؤلاء أصدقاء جاهلون يحفظون كلمات ولا يفقهون معناها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى [ إن من ينصر الدين بطريق الجهل أضرّ عليه من أعدائه . وناصرو الإسلام أكثرهم جاهلون ] قلت له لا تأسف ولتعلم أن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء ، وهذا التفسير من مقدمات تلك النهضة ، فلا يكن فى صدرك حرج مما ابتلى به المسلمون من الجهل والله على كل شىء وكيل ، فقال أنا كما قدمت موقن بهذا الموضوع ولكن بهذا البيان أفرح ليطلع عليه المسلمون ، وإنى قد اطلعت فى تفسير الفاتحة الذى نشر حديثا فى كتاب خاص أنك ستكتب فى النحل وفى العنكبوت وغيرها عجائب لا تحصى ، فأنا أودّ كما يودّ أهل العلم جميعا أن ترسم تلك الحيوانات بالتصوير الشمسى لنرى بأعيننا تلك الحيوانات مكبرة ، فنرى أرجل النملة والنحلة الستّ ونرى أرجل العنكبوت الثمان وهكذا ، وإذا كانت محاورتى معك قصدت منها أن يطلع المسلمون فى بلاد الإسلام وأنا قبل ذلك مقتنع بحديث مسلم وغيره ، فإنى أودّ أن أقابل أكابر علماء الحنفية والشافعية والمالكية وآتى بآرائهم لوضع هنا حتى يكون رسم الصور إجماعيا ممن يعتد بهم ، فلما أطلعنى على ما كتبه جماعة من هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر من المذاهب كلها رأيت أنهم اتفقت آراؤهم واختلفت عباراتهم ورجعوا جميعا فى المعنى إلى أمر واحد وهو جواز التصوير الشمسى كالذى يصوّر فى هذا التفسير ، وهذا نص ماقاله شيخى وأستاذى بالجامع الأزهر شيخ السادة الشافعية ومن هيئة كبار العلماء بنصه قال :

[ التصوير المحرّم إنشاء صورة تشبه صورة الحيوان بخلاف حبس صورة حيوان بنحو زجاج فليس بتصوير

وحينئذ لا حرمة بل هو مثل حبس الصورة بالمرآة وهذا الحبس ليس بحرام ] ونحا نحوه صديقنا الشيخ يوسف الدجوى من كبار علماء المالكية وهكذا غيره .

فلما قرأت ماذكرت له الجواز لا يكفى بل هنا يكون الوجوب ، لأن العلم لاتظهر حقائقه فى هذا الزمان الذى اتسعت فيه دوائره إلا برسم صور المخلوقات الحية وغير الحية كما تقدم .

وإذا سمعناه صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة «أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض فى صلاتى» فإنا نفهم منه أنه لم يمنعه من ظهوره أمامه فى الصلاة إلا أنه شغله عنها ، إذن التصاوير دخلته فى الصلاة فأمر بإماطتها .

إذن إذا كانت التصاوير تعرّفنا جمال الله وحكمته فى كتبنا التى ندرسها فإنا لا نميطها ولا نبعدها لأنها مذكرة بالله وبجماله .

إن العلماء استنتجوا من وجودها عنده وأمره بالإماطة فى تلك الحال أن الصور التى لاظلّ لها مباحة فكيف بنا إذا رأينا صور الكتب التى ترشدنا إلى جمال ربنا ونظام حياتنا ، فهل هذه نميطها ؟ كلا والله ! ثم كلا ! بل المفهوم من الحديث أننا نبقيها وجوبا أو ندبا .

تذكرة

بعد أن كتبت هذا زارنى أحد الفضلاء فاطلع عليه فقال : إن ما أبديته من الأدلة كاف فى جواز بل وجوب الصور الشمسية لإظهارها الخفايا والدقائق كى يحيط الإنسان علما بما فى هذه الحيوانات من العجائب ولكن هذا ليس ينتفع به جميع المسلمين وهذا التفسير عام لايختصّ بأهل سنة ولابشيعة ولاباماميه ولازيدية بل هو كتاب عام ، وفى هذه الطوائف من لاتقنعه البراهين العقلية ولا تكفيه الأدلة الحكمية ، وإنما يعوّل على نصوص القرآن أو الحديث . وماعدا ذلك يضربون به عرض الحائط ، فهل لك أن تذكر مايناسب الصور الشمسية من الآيات القرآنية ولاتقف عند ماذكرت من قوله تعالى «ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكنا» وأن هذه الصور إنما هى من أشعة الشمس واحتال الناس عليها فأسكنوها فان مثل هذا لايجتزى به ذلك الفريق من المسلمين ، فقلت إن تصغير الكبير وتكبير الصغير قد جاءا معا فى غزوة بدر ، ألم تر أن الله يقول « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا » ويقول « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر » فههنا صغر الله الكبير كما رسمت صور السماء فى هذه السورة مصغرة ، وهكذا صور المجرّة وأنواع السديم فهذه قد رسمت لنا مصغرة لكى تكون أمامنا ، أما هى فلا حصر لعظمتها فهناك صغر الله المسلمين فى أعين الكفار وصغر الكفار فى أعين المسلمين عند اللقاء وصغرهم فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، كل ذلك ليقدموا على الحرب ، وههنا صغرت صور المجرّات وأنواع السديم ليدفعنا هذا لدراستها ، فهناك التصغير لايقاع الحرب لينتشر الإسلام والعلم ، وهنا وضعت أمامنا صور الكواكب والأرض وغيرها فى العلوم جميعها كالجغرافيا والنبات والحيوان والفلك وعلم طبقات الارض لنعقلها ونتعلمها ، فالتصغير هناك للحرب والحرب لنشر العلم وهو دين الإسلام ، والتصغير هنا لنجتهد فى البحث فنعلم فكلاهما للعلم صغر جيش الكفار فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفى أعين الصحابة عند التقاء الجيشين لنشر العلم ، وهكذا هنا صغرت هذه المخلوقات بالتصوير الشمسى لنشر العلم ، فقال صاحبى هذا والله أعجب العجب ، إن هذه أمور لاتخطر بالبال واستنتاج غامض ولكنه حقّ ولكنه لايزال ناقصا ، أنت الآن عرّفتنا تصغير الكبير ولكنك لم تأت بما يدل على تكبير الصغير ولا يكفينا قوله تعالى « ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر » لأن « لو » تدل على الامتناع فهنا أطلب منك أمرين [الأمر الأوّل] ماالمناسبة بين رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ورؤية الصحابة جمع الكثرة

من أعدائهم جمع قلة وبين التصوير الشمسي [ الأمر الثاني ] أين تكثير القليل ؟ فقلت له الرؤيا عبارة عن انطباع صور في الخيال الذي اصطلحوا على أنه في مقدم الدماغ ، فاذا رأى الإنسان شيئا في المنام فمعناه أنه انطبع في مخيلته لاأقلّ ولا أكثر ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الأعداء قليلا انطبعوا في المخيلة قليلا وهكذا لما رأى الصحابة رضي الله عنهم أعداءهم طبعوا في المخيلة عند كل واحد منهم قليلا بعارض سماوي لانعلمه وحصل لهم في اليقظة ماحصل للنبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهذا أمر سهل والصورة الشمسية ماهي إلا ماطبع على جرم من الأجرام بأشعة الشمس وهذا المطبوع ينتقل بنظر العين إلى الحس المشترك والحس المشترك يوصله إلى الخيال ، فرجع الأمران إلى التصوير الشمسي ورؤية الصحابة ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلى النتيجة وهي وجود صور في المخيلة لاأقلّ ولا أكثر وبهذه الصور تكون نتائج على مقتضاها فيكون الإقدام على الحرب هناك والإقدام على التفكر والعلم هنا . أما [ الأمر الثاني ] وهو تكثير القليل فهو المذكور في غزوة بدر أيضا ، ألم يقل الله تعالى في سورة آل عمران « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء » فانظر كيف أيدهم بالنصر إذ جعلهم في أعين العدوّ ضعفي عدده ، وعدد العدوّ كان نحو ألف ، إذن يكون جيش الصحابة صار مقدار نفسه نحو ست مرّات ومقدار جيش العدوّ مرّتين لأن جيش الصحابة نحو ثلث جيش الأعداء ، فههنا لما التقى الجيشان وكان كل منهما يرى الآخر صغيرا صار أصغرهما أكبر من أكبرهما لما أراد الله نصر ذلك الأصغر فأراهم للآخرين ضعفي عددهم ، فهذه الإرادة قد جعلها الله لنصرهم على عدوّهم ، هكذا هنا إذا نحن كبرنا صور الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت والحيوانات الذرّية التي تكون سببا في الحمى والجدري وأمثالها نزداد علما ، وذلك أننا نزيد بالله علما فنوحده ونشكره وبطبائع الحيوان فهما فنتحاشاه ونتركه وتكثر جموعنا وتقلّ أمراضنا ، ثم قلت إذن التكثير والتقليل قد جاآ في القرآن والله عزّ وجل أنزل ذلك في القرآن ليعلم المسلمين أنهم سادات هذا العالم ، فليصغروا الكبير لهذه الرسوم الكوكبية والجغرافية وغيرها حتى يستطيعوا دراستها ، وليكبروا الصغير حتى يتمكنوا من فهمه وتعقله ، فلما سمع ذلك صاحبي قال الآن عرفت أن هذا القرآن لايزال بكرا وأن آياته لم تزل محجوبة عن الناس ، هانحن أولاء نقرأ هذه السور صباحا ومساء ونكرّر تقليل الكثير وتكثير القليل والناس حولنا قد انتهلوا من ينابيع العلم وكرعوا من أنهر الحكمة والمسلمون هم الساهون اللاهون ، تصغر الأمم الصور السماوية والمناطق الأرضية وتكبر الحيوانات الصغيرة وذرّات طلع الأزهار في الأشجار وتعرف مستقر كل شيء ومستودعه ، والمسلمون لايعتبرون بما في القرآن ، ولا يفكرون أن الصور التي رسمها الناس كلها ترجع لهذين : تصغير كبير لتقريبه ، وتكبير صغير لامكان فهمه ، هذا هو أوّل العلم وهذا آخره والقرآن ذكر الأمرين معا في نفس القرآن لجعل التصغير للاقدام على الحرب والتكبير لفصل الخطاب وإيقاع الهزيمة ونصر من يشاء ، فقلت له إن في قوله تعالى « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » إشارة إلى ماذكره الآن ، فالعبرة في الآية ترجع إلى نصر جند الله مع قلتهم وخذلان الكفار مع كثرتهم ، وهذا الاعتبار قد سار شوطا بعيدا باجتهاد الأئمة كالشافعي إذ جعل القياس مأخوذا من هذا الاعتبار ، ونحن نقول ويقاس على تكبير الصغير هناك وتصغير الكبير ماذكرناه هنا ويكون ذلك اعتبارا لأولي الأبصار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اهـ .

فقال صاحبي أرجو أن تفصل فوائد المسلمين في تصغير الكبير وتكبير الصغير ، فقلت سيقوم للمسلمين قومة رجل واحد على علوم السموات وعلوم الأرض من القارات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان ويرسمونها ليفهموها مصغرة ثم يرسمون أيضا الحيوانات الذرّية الصغيرة فيكبرونها ، وينتفعون بكل موجود صغيرا أو كبيرا لأنهم بهذا يقدرون على فهمه ، واعلم أن المسلمين أقدموا على ذلك ولكن باعتبار أنه لاعلاقة

له بالدين ، أما اليوم فانهم سيقدمون عليه باعتبار أنه من الدين ، وسترى فى هذا التفسير إن شاء الله تعالى عجائب الحيوانات وغيرها مكبرة ، وترى رسوما مدهشة كما ترى فى سورة النمل فهناك صور مدنه مكبرة ومزارعه التى يزرعها ويحصدها ويخزنها ، وترى فيها طرقا زراعية جميلة يقرؤها أهل أوروبا لأبنائهم ويفرحون بعمل ربهم ، والمسلمون محرومون من جمال ربهم وقد آن أوان ارتقائهم « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » والحمد لله رب العالمين اهـ .

﴿ الفصل الثالث فى الكلام على بناء الأهرام لأنه من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة ﴾

ظهر جمال الله للأمم قديما وتجلى لهم بنجومه الباهرة وأنواره الظاهرة ، يا ألله أنت سلبت العقول وسخرت النفوس وأخذت الأفئدة وأذعت حبك فى البرية ، وأنزلت نفوسا فى أرضنا وهى محبوسة فى هذا الهيكل المصوب ، يا ألله نثرت كواكبك الدرّية فى سمواتك العلية وقسمتها مناطق وبروجا وخالفت بين أماكنها وأقدارها وأبعادها وأضوائها وقلت فى القرآن « وأشرقت الأرض بنور ربها » .

يا ألله أنت أبهجت العقول وأنرت النفوس بنورهذه الكواكب تلك الراقصات فى الدياجى الساحرات الطرف الناعسات العوانس ، إنك يا ألله خلقت فى هذه الأرض نفوسا أسكنتها فى هذه الأجسام ثم شرحت صدورها لهذا الجمال وزينته عندها وصرفت أكثر الناس عنه وهم غافلون ، وهؤلاء الذين أدركوا هذا الجمال جعلتهم للناس قادة وجملت وجوههم وقلوبهم وأقوالهم وشرفتهم على عبادك وعلمتهم من لدنك علما وأكسبتهم حكمة وجعلتهم للعلم وارثين ، كما نظروا نجما يتلألأ أو قمرا يضىء أو شمسا تشرق رأوا فى ذلك سناءك وجمالك ، وأنت تقول فى القرآن « وهو الله فى السموات وفى الأرض » .

من هذه الأمم الأمة المصرية ، أولئك الذين بهرهم جمالك وشغف قلوبهم باهر نور نجومك فأولعوا بك مغرمين وهاموا فى جمالك متيمين ، وأرسلت لهم نبيك إدريس الذى يسمونه ( هرمس الهرامسة ) وأيضا ( هرمس المثلث ) وأيضا ( أخنوخ ) وينطق به فى هذه الأيام . وقد يقال له ( سيزوستريس ) .

هذه أسماء لمسمى واحد عندهم ، ويسمى بهذا الاسم النجم المسمى ( الشعرى اليمانية ) أو ( كلب الجبار ) وهذا الكوكب أيضا يسمى ( توت ) فلغرامهم بجمال النجوم الباهرات اختلط عليهم نور العلم الذى أفضته على رسولك إدريس بالنور الظاهرى الذى أفضته على هذا الكوكب فأشركوهما معا فى هذا الاسم ؛ فكلاهما يسمى بالأسماء المتقدمة ماعدا لفظ ( توت ) فيظهر أنه خاص بالكوكب المذكور .

وقد نسبوا إلى من يسمى بهرمس المذكور أنه كان حاكما فى الأرض ووضع بها كثيرا من العلوم وألف مئات من الكتب .

ثم إن الكوكب المذكور يظهر مدة الفيض ويختفى فى آخر تلك المدة ، فسموه باسمه وقالوا شهر (توت) أى الشهر الذى يظهر فيه المعبود ( توت ) وهو خفير السماء وملك الكواكب ويقى الشمس من الوقوع فى الهاوية الهالكة وهو الموكل بكتابة أعمال الأموات يوم الحساب وبيده الميزان وكانوا يصوّرونه قابضا على رقعة يكتب فيها موازين الناس .

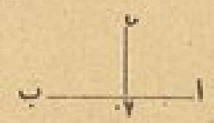
هذا ما كان عند قدماء المصريين فى هذا الكوكب .

هذا الكوكب هو قبلة المصريين القدماء

فلما فتنهم جمالك وآنستهم أنوار وجهك واتجه حكامهم إلى مقامك الكريم ، بنوا مقابرهم بحيث تكون أنوار هذا الكوكب ساقطة عليها عمودية لا مائلة ليكون الشعاع أمكن منها وأكثر إشراقا عليها لتتوالى الرحمات على ماوصل إليهم فى دينهم القديم .

ومن هذه المقابر الأهرامات الثلاثة الظاهرة بناحية الجيزة التى تبعد عن النيل ثمانية كيلومترات وثلثمائة متر وهى منسوبة إلى ( خفو ) و( خفرع ) و( منقرع ) ، وهؤلاء الملوك من الأسرة الرابعة بمدينة ( منف ) بالقرب من الجيزة ، والهرم الأول منها للاول من الأسماء وهو (١٧) فدانا والباقيان للأخيرين ، والحجارة التى بنى بها الأول تكفى سورا يحيط بأرض مصر ، ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ، ويبتدئ من الإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى العريش .

وهذه الأهرام الثلاثة التى هى من عجائب الدنيا دعا إلى بنائها الاعتقاد الدينى إذ ذاك ونحن ليس لنا فى هذا مدخل لأن ديننا جاء بعد ذلك الدين ، فهم أمم قبلنا لانحكم عليهم بل يحكم عليهم النبى المرسل لهم وهو سيدنا إدريس عليه السلام ، وقد قال الله فيه « ورفعناه مكانا عليا » وألهم المصريين أن يجعلوا نور ذلك الكوكب الجميل ذا وضع عمودى على الهرم كما تقدم ، حينئذ سألنى ذلك الصالح فقال لى : قل لى نوّرك الله بالعلم مامعنى كون الوضع عموديا ، قلت معناه أن هذا الكوكب الذى يطلع جهة الجنوب أيام الفيضان يسقط نوره على حائط الهرم متجها اتجاها مستقيما كقطرات المطر تنزل على الأرض فلا تنحرف يمنة ولا يسرة ، قال أوضح هذا المقال ، قلت إن أستاذى المرحوم أحمد أفندى نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية نقل فى كتابه عن المرحوم محمود باشا الفلكى أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو (٣٣٠٣) معتمدا فى ذلك على أن قدماء المصريين لما بنوها جعلوا أشعة الكوكب النورية تقع عمودية عليها من جهة الجنوب لتبرك بها الأموات من داخل الهرم كما أننا نجعل رءوس أمواتنا متجهة دائما نحو القبلة تبركا بالكعبة المطهرة ، وقال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف فى كل سنة عن وجه الهرم بقدر ثانية وثلثى ثانية ، وكان قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة يوازى فى مسيره لمدار الشمس متى كانت فى نهاية منطقة البروج أو المنقلب الشتائى ، فقال صاحبى هذا قول لايفقهه أكثر الناس ، فقلت سل : فقال مامعنى كون الضوء يميل ثانية وثلثى ثانية ؟ فقلت انظر هذا الشكل :




فالخط ( حـ د ) عمود على ( ا ب ) فالضوء كان يأتى أيام البناء مستقيما كالخط ( حـ د ) ، والفراغ الذى بين ( حـ د ) وبين الناحيتين من الخط ( ا ب ) يقال لها زاوية وهما زاويتان ( ا حـ د ) و( د حـ ب ) فهاتان الزاويتان تقسم كل منهما (٩٠) جزءا كل منها يسمى درجة والدرجة (٦٠) دقيقة والدقيقة ستون ثانية الخ ، فهذا الضوء كان يسقط عموديا ، يعنى ليس مائلا إلى إحدى الجهتين ، وكلما مرّت سنة مال ميلا يسيرا جدا وهو ثانية وثلثا ثانية ، والثانية تتكون من تعدادها الدقيقة والدقائق تتكون منها الدرجات ، قال فهمت الآن ، ولكن بقى أمر واحد وهو كيف يتبركون بهذا النور ؟ قلت هذه كانت عقيدة القوم سواء أكانت عن نفس النبى إدريس أم كانت من تغيير وضع الدين ، إنما الذى يظهر أن أصل هذا الدين كان شريفا ذا جمال وكمال لأنه جذب نفوس القوم إلى المعالى والحكمة والجمال الإلهى الذى يكوّن الأحق به أمة الإسلام ، فقال وأىّ دخل لأمة الإسلام فى هذا المقام ؟ قلت حياك الله قل لى : أليس إدريس رفعه الله مكانا عليا ؟ قال بلى ! قلت أليس نبينا صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يتبع الأنبياء ويقتدى بهم ؟ قال بلى ! قلت هؤلاء القوم أغرموا بالكواكب وجمالها وحسبوها ، ويقول الله « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » ويقول « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ويقول « والنجم إذا هوى » ويقول « رب المشرق

والغرب » ويقول « رب المشارق والمغارب » وأخيرا يقول « ربّ الشعرى » شوّق المسلم للنجوم وجمالها ونص على أنه « هو ربّ الشعرى » والشعرى هى ( توت ) وتوت هذا معبود المصريين وقد دخل فى أسماء ملوكهم فقيل ( توت عنخ أمون ) مثلا ، وهؤلاء الملوك المغرمون بهذا الكوكب جذبوا إلى مصر فى زماننا أعاظم العلماء والحكماء من أوروبا وأمريكا وغيرهما .

كل ذلك ليشاهدوا تلك العلوم وتلك المعارف التى ذمّ الله من أعرض عنها فقال « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإنّ كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

الحمد لله المنعم المتفضل وقد أرانى الله فى زماننا سر القرآن قد ظهر للعيان ، وقد كشف الله بعض آيات العلوم التى تركها قدماء المصريين وأبرز الهرم وعجائب الهرم وما الهرم إلا مقبرة جعلت لتضم عظام بعض الموتى من ملوك القدماء ، والناس يتقاطرون لينظروا آياته فى ذلك مصداقا للقرآن .

الكعبة وكوكب الشعرى

فقال ذلك الصالح ياعجبا ! إذا كانت الشعرى وغيرها من الكواكب قد جذبت نفوس القوم وصرفت هممهم إلى جمال العلوم ، فلماذا لم تكن لنا إحدى تلك الكواكب قبلة بدل الكعبة التى بناها الناس بأنفسهم مع أن الكواكب أجمل وأبهى ، فقلت اعلم أن الله عز وجل جعل أمة الإسلام آخر الأمم لتقتبس سائر علومها وقص قصص الأمم لذلك .

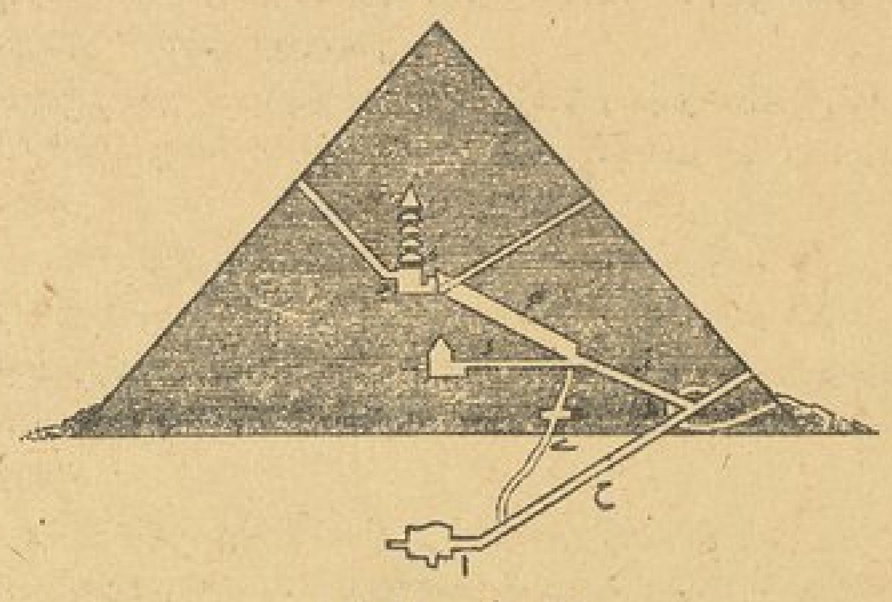
ولما كان القدماء المغرمون بالكواكب إذا طال عليهم الأمد قست قلوبهم وجمدوا على ذلك الكوكب الذى هو قبلتهم وعبدوه ونسوا ربّ الكوكب ، صرف المسلمين عن ذلك وجعل لهم الكعبة قبلة وفتح عقولهم لسائر العلوم وحرضهم على النظر فى كل جميل من كوكب وجبل وشجر وخصّ الشعرى بالذكر ، فقال « وأنه هو ربّ الشعرى » فالشعرى التى عبدها قدماء المصريين وبعض العرب كما سيأتى فى سورة النجم ليست إلها بل هى من آيات الله تعالى وهو ربها كما هو ربكم .

فالمسلم يستقبل الكعبة ويعبد الله بالنظر فى عجائب الشعرى وغير الشعرى ويرث علوم الأمم ويقرأ ماقرأه قدماء المصريين من عجائب هذا الكوكب وغيره ، ولما كان النظر فى العالم العلوى أعلى مايطلبه الدين ، قال الله فى إدريس « ورفعناه مكانا عليا » فليكن هذا العلوّ لإدريس نورا للمسلمين الذين لايعتقدون ألوهية فى الشعرى ولا فى غيرها ولا يفتنون بكوكب ولا بغيره ، بل يؤمون الكعبة التى لايتخيل فيها ألوهية كما تخيل القدماء ألوهية الشعرى لأنها تطلع عند الفيضان فتصبح القبلة كأنها إله ، لا أنها قبلة .

بهذا أصبح المسلم بعيدا عن مظانّ الكفر بما هو قبلته ، وفى الوقت نفسه مجذوب إلى النظر فى جمال هذه النجوم ، فقال صاحبى عجبا لهذا المقام ! إنى لم أر أحدا من المفسرين ذكر هذا ، فقلت إن هذه العلوم لم تظهر إلا فى زماننا ، والقرآن عجائب وبدائع يظهرها الله حينا بعد حين ، والنبى صلى الله عليه وسلم لما توفى جعل الله فى القرآن أسرارا تظهر وقتا بعد وقت ، كأن النبى صلى الله عليه وسلم لايزال حيا وهذه معجزاته تتوالى ليطمئن الناس ويوقنوا بربهم ويزيدوا علما كما قال تعالى « وقل ربّ زدنى علما » فالمسلم يزيد علما والمسلم يقرأ جميع العلوم ، والعلوم فروض كفايات ، والمسلم مادام قادرا على النظر والفكر فهو مأمور به شكرا لربه ، وزيادة معرفة .

إن المسلمين فى مستقبل الزمان سيكونون أرقى علما من غيرهم ، ولهذا التفسير إن شاء الله دخل فى تشويقهم إلى كل علم وكل حكمة وكل جمال فى الأرض وفى السماء ، لأنه مصداق لقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فهذا التفسير فيه بعض الآيات التى أراها الله للناس فى زماننا .

ومنها هذا الهرم الذى أفضنا فى الكلام عليه الداخل فى قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » انتهى .



( رسم الهرم ، شكل ١٣ )

بيان قوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية »

اعلم أن صورة الهرم المرسومة أمامك فيها تعاريج يقصد منها إضلال من يريد دخول الهرم معجزة لقوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية » وذلك أنه لن يكون آية من قدماء المصريين إلا من بقيت جثته محفوظة ، وكيف تبقى محفوظة إلا ببناء يكنها وضلال لمن أراد سرقتها وإجماع دول أوروبا وأمريكا على حفظها ، هذا هو المعجزة القرآنية .

انظر إلى نقطة (ا) التى هى رواق تحت الأرض ، فذلك لايمكن الوصول إليه الآن لأن طريقه مسدود .

ثانيها نقطة (ب) وهى الرواق المعروف الآن باسم رواق الملكة ، وتلك التسمية لم يقم دليل عليها للآن .

ثالثها نقطة (ح) وتعرف باسم رواق الملك .

رابعها نقطة (د) وهى بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منهما حجران كبيران فأغلقا منفذى رواق الملك غلقاً محكماً بعد وضع جثته فيه داخل تابوته .

خامسها نقطة كل من (ه و ز ح) وهى سراديب معدة لتوصيل الأماكن لبعضها .

سادسها نقطة (ط) وهى بسطة يخرج منها السرداب الذى فتحه المأمون .

سابعها نقطة (ى) وهى البئر التى تحير فيها عقول أولى النهى .

والقصد من ذلك كله أن يضل السائر فلا يهتدى إلى السبيل ، ونقل أستاذنا فى الأثر الجليل ما نصه : [ قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم فى كتابه : ( تحفة الألباب ) فتح المأمون الهرم الكبير وقد دخلت

فى داخله فرأيت قبة مربعة الأسفل ، مدوّرة الأعلى ، كبيرة فى وسطها بئر وهى مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد وقد بليت لطول الزمان واسودّت أجسامهم وهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شئ ، وأجسامهم قوية لايقدر الإنسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالنشاء لطول الزمان ، انتهى ] .

ونقل عن غيره أنهم بعد اللتيا والتى والجهد الطويل والمشقة وجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا وفى وسطه حوض من الرخام مطبق ، فلما كشفوا غطاءه لم يجدوا فيه غير رمّة بالية ؛ فعند ذلك كفّ المأمون عن نقب ماسواه ، انتهى .

شكر الله على الحكمة والعلم ، وأن الإسلام أعتق الإنسانية من الخرافات

إنى أحمد الله على نعمة العلم والحكمة ، إليك اللهم الشكر على ما تفضلت بالحكمة والحمت من العلم أذكر أيامك معى وأذكر أيام أن كنت مجاورا فى الجامع الأزهر حوالى سن العشرين ثم أرجع إلى بلادى فى القرى بلاد الشرقية ، ثم أخرج من بين البيوت لعلى * أحدّث عنك النفس بالليل خاليا * وكنت أنشد قول مجنون ليلى :

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدّث عنك النفس بالليل خاليا

وكنت أسامر النجوم الزاهرات فى دياجى الظلمات وأفكر فى أمرها وأمر هذا العالم وأمر آثار قدماء المصريين وأمر الأمم التى فى الأرض التى مدت فى بلادنا السكك الحديدية وقطارها .

ولطالما كنت أقول ياليت شعرى ! ماهذه الأطلال القديمة وما علوم أهلها وماذا تصنع الأمم اليوم فى علومها وصناعاتها ، ولماذا لاأرى للمسلمين حركة فكرية مثلهم ؟ ولماذا أرى شيوخ الدين لايفكرون فيما حولهم إلى آخر ما فى كتاب [ التاج المرصع ] فى أوله .

كل ذلك كان ديدنى ، وأذكر أنى كنت عاهدتك أنى إذا اهتديت لحلّ المعمى من هذا الوجود وعرفت بعضه فإنى أنشره لمن بعدى حتى لايضل شبان بعد ضلالى ولا ينالهم نصب كما نالنى ، بل أنا أجعل ماأعلمه لهم شرابا خالصا سائغا للشاربين ، هذا ما كان يجول بخاطرى ؛ فها أنا ذا اليوم أتحدث بنعمتك علىّ وأقول :

لقد منّ الله علىّ بعد طول الزمان واليأس والنصب بالحكمة والعلم وألهمنى أن أؤلف هذا التفسير الذى أرجو أن يكون ذخيرة ونورا للأذكياء بعدى .

إن أكثر ما أكتبه فى هذا التفسير يجول بنفسى الآن ويكون قوىّ الهجوم على النفس بحيث لايفارقنى فى غدوّى ورواحى ، وخلوتى وجلوتى ، وسمرى مع الأصحاب وسحقى ، ونومى ويقظتى ، فلا ملجأ لى من هذه الخواطر إلا بكتابتها ، ومتى سطرتها هدأت النفس واستراحت واستقبلت غيرها ، ذلك شأنى فى هذا التفسير .

وهذا الذى أكتبه فى هذا المقام قد كان خاطره قويا ، فكما كنت أتخيل هذه الأمور فى الصغر متحسرا أشد الحسرة على جهلى بها ، هكذا أنا اليوم أجد فى النفس ميلا قويا إلى كتابتها ونشرها وأحسّ بأنى بلغت أملى من هذه الحياة بذلك [ ولله فى خلقه شئون ] ويخطر لى أن هذا سيكون سائقا وشائقا لأولى الذكاء إلى حوز العلم والحكمة .

وإنى

وانى كثيرا مايقع فى قلبى أنى لو لم أكتب مايهجم على نفسى من الخواطر الجميلة الهاجمة علىّ ، فإن الله يعجل العقوبة لى فى هذه الحياة .

ولقد منّ الله علىّ بنشره ، لقد منّ الله علىّ بذلك وشرح صدرى وقد كتبت ما أجده فيها ، والله هو الولى الحميد .

تفصيل أتمّ لقوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية »
وكيف أعتق الإسلام الأمم من الخرافات

اعلم أن الديانات القديمة كلها كانت أشبه بهذا العالم الذى نعيش فيه ، ألا ترى رعاك الله أن الشوك يصحب الورد ؟ والغذاء الذى تأكله تصحبه فضلات ؟ والثمر لايكون إلا معه الورق ؟ والحب لايكون إلا مع العصف ؟ هكذا كانت الديانات ، فإذا نزل إدريس على المصريين بدين سماوى فهاهو ذا قد تغير الدين وصار ممزوجا بخرافات حتى إنك لترى أنهم وجدوا كثيرا من الأحجار المنحوتة على هيئة الأهرام والمسلات موضوعة فى المقابر بجوار الأموات ، وهكذا وجدوا أحجارا رسمت عليها صورة الأهرام وبإزائها علامة الكوكب المتقدم وكل ذلك للتبرك ، فكانت الأهرام رمزا لهذا المعبود الذى كانوا يصوّرونه فى معابدهم فى هيئة جسم إنسان له رأس طائر ( أيبس ) وهو أبو قردان وكانوا يعبدونه أيضا .

إن فى نظر ذلك لعبرة للعقلاء ، فانظر إلى قبلتهم وهو الهرم كيف جعلوه مع كوكب الشعرى مناط الألوهية ثم انظر فى مسألة السماء كيف كانوا يقولون إن جميع الأجرام السماوية تحت رياسة الشمس ، وتارة كانوا يرسمون السماء على شكل وادى مصر تشقه المجرة وقد مثلوها بالنيل وحصروها مثله بين سطحين ممتدين من الجنوب إلى الشمال وقسموا السماء إلى أقسام كأقسام مصر والشمس تطوف عليها كل يوم فى مسيرها من المشرق إلى المغرب وتدخل فى المساء فى فتحة جبل مثلوه ( بجبل العرابة المدفونة ) أو ( الخرابة المدفونة ) التى بمديرية جرجا بالصعيد ثم تغور فى سراديب وتقاسى آلاما وتضىء على قوم آخرين ثم ترجع لنا كرة أخرى بعد المشقة والآلام

وقالوا أيضا فى الروح الشقية تحوّل دعواتها وصلواتها إلى عبث وهزؤ فتجلد وتلعن وتبحث عن جسم إنسان لتسكنه وتكون فى مرض وذلّ أو جنون ، أو عن جسم حيوان وتدوم على ذلك قرونا إلى أن تستوفى العذاب ثم تموت وذلك بشهادة القلب ، قال أستاذنا المذكور : وقد وجد على أحد أوراق البردى ماصورته [ أيها القلب الذى خلقت لى وأنا فى بطن أمى وأتيت معى إلى الدنيا لاتنازعنى ولا تشهد علىّ بين يدى الله ] أما الروح الراضية المرضية فانها بعد الحساب يأخذ بيدها الرجاء الصالح وتخفها الشياطين ولكن تلاوة العزائم تدحرهم ثم تتحد الروح بأوزريس وتصير مثله : أى تدخل فى العنصر الذى خرجت منه وتقطع المساكن السماوية وتزور جسمها متى شاءت ، ولذلك يحنطون الأجسام .

هذه آراؤهم فى السموات وآراؤهم فى الأرواح وآراؤهم فى الدين ، فانظر أيها المسلم إلى دين الإسلام إن الديانات القديمة فيها الغث والسمين ، واختلط فيها الكذب بالصدق كما هو شأن الناس فى أقوالهم وأفعالهم وكما هو شأن مآكلهم ومشاربهم ولكن الله يريد رقىّ الإنسانية ، فماذا فعل ؟ أنزل الدين المسيحى ، فماذا حصل ؟ لم يرض بالأصنام وجعل الإله واحدا ولكن أتباعه جعلوه ثلاثة ؟ فجاء الإسلام وقال كلا ! الإله واحد هنالك زلزلت الأرض زلزالها ، زالت الأصنام تماما ، وفات الزمان الذى تقدس فيه الشمس والكواكب ونزل قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » فليست الشعرى التى ترسم على أحجار المصريين مع هرمهم هى الله

بل هو ربها ، وأيضا ليست الشمس هى الإله وبعد ذلك انطلقت العقول وقام المسلمون بحركة العلم فى العالم من القرن السادس الميلادى إلى القرن الحادى عشر .

وهنالك تعلمت أوروبا من المسلمين كما وضح بعضه فى آخر سورة التوبة ، ويتضح باقيه فى قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » فى سورة إبراهيم عليه السلام وصار العلم بل كل عاقل فى الأرض فك عقال عقله المسلمون ، يقرأ كل علم وكل فن ويقرأ المسلم « وقل رب زدنى علما » ويقرأ قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فآيات الله فى كل بناء وشجر وحجر وكوكب ؛ فالهرم آياته ، والنجم آياته .

وتدرج الأمم من الجمود فى القرون الأولى إلى الحرية العلمية اليوم فى عصرنا آياته ، وتنور المسلمين الأولين العالم الإنسانى من آياته .

وسترى فى سورة إبراهيم تصميم العلامة ( سديو ) الفرنسى وجزمه أن العرب وسائر الأمة المحمدية هم نور العالم ولولاهم لم يكن لهذه الدنيا رقى وأتى فيه بمئات الأدلة القطعية كما رأيت وسترى بعضه .

ولذلك ترى الأمم اليوم أن الشمس التى هى سيدة الكواكب عند قدماء المصريين والبابليين صارت فى أخريات الشموس كما أطلعتك عليه فى سورة البقرة وآل عمران والأنعام وغيرها حتى أن بعض تلك الشموس ضوؤها مقدار ضوء شمسنا (٨٠٠٠) ثمانية آلاف مرة بل أكثر من ذلك ، وأن الشموس لاحد لعظمها وعددها وأنها تبلغ مئات الملايين ولا يزال الكشف يزيدنا بيانا .

إذن علم قدماء المصريين من العلم الذى حدث وانتشر بسبب ظهور الإسلام الذى حرك أوروبا والعالم للبحث .

إن دين الإسلام جاء لمحو الخرافات وللاعتماد على العقل ونبذ كل ما ليس معقولا ، هذا هو سر قوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية » فالآية هنا واسعة النطاق من علوم وصناعات بلا اعتقاد يحصر الفكر ، وبالقرآن عندنا فك عقال العقول حتى اقتنصت شوارد العلم فى الأرض وفى السماء .

إن الإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

لطيفة وذكرى

قد كنت وأنا مراهق رأيت أهل قريتنا قد عثروا على رجل مدفون فى قاع بركة أمام قريتنا ولم يجدوا إلا عظامه وقد وجه وجهه إلى جهة الجنوب ، وقد بنى عليه قبر بكتل من الأرض المصرية الحصيد الجافة المعروفة فى بلادنا ( بالشراقى ) وقد حفظ ذلك القبر جثته آلاف السنين وهو تحت وجه الأرض بنحو ثلاثة أمتار .

فها أنا ذا أحمد الله عز وجل اليوم إذ عرفت سر هذا الدفن وأنه قصد به التوجه للهرم للشمول بعناية كوكب الشعرى وعرفت اليوم أن هذه خرافات وأن الإسلام محا ذلك وجعل قبلتنا الكعبة ودأبنا النظر فى كل كوكب وجمال كل شمس ووجهنا وجهنا لله لا للكواكب ولكن ندرس كل كوكب وكل شمس وقد فتح الله للناس أبواب السماء فدرسوها ، وها هم أولاء يدرسون علم الأرواح كما اطلعت عليه فى سورة آل عمران والبقرة ، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وفى اعتقادى أن هذا التفسير وأمثاله سيفتح مجالا للأمم الإسلامية وستقوم أمم بعدنا من المسلمين يرقون رقيا عاليا ويحدثون فى الأرض قوة كما أحدث أجدادنا أصول هذه النهضة ، والحمد لله رب العالمين اهـ .

وجدانى

وجدان للمؤلف أيام الشباب والشيب وكتاب الله تعالى وأمم الإسلام

ها أنا أحدثك أيها الذكى عن أيام شبابى وشيبى بأوسع مما تقدم فأقول : ذكرت لك آنفاً شوقى إلى العلوم أيام الشباب ، وها أنا ذا أوضحه فأقول :

قد كان يطربنى مر النسمات على الأعشاب فيسرنى تغريدها ويطربنى تمايل الأغصان وحفيف الأوراق وتغنى الحشرات وعصف الرياح « والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » وإذا غربت الشمس وظهرت النجوم أجلس على بساط من الحشائش وآخذ أستمع لما فى الحقول من نغمات وأنظر لما فى السماء من نجوم باهرات ، وكنت كأنى فى محفل جمع بين بهجتين : بهجة النظر للراقصات الحسان القاصرات الطرف الناضرات البهجات وهى النجوم ، وبهجة الموسيقى تشنف الآذان ببدائع الألحان ، فالمناظر سماوية والنغمات أرضية ، هذه الصور الجميلة عندى طبعت فى المخيلة يوما فيوما وليلة فليلة ، دام ذلك سنين وسنين .

وقد كان لخلو الجوف بالصوم والقيام بعض الليالى أثر فى ذلك الجمال والبهجة والشوق ، ذلك الجمال الخيالى دعا العقل إلى الجمال العلمى فظواهر المحاسن فى الطبيعة التى ارتسمت فى خيالى لاتفارقه ، ألجأت القوة العاقلة أن تتجمل بالمحاسن كجمال الخيال ؟ ولا محاسن للعقل إلا صور معنوية هى الحكمة والنظر فى مختلف العلوم .

الجمال مغناطيس العلوم يجذب إليه كل ماهو جميل معنوى ، جمال الوجوه فى الحس يجذب العاشقين ، وانطباع الخيال بالجمال يجتذب العلوم والحقائق لتسكن فى العقول .

جل الله وجل العلم ، إن شبيه الشىء منجذب إليه ، وللمجاورة حكمها ، جاور الخيال العقل فى الدماغ ، فلما رجع الأول بالدرر الحسان من الكواكب والنغمات حن الثانى إلى حقائق الموجودات ليتحلى بالحكمة ويزدان بالعلوم .

النفس واحدة والعالم واحد ، العالم الذى نعيش فيه واحد ونفوسنا تنظر له أيام الصغر واحدا ، فجميع العلوم عندها علم واحد لاعلوم ، كما أن العالم أشبه بجسم واحد ، هكذا العلوم المختلفة كأنها واحد ، العلوم كشجرة واحدة لها فروع وأغصان .

ضعف الإنسان فوق الأرض فلم يطق الفرد الواحد أن يعرف هذا الوجود ، فقسم أوصافه إلى أقسام : سمى كل قسم منها علما مع أنها كلها أوصاف شىء واحد هو هذا العالم ، لهذا نرى العلوم قسمت على الأفراد كما وزع الإحساس فى الجسم على الحواس ؛ فالسمع غير المبصر .

هكذا العلوم قسمت على الناس فيحسن زيد مالا يحسن عمرو ، ذلك لضعفهما كما ضعفت العين أن تضم السمع إلى البصر ، وضعفت الأذن أن تضم الإبصار إلى السمع «وربك يخلق مايشاء ويختار» «لامعقب لحكمه» وهذا قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفا » فلولا هذا الضعف لكانت جميع العلوم عنده علما واحدا ، كنت أنظر للأشياء جميعها بلا فارقة بين علم وعلم ، أنظر للآثار والأطلال والأشجار والأخبار وتاريخ الأمم والصناعات وأمم الفرنجة وأمم الإسلام ودين النصارى ودين الإسلام .

ذلك هو الذى حركنى إلى سائر العلوم التى اطلعت على كثير منها بمدرسة دار العلوم وعلى باقيها بالاطلاع على علوم شرقية وغربية .

ها أنا ذا الآن فى العقد السابع من حياتى أنظر فى أمر نفسى فأجد الغرام القديم والحب والشوق قد تجلت لها مع طرب وسرور كما قال مجنون ليلى :

فشاب بنو ليلى وشب بنو ابنها ... وأعلاق ليلى فى الفؤاد كما هيا

فنفسى فى شيبها مغرمة كما كانت أيام شبابها ، بل هى أشد غراما والغرام اليوم بالنشر والتعليم ، والغرام إذ ذاك بالتحصيل ، وفى النشر ازدياد للعلم وابتهاج بالتحقيق .

كتاب الله تعالى

لقد كنت أيام الشباب لا أرى فى هذا القرآن معانى لأنى حفظته بلا عقل ولا فكر وكنت أسىء الظن بمن يقولون إنه يدعو إلى العلوم ، وكنت أقول إن هؤلاء مراءون كاذبون ، فلما درست ونظرت أيقنت بأن هذا القرآن يدعو الناس إلى مختلف العلوم ويشوّقهم لها كما كنت أشتاق لها زمن الشباب . فكأن هذا القرآن يدعو النفوس إلى فطرتها ، وإذا قال الله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » ففيه تلميح إلى ماقرّرنا ، فنفوسنا تطلب كل العلوم وهذا القرآن يشوّق لها « ولكن أكثر الناس لايعلمون » وما ذكرته الآن سيظهر أثره فى أمم الإسلام .

أمم الإسلام

إن الأمم الإسلامية تطلع اليوم على أمثال هذا الكتاب ، وهناك نفوس خلقت مقصورة على النظر مجبولة على التفكر فتقابلها الحيرة والحسرة كما قابلتنى أيام شبابى ولكن الله أذن بإبراز هذا التفسير ليكون مفتاحا يفتح للعقول مجال النظر فيفرّون من سجون الجهالة العامّة فى البلاد الإسلامية وينطلقون من حبس العقول إلى ساحات الجمال وباحات العلوم ، وحدائق الحكمة ، ويشمون أزهارها ويقتطفون ثمارها .

هذا الكتاب تبصرة لمستزيد ، ومنهج لمريد ، وبلغة لقاصد ، وزاد لمسافر ، وفك عقال معتقل ، وفتح باب ، وهدى وذكرى لأولى الألباب ، انتهى .

تحفة مهداة للمستبصرين فى الإسلام والنظر فى كتب الفرنج وجمال الصور الموجودات فى الأرض والسموات

تبين من هذا أن سبب هذا التفسير ومبدأه النظر فى جمال هذه الدنيا صغرا وتحصيل العلم وحبّ النشر فى الكبر ، ذلك كله مبدؤه النظر فى جمال الأرض وجمال السماء .

ولقد اطلعت على كتب الفرنجة للمبتدئين فرأيتها محلاة بالصور الجميلة الحسنة من شجر وزرع ونهر وكوكب وقمر بحيث يشاهد الطفل فى مدرسته صور ما كنت أشاهده فى الحقول ، فتبارك الله الذى ألهم الناس أن يحاكوا الطبيعة ويشاكلوا صور الموجودات وجمالها .

هكذا فلتفعلوا أيها المسلمون ، لتقم طوائف منكم وليدرسوا نظم التعليم ونظم الكتب والصور التى فيها والحكايات التى تدرس للأطفال والتحف العلمية اللذيذة ، ولتتخذوا لكم أحسن المثل وأجمل الطرق ، ولتعلموا أبناءكم حب هذا الجمال كما أحببناه ، فكل هذا الوجود آيات الله وكله نور الله ، وكله دين الإسلام ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى تفسير القسم السادس من سورة يونس .

( القِسْمُ السَّابِعُ )

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ • وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ • إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ • وَلَوْ جَاءَتْهُمْ

كلُّ آيةٍ حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ * فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعَها إيمانُها إلا قومَ يونسَ لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزيِ في الحياةِ الدنيا ومتّعناهم إلى حينٍ * ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهم جميعاً أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ * وما كانَ لنفسٍ أنْ تؤمنَ إلا بإذنِ اللهِ ويجعلُ الرجسَ على الذينَ لا يعقلونَ * قلِ انظروا ماذا في السمواتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنذرُ عن قومٍ لا يؤمنونَ * فهلْ ينتظرونَ إلا مثلَ أيامِ الذينَ خلَوا من قبلِهم قلْ فانتظروا إني معكم من المنتظرينَ * ثمَّ ننجي رسلَنا والذينَ آمنوا كذلكَ حقاً علينا ننجِ المؤمنينَ * قلْ يا أيها الناسُ إنْ كنتم في شكٍّ من ديني فلا أعبدُ الذينَ تعبدونَ من دونِ اللهِ ، ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يتوفاكم ، وأُمرتُ أنْ أكونَ من المؤمنينَ * وأنْ أقمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً ولا تكوننَّ من المشركينَ * ولا تدعُ من دونِ اللهِ ما لا ينفعُكَ ولا يضرُّكَ فإنْ فعلتَ فإنكَ إذاً من الظالمينَ * وإنْ يمسسْكَ اللهُ بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هوَ وإنْ يُردْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ يصيبُ به مَنْ يشاءُ من عبادِهِ وهوَ الغفورُ الرحيمُ * قلْ يا أيها الناسُ قد جاءكمُ الحقُّ من ربِّكم فمنِ اهتدى فإنما يهتدي لنفسِهِ ومَنْ ضلَّ فإنما يضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيلٍ * واتبعْ ما يوحى إليكَ واصبرْ حتى يحكمَ اللهُ وهوَ خيرُ الحاكمينَ .

التفسير اللفظي

قال تعالى (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) من القصص على سبيل الفرض والتقدير (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) فإنه محقق عندهم ثابت فى كتبهم على نحو ما ألقينا إليك ، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما فى الكتب السابقة وأن القرآن مصدق لما فيها ، والخطاب وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم فالمقصود أمته ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا أشك ولا أسأل» (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ، وقوله (ولا تكونن من الذين كذبوا - إلى قوله - من الخاسرين) من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله «فلا تكونن ظهيرا للكافرين» (حقت عليهم كلمة ربك) أى وجبت عليهم لأن استعدادهم يمنعهم من قبول الإيمان (لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية) فإنهم لا يؤمنون بها (حتى يروا العذاب الأليم) فحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما حصل لفرعون الذى قال «آمنت» بعد فوات الفرصة كما فى قوله «أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون» فانظر كيف ذكر

فرعون وغرقه لمناسبة مامضى فى هذه السورة لتكون تلك القصة تطبيقا على هذا القول ، فقوله فى مسألة فرعون « آلآن وقد عصيت قبل » هو كالقول المتقدم آنفا « أثم إذا ماوقع آمنتم به » وهو بمعنى ماجاء فى سورة الأنعام « يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها » وقد أوضحت المقام هناك بما لامزيد عليه ، وههنا يقول الله فى هذا المعنى « إن الذين حقت عليهم ـ إلى قوله ـ حتى يروا العذاب الأليم » ثم أتبعه سبحانه بما يفيد فتح باب التوبة وقت القدرة فقال ( فلولا كانت قرية آمنت ) أى فهلا كانت قرية من القرى التى أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب ولم تؤخر الإيمان كما أخره فرعون ( فنفعها إيمانها ) بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها ( إلا قوم يونس ) لكن قوم يونس وهو استثناء منقطع ( لما آمنوا ) أول مارأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ( كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ) أى إلى انتهاء آجالهم .

يروى أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل فكذبوه وأصروا على تكذيبه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرّقوا بين كل والدة وولدها فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان وأخلصوا التوبة وتضرّعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم الضرّ ويقال إنه كان يوم عاشوراء يوم الجمعة ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ) بحيث لايشذ منهم أحد وإنما لم يجتمعوا على الإيمان بل منهم من لم يقبله للنظام الذى اختاره الله بحيث يختلف الناس باختلاف الأمزجة والأحوال والأخلاق وأن الاستعداد هو الذى عليه مدار الارتقاء والانحطاط ولن يكون القضاء إلا على مقتضى الحقائق الثابتة وهؤلاء هذه حقيقتهم ، وهل يشاء الله إلا ماهو حق ؟ ( أفأنت تكره الناس ) بما لم يشأ الله منهم ( حتى يكونوا مؤمنين ) خلاف المشيئة مستحيل ، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان قومه شديد الاهتمام به ، ولذلك قرره بقوله ( وماكان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ) أى بإرادته وألطافه وتوفيقه ( ويجعل الرجس ) أى العذاب ( على الذين لايعقلون ) لاينتفعون بعقولهم فلا ينظرون الحجج والآيات ولا يفكرون فيها فيكونون غافلين عما حل بالأمم السالفة وما أصابها من خير أو شر وعقل وفكر وجهل وغباوة كما جاء آنفا « لتكون لمن خلفك آية » ونعى على الناس غفلتهم عن ذلك وعما أعقبه من السموات والأرض وعجائبهما فقال ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ) من عجائب صنعه والآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار مما لايتناهى من حكم بارعات وآيات بينات وغرائب مدهشات ، كما أمرهم بالنظر فى عجائب الأمم وأبدانها الباليات وآياتها الباهرات .

فمن قرأ العلوم الفلكية والعلوم الرياضية والطبيعية فهو من الموحدين توحيدا حقيقيا أرقى من علم التوحيد المشهور إذا وجه نظره إلى نظام العالم العام وتعجب من جمال صنعته ، أما إذا قرأه قراءة الغافلين كما كثر من من يتعلمون بالمدارس اليوم فأولئك عن ذلك مبعدون وهم عن الله غافلون .

وهكذا من قرأ علوم المصريين والبابليين والآشوريين والأوروبيين فى تاريخهم وأحوالهم العجيبة يكون ذلك منه امتثالا للدين وترقية للعقل وله ثواب عظيم مادام يرمى لغرض شريف .

ولما كان ذلك لاينتفع به إلا ذوو الاستعداد العقلى أردفه بقوله ( وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ) بحسب ماسبق به العلم ، وما نافية ( فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ) مثل وقائعهم كما يقال [ أيام العرب لوقائعها ] ( قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ) أى فانتظروا هلاكى إنى معكم

من

من المنتظرين هلاككم ، ولقد جرت عادتنا فيما مضى أنا نهلك الأمم الذين كذبوا ( ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ) من تلك الأمم إنجاء كذلك الإنجاء ، ننجى محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه حين نهلك المشركين ، حق ذلك حقا علينا ، وهذا هو تقدير قوله تعالى ( كذلك حقا علينا ننج المؤمنين . قل يا أيها الناس ) خطاب لأهل مكة ( إن كنتم فى شك من دينى ) وصحته وسداده فهذا دينى فاستمعوا وصفه ، ثم وصف دينه فقال ( فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ) أى الأصنام ( ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ) يميتكم ، وإنما وصفه بذلك ليريهم أنه هو الذى يتقى ويخاف بخلاف ما يعبدون وهو ما لايقدر على شىء فكيف يخاف ( وأمرت أن أكون من المؤمنين ) أى بأن أكون : أى أن الله أمرنى بذلك بما ركب فىّ من العقل وبما أوحى إلىّ فى كتابه (وأن أقم وجهك للدين) أى وأمرت بالاستقامة فى الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة ، فهذا عطف على أن أكون ( حنيفا ) حال من الدين أو الوجه : أى مستقيما عليه غير معوجّ عنه إلى دين آخر (ولا تكونن من المشركين) مع المشركين على دينهم ( ولا تدع ) لا تعبد ( من دون الله ما لا ينفعك ) فى الدنيا والآخرة إن عبدته ( ولا يضرك ) إن لم تعبده ( فإن فعلت ) عبدت ( فإنك إذا من الظالمين ) من الضارين لنفسك ( وإن يمسسك ) يصبك ( الله بضرّ ) بشدة وأمر تكرهه ( فلا كاشف له ) فلا رافع الضرّ ( إلا هو ، وإن يردك بخير ) بنعمة وأمر تسرّ به ( فلا رادّ لفضله ) لامانع لعطيته ( يصيب به ) بالخير ( من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ) فتعرّضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) الرسول أو القرآن وليس لكم بعده عذر (فمن اهتدى) بالإيمان والمتابعة ( فإنما يهتدى لنفسه) لأن نفعه لها (ومن ضل) بالكفر ( فإنما يضلّ عليها ) لأن وبال الضلال عليها (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول إلىّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير ( واتبع ما يوحى إليك ) بالامتثال والتبليغ (واصبر) على دعوتهم وتحمل أذيتهم ( حتى يحكم الله) بالنصر وإظهار دينك (وهو خير الحاكمين ) لأنه لايمكن الخطأ فى حكمه لأنه مطلع على السرائر كاطلاعه على الظواهر بخلاف حكام الناس فليس لهم إلا الظواهر .

خاتمة فى عجائب هذه السورة وما تقدمها من السور

انظر إلى عجائب هذه السورة وما تقدمها . انظر كيف ذكر فى أوائلها بدء الخلق وهو يعيده ، وكيف جعل الشمس ضياءا والقمر نورا ، وكيف قدر المنازل وعلم عدد السنين والحساب ، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ يذم الذين هم عن آياته غافلون وجعل لهم النار بما كانوا يكسبون .

وانظر كيف ذكر فى خواتيمها كما ذكر فى أوائلها ، ذكر أنه جعل جثة فرعون الموضوعة فى نجوة : أى مكان مرتفع من الأرض آية وذمّ المعرضين عنها كما ذمّ المعرضين عن آيات السموات والأرض ؛ فهناك يقول « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار » وهنا يقول « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » فجعل الغافلين عن آيات الله فى الأمم كالغافلين عن آيات الله فى السموات والأرض .

عجب عجاب للقرآن وحكمه العجيبة ! وهنا أمر بالنظر فى السموات والأرض وأوعد الذين لايعقلون فقال « ويجعل الرجس » أى العذاب والخذلان « على الذين لايعقلون » : أى لايستعملون عقولهم .

فانظر كيف كانت أوائل السور كخواتيمها ، نظر وفكر وتعقل وذمّ الغافلين ، وانظر كيف سوّى بين الجهل بالعوالم العلوية والسفلية والجهل بأحوال الأمم كأمة للصريين ، فهذه من القرآن دلائل واضحات .

أن علوم قدماء المصريين وغيرها كعلوم الفلك والطبيعة من تركها من الأمم أصبحوا فى أسفل سافلين ولهم جهنم فى الآخرة وهم فى الدنيا أيضا معذبون لأنهم جهلاء « ومن كان فى هذه أعمى » لايعرف العلوم الكونية والنظامية والسياسية « فهو فى الآخرة أعمى » لايرى طريق النجاة ، والمقصود أن تكون هذه العلوم قائما بها طوائف من الأمة لكل علم جماعة .

فمن قرأ تاريخ المصريين فهو قارئ لآيات الله ، ومن قرأ علومهم فهو مطالع لآيات الله ، وكذلك الآشوريون والبابليون وجميع الأمم .

ومن درس ماعرفه الألمان والإنجليز والأمريكان من علوم الفلاحة والسياسة والتجارة والنجارة والحدادة والدباغة وما شاكل ذلك كان مطلعا على آيات الله بدرسه العلوم التى يرضاها والحكمة التى العباد أعداها .

فويل للمسلمين الغافلين وويل ثم ويل لهم إذا غفلوا بعد مابيناه ، وهلاك لهم إذا ناموا بعد مابسطناه .

فيالت شعرى ماذا يريد المسلمون ؟ أولم يكفهم أن الله سلط عليهم أوروبا فملكت بلادهم شرقا وغربا وهم نائمون ؟ أولم يكفهم أنه ألهم طائفة من المسلمين الآن فنبهوا المسلمين أن جميع العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية وهم غافلون ؟ أو ماعلموا أن العذاب حل بهم وهم لايشعرون ؟ وسلام ثم سلام على من يفهمون المسلمين فى الأقطار الإسلامية واجباتهم وعلومهم التى حرموا منها وهم لايعلمون .

وكما فعل ذلك فى هذه السورة فعل فى سورة الأعراف فجعل فى أوائلها ذكر الرياح والسحاب والمطر والماء والثمرات ، وفى أواخرها النظر فى ملكوت السموات والأرض وحذرهم من اقتراب آجالهم ، هكذا فعل فى الأنعام ، فجعل فى أولها خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، وفى أواخرها أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه رب كل شئ .

وفى المائدة ذكر فى أوائلها حل الأنعام وحرمتها وقصة ابنى آدم المشتملة على أن الإنسان يتعلم من الحيوان وذكر فى أواخرها أنه له ملك السموات والأرض .

وفى سورة النساء ابتداء بذكر خلق الإنسان وأنهم من نفس واحدة ، وجعل فى أواخرها ذكر السموات والأرض مكررة .

وهكذا سورة آل عمران ابتدأها بوصف الله بأنه الحى القيوم وكيف خلق الجنين فى بطن أمه وصوره وجاء فى أواخرها « إن فى خلق السموات والأرض الخ » .

وهكذا البقرة جاء فى أوائلها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم الخ » ، وفى أواخرها « لله مافى السموات وما فى الأرض الخ » .

فهذه السور من ابتداء البقرة إلى هذه السورة هذه كانت مبادئها وهذه كانت خواتمها كلها خاضة فى أوائلها وأواخرها على النظر فى علوم السموات والأرض ، فأما هذه السورة فقد أبانت أن الغافلين عن علوم الأمم السالفة ملومون غافلون ، والغافلون معذبون فى جهنم ، والعذاب هنا فى ترك فرض الكفاية .

اللهم ألهم أمتنا الإسلامية عقولا راقية ونفوسا كبيرة ؟ فوالله لئن لم ينته علماء الإسلام عن هذا التقصير لتكونن هذه الأمة فى الهالكين ويستبدل الله بها غيرها « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » .

فياعجبا لأمة الإسلام ! كيف ينامون ؟ كيف يغفلون ؟ وهذا القرآن بين أيديهم يقرءونه صباحا ومساء .

ولتعلم أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب أنك مسئول عن هذه الأمة ، وإياك أن تقول من أنا ، فإنك متى كنت مغرما بقراء أمثال هذا الكتاب فلا جرم تكون نفسك من ذوى الجد والعلم الذين يعرفون قيمة أنفسهم وهم مصلحون فلتكن مصلحا ، ولترشد الناس بقلمك ولسانك وحديثك ، ولتحرّض الأمة على حوز العلوم .

فلعمري لقد قابلت طوائف هذه الأمة المسكينة من أهل جاوة وسومطرة وبلاد الملايو وبلاد سيام وبلاد الغرب وغيرهم من الأمم والممالك ومن بلاد الصين فوجدتهم جميعا خاملين خامدين نائمين لم يفطنوا ، وذلك لما رسخ فى عقول علماء الدين أن الدين بعيد عن العمران ، بعيد عن الأوطان ، بعيد عن العلوم ، بعيد عن الصناعات ، فضلوا بذلك وأضلوا وهم لايعقلون ؛ فلتنقذ الأمة من ضلالها ، ولتنتشلها من وهدتها ولتطلعها على دينها الصحيح فى نحو ما سطرنا وفى مثل ما كتبناه ، والله هو الهادى إلى سواء الصراط .

تمّ تفسير سورة يونس عليه السلام .

## سورة هود مكية ، وهى مائة وثلاث وعشرون آية

وهى أربعة أقسام:

[القسم الأول] فى المقصود من الرسالة ، من أولها إلى قوله « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

[القسم الثانى] تأنيبهم على استبعادهم البعث والإلماع إلى نقص الإنسان ، ومقاصد أخرى من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » .

[القسم الثالث] من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « بئس الرفد المرفود » فى قصص الأمم والأنبياء .

[القسم الرابع] فى طريق هداية الأمم إلى الفلاح من قوله « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » إلى آخر السورة .

هذه أقسام السورة . ولقد كنت لخصتها منذ ١٤ سنة وأنا مدرّس بدار العلوم وقسمتها على هذا النمط ولكن القسم الثالث تبعه قسمان موضحان له تابعان له فصارت الأقسام ستة . ولما كان الانسان فى كل سنّ من أسنانه عمل يناسبه وإنشاء يلائمه ورأى يوافقه رأيت أن أكتب ذلك الملخص لتطلع على ما كتبته إذ ذاك وأنا مدرس بدار العلوم وتوازنه بما أكتبه الآن فتجد أن الرأى اللاحق هو السابق فأذكر ذلك الملخص ثم أتبعه بتفسير السورة إن شاء الله : هاك ما كتبته إذ ذاك لتطلع على مجمل تفسيرها كأنه مرآة ثم أذكره مفصلا فى اللاحق ،

تفسير هذه السورة ، مقاصدها ست :

المقصد الأول من أول السورة إلى قوله « ليبلوكم أيكم أحسن عملا »

ابتدأ الله عز وجل هذه السورة بالمقصود من الرسالة ، وهو عبادة الله عز وجل والإنابة إليه بالتوبة وعدة المؤمنين التائبين بالفوز فى الدارين والسعادة فى الحياتين الدنيا والآخرة ، وإنذارهم بالعذاب إن أعرضوا فقد جمع بين الإنذار والتبشير والإخافة والإطماع وهذه هى الطريقة المثلى وذلك فى قوله تعالى « الر * كتاب أحكمت آياته » إلى قوله « عذاب يوم كبير » ثم أخذ يشرح سعة علم الله وإحاطته بالكائنات فلا تخفى عليه خافية بما أبان من اطلاعه عليهم وهم مستغشون ثيابهم فى احتلائهم وفى أسرّتهم وعند نومهم ويقظتهم وعلى الدواب البرية والبحرية فى غدوّها ورواحها وليلها ونهارها وتقديره أرزاقها وقيامه بما يقيم به أودها ويبقى حياتها ويحفظ نسلها إلى أجل مسمى ، ثم شرح قدرته عزّ وجل بما أبدع من عجائب السموات وغرائب الأرض ولم تكن شيئا مذكورا حينما كان عرشه على الماء ، فما قدمناه منحصر فى العبادة والتوحيد والإنذار إجمالا والتبشير ، ولقد كانت العناية بصفات الله أتمّ والاهتمام بقدرته وعلمه أعظم ليكون أدعى للخضوع لعظمته والإيقان بعلمه وحكمته ، وذلك أدعى لإجلاله والخوف من عقابه وهيبة سلطانه وامتثال أمره واجتناب نهيه والإيقان ببديع حكمته حتى لا يكون العالم بلا غاية ، ولا أعمال العباد بلا نتيجة .

والمقصد الثانى وهو من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » أخذ فيه يؤنبهم على استبعادهم البعث بعد الموت ووصفهم له بالسحر واستبطائهم عذاب الدنيا إذ يقولون «ما يحبسه» وما أجمل أن يشرح خلق الإنسان العام وما فيه من النقص والجهل فهو اليئوس من الفرج ، الكفور بالله إذا أصابه الضرّ ، وهو الفرح البطر الفخور إن أذاقه الله نعمه ، ذلك لجهل الإنسان وقصر نظره الحيوانى الطبيعى ، ولا مفر من هذه الحلة الشائنة إلا بالصبر فى الضراء والسراء بالعفة

والسكينة

والسكينة والوقار وبضبط النفس في الغنى والتعالي عن الانغماس بالمادة وأن يفكر في زوال الحياة وفناء اللذات وانتقال المال من يد إلى يد وتصرم الآجال وذهاب الأموال وسرعة تقلب الأحوال ، وبضبط النفس في الحالين من فقر وغنى يصير الإنسان رجلا كاملا ، وما أنسب أن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم مما يضيق به صدره مما يقولون عليه تسلية له وتثبيتا لفؤاده فأنزل عليه مايثلج صدره إذ قال «فلعلك تارك بعض مايوحى إليك » إلى قوله « إنما أنت نذير » .

ثم شرح حال المرائين والمنافقين والمشركين وأبان أن أعمالهم حابطة وأظهر ماعليه المؤمنون والنبي وصحة حججهم ووضوح طرقهم وتبلج نور شمسهم وانقشاع الغيوم بأضوائه ووضوح الحجة بالقرآن وسطوع النور بالبيان بقوله « أفمن كان على بينة الخ » ولم يبق من أنواع الإيضاح إلا أن يمثل أولئك الذين لم يروا شمس الهداية ولم يتبينوا نور العلم والحكمة وسطوع الحجة الواضحة في القرآن بأنهم عمي لايبصرون وصم لايسمعون ، والآخرون مبصرون سامعون .

فتعجب كيف تدرج من أول السورة إلى هذا المقام من حال إلى حال ، فتوحيد يتبعه عبادة يتلوه نظام وعلم يتلوه إنذار بعذاب من بعد ذلك إيضاح وإيضاح وبيان يقفوه بيان حتى صار المعقول محسوسا والغائب مشاهدا فصدع بالأمر فوصف قوما بالعمى والصمم ، وآخرين بالبصر والسمع فالعمى عن رؤية السموات والأرض والدواب ومستقرها ومستودعها ، والصمم عن سماع الوعظة والإنذار والتبشير ، ولم يبق بعد هذا البيان إلا أن يقص القصص ليعتبروا ، ويقوم البلدان ليذكروا ، ويسمعهم التاريخ ليزدجروا لعلهم يبصرون عادا إذ قال « وتلك عاد الخ » ولعلهم يسمعون ماحل بالأمم الغابرة والأجيال البائدة ولا يكونون صما عن المواعظ عميا فلا يبصرون آثار الأمم البائدة وأطلالها الهامدة وأحوالها الدثرة ذلك هو العجب العجاب

المقصد الثالث من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « بئس الرفد المرفود » وفيه تخطيط البلدان التي سكنتها هذه الأمم والإلماع إلى تاريخهم . ذكر الله في هذه السورة عادا وثمود وإبراهيم ولوطا وشعيبا ، فقوم نوح نبيهم نوح ؛ وعاد نبيهم هود ، وثمود نبيهم صالح ، وقصص إبراهيم لم يذكر معه قومه فيها ، وأهل سدوم بناحية حمص بالشام نبيهم لوط ، وأهل مدين نبيهم شعيب ، وأهل مصر نبيهم موسى .

مساكنهم

أما قوم نوح فقيل بالهند ، وقيل بالعراق وما والاها . وأما عاد وثمود فهما بجزيرة العرب حوالى اليمن . وأما إبراهيم فقد كان في تلك الحال بفلسطين من أعمال الشام بعد أن رحل بابن أخيه لوط من أرض بابل فكان هذا بفلسطين وهذا بسدوم ، وهي خمس قرى بينها وبين فلسطين نحو أربعة فراسخ . وأما أرض مدين فعلى شاطئ البحر الأحمر تجاه بلاد صعيد مصر من الجهة الشرقية ، وأما أرض الفراعنة فمعلومة وهي مصر .

ألا تعجب كيف كانت الأمم المذكورة في السورة محصورة في جزيرة العرب وما حولها داخلة الآن في حوزة الإسلام .

ليتعجب طلاب العلم وليتذكروا كيف كانت هذه السورة جامعة لقصص الأمم المحيطة بالكعبة أوما يقرب منها وكيف أراد الله إيقاظ أقوام سكنوا تلك الأقطار بعد نومها وحياتها بعد موتها وعزها بعد ذلها وشرفها بعد ضعتها ، وكيف دخل الإسلام هذه الأقطار وعم هذه الديار فدخل اليمن وما حولها وضم جزيرة العرب ومصر والعراق وبعض أقطار الهند ؛ هذه بعض حكم القصص لم يذكرها الله إلا إيقاظا لأهلها فاستيقظوا وتذكيرا لأهلها فتذكروا .

المقصد الرابع : استنتاج الأخلاق مما ذكر فى المقصد الثالث

جرت عادة الله أن لايهلك أمة ، ولا يبيد دولة ، إلا إذا عاث أهلها فى الأرض فسادا أو بطشوا بطش الجبارين وطغوا وبغوا واستكبروا وأفسدوا فتكون العاقبة الهلاك فى الدارين والعذاب فى الجانبين والشقاء بالويلين ، فإن الله لايهلك القرى لكفر أهلها إذا كانوا مصلحين لشأنهم منتظمين مدنهم حافظين لأمرهم ضابطين لنظامهم قائمين بأعمالهم كما قال تعالى فى هذه السورة « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » فأما إهلاك قوم نوح فبسبب الإعراض عن الهدى واستمراء مرعى الجهل والإخلاد إلى الأرض والتباعد عن الرشد واتباع طرق الغىّ والاستكبار على العقلاء الذين آمنوا واسترذالهم واستهزائهم بالعلم والهدى وأنفتهم أن يأخذوا العلم عن بشر مثلهم والحكمة عن واحد منهم ، إلا أن نفوسهم حيوانية وجبلاتهم حجرية كمثل أولئك الذين لايرضخون إلا لعلم غريب عن الديار نازح عن الأوطان لما أنهم لايعقلون إلا كما تعقل العامة الجهلاء من الخضوع للجبارين والأخذ عن المجهولين أو السحرة الماكرين أو القوم الشاذين لقوة سلطانهم بالترهات وحيلهم بالطلسمات ، أما العقول فهم عنها معزولون ، ثم إن الكبر والجهل صنوان وهما رضيعا لبان وفرسا رهان وخليلان لايفترقان وشقيقان لاينفصلان فهلكوا بالغرق وبادوا بالطوفان .

وأما قوم عاد فلقد طغوا فى الأرض وبغوا وقالوا من أشد منا قوة فأبادتهم ارياح والزعازع وأهلكتهم فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم

وأما ثمود فكفروا النعمة ولم يشكروها وجمعوا بين نقيصتين : تعنت فى طلب الآيات وخوارق العادات وكفر على نعمة أعطوها فلم يحمدوا الله فيشكروها بل ذبحوا الناقة ظالمين وأكلوا لحمها كافرين فاصفرّت الوجوه ثم احمرّت ثم اسودّت ثم أخذتهم الصيحة التى صاحها جبريل وزلزلت الأرض ورجفت بهم رجفة فأصبحوا هالكين ، جمعت ثمود بين [ الخستين ] معاداة العلم بالتعنت وطلب الخوارق للعادات والبغى والظلم فقد أساءت فى القوة العلمية ولم تحسن فى القوة العملية ، وقوم لوط فسقوا وأولعوا بالشهوات الجثمانية ففعلوا مايبيد النسل وطغوا فى شهوة الفرج كما طغى أهل مدين فيما به قوام الأجسام من المكيل والموزون ، وما طغيان قوم فرعون إلا كعاد وقوم نوح ، فالنتيجة أن قوم نوح وقوم فرعون وعادا ملكتهم القوة الغضبية وأضلتهم النفس الشيطانية ، وقوم لوط وأهل مدين ضلوا بالقوة الشهوية ، هؤلاء فيما يبقى الأجسام ، وهؤلاء فيما يديم النسل ، فهؤلاء فيما يسدّ الجوعة وهؤلاء فيما به يتناسل الحيوان والإنسان

وقوم شعيب عليه السلام أغمضوا القوة العقلية فاستحبوا العمى على الهدى .

هذه مجامع علم الأخلاق ذكرها الله فى السورة تذكرة لهذه الأمم وإيقاظا لها وإيذانا بأن الأمم التى أهملت شأنها فلم تقو إرادتها ولم تستيقظ عقولها ولم تصلح شؤون نفوسها أوتلك التى اغترّت بأنفسها وفرحت بما عندها من العلم ونامت على مهاد الراحة واستكبرت عن أخذ العلم ممن كانوا أعلى منهم مقاما وأرقى شأنا وأوسع حكمة كمملكة مراكش أيام استقلالها وعظمتها أو تلك التى أطلقت أيدى العابثين من أبنائها فلم يأخذوا على أيدى الظالمين فساد الفساد بتطفيف المكيال والميزان وعموم الرشوة وإعطاء المرء مالايستحق من الأعمال وبخس الفضلاء حقوقهم وترك حبل الأمور على غاربها فأولئك لامحالة ذاهبون للدمار واقعون فى شرك الويل والثبور .

المقصد الخامس : استنتاج النظام العام الحالى من هذه السورة فى هذه الأمم وكيف كان هلاكهم تابعا لسقوطهم فى الأخلاق والفضيلة والآداب ، وكيف رجعوا لتاريخهم القديم اليوم

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إنّ هذه الأمم التي قصها الله تعالى في هذه السورة بعد أن هلكوا واستؤصلت شأفتهم ملكت أرضهم وسكنها قوم آخرون وهي الآن بلاد الإسلام فنحن أهلها المالكون وأصحابها المسيطرون ، ولما طغى أهلها البائدون أخذتهم صاعقة العذاب الهون ؛ فمنهم من أغرق . ومنهم من أهلك بريح صرصر عاتية ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت دياره فصاروا صعيدا جرزا ، وتلك القصص من المثلات عند سامعي القرآن ، فلنقس حالنا اليوم بمن حللنا ديارهم واتخذنا مساكنهم وننظر هل أحسنا الخلافة وعرفنا قوله تعالى « عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .

نرى أن البلاد العربية خاوية من العلوم ، خالية من النظام ، عريقة في التقاطع والتدابر ، وهكذا مصر لما أن رأت بصيصا من النور لم تعرف كيف تبصر ولم تزن أعمالها وخلطت عملا صالحا وآخر سيئا ، وهذا القول منذ ١٤ سنة كما قدمت لك ، أما الآن فإنها آخذة في الاستقلال والرقى ، وهكذا أرض بابل وما بين البحرين فإن الجهل لايزال ضاربا أطنابه في ربوع الإسلام فلذلك أحاطت به من كل جانب المصائب وحاق بنا المكروه من كل جانب ، وهذا مقدمة لعذاب الخزى في الحياة الدنيا مثل ماحلّ بأسلافنا ، حذونا حذوهم حذو القذة بالقذة ، وما ذكر الهلاك الدفعي إلا لينذرنا بالهلاك التدريجي والعذاب العظيم باحتقار الأمم لنا واستهزائهم بنا فلقد تركنا عقولنا وشأنها فلم نربّ القوة العقلية ولم ننم الفكر الإنساني وكثرت ارتشا والغش في المبيعات كما فعل أهل مدين وتجرأنا على المحرّمات كقوم ثمود ، والطامة الكبرى أننا فرحنا بما عندنا من العلم وصممنا آذاننا عن الحكمة التي أرسل الله أنوار شموسها على أرض المغارب وكسا بها وجه اليابان والصين وأدانها لأمة الأمريكان فتكبرنا عن العلم ونحن الجاهلون وأعرضنا عن الحكمة ونحن معرضون ونمنا والناس مستيقظون ، هذا ما كتبته إذ ذاك ، ولكن الآن دبت الروح في جميع هذه البلاد وعسى أن ترقى هذه الأمم وهم فرحون مستبشرون .

المقصد السادس : دواء هذا الداء وخاتمة السورة من قوله تعالى
« ذلك من أنباء القرى » إلى آخر السورة

لقد بان لك حالنا اليوم وما أحاط بنا من مكروه وما نزل بنا من شرّ ، وكيف أصبحت أمم الإسلام غارقة في بحار الجهل تائهة في قفار الضلال بعيدة عن طريق الهداية إلا قليلا ، وكيف عكفوا على المجد القديم واستكبروا في الأرض بغير الحق واكتفوا بما عندهم من علم قديم ومجد موروث وأهملوا الأخلاق والفضائل وقال قائلهم لمن يسأله عن سبب انحطاط أمم الإسلام ( إنها المعاصي ) ولو سألته أيّ هي ؟ لقال الغيبة والنميمة والخمر وما أشبهه . وأكثرهم يجهل أن الجهل أكبر المعاصي وأن نظام المدن ورقى التجارة وإتقان الصناعة وإحكام الزراعة ونظام الإمارة من أفضل العلوم، والجهل بها أكبر المعاصي وأقبح المخازي، وأن عكوف كل امرىء على شأن نفسه وحده وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوأ أثرا وأكثر خطرا وأعظم ضررا من غيبة ونميمة .

ولا سبيل لصلاح البلاد الإسلامية وإسعاد الأمة المحمدية إلا أن يجدّوا في العلوم والصناعات وأحكام التجارات والإمارات ونظام المدن والجماعات ، ولم يؤيسنا ربنا من السعادة ولم يقنطنا من إصلاح حالنا وتغيير العادة .

ألا ترى كيف ذكر الدواء بعد الداء فقال « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ، فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » فإن معناه هلا كان

فى الأمم الغابرة والقرون البائدة مرشدون ناصحون وعلماء واعظون وحكماء مبصرون ينهون غوغاءهم ويرشدون جهالهم ويضربون على أيديهم كما فعلت أمة اليابان والصين والأمريكان ، فإن الأمة إذا اقتربت من العطب وانسلّ إليها الإهلاك من كل حدب فأيقظ أهلها الموقظون ,أرشدها لموضع الداء الناصحون أرجعت العزّ إلى نفسها ونصرت على عدوّها وإذ ذاك لا ينالهم هلاك الدارين ولا يحيط بهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولا عذاب السعير فى الأخرى .

وتعجب كيف يقول بعد أن أتمّ قصة فرعون « تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » وكيف أرجع الظلم إليهم وقال « وما ظلمناهم الخ » ولكن ظلموا أنفسهم لما نفعتهم الآلهة المعبودة ، هكذا لم ينفع أهل الشرق اليوم من يعبدهم ويعينهم من بعض الرؤساء الجاهلين بل زادوهم تتبيبا ، ثم قاس أحوال الأمم فى الأرض بهذه الأمم المذكورة فقال « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » ثم شرح عذاب الآخرة وكيف يسعد قوم بالجنة ويشقى آخرون بالسعير .

مقاصد الدين [ أمران ] بقاء الأجسام بنظام للمدنية وحفظ النسل وسعادة الأرواح بالعلوم والشوق إلى معرفة الله والعبادة ، ولا أرواح بلا حياة ولا حياة بلا نظام .

لذلك كان جلّ مقاصد هذه السورة حفظ الأجسام وبقاء المدن ونظام الجمعية وحفظ الأموال ليهبّ الناس لجمعها ويتضافروا على العمران ويكثر النسل فنهى الله عليهم البخس فى المبيعات واللواط والاستكبار عن العلم النافع ، فهذا كله لبقاء الأجسام وهو النظام المدنى .

ولقد أرشد الله لحفظ الأرواح وتزكيتها بالعبادة والتوحيد والأخلاق الفاضلة . فتعجب كيف غفل المسلمون اليوم عن النظام المدنى ؟ وكيف يقرءون ولا يعلمون ويعيشون ولا يفكرون ؟ إنى أنذر المسلمين اليوم كما أنذرهم الله وأقول لهم ليقم فى كل قطر من أقطار الإسلام رجال يحضون على العلوم ليكثروا ليرشدوا إخوانهم ليأمروا بالمعروف لينهوا عن المنكر ، أحذر المسلمين أن يهلكوا كما هلك من قبلهم ، إنى أنذرهم صاعقة المدافع والعذاب الواقع ماله من دافع وحصد النفوس وذهاب الفلوس وضياع القرى ، ومن يعش يره .

آيات الأخلاق ، آيات العلوم ، آيات الأحكام ، آيات النظام العام

آيات العلوم من هذه السورة إحدى عشرة آية

« إلى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير » إلى قوله « فى كتاب مبين » وقوله « وقيل يا أرض » إلى قوله « الظالمين » وقوله « إنى توكلت على الله ربى وربكم » إلى قوله « مستقيم » وقوله « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » إلى قوله « حفيظ » وقوله « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » إلى آخر السورة .

وهذه الآيات فى الأكثر تبيان لعظمة الله عز وجل وجلاله وقدرته وسلطانه وعلمه ورحمته التى وسعت كل شئ .

ومن أعجب مافى هذه الإحدى عشرة قوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم » لن يعقل دقائق إحاطة الله علما بالدواب إلا من قرأ علوم الحيوان ووقف على غرائزه وعجائبه وبدائع تركيبه ومحاسن صنعته وما أتيح له من أعضاء منظمة ووهب من قوى دراكة وصور رائقة ونفوس مختارة .

إنّ فى الحيوان لآيات ، وفى النحل لعجبا ، وفى النمل لحكما ، واقرأ إن شئت هندسة العنكبوت ونظام بيوت النمل وبدائع دودة الحرير ونظام الجراد ودود القطن وكيف أكلت مما نلبس ولبسنا مما نسجت

أختها دودة الحرير ، فكيف كانت إحداها تخلع علينا لباسها والأخرى تسلبنا ما نزرعنا لنلبسه ؟ إن فى الحيوان والإنسان لغرائب «وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون» كل ذلك فى كتابى [جمال العالم] انتهى .

آيات الأخلاق منها قوله « الر * كتاب أحكمت آياته » إلى قوله « عذاب يوم كبير »

فى هذه الآيات الثلاث خلق التوبة ، ثم إن قوله تعالى بعدذلك «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور » إلى قوله « وأجر كبير » فيه ذم خلق الأشر واليأس وطلب الصبر على البأساء وضبط النفس فى السراء والغنى ، وقوله « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا» إلى قوله «وباطل ما كانوا يعملون» فيه ذم صفة الرياء . وقوله « وإلى ثمود الخ » فيها خلق التوبة وشرفه ، وقوله « وإلى مدين أخاهم شعيبا » فيه طلب العدل فى الكيل والميزان ، وقوله « ولولا كلمة سبقت من ربك » إلى قوله «لايضيع أجر المحسنين» فيه الأمر بالاستقامة وترك المداهنة والركون إلى الظلمة والصدع بالحق والاستعانة بالله وفعل الحسنات والصبر . أما آيات الأحكام فقوله تعالى « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين» وقد نزلت فى عمرو بن عرفجة بائع التمر وقد قبل أجنبية ، وهذه الآية تدل على أوقات الصلوات الخمس ، فطرفا النهار الفجر فيه صلاة الغداة ، والعشى فيها الظهر والعصر ، والزلف : أى الساعات القريبة من النهار لصلاة المغرب والعشاء ، ولا تكفر الصلاة إلا الذنوب الصغائر على الأوجه ، أما آيات النظام العام فهى فحوى السورة ومقصودها والله أعلم .

هذا هو الملخص الذى كتبته فى ذلك التاريخ ، فلأشرع فى تفسير السورة تفصيلا بعد ما عرفتها إجمالا وقرأت حكمها الشريفة وعجائبها المنيفة لتكون على بينة من معانيها وفى الفهم على صراط مستقيم .

## ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

لأبتدئ الكلام على البسملة وعلى قوله تعالى «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين» .

جرت عادة العلماء فى الإسلام أن يسهبوا فى الكلام على البسملة فى أول كتبهم ويشرحوا مايخصها من العلوم الاثنى عشر الأدبية كالنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والخط والإنشاء الخ .

أما فى هذا التفسير فإنى تكلمت عليها فى أول سورة الفاتحة وبينت الكلام فى رحمة الله عز وجل أى فى المقصود من إنزال القرآن إلى هذه الأرض ، إن أكثر العلماء رحمهم الله أرادوا ترقية العقول واتساع الذهن بالعلوم التى هى آلات الفهم ، أما أنا فإنى بحمد الله أكتب هذا التفسير لأناس لهم حظ من هذه العلوم فعلىّ أن أوجه الهمم إلى ماهو المقصود من ذكر الرحمة وقد ذكرت شيئا منها فى الفاتحة وشذرات فى سورة آل عمران عند قوله تعالى « بيدك الخير » وقوله تعالى « وترزق من تشاء بغير حساب » فبينت هنالك رحمته عزّ وجل فى الحشرات وغيرها وأنه سبحانه آخذ بناصيتها وهكذا عند قوله تعالى فى سورة الأنعام « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وكذلك فى قوله تعالى فى سورة الأعراف « ورحمتى وسعت كل شىء » . وههنا أقول إن الله كرر الرحمة فى القرآن فى أول السور فوق المائتين وهكذا ذكرها فى مواضع كثيرة كقوله تعالى « وهو أرحم الراحمين » فى سورة يوسف ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل قال فى نبينا صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولا جرم أنه الآن فى العالم الأعلى فوجب أن نكون نحن المسلمين على الأرض قائمين بالرحمة ، والرحمة على [ قسمين ] رحمة بالحيوان ، ورحمة بالإنسان ؛ أما الرحمة بالإنسان فلن تتم لنا إلا إذا أصبحنا عالمين بقدر طاقتنا بعلوم هذه الدنيا حتى نرقى نفوسنا ونرقى غيرنا ، ومستحيل هذا الرقى إلا بنشر العلوم بيننا أوّلا وهكذا الصناعات وحينئذ نرشد غيرنا ونكون رحمة . أما الآن فلا فمن يجهل الرحمة العامة كيف يستعملها وكيف ينشرها بين الناس فرحمتنا على مقدار عملنا فيها ، وعملنا فيها على مقدار علمنا ، وعلمنا اليوم قليل ، وأما الرحمة بالحيوان فإننا معاشر الأمم الإسلامية لم ننشرها بين الشعب بل حصرت فى كتب الفقه والأمم الإسلامية ساهية لاهية عنها والفرنجة قاموا بجمعيات للمحافظة على الحيوان فى بلاد الإسلام وهذا بسبب كتبهم التى ألفوها لصغارهم وفيها مايرقق القلب على الحيوان ويورث الشفقة .

فلأذكر ما جاء فى الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ثم أتبعه بما يفتح الله به . وقبل أن أذكر الأحاديث أقدّم مقدمة فأقول :

إن العالم على [ قسمين ] عالم لطيف وعالم كثيف ، فالعالم اللطيف لاندرى منه شيئاً إلا العلوم والأنوار والجمال ، نحن فى هذه الأرض نحسّ بنعمة العلم وبنعمة الجمال وبجمال النور ، هذه النعم الثلاثة نحس بأنها خالية من الحزن ومن الكدر والنحس والشقاء ، يقف الإنسان مبهوتا أمام الجمال فينسى كل حزن ويشعر بسرور وخفة روح ولطف الحبّ الذى سببه الجمال يأخذ بلبّ صاحبه على مقدار الإحساس بالجمال فيغيب عن كل حزن وكدر فى ذلك الزمن الذى غشى الحبّ على قلبه ، ولقد عرف الناس أن الحب درجات : درجة دنيا وهو حبّ الجهال للجمال الظاهرى فإنه سريع الزوال . وحبّ العلماء لجمال العلم ، فهذه درجة وسطى . وحبّ الحكماء وأولى الألباب لخالق الجمال ، وهذه هى الدرجة العليا ؛ فالجاهل يلهيه الجمال الحيوانى فى وقت ما عن حزنه وغمه وشقائه ، والعالم والحكيم يجدان لذة لايحسّ بها الجاهل فى علمهما وحكمتهما وإدراك منتظم هذا الوجود على قدر طاقتهما وهكذا النور الذى هو عالم وسط بين المادّيات والمعنويات يسرّ النفس على قدر إدراكها له .

هذه مظاهر تبعث فى النفوس ارتياحا لعالم المجرّدات الذى لم تنله فى هذه الدنيا ، أما عالم المادّيات فإن الرحمة فيه لاتكون إلا باستعمال الحكمة وإظهار بدائع القدرة واستكمال صور الموجودات بأنواع التنظيم

والإحكام

والإحكام ، إذ يظهر أن هذا العالم المادّى الذى نعيش فيه عالم متأخر تغلب عليه الشقاوة ولكن يد القدرة وعجيب الإبداع والإحكام قرّبه من الرحمة ، وفى هذا التفسير من عجائب التدبير لأجل الرحمة ما يكفى اللبيب مثل ما ذكر فى سورة البقرة عند قوله تعالى « إنّ فى خلق السموات والأرض » وفى آل عمران عند قوله « بيدك الخير » وفى آخرها أيضا ، ومثل ما ذكر أول سورة المائدة ، وهكذا ما جاء فى آية « ورحمتى وسعت كل شئ » فلا نعيده ولكن نشير إلى هذا الأخير مما ذكر هناك :

(١) مثل أن الأرض يعوزها ما يقلل أضرار المواد الرطبة التى يفسد الجوّ بقاؤها فيحصل الهلاك ، لذلك خلق الذباب والجراد ونحوهما من الحشرات .

(٢) وكثير من هذه الحشرات تضرّ الزرع لجاء البرد أيام الشتاء فقتل تلك الحيوانات .

(٣) وهذا البرد يضرّ البذر والزرع الناشئ حديثا زمن الشتاء لاسيما فى البلاد التى اشتدّ بردها لجعل لها الثلج واقيا ما تحته من بذر وزرع فى البرّ ومن سمك فى البحر لأن الثلج فوق سطح البحر يمنع البرودة عما تحته فيبق الماء يغدو فيه السمك ويروح برحمة الله ثم يشتد حر الشمس فيذيب الثلج فيخرج الزرع نضرا بهيا جميلا .

فانظر لتدبير منظم حشرات لإقلال الرطوبة ، فبرد لقتلها ، فثلج لإضعاف آثار البرد ، فشمس لإزالة ذلك الثلج ليخرج النبات ، هذا مثل واحد من آلاف آلاف الأمثال التى تراها فى هذا العالم تدلنا أن النظام والحكمة والتدبير هى التى جعلت فى عالمنا بعض الرحمة لا كلها ، إن أرضنا كثيرة التغير سريعة التبدل قصيرة الأعمار كثيرة الزلازل منيت بالشر ممزوجا بالخير فلا خير إلا جعل مصحوبا بشر ولا نفع إلا مع ضرّ ، ذلك كله لأن عالمنا غير مستعد لتمام الرحمة ، فليس من العالم اللطيف الجميل الذى تطول فيه الأعمار ويظهر فيه الجمال ويتلألأ فيه باهر الأنوار المدهشة ، بل إن مالدينا من النور يصرفنا عن السرور به الرزايا الأرضية هذا هو عالمنا ، لعلك من هـــذا تفهم الحديث الذى أخرجه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

إنّ هذا الحديث لايعقله إلا من درس علوم الطبيعة والفلك ، وكلما ازداد الإنسان علما ازداد بصيرة ، نحن رأينا الناس لايرتقون فى هذه الدنيا فى مال أو علم إلا بنصب وتعب ، رأينا نظام الحيوانات فى البرية مبنيا على المغالبة ، ورأينا الآساد تأكل الظباء رحمة بالآساد وبالظباء وبالناس ، فلولا هذه الحكمة لملأت الحيوانات الآكلة العشب السهل والجبل وملأت رممها عند هلاكها أقطار الأرض فكان الوباء فاقتضت الحكمة بقاء العالم ، وليس لهذا طريق إلا أن يخلق حيوانا يقلل ذلك التكاثر ويطهر الأرض من الرمم فيجعلها فى جوفه بحيث يطحنها ويحيلها إلى مادّة لاتعفن فيها فيكون بعضها من جملة جسمه وبعضها فضلات خارجات من السبيلين ، فهذه وأمثالها تدبير ولطف «إنّ ربى لطيف لما يشاء» فهذا التدبير يدهش العقول المفكرة وترى فيه ما لايخطر ببال المشعوذين من الحيل العجيبة الناظرين المدهشة للمفكرين ، ولعل هناك عوالم ألطف وألطف فتكون الحياة فيها أشرف وأشرف وأبقى وأطول ويكون الأحياء أعلم وأعلم ، لا كما نحن عليه فى الأرض من رحمة أقل وعلم ضئيل حتى خاطبنا الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فلة علمنا مناسبة لقلة الرحمة الواصلة إلينا التى منعها نقص استعدادنا حتى لم تنل من الرحمة إلا واحدا من مائة ، وافق الحديث الآية .

الحديث يمس على أن رحمتنا واحد من مائة ، والآية جعلت علمنا قليلا . قل العلم فقلت الرحمة وليس ذلك كله إلا من نقص عالمنا الذى نعيش فيه ولم تستعد إلا له ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وقد ورد فى الأحاديث ما أوجب علينا أن نحذو حذوه فيها مثل حديث ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله تعالى » أخرجه أبو داود إلى قوله «من فى السماء » والترمذى بتمامه ، والشجنة : بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » أخرجه الشيخان والترمذى .

وفى رواية أخرى لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « لاتنزع الرحمة إلا من شقى » .

وقد وردت أحاديث فى رحمة الله تعالى ، منها الحديث المتقدم الذى جاء فيه ذكر مائة رحمة عن الشيخين والترمذى، وورد فيه زيادات لمسلم مثل قوله : فبها، أى فبالرحمة الواحدة ، تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض .

وجاء فى حديث رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبى فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه قال فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وجاء فى رحمة الحيوان ماروى عن أبى هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيه فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا قال فى كل كبد رطبة أجر » أخرجه الشيخان وأبو داود .

وفى رواية أخرى « أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فغفر لها به » ( الموق الخف ) .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل ( الهدف : ماارتفع من الأرض وحائش النخل : نخلات مجتمعات ) فدخل حائطا ( بستانا ) فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت ( ذفرى البعير : للوضع الذى يعرق من قفاه خلف أذنه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان ) فقال من رب هذا الجمل فقال فتى من الأنصار هو لى يارسول الله ، فقال أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه ( تتعبه بكثرة استعماله ) » أخرجه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم » أخرجه أبو داود .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأينا حمرة ( بضم الحاء وتشديد الميم : نوع من الطير فى شكل العصفور ) تعرش ( ترفرف ) وترخى جناحيها

وتدنو

وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها ، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال من أحرق هذه ؟ فقلنا نحن ! قال إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية نمل فحرقت فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح »اه .

نظرة في هذه الأحاديث وفي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها

يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض الخ » ويقول هود « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ويقول في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » وهاهو رسوله صلى الله عليه وسلم يقول شكا الجمل إلىّ وبأمر صاحبه بالرفق به ، ويقول غفر الله لبغيّ سقت الكلب بخفها، ويقول في الطائر من فجع هذه بولدها ؛ هذه الأحاديث توجب النظر والبحث وتوجب على علماء الإسلام في سائر الأقطار أن ينشروها ويشرحوها ويقولوا للناس في نشراتهم وفي كتبهم [ ينبغي عدم أخذ صغار العصافير والطير من أعشاشها ] .

خطاب إلى علماء الإسلام

أيها العلماء . ويا أيها المسلمون ؛ أما آن لكم أن تذيعوا هذه الأحاديث وتقولوا للأمة إياكم وأخذ فرخ الحمام من أمه قبل استكمال تربيته ، وذبح العجل مادامت أمه ترضعه ، وإياكم وصيد الطيور البرية مادامت تربي أولادها وتقولوا يجب دراسة علم الطير والدواب والحشرات وفهم طباعها فهما تاما ثم جعل الأحكام مطابقة لذلك بحيث تحرمون الصيد في وقت التربية والبيض وما أشبه ذلك .

إنّ هذه الأحكام يختلف فيها العلماء اختلافا كثيرا ولكن لامعنى للخلاف مع وجود الحديث . ولعل الأمم المسيحية أقرب إلى الرحمة منا .

اللهم إني أبرأ إليك من هذا الجهل الفاشي في أمة الإسلام ، اللهم قد نبهت وأوضحت وحسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم إن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وقد أنذر وحذر ولكن الناس أهملوا والأمم كلها تيقظت إلى هذه الرحمة ونحن اليوم جهلاء بها وأنت أرحم الراحمين ، فألهم العلماء في الإسلام إكمال ما ابتدأناه وشرح ما أجملناه ، ألهمهم إلهي أن ينظروا في هذا الوجود ، ألهمهم أن ينظروا في الأمم حولهم ويقرءوا علومهم بلغاتهم فإنهم يجدونهم قد عطفوا على هذه الحيوانات وفكروا فيها ، ومنهم من يرحمها وقد ألفوا جماعات تجوس خلال ديارنا لرحمتها وإن كان علمهم أبتر وناقصا ، ألهمهم أن يفكروا في أمر الإسلام وكيف يكون المسلمون أقلّ رحمة بالحيوان من غيرهم غفلة وجهالة وبعدا عن الحق وأنت قد ذكرتنا أن هذه أمم أمثالنا وما فرطت فيها وأن عليك رزقها وأنك تعلم مستقرها ومستودعها وأنك آخذ بناصيتها ، فإذا كانت هذه منزلتها منك فكيف جهلنا نحن المسلمين منزلتها عندنا ؟

أباح المسلمون صيد الحيوان بلا قيد ولا شرط وخالفوا العلماء وخالفوا رسولك القائل « من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها » هذا الحديث مذكور في كتاب [تيسير الوصول لجامع الأصول] فهو في حكم الأحاديث الصحاح .

ألم يأن للمسلمين أن يدرسوا هذه الأمم درسا مدققا ؟ إننا وإياها نكون أسرة واحدة ، فهي تساعدنا في الزرع والضرع والسفر ، وهي المغنيات لنا لتطربنا في حقولنا والمعطيات لنا ملابس ومساكن ومناظر جميلة

ومنها القاتلات لحشراتنا الفاتكات بزرعنا ، وكيف يعرف الناس أن ولد الحمام يخالف ولد البط والأوز والدجاج من حيث عطف الأبوين ، وأن الفريق الأول فى حاجة إلى الأبوين معا يعطفان عليه لضعفه ويطعمانه ، وأن الفريق الثانى يخرج قليل الحاجة إلى الوالدين لقوّته بالريش والمنقار والقوة والاستقلال والجرى وراء أمه من وقت الولادة وتعاطى الغذاء من الأرض فلذلك لم يحتج إلى عطف ذكر البط والديك بخلاف ذكر الحمام الذى يعاون الأم ويعطفان معا على الولد ويتقطع قلباهما أسفا وحسرة وحزنا إذا فارقهما وهو ضعيف .

أقول : كيف يعرف الناس ذلك كله إلا بالدرس والعلم ؟ أفلا يحسن أن يتنبه العلماء وحكومات الإسلام بعد ظهور ما كتبناه هنا إلى هذا الأمر ويحرموا الناس صيد أمثال (الخطاف والعصفور والسمان) أيام تربية الأولاد ، وهكذا صيد أفراخها الضعاف : أى أن يتركوا الأبوين والذرية أيام الحضانة ثم يصطادون ما يشاءون بعد ذلك حين استقلال الولد عن الوالدين فيصبح الأفراخ فى غنى عن الأبوين فلا يتقطع قلبهما ولا يترك الأفراخ الصغار مقطوعات لاعائل لها .

ومتى زال سبب العطف زال التحريم وهناك يكون المسلمون قائمين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل « ردّوا ولدها إليها » وذلك لسبب الحزن الشديد والعطف من الأم المرفرفة ، فأما بعد الاستغناء فإن الأولاد تكون مباحة وإذن يصبح هناك فرق بين صغار الحمام وصغار الدجاج فيؤخذ فرخ الدجاج وهو صغير لأن الأم لايتقطع قلبها أسى وحسرة ، أما الحمام فبعكس ذلك ، وهكذا بقية الطيور التى يقول فيها الحديث « ردّوا إليها ولدها » ويكون ولد البط كولد الدجاج لأن المدار على شدة العطف وعدمه . هذا ما أراه فى هذا المقام .

إنّ هذا الكتاب عام للمسلمين من جميع المذاهب ، فلا هو خاص بأهل السنة ولا بالشيعة ولا بالإمامية ولا بالزيدية ، بل هو تفسير القرآن مع الاستعانة بالسنة ، فهاهو ذا كتاب الله وهاهو ذا حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهاهو ذا وجدانكم ورحمتكم وإحساسكم الشريف أيها العلماء ، وعطفكم ورحمتكم ورحمة رسولنا صلى الله عليه وسلم فهل ترون أننا نكون أقسى الأمم ونبينا بعث رحمة للعالمين ، البوذية يحرّمون جميع الحيوان ، ونحن أمة وسط فأبيح لنا حيوان وحرّم علينا آخر وأمرنا بالنظر والاعتبار وتقدم فى سورة المائدة أن هناك حيوانات نافعات لنا منعت حكومتنا المصرية صيدها بسبب ما كتبناه كما ستراه فى سورة يوسف قريبا فقلنا فليحرّم صيد هذه الطيور لمنفعتها لنا فى حقولنا ولتجعل هذه قاعدة ، إن المسلمين يدرسون علوم هذه الدنيا ويحرمون صيد كل حيوان نافع لهم وهذا أمر يجب ألا يختلف فيه العلماء ، فمن قطع أصبع نفسه أو يده حرم عليه هكذا هذه اللاتى تساعدنا قتلها حرام لأن ذلك يفوت منفعتها أما التحريم الذى أذكره هنا فهو للشفقة والرحمة التى تكررت فى أول كل سورة وفى كل ركعة صباحا ومساء وفى القرآن وفى الحديث ، فمن الجهالة والتقليد الأعمى المذموم الأبله ألا يفرق المسلم بين أفراخ الحمام مثلا وأفراخ الدجاج ، فلتأمر حكومات الإسلام قاطبة بتحريم اصطياد كل طير فى فصل الربيع إبان تربية أولادها حتى يستغنى الصغار عن الأبوين ، ومن هذا الحمام الذى نربيه فى منازلنا ، فليحرّموا عليهم ذبح صغار الذرية مادامت فى حضانة الأبوين ، فأما الصغار منها إذا استكملت قوتها فهناك يكون آلام الأمهات قد قلّ كثيرا وخفّ فلا بأس إذن من أخذها .

قد اعتاد المسلمون أن يقدموا دروس الصلاة والصيام على أمثال هذا ، وكان الأجدر أن تؤلف كتب للصغار فيها عجائب هذه الدنيا باختصار ويذكرون فيها بعض الأخلاق ورحمة الحيوان ، وذلك كله قبل الكلام

على

على أركان الإسلام حتى إذا اشتاقوا لربهم وأحبوه بجمال صنعه وعموم رحمته أخذوا يبينون لهم كيف يصلون ليصلوا إليه وليقربوا منه فيصلون بحب لما يعرفون من عموم رحمته لهم ورأفته بهم وبالحيوان ، هذا ما وفقت له اليوم والحمد لله رب العالمين .

فعليك أيها الذكي القارئ لهذا التفسير أن تنشر هذا بين الناس بقلمك ولسانك ومالك من قوة وقدرة أو إمارة ، فالمسلمون اليوم في حاجة قصوى إلى الذكرى وأنا أرجو أن يحيي الله بك قلوبا وقلوبا فإن الكتاب لا عمل له وإنما العمل للرجال ، والله عز وجل يسألني عن المسلمين ويسألك عنهم مادمت موقنا بما تقرؤه في هذا التفسير والله هو الوليّ الحميد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ؛ انتهى الكلام على البسملة فلأشرع في تفسير السورة .

التفسير اللفظي

قال تعالى ( الر ) تقدم في أول سورة آل عمران ، هذا ( كتاب أحكمت آياته ) نظمت نظما رصينا محكما لايقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم من الفساد وليس بنسخها دين بعدها وأحكمت بالحجج والدلائل ، ويصح أن يقال إنها من حكم بالضم إذا صار حكيما ، فإن فيها أمهات الحكم النظرية والعملية كما قدمنا في ملخص السورة ( ثم فصلت ) كما تفصل القلائد بالفرائد ، فمن دلائل توحيد إلى أحكام إلى مواعظ إلى قصص أو فصل فيها مايحتاج إليه العباد : أي بين ولخص، وثم للتراخي في الحال لا في الوقت كما تقول محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ( من لدن حكيم ) فلذلك أحكم الآيات ( خبير ) بتفصيلها فلذلك فصلها . ولما كان في فصل معنى القول جيء بأن المفسرة في قوله ( ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ) كأنه قيل : أي لاتعبدوا الخ ، ثم عطف عليه ( وأن استغفروا ربكم ) من الشرك ( ثم توبوا إليه ) بالطاعات ( يمتعكم متاعا حسنا ) يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة ويعشكم في أمن ودعة وعيشة مرضية ونعمة متتابعة ( إلى أجل مسمى ) إلى أن يتوفاكم ( ويؤت كل ذي فضل فضله ) ويعط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة وهذا وعد للمؤمن التائب بثواب الدارين ( وإن تولوا ) وإن تتولوا ( فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ) يوم الشدائد في الدنيا بقحط أو قتل كما حصل فقد أكلوا الجيف كما قيل وقتلوا في الغزوات النبوية ، وفي الآخرة أيضا بعذاب جهنم ( إلى الله مرجعكم ) رجوعكم ( وهو على كل شيء قدير ) فيمتع من يستحق بالرزق ويعطي ذا الفضل فضله ويعاقب المسيء ويثيب المحسن يوم القيامة .

وهذه الآيات دالة على قدرة الله تعالى ، ثم أتبعها بما يفيد عموم علمه كما عمت قدرته فأبان ماكان عليه المشركون فإنهم إذا دخلوا بيوتهم يرخون ستورهم ، ويحنون ظهورهم ، ويتغشون بثيابهم ويقول الرجل منهم : هل يعلم الله مافي قلبي ؟ فردّ الله عليهم قائلا ( ألا إنهم يثنون صدورهم ) يعرضون بقلوبهم من قولهم : ثنيت عناني ، وهم قد أرخوا الستور ، وأحنوا الظهور ، واستغشوا بالثياب ( ليستخفوا منه ) ليطلبوا الخفاء من الله بتلك الأعمال ( ألا حين يستغشون ثيابهم ) ويحنون ظهورهم ويرخون ستورهم ( يعلم مايسرّون وما يعلنون ) فلا تفاوت في علمه بين سرهم في تلك الستور والثياب وعلنهم في المجامع والمحافل ( إنه عليم بذات الصدور ) أي بالأسرار ذات : أي صاحبة الصدور . وإذا علم ماخفي في الصدور فعلمه بغيره أولى .

ولما أثبت قدرته وعلمه العامين لجميع نوع الإنسان شرع يقرّرها لجميع الكائنات مبتدئا بالدواب التي هي أقرب إلى الإنسان لمشاركتها له في الحسّ والحركة مثنيا بالسموات والأرض خاتما باستنتاج أنه قادر على البعث فقال ( وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ) غذاؤها ومعاشها ( ويعلم مستقرّها ) في الأصلاب ( ومستودعها ) في الأرحام ؟ فإثبات القدرة بعموم الرزق وإثبات العلم بأنه يعلم مستقرّها ومستودعها كما ذكر في الإنسان أنه يمتع متاعا حسنا من استحق ذلك وأنه يعلم مايسرّ وما يعلن على سبيل اللف والنشر المرتب ( كلّ ) كل واحد من الدواب

وأحوالها ( فى كتاب مبين ) مذكور فى اللوح المحفوظ قبل خلقها ( وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ) تقدم شرحها فيا مضى فى يونس وفى أول الأنعام ( وكان عرشه على الماء ) وقد تقدم تفسير هذا فى أول سورة يونس بأن الماء العلم : أى وكان ملكه قائما على العلم ولا يزال كذلك ، وإنما خلق السموات والأرض ليربى ذوى الأرواح فيهما بالخير والشر ، وهذا قوله ( ليبلوكم أيكم أحسن عملا ) أى ليختبركم بين الحياة والموت أيكم أخلص عملا ، ولولاذلك لكان خلق العالم عبثا «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » بل خلقناهما لنربى فيهما نفوسا ونرقيها لحياة دائمة وغايات شريفة ويكون لها حياة وموت وارتقاء وانحطاط ابتلاء وامتحانا .

لطائف

الطيفة الأولى فى قوله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الخ »

لما اطلع على هذه السورة بعض العلماء حدثنى قائلا :

إنى رأيت (الر) فى سورة يونس وفى سورة هود قد ذكر الله بعدها الحكمة ، فهو سبحانه يقول فى يونس « تلك آيات الكتاب الحكيم » وهنا يقول « أحكمت آياته » ثم يقول « فصلت » ثم يصف نفسه بأنه حكيم وأنه خبير ، ومعلوم أن كلام الله موزون بميزان .

وإذا كنا نرى جميع أفعاله موزونة فى أصغر الذرات فهكذا فليكن كلامه ، فلماذا أكثر من ذكر الحكمة بعد هذه الحروف .

(ج) لو أنك اطلعت أيها الفاضل على ماتقدم فى هذا التفسير لأمكنك الجواب ولعرفت الحقيقة .

(س) كيف لا أعرفه وأنا متذكر كل ماقلته أنت فى هذا المقام ؟

انظر ، ألم تقل فى سورة آل عمران : إن « الم » جاءت لإيقاظ المسلمين للغرور الذى فشا فى الإسلام كما اعتز اليهود وإن نتيجة ذلك وجوب نشر العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية والعقلية وإلا حقت كلمة العذاب علينا وهذا واضح فى سورة آل عمران ، وأيضا أنت قلت إن « الم » فى سورة البقرة مذكر بمسألة الجهاد وبمسألة تحليل العناصر ومعرفة حقائق المادة بعلم الكيمياء العضوية وغير العضوية لأن هذه الآيات هناك مبدوءة بهذه الحروف « الم » فقال تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم الخ » وقال « ألم تر إلى الذى حاج الخ » فصارت هذه الحروف مشيرة لعلم الكيمياء والجهاد ولتعميم العلوم وكذلك فى « المص » جاء فيها مايقرب من هذا مفصلا موضحا شارحا للمقصود من ( ص ) التى تشير إلى القصص وأن تلك السورة قد جاء فيها قصص آدم وبنيه من الأنبياء وأن هناك استنتاجا قد ذكره الله فى نفس السورة ليعلمنا كيف نستنتج من القرآن ومن كل شىء كمسألة اللباس الذى زال عن آدم المذكر بأنه أنعم علينا بالقطن والكتان الخ وأنه أنعم بلباس التقوى الذى هو خير الخ ، وهكذا توالت قصص الأنبياء هناك وظهر أن كل حجة احتج بها المعاندون كانت أشبه بحجة إبليس كأن يقولوا « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فصار الاغترار بالآباء أشبه باغترار إبليس بأصله وأنه من نار وأن الناس على الأرض اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم سائرون على هذا النمط .

فهذا بعض ماتقدم فى معانى هذه الحروف . فكيف تقول إنى لو كنت عرفت ماتقدم لعرفت الجواب ؟ أما أنا فإنى بعد ماتقدم أقول إنه لا يكفى للجواب ، فإن تكرار الحكمة والتفصيل وأنه خبير يدل على مغزى أعم مما تقدم وأبعد مدى وأقوى وأتم .

(ج) إن هذه الحروف أنزلها الله فى القرآن ليخرج بها المسلمين من ظلمات الجهالة إلى مشارق النور ومباهج الحكمة ومناهج السعادة وباحات الجمال وساحات العلم والكمال .

علم الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا وهم غير مقصرين ، بل هم مخلصون لربهم ولدينهم فأنزل الله هذه الحروف لترفع الغشاوة عن أعينهم بعد نومتها وتوقظ جماعاتهم بعد غفلتها .

(س) أما كون هذه الحروف ترفع عن أعينهم الغشاوة وكونهم هم غير مقصرين فى نومهم فهذان أمران لا أعقلهما وكيف أعقلهما ؟

(ج) أما كونهم غير مقصرين فى نومتهم فإنى أوضحه لك .

أنا من البلاد المصرية ولى نظراء من بلادنا توجهنا إلى الأزهر لتعلم العلم فوجدنا أمامنا النحو والفقه والتوحيد ، وهكذا علوم اللغة العربية وعلم الأصول وما أشبه ذلك ، تلك العلوم التى انحدرت إلينا من آبائنا وأجدادنا من عصور مضت وقد سلطت عليهم ملوك وأمراء ووقعوا فيما وقعت فيه الأمم من الضنك ولم يستخلصوا لنا من ظلم الظالمين إلا ما وصل لنا .

تعلمنا هذه العلوم ثم نظرنا حولنا فرأينا أمما ودولا وعلوما فرجعنا إلى القرآن فوجدنا أن العلوم التى ارتقت بها الأمم يطلبها القرآن فعلا نصا صريحا فنصحنا الأمة بتلك العلوم .

أقول لك : لولا اطلاعنا على هذه العلوم ما أمكننا أن ندعو الأمة لها ، فأسلافنا الذين ورثوا هذا العلم كان أكثرهم لم يطلع على هذه العلوم ومن اطلع منهم ألف ونصح الناس بقراءتها ، ولكن الجهل كان يمنع الناس من اتباعهم . وعلى ذلك نقول : إن أحوال الأمم الإسلامية كانت محتمة عليهم أن يعيشوا على هذا المنوال .

فإذا كان علماء الدولة العباسية قد حاز كثير منهم المعقول والمنقول ودعوا إليها كالغزالى رحمه الله والرازى ومثلهما ابن رشد بالأندلس وكثير غيرهم ، فإن المتأخرين أرغموا أن يتعلموا العلوم النقلية وقلت فيهم العقلية فهم كانوا لا يعلمون ، ولذلك ترى كثيرا منهم حاربوا المفكرين فى هذه العلوم كما تراه واضحا فى سورة الأنعام عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » فإذن علماء الإسلام المتأخرون منهم من عرف ودعا لما عرف ، ومنهم من جهل ، ومنهم من عرف أن هذه حق ولكنه خاف على شهرته فحارب القائمين بها ، وهؤلاء كلهم عند ربهم وهو يجازى كلا بما فعل .

فالمدار فى الأمم على شيوع الفكرة ، فمتى شاع أمثال ما كتبنا فى هــذا التفسير فان الأمة تسير على منواله ومنوال أمثاله ولا تقصر .

والمسئول الآن عن هذه العلوم أمثالك أنت ممن أيقنوا بهذه الفكرة فهم هم المسئولون كما أننى أنا مسئول ولكن الله سبحانه أعاننى بنشر هذا الكتاب وهو حقا سيعينك كما أعاننى بأن تنشر الفكرة بين المسلمين ، فأنا وأنت وكل من عرف هذه الآراء التى رأيتها فى هذا الكتاب فهو مسئول ، أما الذى لم يطلع فكيف يعلم الناس ؟ فالناس على حسب أساتذتهم ومن يعاشرونهم ؛ فعلم الناس فالله سائلك عنهم واحذر من التقصير .

هذا معنى قولى إنهم غير مقصرين فى قولهم : أى غالبا ، فتجد علماء الدين الإسلامى اليوم راضين بما حصلوا من العلم وذلك بسبب ما لقنه الأساتذة لهم والخلف يتبع السلف ، ولكن هذه النهضة الحالية ستقلب التعليم رأسا على عقب ويصبح الجو الإسلامى جو حكمة وعلم وإبداع واختراع ونظام واطلاع على بدائع الجمال الإلهى وروائع الإحكام الصمدانى وغرائب النور السماوى .

هذا شرح لقولى إنهم كانوا غير مقصرين ، وأما

(س) فقال أرجو ألا تجيب عن السؤال الثانى : أى أن هذه الحروف سبب فى إزالة الغشاوة إلا بعد أن أسألك فى نفس الجواب الأول .

(ج) سل ما بدا لك .

(س) ما أهم الأسباب فى جهل المسلمين بجمال هذا العالم الذى نعيش فيه ؛ مع أن الله لايعرف إلا به والحكمة لاتتم إلا به ، والعقول لا ترتقى إلا به ، ونظام الأمة لايتم إلا به .

(ج) قد أشرت إليه فى الإجابة .

(س) هذا لا يكفى !

(ج) قد تكرر ذكر هذا فى التفسير فى مواضع كثيرة

[ ذلك ] أن الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء شرحه شرحا وافيا وبين أن علماء الفقه فى زمانه اعتادوا أن يسموا هذه الأحكام الشرعية بلفظ ( فقه ) ولفظ فقه كلة ممدوحة ، فإن الله يقول فى القرآن « لقوم يفقهون » فهى كلة مدحها القرآن والحديث فجرت على الألسن بأنها الأحكام الشرعية وصرفت الناس عن جمال ربهم وعجائبه ونباته وحيوانه وشمسه وقمره ونجومه الباهرات ، وعجائبه الظاهرات ، وآياته المدهشات ، وحكمه العاليات ، ثم درج الخلف على ما كان عليه السلف وأصبح العالم فى الإسلام هو من يتعاطى هذا العلم فى ذلك العصر وبه يتولى القضاء ويتصدر فى المجالس ويصبح غنيا بالمال والعظمة والجاه ، يحتاج إليه الملوك فى تصريف الدولة ، لأن الفتوى عليها مدار أمر الأمة لأن الدولة إسلامية والأحكام شرعية ، ذلك هو ملخص ما قاله الإمام الغزالى ، ثم أخذ يذمهم ويقول هؤلاء يقرءون هذه العلوم للدنيا لا للآخرة وجعلهم شرا من الشياطين وندد كثيرا ، وقال كيف يتركون الطب والسياسة وجميع العلوم ويقولون إنهم يقرءون فرض كفاية مع أن فرض الكفاية جميع العلوم والصناعات ، إذن هم لايريدون إلا الدنيا وإلا فماذا لايقرءون الطب ويتركوه فى يد النصارى واليهود ؟

هذا ملخص كلام الإمام الغزالى ، فانظر كيف رأينا أننا نحن جئنا فى زمان لا دولتنا قوية الجانب فنعتز فى الدنيا بها ، ولا نحن متعقلون فنرضى ربنا .

فإذا كان العلماء فى زمن الإمام الغزالى يطلبون الدنيا وكانت عندهم دنيا فكيف نقرأ علم الدنيا الذى لايأتى بالدنيا أيضا ، لأن أكثر العلماء من الشافعية والحنفية والمالكية ، والحنفية فى بلادنا المصرية أكثرهم لايولون القضاء ، لأن القضاء اقتصر على مسألة الأحوال الشخصية وأصبح القانون الفرنسى هو السارى فى بلادنا

وقد علمنا أن بلاد الترك قد جرت على قانون دولة أوروبية فإذن يكون على رأى الغزالى علماء الدين إذا ساروا على نهج المتقدمين أسوأ حالا ألف مرة من الذين كانوا فى زمن الإمام الغزالى ، لأن أولئك طلبوا دنيا ولا آخرة لهم فنالوا الدنيا لأنهم لهم صولة بصولة الدين .

أما المتبحرون فى هذه المذاهب فى هذا الوقت فهم لاينالون دنيا ولا آخرة إلا على نياتهم فقط ، أما الدنيا فلا وظائف لأكثرهم ، وأما الآخرة فإنها لاتنال إلا بأعمال تحتاج لها الأمة وعلوم كذلك ، والأمة فى حاجة إلى صناعات وعلوم أخرى غير القضاء ، والعلوم التى تنال بها الآخرة هى الأخلاق وتهذيب النفس ومعرفة عجائب الله تعالى فى سماواته وأرضه حتى يكون الإنسان موقنا شاكرا .

هذا هو السبب الذى حصر علماء الإسلام فى الدوائر الضيقة ، وهناك سبب آخر وهو حصر طائفة من

الأمم

الأمم الإسلامية فى حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم . وهذه أيضا نكتة أخرى بل القرآن يفهم ويعقل إما مع الحفظ وهو أفضل ، وإما بلا حفظ ونتيجته ترقية العقول والعلوم والأمة ومعرفة جلال الله

(س) ما سبب اقتصار طائفة فى مصر وبلاد المغرب وبلاد العرب ونحو ذلك على حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم ؟ .

(ج) من أسبابه ماجاء فى [ الإتقان فى علوم القرآن ] للعلامة السيوطى قال فى الجزء الثانى صفحة ١٥٥ مانصه :

فصل : أما الحديث الطويل فى فضائل القرآن سورة سورة ، فإنه موضوع كما أخرج الحاكم فى المدخل بسنده إلى أبى عمار المروزى أنه قيل لأبى عصمة الجامع من أين لك من عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ، فقال إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحق فوضعت هذا الحديث حسبة .

وروى ابن حبان فى مقدمة تاريخ الضعفاء عن ابن مهدوى قال: قلت لميسرة بن عبد ربه من أين جئت بهذه الأحاديث ؟ من قرأ كذا فله كذا ؛ قال وضعتها أرغب الناس فيها .

وروينا عن المؤمّل بن إسماعيل قال : حدثنى شيخ بحديث أبىّ بن كعب فى فضائل سور القرآن سورة سورة، فقال حدثنى رجل بالمدائن وهو حى فصرت إليه فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بواسط وهو حى فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بالبصرة فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بعبادان فصرت إليه فأخذ بيدى فأدخلنى بيتا فإذا فيه من المتصوفة وبينهم شيخ ، فقال هذا الشيخ حدثنى ؛ فقلت ياشيخ من حدثك ؟ فقال لم يحدثنى أحد ، ولكنا قد رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن . قال ابن الصلاح ولقد أخطأ الواحدى المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم اهـ ، من [ الإتقان ] المذكور للعلامة السيوطى رحمه الله تعالى .

فإذن ظهر لك الأمران : انكباب الناس على الفقه ، وانكبابهم على حفظ القرآن .

فالأول : للقضاء فى القرون المتقدمة وللاتباع وحسن النية فى القرون المتأخرة .

والثانى : لأجل الأحاديث التى أكثرها موضوع لأجل حفظ القرآن .

(س) الآن قد آمنت بأن هذه هى أسباب الفقه وحفظ القرآن ، فأرجو الآن أن ترجع للموضوع الذى كنا فيه فقد صددتك عن إكمال الكلام فإنك كنت ابتدأت تجيب عن قولك ، لماذا كانت هذه الحروف هى التى ستوقظ الإسلام ؟

(ج) تبين مما قدمته لك أن المسلمين غالبا تقودهم العادات والأتباع ، والعامة يتبعون الخاصة والخاصة يتبعون من قبلهم ولا يفكرون لماذا سار الأولون على نمطهم ، قال نعم ! قلت فهذه الحروف قد أنزلها الله فى القرآن وذكر الحكمة والتفصيل قال « من لدن حكيم خبير » فالله حكيم ، والله خبير ، والله فصل الآيات ، والله أحكمها

هذا كله ينبئنا عن أمر جديد النور عظيم المغزى ، فإن العاقل إذا سمع هذا القول وعرف أنه قول الله يقول فى نفسه : لماذا هذا كله بعد حروف لامعنى لها ؟ فيفكر فيها طويلا ثم يقول إنما أفردها الله بالذكر فى أول السور لأمر عام هام وهو ما أشرت إليه سابقا ، ألا وهو قراءة جميع العلوم .

إن هذا العصر عصر الكيمياء ، إن الكيمياء ترجع المركبات إلى عناصرها الأولى ، والعناصر الأولى قد بلغت ثمانين ولها جدول ستراه فى ( سورة العنكبوت ) والجدول عجيب شيق جميل يدلنا على حكمة ونظام

بديع حتى إن من يطلع عليه يدهشه هذه الحكم ، فإنك ترى أن كل عنصر له مع العناصر التي قبله في صفه والتي بعده والتي فوقه والتي تحته : أي في الصف الأفقي ، وفي الصف الرأسي نسب وزنية وأخرى طبيعية وكيماوية ؛ فترى هناك أن العناصر التي بنى الله في الأرض والكواكب والنبات والحيوان مثل الأكسوجين والأدروجين إلى آخرها عند النظر إلى صفاتها الطبيعية والكيمائية والوزنية تصبح متشابهة مرتبة منظمة مصفوفة بحيث لو غاب أحدها لعرف محله من هذه الصفوف .

ولقد أخبر العلماء عن بعض العناصر قبل كشفها ، ولما كشف ثلاثة منها وضعوها في موضعها فصارت أشبه بجسم إنسان واحد عرف موضع عينه وأذنه وبطنه وهكذا ، فانظر لعناصر متفرقات في البراري والقفار والبحار لما جمعها العلماء شكلت شكلا واحدا في هيئة تدهش العقول .

فهذه العناصر هي أصل العالم الذي نعيش فيه وهذه العناصر كلها ترجع إلى عالم لم يره أحد يسمى (الأثير) وهو عالم واحد لايشم ولا يذاق ولا يلمس ولا يسمع ولا يرى .

هذا هو الذي منه كانت العناصر، ومن العناصر كانت هذه السموات والأرضون على رأي العلماء في عصرنا الحاضر الذي هو أقرب إلى القرآن وإلى حروف ( ا ل م ) و( ا ل ر ) التي في هذه السورة ، فإن القرآن وجميع الكلام في سائر اللغات مركب من الحروف الهجائية ولن تعرف لغة من اللغات إلا بتحليلها إلى حروفها الأولية ، ولا يتسنى الكتابة ولا طبع كتاب ما إلا بإفراد الحروف ثم تركيبها ؛ فكما لانعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها هكذا لايعرف شئ من هذا العالم إلا بتحليله ، ولا يعيش حيوان ولا إنسان إلا بتحليل المواد التي حوله ، وإلا لم يكن شئ في عالم الحيوان ولا عالم النبات ؛ فالله عز وجل حكم على عالمنا الذي نعيش فيه ألا يكون حسن قوام إلا بالتحليل ورجوع المركبات إلى عناصرها سواء أكانت أغذية للأجسام أو أغذية للعقول ، فلا غذاء لإنسان أو حيوان أونبات ولا علم لعالم بأمر من أمور هذا العالم إلا بتحليل ذلك للعلوم ، ولا رقي في صناعة أو طب أو زراعة إلا بتحليل الأشياء إلى عناصرها .

(س) هذا كلام غامض ، وأي مناسبة بين العلوم وهضم الطعام ؟ إن هذا مما يسمى المفارقات لا الموافقات .

(ج) إن الذي أذكره الآن هو الحقائق وسأوضحها لك الآن ، ولتعلم أن هذا هو السر الذي نزلت له هذه الحروف وهذا أوان ظهوره للناس ، لأن الله علم أن المسلم منقاد للقرآن وقد جعل الله هذه الحروف لتكون نورا يستضيء به المسلمون لأنه حكيم ولأنه خبير ولأنه أحكم الآيات ولأنه فصلها ، ومن تفصيل الآيات أنه أتى بحروف الهجاء التي هي أصول للكلمات ، فكأن الكلمات فصلت إلى حروف ، وكما أن الحروف أصول الكلمات هكذا العناصر أصول هذه المخلوقات .

فعلى المسلمين أن يبرعوا في فن التحليل والتركيب في هذه العوالم التي هي مركبات من العناصر كما ركبت الكلمات من الحروف

هذا هو السر الذي أراد الله إظهاره في هذا الزمان .

(س) أرجو أن توضح هذا المقام من وجهين :

[ أولا ] كيف كان الإنسان هو الذي يحلل هذه العوالم ؟

[ ثانيا ] كيف تستدل هذا الاستدلال وهل رأيت أحدا من العلماء نحا نحوك في هذا الاستدلال ؟

(ج) اعلم أن الله وضع هذا الهيكل الإنساني بهيئة ناطقة بما يأتي : أي أن الجسم الإنساني كأنه الآن أمامي بهيئة خطاب من الله للعباد وهذا مايسمعه قلبي الآن بكلام أفصح من كلام اللسان وأسرع قبولا في الأذهان

يقول الله : أى عبادى المسلمين ، إن العالم الذى تعيشون فيه خلق لأجل أن تحللوه وتركبوه وإلا «لا بقاء لكم ولا سعادة فى الدنيا ولا الآخرة .

أى عبادى المسلمين : ها أنا ذا خلقتكم على الأرض وخلقت لكم النبات والحيوان والمعدن ، فنفس أحدكم واحدة ولكنها لها قوى ظاهرة وأخرى باطنة ، فالقوى الظاهرة التى لنفوسكم حللتم مركبات العالم حولكم .

ألم تروا إلى أسماعكم كيف اختصت بعالم الأصوات التى فى المادة سواء أكانت حيوانية أم إنسانية أم نباتية موسيقية وغير موسيقية .

ألم تروا إلى أبصاركم كيف اختصت بالصور والأشكال والألوان والأضواء والحركات والسكنات والأحجام والأشكال والسطوح والقرب والبعد .

ألم تروا إلى أذواقكم المثبتة فى ألسنتكم كيف اختصت بأن تميز الحلو من الحامض والملح والحريف والمز والعفص والمر وغير ذلك .

ألم تروا إلى حاسة الشم فيكم التى تميز الروائح الخبيثة من الطيبة وإلى حاسة اللمس التى تميز الناعم الملمس من الخشن ، والحار من البارد ، والثقيل من الخفيف ، والصلب من اللين .

أى عبادى : هذه صفات المادة وهى ست وثلاثون صفة مقسمة على حواسكم الخمس ، أنا الذى خلقت لكل امرىء منكم نفسا واحدة وجعلت لها خمس قوى وقسمت المحسوسات على هذه الحواس ، أنا الذى حللت هذه المحسوسات بهذه الحواس ، فهذا نوع من التحليل الذى أودعته فيكم ولكن أكثركم لايعلمون .

إن العالم الذى أنتم فيه غليظ ثقيل كثيف ، فانظروا رحمتى أيها المسلمون كيف تلطفت فجعلت حواسكم وأعضاءكم فلطفت هذا الغليظ فصلح لطعامكم ولعلمكم ، حللت الغذاء فى أجسامكم حتى استحق أن يلتحق بجملة أجسامكم وحولت صور المواد حولكم إلى عقولكم فكانت موادّ لها تزيدها ذكاء وفطنة ، كل هذا من نوع التحليل .

أيها المسلمون : فلماذا حرمتم أنفسكم من رحمتى الواسعة التى وسعت جميع العالمين ؟ ضربت لكم الأمثال بأجسامكم وبعقولكم وأريتكم أنى لطفت المادة فصلحت لأغذيتكم وأدويتكم وتعليمكم وأدخلتها فى عقولكم فامتزجت صور معانيها بعقولكم كما امتزجت لطائف موادّها بأجسامكم .

كل هذا أبرزته لكم أيها المسلمون فى هياكلكم رحمة بكم وحنانا وسعادة وأنتم أيها المسلمون تصرون على الجهالة فأبرزت ذلك فى الحروف التى فى أوائل السور لعلكم تعقلون .

يعيش ابن آدم ويموت بل ربما يكون من العلماء وهو لايدرى أنى جعلته بطبعه يحلل المخلوقات أمامه بحواسه وهو لايشعر وأكثر الناس لايشعرون .

أى عبادى المسلمين : ها أنا ذا قسمت المخلوقات حولكم على حواسكم ، فجعلت الشموس والأقمار والنيران من قسم الحاسة البصرية وجعلت النغمات فى الجو من اختصاص الحاسة السمعية وجعلت الحلاوة وما معها كلها من قسم الذوق الذى فى ألسنتكم وجعلت رائحة الورد العطرية وضدها من حاسة الأنف الشمية وجعلت الحرارة والبرودة والنعومة الخ من قسم حاسة اللمس ، أليس هذا هو التحليل ؟ لاتقدر حاسة واحدة أن تقوم بهذا كله ففرقته على الحواس الباطنة .

فاذا اجتمعت هذه الصور فى عقولكم استخلصت قواكم الباطنة منها صورا حفظتها عندها فكانت هنالك

رسوم وأشكال فى عقولكم فيها تتصرفون وبمعانيها تتغذون كما أنكم بأجسامكم تعيش أبدانكم ، فصور المحسوسات ترتقى العقول ، وبالتغذى بها تبقى الأجسام .

الأغذية والعلوم لاينالان إلا بالتحليل

وكأنه سبحانه يقول مخاطبا لنا بهذه البيئة التى نعيش فيها أيضا ، يقول : أى عبادى هذه الأغذية المحيطة بكم من حيوان ونبات ومعدن بها تعيشون وتتفكهون وتتداوون وتفرحون وتمرحون وتسرّون ولم يتم ذلكم لكم ولن يتم إلا بتحليلها إلى أصغر أجزائها .

ألا ترون أن الطعام تتناولونه بقواطعكم وأنيابكم وأضراسكم فكلّ من هذه يعمل فى الطعام عمله ، فمنها ماهو للقطع كالسكين ، ومنها ماهو للتمزيق كالسنان ، ومنها ماهو للطحن ثم يبتل الطعام بالريق فيساعد على هضمه ثم ينزل فى المعدة فتقابله العصارات المختلفات فتزيد فى هضمه : أى رجوعه إلى مادة أشبه باللبن قد وصلت إلى أقصى تحليلها حتى يمكنها أن تركب مرة أخرى فى أجسامكم فتصبح لحما وشحما وظفرا وعظما وكبدا وقلبا ورئة وكلية وشعرا ومخا ومخيخا وهكذا ، فلولا رجوعها إلى أدق حالاتها بالتحليل ما أمكن أن يكون هيكلا عظيما أو وجها جميلا أو شكلا بهيا عجيبا .

أى عبادى المسلمين : هذه أعمالى فى بنيتكم تحليل لغذائكم ثم تركيب لأعضائكم ، هذا عملى فى حياتكم وحياة حيوانكم ونباتكم لولا التحليل التام ماكان هذا التركيب الجميل ، هذا هو الذى تشاهدون آثاره ، هذا عملى فى أجسامكم وبشابهه عملى فى عقولكم ، فأنتم قد خزنتم صور المحسوسات فى عقولكم وربيتموها فى نفوسكم

وكما أنى فصلت المحسوسات على حواسكم هكذا صور المحسوسات فى نفوسكم قد قسمتها على قواكم الباطنة .

فهذه الصور المرسومة فى عقولكم التى اقتبستموها مما تشاهدون قد جعلت فيكم قوى فى الدماغ منها ماتحلل وتركب لتلك الصور كما تتصورون أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، ومنها ماتحلل للمعانى وتركبها بقوّة عاقلة تتصرف فيها كعلم النطق وكتدبير المعايش ، ومنها قوة تحفظ الصور وأخرى تحفظ المعانى لأجل أن تستحضروا ذلك عند الحاجة إليه، وهذا كله تحليل .

فهذه المادة لاسلطان لكم عليها إلا بتحليلها إما تحليلا ماديا وإما تحليلا عقليا ، والتحليل المادى إما بالحواس الخمس ، وإما بتحليل الأغذية ، والتحليل العقلى بالخيال وبالعقل .

أى عبادى المسلمين : هذا هو فعلى فى حياتكم الجسمية والعقلية ، لاحياة لكم إلا بتحليل الغذاء ولا علم لكم إلا بتحليل المعلومات ، هذا حاصل عندكم ولكن أكثركم عنه غافلون ، لهذا أنزلت هذه الحروف إن هى إلا تحليل للألفاظ لأرشدكم إلى مستقبل أمركم .

إن مستقبل الإسلام العلم والحكمة وتفصيل هذه العوالم كما فصلت الآيات .

إن مستقبل الأمم جمعاء مرتبط بدراسة نظام هـــذه الدنيا ، ولا دراسة إلا بتحليل الموجودات المادية والمعنوية

ولا جرم أن الحروف من عالم الكلام ، وعالم الكلام يكاد يكون وسطا بين عالم الحسّ وعالم العقل وإن كان هو من أعراض المادة ولكنه لطيف يقرب فى لطفه من عالم الضوء الذى يقرب من الأثير فيكون تحليل الكلمات إلى الحروف رمزا إلى دراسة هذه الدنيا كلها دراسة تامة ترجع الأشياء إلى أصلها كما رجع الطعام إلى مادته فى أجسامنا وكذلك المعقولات فى عقولنا حللت هكذا فليكن مستقبل الإسلام وهو النظر فى ملكوت السموات والأرض ولكنه نظر يقينى ولا يقين إلا بتحليل العلوم تحليلا تاما ، انتهى .

ولقد

ولقد ظهر أن هذا العصر عصر الكيمياء فبها تقدمت الزراعة والصناعة والطب وجميع مرافق الحياة فالكيمياء الآن عليها مدار الحياة ، وناهيك مافى هذا التفسير من خبر كشف استخراج السكر من نشارة الخشب والذرة .

وكذلك كشف أن الفحم يقرب فى تركيبه من البترول وأن كلا منها يحتوى على كربون وعلى أكسوجين بمقادير مختلفة وأنهم يجتهدون فى أن يجعلوا مقدار الأكسوجين فى الفحم مساويا له فى البترول فيحول الفحم إلى بترول وحينئذ يصبح فى العالم قوة جديدة لايستهان بها .

ويظن قوم أن الناس سيجدّون حتى يخترعوا قوتا لنا مما نشاهده من أضعف المواد المخلوقة ، هذا فضل الكيمياء فى وقتنا الحاضر فهى قوام المدنية الحاضرة .

هذا هو الذى يرمى إليه القرآن ، هذا هو بعض السرّ فى ذكر هذه الحروف فى أول السورة وهذا هو بعض الحكمة التى ذكرها القرآن وهذا هو الزمان الذى ناسب ظهور هذه العلوم فيه ، فإذن هذه الحروف خزنت فى القرآن لأجل هذا الزمان حفظناها وحفظها من قبلنا لنوصلها لمن بعدنا مع مقصودها وهو حوز جميع العلوم ، وما العلوم إلا بعد التحليل والتحليل هو الذى أتت به الحروف فقل ماتشاء فى العلوم وفتش فإنك لاترى علما إلا فيه تحليل فتركيب ، ولا تركيب إلا بعد التحليل التام وأخصها فن الكيمياء .

إن المخلوقات التى حولنا ونعيش بها ماديا وعقليا كلها ترجع لهذا المعنى ، نحن نأكل النبات والحيوان فتتغذى بمادتهما ونحلل أجزاءهما ونركبها وتفتنى صورها فى عقولنا ونحللها ونركبها وهكذا نعمل فى المعانى وذلك لتغذية عقولنا ، وترانا نذكر الثور والأسد فى كليلة ودمنة وابن آوى وتتخيل حيل ابن آوى وضحكه على الأسد وعلى الثور حتى أوقع بينهما العداوة فافترس الأسد الثور ثم ندم ثم حاكم ابن آوى فقتله بالجريمة السياسية ، وترانا نتخيل الحمام وهو يتخلص من شبكة القانص كأهل مدينة واحدة متحدين .

وكذلك نرى الغراب والسلحفاة والظبى وما شاكلها قد اجتمعت وهى طوائف متنافرة لمصلحة وهكذا نرى السنور والفأر لما فاجأهما عدوّ لهما أخذ الفأر يقرض قيود السنور ولم يأمن لعدوه القديم وهو السنور وأبقى بعض طيات الحبل فلم يقطعها حتى اقترب الصياد خيفة أن يفترسه القط .

وهكذا نخيلنا وتصورنا صورا شتى فى الحيوانات كابن عرس والناسك الذى رجع فوجد ابن عرس قد قتل الثعبان الذى أراد أن يفتك بابن الناسك فظنّ حماقة أن ابن عرس قتل ابنه هو فعجل بقتله ثم تبين له أنه أخطأ لأن ابن عرس حافظ على ابنه فندم ندما شديدا وهكذا من الحكم التى لاحظها الإنسان وتخيلها ووضعها على ألسنة الحيوانات ، كل ذلك لصفاء ذهنه وذكاء عقله وجودة قريحته ، وكل ذلك لم يخرج عن كونه تحليلا وتركيبا ، والتحليل هو الوارد فى الحروف التى فى أوائل سور القرآن وأعقبها الله بذكر الحكمة والتفصيل ، والحكمة والتفصيل ظاهران واضحان فى هذا الوجود المحسوس والمعقول .

أنزل الله القرآن وقال إنه أحكمه الخ ، ومعلوم أن الكلام اسم وفعل وحرف والاسم والفعل كلتان دلتا على معنى والحرف كلة لم تدل على معنى فى نفسها ، أما هذه الحروف التى فى أول السور فهى حروف لامعنى لها فى نفسها ولا فى غيرها فأين هى من الحكمة وهى قد نزلت فى كتاب مقدس أنزله الله ، والكتب السماوية تكون إشارتها أبلغ من عبارة غيرها .

أبو بكر الصدّيق والشافعى وكيف استنتجا من القرآن
تفطن الصحابة والمجتهدون لأمثال هذا المقام

إنّ القرآن كتاب مقدس ، والكتب المقدسة شريفة المغزى ، ولكل حرف ولكل كلة ولكل آية

منها سرٌ يلاحظ ويعلم ، وإذا كان الأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات في وقتنا متى جاء دورهم في القول ونطقوا بجملة تحركت الأسلاك البرقية برا وبحرا ونشروها في أقطار الأرض وشرحوها شروحا وبحثوا ودققوا واستنتجوا وأخذوا بمنطوقها ومفهومها ومقدمها ومؤخرها وألفوا عليها ما يحمله بعيران وثلاثة إذا جمع ما كتب في الأمم كلها ، فما بالك بمن هو الذي خلق الدول والأمم كلها ؟ فماذا نقول في كلامه ؟ فإذن لنا الحق أن نوضح ونستنتج ونفهم ونقول لم جاء بهذه الحروف التي لامعنى لها في أوائل السور ، بل نقول كيف يفاجئنا الله هكذا في أول سورنا القرآنية بهذه الحروف وهي التي لامعنى لها ؟ ثم نسمعه يقول لنا بعدها إن هذا الكتاب أحكمت آياته وفصلت ويقول إنها من لدن حكيم خبير ، كل هذا ليفتح لنا الطريق ناهيك ما استنتجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إنه استنتج من شيء ليس بحرف ولا صوت ولافعل ولا اسم بل هو استنتج من تقديم كلة على أخرى فقط ، وماذا استنتج منها ؟ استنتج منها الدولة الأموية والدولة العباسية ، استنتج منها دولا وممالك وملوكا ، لولا هذا الاستنتاج لم تكن تلك الدول ولا أولئك الملوك في الاندلس وفي الشرق .

ألم تر إلى ماورد أنه رضي الله لما وقف في سقيفة بني ساعدة وخطب أيام وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار يقولون « منا أمير ومنكم أمير » قال لهم قولا أفحمهم ، وماذا قال ؟ قال إن الله قدّم المهاجرين على الأنصار فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، فلما قالها طأطأت الرؤوس وخشعت القلوب وخضعت الأعناق ورضي الأنصار بخلافة قريش ولم يعارضوهم ، لماذا هذا كله ؟ لأمر معنوي هو تقديم وتأخير ، قدم الله كلة على أخرى فأذلت وأعزت وجعلت دولا وملوكا في قوم وحرمت آخرين في زمن ألف وثلثمائة سنة أي ١٣ قرنا كل هذا لتقديم كلة على أخرى . وترى الإمام الشافعي اعتبر هذا في الوضوء فأوجب الترتيب في أعضائه ، لماذا ؟ لأن الله رتب فقدم عضوا على آخر ، فلذلك يجب علينا تقديمه في وضوئنا ، فإذا كانت هذه حال الصحابة والمجتهدين قبلنا فالأمر هنا أهمّ وأعظم ، ذلك ليس تقديما ولا تأخيرا بل هو إثبات لأمور عجيبة مكررة في (٢٩) سورة وهي حروف تبلغ نصف الحروف الهجائية وقد كررت في أول القرآن ووسطه وآخره فهذا أمر عظيم أعظم ألف مرة من تقديم أو تأخير ، بل هذا أمر أعظم فكيف يأتي في القرآن إلا لغاية أعظم وأعظم ، إن الغاية والسرّ قد ظهرا في زماننا ، فإذا كان تقديم المهاجرين على الأنصار أنتج دولا وأقام دولا فهكذا فليكن ماهو أهمّ وأعظم وهي هذه الحروف القرآنية المفرّقة لإيقاظ المسلمين في آلاف السنين الآتية لدراسة جميع العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والنفسية والعقلية والنقلية ، ذلك هو السر المخزون والجوهر المكنون خزنه الله في القرآن لأهل هذا الزمان .

(س) هل تريد أن الإنسان منا يعرف جميع العلوم .

(ج) كلا لقد ضرب الله لنا المثل بأنفسنا فلكل امرئ منا نفس واحدة وقد قسمت العلوم بالمحسوسات على حواس متعددة ، فهكذا فلتكن الأمة ، يخصص نواب الأمة أو رئيس الجمهورية أو الملك ، كل طائفة من الأمة لعلم من العلوم خاصة أو لصناعة ، وهذا هو المسمى فروض كفايات ، فكما قام السمع بالأصوات والبصر بالصور والأشكال الخ وكان في ذلك مصلحة جميع الجسم هكذا تكون الأمة .

(س) إن أوروبا قامت بهذا العمل كما طلبه الله في القرآن وأبرزه في هذه الحروف .

(ج) أوروبا فعلت ذلك بعقولها ونحن مافعلوا ، أما المسلمون فقد أناموا عقولهم وجهلوا دينهم وهاهو ذا الآن قد ظهر سره وسيطلع على هذا السر المسلمون في هـــذا التفسير وفي غيره ويقرءون العلوم معقولة ومنقولة ، ويقومون بدورهم في الحياة ويعرفون علوم الأنفس وعلوم الآفاق والحمد لله رب العالمين اهـ .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين »

اعلم أن القرآن أصبح اليوم مفسرا بالعلوم التى عرفها الناس شرقا وغربا ، وأن العلماء فى أوروبا قد تبحروا فى علم الحيوان . فلما اطلعنا على ما كتبوه فى كتبهم وما ترجم عنهم ألفينا هذه العلوم كلها مقصود القرآن ، فقل لى رعاك الله :

يقول الله فى سورة الأنعام « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وهنا يقول إنه « يعلم مستقرّها ومستودعها » ويقول: عليه رزقها ، ويقول: إن ذلك كله فى كتاب مبين ، وإذا كان الكتاب الذى فيه رزق الحيوان ومستقره ومستودعه مبينا فإن الحيوان يسير على نهج قويم تبعا للكتاب الذى بينت فيه أعماله .

ولقد ذكرت حوادث عجيبة للحيوان فى سورة الأنعام فى المجلد الرابع فارجع إليها إن شئت ، وههنا أذكر حوادث حيوانية أخرى تعرفنا كيف كان ذلك فى كتاب مبين ، وكيف كانت هذه كلها أمما منتظمة للمستقر والمستودع كما سترى فى سورة النور عند ذكر الطير هناك أن لها رحلة الشتاء ورحلة الصيف كالتى تسكون من أواسط أفريقيا إلى بلاد الإنجليز فى فصل من السنة ، وهكذا طيور أوروبا تأتى إلى مصر وتونس والجزائر ، وهو أمر عجب ستراه هناك مفصلا ، وهكذا النحل والنمل والعنكبوت وعجائبها كل فى سورته فانتظره واقرأ وارق لتكون عليما حكيما ، فهاك ما أذكره لك من عجائب الحيوان ومستقره ومستودعه .

العجيبة الأولى : قضايا الطير وأحكامها

اعلم أن الناس فى عصرنا الحاضر أدركوا أن للحيوان إدراكا خاصا وتدبيرا محكما على قدره . فقد رأوا :

(١) أن الطير قد تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر ، فمنها مايشاهد فى الغربان ذات القنازع التى تكون بجزائر (شتلندا) فهذه تجتمع فى حقل أو على تل وينتظر بعضها بعضا يومين أو أكثر عند تواينه عن الحضور حتى تجتمع كلها معا ثم تفرد اثنين أو أكثر منها جانبا وتقيم عليها غربانا تحرسها فتمنعها من الفرار وتشرع مايق فى النعيق والنعيب جماعات جماعات أو كلها معا مدة من الزمان ثم تهجم على المحجور عليها هجمة واحدة ، ولا تزال تنقدها وتنقرها بمناقيرها حتى تمزقها كل ممزق ويمضى كل منها بعد ذلك فى السبيل الذى جاء منه ، فالمحجور عليها بمثابة المجرمين ، والحارسة لها بمثابة الحرس والجماعات الناعبة والناعقة بمثابة القضاة والمحامين والمنفذين للأحكام .

والذلك زعم المشاهدون لهذه الفعال أن غربان (شتلندا) تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر .

(٢) ومنها ما شاهده القس (أدمند فقس) فى غربان بلاد الإنجليز المعروفة بالغدفان ، قال كنت يوما راكبا جوادى فسمعت نعيبا شديدا ملأ الأفق ، فالتفت وإذا غدفان كثيرة فى حقل فدنوت منها ووقفت حيث أراها ولا ترانى وجعلت أراقبها فإذا هى منتظمة فى حلقتين حول غداف فى الوسط وكلها تنعق وتصفق بأجنحتها شديدا كأنها تتقد غيظا وتتهيج انتقاما ، والغداف الذى فى وسطها ينعق ويصفق مثلها ويقاومها ويخاصمها والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لاتنتبه إلى ماحولها لاشتغالها بما هو دائر بين رفقائها ، ولذلك لم ترنى ولم تنذر بالخطر كجارى عادتها ، وبعد هنيهة تغيرت أحوال الغداف الذى فى الوسط بغتة فنكس رأسه وخفض جناحه وأقل من التعب كأنه أقرّ بذنبه فجعل يطلب الصفح عنه ، وحينئذ وثب عليه غدفان الحلقة الداخلة ومزقته بمناقيرها تمزيقا ونعبت الغدفان كلها نعبا شديدا وطار بعضها بعيدا وبعضها قريبا اهـ .

والغداف مشهور بالسرقة و لاختلاس فتسطو صغاره على عشاش كباره وتسرق مافيها من دقاق الحطب وتبنى أعشاشها بها تخفيفا لمشقة جمعها عنها ولكنها لاتفعل ذلك إلا إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها فلا تراها ، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لاتزال تبحث عن السارق حتى تعرفه فتشكو أمرها إلى جماعة الغدفان فتبعث ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخربه ولا تبقى له أثرا .

(٣) حكى بعض المصعدين فى جبال (الب) قال : كنت يوما أصعد فى جبل من جبال سويسرا فأتيت مطمئنا من الأرض قد أحدق فيه ستون أو سبعون غرابا بغراب واحد وأكثرت من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور فى أمره وكانت تصمت أحيانا فيبتدئ هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاع المتهمين أمام الحاكمين ، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان إلى الصياح والغوغاء ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت ، واستمرت على تلك الحال مدة ، وكأنها رأت ثبوت التهمة عليه فأعملت فيه مناقيرها حتى قتلته ومزقته إربا إربا ثم طارت وتفرقت وغابت عن الأبصار ، وهل هذا إلا كونها أمما أمثالنا وقد علم خالقها مستقرها ومستودعها .

(٤) ومن ذلك مايشاهد فى العصافير وهو أنه إذا تشاجر اثنان منها يذهب أحدهما إلى جماعة العصافير ثم يأتى أربعة أو خمسة منها وتنقض على المعتدى وتبادره بالنقد وهى تتواقع بعضها على بعض حتى ينال منها كفافه ، وكأن جماعة العصافير تصفح عنه بعد ذلك فتعامله معاملة من لم يرتكب ذنبا .

وحكى الأب بوجان الفرنسوى أن خطافا بنى عشا فرآه عصفور فدخل إليه وامتنع فيه عليه فاستغاث الخطاف برفاقه فجاءت مئات وحاولت إخراج العصفور منه فلم تستطع لأنه كان محوطا بالقش من كل جانب وكان ينقد التى تهاجمه من الباب نقدا شديدا فيصدها ويطردها مولولة من الألم ، ولما أعياها أمره رجعت عنه وظن الناظرون أن العصفور قوى عليها ولكنها ماغابت حتى رجعت والطين ملء أفواهها فهجمت على النفذ وسدته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقا جزاء اعتدائه ، ذلك لأنها أمم أمثالنا علم الله مستقرها ومستودعها .

(٥) ومنها ما رواه المرسل الفرنسوى لا كروى عن السبيطر ، وهو أنه كان يوما راكبا قاربا فرأى جماعة من طائر (السبيطر) المعروف (بمالك الحزين) ترعى فى الماء الضحضاح فقاربها محاذرا لأنها شديدة النفرة والإجفال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراه ، والذى نبهه إليها شدة لغوها ولغطها ، فلما وقف لمراقبتها سكتت وأحدقت بسبيطر منها من كل جانب ووقف السبيطر بينها لايبدى حراكا ثم عادت إلى ما كانت عليه من اللغط واللغو وبقيت كذلك مدة ثم سكتت فجأة ووثبت عليه وما زالت تنقره حتى قتلته . قال لا كروى المذكور وكل من رأى ما رأيت يحكم أن السبيطر المقتول تعدى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتلته .

(٦) وروى الكتاب عن (اللقالق) روايات كثيرة تؤيد ماذكرنا وتدل على أن (اللقلاق) شديد الأنفة والغيرة على عرضه ، من ذلك أن جراحا فرنسويا مقيما فى أزمير رغب فى الحصول على لقلق رغبة شديدة فلم يحصل عليه ، واتفق أنه عثر على عش لقلاقين فاختلس بيضهما منه وأبدله ببيض الدجاج ، ولما أفرخ البيض إذا الفراخ كلها دجاج لا لقالق فغاب الذكر ثلاثة أيام ثم عاد ومعه لقالق كثيرة فنزلت كلها وأحاطت بالأنثى وجعلت تلقلق وتلغط شديدا ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقا وطارت ولم يبق فى العش حى .

ومن ذلك ما رواه المطران ستنلى الإنكليزى عن لقلاقين فى جوار مدينة (برلين) وهو أنهما بنيا عشهما على مدخنة بيت فطلع صاحب البيت يوما ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أوز مكانها ولم يشعرا بها ثم

أفرخت البيضة أوزة ، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش وهو يقلق شديدا حتى غاب عن الأبصار وبقيت الأنثى فى مكانها تربى فرخ الأوز كأنه فرخها ، وبعد أيام سمع أصحاب البيت لغطا شديدا فى حقل بجانبهم فنظروا وإذا جماعة من اللقالق قد اجتمعت معا وأخذت تلقلق شديدا حتى سدت أصواتها الفضاء ثم صمتت ووقف لقلاق على عشرين ذراعا منها وجعل يصوّت كأنه يخاطبها ثم عاد ووقف آخر مكانه ولقلق لرفاقه كالأول ، ومازالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال ثم طارت كلها معا طالبة العشّ وأمامها دليل منها هو صاحب العش ، وكانت أنثاه ملازمة عشها وهى خائفة خوفا شديدا ولاتبدى حركة ، فلما دنا منها دفعها دفعا عنيفا حتى أخرجها من العش ثم انقضت اللقالق عليها ومزقتها ومزقت فرخ الأوز معها وخرّبت العش وطارت .

وروى (القس موريس) أن بعضهم أبدل بيض اللقالق ببيض الدجاج فى عش والأنثى لاتدرى ذلك ، فلما فرخ البيض ورأى اللقلقان أن الفراخ فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمنقاريهما .

وحكى آخر أن رجلا أتى بلقلاق ووضعه مع آخر داجن فى بيته فقام الداجن على رفيقه ونقده نقدا مؤلما حتى اضطره إلى الفرار وهو على آخر رمق وبعد أربعة أشهر عاد ومعه ثلاثة غيره فهجمت على اللقلاق الداجن ومازالت تنقره حتى أهلكته انتقاما ، وهذا كله تفسير للقرآن وبيان المستقر والمستودع وأنها أمم أمثالنا .

(٧) إن الذي يراقب طبائع الحيوان الأعجم يحكم أنه يدرك وجوده حق الإدراك وما يترتب على ذلك الإدراك أيضا .

انظر إلى الكلب مثلا تر من أفعاله وظواهره أنه عالم بوجود نفسه ، اطرح له عظمة ينهشها فتعلم أنه يدرك حقوقه ويدافع عنها ، راقبه جروا ابن سنة أو سنتين يلعب مع ولد ابن أربع سنوات أو خمس تعلم أنهما كليهما ينشرحان باللعب ويفهم أحدهما الآخر فوجدان أحدهما مشابه لوجدان الآخر ، وراقبه بالغا يذهب للصيد مع صاحبه فتجد أنه يفهم مايجب عليه فعله ويفعل ذلك الواجب كما يفعله الصياد صاحبه فيصيد كما يصيد ويفرح عند الفوز بالطريدة ويغتاظ عند الفشل كما هى الحال مع صاحبه .

إن الكلب لايستطيع أن يحوّل انتباهه للبحث عن قوى عقله والنظر فى أفعالها وأن يكشف الشرائع التى هى خاضعة لها إلى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس ولكن ذلك لايستطيعه الأولاد الصغار أيضا وربما عجز عنه أكثر العامة الذين لايهمهم إلا ملاحظة ماحولهم ولا يلتفتون إلى الكليات والبحث عن أفعال عقولهم .

فعقل الكلب كما قيل مناسب لحاله ، كما أن عقل الطفل مناسب لحاله ، ولا يمكن أن يعقل الطفل عقل الفيلسوف الكبير مالم يخرج عن الطفولية . وكذلك لايعقل الكلب عقل الفيلسوف مالم يخرج عن الكلبية ، فالتفاوت فى العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت فى الدرجة فقط ، ولا يستدل منه على أن عقل الإنسان نوع وعقل الكلب نوع آخر أو على أن الوجدان خاص بالإنسان دون غيره من الحيوان .

(٨) قد اشتهر الكلب بالأمانة والوفاء وهما من أجلّ الصفات ، وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الأصناف العليا من الكلاب متصفة بأوصاف أخرى أدبية ، فكلاب (نيوفوندلندا) التى تنتشل الغرقى ، وكلاب (سان برنار) التى تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بعزة النفس ، فلا يمكن أن تقبل رشوة ولا أن تسرق شيئاً ليس لها وهى تموت حبا بالوفاء فتبذل حياتها دون وديعة أودعتها والحراس التى تقيمها أسراب الوحش والطير لتحرسها من قدوم مفاجئ عليها تثبت فى أماكنها وتفدى رفاقها بأرواحها وتلك صفة من أجل الصفات الأدبية .

(٩) إن إناث الوحش والطير تصبر على الجوع والعطش والألم لتطعم صغارها وتسقيها وتحميها من الأوجاع، فلو لم تكن تستطيع ضبط أهوائها وشهواتها مافعلت ذلك ، وأسراب القردة والفيلة وبقر الوحش والوعول والطيور القواطع ونحوها يتسلط بعضها على بعض ويخضع بعضها لبعض ، وكلب الراعي يتسلط على الغنم وقد يسوسها كصاحبه وهي تنقاد له انقيادها للراعي .

ومتى اتفقت القردة على نهب حقل من الحقول يتقدمها كبيرها دليلا فيمشي على رجليه منتصبا ويتكئ على عصا بيده وهو يتلفت يمينا ويسارا حذرا من عدوّ يفاجئها وهي تتبعه دابة على الأربع متحذرة حتى تصل إلى الحقل ثم يقيم الدليل حراسا منها على أطراف الحقل فتقف تحرس ولا تمدّ يدها إلى ما أمامها وتتفرق البقية في الحقل فتعيث فيه وتمرح وتأكل حتى تشبع ثم يقطف كل منها سنبلتين أو ثلاثا ويحملها للحراس فتأكلها متى رجعت إلى مخبئها .

(١٠) الطائر الذي يبني عشه في مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرها وبردها كالبناء الذي يبني القصور الباذخة ، وكل باني وكر وقاطن وجر يسود على الطبيعة في ذلك لأنه يتخذها لإتمام حاجته وقضاء أغراضه ، وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد ويقنص ويطعم صغاره باستخدام الطبيعة إذ لاتأتيه الطرائد عفوا، وكل من راقب أفعال الحيوان لايسعه إلا الإقرار بأنه يستخدم الطبيعة على قدر حاجته أيضا ، انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « وكان عرشه على الماء »

لقد تقدم الكلام على هذه الآية بما يشرح صدور الحكماء ويمزج العلم بالدين والحكمة بالقرآن ، وهناك قد تجلى من المعاني مايبهر الأبصار ويشرح الصدور ، وفسرت هذه الآية بآيات أخرى في القرآن .

ولأذكر لك هنا وجها آخر لتفسيرها موافقا للذي ذكرناه مشهورا : روى عن رزين العقيلي رضي الله عنه قال « قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماء مافوقه هواء وماتحته هواء وخلق عرشه على الماء » أخرجه الترمذي ، والعمى مقصورا معناه لاشئ ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شئ ، فكأنه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ، ثم قال مافوقه هواء وما تحته هواء : أي ليس فوق العمى الذي هو لاشئ موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه .

والعماء بالمد : السحاب الرقيق وهو حقّ أيضا ، فإن العوالم المحيطة بنا كانت كالبخار المنتشر الذي يدور ويجرى كما في آية أخرى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » ثم تكونت الشموس والسيارات والأقمار ، فالمراد بالسحاب الرقيق على هذه الرواية إنما هو عالم الشموس قبل تكوينها ، وقد تقدم في تفسير البقرة أن علماء الفلك رصدوا الآن ستين ألف سديم في حال التكوّن الآن تدور حول نفسها كما كانت شمسنا قبل تكوينها وتمام حالها ، ثم هذه الستون ألفا بعد آلاف الآلاف من السنين ستكون شموسا كشمسنا ولها أقمار توابع لسياراتها وسيارات كما حصل لأرضنا إذ كانت قديما كذلك فكانت كالدخان المنتشر وهي دائرة ثم تقلصت بعد آلاف الآلاف من السنين حتى صارت على ماهي عليه وهي الآن تتناقص ، وبعد آلاف الآلاف تخرب أرضنا ، ثم أخواتها السيارات ، ثم أمهنّ الشمس .

وهذا كله سرّ قوله في الحديث « كان ربنا في عماء قبل خلق السموات والأرض » أي كان مدبرا للسحاب عاليا عليه لا أنه كان فيه كما في قوله « ولأصلبنكم في جذوع النخل » بمعنى على جذوعها وهذا أبلغ

فى التمكن ، فالله تعالى متمكن من هذا السحاب : أى البخار المنتشر يتصرف فيه ويدبره وينظمه تنظيما محكما ويجعله سموات وأرضين ويخلق فيه مخلوقات عظيمة .

قال أبو بكر البيهقى على المعنى الأول : فى كتاب [ الأسماء والصفات له ] وقوله صلى الله عليه وسلم « كان الله ولم يكن شىء قبله » يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما . وقوله ( وكان عرشه على الماء ) يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ، ثم كتب فى الذكر كل شىء ، انتهى .

فتعجب كيف ورد الحديث بالمدّ والقصر على اختلاف الروايتين : فإحداهما ذكر فيها أن لاشىء مع الله ، والثانية أن الله كان مدبرا للسحاب .

فإذا لاحظنا أن عالمنا لم يكن موجودا البتة فهناك العمى وهو العدم المحض ، وإذا لاحظنا أن عالمنا كان بخارا منتشرا بعد انعدامه فهناك تدبير فى ذلك البخار حتى يصير شموسا ثم يتم الخلق ويكون على مقتضى العلم ، وهذا هو قوله « وكان عرشه على الماء » فالعدم ثم الدخان ثم خلق العالم على مقتضى العلم وهو المقصود بقوله « وكان عرشه على الماء » ولا يزال كذلك كقوله « وكان الله غفورا رحيما » .

فتعجب كيف يطابق الحديث ما جاء فى علوم العصر الحاضر وأن العالم كان بخارا وأن هذا أمر مقرر فى العلوم الحديثة ، ثم كيف كان هذا العالم الذى نحن فيه منظما على مقتضى العلم ، وتعجب كيف اتضح معنى كون العرش على الماء بعد ذلك .

ولا يتم لك فهم هذا المقام إلا إذا قرأت ما جاء فى سورة يونس فى مسألة العرش وهناك ترى العجب العجاب ، وحكمة الله فى القرآن ، وجمال التعبير وحسن التنسيق ، فما أجمل العلم ، وما أبهج الحكمة إذا ازدانت بالدين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، انتهى القسم الأول .

## ( القِسْمُ الثَّانِى )

وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ :

التفسير اللفظي

قال تعالى (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت) أي ولئن قلت يا محمد ذلك لهؤلاء الكفار (ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعني القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) يعني إلى أجل محدود ، وأصل الأمة في اللغة الجماعة من الناس ، فكأنه قال سبحانه إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) أي أي شيء يحبس العذاب ، وذلك منهم استهزاء يعنون أنه ليس بشيء (ألا يوم يأتيهم العذاب (ليس مصروفا عنهم) أي لا يصرفه عنهم شيء (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أي ونزل بهم وبال استهزائهم (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا له الدنيا (ثم نزعناها منه) يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته (إنه ليئوس) يعني يظل قانطا من رحمة الله آيسا من من كل خير (كفور) أي جحود لنعمتنا عليه أولا ، قليل الشكر لله بل مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة. قال بعضهم [ يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها ، فإن نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فإنه العوّاد على عباده بالخير ] ثم قال تعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) أي ولئن أنعمنا على الإنسان وبسطنا له العيش بعد الضيق والضنك (ليقولن ذهب السيئات عني) أي المصائب التي ساءتني (إنه لفرح) بطر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها ، وإنما عبر بالمس والإذاقة ليبين أن الإنسان ييأس ويفخر لأدنى ضر وأدنى نعمة ويشير إلى أن نعم الدنيا ونقمها قليلة بالنسبة لما في الآخرة ، ثم استثنى من نوع الإنسان من صبروا على الضراء إيمانا

بالله

بالله واحتسابا وثقة بعدله ورحمته وأنهم بالضراء يرتقون عنده فقال ( إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ) شكرا للنعم التي ذاقوها في حالة السراء (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) وذلك كقوله تعالى «والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقوله « إن الإنسان خلق هلوعا » ثم فسره فقال « إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الخ » وهذا المقام قد استوفيته في سورة البقرة فارجع إليه إن شئت .

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا والكامل ينال أعلى الخصال فيصبر على الضراء نبه الله على ذلك تعليما لأمته أن يصبروا على الضراء كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على المستهزئين الذين إذا تلا عليهم القرآن قالوا له هلا أنزل عليك كنز لتنفق منه على الأتباع كالملوك ؟ وهلا جاء معك ملك يصدقك ؟ وهذا تضيق منه الصدور ويبعث على كتمان بعض القول حتى لا يصاب صاحبه بمكروه، وهذه الحال جبلة في النوع الإنساني لأنه يائس إذا مسه الضر وهذا ضرٌّ عظيم .

قال العلماء ولا يلزم من توقع الشيء لوجود مايدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون مايصرف عنه وهو هنا عصمة الرسل من الخيانة في الوحي ، قال تعالى ( فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ) يقول الله إن هذه الحال تدعو إلى كتمان الوحي وضيق الصدر فإن الاستهزاء وما أشبهه يدعو لذلك ، ولكن العصمة النبوية منعت من الخصلة الإنسانية العامة وذلك تعليم لجميع أهل العلم في الأمة الإسلامية أن يصبروا كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لاييأسوا من روح الله وأنهم مستمدون من هذه الروح الشريفة فليصبروا كما صبر الأنبياء وخاتمهم نبينا صلى الله عليه وسلم ليكونوا ممن استثناهم الله في هذه الآية إذ قال « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ثم قال الله له ( إنما أنت نذير ) أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك فسواء ردّوا عليك أو اقترحوا فأمرهم هين فما بالك يضيق صدرك ؟ وكيف يضيق وأنت قد أدّيت ماوجب عليك من التبليغ فليس عليك هداهم وقد أمرت بصبرك على أذاهم ( والله على كل شيء وكيل ) فهو يحفظ مايقولون ويفعل بهم مايجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه فما عليك إلا البلاغ بصدر منشرح فلا التفات إلى استكبارهم ولا مبالاة بسفههم واستهزائهم ( أم يقولون افتراه ) أم منقطعة ، والهاء ضمير راجع لما يوحى إليك ( قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ) كما افتريت أنا بزعمكم هذا القرآن وأنتم عرب مثلي وفيكم الفصحاء والبلغاء والشعراء ، فإذا افتريت هذا القرآن فافتروا عشر سور مثله وأظهروا فصاحتكم وبلاغتكم ، وقد تحدّاهم في سورة يونس بسورة واحدة في الإخبار بالغيب والوعد والوعيد والأحكام وما أشبه ذلك ، لأن الفصاحة والبلاغة بدون ماذكر أسهل ، أما الوعد والوعيد والأحكام والإخبار بالغيب فهي دقيقة المعاني تحتاج إلى عقول أنضج ونفوس أكمل حتى تقبل النفوس على آرائها وشتان مابين النائحة والثكلى .

فأين الثريا وأين الثرى     وأين معاوية من علي

فلما تحدّاهم بهذا الكلام أمره أن يقول لهم ( وادعوا من استطعتم من دون الله ) حتى يعينوكم على ذلك ( إن كنتم صادقين ) في قولكم إنه مفترى ( فإن لم يستجيبوا لكم ) بإتيان مادعوتم إليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يشاركونه في التحدي الذي يثبت يقينهم ويكمل إيمانهم ولذلك رتب عليه قوله ( فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ) ملتبسا بما لايعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا هو (وأن لا إله إلا هو) أي واعلموا أن لا إله إلا هو ، فأما تلك الأصنام فليست بآلهة فهي عاجزة عن كل شيء ، وفي هذا تهديد وإقناط لهم من

أن تجيرهم آلهتهم من بأس الله إذا جاءهم ، ودلالة على وجود الله ووحدانيته بصدق هذا الكلام الثابت بعجزهم عن الإتيان بعشر سور مثله فى البلاغة بل بسورة واحدة فى الأحكام ونحوها .

ولما كان هذا الكلام برهانا على صدق النبوّة ووحدانية الله رتب عليه قوله ( فهل أنتم مسلمون ) الخطاب للمسلمين أيضا : أى فهل أنتم ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذ تحقق عندكم إعجازه كأنه قيل أسلموا وأخلصوا لله العبادة ؛ ولما كان الكفر مع وضوح الحجة وظهور الحجة وبيان عجزهم الظاهر من عدم إتيانهم بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون مزريا بالقوة العقلية موقعا فى الرياء ، والتظاهر بخلاف الواقع ناسب أن يؤتى بعدها بما ينفر النفوس من الرياء فوصف المرائين بخمسة أوصاف :

[ الأول ] أنهم يوفون أجورهم على أعمال البرّ فى الدنيا بالصحة والعافية والرزق وما أشبه ذلك .

[ الثانى ] أنهم لايبخسون : أى لاينقصون من أجور أعمالهم فى الدنيا .

[ الثالث ] أنهم ليس لهم فى الآخرة إلا النار .

[ الرابع ] أنهم فى الآخرة حبط ماصنعوه فليس لهم عليه ثواب .

[ الخامس ] أن عملهم فى نفسه باطل فترتب على بطلانه ماتقدم فى الرابع مع عدم الثواب عليه ؛ وهذا هو قوله تعالى ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ) يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البرّ والطاعات والصدقات كأن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء وكأولئك المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم ولا يريدون ثواب الآخرة ، وكالذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى ( نوفّ إليهم أعمالهم فيها ) أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فى الدنيا من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وندفع عنهم المكاره ( وهم فيها لايبخسون ) لاينقصون شيئا من أجورهم ، وذلك القول فى أهل الرياء والمنافقين والكفرة ( أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ) فى مقابلة ماعملوا لأنهم استوفوا ماتقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت النيات السيئة فيستوفونها فى النار ، فأما الكافر والمنافق فلهما التأبيد . وأما المؤمن فالعذاب منقطع بعد أجل محدود ( وحبط ماصنعوا فيها ) أى لم يبق لهم ثواب فى الآخرة لأن الثواب على الإخلاص ، وهؤلاء لا إخلاص عندهم ( وباطل ) فى نفسه ( ماكانوا يعملون ) لأنه لم يعمل على ماينبغى وبطلان العمل ترتب عليه عدم الثواب ، وعدم الثواب ألزمهم النار ، فالجملة الأخيرة علة لما قبلها وهى علة لما قبلها فافهم .

ولما كان ماتقدم راضا لشأن المخلصين فى أعمالهم واضعا لشأن المرائين أردفه بما يفيد أنه لاتقارب بين الطائفتين تأكيدا لما تقدمه فقال أتجعلون الفريقين فى منزلة واحدة ، فمن كان على بينة من ربه كمحمد صلى الله عليه وسلم ومؤمنى أهل الكتاب ، وكل مؤمن مخلص ، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ إن بين الفريقين تباعدا وتباينا ، فالهمزة للإنكار ( على بينة من ربه ) أى على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حقّ وهو دليل العقل ( ويتلوه شاهد منه ) أى ويتبع ذلك البرهان الذى هو دليل العقل ( شاهد منه ومن قبله كتاب موسى ) شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة حال كونه : أى كتاب موسى ( إماما ) كتابا مؤتما به فى الدين قدوة فيه وحال كونه ( رحمة ) أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم لأنهم به يفوزون فى الدار الآخرة ( أولئك ) أى من كان على بينة من ربه ( يؤمنون به ) بالقرآن ( ومن يكفر به من الأحزاب ) من أهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فالنار موعده ) يردها لامحالة ( فلا تك فى مرية منه ) من الموعد أو القرآن ( إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون ) لقلة نظرهم واختلاف فطرهم . ولما نفى التوازن والتقارب

بين الفريقين شرع يفصل الكلام على الفريق الكاذب فقال ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ) بأن أسند إليه مالم ينزله أو نفى عنه ما أنزله ( أولئك يعرضون على ربهم ) في الوقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم ( ويقول الأشهاد ) جمع شاهد ، كأصحاب جمع صاحب، أو شهيد كأشراف جمع شريف: وهم الملائكة والنبيون والجوارح لأن الأفواه يختم عليها وتتكلم الأيدى والأرجل، وهذه لا كذب عندها لأن شهاداتها فطرية لا دخل للكذب فيها بخلاف اللسان فهؤلاء كلهم أشهاد يقولون (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) أى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة لكل من كذب على الله ( ألا لعنة الله على الظالمين ) وهذا تهويل عظيم لظلمهم بالكذب على الله (الذين يصدون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دينه (ويبغونها عوجا) يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ( وهم بالآخرة هم كافرون ) أى والحال أنهم كافرون بالآخرة وكرر «هم» للتأكيد ، ثم وصف هؤلاء الظالمين بثمانية أوصاف فقال:

(١) فهم لا يعجزون الله فى الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم .

(٢) وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه .

(٣) وعذابهم يضاعف لأنهم أضلوا الناس كما ضلوا .

(٤) ما كانوا يستطيعون استماع الحق .

(٥) وما كانوا يبصرون الحق .

(٦) وهم الذين خسروا أنفسهم حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله .

(٧) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون .

(٨) « لاجرم » أى لا محالة « أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » أى لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم .

وهذا قوله تعالى ( أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ـ إلى قوله ـ هم الأخسرون ) ثم أتبع هؤلاء بضدهم فقال ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ) اطمأنوا له وخشعوا له ، من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) دائمون .

ولما وصف كلا من الفريقين بأوصاف على حدة أخذ يضرب لهم مثلا مجتمعين فقال ( مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ) شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع (هل يستويان مثلا) هل يستوى الفريقان تمثيلا وتشبيها وهو منصوب على التمييز ( أفلا تذكرون ) تنتفعون بضرب المثل ، انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة فى قوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها الخ »

لقد حملنا الآية على عموم الكافرين والمنافقين والمؤمنين الذين يطلبون بعملهم الرياء والسمعة :

(١) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » أخرجه مسلم .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى .

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن ، قالوا يارسول الله وما جب الحزن ؟ قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يارسول الله من يدخله ؟ قال القراء ، والمراءون بأعمالهم » أخرجه الترمذى .

(٤) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لايظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا » أخرجه البغوى بغير سند .

تحـــذير

إياك أن تصدك الآيات والأحاديث الواردة في ذم الرياء عن فعل البر والطاعات ، فإذا خطر لك أمر فزنه بالشرع ، فان كان مأمورا به فبادر إليه فإنه من الرحمن ، فان خشيت وقوعه على صفة منهية كعجب أو رياء فلا بأس عليك في وقوعه عليها من غير قصدها ، بخلاف ما إذا أوقعته عليها قاصدا لها فعليك إثم ذلك فتستغفر الله منه .

قال السهروردى صاحب : [ عوارف المعارف ] لمن سأله [ أنعمل خوف العجب أو لانعمل حذرا منه ؟ فقال اعمل وإن خفت مستغفرا منه ] أى إن وقع قصدا ، وقد قيل [ إن ترك العمل للخوف منه من مكايد الشيطان ] كما في جمع الجوامع وشارحه .

وهذه إحدى مصائب المسلمين اليوم ؛ فالصالحون يخافون الرياء ، والطالحون يعملون الشر ، انتهى تفسير القسم الثانى من السورة .

## ( القِسْمُ الثَّالِثُ )

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ

افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ
لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي
قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا
قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا
مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ * وَلَقَدْ
جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ *
فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ *
قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ
إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ *

يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود *
ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه
قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر
لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا
في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن
شديد * قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا
يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس
الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد * وإلى مدين أخاهم شعيبا قال
يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم
بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان
بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيت الله خير
لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك
أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد *
قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن
أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب
قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد * واستغفروا
ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود * قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول
وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز * قال يا قوم
أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط *
ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن

هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ .

## قصـــة نوح

هذه القصة تبين مايلاقيه الدعاة إلى الخير من مصادمة الظالمين الذين يردّون الدعوة ولا يسمعون الحجة ويودّون لو يكونون بلاعلم يسمعونه ولا دين يتبعونه ولا هدى ولا كتاب منير ، فانظر كيف ابتدأ الدعوة بالإنذار والتخويف ، وكيف قابله عظماء قومه بطعنهم أوّلا فى شخصه هو قائلين أىّ مزية لك علينا وأىّ فضل ؟ وكيف ينزل الوحى عليك دوننا وما دمنا متماثلين فى الخلقة متشاركين فى العقل ، فمن ذا الذى يصدّق بامتيازك علينا واختصاصك بفضيلة دوننا ؟

وثانيا : إن الذين اتبعوك ماهم إلا سفلتنا وأراذلنا كالحاكة والأساكفة وسائر أصحاب الصناعات الخسيسة فكيف نتبعك وأنت ومن معك على ماوصفنا ؟

ثالثا : إن هؤلاء الأتباع مع خستهم ودناءتهم ما اتبعوك إلا وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أوّل رأيهم ، فاتباعهم لك ليس عن روية ونظر وتعمق فى الفكر ، وإنما هو عن شىء عنّ لهم بديهة ، فهؤلاء مع فقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية فلا جاه لهم ولا مال ولا شرف فى الحياة الدنيا لم يتبعوك عن فكر ونظر الخ ، فقوله « بادى الرأى » من بدا يبدو ظهر ، أو بدأ يبدأ إذا فعل الشىء أوّلا وانتصابه على الظرف .

رابعا : ويلزم من ذلك أنه لافضيلة لك يا نوح ولا لمن اتبعك ، ثم إنا فوق ذلك نظنك كاذبا فى دعوى النبوة ونظنهم كاذبين فى دعوى العلم بصدقك فلا نبوة لك ولا علم لهم بصدقك ، وهذه هى حجج قومه وهى موافقة لما يحصل فى كل داع وأتباعه ، فان الناس لايزالون يكذبون الداعى ويصفونه بالكذب ونحوه ، ثم يعطفون على أتباعه فتارة يذمّونهم بأنهم ليسوا على شىء ، وتارة بأنهم اتبعوه لجهالتهم وقلة عقلهم ؛ فالطعن إما فى المتبوع وإما فى التابع وإما فى العلاقة القائمة بينهما ، وقد تمّ كل ذلك فى الآية ووضح .

— وهذا تعليم من الله لنا أن نشمر عن ساعد الجدّ ونقوم بالأمر ولا نبالى بالذمّ فينا ولا فيمن معنا من المصلحين ولا فى العلاقة القائمة بيننا ، بل يجب أن تكون تلك الأقوال مشجعة لنا ونحرص على ما أنعم الله بها علينا كما فعل سيدنا نوح ؛ فانظر ماذا قال فى الردّ عليهم ، فانه ردّ على الأول قائلا : « ولا أقول إنى ملك » ردّا على قولهم « ما نراك إلا بشرا مثلنا » .

وردّ على الثانى وعلى الثالث معا فقال : ( ولا أعلم الغيب ) حتى أطلع على مافى نفوس أتباعى وضمائرهم أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ( ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ) أى ولا أحكم على من استرذلتموهم من المؤمنين لفقرهم ( لن يؤتيهم الله خيرا ) فى الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم

ونزولا على هواكم ( الله أعلم بما فى أنفسهم ) من صدق الاعتقاد ، وإنما علىّ قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفىّ أسرارهم ( إنى إذن لمن الظالمين ) إن قلت شيئا من ذلك ، وقوله « تزدرى » من ذرى عليه: إذا عابه. وقال أيضا فى الرد (وما أنا بطارد الذين آمنوا) حين سألوه طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ( إنهم ملاقوا ربهم ) فيشكوننى إليه إن طردتهم ، وقال أيضا ( وياقوم من ينصرنى من الله ) من يمنعنى من انتقامه ( إن طردتهم أفلا تذكرون ) تتعظون .

وردّ على الرابع قائلا : ( ولا أقول لكم عندى خزائن الله ) فأدعى فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلى بقولكم « وما نرى لكم علينا من فضل » . وقد تقدم أن القسم الرابع جزآن :

[ الجزء الأول ] ادعاؤهم أنه لافضل لنوح وأتباعه عليهم ، وهذا ردّ عليه

[ والجزء الثانى ] أنهم يظنونهم كاذبين ، فرد عليهم قائلا ( ولكنى أراكم قوما تجهلون ) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل وتجهلون لقاء ربكم كما تجهلون أنهم خير منكم ، وهذا هو قوله تعالى ( قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى - إلى قوله - إنى إذن لمن الظالمين ) « أرأيتم » أخبرونى « على بينة من ربى » بيان ويقين من ربى الذى أنذرتكم به ( وآتانى رحمة من عنده ) هديا ومعرفة ونبوة ( فعميت عليكم ) أى أخفيت عليكم أو « خفيت » على القراءتين ، ومعنى عميت بالتخفيف لم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة فبقوا بغير هاد ، فالحجة كما تكون بصيرة ومبصرة تجعل عمياء لأن الأعمى لايهتدى ولايهدى غيره ( أنلزمكموها ) أنلزمكم على الاهتداء بها ( وأنتم لها كارهون ) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ( وياقوم لا أسألكم عليه مالا ) أجرا يثقل عليكم إن أديتم أو علىّ إن أبيتم ( إن أجرى إلا على الله ) وبقية الآيات ظاهرة المعنى فلا نطول بذكرها وهى آيات اعتراض القوم ، فقد لخصناها آنفا وهى مذكورة فى المتن ، ولما كانت حجج نوح قد وضحت ورد عليهم وقرّر الرد وأبان ولم يترك لهم بابا أربى عليهم وطوقهم بالبراهين المقنعة (قالوا يا نوح قد جادلتنا ) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا ) كما ظهر فيما تقدم ( فأتنا بما تعدنا ) من العذاب ( إن كنت من الصادقين ) فى الدعوى والوعيد ، فأما مناظرتك فلا تؤثر فينا (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) عاجلا أو آجلا ( وما أنتم بمعجزين ) بدفع العذاب أو الهرب منه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ) أى إن كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لاينفعكم نصحى وهو جواب لما أوهموا أن جداله كلام بلا طائل ، ثم قال ( هو ربكم ) خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته وقد جرى علمه القديم على مقتضى الحقائق الواقعة الإلهية وإنكم تخلقون على حال لاينفع فيها النصح ( وإليه ترجعون ) فيجازيكم على أعمالكم .

ولمّا كانت هذه القصة عجيبة والجدال فيها مؤثرا ذكر الله مايختلج فى عقول بعض الكفار أن هذا وأمثاله مختلق مفترى من عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى هذه الجملة المعترضة ( أم يقولون افتراه ) أى بل أيقولون اختلق القرآن محمد ( قل ) يا محمد (إن افتريته فعلىّ إجرامى) إثم إجرامى ، والإجرام: اقتراف السيئة واكتسابها . يقال جرم وأجرم : أى اكتسب الذنب واقتفه ( وأنا برىء مما تجرمون ) يعنى من الكفر والتكذيب ، وهذا قول مقاتل وأكثر المفسرين إن الخطاب لنوح عليه السلام .

ثم أخذ يتم القصة فقال بعد أن انتهى الجدال وجاء القول الفصل ( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ) فلا تحزن حزن بائس مستكين ، والابتئاس افتعال من البؤس، وهو الحزن والفقر : والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ، وهذا هو التاريخ العام وكل مصلح فى الأرض ، فأولا ذمّ له ولأتباعه والرابطة بينهما . ثم الرد

عليهم، ثم العناد التام . ثم ظهور الحقائق واضحة جلية : فلذلك دعا نوح على قومه فقال « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » .

فصل

(١) صنع السفينة .
(٢) استهزاء قومه به .
(٣) النجاة من الهلاك بركوب السفينة .
(٤) هلاك من عصاه من أهله .
(٥) المقصود من القصة وهو أن العاقبة للمتقين وأن الصابرين ينالون الفوز فى آخر الأمر

صنع السفينة واستهزاء قومه به

قال تعالى ( واصنع الفلك بأعيننا ) أى ملتبسا بأعيننا كأن لله أعينا تكلؤه وتحفظه لئلا يزيغ فى صنعته عن الصواب (ووحينا) وإنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) ولا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم ( إنهم مغرقون ) محكوم عليهم بالإغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ( ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ) استهزءوا به لعمله السفينة فى برية بعيدة عن الماء ، وأيضا كانوا يقولون يانوح قد صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ( قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ) إذا أخذكم الغرق فى الدنيا وجهنم فى الآخرة ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ( ويحل عليه عذاب مقيم ) وينزل عليه عذاب الآخرة الذى هو دائم ، وقوله « وكلما مر عليه ملأ من قومه » أى جماعة منهم ، إلى قوله « عذاب مقيم » جملة حالية ، فقوله « ويصنع الفلك » متصل بقوله ( حتى إذا جاء أمرنا ) عذابنا أى وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد ، فحتى هذه هى التى ابتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله « ويصنع الفلك » وقوله ( وفار التنور ) أى وجه الأرض أو أشرف موضع فيها .

نجاته هو ومن آمن معه

قال تعالى ( قلنا احمل فيها ) فى السفينة وهو جواب الشرط ( من كل ) من كل نوع من الحيوانات ( زوجين اثنين ) ذكرا وأنثى ، والزوجان كل اثنين لايستغنى أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى ، والعينين والأذنين يقال لكل واحد منهما زوج ، والنعلان فى الرجلين يقال لكل واحد منهما زوج ، فقوله «من كل» إما منون : أى من كل نوع زوجين ، وإما غير منون : أى احمل فيها من كل زوجين اثنين ، والمعنى واحد على كل، وقوله (وأهلك) عطف على زوجين. وقوله ( إلا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين يريد به ابنه كنعان وأمه المسماة واعلة فإنهما كانا كافرين ( ومن آمن ) أى والمؤمنين ( وما آمن معه إلا قليل ) قيل كانوا (٧٩) زوجته المسلمة وبنوه سام وحام ويافث ونساؤهم ، و (٧٢) رجلا وامرأة من غيرهم ، ولقد ذكر العلماء طولها وعرضها ولا فائدة فى ذلك لنا . ويقال إنه جعل فى أسفلها الدواب والوحش وفى وسطها الإنس وفى أعلاها الطير وكانت ثلاثة بطون ( وقال اركبوا فيها ) أى صيروا فيها ، وإنما سمى ركوبا لأن السفن فى البحار كالدواب على الأرض، وقوله (بسم الله مجريها ومرساها) جملة حالية من «ها» : أى اركبوا فيها حال كونها إجراؤها وإرساؤها كائنان باسم الله على وجه ، ومجريها ومرساها بفتح الميم والراء من جرى مصدرا ووقت ، وبضم الميم وفتح الراء من أجرى للوقت والمصدر ؛ يعنى أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله . يقال إنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت،

وإذا

وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ( إن ربى لغفور رحيم ) أى لولا مغفرته لما فعلتم من الذنوب ورحمته لكم ما نجاكم ، ثم ركبوا فيها يقولون : بسم الله كما أمروا (وهى تجرى بهم) وهم فيها (فى موج كالجبال) الموج : ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح فشبهه سبحانه بالجبال فى عظمه وارتفاعه وكل موجة منها كجبل من تراكبها وارتفاعها

**هلاك من عصى من أهله**

قال تعالى ( ونادى نوح ابنه ) كنعان وكان ابنه من صلبه ( وكان فى معزل ) عن أبيه وعن السفينة وعن دين أبيه ، وهو مفعل ، من عزله إذا نحاه وأبعده (يابنىّ) بفتح الياء . وفى قراءة بكسر الياء ، والأولى اقتصار عليه من الألف المبدلة من الياء ، والثانية اقتصار عليه من ياء الإضافة ( اركب معنا ) فى السفينة أى أسلم واركب معنا ( ولا تكن مع الكافرين ) فى الدين والانعزال ( قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ) أن يغرقنى ( قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ) أى إلا الراحم وهو الله تعالى أى لاعاصم اليوم من الطوفان إلا مكان من رحم الله من المؤمنين فلا يعصمك الجبل ولا غيره وإنما يعصمك مكان المؤمنين وهى السفينة ، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا أى لكن من رحمه الله يعصمه (وحال بينهما الموج) أى بين نوح وابنه ( فكان من المغرقين ) فصار من المهلكين بالماء ( وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ) جعل الأرض والسماء كأنهما من العقلاء يطيعان مايؤمران به إظهارا لنفاذ الأمر وسرعة الإنجاز وحصول المأمور به حالا كما يفعل المأمور المقهور مع الآمر القاهر القادر ، والبلع : النشف ، والإقلاع : الإمساك ، ثم قال ( وغيض الماء ) نقص ( وقضى الأمر ) وأنجز ما وعد به من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ( واستوت ) واستقرّت السفينة ( على الجودى ) يقال إنه جبل بالجزيرة بقرب الموصل ( وقيل بعدا للقوم الظالمين ) يقال بعد بعدا لمن لايرجى عوده ثم استعير للهلاك وخصّ بدعاء السوء (ونادى نوح ربه) أى أراد نداءه ( فقال رب إن ابنى من أهلى ) أى بعض أهلى لأنه كان ابنه ( وإن وعدك الحق ) وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لاشك فى إنجازه والوفاء به وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فما بال ولدى ( وأنت أحكم الحاكمين ) أى أعلم الحكام وأعدلهم فلا فضل لحاكم على غيره إلا بما يجمل به من العلم وما اتصف به من العدل وأيضا إنه يحكم بالحقائق لاطلاعه على بواطن الأمور ودخائلها ، أما الحكام الأرضيون فإنهم يحكمون بالظاهر ويذرون البواطن لمن هو أحكم منهم وهو أحكم الحاكمين (قال) الله ( يانوح إنه ليس من أهلك ) إذ لاولاية بين مؤمن وكافر ، ثم علل ذلك بقوله ( إنه عمل غير صالح ) أى إنه ذو عمل فاسد وجعل نفس العمل الفاسد للمبالغة . وقرئ « إنه عمل غير صالح » أى عمل عملا غير صالح ( فلا تسألن ) نجاة ( ماليس لك به علم ) أنه ليس أهلا للنجاة .

وذلك أن نوحا عليه الصلاة السلام سأل الله أن ينجى ابنه من الغرق وكان من أهل النفاق يظهر الإيمان ويخفى الكفر كالمنافقين زمن النبى صلى الله عليه وسلم فلم يعلم حق أعلمه الله كما حصل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى سورة التوبة ، فقوله « إنه ليس من أهلك » أى من الدين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والظاهر وقد خاطبه الله بقوله ( ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ) ثم أتبع الأمر بعدم السؤال بقوله ( إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ) ومعنى « أعظك » أنهاك وهذا كما نهى رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله « فلا تكوننّ من الجاهلين » ( قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ) فى الاستقبال (ماليس لى به علم) ما لاعلم لى بصحته (وإلا تغفر لى) وإن لم تغفر مافرط منى من السؤال (وترحمنى) برحمتك التى وسعت كل شئ ( أكن من الخاسرين ) أعمالا ( قيل يانوح اهبط بسلام منا ) أى انزل من السفينة

إلى الأرض مسلما من المكاره كالغرق من جهتنا أو بتحية منا ( وبركات عليك ) وهى الخيرات النامية وهى فى حقه كثرة أولاده وأتباعه ، فقد جعل أكثر الأنبياء وأئمة الدين من ذريته ( وعلى أمم ممن معك ) أى وعلى أمم ناشئة ممن معك وهم الأمم إلى آخر الدهر لأنهم ذرية من معه فى السفينة ( وأمم سنمتعهم ) أى وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم فى الدنيا إلى منتهى آجالهم ( ثم يمسهم منا عذاب أليم ) فى الآخرة ، ثم خاطب النبى صلى الله عليه وسلم فقال ( تلك ) أى قصة نوح مبتدأ خبره ( من أنباء الغيب ) أى بعضها ، وقوله ( نوحيها إليك ) خبر ثان (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ) وهذا خبر ثالث ( فاصبر ) على مشاقّ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح ، وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحوما كان لنوح وقومه (إن العاقبة) فى الفوز والنصر والغلبة (للمتقين) الذين يحذرون الشرك والمعاصى ، وهنا لطائف :

اللطيفة الأولى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك الخ »

هذه الآية فى غاية الفصاحة والبلاغة حتى خصصها بعض العلماء بالتأليف لفخامة لفظها وحسن نظمها ودلالتها على الحال مع الإيجاز البديع .

فانظر كيف ابتدأ الكلام بلفظ « قيل » بالبناء للمجهول فلم يذكر الفاعل لعظم قدرته وجلالته ، وكيف خاطبَ الأرض أن تبلع والسماء أن تقلع وهو مجاز عجيب ؟ وكيف كان « غيض الماء » يغنى عن جمل كثيرة « وقضى الأمر » قام مقام العبارة الطويلة الدالة على هلاك قوم ونجاة آخرين ، وهكذا فكل جملة كأنها درس خاص مع الجزالة وحسن التعبير ، وفى هذا المقام من المحاسن ما لا متسع للعبارة عنه والذوق كاف فيه .

اللطيفة الثانية .

اعلم أن هذه القصة قديمة العهد ذكرت فى الكتب السابقة ، وما مقصودها إلا إبراز رجال فى الأمم يكونون قدوة للصالحين ومنبعا للكمال ، إليهم تشدّ الرحال وعليهم يعوّل الرجال وبهم تصلح الحال ، ولو أنك درست تواريخ النابغين فى سائر الأمم والأجيال لم تر أحدا منهم نبغ إلا على مثال نبوغ نوح عليه السلام ، ولم يخلق الله فى الأرض نبيا ولا حكيما ولا عالما إلا إذا صادفه مثل ما صادفه نوح عليه السلام ، بل أقول انظر أيها الذكى القارئ لهذا التفسير .

ألم تجد فى نفسك مثال ماجرى لنوح من بعض الوجوه ؟ وكيف قرأت العلوم ودرست الكتب ثم وصلت لهذا التفسير وقرأته ؟ ما كان ذلك إلا بعد ماجاهدت جهادا آذاك فيه الأقربون والغرباء ، ثم لم تبأ بذلك ونصرت وفزت بالعلم ، وضلّ سعيهم وخاب فألهم فلعمرك لم يفز أحد فى الدنيا بطائل إلا بعد أن يناله النصب ويغشاه التعب ويحل به الألم ويسومه أهله وذووه سوء العذاب . فانظر رعاك الله قصة نوح ووازنها بسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) النبى صلى الله عليه وسلم قال له قومه « لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه » وقالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فى مقابلة جدال نوح وقومه .

(٢) طلب كفار قريش من النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرد من معه من الجنس احتقارا لهم وهم يجالسون بدلهم ، فقال الله له « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ » إلى قوله « فتطردهم فتكون من الظالمين » وهذا كقول نوح « الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين »

(٣) يقول الله تعالى لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم « قل ما أسألكم عليه من أجر » ونوح يقول « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا » .

(٤) صنع نوح السفينة لنجاة قومه ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة إلى الحبشة ثم هاجر هو وهم إلى المدينة ، وهذه في مقابلة السفينة .

(٥) «تبت يدا أبي لهب» وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وطرد ابن نوح من رحمة الله ولم ينفعه أنه ابن نبي .

(٦) سخر قوم نوح منه فأفهمهم أنه هو الناجي وهم الخاسرون ، وقد كان المنافقون يقولون : إن محمدا يعدنا ملك كسرى وقيصر ، وإن أحدنا لايقدر أن يقضى حاجته خارج المدينة ، وكان كفار مكة يسخرون منه فكرر في القرآن أن الله سينصره وقد تم ذلك .

(٧) حمل نوح معه من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى لبقاء النسل ، وهكذا جميع الأنبياء والمصلحين إنما خلقهم الله في الأرض للنعمة العامة ولا علامة لرجال الإصلاح والعظماء إلا قصد النفعة العامة ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مقابلة ذلك ، قيل له « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » لافرق بين حيوان وإنسان وغيرهما من المخلوقات .

(٨) وكما غرق الكفار من قوم نوح قتل الكفار من قريش .

(٩) وكما نجى المؤمنون من قوم نوح نجى المؤمنون من العرب وأصبحت جزيرة العرب كلها إسلاما كما تقدم في سورة التوبة .

(١٠) قال تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » أى كما نصرت نوحا وكانت العاقبة له فسيكون النصر لك فاصبر الخ .

ألا تتعجب من هذا القول كيف كانت هذه السورة تتلى في مكة ولا جيش ولا جند ولا مال لصاحب الرسالة ثم يتلو عليهم هذا القول ويقول الله له ستكون عاقبتك النصر كما كانت عاقبة نوح ، وبعد ذلك بزمن قد تم هذا .

ولعمرى إن هذه هي المعجزة الحقة فإنه قص قصة نوح وقد حصل له مثل نوح أولا وآخرا وقد تلاه عليهم في أول أمره بحيث لايخلج في النفس أقل أمل في نجاح دعوته وأن العرب وغيرهم يتبعونه ، ذلك هو المعجزة الصادقة ، وذلك هو الذى به يصدق العاقلون .

مقصود القصة لسائر الفضلاء

أيها الذكى إن هذه السورة تقرأ دائما يقرؤها المسلمون ويكرر نظيرها في الكتب السماوية قبل القرآن بل إن لها نظيرا كما سيأتي في كتب الدين الهندية .

فلعمرك مابقيت هذه القصة في الديانات المتلاحقة على مدى الأزمان لألفاظ يكررونها ولا لمجرد آيات يقرءونها ، وإنما هي حكم ومواعظ وآداب يتحلى بها الفضلاء والنابغون . فإذا رأيت في نفسك ميلا إلى فضيلة أو علم أو نفع عام فجاهد في سبيلك واعلم أن الله معك مهما اعتراك من ضيق أو هم أو مرض أو عداوة ، واعلم أن الله لم يعطك الميل لتلك الفضيلة ولم يزرع في قلبك حب ذلك العلم إلا وهو يريد سقيه وإنزال الغيث عليه لينميه فاعزم وتوكل على الله واتل قوله تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهذه القصة تنطبق على كل من يقوم بعمل شريف في نفسه وفي قومه ، فإذا أراد المرء عملا نافعا لنفسه أو لأمته لامه أو لامته نفسه لوما شديدا في أول الأمر كجدال قوم نوح ، ثم يبطل الجدال ويجاهد الإنسان حتى يرسم له طريقا للخلاص كالسفينة ثم يعاديه أهله وولده ، ففي الحديث « أبغض الناس إلى العالم أهله وجيرانه » فليسر في طريقه ولا يبالي بهم ، ثم يسير في طريق الفلاح وينجو في الكفاح وهو لسفينة نجاه ملاح ، ويقال له « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

## اللطيفة الثالثة : الطوفان فى العلم الحديث

### الطوفان عامّ وخاص ، الطوفان العام

اعلم أن الأرض مكوّنة من (٢٦) طبقة عامّة متميزة ، وهذه الطبقات تكوّنت فى ستة عصور كما تقدم مرارا كل عصر منها يبلغ مئات الملايين بل آلاف الملايين من السنين وهى العصر الأصلى والعصر الانتقالى والعصر الثانوى والعصر الثالث والعصر الطوفانى والعصر اللاحق للطوفانى أو العصر الحالى ، وفى كل عصر من هذه العصور الستة تكونت طبقات فى الأرض وهى مختلفة كما قد تقدم ذكرها فى التفسير وإنما الذى يهمنا فى هذا المقام العصر الطوفانى ، فقد قال علماء العصر الحاضر إن تغيرا عظيما فجائيا طرأ على وضع محور الأرض وقطبيها فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعا عاما وانقرض فى هذا الطوفان كثير من الحيوانات ولجأ بعضها تخلصا من الغرق إلى شقوق ومغاور فى أعالى الجبال فهلكت جوعا هناك أو بافتراس بعضها بعضا أو خنقا فى وسط المياه المندفعة عليها وقد كشف العلماء كثيرا من تلك المغاور الحاوية عظاما عديدة من الوحوش الكواسر التى عاشت قبل حصول تلك الفاجعة وهذا الرأى هو الذى يفهمنا كيف نقصت الحرارة فجأة فى الأقطار القطبية ، إنها نكبة عامّة سريعة قلبت وجه الأرض وبها انقرضت أنواع من الحيوان على بكرة أبيها وتحوّلت المياه فجأة من مجاريها واندفعت بعزم على اليابسة فحطمت أعلى الصخور واقتلعت النباتات وجردت الجبال من حللها السندسية وتركت رواسب جديدة يقال لها فى علم الجيولوجيا (الطبقات الطوفانية) وفى هذا العصر بدأ القطبان يكتسيان بالجلد ، وهذا دليل على تناقص جسيم فى حرارة الأرض ، والتناقص المذكور حصل فجأة وليس بالتدريج فإن علماء (الجيولوجيا) استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من (الماموث) كشفوها فى وسط الجليد الشمالى فحكموا بحصول برد فجائى باغتها وقتلها قبل أن تتمكن من المهاجرة إلى أقطار أوفر اعتدالا وأقرب إلى مزاجها .

ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالى وهو السادس وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاء وأرسلت الشمس أشعتها المنعشة فطابت النباتات وأنس الحيوان وظهر بعدها الإنسان ، ولايعلم أحد الآن هل كان الإنسان قبل العصر الحالى ؟ أى هل كان قبل الطوفان المذكور ؟ ولقد وجدوا آثارا تدلّ على ذلك . هذا هو الطوفان العام .

### أين الطوفان الخاص الذى جاء به القرآن والكتب السماوية كما فى هذا المقام

اعلم أن الطوفان المذكور فى الكتب السماوية لم يعلم عنه علماء (الجيولوجيا) إلا ما يأتى وهو أنهم كشفوا أنه كان هناك بحر عظيم يمتدّ قديما من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالى وهذا البحر من آثاره بحر الخزر وبحر الأوزوف والبحيرات الكثيرة التى فى بلاد الروسيا وهى مالحة منتشرة فى سهول التتر ومفاوز روسيا .

ولما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالى والقسم الآخر انقلب إلى الأوقيانوس الهندى فغرقت بلاد مابين النهرين وجميع البلاد التى يسكنها أسلاف الشعب العبرانى ، وقد حفظت هذه الحادثة فى تقاليد سائر الشعوب الذين يسكنون تلك البقاع .

وجاء فى أسفار ( الفيدا الهندية ) فى هذا المقام [ تحوّل براهما إلى صورة سمكة ] وجاء يقول إلى الملك الصديق [فايفاسواتا] إن زوال زمان العالم قد دنا وعن قليل تباد كل نسمة من الوجود على وجه الأرض فاصنع لك سفينة تدخلها بعد أن تأخذ معك زوزا من كل النباتات وانتظرنى فأوافيك وعلى رأسى قرن تميزنى به ، فأطاع الملك الصديق أمر براهما وعمر سفينة ودخلها بعد أن ربطها بحبل متين

بقرن السمكة فسارت السفينة فى الظلمة سنين عديدة فى وسط عواصف قاصفة واستقرّ أخيرا على رؤوس جبال همالايا اهـ .

هذا هو العلم الذى يعرفه الناس الآن من علماء طبقات الأرض ومن علماء الديانات ، فها أنت ذا رأيت الطوفان العام الذى هو قبل التاريخ ، ورأيت الطوفان الذى عرفه بنو إسرائيل عن أسلافهم الذين كانوا بين النهرين وعرفت البحر العظيم الذى خلف بحيرات فى أوروبا الآن وعرفت كلام البراهمة عن هذا الطوفان .

ثم اعلم أنى ما كتبت لك هذا لأفسر به القرآن ، كلا ؛ وإنما أكتبه لتحيط علما بهذه المسألة ولتعشق العلوم ولتبحث فى عجائب صنع الله وفى تقلبات هذه الدنيا وعجائبها وتتعجب من هذه الأرض كيف تكونت وكيف كان القطبان أشبه بخط الاستواء تعيش فيهما الفيلة العظيمة التى لانظير لها الآن ، بل هى أشبه بالفيلة التى كانت قديما تحمل مئات من الناس على ظهرها ثم طرأ عليها البرد فجأة فماتت حالا وبقيت إلى الآن دلالة على قدرة عظيمة ، وكيف كان هناك بحر ثم زال من الوجود ؟ وكيف كانت هذه القصة قد لهج بها أكثر الأمم العظيمة المتدينة .

فأما القرآن فإنه قصّ علينا هذه القصة ليرقينا بها وليدلنا على أن الصابرين فائزون ، وقد أبنا هذا أيما تبيان ، فافرح بما آتاك الله من فضله ، واعلم أن الله عز وجل ما أنزل هذه القصة لأجل المباحث التى ذكرناها ونحوها وإنما أنزلها لما فيها من القدوة الحسنة واليقين ، إن الذين هم مصلحون وقلوبهم مفطورة على الإصلاح فائزون فى آخر أمرهم .

ولعمرك إن هذه القصة فى القرآن تعطى المصلحين إيقانا وإيمانا وعلما أنهم بعد الصبر فائزون . وهذا قد أوضحناه تمام الإيضاح . انتهى الكلام على قصة نوح عليه السلام .

ثم قال تعالى ( وإلى عاد أخاهم هودا ) أى وأرسلنا إلى عاد الخ عطف على قوله « نوحا إلى قومه » وهودا عطف بيان ( قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ) على الله لاتخاذكم الأوثان شركاء وجعلها شفعاء ( ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى ) وذلك كخطاب نوح لقومه بذلك ، وخطاب النبى صلى الله عليه وسلم لأن النصيحة ما دامت مشوبة بالمطامع لاتنجع ( أفلا تعقلون ) أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا الحق من الباطل والصدق من الكذب ( وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) اطلبوا مغفرة الله بالإيمان به ثم توبوا إليه من ذنوبكم السالفة ( يرسل السماء عليكم مدرارا ) كثير الدرور ( ويزدكم قوة إلى قوتكم ) وكانوا قوما أصحاب زرع وبساتين وكانوا مدلين بما أوتوا من قوة وبطش ، وقال بعضهم حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل .

يقال إن الحسن بن على رضى الله عنهما قال لحاجب معاوية لما شكا له قلة الولد « عليك بالاستغفار » فكان يستغفر فى اليوم سبعمائة مرة فولد بنين ، ولما سئل الحسن عن سبب ذلك استدلّ بهذه الآية وبآية نوح « ويمددكم بأموال وبنين » ( ولا تتولوا ) ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ( مجرمين ) مصرّين على إجرامكم وآثامكم ( قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ) كما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم « لولا أنزل عليه آية من ربه » لجحود الطائفتين آيات النبيين ( وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ) أى وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك . فقوله « عن قولك » حال من الضمير فى تاركى آلهتنا ( وما نحن لك بمؤمنين ) أقنطوه من إجابته وتصديقه ( إن نقول إلا اعتراك ) أى أصابك ، من عراه يعروه إذا أصابه ( بعض آلهتنا بسوء ) أى مانقول فيك قولة

إلا هذه المقالة وهى « اعتراك بعض آلهتنا بسوء » فأنت ياهود لست تخالفنا وتسب آلهتنا إلا لما أصابك بعض آلهتنا بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ونحن لانفهم أمرك إلا على هذا الوجه (قال) هود مجيبا لهم (إنى أشهد الله) على نفسى (واشهدوا) أنتم على أيضا (أنى برى مما تشركون من دونه) وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) احتالوا فى كيدى وضرى أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنى أرى أنها لاتضر ولا تنفع (ثم لاتنظرون) لاتمهلون ، ثم أكد هذا بقوله (إنى توكلت على الله ربى وربكم) أى إنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الناصية مقدم الرأس وسمى الشعر الذى عليه ناصية للمجاورة . وكان العرب إذا أرادوا إطلاق أسير جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخرا عليه ، فخاطبهم الله بما يعرفون : يعنى أن الله هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته ، والدابة كل مايدب على الأرض ويدخل فيه جميع بنى آدم والحيوان لأنها جميعها تدب على الأرض (إن ربى على صراط مستقيم) أى إن ربى وإن كنتم مسخرين له مقهورين لايعاملكم إلا بالإنصاف والإحسان والعدل فيجازى كلا بما فعل المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته (فإن تولوا) أى تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ، فلم يقع منى تقصير فى التبليغ وإنما التقصير منكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم) أى إنكم إن أعرضتم عن الإيمان يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم وهذا عذاب الاستئصال (ولا تضرونه شيئا) بتوليكم عن الإيمان (إن ربى على كل شىء حفيظ) رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم وهو يحفظنى من أن تمسونى بسوء ، فكما يحفظ أعمالكم ويعاقبكم يحفظنى من السوء (ولما جاء أمرنا) بإهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) ذلك أن العذاب إذا نزل عم فلما أنجاهم الله كان ذلك رحمة من الله وأيضا الإيمان والطاعة من رحمة الله فما تسبب عنهما من رحمة الله لأن كلا من عند الله (ونجيناهم من عذاب غليظ) شديد (وتلك عاد) وهذه قبيلة عاد ، كأنه قيل سيحوا فى الأرض فانظروا إليها واعتبروا بقبورها وآثارها ؛ ثم وصف حالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم) أى كفروا بها (وعصوا رسله) لأنهم عصوا رسولهم ، ومن عصى رسولا فقد عصى الجميع (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أى اتبعوا أمر كبرائهم الطاغين ، وعنيد من عند عنودا إذا طغى فعصوا من يهديهم وأطاعوا من يغويهم (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) أى أردفوا لعنة تتبعهم ، واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) أى وفى يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما أتبعتهم فى الدنيا ثم ذكر السبب لزيادة الإيضاح فقال (ألا إن عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) أى هلاكا لهم أو بعدا من الرحمة (قوم هود) عطف بيان لعاد ، والقصد من هذا العطف المبالغة فى التنصيص للتأكيد ، انتهى التفسير اللفظى لقصة عاد وما قبلها .

جوهرة فى معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم »

يعيش الناس ويموتون وتتلاحق الأمم وتتسابق فى هذه الحياة ثم يردون أحواض المنايا أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وهم يأكلون الحيوان ويشربون ألبانه ويلبسون صوفه وفراءه ثم أكثرهم يموتون ولاهم يذكرون ، لايذكرون عجائب هذا الحيوان وغرائبه وغرائب النبات ولا الحكمة المدبرة التى خصصت لكل طائفة منه لونا وشكلا وأحوالا خاصة ، ينظر الناس إلى هذه الصور والأشكال ثم لايذكرون لم هذا الاختصاص ؟.

(١) ولم نرى الزنبار مثلا محلى بشكل جميل مزوقا بهيجا ولكنه يحمل سلاحا يعدو به على من يمسه بسوء .

(٢) ونرى الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط إما رمادية اللون أو سوداء .

(٣) ولماذا نرى بعض السمك مرقشا منقوشا بهيئة بهجة كأنها هيئة البساتين الجميلة ، والأكثر على خلاف ذلك إذ يكون ظهره أزرق مائلا للسواد أو الخضرة وهو من أسفل أبيض اللون .

(٤) ولماذا نرى الجمل والأسد لهما لون خفيف رملى أو صخرى رملى .

وهكذا من أمثلة كثيرة لايخطر للناس أن يفكروا فيها ، وإنما الرأى العام عند هذا النوع الإنسانى أن ذلك أمر عادى .

والجواب على ذلك هو عين مانقل عن الكسائى لما سئل لم بنيت أىّ على الضم فقال « أىّ هكذا خلقت » .

هذا الإنسان أوله وآخره قديمه وحديثه عالمه غالبا وجاهله مستوون فى الغفلة والإعراض عن بحث ماحولهم وفهم الدروس التى ألقاها الله عليهم ، هذه هى الدروس الحقة والعلوم التى أنزلها الله للناس وآيات نزلت عليهم وطلاسم وألغاز وزينة زين بها الأرض لامتحان عباده لينظر أفيشكرونه بمعرفتها أم يكفرونه بالتلهى ببهجتها والغفلة عن معرفتها ، ذلك هو مثل المسلمين وغير المسلمين الحاليين الذين سكنوا هذه الأرض وهم عن آياتها معرضون .

اللهم إنك أنت الذى أسكنت أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية وأحطتنا بعوالم خلقت من الجمال وحفظت من الوبال وأحطتها برحمتك وكلأتها بعنتك ، فهى بعنايتك وكلاءتك فى بهجة وسرور ونعيم وحبور وجعلتها بحسب حقائقها مكللة بالنور مرموقة بنظرك مكفولة بحفظك وجعلت أعيننا غالبا فى غطاء عن جمالها رحمة منك لنا وعطفا وإحسانا ، ذلك لأن هذا الجمال الكامن فى تصويرها وخلقها لو تبدّى لنفوسنا دفعة واحدة وعرفناه لسكرنا ولذهلنا ولذابت مهجنا من الاطلاع على أسرارها لأنها من النور خلقت ومن الحكمة صنعت ، وكيف تقوى أرواحنا التى لم يكمل حظها من القوة ولم تصل إلى غاية الكمال أن تغرق فى بحر الحكمة الذى ليس له قرار ؟

اعلم أنى لما وصلت إلى هذا المقام حضر لى صديق صالح فاطلع على هذا فقال : هذه المقدمة لم تخرج عن مقدمات كثيرة من المتصوّفة الذين تنشرح صدورهم فينشئون المقالات تلو المقالات ولم يزدد الناس من مقالاتهم كالا فى علم ولا معرفة لحقيقة إلا قليلا منهم « وقليل من عبادى الشكور » ابتدأت المقال بأمثلة فى الغربان والجمال وأمثالها ولم تجب عليها ثم أخذت تتغزّل فى الوجود ، وهذا الغزل أراك ورثته من كتب المتصوّفين . إن الأمم الإسلامية اليوم لن تقوم من كبوتها إلا بعلم يفتح أعينها لهذا الوجود ، فأما إذا أكثرت فى الإغراب وأبعدت فى الإرقال وزوّقت الجمل وجئت بروائع الكلام وبديع النظام فما علمت حرفا ولا زدت الناس ذكرا فاهجم على الحقائق هجوما كما رأيته فى كثير من الأجزاء السابقة فى هذا التفسير ، إن الكتب إذا خلت من الحقائق المشاهدة عكف الناس على قراءتها وغفلوا عما حولهم ، فهل تحبّ أن يقرأ الناس هذا التفسير وهم مغمضون ؟ فقلت له : هدّئ روعك وأحسن ظنك واعلم أن المقال الذى شرعت فيه الآن علم عزيز وفنّ شريف جميل سيريك

حكما نسجت بيد حكت ثم انتسجت بالمنتسج

إنك سترى من آيات الله وعجائب حكمه ما لم يعلمه أكثر المتعلمين فى العالم الإنسانى ، ذلك أنى اطلعت على عشرات من عجائب ألوان الحيوان وأشكاله ، وكيف كان ذلك كله قد وضع بدقة وحكمة وغاية مقصودة اطلعت على ذلك فى كتب الفرنجة : أى فى موسوعات علومهم ، وهذه الكتب لايؤلفها إلا المختصون بالعلوم ثم لايطلع عليها أغلب المتعلمين لأن أكثرهم لايسعى إلا لغذائه ولردائه ولمظهره بين الناس وأمثال هذا إنما تتحلى به العقول وتساق به إلى الكمال ، وأكثر الناس فى الشرق والغرب عن هذه المعالى معرضون .

## تشبيه الأرض بدرّة

إنّ ما سألقيه عليك اليوم هو النور والبهجة والجمال ، إن هذه الأرض فى حقيقتها بعد ما تسمع اليوم ما أتلوه عليك أشبه بدرّة بهجة جميلة متلألئة قد سطعت عليها أنوار الكواكب وأشرقت عليها أضواء السيارات يتلاقى على ظهرها [الجمالان] جمال الأنوار ، وجمال الدرّة ، فترى أرضنا قد امتزجت على سطحها الألوان السبعة التى فى قوس قزح بأضواء هذه الجوهرة فتدخلت الأشكال وتشابكت الألوان وامتزجت الصور فى أمواج فوق أمواج وبحار من الصور والأشكال والبهجة والجمال ، تلك صور هذه الأرض فى عقولنا بعد أن ترى ما سأقصه عليك الآن ، بل هذه هى الصورة التى ظهرت فى خيالى بعد ما قرأت هذا الموضوع الذى أنا بصدد ذكره الآن على أن هذا التشبيه دون الحقيقة .

نعم الله نور السموات والأرض . والنور على [قسمين] نور محسوس ، ونور معقول ، ونور النجوم والشموس والأقمار وضوء الجواهر ، كل ذلك محسوس ولا مناسبة بين المحسوس والمعقول ؛ إن النور المحسوس بالأبصار قد سبق ذكره فى سورة الأنعام وسورة يونس وقد رسمت هناك الصور الشمسية والأشكال الكوكبية والمجرّة وأنواع السدم والقنوان ، قد تقدم هذا كله وتقدم شرح ذلك من علم الفلك بحيث يسهل على القارئين فهمه ولكن هذا كله هو النور الحسى ، أما النور العقلى فهو أكمل وأكمل وهو النور الذى أنزل فى هذه السورة (سورة هود) إذ يقول الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلّ فى كتاب مبين » ثم يذكر أنه استوى على العرش وأن عرشه على الماء وأنه يدبر بالحكمة ، فهذا باب آخر من أبواب العلم وهو علم الحقائق ، ويقول هود « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » الأخذ بنواصى الدوابّ ليس بالأمر السهل ، إنه يحتاج إلى علم الأمم كلها ودرس هذا الوجود كله .

أنزل الله القرآن وقال لنا « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » فى سورة يونس ومدح للفكرين فيها وهكذا فى سورة الأنعام وغيرها ، ولكن فى سورة هود أتى بما هو أبعد مرمى وأدقّ مغزى يدل على ذلك قوله « كتاب أحكمت آياته » إشارة إلى الحكمة المودعة فى الحيوان وغيره ، وقوله « ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فيه إشارة إلى عجائب الوجود الذى نعيش فيه سيفصلها الله ويظهرها للناس وإلا فكيف يقول لنا « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » والناس فى الشرق والغرب لا يرون هذا الأخذ بناصية الدواب لأنهم يرون الدوابّ ولا يرون الآخذ بنواصيها ، فالأخذ بالنواصى لا يرونه ، ولكن نفس الأخذ بالنواصى هو الممكن للناس معرفته ولا يمكنهم ذلك إلا بالعلوم والحكمة .

أنزل القرآن على أمّة العرب وأمّة العرب نشرت القرآن ثم نامت ولكن الله لا ينام لأنه هو القائل « ثم إنّ علينا بيانه » والقائل « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » والقائل « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » .

فهاهو ذا أرانا بعض آياته فى كتب أسلافنا المتقدمين وفى كتب المتأخرين من الفرنجة ، أولئك الذين عرفوا بعض العلوم ونبغوا فيها ولكنهم لا يعلمون أن هذا يطلبه القرآن بل هم فوق ذلك يكتبون العلم محققين لمسائله ولا يفكرون إلا فى الصنعة ، أما الصانع فلا يعوّل أكثرهم على ذلك أثناء كتاباتهم ، أما أنا فإنى أقول بأعلى صوتى أيها المسلمون كتاب الله المنزل عليكم لا تدرك بعض أسراره إلا بقراءة جميع علوم الشرق والغرب ثم لا يتمّ مقصوده إلا باجتهاد أبناء الإسلام بعد قراءة علوم القوم إذ يزيدون على ما علموه وهم مجدّون ، وأقول أيضا « هذه بضاعتنا ردّت إلينا » هى منطبقة تمام الانطباق على آيات القرآن ، فها أنا ذا الآن

أيها الأخ أريك العجب وستعلم أن هذا من بيان الله الذى سخر له الفرنجة وهو الذى أعثرنى عليه وهدانى لفهمه ، فهذه البضاعة بها يمير الله قراء هذا التفسير ويحفظ بها سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ويزيدهم علما بجدّهم واجتهادهم أسوة بإخوة يوسف إذ قالوا « هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير الخ » .

فقال صاحبى الصالح فأجب أوّلا عن الأسئلة المتقدمة ثم اذكر ماتريد ذكره من عجائب الحيوان ، فقلت : إن الألوان على [قسمين] ألوان براقة بهجة ذات أشكال تلفت الأنظار ، وألوان خفيفة لطيفة ليس لها بريق ولمعان . أما الأولى فإنما أعطيت الحيوانات عندها مايحميها من أعدائها ويحفظها من المغيرين عليها ، فأما الألوان الخفيفة اللطيفة فإنما تعطى إلى الحيوانات التى من مصلحتها ألا تظهر بوضوح لأحد [أمرين] إما لأنها عرضة للمغيرين عليها ، وإما لأنها لها فريسة ، فخفة ألوانها ولطفها أقرب إلى اختفائها عن أعين فرائسها فيمكنها أن تنال منها غذاءها ولو بنصب وتعب فى العشىّ والإبكار ، هذه هى القاعدة العامّة ذكرتها الآن توطئة لما أفصله فأقول :

من عادة الحيوان أن يكون لونه مشاكلا لما حوله ، وهذه المشاكلة تكون سببا لوقايته لأنه بها يختفى عن أعين الرقباء .

### الكلام على الزنبار

(١) خذ الزنبار مثلا تره زاهى اللون منقشا مرقشا ، لماذا ؟ لأنه أعطى حمة بها يهجم على من يؤذيه لذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون بمظهره المعلوم لأنه لايخاف عدوّا يغير عليه فهو فى مأمن سلاحه الذى يحمله .

فالزنابير إذن أشبه بالأمم القوية إذ يجوس رجالها خلال البلاد فى الشرق والغرب ظاهرين لأن لهم دولا تحميهم وتحافظ عليهم ، ودولة الزنبور هو سلاحه ، فسلاحه يقوم مقام سلاح الدول فى حفظ رعاياها .

ألست ترى أن الله أخذ بناصية هذا الزنبار فجعل له شكلا جميلا مزوّقا وأعطاه سلاحا وقال له كن حرّا طليقا أيها الزنبار لأنى أنا الآخذ بناصيتك وأنا على صراط مستقيم ، اللهم إنا نحمدك على العلم ونشكرك على الحكمة .

### الكلام على الفيران والوطاويط والبوم

(٢) وخذ الفيران مثلا آخر والوطاويط التى تكون إما رمادية اللون وإما سوداء ، فسبب ذلك أن هذه الحيوانات من الحيوانات الليلية لخوفها من الحيوانات القانصة المهلكة ، فهى أبدا فى النهار مختفيات ، فإذا ظهرت ليلا وكان لها لون غير السواد وما قاربه نمّ ذلك اللون عليها فعرّضها للعطب فكانت من الهالكات .

وانظر إلى البوم فإنك تجد لونه ترابيا فيه بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا ، وذلك ليحصل التشابه بينه وبين قشر الشجر والأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل ، أليس هذا الصنع معناه أن الله آخذ بناصية (البوم) ؟ نعم أخذ بناصيته فلوّنه على الهيئة التى بها يعيش فيأكل الفيران وغير الفيران لمصالح هذا الخلوق ، وإلا فلماذا يختص (البوم) باللون الذى يكون حافظا له ؟ وبغير هذا اللون المخصوص يخفى (البوم) ولا يكون فى الوجود .

### الكلام على السمك

(٣) وانظر إلى السمك فإن الذى تراه لامعا بهجا فإنه يكون عيشه فى قاع البحر محوطا بالجمال الرائع

من أعشاب بحرية لامعة ومرجان نابت فى قاعها بهيج ، ونبات من الشقائق بهجة فيكون ذلك القاع أشبه بحديقة خيالية عبقرية حسنة فيخلق ذلك السمك مناسبا لما حوله حتى يختفى فيما هناك من الأشكال وبذلك يتوارى عن الأبصار .

أما السمك الذى يرى ظهره أزرق مائلا للسواد أو للخضرة وبطنه أبيض فذلك لأنه يعيش أقرب إلى سطح الماء فى البحر فصار ظهره مناسبا للجو وزرقة الماء فى البحار فيختفى عن أعين الطيور القانصة للسمك وجعل بطنه أبيض ليختفى عن أعين السمك المفترس فيتشابه لون بياض بطنه بلون الماء فلا يفترسه السمك الغير .

الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما

(٤) أما الجمل والأسد ونحوهما وتلوّنهما باللون الخفيف الرملى فذلك لأنهما من سكان الصحراء والصحارى لا أشجار فيها ولا مراعى ، فالأسد لو كان لونه زاهيا كالزنبور لفرّت منه فريسته ، والجمل لو كان كذلك لكان عرضة لافتراس الحيوانات المفترسة فتهجم عليه كالنمر والأسد والذئاب فأعطى كل منهما لون ماحوله من الرمال ليشتبه بها وبالصخور الرملية التى تحيط به .

وهكذا ترى القنبر وأنواعا أخرى من الطير وكل ما له فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد بعض الحيات والضباب ، كل ذلك ملوّن بلون الرمال وقاية من الله وحفظا لتلك الحيوانات ، فسبحان الخلاق العظيم .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : إنى وجميع المتعلمين من أبناء مصر وبلاد الشرق وأكثر بلاد أوروبا يقولون غير ماتقول ، يقولون إن الوسط قد أثر فى هذه الحيوانات فهذا أمر طبيعى لاغير ، فأما الأخذ بالناحية التى ذكرته فإن المتعلمين لايقولون به ، قلت له : حياك الله وبياك ، ألم تذكر أنى بينت لك أن هذا العلم لايكون عند المتوسطين فى العلوم ؟ إن هذه الآراء إنما يعرفها الحكماء فى أوروبا وفى الشرق ، فأما تلاميذ المدارس فى كل أمة فإنهم كالعامة فى هذه النظرات ، بل هم المتحيرون فى هذا الوجود ولا يحظى بالحكمة منهم إلا الأقلونَ أولئك هم المفكرون ، فقال : هات برهانك وانقل لى ماقاله أكابر حكمائهم فى عصرنا حتى لاتتهم بأنك إنما تحاول أن تجعل القرآن موافقا للعلوم بالحق أو بالتحايل ، فقلت : قد جاء فى كتاب [موسوعات العلوم] المسمى ( سايِنس فورأُلّ ) فى المجلد الثانى صفحة ١٢٨ وما بعدها مايأتى :

إن المفكر العادى يرى أن ألوان الحيوانات قسمت ووزعت بلا صنعة ولا علم ، ويرى المناطق الحارة الاستوائية كل شىء فيها لونه بهيج زاه زاهر فى حيوانه ونباته بخلاف ماعندنا ، ثم بيان السبب فى أن هذا أحمر وذاك أبيض الخ ، كل ذلك عند أكثر الناس لايفيد ولا ينتج بل هو عبث ، ثم قال وسأبين لك أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها ، بل إن كثيرا منها تتوقف حياتها على حماية ألوانها لها ولولا تلك الألوان لانقرضت تلك الحيوانات وبادت من الوجود .

ثم أخذ يبين تلك الحيوانات واحدا واحدا بدقة وحكمة وفقه وتفكير فى الهواء والبر والصحراء والجبل والبحر والأقطار الحارة والباردة ، وفى هذه قال :

نبحث فى جهات القطب الشمالى فإن لون البياض هو السائد فى تلك الأقطار ، وقد ترى هناك السواد والسمرة إذا كان ذلك أصلح للحيوان فى تلك الأقطار .

الأرنب والدبّ والثعلب القطبيات

ثم قال كل دبّ فى الأرض أحمر أو أسود إلا دبّ القطب الشمالى فهو أبيض ، وهكذا أرنب القطب

والبوم

والبوم ، كل هذه بيضاء أو قريبة من البياض ، والثعلب القطبى أبيض ، والأرنب الذى يسكن الجبال العالية فهذا يتغير إلى البياض زمن الشتاء ، وهناك طائر يسمى (بسترميمن) وهذا خير مثل للحماية بالألوان فهو موافق لألوان الأحجار التى يقع عليها ويلازمها ولا يقدر الإنسان أن يميز سربا منه وهو فى زمن الشتاء يلوّن بالبياض لأجل حمايته بمشاكلته للثلوج فهو يلوّن فى الصيف بلون الأحجار ، وفى الشتاء بلون الثلج لحمايته أيضا .

الغنم القطبية والسمور والغراب وألوانها هناك

ثم قال : وهناك [ثلاثة أنواع] من الحيوان تخالف لون الثلج فى تلك الأقطار .

[أولها] نوع من الغنم يسمى (غنم مسك) فهذه لونها السمرة مع السواد فتستبين وتظهر وسط الجليد ، وسبب هذا أنه يعيش جماعات وليس لفرد منه أن يعيش وحده ، فلون السواد والسمرة الذى يظهرها وسط الثلوج ظهورا واضحا ضرورى حتى يعرف كل خروف منها أصحابه ، ولو كان لونها كلون الثلج لضلّ القطيع وتفرّق وافترسته المفترسات ، فهذا النوع بين نارين ؛ إما حياة محمية بالسمرة مع السود ليتعارف أفراد السرب الواحد ويغتفر فى جانب هذا أن ينفرد الواحد بعد الواحد ضالا الطريق أو مريضا فتختطفه المفترسات كالثعلب القطبى ، أما أفراد السرب فهى متعاونات لها حرّاس يعرفون مواقع الخطر فيفرّون بالقطيع كله فيعيشون ويكثرون ، وإما لون كلون الجليد به لايميز بعضها بعضا فتهلك كلها ، لاجرم أن أول الأمرين خيرهما وهذا هو الذى حصل فى الوجود .

[النوع الثانى ـ السمور] فإنه يحتفظ بفروته العظيمة الثمينة الجميلة السمراء فى أيام شتاء (سيبريا) القارس وذلك لأنه يلازم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط ويختطف الطيور بين الأشجار فيقتنصها فيأكلها ولو كان لونه السواد لميزته الطيور ففرّت منه فلم يأكلها .

[النوع الثالث ـ الغراب] إنه يكون فى أقصى الأقطار القطبية الشمالية ولكنه دائما أسود . ذلك لأمرين : [أولا] أنه لاعدو له يفاجئه إذا تميز فى وسط الثلوج .

[والثانى] أن فريسته وهى الجيفة لاتفرّ منه إذا أراد أكلها فلذلك حفظ له سواده ولم يغير ذلك كله لمنفعة الغراب نفسه ، ثم قال هذه المسائل الثلاث من البراهين الدالة على ماذكرناه من أن الألوان مقصودة لحماية الحيوان ، وهذه الحجة صادقة ومكذبة لمن يقولون إن البياض فى الأقطار الشمالية من أحد [أمرين] إما من تأثير البرد مباشرة على الحيوان ، وإما من تأثير انعكاس البياض من الثلج على الحيوان . فهذه الأنواع الثلاثة علمتنا أن بياض الحيوان إنما يكون لما ينفعه البياض ويحفظه فى حياته ، أما التى لاتحتاج إلى حماية البياض أو تلك التى ينفعها السواد فانها تلون به ولا تلون بالبياض ، ثم قال إذن سبب التغير لايرجع عقلا إلى الأمور الخارجة عن الحيوان بل هو راجع إلى قوانين ، مختلفة تدور كلها حول حفظ الحيوان ومنفعته لاعلى الوسط الذى تعيش فيه حشرات تلوّن بلون جذوع الأشجار وحشرة أبى دقيق التى تلوّن بلون الأوراق الجافة ؛ فلما أتممت هذا القول أخذ يقول ياعجبا أهذا كلام الحكماء بأوروبا فى عصرنا ، فقلت نعم هذا هو الذى رأيته ونقلته وسأشرح هذا المقام إن شاء الله وبقيت حيا فى سورة « قد أفلح المؤمنون » عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وهناك أبين هذا المقام بإيضاح وأثبت لك الصور التى رسمها القوم بالتصوير الشمسى فترى هناك إن شاء الله حشرات طائرات ثم إنها تجثم على شجرة عتيقة فيخيل للرائى أنها عبارة عن غصن غليظ من الشجرة قد كسر أعلاه حديثا ، وما ذلك إلا أن هذه الحشرة قد خلقت بحيث تكون

على هذه الحال لئلا يعرفها قانصها من الطيور آكلات الحشرات ، وهكذا ترى هناك صور حشرات ألوان أجنحتها تشبه تمام المشابهة ألوان الأوراق الجافة حتى لايفطن لها آكل الحشرات وهكذا بعض الحشرات من أبي دقيق الذى تراه هناك مرسوما على الشجرة وهو لايتميز من أزهارها التى تلوّن بلونها . كل ذلك ستراه إن شاء الله ولا يسع المقام ذكره هنا ، فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

[ بيان أن هذا معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ » ]

فقلت أليس هذا يكفيك فى معنى قوله تعالى على لسان هود « إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم » ، فانظر إلى التعبير بربى وربكم فهو ربى هود ورب قومه وهو رب كل حيوان وحافظه وهو على صراط مستقيم أى هو عدل لايجور ، والجور هنا إعطاء الحيوان مالاينفعه أو مايضرّه ، فلو أنه أعطى السمك الذى فى قاع البحر لون الذى عند سطح الماء فكان فى ظهره زرقة مع سواد أو خضرة لامتاز بهذا اللون فتعرّض للهلكات ولو أعطى السمك الذى عند سطح الماء ما أعطاه السمك الذى يعيش فى قعر الماء فى البحار الحارة التى يكون قاعها مزدانا بجمال الحيوان والنبات لامتاز هذا بلونه البرّاق البهيج عند سطح الماء فرآه مافوقه من الطيور الصائدات وما تحته من السمك المفترسات ، إذن ثبت بالعلم الذى نشر اليوم فى أنحاء أوروبا وأمريكا واليابان وجميع العالم الإنسانى أن هذه الآية يفسرها حكمة الحكماء وعلم العلماء ، ويضعف عن فهمها أكثر رجال الدين فى البلاد الإسلامية الذين لم يعرفوا نظام ربهم واكتفوا بإيمان العجائز ، وهكذا أكثر المتعلمين بمدارس مصر والشام والعراق وأوربا وأمريكا واليابان فان هؤلاء كالفقهاء فى الإسلام ، والفرق بينهما أن الفقيه يقول هذا فعل الله ، وهؤلاء الذين أخذوا شهادات عالية من المدارس يقولون هذا فعل الوسط والبيئة ، وأن الثلج أثر على ماحوله من الحيوان فأعطاه البياض وأن الرمل فى الصحراء أثر فى الجمل والأسد فجعل ألوانهما كألوان رمال الصحراء ، وقد ظهر لك بطلان ذلك كله بالبرهان .

[ العرش والرحمة والعلم ]

قد جاء فى أوّل هذه السورة أنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وأن كل ذلك فى كتاب مبين وأن عرشه على الماء ، وجاء فى سورة أخرى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » فالذين يحملون العرش أى الملك والذين حول العرش هم المدبرون لهذا العالم من العوالم المجردة عن المادّة والعوالم المادّية كأرضنا ترى فيها نفوس صغيرة فى أجسام إنسانية لتزداد علما وبعضها يرتقى إلى أن يصير مع أولئك المجرّدين عن المادة من الملائكة ويدبرون كتدبيرهم كل بقدره ، فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ، والتسبيح يرجع لمعرفة أن الله مترفع عن المادة ومايناسبها وعن سائر المخلوقات ، والتحميد لاحقيقة له إلا بإدراك الحقائق ، فإن الحمد إنما يكون على نعمة ، والنعمة إن لم تعرف فلا حمد عليها ، وكلما كان الإنسان أو الملك أكثر علما كان أكثر حمدا ، والحمد جاء فى اسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاء فى قول المصلى قبل كل مكتوبة « اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته » فذكر الحمد وتكراره فى الصلاة والدعاء كله راجع للعلم فلا حمد إلا على علم ، والمجهول لاحمد عليه .

فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، وهم علماء بما حمدوا عليه وهم مؤمنون لأن الحمد لايكون إلا مع إيمان ولكون المؤمنين شاركوهم فى الإيمان العام أخذوا يستغفرون لهم ويقولون « ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما » .

فياليت

فياليت شعرى كيف نعلم أن الله وسع كل شىء رحمة وعلما إلا بمثل ماذكرناه ؟ وتعجب من ذكر الرحمة مصحوبة بالعلم لأن الرحيم الجاهل لايقدر أن يضع الأمور فى مواضعها فيعطى السمك الذى عند سطح الماء لون الرقش المزين الذى فى قاع البحر الحارّ فيموت السمك فريسة هذا النقش والتصوير والتزويق ويعطى بجهله الجمل لون الطاوس وكذلك الأسد فيهلك الأول بالحيوانات المفترسة ، والثانى بفرار الغزلان والبقر والجاموس والغنم والمعز إذا رأته فى عرض الصحراء .

فالرحمة لاتكون إلا مع العلم ، والرحمة بلا علم حماقة ، وهذا المعنى هو المذكور هنا وهو قوله « إن ربى على صراط مستقيم » وإن يكون على صراط مستقيم ، أى عدل إلا إذا علم طرق النافع والضارّ فأعطى الأول ومنع الثانى ، فقوله هناك « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » يقرب من قوله هنا « إنّ ربى على صراط مستقيم » .

فقال صاحبى مامعنى قوله فى أول السورة « كلّ فى كتاب مبين » بعد ذكر أن كل الدواب عليه رزقها هل الكتاب الذى كتب فيه كل شىء اطلعنا عليه وأبان لنا شيئا من تلك العلوم ؟ فقلت كتاب الله ولوحه المحفوظ لايعرفه إلا هو ومن يريد تعليمه ولكن هذا الكتاب له آثار ، فقال وما هى الآثار ؟ قلت انظر إلى التصوير الشمسى ، ألست ترى الناس يصوّرون الجبال والأنهار والكواكب والمزارع والحصون بالتصوير الشمسى فيعرفونها معرفة عامة ؟ قال بلى ! قلت فهل الصورة الشمسية فيها مزايا الأصل من كل وجه ؟ قال كلا ! قلت هكذا هنا إن الله وإن لم يطلعنا على اللوح المحفوظ أطلعنا على الصورة المنطبعة فى الأرض منه ، فهذه الطوائف الحيوانية والنباتية التى قرأت بعضها هنا وفيما تقدم فى هذا التفسير والتى ستقرؤها إن شاء الله فى سورة « قد أفلح المؤمنون » إذا درسناها حق دراستها أرتنا جمال ذلك اللوح المحفوظ فإن الإتقان فى الصنع بحيث ترى الفأر والأسد والجمل وطوائف الحشرات والسمك كل واحد منها قد أعطى مابه حياته .

ذلك كله نظام وترتيب ، والنظام والترتيب إنما يكون من العلم ؛ فالعلم والحكمة المخبوآن عنا المحفوظان عند الله قد ظهرا فى هذا الوجود وباتا أيما تبيان لمن يدرسون ، أما الذين يعيشون وهم ساهون لاهون مكتفون بقشور العلوم وبما نالوا من شهادات من مدارس عالية ، فأولئك ربما كان غرورهم بعلمهم القليل يحملهم على إنكار مالم يعرفوا ، والتظاهر بالإنكار ليدفعوا بذلك الإنكار والتكبر الخزى والعار أمام الذين يعلمونهم ، فإذا سئلوا فى مثل هذا المقام قالوا هذه أشياء يقتضيها الوسط والبيئة وأحوال الجوّ وهكذا .

واعلم أن الله عز وجل حجب أكثر النوع الإنسانى عن معرفة هذا وأمثاله رحمة منه بهم كما قدمت فى أول المقام ، ولو أنهم عرفوا ذلك لسكروا ولانبهروا فكان ترحمهم عظيما لكن الله برحمته شغل الناس بإطعام أنفسهم وبملابسهم وبعداواتهم وأعمالهم فهم فى شغل شاغل . كل ذلك ليقوى عقولهم حتى يستأهلوا لمعرفة هذا الوجود ولو عرفوه الآن لذابت أكثر النفوس ، فهو هنا حجبها ليقويها ولا يعطيها من العلم إلا بمقدار على حسب قابليتها .

فإذا رأيت زيدا يحقر هذه المسائل فلا تعجب لأنه الآن يربى بالنقم والنعم والعزّ والذل والفقر والغنى ، لتتربى نفسه فى الصيف والشتاء والخريف والربيع فتشتد وتقوى حتى إذا فارقت روحه بدنه استحق من العلم على مقدار ما استعدّ له ، فحجب الناس عن العلم لم يكن بخلا ولكنه يحرمهم منه إلى أمد معلوم لمنفعتهم لاغير ، وإذا رأيت نفوسا متعطشة إلى هذه المعارف ونالت بعضها فاعلم أنها استحقت ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين .

التسبيح والتحميد

استيقظت قبل فجر يوم الأحد ٣١ يوليو سنة ١٩٢٧ فخطر لي أن هذا الموضوع يعوزه التمام ، فها أنا ذا ذاكر ما انشرح له صدري تتميما للمقال فأقول :

لقد علمت أن الألوان جعلت لحماية الحيوان فيما تقدم وفيما سيأتي في سور أخرى ، فاعجب لذلك واعجب لقوله تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » من هنا فليقرأ المسلمون التسبيح والتحميد . التسبيح تنزيه ، والتحميد آثار النعم ، هذا هو مقصود التسبيح ، أمرنا بالتسبيح في صلواتنا وسبحنا في الركوع وسبحنا في السجود في كل واحد (١١) مرة . وحمدنا في الرفع والاعتدال فقلنا [ ربنا لك الحمد ] وحمدنا في أول الفاتحة في كل صلاة ، فنحن قوم حمادون ونحن الذين قيل لنا « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض » وجاء في سورة يونس السابقة قوله تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » هذا المقام هو سر التسبيح وسر التحميد الذي لانفهمه .

نحن سبحنا وتسبيحنا لفظي . وحمدنا وحمدنا لفظي ، فإذا لم نتبع اللفظ معناه كنا ضالين ، ومعنى الحمد ومعنى التسبيح يظهر في أمثال هذا المقام مقام الألوان .

الله أكبر ، جل الله ، وجلت الحكمة ، اللهم إنك أنت الذي أبرزت هذه الأشكال الحيوانية الآتية صورها فيما سيأتي ، وأنت الذي رحمت عليها تسبيحك وحمدك ؛ فبالأول نزهناك عن العبث في صنعك والبعد عن الصواب في خلقك .

لقد كسوت الحيوانات أكسية لونتها بألوان خاصة فكانت وقاية لها ، فألبست الدب في الأقطار الشمالية قباء أبيض وخلعت على الزنبور حلة مزركشة مروّقة براقة يراها الناظرون وحبوت سكان الصحارى من الدواب ألوان رمالها وأفضت بنعمك على تلك المخلوقات التي هي في كلاء تك وزينت بعض الحشرات بزينة تشبه زينة حيوانات من نوعها ، وبهذه المشابهة أوهمت أعداءها أنها لها سلاح كسلاح المشبه به اقتصادا منك في عملك ولطفا منك بمخلوقاتك ورحمة بها فحميتها من أعدائها بمجرد المشابهة اللونية لما له سلاح من نوعها كما سيأتي صور ذلك فيما سيأتي من مجلدات هذا التفسير في محله إن شاء الله ، وإذا رأينا حشرة كزرق الطير وإذا رأينا طائرا ليليا يسمى ( سكانك ) في أمريكا الشمالية قد ازدهى لونه وجمل شكله فصار في الليل ظاهرا واضحا وقد طال ذنبه الأبيض الزاهي الذي هو علم له يرفعه ليعرف .

أقول : إذا رأينا هذا وذاك فإنا نقول إننا نزهنا الله بعقولنا لا بألفاظنا فقط ، نزهناه عن العبث : أي العبث في وضع هذه الألوان وهذه الأشكال ، فنرى أن شكل زرق الطير الحشرة المذكورة إنما جعله الله وقاية لها ، فليس هذا ازدراء واحتقارا ولهوا ولعبا بل الحكمة أصبحت معروفة لنا ، فإن الطير لايشك في أن هذا زرقه فيصد عنه فيكون هذا الشكل رحمة بالحيوان ، فاذا سمعنا الله يقول « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا » فذلك لأن الذين كفروا بالله يقولون إن العالم جاء بالمصادفات والامتزاجات ، وهكذا ظن جميع الجهال وجميع المتعلمين تعلما ناقصا ولكن الذين اتبعوا الأنبياء منهم يؤمنون ويصدقون ولكنهم لايفقهون الحقائق ويخطر لهم أن هذا العالم باطل ولكنهم يدفعونه بإيمانهم وتصديقهم ، والإيمان غير اليقين ، وهكذا نقول في الطائر المذكور الآتي شرحه في المجلدات الآتية إن شاء الله تعالى .

نقول إن هذا الطائر الأمريكي قد أعطاه الله سلاحا وهو أنه ينشر رائحة كريهة بها يدفع كل هاجم عليه فجعل الله هذا الذيل الطويل البهج الجميل الأبيض ليكون علما له يرفعه فتراه الطيور الكواسر فتفر منه ولا تقربه لأنه تشرعله يقول أنا البطل المغوار ، أنا الليث الكرار ، أنا الذي أدفع أعدائي بسلاح عجيب النشأة غريب .

قاصى

قلدنى الإنسان فاخترع الغازات الخانقة والمعمية ، فأنا أول من حارب الأمم بالغاز الكريه فمه ، وأعدائى من الحيوان ليس عندها وقاية تقيها على أنوفها من رائحتى الكريهة ، كما استعمل جيوش الحلفاء أكنة على أنوفهم فى الحرب الكبرى وقاية لها من غازات الألمان الذين قلدونى فى اختراعى فلى السبق عليهم فى هذه الصناعة .

إذا فهمت هذا فهمت معنى قوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » فجعل التسبيح ملتبسا بالحمد وهذا هو الحق ، فان الحشرة التى على لون زرق الطير قد كتب على بدنها مانصه : [ أما أنزه الله عن العبث فوضعى على هيئة قذرة فلم يجعل هذا عبثا وإنما جعله لمنفعتى ] فقول الحشرة إن هذا الوضع ليس عبثا وإنه لمنفعتها تضمن التسبيح والحمد معا ، لأن النعمة هنا هى الوقاية من الهلاك والوقاية مرتبطة بهذا الشكل القذر، فقذارة الشكل بها النجاة ، فمتى قلنا بها النجاة نزهنا الله عن العبث وصارت له منة على الحيوان فالتسبيح هنا ملازم للحمد ، فهذا هو سر « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » فالتسبيح هنا مع الحمد لاينفصل أحدهما عن الآخر .

فهذا الشكل أفادنا الأمرين معا : تنزيه الله عن العبث وفضله على عباده ومثل هذا نقول فى الطائر الأمريكى ، فرائحته الكريهة التى يطلقها على عدوه هى شىء قذر ، والله لم يخلق هذا القذر الكريه الرائحة عبثا ، بل جعله وقاية لمن اتصف به فحصل الأمران : تنزيه الله عن العبث فى وضع هذا القذر المكروه الرائحة ، والمنة والنعمة على الحيوان ؛ فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى فى سورة يونس قبل هذه « دعواهم فيها سبحانك اللهم — إلى قوله — وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » فهذا المقام فتح لنا باب فهم ذلك على قدر طاقتنا البشرية .

إن تسبيح أهل الجنة وتحميدهم ليس كتسبيحنا ولا كحمدنا بل هم يسبحون ويحمدون بطريق الإلهام كما ورد فى الآثار « إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما نلهم نحن النفس » فالتعبير بالإلهام يفيد أن ذلك التسبيح وذلك التحميد قد ظهر الآن فى هذا التفسير شعاع نور منه فإن ألوان الطيور وأشكالها ، وهكذا كل حشرة وكل حيوان جميعها امتزج فيها التسبيح بالتحميد ولكنه معقد غير معقول إلا لقليل من الناس ، ولذلك قال لنا « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » إن تسبيحهم مندمج فى حمدهم .

إن هذه العوالم كلها عبارة عن كتاب كتبته يدى يدل دلالة أوضح من دلالة ماتكتبونه بأيديكم وما تتلفظونه بألسنتكم ولكنكم تقصرون عن إدراك ذلك وأنتم فى هذه الأرض ولا يفهم بعضه إلا أناس اخترتهم لذلك وهم الذين قلت فيهم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولا يتم الفهم إلا بعد الموت لأولى الألباب ولذلكم جعلت تسبيح أهل الجنة مفصولا عن حمدهم والتسبيح على قدر التحميد ، أريد بذلك أن المعانى المعقدة عليكم والمعانى المخبوءة فى هذه الصور والأشكال التى هى حروفى وكمالى التى خفيت عليكم وأنتم هنا فلا تفهمونها هى التى ستظهر لأهل الجنة فيعقلونها بطريق الإلهام فتنفصل لكم الأشياء تفصيلا كما فصلت الحمد هنا عن التسبيح بحيث تعقلون جمالى وقد قويت أرواحكم لخمات ذلك فصارت فى لذة لاعلم بها ولا قدر على تحملها أهل الأرض ، هذا تحقيق بعض المعانى فى قوله تعالى « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » الممتزج بالتحميد ، بخلاف أهل الجنة إذ يسبحون ويحمدون بالفهم والعقل لابمجرد اللفظ كما تفعلون

هذه هى المعانى التى خبأها الله فى صور الحيوانات التى تعيش بين ظهرانينا فهو آخذ بناصيتها وهى أنفسها تسبيح وهى أنفسها حمد ، ونحن اليوم لانعقلها وسنعقلها بعد الموت .

واعلم أن هذا التفسير فتح لباب هذه المعانى وسيكون فى هذه الأمة حامدون ومسبحون بطريق العلم

والحكمة ويكونون نورا للناس وتكون هذه العوالم فى نظرهم جنة عرضها السموات والأرض ، وأىّ جنة وأىّ لذة أبقى وأرقى وأعلى من الوقوف على الحقائق التى ستكون نورا لنا فى هذه الدنيا ويوم القيامة نهتدى به لعلوم أعلى والعلوم هى حقائق التسبيح والتحميد .

إذا علمت هذا علمت كيف أمر الله بالإكثار من التسبيحات والتحميدات بكرة وعشيا ، ولماذا يقول صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضى الله عنها لما سألته خادما كما فى البخارى « إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا ثلاثا وثلاثين » ثم ذكر أن هذا خير لهما من خادم ، أليس ذلك معناه أن العلم هو اللذة القصوى ؟ فإذا كان الخدم لراحة بدن المخدوم .

[ وبعبارة أخرى ] إذا كانت الحياة فيها لذات كالبقاء فيها وكالتلذذ بالمال والخدم والحشم فإن هناك ماهو خير لسعادة الإنسان وهى إدراك الحقائق الذى دخل تحت التسبيح والتحميد والتكبير ، وذلك كله مخبوء فى العوالم التى نشاهدها أمثال هذا الطائر الأمريكى وهو بدن مركب من أجزاء أو كلمة مركبة من حروف دلت على معان لايفهمها إلا الخاصة ولا يفهمون منها إلا قليلا وفهمها هو عزّ الدنيا وعزّ الآخرة ، وسعادة الروح وسعادة البدن ، وهذه الكلمة من كلمات هى المذكورة فى قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » فها أنت ذا أيها الذكى أخذت تقرأ فى هذا التفسير بعض كلمات الله فى اللوح المفتوح أمامك وهو هذه الدنيا وأكثر الناس حولك لايعلمون ، والحمد لله رب العالمين .

المتعلمون تعلما أوروبيا فى الشرق يجهلون حقائق العلم فى أوروبا وفى الإسلام

تبين لك من هذا المقال فى تفسير قول هود « إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ » أن كل دابة لاتعطى لونا ولا شكلا إلا لمنفعتها بحسب الاستقراء حديثا ، وهاك ما كتبه العلامة ( ... ورت برون ) فى كتاب موسوعات العلوم المتقدم ذكره ، قال ماترجمته فى صفحة (٢٨٤) من المجلد الثانى [ لقد كتبنا فى مقال سابق من صفحة (١٢٨) إلى صفحة (١٨٧) ( أقول هى المقالة التى استخلصنا بعضها هنا وستذكر فيا بعد ) فى الألوان الحافظة للحيوان واجتهدنا أن نلقى شعاعا من العلم ووضوح الحقيقة فى المقصود من هذه الألوان الحاصة وفى أصولها من حيث إنها بها يختفى الحيوان عن أعدائه الآكلات له وعن فريسته التى لابدّ له من اصطيادها ، ولقد أبنا هنالك كيف كان موضوع الألوان متسعا متشعب الأطراف فى الطبيعة وكيف أن ما كان يظهر للناس من الألوان إنه للزينة والزخرف :

(١) حينما كنا نبحث الحيوان وهو محبوس فى أقفاصنا ( يريد أمثال الطاووس ) .

(٢) وحينما نلاحظ صورته فى دار التحف ظهر الآن أنه خطأ محض وضلال مبين ، لأن تلك الألوان جميعها لحفظ كيان الحيوان والمحافظة عليه إذا درسناه وهو فى وطنه الأصلى أو رأيناه وهو جاثم للاستراحة وقد اتخذ شكلا به ينجو من خطر المهجمات ، انتهى بايضاح قليل ، وهذا القول يفيدنا فائدتين :

[ الفائدة الأولى ] أن الناس فى غفلة معرضون عما حولهم وأن المتعلمين فى بلاد الشرق الذين قرءوا لغة أو لغتين مع بعض العلوم ، هؤلاء هم كأكثرهم فقهاء الإسلام وهؤلاء ممن قال الله فيهم « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » أما ظن هؤلاء المتعلمين تعلما أوروبيا فإنه اتجه بغرور إلى أن ما أخذوا فيه شهادة من مدارس أوروبا هو العلم كله وهم فى الوقت نفسه يجهلون حقائق العلوم عند الأوروبيين ، فأكابر علمائهم فى العلوم الطبيعية قد رأيت الآن نص مانقلته

منهم

عنهم وأنهم يعيبون الذين يكتفون من الحيوان بظواهره ولا يعقلون حقائقه ، وأما ظن الفقهاء فظاهر أنهم يتركون النظر فى هذا العالم ظانين أنهم عرفوا كل شىء ، فالأولون منهم كفروا لقلة علمهم ، والآخرون جهلوا مايطلبه الإيمان ، ولو أن الطائفتين كانوا غير مخدوعين لدرسوا وحققوا ؛ فالكفر فى الأولين للغرور ، والجهل فى الآخرين للغرور ، وها هى ذه علوم أوروبا التى نقلناها عن حكمائهم فى عصرنا ، فأعداء الشرق هم الفقهاء الغافلون ، ومتعلمو العصر المغفلون ؛ فالفقهاء بادّعائهم نصر الدين قد هدموه وهم غافلون ، والمتعلمون تعلموا أوروبيا بتركهم الدين واحتقارهم كل دين أعربوا عن جهلهم بعلوم ساداتهم فى أوروبا ، ويقول الله فى الطائفتين « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وهذا تمام الفائدة الأولى .

[ الفائدة الثانية ] إن هودا عليه السلام كان يناوئه قومه ويعادونه ، وهكذا سائر الأنبياء فهؤلاء كلهم قد آذتهم أممهم ، فقال لهم هود : أنا لا أخاف منكم «إنى توكلت على الله ربى وربكم» واحتجّ على ذلك بدليل وهو أن الله آخذ بناصية كل دابة فإن وقع بى مكروه فهناك أحد أمرين : إما أنه ينجينى منه ، وإما أن ذلك المكروه يكوّن سببا فى ثواب الآخرة كما قال تعالى على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين» فجعل النصر حسنى والقتل فى سبيل الله حسنى ، وهذا هو معنى التوكل : أى أن الإنسان يجتهد فى عمله ، والنتيجة تسلم لله وتكون هى خيرا للانسان بحسب حاله ، كما أنارأينا الطائر الأمريكى قد جعل المكروه من رائحته والمحبوب من شكله الزاهى الزاهر كلاهما لحفظه ، وكما رأينا تلك الحشرة التى شكلها شكل زرق الطيور قد جعل ذلك الشكل القبيح لوقايتها ، فهنا قبيح وحسن لوقاية الحيوان وقبيح خالص لوقايته أيضا ، هذا هو الذى يقصده هود عليه السلام ، يقول إن الله تكفل بالحيوان وجعل المكروه والمحبوب لمنفعته ، فها أنا ذا أتوكل على الله وأقول : إن المكروه والمحبوب نافعان لى ، والشرّ كالخير لأن النتيجة هى الفائدة لى ، وربى الذى رأيناه جعل المكروه والمحبوب نافعين للحيوان هو نفسه الذى قدّر لى المكروه والمحبوب ؛ فبالقياس على الحيوان يكون المكروه كالمحبوب ، فالأول للذّى فى الحال ، والثانى للذّى فى الاستقبال وهذا هو قوله « إن ربى على صراط مستقيم » اهـ .

زيادة إيضاح « إن ربى على صراط مستقيم »

إنه يربينا على صراطه المستقيم ، وهو يهدينا الصراط المستقيم كما قال تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله » فنقول للسلم « اهدنا الصراط المستقيم » يريد صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، وأن الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض يدبرهما بالقسط والعدل ، فيجعل الفأر أسود والزنبور أحمر ، والطائر الليلى الأمريكى فيما تقدم أبيض ذا ذيل طويل ، والحية والضبّ بلون الرمال ولا يجعلهما كالطاووس ، وهكذا مما لانهاية له يفعل ذلك على صراطه المستقيم ؛ فلو عدل عن هذا الصراط لفنيت الفيران بظهور ألوانها ليلا ولو لم يعط الزنبور حلته البرّاقة الدالة على ماله من سلاح لهجمت عليه الطيور الآكلات للحشرات وهكذا مما علمته .

هذا فتح لنا سرّ القضاء والقدر : القضاء والقدر سرهما محجوب عن الناس جميعا لأننا فى الأرض محبوسون وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس ذلك بخلا من الله كما لم يكن منع إعطاء الفأر لون الطاووس بخلا منه ، بل ذلك منة وفضل ، ولكن ماذكرناه هنا فيه بصيص من نور ذلك السرّ

ذلك أنه جاء فى سورة الأنعام « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

الله أكبر ، جلّ الله وجلّ العلم وظهر بعض السرّ وأذن الله بارتقاء المسلمين وبعلوّ كعبهم فى العلوم .

إن هذا التفسير منحة من الله ، ذلك أن أبواب العلم اليوم قد فتحت ومن أجلها ماذكره فى هذا المقام ، ذكر الله أن الذين أشركوا سيحتجون بالقضاء والقدر على صاحب الرسالة ويقولون إن كل شىء بمشيئة الله ، فى هذا الوعيد والإنذار على الكفر والذنوب ومنهم أكثر المتعلمين اليوم والجهلاء ، فأجابهم أولا بالتهديد بأنهم يذوقون البأس كأمثالهم من الأمم ، وثانيا بصفهم بالحرمان من العلم ولو كان عندهم علم لهداهم ، والعلم شىء والظنّ شىء ، فالعلم اليقينى هو النظر فى هذا الوجود والنظر به يكون اليقين الذى اتصف به الخليل ، وهذا اليقين إنما يكون بمثل النظر فى أنواع الحيوان المذكورة .

إن الناس فى مستقبل الزمان سينالون حظا عظيما من علوم الحيوانات وغيرها وهنالك يدرسون بالعلم والحكمة ، وإن الله لم يعط حيوانا لونا ولا شكلا ولا هيئة إلا جعل ذلك نافعا له وعند التحقق من هذا يزول الاعتراض بالقضاء والقدر ، لأن القبح والحسن وغيرهما كلاهما لمنفعة نفس الحيوان ، فهذا هو العلم وهذه هى الحجة البالغة التى كتبها الله لنا بخلق صور الحيوان ، ولست أقول لك إن هذا كل الحجة بل هو فتح لبابها .

يجيب الله كل سائل متكل على القضاء والقدر بأن العلم هو الذى يعرّفه صراط الله المستقيم ومتى علم الناس أدركوا بعض حجة الله البالغة ، وأىّ حجة أبلغ من خواص الحيوان وعجائبه ؟

ظهر مما تقدم ومما سيأتى فى سورة المؤمنون أن كل حيوان يجب أن يكون على ماهو عليه وإلا لهلك ، فههنا أمور :

[ الأول ] أن لكل حيوان شكلا ولونا لايصلح لغيره .

[ الثانى ] أن هذا هو العدل ، وسواه ظلم لأنه يترتب عليه هلاك الحيوانات .

[ الثالث ] أن النقص لافرق بينه وبين الكمال والحسن والقبح ، كذلك فكل ذلك لبقاء الحيوان ، فيكون نقصه بالنسبة لغيره كمالا بالنسبة له .

هذه هى حجة الله البالغة هدانا الله إلى أوائلها فى هذا التفسير ، هذا صراط الله المستقيم ، فكيف يكون صراطنا نحن فى قوله لنا اهدنا الصراط المستقيم ؟

قد علمت أن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم : صراط الله الخ » فصراطنا هو نفس صراط الله ولكن صراطنا على حسب أحوالنا .

[ أولا ] أن نعلم أن مايحصل لنا من الحوادث ونراه نقصا لنا أو ضرّا تتجه النفعة لنا قياسا على الحيوان الذى عرّفنا كيف كان الله على صراط مستقيم .

[ ثانيا ] أن نذر الإفراط والتفريط فى الأمور ونكون وسطا فى كل شىء فى الكلام والأكل والحب والبغض وهكذا ، وهذا ملخص علم الأخلاق .

[ ثالثا ] نزيد علما حتى نوقن أن ما أصابنا من مكروه فهو نعمة علينا كما أن سواد الفأر نعمة عليه ، بل الذنوب التى تورثنا ندما ربما كانت سبب إشراق قلوبنا فإذن لايكون فرق بين المرض الجسمى والمرض الدينى وهو الذنب فى أن كلا منهما قد ينير العقل .

[ رابعا ] أن نكون حكماء فلا نقول كلمة أو نعمل عملا إلا إذا وزناه كما رأينا الله وزن الألوان والأشكال ولم يعطها إلا لأربابها فلا نخل عنده ولا هو حائد عن الصراط المستقيم اه .

يظهر لى أن هذه الدنيا لانهاية لعجائبها ولا غاية لبدائعها ، ها أنا ذا ألمعت إلى ماستقرؤه فى سورة « قد أفلح المؤمنون » من عجائب الألوان فى الحيوان وبعد ما كتبت ذلك عثرت على أمر يدهش العقل ويحير اللب ستقرؤه فى سورة الرعد عند قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » سترى هناك أمرا عجيبا .

ذلك أن من النبات ماهو مفترس لايتغذى من التربة ولا يتعاطى خلاصة النبات كالغزلان والجمال بل لايأكل إلا اللحم أو الحشرات وله طرق خاصة لصيد فريسته ومنه مايسمى (بالنبات الجزار) لأنه متى وقعت فريسته فى قبضته لم تفلت منها بل يفترسها ؛ وسلاحه فى ذلك أمران : حسن ألوانه مع الجمال ومقدار من العسل موهوب له من الله ، فهذان أعطيا له ليكونا سببا لخداع الحشرات فتسرع إليه فتكون غذاء وهناك ترى صور تلك النباتات وشرحها .

أليس هذا من قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » أخذ الله بناصية هذه الدواب النباتية اطلع عليها فعلم أنها لاقوة لها تنتقل بها من الأرض ، فماذا فعل لها ؟ أمر الحشرات أن تطوف حولها وأعطى هذه الدواب المذكورة من نعمه عسلا ومنظرا حسنا ليكونا سببا فى دخول هذه الحشرات فى الذبح فلا تخرج منها وإنما تدخل فى ضمن غذاء ذلك النبات .

اللهم إنا نعجب من صنعك وحق لنا أن نعجب ، أخذت بنواصى كل دابة ، يعيش أقوام ويموتون من أهل الأديان ومن الملحدين وأكثرهم غافلون لايفطنون ، يسمعون أن ذلك النبات يفترس الحيوان فيمرون عليه مر الكرام ، فلا المتدين يدهش لذلك ويكون سببا فى حبه وسعادته وجمال العلم فى قلبه ، ولا الملحد يعقل كيف خلق هذا وكيف سهلت له الأسباب حتى حلى بغذائه بدون انتقال وعذب الإنسان والحيوان فى طلب الرزق ولم كان البذل مقدرا بمقدار الحاجة ، عجز النبات الحيوانى عن السعى فأرسل له مايأكله بحيل خلقت فيه وأعطانا وأعطى سائر الحيوان قوة فأبعد مطالبنا على مقدار قوانا ، اللهم إنى أعجب لهذه الدنيا اختلفت أعمالها واتفق نظامها .

## حياة الأرضة

ثم إنى اليوم نظرت فيما قاله العلامة ( مترلنك ) الذى أبدع فى حياة النحل وألف فى حياة ( الأرضة ) على وزن بقرة وهى دودة عمياء ويسمون هذا النوع بالنمل الأبيض أو النمل الأعمى ، والحقيقة أنها ليست بنمل ولا هى بيضاء ، بل لونها جمع بين البياض والكدرة وهو (الأغبس) من الغبس وقد عرفته .

[ وبعبارة أخرى ] لونها لون الأرض التى تعيش فيها وهى الآتية إن شاء الله فى قوله تعالى « مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته الخ » فى سورة سبأ . فأحببت أن أوجز فى وصفها ليزداد علمنا بقوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » يقول هذا العالم إن هذه الدابة عاشت قبل الإنسان مائة ألف ألف سنة ، وهذا بحسب ظنه وظن علماء زماننا .

ويقول إن حضارة هذه الحشرة أقوى من حضارة النمل والنحل وقد درس هذه الحشرة علماء مثل ( كوتج ) و ( هنرى سميثمان ) وغيرهما من فطاحل العلماء وهو حيوان يتراوح بين ( ٣ و ١٠ ) مليمترات طولا وأغلبه لايكون له أجنحة وهو بطىء الحركة ولا يعيش فى غير البلاد الحارة ولا يرى الشمس لئلا يموت ولا يعيش إلا فى الرطوبة وهو أنواع كثيرة : فمنه ماهو بناء يقيم هضابا فوق الأرض ، ومنه مايعيش فى العراء ويمشى بين صفين من الجنود يحتمى بها من الأعداء ، ومنها مايفتك بالأشجار . وقد تكون مساكنها تعلو

فوق الأرض أربعة أمتار ومحيط قاعدتها (٣٠) قدما كأنها قالب سكر ومنها مايبدو كالقناطر نصبت فوق أعمدة متموّجة وقد يستطيع الفارس أن يمشى من تحتها ، ومن مساكنها ما شوهد فى أفريقيا الوسطى ولاسيما فى ( كنغو البلجيك ) حيث يبلغ العلو من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار .

ومن عجب أن هذه الحشرة يظن العلماء أنها قد أعطيت علما بالكيمياء لم يعرفه الناس فإنها تعيش فى أصقاع لا أثر للماء فيها ولا الحياة ، يقولون إنها ربما أخذت ( الأكسوجين ) من الهواء وجمعته إلى ( الأودروجين ) الذى تجده فى غذائها النباتى ليتكون منهما الماء ، ومعنى ذلك أنها تقدر أن توجد الماء بطريقة كيائية عجز عنها الناس فى الأرض .

وهذه الحشرة لها مملكة كما للنحل سترى رسمها إن شاء الله فى سورة سبأ وبجانبها الملك نحى تملأ اليد وهو كالأعلة وحولها الضباط المحافظون على حياتها والكشافة الصغار المحيطون بها ، وهناك الذين يطعمونها عند فمها والذين يتلقون بيضها عند مؤخرها ، ثم إنها لاتقوم من مرقدها حتى آخر أجلها ، وهناك جنود وعمال ، والجنود والملك والملكة لايتعاطين الطعام إلا مما تعطيه لهن العاملات اللاتى تشبه من النحل العاملات فيه وهى الشغالة .

ومن عجب أن تلك المملكة العظيمة يقوم بها الملك والملكة والعمال والجند فى الظلام وقد تفتك بالأشجار والمنازل والملابس والقرى ، ولولا النمل ومحاربته لها لأهلكت الحرث والنسل وأخربت كثيرا من بلاد نوع الإنسان .

ومن عجب أن هذه الدولة يتربى تحت إشرافها وفى مدينتها فى الظلام جماعات كثيرة ذوات عيون وأجنحة ، فإذا ولى الخريف ودنا موعد المطر وتلك المخلوقات لم تزل فى تلك القرية المحكمة السد المسدودة الكوى الكثيرة الجنود ذوى القوة والبسالة اللاتى يبلغن خمس عدد القرية ، هنالك يحصل أمر عجب لايدرى من أين جاء ! فما هو إلا أن يرى الإنسان هؤلاء الجنود (الذين وقفوا على الفتحات التى تأتى بالهواء ليلا ونهارا لايتركون موقفهم لحظة طول السنة ) قد تخلت عن أماكنها لحظة واحدة فى كل باب وخرجت آلاف الآلاف من تلك المخلوقات ذوات الجناح والبصر ، خرجت هذه المخلوقات فرحات إذا هناك جماعات يعلمن وقت خروجهن من العصافير والحيات والحررة والكلاب وسائر الحشرات لاسيما النمل فتهجم على هذه القرائس التى خرجت فى الجو كالعرائس لأنها قد أعطيت قوة الذكورة والأنوثة بخلاف التى فى المدينة ، فإن الذكورة والأنوثة فيها قد صارت آثارا لاعمل لها . فهذه العرائس تفتك بهذه الجيوش التى حضرت لتقتات منها ، وهكذا بنو آدم يحضرون ويقتسمون تلك الغنيمة مع الحيوان فيجمع الإنسان مايراه بالمجرفة ويأكله بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه فى السوق كما فى جزيرة ( جاوه ) .

هذا ما أردت ذكره من هذه الأرضة التى لاتبقى ولا تذر حتى إنها فعلت مالاحد له من عجائب التخريب قد تأتى على الشجرة الكبيرة فتأكلها ويبقى هيكلها كما هو ، فإذا جلس أحد بجانبها واتكأ عليها انهارت ووقعت كأنها دخان وذلك لأنها تحاذر أن يكون التالف ظاهرا فهى تأكل جميع ماتحت القشر وترققه ، ولها كثير من العجائب عسى أن أذكرها هناك فى سورة سبأ إن شاء الله تعالى ، وههنا يأتى العجب فنرجع إلى الفكرة العامة فى هذا الوجود .

نظرتى فى هذه الدنيا

أرجع فأذكر لك أيها الأخ فكرتى أيام الشباب فقد كنت أقول : هذا الوجود إن كان منظما فله إله وإن لم يكن منظما فليس له إله ، وصرت أقول فى نفسى إن هذا الوجود إذا كان بصنع مبنى على تدبير

وحكمة فإننا معاشر الأحياء نكون سعداء ، وإذا كان هذا الوجود عبارة عن مصادفة عمياء فالحياة هباء لاقيمة لها . فلما اطلعت على مارأيته فى هذا الكتاب وغيره ظهر لى مايأتى :

لقد تبين لى من صانع هذه الدنيا أنه عمد إلى المادة وعلم أنها قابلة لما لانهاية له من الصور والأعاجيب فتلطف وابتدع كل وسيلة لبلوغ النهايات المختلفة من الصور ؛ فبينما نراه قد خلق حيوانا يأكل الحيوان والنبات إذا به قد خلق نباتا يأكل من الحيوان ويأكل من النبات كما تقدم .

ألا نراه قد جمع بين الضدين آكل ومأكول ؟ ويظهر لى أنه كما سحر عقولنا بما خلق من النبات الذى يأكل الحيوان وهو لم ينتقل من مكانه سحر عقول عوالم أخرى بخلقنا نحن إذ جئنا نحن فى الأرض وفينا المتناقضات .

فنحن يحتاج بعضنا لبعض فى الشرق والغرب ، وكل لكل محارب ، فإذا اطلعت عوالم أخرى علينا أدهشها هذا الصنع الغريب فيقولون قوم يحتاج بعضهم لبعض وهم يقتتلون كيف يعيشون ، وهكذا يرون فينا أفانين الأخلاق وبدائع الدنيات واختلاف الديانات ، وكيف كان فينا من لايعقل إلا شهواته ، ومنا من يدرس الدنيا كلها ، وهكذا فيعجبون من متناقضاتنا عجبنا من تباينات الحيوان والنبات .

هذا فيما نراه حولنا من هذه الدنيا والمادة التى نعيش فيها وفى أحوالنا العادية ، فأما أجسامنا نحن وعقولنا فأمرهما عجب ، فعل الله بها مافعل بالمادة وبالحيوان والنبات ، وذلك أنه كما عمد إلى المادة فخلق منها مادق من الذرات وما عظم من الجبال ، وهكذا الصلب والصخر ثم الماء والنور ، وكذلك خلق اللوز والحنظل والحلو والمر ، أعنى أنه استخرج من المادة كل مايمكن حصوله منها ، هكذا نراه خلق فينا المتضادات الصغر والكبر ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، والحزن والفرح .

هذه هى صفات أجسامنا صفات تدل على أنه استخرج من أجسامنا وأرواحنا كل ما أمكن حصوله منها فهى تفرح وتحزن وتمرض وتصح وتضعف وتقوى

إذن أجسامنا أشبه بالأرض فهى مزارع ، فكما زرع فى الأرض الحلو والمر زرع فينا المحبوب والمكروه وكأنه سبحانه رأى من العدل أن يعلمنا بكل ما نستعد له : أى أنه يفهمنا كل ما تستعد له أجسامنا وأرواحنا . هذا هو فعل صانع العالم يستوى عنده محبوبنا ومكروهنا كما استوى عنده المر والحلو فى الأرض ، والصلب واللين فى المادة والهواء والصخر .

إذن صانع هذا العالم يريد أن يستخرج فينا كل شئ كامن فى استعدادنا أسوة بالمادة التى نعيش فيها ، هذا هو النظام الذى رأيناه منذ عشنا فى هذه الأرض .

إذن مانتيجة هذا النظام ؟

نحن الآن فى الأرض قد حبسنا فيها وليست عقولنا هى المسيطرة لأنها محبوسة ، وإنما يمكننا أن نلتمس الجواب مما عرفناه فى هذه الطبيعة .

لقد جاءتنا نواحى الديانات كلها بأن هناك عالم الآخرة وعالم الآخرة تظهر فيه أرواحنا بمظهرها الحقيق والذى جاء فى الدين كلام إجمالى ونحن الآن نبحث فى طبائعنا فنقول :

لعل هذه الأرواح إذا خرجت من الأجساد بنفعها أنها ترى مزرعة الفرح والحزن والألم واللذة التى ابتليت بها فى الدنيا فيكون ذلك لها درسا .

ثم إن حيوانات الغابات تقل عندها الأمراض والشرور التي ابتلي بها الإنسان ؛ فكأن كثرة العطب تتبع الرقي ، وإلا لكان الحيوان أرقى من الإنسان .

وكما أننا في الدنيا تسرّنا دراسة المرّ والحلو والغذاء والدواء ونرى في ذلك لنا حكمة ، هكذا إذا متنا واطلعنا في نفوسنا على ماقاست من ألم وما أصابت من لذة ، وهكذا ما أحسنت من خير وما أساءت من شرّ ، كل ذلك ليظهر لها مزارع ومناظر تتأملها النفس فترى في ذلك درسا يعينها على رقي آخر في عوالم أخرى .

ولعلنا إذا لم نجرّب الخير والشرّ والضرّ والنفع والصحة والمرض هنا نجد أنفسنا في نقص هناك ونحسّ بجهل عميق ، لأن الروح لم تدرس نفسها ولم تعقل ما كمن فيها فتكون إذن جاهلة بحال نفسها وهذا الجهل يضرّ بها هناك ، وربما كانت بعض النفوس ستتولى إدارة بعض النفوس أو العوالم بأمر الله تعالى كما قدمناه في بعض هذا التفسير عن العلامة الرازي وإخوان الصفا وعلماء الأرواح في أوروبا ، فربما كان اتصاف الإنسان بالآلام واللذات يعطيه فهما لما يتصرف فيه بإذن ربه ، فههنا حالان للنفس : مكروه ومحبوب ، كالمرض والموت والصحة والحياة .

فالذي ظهر لنا أن صانع العالم لما له من العلو والعظمة والكبرياء والبطش الشديد مع الرحمة التي لانهاية لها قد خلقنا ولم يبال بإحساسنا ، بل نظر نظرة إلهية لانظرة بجاري بها حواسنا وعواطفنا ، خلق الحواس والعواطف لأعمال في الحياة ولكنه هو نظر إلى ماهو أسمى ، فانظر ماذا ترى ؟ تراه يتلطف بالجنين في بطن أمه ويعطف عليه قلب والده ، ويخلق له اللبن ، ويحبب فيه المعلمين ، ويخلق الزراع والتجار والجنود ، كل هؤلاء للمحافظة بالرحمة ، وتراه يتلطف مع ( النبات الجزار ) المتقدم فيعطيه العسل خاصة ويجمل لونه ليكون ذلك بابا لرزقه وفتحا عليه ، هذا لطف عظيم ولكنه يأتي بعد ذلك فيقلب الوضع فيأتي للنبات من يقلعه وللانسان من يقتله أو هو يموت ، فأين هذه الرحمة والعطف ؟

إذن نقول نقيس ماغاب على ماشوهد ونقول إذا قتله أو أماته فمعناه أنه جعله في مكان آخر بحال أخرى ، ثم أتبعه بالرحمة التي كان يكلؤه بها في الدنيا

وإذن نقول : بهذا نفهم الحديث الوارد في الرحمة وأنها مائة جزء وقد ادخر الله منها تسعا وتسعين في الآخرة وأعطى واحدة لأهل الأرض ، بها يتراحم الإنسان والحيوان حتى إن الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

هذه الآراء التي لاحظناها في هذا الوجود هي التي قد خبئت في قوله تعالى « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون » أي أننا استخرجنا منكم كل ما كمن فيكم من الشرّ والخير كما استخرجنا من المادة كل ما كمن فيها ، ثم إنكم ترجعون إلينا وقد عرفتم مافيكم من الصفات علما لاتشوبه شائبة ، لأن أعظم العلم ماكان بإحساس الحي نفسه وتجربته هو نفسه .

ويظهر لي أن نوع الإنسان لا يكمل إلا إذا بلغ في العلم مبلغا به يستوي عنده الموت والحياة تبعا لسنة صانعه ، هذا هو الحق ؛ أما الإنسان اليوم فهو لايزال جهولا كفارا . إذن عمل الله تعالى هكذا :

(١) أب وأم (٢) زراع وتجار وأطباء (٣) حكومات (٤) معلمون

(٥) منافع عامة في المخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرها

(١) أعداء محاربون (٢) فقر وذل ومرض (٣) اضطراب (٤) جهل

(٥) الآساد والحيوانات الضرية للحمى والطاعون والموت

هـذان الجدولان وإن كانا ليسا كاملين قد تناولا على الإنسان فهو حيّ ميت ، سعيد شقيّ ، مريض صحيح .

وإذن الله تعالى من رحمته التي هي أعلى من إحساسنا قد أحيانا وأماتنا وأتى لنا بالمتناقضات ، وهذا إنما جاء من طريق الوحي . أما من جهة العقل فهو من طريق التمثيل والقياس فكأننا نقيس ماغاب على ماشوهد لأن علومنا ناقصة لنقص هذا العالم الذي نعيش فيه بالنسبة إلى غيره .

شرف درس الحيوان ونظام الدنيا

أمامى الآن كتابان من كتب الفرنجة : أحدهما [ مملكة الظلام ] المسمى أيضا حياة الأرضة المترجم حديثا إلى العربية الذى ذكرته قريبا ومؤلفه ( مترلنك ) والثانى كتاب [ موسوعات العلوم ] باللغة الإنجليزية للعلامة ( روبرت بروان ) المتقدم ذكره .

وفى الأول ماملخصه أن النحل قد يترك عاداته القديمة فيدرك فائدة مايصنعه الناس من أقراص الشمع ليضع فيها العسل فيختص إذن بجمل العسل وحده ، وهكذا تراه إذا نقل إلى( أوستراليا) أو ( كاليفورنيا) إذ يجد نفسه فى صيف دائم ويدرك أنه لايحرم أبدا من الأزهار فيكتفى بكسب قوته اليومى ولا يصنع العسل ، هكذا إذا وجد مايعتاض عنه كما فى مصانع السكر ثم يقول إن النملة عندها حماقة تضادّ ماعرفت من تعقل النحل ، وذكر من ذلك أنها تخزن من الحبّ مايزيد عن حاجتها فإذا جاء المطر نبت ذلك الحبّ فيعلم به الفلاح فيهدم القرية الخ ، ثم قال هل النمل أقل ذكاء من النحل ؟ لاشىء مما نعرفه عنه يثبت ذلك وربما كنا قاصرين عن فهم حاله لأن درس القرية أصعب من درس الفقير وأصعب منها درس الأرضة .

ولا يخفى مافى هذا الدرس من الأهمية لأنه متى عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء ( وبالعقل العام ) سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التى تختفى فيها أسرار الحياة والموت ، انتهى .

وهو قد وضح فى موضع آخر من الكتاب أن الحشرات فى تقلبها وتصرفها ونظامها بحكمة وانتظام الجنود والعمال والملاك والملكة مع كثرة الأعداد بما لاحصر له لاسيما فى حشرة الأرضة المتقدمة لايمكن ذلك إلا إذا كانت تلك الجموع أشبه بأعضاء الجسم واحد ، كما أن أعضاءنا كلها متحدة معا مرتبطة غاية الأمر أن جسمنا مندمج وجسم تلك الحشرات منتفش متفرق فى الهواء النقى ، هذا ماقاله الأول .

وجاء فى الثانى فى المجلد الأول منه صفحة ١٨١ ماترجمته : إن فى أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الإحساس عجائب وغرائب مدهشات ولكن لما كنا معتادين عليها أصبحت لاتستلفت النظر ولا تدهش العقل ، فإن المألوف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه ، وإنما الذى يلفتنا لغرابة هذه الأعمال فى أجسامنا والإحساس فى إدراكنا إنما هى المواهب العلمية الخاصة فهى التى تدفع ما أسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا وإحساسنا من الأستار وتوحى إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق الملاحظات والتفكير فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم .

ثم قال : إن دراسة العوالم التى تحيط بنا أسهل تناولا من دراسة أنفسنا ، إن دراسة أنفسنا جسما وعقلا قد عجزت عن إيقافنا على بعض من عويصات المسائل المادية والعقلية ، أما دراسة العوالم المحيطة بنا فهى نبراس لدراسة أنفسنا الخ .

فهذان النصان المتطابقان يرجعان لغرض واحد وهو أن دراسة هذه العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة أنفسنا ، فإذا درسنا النبات والحيوان وفهمنا قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ودرسنا نظير ذلك فى أول السورة وقرأنا علوم الأمم فى هذا المقام فإننا نكون إذ ذاك قد فهمنا لماذا قدم الله العوالم

الأرضية على النفسية فى قوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » أفلا تعجب من أن يكون علماء أوروبا يقولون هذا القول وهو نفس القرآن .

يقدّم الله النظر فى الأرض على النظر فى النفس ويقول علماء أوروبا نفس هذا القول ، يقولون إن درس الحشرات يعلمنا علم وظائف الأعضاء ويقولون إن دراسة العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة جسمنا ، الله أكبر جلّ العلم وجلت الحكمة وأشرقت الأرض بنور ربها .

لطيفـــة

ها أنت إذا رأيت حشرة الأرضة وأنها تعيش فى الظلام ، أليست هذه الظاهرة من العجائب التى تقرب لنا حال الأرواح الشريرة فى الآخرة .

هذه الأرضة تعيش فى الظلام لا ترى النور وهى محبوسة عاملة ناصبة ، وإذا قايسناها بالطيور كانت الآخرة أشبه بمن فى الجنة والأولى أشبه بمن فى النار .

انظر إلى هذه الدنيا كيف كان الفرق بين حال حشرة الأرضة وحال النحلة أو الطيور كالفرق بين الحياة والموت ، فإذا كان هذا الاختلاف فى أرض واحدة صغيرة فكيف يكون الاختلاف فى عالم الآخرة بين عوالم كثيرة اهـ .

فائدة هذه للباحث فى آياتنا وهو قوله تعالى « إنى توكلت الخ »

اعلم أن ماتقدم به نعرف نظام هذه الآية ، فهو يقول « توكلت على الله » والبرهان على أنه جدير بتوكلى أنى رأيته آخذ بنواصى الدواب جميعها ، فهو يحفظها ويغذيها ويرحمها كما رأيت فى هذا المقام وإنما استدللت بالدواب لأنى ألحظها وعسير علىّ أن ألحظ نفسى ، ففهم رحمة الله فى الحيوان أسهل من فهمها فى الإنسان ، كما أن دراسة نظام الحيوان وغيره حولنا أسهل من دراسة أنفسنا .

هذا هو السبب فى استدلال هود بالأخذ بنواصى الدواب ، فانظر وتعجب كيف يقول فلاسفة أوروبا قولا هو الذى فهمناه من نظام الآية وهذا من عجائب القرآن .

وحدة هذا الوجود

إن نظام الأرضة المذكورة ونظام النمل والنحل ونظام الإنسان بعد أن درسناه وشرحناه كثيرا منه فى هذا الكتاب أفادنا أن كل هذه العوالم مشتبكة مرتبطة يخدم الإنسان الحيوان والحيوان الإنسان ، والأرضة مثلا نراها تصدر آلاف الآلاف كل سنة فتأكلها الكلاب والطيور والحرر والإنسان كما تقدم ، فهذه الأرضة تهضم فتات الخشب الجاف من الورق فينقلب إلى أجسامها ثم أجسامها طعام لنحو العصافير ثم العصافير طعام الخطاف والإنسان وهكذا

فهذا يدلنا أن هذا الوجود كله مدبر بعقل واحد كما ذكرناه فى غير هذا المقام إذ يظهر أن الله الذى خلق هذه المادة خلق لها أمرا آخر يسميه الفلاسفة عقلا ، وهذا العقل من نور الله وأشعة هذا العقل ، وهذا العقل مثل شمس معنوية تصير فى كل شىء بحسبه ، فهى فى الجماد تلاصق وجاذبية ، وفى المعدن صلابة ولمعان وقوة خاصة ، وفى الهواء لطافة ، وفى الماء سلاسة ، وفى النبات نموّ وذبول الخ ، وفى الحيوان حسّ وحركة ، وفى الإنسان ازدياد الفكر والعقل ، وفى السكون سير منظم وحركة دائمة ، فلعل هذه الأشعة العقلية العامة أشبه بما نرى فى أجسامنا إذ أنا نرى الرجل الشهوى يقلّ عقله ، والعفيف الذى حفظ شهوته قد يحفظ عقله وهكذا نجد من أنهك قواه فى عمل ماظهر أثر ذلك فى تفكيره ، فكأن فى الجسم قوة واحدة إذا مالت

الى

إلى جهة حرمت الأخرى منها فهى فى السمع قوة لقبول الأصوات ، وفى البصر قوة لقبول الصور وهكذا . ويجد الناس أن العمى أذكى من المبصرين ، فكأن قوة البصر تأخذ من القوة العاقلة نصيبا فتضعفها ، إذن هذا العالم فيه شعاع عقلى عام يتشكل فى كل شىء بحسبه ، ولعل لذلك الإشارة بقوله تعالى « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وإلا فلماذا نرى هذا التعاون مع شدة التفاوت ، وماهذه المبانى التى تبنيها حشرة (الأرضة) المقدمة التى قد تمتد أميالا وترتفع أمتارا وتصبح فيها مراع خصبة للحيوان أخصب من غيرها ، ولماذا ينبت المرجان فى البحار جزائر وجزائر يسكنها الحيوان وينبت فيها النبات ثم يسكنها الإنسان ، برّ وبحر كلاهما تكون فيه دابة حقيرة تبنى مساكن لنفع الحيوان والإنسان وهكذا مما لايتناهى ، ولعل لهذا الإشارة بقوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أى منوّرهما ، فها هو ذا أظهر لنا أن نور الإدراك والنظام سار فى عوالمنا المتجاذبة المتعاونة المتحدة ، فإننا نرى الجسم الأكبر كالشمس يجذب الأصغر كالأرض والأرض تجذب ماحولها وتجذب قمرها ، هكذا نجد العقل الأعلى يجذب العقل الأدنى فكأن أمثال الأنبياء شموس وكأن عظماء أممهم كالسيارات وهكذا ، ونجد المدرسين يتبعهم تلاميذهم والرجل الصالح يلتفّ حوله ألوف من الناس ، فدلنا هذا على أن نظام الأرواح كنظام الأجسام الكبير فى الأرواح من حيث الكمال تتبعه الضعفاء الصغار فى ذلك الكمال ، والكبير فى الأجسام حجما تتبعه الصغار حجما أيضا . فالكبر والصغر فى كلّ بحسبه حسا ومعنى .

## فصـــل

(١) الوحدة فى العالم اقتضت أن يغذى بعضه بعضا .

(٢) وفى ذلك تلطف وحسن سياسة .

(٣) وفساد شىء صلاح آخر .

(٤) والإماتة شريعة كشريعة الحياة ، وذلك لتخلو الأرض للباقين بعد الهالكين .

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الفضلاء قال لو أنك أغفلت هذا الباب لكان أولى ، فلقد أثرت ثائرة فى نفسى وأخذت أقول : أليس من الظلم أن يتربى الأفواج من حشرة الأرضة لتكون طعاما للهرّة والكلبة ؟ أولم يكن من الغشّ والخداع أننا نراها تخرج من قراها مسرعة لتفرح بالحياة الزوجية إذا الموت حاضر لديها ، وهل من الصدق أن تخدع الحشرة المسكينة بقطرة من العسل عند النبات الجزار المتقدم وباللون الجميل ، إن الذى يقرأ هذه العلوم يغمره الشك ويغشاه الكفر وكراهة هذا الوجود .

فقلت أما كون الأرضة طعاما للكلبة والهرة فهذا هو نظام هذا العالم الذى نعيش فيه ، وأنا وأنت نفتخر بأن نكون طعاما لحيوان فكيف تنكر ماتستحسن وتظهر الكراهة لما أنت محبّ له وتقع فى هاوية المتناقضين ، فقال هذا لا أعقله وما بى من جهالة ، فقلت ألم تر إلى أهل الأرض قاطبة أليسوا جميعا يفتخرون بأنهم يقدمون أنفسهم للقتل وهم يجاهدون فى سبيل حفظ الشرف أو المال أو الوطن أو الدين ، ومن ذا الذى يضنّ بنفسه على حفظ عرضه وشرفه ؟ ومن ذا الذى يرى زوجه أو أخته قد أهين شرفها أو مست بسوء ثم لايهجم على من فعل ذلك ولا يقاتله ؟ وإذا خرّ صريعا هو عد ذلك فخراً له ولأعقابه إلى حين .

إن أهل الشرق والغرب يحارب بعضهم بعضا على الوطن ، وعلى الدين ، وعلى المال ، وعلى العرض وهم جميعا متفقون أن هذا شرف وفخر للقاتلين ، وهكذا أكثر الديانات .

ومن عجب أن النصارى دينهم ينهاهم عن قتال عدوهم ولكن الفطرة غالبة ، فهم الآن أول المقاتلين للأمم

يعدون ذلك فخرا سواء أكان ذلك أخذا للثأر أم ظلما لاجتياح الديار ولأخذ الدرهم والدينار ، فقال إن الأرضة المذكورة قد أكلها الكلب أو الهرة أو الإنسان، وفرق بين القتل وابتلاع الحيوان، فقلت إننا معاشر بنى آدم نقتتل فى السفن الحربية وتقع فريسة للسمك ونحن جميعا نعلم ذلك ونفتخر به ، وهكذا نقاتل فى الطيارات فنهلك فتتخطفنا الطير ويحل بنا الهلاك ، فقال نحن نحارب لشرفنا مثلا ونموت ، ولكن لماذا تكون هذه الخدعة فى الحيوان ؟ فهذه الحشرات الجاريات للهلاك بذبح النبات الجزار وأنواع الأرضة التى خرجت للعرس فصارت فريسة ، كل هذه مخدوعات ، وأين الصدق إذن ؟ فقلت له ونحن أيضا مخدوعون ولسنا بمعترضين على الخداع بل نعده شرفا ؟ فإن أحدنا يأكل لصحة بدنه فيكون ذلك البدن طعاما للدود، ويحارب العدو ليغيظه فيكون طعاما للسمك أو العقبان ، فهو فى الأول قصد حياته ، وفى الثانى إنقاذ شرفه لا أنه يكون طعمة للسمك ، وتبنى الدور وتزرع النخل ويتمتع بذلك غيرنا بل أعداؤنا ، فقال وكيف يصح هذا الخداع ؟ قلت ليس خداعا بل تلطف وحسن سياسة ، يعيش الحى مطمئنا ولا قلق لديه ولا اضطراب وقد تقدم فى سورة الأنفال : تكثير القليل وتقليل الكثير للسياسة وإصلاح الحال ، فقال ولكن هذا لايشفينى ! ولماذا يكون الإنسان فداء لغيره وهكذا الحيوان ؟ فقلت للوحدة العامة ، فالعالم كله كأنه شخص واحد والبعض يخدم البعض «ولكن أكثر الناس لايعلمون» وإذن تكون هذه الدنيا ليست للحياة وحدها فالحياة بنظام والموت بنظام ، وموت الحى لتخلو الأرض للباقين ولولا الموت ماكانت الحياة ، فإذا أكل الدود لحم الإنسان وأكل الأسد لحم الغزلان وأكلنا نحن لحم الخرفان فإن ذلك لتنظف أرضنا به وتخلو لمن بعدنا ليكثر الإحياء بفضل هلاك الأموات ، فالموت مقصود والحياة مقصودة «كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» .

موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرهما فى الإنسان

يموت الجراد بأكل الطيور والإنسان له فيحصل فائدتان : خلوّ الأرض منه لما يخلفه، وانتفاع الأحياء بجسمه لأنه لامعطل فى الوجود ، أما التقاء الجيوش الإنسانية برا أو بحرا فهناك فوائدها :

(١) تعليم الصبر والشجاعة .

(٢) والصناعات الحربية كالطيارات والسفن العائمة والغاطسة فى الماء .

(٣) وإحراز الشرف للأحياء .

(٤) والعطف من الشعب على الأموات فى القتال وهذان فى الأمم الغالبة .

(٥و٦) ومثل هذين فى الأمم المغلوبة .

(٧و٨) وظهور الاتحاد فى كليهما .

(٩) وأن تكون الجثث فى البحر وفى البرّ طعاما للسمك والطيور التى خلقها الله .

هذا فى القتال ، أما فى حال الطاعون وأكثر الأمراض فإن الاقتصاد فى طبيعة الوجود قضى أن ترسل جماعات من الحيوانات الذرّية لها نظام خاص فى الجسم فتأكل اللحم وتشرب الدم ، لأنه ليس من الحكمة أن يبنى الحى جسمه بالأغذية الجيدة فإذا مات لم تكن له فائدة ، كلا ! بل يرسل تلك الآلاف المؤلفة فتكون طاعونا أو جدريا أو حمى تيفوسية أو تيفودا أو سرطانا أو ما أشبه ذلك فتتناسل وتتكاثر وتربى فى الأجسام كما تربت الأجسام فى الأرض ثم يكون الموت فتتولى تلك الرمم حيوانات أخرى أولها الدود ويعقبه غيره كالخنافس ونحوها وهكذا ، ذلك لئلا يكون فى الوجود معطل ، إن هذا الوجود مبنى على الاقتصاد .

ألا ترى أن اللسان يمضغ الطعام ويذوقه ويدبر نظام الكلام ، فهذه ثلاث فوائد فى عضو واحد ظاهرة للناس ، فصانع هذا العالم عظيم الإحكام والنظام متقن حكيم ، كل ذلك من قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فها هو ذا قد أخذ بناصية الأحياء إذا صحت أجسامهم ، وأخذ بناصية الحيوانات الذرية العائشة فى الأجسام التى يراد إهلاكها وهكذا ، فلما سمع صاحبى ذلك قال إذن الحرب أمر حتم لرقىّ الإنسان لأنك أتيت فيه بمجمل الفوائد التى تبلغ نحو العشر ، مع أنك تقول : إن السلام أمر لابد منه فى نوع الإنسان .

وأيضا ترى البوذية يحرقون موتاهم ، فأين فائدة أجسامهم التى لم يأكلها دود ولا غيره ؟ فقلت : أما الجواب على السؤال الثانى فهو أن هؤلاء تتفرق عناصر أجسامهم فى الهواء والأرض فينتفع بها فى الوجود فقال وهل هذه شريعة إسلامية ؟ فقلت كلا ! ولكن نحن الآن فى تبيان الحقائق التى نزل لها القرآن ولكن متى جاء ذكر الشرائع بينا تحريم ذلك ؟ فالحقائق مطلوبات والشرائع مصونات .

وإذا كنا نجد مسألة الولادة ليست على وتيرة واحدة ، إذ ترى الإنسان مثلا قد عمت الولادة فيه جميع الأسرات فى العالم ولكنها فى النحل وفى الأرضة مثلا قد اختصت بها الملكة ، فأما البقية فقد توافروا على خدمة المجموع وبذل كل مالديهن من قوة الجمهورية .

الإنسان لايعرف اختصاص أحد بالولادة وإنتاج الذرية ولكن النحل عرف ذلك ، هكذا أمر الحياة فما من امرئ إلا وهو موقن أنه لابدّ لكل حى من رأس أو جلد أو أعضاء ودم ، فكذب هذا تلك الحيوانات الدنيئة التى لارءوس لها والتى لاجلد لها كالحيوانات الهلامية والحشرات إذ لاجلد لها ولا عظم ولا دم وإنما هى لها قشور حلقية داخلها سائل أبيض لاعظم فيه ولا دم ، وترى أمثال ذلك فى الرزق فأكثر الحيوان يسعى إليه على مقتضى احتياجه ، وترى النبات الجزار المتقدم تسعى إليه الحشرات ليأكلها بجاذب يجذبها من تلك النباتات التى تأكل اللحوم ، فقال صاحبى لقد أحسنت كل الإحسان وأتيت بعلم جم لم يكن فى الحسبان ، ولكن أسألك سؤالا واحدا وهو أنك تقول إن الأرضة تأكل ماخرج منها فأين هذا ؟ قلت ستراه إن شاء الله عند الكلام عليها فى سورة سبأ ، فأما إذا كان هذا غريبا عندك فلتعلم أنها فى ذلك كالإنسان لأننا نأكل فضلاتنا وفضلات الحيوان بواسطة إذ نحن نسمد بها أرضنا فتنقلب تلك الفضلات فى زرعنا حبا وعنبا وتفاحا وغيرها وترجع إلينا ، فنحن والأرضة سيان ولكن هى أكلت فضلاتها مباشرة ونحن أكلناها بعد أن دخلت فى معامل النبات فرجعت إلينا ، فقال صاحبى : لله درّ العلم يقرّب البعيد ويجمع المتفرّقات « وقل رب زدنى علما » والحمد لله رب العالمين .

ثم قلت : أما مسألة الحرب وأنها ترقى الإنسانية وأنى ذكرت أن السلام أمر لابد منه ، فلتعلم أننا الآن نصف ما وجدناه ونبين حكمة الله فيه كما بينا فوائد اللسان الظاهرة الثلاث فليس معنى هذا أننا إذا متنا لا يكون هناك حكم فى حال الروح ، كلا بل الحكمة هناك أجمل وأعلى ولكننا لانعقلها الآن ، وإذا وجدنا مملكة ( الأرضة ) المتقدمة وكان لأفرادها عقل وسألناهن لذكرت لنا فوائد البراز الذى يكون لأفرادهن أشهى طعام ثم هو ملاط لبنائها وسدّ لثغورها مع الرمل وطعام لصغارها ، ويقوم مقام الأسفلت فى تحسين طرقها وهكذا من الفوائد ، أقول فليس معنى هذا أنه ليس هناك نظام فى الوجود أحسن من هذا ؟ كلا ! هكذا هنا فإن الأمم إذا غيرت أخلاقها وبطلت الحرب حصلت هناك حال جديدة أرقى وأرقى فى نظام المدن والأخلاق مثال ذلك فى الثانى أن تبدل عاطفة الانتقام من الأعداء الذى يورث الفضائل المتقدمة بفضائل

العطف مثلا على الضعفاء فيتحدر رجال أمة على ترقية وتحسين أمة جاهلة ويكونون بالنسبة لهم كالآباء والأمهات بالنسبة لصغارهم ، وهناك تكون فضائل لاتعد كالفضائل التى تكون للأبوين بالنسبة لأبنائهما كالعطف والحنان وبذل النفس والمعاونة بالنفس وإنكار الذات والصبر على هذه المشاق والاتحاد بين هؤلاء المحسنين وحبّ المحسن إليهم لمحسنين واتحاد الأمتين وتبادل المنافع ثم مقابلة الإحسان بالإحسان ونمو الأخلاق ، وهكذا مما لاحصر له فليس هذا الوجود له حد فى تصرفاته وقابلياته .

عجائب القرآن وعجائب الطبيعة التى نزل لفهمها القرآن

فهنا أذكر عجيبتين :

[ العجيبة الأولى ] أن القرآن تراه يدخل فى غضون الكلام ماهو حكمة بحيث يكون كزهرة فى شجرة ويكون هو أهمّ المقصود من الكلام وهذه الطريقة بعينها هى التى درجت عليها الأمم فى فكاهاتها ورواياتها المؤلفة لاستيقاظ الشعوب ، فانظر إلى قوله تعالى « إذا الشمس كوّرت . وإذا النجوم انكدرت الخ » فإنه ذكر الشمس والنجم والجبل والإبل والوحش والبحر والنفس والصحف والسماء والجحيم والجنة .

هذه ذكرها الله على هذا الترتيب ولكن أدخل فى غضونها كلة واحدة حفظت نصف النوع الإنسانى من الهلاك وهى « وإذا الموءودة سئلت ، بأىّ ذنب قتلت » هذه هى الجملة التى أدخلها الله فى وسط تلك العوالم المذكورة من أرضية وسماوية فما نطق بها حتى امتنع العرب عن قتل البنات بدفنهن الذى يسمى (وأدا) فانظر التعليم والتربية ، يذكر المخلوقات والمعارف العامة ويدخل فى وسطها جملة قضت على قتل النساء ، هكذا فعل فى قصة هود وقومه هنا أدخل فى غضونها الأخذ بنواصى الدواب ، أفلا يكون هذا دافعا للمسلمين إلى دراسة علوم الحيوان بعد هذا البيان كما دفع آباءنا إلى حفظ البنات وعدم قتلهن بالوأد بجملة واحدة .

هذه هى سياسة القرآن ، هاهو ذا أتى بقصة عاد يسمعها العاقل فيرى ما الذى سيقت له فيرى أجله علم الحيوان ، اللهم أنت النور الهادى فاهد المسلمين إلى الرقى إنك أنت السميع المجيب .

[ العجيبة الثانية ] المادة والكلام ، زيادة إيضاح

انظر إلى ماتقدم من تنوّع الحيوان والنبات والإبداع وتأمل أحوال اللغات الشرقية والغربية ، ها أنت ذا رأيت المادة كيف تنوّعت تنوعا يقلبها فى سائر وجوهها كما وضحناه ، تقلبت المادة على وجوه تظهر كل ما كمن فيها ، فاعلم يقينا أن الله عز وجل علم أن أكثر الناس لايدركون سرّ المادة التى يعيشون منها ، لذلك ألهمهم اللغات فنطقوا بها وتصرّفوا فيها تصرفا هو عين التصرف فى المادة .

إن المادة كما تكون هواء وماء وسماء وأرضا وصلبا ونحاسا وجواهر وحيوانا مختلفا أنواعه الخ ، هكذا اللغات المعبرات عن ذلك كله يتصرّف فيها الإنسان، وهى التى تعبر عن كل ماصوّرته المادة ولا يدرك تصريفها حق إدراكه إلا علماء الصرف والنحو والمعانى والبديع أولئك الذين يركبون الجمل المختلفة ويشتقون من المصادر أفعالا وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات المشبهات وأسماء التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء المكان وهكذا تصريف المفردات ، فهكذا تصريف الجمل من اسمية وفعلية وشرطية وحالية وماضوية ومضارعية ومؤكدة وغير مؤكدة وهكذا مما لاحصر له .

تبارك الله خلق المادة وخلق اللغات وجعلهما فى التصريف كفرسى رهان وذلك لحكمة الحكيم ، ذلك ليعلم الصغار فى أول أمرهم أن اللغة لاتقف عند حد لأنهم إذ ذاك لايقدرون أن يعقلوا تصرف المادة .

ولا جرم أن هذا يعدّ أذهانهم إلى إدراك تصريف المادة إذا كبروا . خلق الله علوم الصرف والنحو وغيرها لصغار العقول وصغار العلماء فى الأمم لتفتح أذهانهم لمعرفة جمال صنعه وباهر إبداعه وبالغ حكمته

فى تصرف هذه الكائنات ، وهل ترى أبدع وأجمل وأشرف وأبهى وأبهر مما رأيت فى هذا المقام من جعل النبات المأكول للحيوان آكلا له ؟

أوليس هذا بعينه هو مايفعله علماء النحو إذ يجعلون المفعول فاعلا والفاعل مفعولا تدريبا للتلاميذ ، يقول الأستاذ للتلميذ : اجعل المفعول فاعلا فى هذه الجملة مع التصرف فيها وهى ( يضر الإنسانَ الخمر والمخدر والشاى والقهوة ودخان التبغ ) فيقول التلميذ هكذا : [ متى عقل الإنسان ترك الخمر والمخدر الخ ] .

فها هو ذا التلميذ أتى بالجملة مع حفظ المعنى وجعل المفعول فاعلا ، وهكذا فعل الله فى المادة فجعل المأكول وهو النبات آكلا للحيوان مع حفظ النظام ، جل الله وجل العلم فبهذا فليفرح قراء هذا التفسير وليكونوا نورا وهدى للعالمين ، وأنا بذلك من الموقنين .

وحدة الوجود والإنسان عالم صغير

لعمرى لايعرف الناس معنى وحدة الوجود ولا أن الإنسان عالم صغير إلا بالتبحر فى مثل ماذكرناه لك فيما تقدم .

شمس هذا العقد الثمين

إن النحل والأرضة والنمل كلها تتقرب من ملكاتها وترها أعمالها وترجع إليها ، وهكذا جمهور نوع الإنسان يفعل مع رؤسائه ولكن هناك فى الإنسان طائفة هم فوق الجميع يعملون وينصبون وتكون لهم خلوات مع ربهم فى قلوبهم يعرضون عليه أعمالهم فى بهجة الأنوار وبهاء الأسرار انتهى الكلام على قصة عاد ، فلنشرع فى الكلام على قصة ثمود بتفسيرها اللفظى .

قال تعالى ( وإلى ثمود ) أى وأرسلنا إلى ثمود ، وهم سكان الحجر ( أخاهم صالحا ) يعنى فى النسب لا فى الدين ( قال ياقوم اعبدوا الله ) أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة ( مالكم من إله غيره ) فهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ؛ ثم ذكر الدلائل العقلية على وحدانيته وكمال قدرته فقال ( هو أنشأكم من الأرض ) هو كونكم منها لاغيره فإنه خلق آدم وحواء وهو الذى خلق النطف والأغذية منها تتكون الأجسام وكلها من التراب ( واستعمركم فيها ) أى عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها ( فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب ) قريب الرحمة ( مجيب ) لداعيه ( قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا ) لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فكنا نأمل أن تكون مستشارا أو سيدا عظيما ولكن هذا القول أيأسنا منك وانقطع رجاؤنا فيك إذ ذممت آلهتنا وخالفت ديننا ( أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ) ومن ذا يخالف مادرج عليه الآباء ( وإننا لفى شك مما تدعونا إليه ) من التوحيد ( مريب ) موقع فى الريبة ، من أرابه ( قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ) بيان وبصيرة وأتى بإن وهى للشك باعتبار المخاطبين ( وآتانى منه رحمة ) نبوة ( فمن ينصرنى من الله ) فمن يمنعنى من عذابه ( إن عصيته ) فى تبليغ رسالته ومنع الناس من الشرك به ( فما تزيدوننى غير تخسير ) فأنتم باستتباعكم إياى لاتزيدوننى غير أن تخسرونى بإبطال مامنحنى الله والتعرض لعذابه ( وياقوم هذه ناقة الله لكم ) حال كونها ( آية ) وعاملها معنى الإشارة ولكم حال من آية مقدمة ( فذروها تأكل فى أرض الله ) ترع نباتها وتشرب ماءها ( ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ) عاجل لايتوانى عن مسكم لها بالسوء إلايسيرا وهو ثلاثة أيام ( فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ) عيشوا فى منازلكم أو فى داركم الدنيا ( ثلاثة أيام ) ثم تهلكوا ( ذلك وعد غير مكذوب ) أى غير مكذوب فيه ( فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ) أى ونجيناهم من ذل يومئذ وفضيحته ، وأى خزى

أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه (إن ربك هو القوىّ) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب بإهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة أتتهم من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) أى كأن لم يقيموا فى تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر ، يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به (ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) أى الحى .

واعلم أن هذه القصة جاءت فى سورة الأعراف بأحسن تفسير على ما أعلم فارجع إليه ان شئت .

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) بشرى الملائكة المختلف فى عددهم ، فقيل ثلاثة ، وقيل أكثر بإسحق ويعقوب وبإهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أى وعليكم سلام والجملة الاسمية فى الرد أبلغ من الفعلية فى الابتداء فافهم (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ فى المجىء به ، والحنيذ المشوىّ بالحجارة المحماة (فلما رأى أيديهم) أى أيدى الأضياف (لاتصل إليه) أى العجل المشوىّ (نكرهم) أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم عن الطعام (وأوجس منهم خيفة) ووقع فى قلبه خوف منهم ، والإيجاس الإضمار ، وقيل الإدراك (قالوا) له لما أحسوا منه أثر الخوف (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) إنا ملائكة مرسلون إليهم بالعذاب ، فأما كوننا لم نمدّ للطعام أيدينا فذلك أننا معاشر الملائكة لانأكل (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم ، أو على رأسهم للخدمة (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) وإنما خصت بالبشارة لأنه أولا لم يكن لها ولد، ولإبراهيم ابنه إسماعيل ، ومعلوم أن النساء أعظم سرورا بالأولاد : أى فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحق ، وعلى قراءة رفع يعقوب يكون مبتدأ والجار والمجرور قبله خبره (قالت ياويلتا) أصله ياويلتاه نداء الندبة ، وهى كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجباه (أألد وأنا عجوز) يقال إنها كانت بنت تسعين سنة (وهذا بعلى) يعنى زوجى (شيخا) وكان سنّ إبراهيم مائة وعشرين سنة يومئذ كما قيل (إن هذا لشىء عجيب) يعنى الولد من هرمين وهذا تعجب بحسب العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) قالوا ذلك منكرين عليها فإن خوارق العادات عند أهل بيت النبوة ليست ببدع فمثلهم لايستغربونه ، كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وأهل البيت نصب على الاختصاص (إنه حميد مجيد) أى محمود لإنعامه المظهر ظاهر الكرم إذ أكرمكم بولد صالح (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس فى نفسه من الخوف حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) بالولد أقبل (يجادلنا فى قوم لوط) أى لما اطمأنّ قلبه بعد الخوف وامتلأ حبورا بالبشرى أقبل يجادلنا : أى يجادل رسلنا ، وصورة مجادلته إياهم أنهم قالوا له «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها ؟ قالوا لا ! قال فأربعون ، قالوا لا ! قال فثلاثون ، قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا ، قال أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا لا ! فعند ذلك «قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله» (إن إبراهيم لحليم) غير عجول فى الانتقام ممن أساء إليه (أوّاه) كثير التأوّه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع إلى الله ، والمقصود من ذلك أن الحامل له على المجادلة إنما هى رقة قلبه وحلمه ورحمته وحبه للناس ، قالت الملائكة (يا إبراهيم أعرض عن هذا) الجدال (إنه قد جاء أمر ربك) قضاؤه بعذابهم من الله وهو أعلم بحالهم (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) غير مصروف بجدال ولا بدعاء ، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط ، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط

أربعة فراسخ ( ولما جاءت رسلنا لوطا ) لما أتوه ورأى جمالهم وهم كانوا على هيئة غلمان حسان ( سىء بهم ) أحزن لأنه ظن أنهم من الناس فخاف عليهم أن يفحش بهم قومه مع عجزه عن مقاومتهم ( وضاق بهم ذرعا ) تمييز : أى وضاق بمكانهم صدره وذلك كناية عن شدة الانقباض لعجزه عن مدافعة المكروه لتوقع حصوله لهم من قومه بفعل الفاحشة ( وقال هذا يوم عصيب ) شديد ، من عصبه إذا شده ، ويقال إن امرأته أخبرت بهم قومها ( وجاءه قومه يهرعون إليه ) يسرعون كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه (ومن قبل) ومن قبل ذلك الوقت ( كانوا يعملون السيئات ) كانوا يعملون الفاحشة حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها حتى جاءوا وهم مجاهرون بها يهرعون إليها ( قال ياقوم هؤلاء بناتى ) أى هؤلاء نساؤكم اللاتى هن بناتى ، فان كل نبى أبو أمته من حيث الشفقة والتربية . وفى قراءة ابن مسعود « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » أو هؤلاء بنات قومى ( هن أطهر لكم ) أنظف فعلا ( فاتقوا الله ) بترك الفواحش (ولا تخزون) ولا تهينون ولا تفضحون من الخزى ( فى ضيفى ) فى حق ضيوفى لأن من خزى ضيفه أو جاره فقد خزى ، وذلك من دواعى المروءة والكرم ( أليس منكم رجل رشيد ) أى رجل واحد يهتدى إلى سبيل الرشاد فيكف عن فعل السوء ( قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ) حاجة لأننا نود الاقتراب من الذكور لا من الإناث (وإنك لتعلم ما نريد) وهو إتيان الذكور (قال لو أن لى بكم قوة ) أى لو أنى أقدر أن أتقوى عليكم (أو آوى إلى ركن شديد ) أى أو أنضم إلى عشيرة يمنعونى منكم ، وجوابه لقاتلتكم . قال أبو هريرة رضى الله عنه « ما بعث الله نبيا بعده إلا فى منعة من عشيرته » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبته » فالمراد بالركن الشديد هو الله كما قال محيى الدين النووى فى الحديث فانه أشد الأركان وأقواها . روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ماحل بلوط من الكرب (قالوا يالوط) ركنك شديد كما مر فى الحديث ( إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ) بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال تعالى « فطمسنا أعينهم » فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا به وهم يقولون النجاء النجاء ، إن فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض ، وقوله « لن يصلوا إليك » جملة موضحة لما قبلها ( فأسر بأهلك ) فسر بأهلك ، ويقال أدلج بهم ( بقطع من الليل ) فى بعض من الليل : أى آخر الليل عند السحر (ولا يلتفت منكم ) ولا يتخلف منكم ، أو لا يلتفت إلى ماوراءه ، أو لا يلتفت بقلبه إلى ماخلف ( أحد إلا امرأتك ) منصوب على الاستثناء أو مرفوع على البدل من أحد ، فكأنه قيل لايتخلف منكم أحد إلا امرأتك فانى لا أنهاها عن ذلك ( إنه مصيبها ما أصابهم ) أو لا يلتفت منكم إلى ماوراءه أحد الا امرأتك فانها ستلتفت فأنا لا أنهاها « إنه مصيبها الخ » والنهى لها لايفيد .

روى «أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلاهى ، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها» .

وروى أيضا « أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فان هواها إليهم فلم يسر بها » فأصبحت هاتان الروايتان محتملتين : فاما أن تكون بقيت ، وإما أن تكون خرجت والتفتت ، فإحدى الروايتين عليها المعنى ولا زال منهما .

هذا تحقيق المقام وإياك أن تظن أن مثل هذا التحقيق هو المقصود من القرآن ، بل المقصود هو ما فى القصة من الحكم ، فلنسر فى طريقنا ، ولتجد فى هذه السورة من الحكم والعجائب مايبهر الأبصار قريبا .

وروى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا ( إن موعدهم الصبح ) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا ( أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا ) عذابنا ( جعلنا عاليها سافلها ) قلبها جبريل فجعل أسفلها أعلاها إذ رفعها إلى السماء ثم قلبها عليهم ( وأمطرنا عليهم ) على المدن ( حجارة من سجيل ) من طين متحجر . وسجيل أصلها سنككل فعرّب ( منضود ) نعت لسجيل : أى متتابع ، أو مجموع معدّ للعذاب ( مسوّمة ) نعت لحجارة : أى معلمة للعذاب (عند ربك) فى خزائنه أو فى حكمه (وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هى من ظالمى هذه الأمة من مشركى مكة وغيرهم « ببعيد » فما من ظالم إلا وهو معرّض للعذاب المعبر عنه بسقوط حجر عليه .

روى «أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» (وإلى مدين) أى وأرسلنا إلى مدين (أخاهم شعيبا) ومدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام : أى وأرسلنا إلى أهل مدين . وقيل مدين اسم القبيلة التى هى من ذرّية مدين بن إبراهيم ( قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) وحدوا الله ولا تعبدوا معه غيره ، ولما شرح أمر العبادة شرع يذكرهم بما يفعلون من نقص الكيل والميزان فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير) بسعة تغنيكم عن البخس ، أو بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ماتفعلون (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ) مهلك كما فى قوله تعالى « وأحيط بثمره » وأصله من إحاطة العدو ، وهو إما عذاب الاستئصال فى الدنيا ، وإما عذاب الآخرة ( وياقوم أوفوا المكيال والميزان ) أتموها ( بالقسط ) بالعدل ، والنهى المتقدم لتقبيح البخس والتنفير منه ، والأمر هنا للترغيب فى الفعل الحسن وهو إيفاء الكيل والميزان فهناك للتنفير من الشرّ وهنا للترغيب فى الخير ، وبهما معا يعتدل الناس ويتم الوعظ فليكن القسط والعدل بلا نقص ولا زيادة فالازدياد وإن كان مندوبا قد يكون محرّما إذا كان كيلا أو وزنا ليتيم أو فى مال الحكومات أو كان البائع وكيلا ، فكل ذلك تكون الزيادة فيه حراما فوجب العدل ( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) أموالهم وغيرها سواء أكان بكيل أم بوزن أم بزرع أم بمساحة أم بتقدير فضل فى أعمال عامة كالنظر فى رجال الحكومة وتقدير قيمهم وأحوالهم وكفاءاتهم وما أشبه ذلك مما لايعدّه الحصر ( ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) العثى والعث : أشد الفساد كالسرقة والغارة وقطع السبيل ويشمل البخس والتطفيف ، فإنه عثى فى الأرض وإفساد فيها ، ومن العثى المكس (بقيت الله) أى ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ( خير لكم ) مما تجمعون بالتطفيف وبالبخس ( إن كنتم مؤمنين ) أى إن كنتم مصدقين لى فى قولى لكم ، ويصح أن تكون البقية الطاعة فيما ذكر وغيره لقوله تعالى « والباقيات الصالحات » (وما أنا عليكم بحفيظ ) أحفظكم عن القبائح وأحفظ نعم الله عليكم ، وما أنا إلا ناصح أمين وقد أعذرت حين أنذرت (قالوا ياشعيب أصلاتك) أى كثرة صلاتك ( تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ) من الأصنام ( أو أن نفعل ) أو ألا نفعل ( فى أموالنا مانشاء ) من البخس فى الكيل والوزن ( إنك لأنت الحليم الرشيد ) السفيه الضالّ ، وهذه تسمية مقلوبة استهزاء به كقوله « ذق إنك أنت العزيز الكريم » وهذا ردّ لما طلبه من عبادة الله وحده ومن العدل فى الكيل والميزان ( قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه ) من لدنه ( رزقا حسنا ) وهى النبوة والرسالة والمال الحلال بلا بخس ولا تطفيف ، يقول أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيليق بى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصى ، وهل بعث الأنبياء إلا لذلك ؟ ولست أمنعكم عن تطفيف الكيل وبخسه وعن بخس الناس أشياءهم وأنا أستبد بذلك ، كلا ! ( وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ) يقال خالفت زيدا إلى كذا إذا قصدته وهو مولّ عنه وخالفته عنه

إذا وليت عنه وهو قاصده ( إن أريد إلا الإصلاح ) ما أريد إلا أن أصلحكم بوعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر ( ما استطعت ) أى مدة استطاعتى للإصلاح وما دمت متمكنا منه ( وما توفيقى إلا بالله ) وما توفيقى لإصابة الحق فيما أفعل وما أترك إلا بمعونته ( عليه توكلت ) اعتمدت ( وإليه أنيب ) أرجع فى السراء والضراء ، ثم اعلم أن جرم مثل كسب يتعدى إلى مفعول وإلى مفعولين كما فى قوله تعالى ( وياقوم لايجرمنكم ) لايكسبنكم ( شقاقى ) خلاقى ( أن يصيبكم ) إصابة العذاب ( مثل ما أصاب قوم نوح ) من الغرق ( أو قوم هود) من الريح ( أو قوم صالح ) من الرجفة ، وأن وصلتها ثانى مفعولى جرم (وما قوم لوط منكم ببعيد ) فى الزمان ، فهم أقرب الهالكين منكم، وفى المكان فديارهم قريبة منكم ( واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ) عظيم الرحمة فاعل بهم من اللطف والإحسان مايفعل الكثير المودّة بمن يودّه ، وذلك وعد من الله أن يقبل التوبة بعد وعيده للمذنبين على إصرارهم على المعاصى ( قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول ) استهانة بها وعدم مبالاة ( وإنا لنراك فينا ضعيفا ) لاقوة لك ولا عزّ فيما بيننا ، فكيف تقدر على الامتناع منا ؟ (ولولا رهطك لرجمناك) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم ، وأىّ قتل شرّ من الرجم ؟ وكان رهطه على دينهم ، فلذلك أظهروا الميل إليهم ( وما أنت علينا بعزيز ) فعدم قتلك لم يكن لعزك علينا وإنما يعز علينا رهطك ( قال) فى جوابهم ( ياقوم أرهطى أعزّ عليكم من الله ) أى أهيب عندكم من الله حتى تركتم قتلى لعزة رهطى عندكم ؟ فكيف لم يكن حفظى لأجل الله لا لرهطى فكيف تركتم أمره ( واتخذتموه وراءكم ظهريا ) أى نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كأنه شىء ملق ( إن ربى بما تعملون محيط ) أى عالم بجميع أحوالكم لاتخفى عليه خافية منها فيجازيكم عليها ( وياقوم اعملوا على مكانتكم ) أى اعملوا قارّين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى وهى مصدر مكن مكانة فهو مكين إذا تمكن من الشىء ( إنى عامل ) على مقتضى مايأتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى ( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) من استفهامية علقت فعل العلم عن عمله : أى سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يفضحه وأينا هو كاذب ، وهذا هو قوله ( ومن هو كاذب ) عطف على « من يأتيه » أى سوف تعلمون من المعذب والكاذب منى ومنكم ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن هو صادق لينصرف الأول لهم والثانى له لكنهم لما جعلوه كاذبا قال «ومن هو كاذب» أى فى زعمهم ( وارتقبوا ) وانتظروا ما أقول لكم ( إنى معكم رقيب ) منتظر ، والرقيب الراقب ( ولما جاء أمرنا ) بعذابهم وهلاكهم ( نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ) يعنى بفضل منا لأنا هديناهم للإيمان وجعلناهم مطيعين ( وأخذت الذين ظلموا ) أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ( الصيحة ) إذ صاح جبريل عليه السلام بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا ، أو أتتهم صيحة واحدة من السماء ( فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ) أى ميتين ، يقال جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض فهو هنا استعارة ( كأن لم يغنوا فيها ) يعنى كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر ، من غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره ( ألا بعدا لمدين ) البعد والبعد : الهلاك كالرشد والرشد ( كما بعدت ثمود) قوم صالح ، وكان عذاب قوم شعيب بالصيحة من فوق رءوسهم وعذاب قوم صالح بالصيحة من تحت أرجلهم إذ أصابهم حر شديد .

قال ابن عباس « لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح ، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم » ( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ) بحججنا والبراهين التى أعطيناه الدالة على صدق نبوته (وسلطان مبين) ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه ( إلى فرعون وملئه) أى أتباعه وأشراف قومه ( فاتبعوا أمر فرعون ) أى ماهو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاء به موسى ( وما أمر فرعون برشيد ) أى وما طريق فرعون بسديد ولا محمود العاقبة ( يقدم قومه ) يتقدم

ويقود قومه ( يوم القيامة ) إلى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال ، يقال قدم بمعنى تقدم ( فأوردهم النار ) جعل بصيغة الماضى كقوله تعالى « أتى أمر الله » وجعل النار بمنزلة الماء فسمى إتيانها «ورودا» ثم قال ( وبئس الورد ) المورد ( المورود ) الذى وردوه فجعل فرعون كالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال «بئس الورد المورود» الذى يردونه النار وكيف لايكون كذلك، والورد إنما يراد لتسكين العطش، والنار بضد ذلك ( وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ) أى يلعنون فى الدنيا ويلعنون فى الآخرة ( بئس الرفد المرفود ) رفدهم : أى بئس العون المعان ، أو بئس العطاء المعطى ، انتهى التفسير اللفظى ،

ياقوتة مضيئة فى قوله تعالى « إن ربى رحيم ودود » على لسان شعيب عليه السلام

اعلم أن المودة إنما تكون غالبا بين اثنين لهما علاقة واتصال وتجانس وتشابه فى الطباع والعادات والأخلاق ، ولذلك ترى المتشاركين فى صناعة أو علم أو لغة أو وطن أو دين أو جنس أو أمر ما فإنهما يتوادّان ويتحابان وذلك لاقتراب الصفات ، وكلما تباعدت الصفات تباعد الودّ ، ولذلك نجد الأمم اليوم فى عصرنا رجعت إلى الجنسية ؛ فالألمان والفرنسيون واليابانيون والصينيون كل يقترب من جنسه بعد أن كانوا قديما يتوادّون بالديانات ، وهذا كله قديما وحديثا دال على أن المودّة تابعة لتقارب الصفات .

هذا هو المعلوم فى الأمم قديما وحديثا ولكن الله تعالى إذا وصف نفسه بأنه رحيم فإنا نفهم ذلك على معنى أنه مفيض الإحسان وهذا أمر مفهوم فإنا نرى الملك والأب والأم وأمثالهم يفيضون الإحسان على الرعية والولد وهكذا ، فالأعلى يرحم الأدنى ولا غرابة فى ذلك ، فالله رحيم ، أما الودّ فأمره مشكل إذ المودة إنما تكون بين المتجانسين ، وقال فى سورة مريم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » فذكر الرحمة هناك كما ذكرها هنا وأتبعها بالودّ ، ولكن الودّ هناك مفهوم لأنه بين متجانسين فى الدين إذ الإنسان كلما عمل الصالحات اقترب من أهل دينه المتجانس ، أما الودّ هنا فهو الذى يحتاج إلى بيان .

أقول : إن هذا يحتاج لدرس العلوم جميعها من فلك وطبيعة وطبقات أرضية وعلم الحيوان والنبات والتشريح ، هذه هى العلوم التى تعرّفنا معنى الودّ فى هذا المقام .

إن هذا التفسير فيه نبذ كثيرة من هذه العلوم ، والذكى إذا قرأها أصبح عنده مجموعة سهلة فيها خلاصة العلوم ، هذه الخلاصة هى التى تفهمنا معنى الود : أى ودّ الله للمخلوقات .

انظر إلى السمك وإلى النحل وإلى الجراد وإلى الدود وإلى النعامة وإلى الدجاجة وإلى النبات والأزهار وإلى الإنسان ، فسترى فى سورة النحل كيف ترى أن لها قرى ومساكن وجيوشا منظمة وأظآرا جمع ظئر وحجرا على مقدار أسنان الأطفال كما يفعل الناس .

إن خالق العالم لما خلق النحل أعطاها من القوى والقدر والعلم على مقدار مايناسبها ، فكما يقول الحبيب لحبيبه أنا أقدم لك هدية من الفاكهة التى تحبها فيزيد ذلك فى المودة لعلم كل من الخليلين بما فى جبلة الآخر من المعاشرة ، هكذا هنا أعطى الله النحل جيوشا منها على مقدار طاقتها وألهمها أن تتبع مالكتها وتنظم الحجرات وتربى الذرية كل منها فى حجرة خاصة كأنها مدارس ، فجعل مدارسها على مقدار حاجاتها ولم يحملها مالاتطيق من مدارس الإنسان وجيوشه وأساطيله ولم يجشمها مشاق السفن والأساطيل البرّية والبحرية ، وهكذا سترى فى سورة النحل ما أعطاها الله من قوت وما أفاء عليها مما يلائم حاجاتها .

ألا ترى إلى ماسيأتى فى سورة الحجر عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » من جمال الزهر وبهجته وكيف لوّنت الأزهار بألوان جميلة ليعشق النحل ذلك الجمال فيطير سراعا ليشرب من الرحيق المختوم فى أسفل الزهرات ثم يطير إلى أخرى وقد حمل على جسمه غبار الطلع فوضعه فى الزهرات التى فيها أعضاء

الإناث وألهم النحل أن لايدخل ويخرج من زهرة إلى زهرة إلا إذا كانا من نوع واحد ليسهل الأمر عليه فلا يصادف عناء في معالجة فتح الزهرات في ذلك اليوم ، ومعنى هذا أن النحل أعطى مايوافق مزاجه من العسل ومن ألوان الزهر ومن نظام الزهرات ليسهل عليه ، ومن الإلهام أن لايدخل زهرة غير التي هي من جنس مادخلها أولا ، ذلك ليكون متمتعا بالنعمة والسعادة وليكون ذلك أصون لطلع الذكور من ذلك النوع من الزهر ليوضع على الأناث منه ليدوم النبات كل سنة بالإلقاح رحمة بالنحل أيضا .

أليس الرجل يقول لابنه إني سأعطيك ثيابا فاخرة وهدايا إذا نجحت في كذا وكذا ؟ ويقول التلميذ لصاحبه أنا قرأت كتاب كذا وهو أسهل فاقرأه ، كل ذلك للمشاكلة والمقاربة .

إن المودة تقتضى أن يتلطف الودود لصاحبه بما يلائم طباعه لأنه عرفها بكثرة المخالطة ، وترى الجراد ألهم أن لايدخر وأن يضع بيضه في أرض صالحة له على بعد مخصوص من سطحها بحيث تصلح الأرض لأن تكون له كالرحم لتحفظه إلى وقت معلوم ، وإنما ألهم أن لايدخر لأنه هو وأمثاله من الذباب والناموس التي ألهمت ألا تدخر لاتعيش إلى عام قابل ، فان البرد والحر يتعاقبان عليها فتهلك فإذن سعيها للادخار عبث ، فلذلك لم تلهم الادخار .

أما النحل والنمل فإنهما يعيشان سنين ، فإذا جاء الشتاء نامت ولكن لاتموت كما يموت الجراد والذباب والناموس ، لذلك ألهم هذان النوعان الادخار وأنزل الله سورتين باسمهما سورة النمل وسورة النحل تنبيها على الفرق بينهما وبين غيرهما من الحشرات ، ويقول الله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » الخ وهذا الوحى للنحل والنمل ولغيرهما وحى بما يلائم كما يفعل الصديق الودود بصديقه .

وترى الدود لاحاسة له إلا حاسة اللمس ، فلا سمع ولا بصر ولاذوق للطعام ولا شم ، وإنما حاسة اللمس له هي القائمة بتدبيره بل هي وزارة المعارف العامة للدود بها تمتص ماحولها من الرطوبات وتسبح في بطن البقرة والأسد والإنسان وفي لب التمر وفي دود للشي وهي فرحة سعيدة بما يناسب مزاجها ، وكأن الله بوده لها منع عنها مايزعجها مما لاتحتاج إليه ، فالسمع والبصر والشم والذوق والقوة العاقلة والمدارس كل هذه عبء ثقيل عليها ، فلو أعطيت ذلك لكان لافائدة منه بل يضرها ولا تعيش به .

وترى النعامة في العراء تقسم بيضها ثلاثة أقسام : فتحضن بعضا ، وتجعل بعضا قوتا لذريتها ، وبعضا آخر تعرضه للحشرات فتقع عليه فتطعمه لذريتها إذا قويت على أكل تلك الحشرات .

وترى الدجاجة لم يساعدها الديك في تربية أولادها لما أعطيت الأفراخ من قوة الريش والعدو السريع ، وعكس ذلك الحمام .

وترى أمر النبات كله عجبا ، ويقول المحققون : إن له نوعا من الإحساس والشعور على مقدار طاقته ، وتراه في أثناء هذا التفسير في مواضع منه ولقد نال لطفا من الله .

ألا ترى إلى ماستقرؤه في سورة الحجر من الزهر وكيف تنوعت أشكاله تنوعا بديعا ولكل نوع منها حشرات خاصة تنام إذا أغمض الزهر أجفانه وتستيقظ إذا تفتحت الأكمام وضحكت الأزهار ، وهناك تأتي الحشرة وهي تغني فرحات بعرائس الزهرات ذات الحلل السندسية والروائح العطرية والولائم العسلية والمحاسن والبدائع الهندسية في الأوراق والأزهار ونظامها ، هكذا تراه يفعل مع الإنسان في نظام جسمه وعجيب تركيبه وفي إلهام العقلاء ، فكما يلهم النحلة عملها تراه ألهم الناس فصنعوا مايلائمهم من جرى السفن في البحار والقطرات في البر بالبخار بالكهرباء ، وألهمهم أن يقطعوا البحار لطلب الرزق والحرب ويجوبوا الفيافي ويغوصوا على الدر والمرجان في البحر ويحفروا في الجبال وغيرها فيستخرجوا المعادن .

أعطى الله الدودة رطوبات ، والنحلة زهرا وعسلا ، والإنسان معادن وكهرباء ، وألهم كلا من هذه المخلوقات ما استعدت له .

هذا هو ودّ الله لمخلوقاته « وهو معكم أينما كنتم » فكما أن الصديق مع صديقه يعرف مايلائمه ، هكذا نرى صانع الكون لكونه مع كل مخلوق أعطاه مايلائم طبعه وأبعد عنه ما لايلائمه ، ولذلك تراه لما علم أن عقولنا قاصرة لأننا فى العالم الأرضى الضعيف حجب عنا معرفة العوالم التى تسكن فى المريخ أو المشترى مثلا وهكذا التى تسكن الكواكب الكبيرة الثابتة .

علم ذلك من طباعنا لأننا لو عرفناها واطلعنا عليها لشغلنا من ذلك الجمال ولدهشت عقولنا ولانبهرنا ، فمنعنا عن ذلك كما منع الدود أن يعرف السمع والبصر وإلا لم يطق ذلك « ولا تقف ماليس لك به علم » .

فالله ودود ومن ودّه ماذكرناه ، واعلم أن كل من قلد الله فى الودّ كان أقرب إليه ، فكلما كان الإنسان أكثر نفعا كان أكثر الناس ودّا .

إن الأم والأب بتربيتهما لولدهما قد ودّا ولدهما ودّا شريفا لأنهما قد جاوزا سنه فهما أعلى منه وقد تنزلا إليه وتلطفا ، فهما بهذا قد ارتقيا إلى نحو الود الإلهى ، هكذا العلماء والحكماء والمؤلفون يتنزلون لعقول الشعب وعلى مقدار تنزلهم يقتربون من ربهم .

إن الإنسان على مقدار منفعته وعموم فضله الناس يكون قد اقترب من الود الإلهى ، وعلى مقدار اتصافه بهذه المودة العامة يقترب من ربه كما أن الأب والأم اقتربا من ربهما على مقدار ماعلما ولدهما ، هكذا سائر الصلحين .

إن الرحمة والودّ مقرونان فى قرن ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا على مقدار ماقاموا به للمنافع العامة ؛ فالرحمة هنا تساعد على الودّ لأن الودود يعطى من يودّه مايناسبه ، وهذه المناسبة تقتضيها الرحمة ولكن الرحمة أعمّ ، فكما تكون مع الودّ تكون مع العذاب ، فكم من عذاب فى التعليم والحرب وبالضرّ كانت نتيجته العزّ والرقى كما قال ( أرسطاطاليس ) فى كتابه إلى إسكندر المقدونى تلميذه : [ إن الأمة إذا أرخى لها العنان والترف أهلكتها البطنة ، والناس لايحتملون الراحة ولكنهم يحتملون المشقات فى الحرب وغيره ، فهم فى حربهم نشطون فرحون ، وفى أمنهم ودعتهم أشرون بطرون ثم يهلكون ] .

إذا فهمت هذا عرفت بعض سرّ قوله تعالى فى سورة مريم « ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فإن اقتران العذاب بالرحمة هناك راجع إلى ماذكرنا .

فالأمة المعذبة بالحرب والضرّ وكثرة الأعداء تكون مستيقظة نشطة كما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى : [ إذا أردت رقىّ أمة فأوقد لها نار حرب فإنها تستيقظ من سباتها ] وقال تعالى فيها « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » فالرحمة جاءت مع العذاب كما علمت وجاءت مع الود ، إذن الرحمة عامة والودّ فرع من فروعها ، وههنا شعيب عليه السلام يقول « إن ربى رحيم ودود » ومن وده أنه ألهمنى أن أعلمكم الدين لأرقيكم وعلى مقدار مودة الأنبياء والحكماء والعلماء بالتعاليم يكون قربهم من ربهم وشرفهم ، انتهى القسم الثالث .

## ( القِسْمُ الرَّابِعُ )

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا

أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك
وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم
شديد * إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك
يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم
شقي وسعيد * فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت
السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي
الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ * فلا تك
في مرية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم
غير منقوص * ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك
لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب * وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه
بما يعملون خبير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير *
ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون .
وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للذاكرين * واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * فلولا كان من القرون من
قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع
الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها
مصلحون * ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم
ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين * وكلا
نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى
للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون .
ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك
بغافل عما تعملون .

التفسير اللفظى

قال تعالى (ذلك) النبأ مبتدأ خبره ( من أنباء القرى نقصه عليك ) خبر بعد خبر (منها) من القرى (قائم وحصيد) أى بعضها باق وبعضها عافى الأثر كالزرع القائم على ساق والذى حصد ، وهذه الجملة مستأنفة (وما ظلمناهم) بإهلاكنا إياهم ( ولكن ظلموا أنفسهم ) بارتكاب مابه أهلكوا ، وذلك لما جبلت نفوسهم عليه من النقص الذى هو نتائج أسباب خافية وظاهرة فى هذا العالم الذى فطر على الخير والشرّ ، ولكن الشرّ جاء عرضا ولايترك الخير الكثير للشرّ القليل ككفر هؤلاء فلابد من نفاذ أمرنا لأن تلك هى حقائق الوجود الثابتة التى تعلق علمنا بها ، فهكذا علمنا وهكذا خلقنا وهكذا رتبنا ونظمنا المخلوقات (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت عنهم ( آلهتهم التى يدعون ) يعبدون ( من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك ) عذابه ، ولما منصوب بما أغنت ( وما زادوهم غير تتبيب ) تخسير ، يقال تبّ إذا خسر ، وتببه غيره أوقعه فى الخسران : أى مادفعت عنهم عبادة غير الله شيئاً بل أهلكتهم (وكذلك) أى ومثل ذلك الأخذ ومحل الكاف الرفع ( أخذ ربك إذا أخذ القرى) أى أهلها (وهى ظالمة) حال من القرى ( إنّ أخذه أليم شديد) مؤلم صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرهم فليبادر الظالمون بالتوبة ولا يغرّهم الإمهال (إن فى ذلك) فيما قصه من قصص الأمم الهالكة فى هذه وفى غيرها من السور (لآية) لعبرة ( لمن خاف عذاب الآخرة ) أى اعتقد صحة وجوده ، فأما من يرى أن العالم لافاعل له وإنما هى ذرات تتكوّن وتنحلّ فلا يقول بحساب ولاعقاب فليس لهذا عبرة عنده (ذلك) أى يوم القيامة (يوم مجموع له الناس) أى يجمع له الناس لامحالة والناس لاينفكون عنه (وذلك يوم مشهود) أى مشهود فيه أهل السموات والأرضين وقد اتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به ، وليس المقصود أن اليوم مشهود فى نفسه وإلا لبطل الغرض من تعظيم اليوم بتمييزه فإن سائر الأيام مشهودة (وما نؤخره) أى اليوم ( إلا لأجل معدود ) الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ( يوم يأت ) بحذف الياء وبإثباتها « يأتى » والحذف فى مثل هذا كثير فى لغة هذيل ونظيره قوله « ذلك ما كنا نبغ » والفاعل ضمير يرجع إلى قوله «يوم مجموع له الناس» (لاتكلم) لاتتكلم (نفس إلا بإذنه) أى لايشفع أحد إلا بإذن الله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » (فمنهم) أى من أهل الموقف وهم الناس المذكورون فى قوله « مجموع له الناس » ( شقىّ وسعيد ) فمنهم معذب ومنهم منعم (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير ) هو أول نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره ، أو هما إخراج النفس وردّه والجملة حال والعامل هو الاستقرار المقدّر فى النار ( خالدين فيها ) حال مقدرة ( مادامت السموات والأرض ) أى مدة دوام السموات والأرض وذلك للتأييد ونفى الانقطاع كما تقول العرب [مالاح كوكب] والمقصود التأييد ( إلا ماشاء ربك ) هو استثناء من الخلود فى عذاب النار ، فإن أهل النار يخرجون من النار إلى الزمهرير وأنواع من العذاب غير النار ، وكذلك أهل الجنة يتصلون بجناب القدس وبرضوان الله وهذا أعلى من الجنة ، أو ماشاء بمعنى من شاء وهم قوم يقال لهم الجهنميون يخرجون من النار ويدخلون الجنة فهم مستثنون من أهل الجنة أيضا لمفارقتهم إياها بكونهم فى النار أياما ، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأييد ولا سعدوا سعادة من لم تمسه النار ، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة وهؤلاء هم فساق الموحدين ، وقيل إن « إلا » هنا بمعنى سوى والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التى لاآخر لها على مدة بقاء السموات والأرض فالاستثناء راجع إما :

(١) لنوع العذاب كما يرجع لنوع النعيم فيما سيأتى ، فالمقصود أنهم ينقلون من عذاب إلى عذاب كما أن أهل الجنة ينقلون من نعيم إلى نعيم .

(٢) أو لنفس المذنبين فمنهم من لايخلد فى أحدهما كأهل المعاصى الموحدين .

(٣) أو المدة التى تزيد على زمن السموات والأرض التى نشاهدها وتكون « إلا » بمعنى غير .

(٤) وهناك وجه رابع وهو مدة لبثهم فى الدنيا والبرزخ فليسوا فى جهنم ماداموا فيهما والاستثناء إذن من أصل الحكم .

(٥) وقيل الزفير والشهيق هما المقيدان بتلك المشيئة لا الخلود ، فالزفير والشهيق دائمان إلا فى أوقات يحلها الله .

ثم قال تعالى (إنّ ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض لأنه بناه على الحكمة العامة فى العالم وليس الناس مايؤهلهم للوقوف على تلك الحقائق كاملة ( وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ) وقد تقدم أنهم قوم موحدون عاصون لايدخلون الجنة إلا بعد العذاب إذا كانت « ما » بمعنى من ، أو أنهم ينالون ماهو أعظم من الجنة وهو رؤية الله تعالى ورضوانه ( عطاء غير مجذوذ ) غير مقطوع فهذا الثواب لاينقطع ( فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ) أى فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص فى سوء عاقبة عبادتهم وأنهم آيلون إلى الهلاك ، وأن الأنبياء ومن تبعهم ناجون فى الدنيا والآخرة وهذا عدة بالانتقام منهم ووعيد لهم وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولكل من سار على قدمه من المؤمنين وأن الله ناصره وناصرهم وخاذل أعدائه وأعدائهم كما جربناه فى هذه الحياة مرارا ، وهم مايعبدون إلا كما عبد آباؤهم من قبل وقد قصصنا عليك مانزل بآبائهم فيلحقهم مثله فإن التشابه فى الأسباب تستدعى التشابه فى المسببات ، وقوله « كما يعبد آباؤهم » أى كما كان يعبد آباؤهم وهذا قوله تعالى (مايعبدون إلا كما يعبد) إلى قوله ( وإنا لموفوهم نصيبهم ) من العذاب ( غير منقوص ) حال من النصيب لتقييد التوفية دفعا لما يحتمل أن التوفية تكون للبعض مجازا ( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ) فآمن قوم به وكفر قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن ( ولولا كلمة سبقت من ربك ) أى كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ( لقضى بينهم ) بين قوم موسى وقومك بالعذاب المستأصل (وإنهم) وإن كفار قومك (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع الريبة (وإن كلا) وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين (لما) إلا والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) وقرىء «لما» بالتخفيف ، فاللام إذن موطئة القسم والثانية للتأكيد وما زائدة للفصل بينهما ( إنه بما يعملون خبير ) فلا يخفى عليه شىء .

ولما أبان الله فى هذه السورة كيف كانت عاقبة العاصين وخاتمة الصالحين أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه قائلا ( فاستقم كما أمرت ) أى استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك : أى دم على ما أنت عليه من الاستقامة (ومن تاب معك) من الشرك والكفر وهو عطف على ضمير الرفع فى استقم (ولاتطغوا) ولا تخرجوا عما حدّ لكم أو لاتغلوا فى الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ( إنه بما تعملون بصير ) فيجازيكم عليه وهذا فى معنى التعليل للأمر والنهى .

قال ابن عباس : مانزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال «شيبتنى هود وأخواتها» ( ولاتركنوا إلى الذين ظلموا ) ولاتميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير كالتزيى بزيهم وتعظيم ذكرهم والميل بالقلب إليهم وطاعتهم ومداهنتهم وتكثير سوادهم والرضا بأعمالهم ( فتمسكم النار ) أى فتصيبكم النار بحرّها كما يحصل اليوم فى الأقطار الإسلامية من التشبه بالفرنجة وتقليدهم ومداهنتهم والتزيى بزيهم واحترام تجارتهم وآرائهم وأخلاقهم وفسوق الفاسقين منهم .

لذلك حكم الله على أكثر الأقطار الإسلامية أن يصيبها نار الاستعباد فى الدنيا والذل والفقر والاحتلال

والاختلال والنذالة والضعف والجبن والخوف وهذه مقدمة لعذاب جهنم « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » .

وقد بينا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة أن الفرنجة ضحكوا على ذقون الشرقيين الغافلين وألبسوهم ثوب للذلة والعار ومزقوهم شرّ ممزق وكل ذلك لأنهم ركنوا إليهم وصدقوهم ، ولقد قدمت أنهم أشبه بالمسيح الدجال فإنهم يظهرون جنة اللذات ويخفون نار الاستعباد

وقد ركن كثير من الأمراء إلى نار شهوات المال الذى يعطونه لهم أو الألقاب الحقيرة الكاذبة التى يسمونهم بها أو الوسامات التى يعلقونها على صدورهم فأوقعوهم فى نار الاستعباد والذلة والخزى المبين .

هذا كله سرّ هذه الآية ثم قال تعالى ( وما لكم من دون الله من أولياء ) من أنصار يمنعون العذاب عنكم والاستعباد والاحتلال واستنزاف الثروة وحلول الفقر بكم فى الدنيا (ثم لاتنصرون) أى ثم لاتجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله أى عذاب يوم القيامة وفى الدنيا الذى هو مقدمة لعذاب الآخرة، وفيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضى بأعمالهم .

ومن عجيب الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « شيبتنى هود وأخواتها » ولعمرك ماشيبته هود وأخواتها إلا لما فى هذه السورة من العذاب الذى حاق بالأمة الإسلامية أسوة بالأمم الأخرى .

مصداق هذه الآية فى تاريخ الأندلس وفى الدولة العباسية بغزوة التتار

وتعجب كيف تم ماقاله الله تعالى ، وهو أن الركون إلى الظلمة يعرّض المسلمين إلى الهلاك والدمار ، ثم يقول الله «ثم لاتنصرن» ولقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين غير منصورين بل هم فى قبضة الفرنجة كل ذلك جاء مصداقا لهذه الآية ، يقول الله «ثم لاتنصرن» وقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين كعبيد الفرنجة لأنهم ركنوا إليهم ، ووالله لم ينج من مذلة الفرنجة إلا الذين استقلوا بأعمالهم وتركوا الركون إليهم ورجعوا إلى أنفسهم ولم يتكلوا عليهم واعتبر ذلك فى الأمة الأندلسية إذ كانوا فى أول أمرهم حين كان الإسلام عزيزا مهابا محافظين على أخلاقهم القومية وعاداتهم العربية وشيمهم النبوية ثم تحولت الحال وساءت وأصبح المسلمون بعد الأنفة والعزة والشرف أسرى الأوهام ، ومبدأ ذلك أن الفرنجة تعاهدوا مع أمراء الأندلس ورئيسهم ابن عباد ، وتلك المعاهدة احتوت على ما يأتى :

[أولا] حرية الدين .

[ثانيا] حرية التجارة .

[ثالثا] حرية التعليم .

ولما تمت تلك المعاهدة أقام ابن عباد احتفالا ومهرجانا وأفراحا دامت عشرات الأيام، ولقد حضر الأمراء جميعا تلك المعاهدة ووقعوا عليها وكان بعضهم قد ركبوا على جياد نعالها من ذهب .

ولما تمت تلك الولائم والأيام الراقصة رجعوا إلى ديارهم آمنين مطمئنين ولم يرفض التوقيع على هذه المعاهدة إلا ابن مصعب فإنه قال « ويحكم يا أبناء العرب وعظماء الإسلام كيف تبيحون حرية التجارة والتعليم فى دياركم ؟ أفلا ترون أن القوم سيعلمون أبناءكم تاريخ أممهم ويحقرون آباءكم ؟ أولاترون أن الخمر يباع فى بلادكم بعد الآن لحرية التجارة ، وسينتشر فى البلاد الترف والنعيم ويكثر المترفون والفسقة والفجار والخلاعة وينتهى الأمر بفساد البلاد وخراب العباد وطرد العرب من الأصقاع الأوروبية ؟ فلما سمع القوم مقالته هزءوا ساخرين ونبذوه أجمعين وقالوا لست فى العير ولا فى النفير ، وهل : يطاع لقصير أمر، أو يقام لغير رشيد وزن ؟

« وجعلوا

« وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا » وقالوا إن هذا كلام الذين لايعرفون السياسة ولاهم من السياسيين .

فماذا جرى بعد ذلك ؟ قضيت سنون تلتها سنون وصحّ ما تنبأ به ابن مصعب وانتشر الخمر والفسوق وصار [ كتاب الأغانى ] هو العمدة فى البلاد وانتشرت الخلاعة والفسوق وصار الشبان يغازلون الفتيات فى الطرقات شاربين وشاربات وسكرين وسكرات وكثر الترف والنعيم ولبسوا الحرير وتختموا بالذهب وصارت الخلاعه مشرب الأدباء، وخلق الكبراء فذهبت النخوة والدين وسرى ذلك من الأحداث إلى العظماء والكبراء حتى إن أحد أمراء بنى ذى النون اختطف فتاة رومية من أبيها وأدخلها قصره ، فلجأ إلى أمير آخر مسلم فأدّته مروءته أن يكاتب ابن ذى النون ذاكرا له عظم هذا الذنب وقبحه فأبى أن يقبل قوله ، فاتحد ذلك الأمير مع بارونات أوروبا وهجموا على ذلك الأمير ومزقوا شمله وخربوا قصره وأولم الأمير للغالب الفرنجة الحاضرين معه ولجة دامت أياما فرحا بالانتصار وإظهارا للافتخار ، والأمّة العربية إذ ذاك فى انتحار وهى لاتعلم ماخبأه لها الزمان ، وكان العربى إذ ذاك فى الأندلس يحقر نسبه وأخلاق آبائه وآراءهم وتاريخهم ولا يأنس إلا بالأوروبيين الذين ربوه فى مدارسهم .

ولقد تجاوز هؤلاء الأساتذة حدّ العادة فى تغيير أخلاق المسلمين حتى إن راهبا فى قرطبة من أساتذة المدارس التى يتعلم فيها المسلمون اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا وحلف أن لايبيعه لأحد إلا لتلاميذه من أبناء المسلمين لحبه إياهم فصار الخمر من مستلزمات المدنية والعمران .

فماذا جرى ؟ سارت الأمة شوطا بعيدا حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة وأتى الملك (فرديناند) والملكة (إزابلة) وقصما ظهر البلاد وأزالا ملك بنى عباد وأمراء الأجناد وقبروهم أجمعين إلا قليلا منهم رموهم فى البحر أجمعين وقتلوهم مجندلين « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ، كل هذا مصداق لقوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون » فلم يجد أبناء الأندلس أولياء ينصرونهم لما أحاط بهم الإفرنج من كل جانب وهم غافلون لأنهم ركنوا إلى الفرنجة فأصبحوا حصيدا خامدين .

## التتار فى الشرق

وقد كان المسلمون قبل ذلك بنحو ثلاث مائة سنة فى بلاد الشرق قد غلوا بعزهم وسكروا بجاههم فلم يظنوا فى الأرض قوة أعظم منهم أيام قطب أرسلان إذ أرسل إليه (جنكيزخان) المسمى تموجين رجالا من قومه ليتاجروا مع المسلمين بأموالهم ومعهم مال عظيم ومتاجر كبيرة فخاف تجار المسلمين على أنفسهم وضياع تجاراتهم وبخس بضاعاتهم لمزاحمة أولئك الواردين لأن بضاعاتهم أجمل وأبهج وأبهى وأرخص قيمة فأرسل هؤلاء التجار الوطنيون رجلا منهم فقال لقطب أرسلان : هل لك أن تأخذ التجارة من هؤلاء الذين حضروا وأن مامعهم يكون غنى لدولة الإسلام وعزا وجاها للحكومة ؟ فغرّه مايقول وأخذ المال الذى مع التجار الذى قيل إنه كان كثيرا جدا فأخذ تجارتهم وقتلهم أجمعين .

فلما ورد الخبر إلى (جنكيزخان) أرسل له خطابا مع جماعة يحذره من عاقبة ظلمه يقول فيه : كيف تسيئون الجوار وتظلمون الناس، ونبيكم صلى الله عليه وسلم لم يقل به وعلىّ بن أبى طالب كذلك ؟ أولم يخبركم نبيكم قائلا «اتركوا الترك ماتركوكم» إننا نحن أمة يأجوج ومأجوج وقد أوعدكم الله بأنهم سينسلون عليكم من كل حدب .

فلما جاء الخطاب إلى (قطب أرسلان) مزّقه وصلم آذان الرسل المرسلين من قبل (جنكيزخان) فصام

هذا الذي جد التار ثلاثة أيام تضرّع فيها إلى الله أن ينصره على المسلمين الذين هم يخربون بلاد الله وهو يسعى إلى الإصلاح ، ولم يأكل ولم يشرب في تلك الأيام الثلاثة ، ثم قام بجموعه وهجموا على الإسلام فأزالوا دولة العباسيين ومزّقوا المسلمين شرّ ممزق وانتشروا في الهند وفي الروسيا ولا تزال بقاياهم إلى الآن على نهر (فلجا) وغيره ولكنهم أسلموا بعد حين وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شرّ قد اقترب » وسيتضح هذا المقام في تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » وسترى فيه نص الخطاب الذي أرسله (جنكيزخان) لتعلم أن المسلمين كما ركنوا إلى أوروبا فزالت دولتهم ركن مسلمو الشرق إلى تجار التجار منهم فسلطوا الملوك على إيذاء الجيران فآذوهم فسلط الله عليهم التتار

ذلك لأنهم ركنوا إلى الذين ظلموا وهم تجار المسلمين ، وأيضا كان المسلمون غافلين جاهلين لم يعرفوا قدرة بلاد التتار ولم يدرسوها فهم كانوا بجغرافية البلاد المجاورة لهم جاهلين ، فلما آذوهم سلطهم الله عليهم وهم لا يعلمون قواتهم ولا مقدار جيوشهم ولا عددهم ولا صبرهم على القتال ، ذلك كله مصداق لقوله تعالى « ثم لا تنصرون » .

مصداق هذه الآية في الأمم الإسلامية اليوم

ولقد قدّمت مرارا في هذا التفسير كيف استولت الفرنجة على بلاد الشرق وقلت إنهم استولوا عليهم بنفس الطريقة التي أهلكوا بها بلاد الأندلس فإنهم كما أهلكوا الأندلسيين بالشهوات واللذات وفتحوا لهم باب الترف فكثر الدّين والإسراف والخمر والمجاهرة بالمعاصي مع الغانيات ولبس الحرير والتنعم والربا واحتقار تاريخ الآباء وآرائهم وأعمالهم وخصالهم وماهم عليه من التمسك بالدين وما أشبه ذلك .

هكذا فعلوا ذلك مع أهل الشرق من التونسيين ورجال الجزائر والمراكشيين والمصريين بحيث ترى الأغنياء من بلادنا الآن لا يهنأ لهم طعام إلا في مطاعمهم ولا شراب إلا في قهواتهم وباراتهم ، ولا مغازلة إلا مع نسائهم ولا شراء إلا من محال تجاراتهم ولا لباس إلا على زيهم ، ولا خادمة إلا من أحسن نسائهم ولا استدانة إلا من مصارفهم ، وإذا أرادوا عملا عاما لا يكون إلا في أماكنهم التي لهم في بلادنا .

إذا علمت هذا علمت جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر لما سأله قائلا « قد شبت يارسول الله إذ قال صلى الله عليه وسلم شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت » .

وفي رواية أخرى قال « قلت يارسول الله عجل إليك الشيب ، قال شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعمّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية » .

ويقول العلماء لأن هذه السور فيها ذكر القيامة والبعث والحساب الخ ، فهذا صريح في أنه يخاف عذاب الآخرة ، ولاشك أن مما في سورة هود حساب الأمة المحمدية في الآخرة على أنها تركن إلى الذين ظلموا وقد أظهر الله مقدّمات هذا الحساب ودلائله فيما ذكرناه .

وورد أيضا « ويل للعرب من شرّ قد اقترب » وقد حصل ذلك بظهور التتار وغلبهم المسلمين كما سيتضح في سورة الكهف وكما قدّمناه الآن فليعتبر المسلمون .

ولما كان اختلال الأمة ينشأ من ركونها إلى الذين ظلموا ، وكانت إقامة الصلوات في أوقاتها مما يجمع القلوب ويؤدّي إلى اتحادها أعقب ما تقدم بقوله ( وأقم الصلاة طرفي النهار ) غدوة وعشية وهو منصوب على الظرفية لأنه مضاف إلى الظرف وصلاة طرف النهار الأول الصبح ، وطرف النهار الثاني الظهر والعصر

( وزلفا

( وزلفا من الليل ) الزلف : جمع زلفة، من أزلفه إذا قربه: أى وساعات من الليل قريبة من آخر النهار وهى صلاة المغرب والعشاء ( إنّ الحسنات ) كالصلوات الخمس ( يذهبن السيئات ) أى الذنوب .

وفى الحديث « إن الصلوات الخمس تكفر مابينها من الذنوب » ومثل الصلوات جميع الطاعات : قال عليه الصلاة والسلام « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ومن الطاعات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، وقد ورد فى الحديث أيضا أنها مرادة بهذه الآية .

وفى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ ؟ قالوا لا ؛ قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » .

إن الذنوب الصغائر تكفرها الصلوات والطاعات ، أما الذنوب الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بالإقلاع عن الذنوب بالكلية وبالندم وبالعزم التام ألا يرجع إلى الذنب .

وفى الحديث « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر » وفى سبب النزول أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى قد أصبت من امرأة غير أنى لم آتها فنزلت (ذلك) إشارة إلى ماتقدم مما فى هذه السورة من هلاك العاصين ونجاة الصالحين وما ولى ذلك من قوله « فاستقم كما أمرت » وما بعده (ذكرى للذاكرين) عظة للمتقين وتبصرة للمفكرين فيعرفون كيف تهلك الأمم إذا ظلمت ؟ وكيف تمسهم النار فى الآخرة إذا ركنوا إلى الظالمين ؟ وأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى هذه السورة لم ينصروا إلا بعد الصبر ، ولذلك قال (واصبر) على ماتلاقى من قومك ومجادلاتهم وعداوتهم كما صبر الأنبياء قبلك المذكورون فى هذه السورة وقد علمت أمرهم وأنه لم يضع أجرهم إذ أحسنوا فى أعمالهم (فإن الله لايضيع أجر المحسنين) أى المصلحين أعمالهم كالاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة وفعل الحسنات وجميع الأعمال الظاهرة والباطنة ، فإحسان العمل الباطنى يرقى أخلاقنا ، وإصلاح العمل الظاهرى كالصناعات يرفع قدر الإنسان ويرقى عقله ويكسبه الغنى وهـذا ممدوح والله لايضيع أجره كما هو مشاهد محسوس ، فكل من أحسن عملا لايضيع أجره ، وهذا يوجب على المسلمين أن يحسنوا مايصنعون فى أعمالهم الظاهرة والباطنة .

ولما كان القول المتقدم وهو الأمر بالاستقامة للنبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ونهيهم عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا حتى لاتمسهم النار كما مست الأمم السابقة لما طغوا كما هو مذكور فى هذه السورة أشبه بالتخلية ثم أمرهم بما هو كالتحلية من الصلاة بالليل والنهار مرتبا على ما ذكر فى هذه السورة من إهلاك الأمم السابقة فى الدنيا لكفرها وفى الآخرة بالنار ، لذلك أيضا رجع إلى تفصيل الكلام على تلك الأمم قائلا هلا كان من هؤلاء الأقوام الذين ذكروا فى هذه السورة وغيرهم من الأمم السالفة قبلكم رجال أولو رأى وعقل ينهون الناس عن إفسادهم فى الأرض بتطفيف الكيل والميزان وبخسهما وفعل الفاحشة التى لم يأتها أحد من العالمين والكفر والمعاصى الكثيرة .

ثم إن بعضهم نهى عن الفساد فى الأرض فنجيناهم ، فأما الأكثرون فإنهم لم ينهوا عن الفساد فى الأرض واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه بالتنعم والترفه وحب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنىء ورفضوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون وهذا قوله ( فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ) من الرأى والعقل أو أولوا فضل وإنما سمى بقية لأن الرجل يستبقى أفضل مايخرجه ، ومنه فلان من بقية القوم أى من خيارهم ( ينهون عن الفساد فى الأرض

إلا قليلا ممن أنجينا منهم ) أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك فالاستثناء منقطع فهؤلاء المستثنى منهم لم ينهوا عن الفساد فى الأرض ( واتبع الذين ظلموا ) أنفسهم فلم ينهوا الناس عن الفساد (ما أترفوا فيه) أى ماعرفوا فيه التنعم والثروة الخ ( وكانوا مجرمين ) ولما كان ماتقدم يستدعى سؤالا فيقال : ياعجبا إن الله عز وجل رحيم وكيف يهلك الناس إذا كفروا ؟ وهانحن أولاء نرى الحيوانات راتعة فى الماء والهواء والتراب ، فلما خص الإنسان بالإهلاك فى الدنيا فليكن الكافر فى الأرض كالحيوان ، أفلا يسع الله هؤلاء فى أرضه ؟ فما باله يهلكهم فى الدنيا وينزع ملكهم ويشتت شملهم .

لذلك قال الله ( وماكان ربك ليهلك القرى بظلم ) بشرك ( وأهلها مصلحون ) أى وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين بأن يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد ، ولذلك قيل « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم والمعاصى » وكأن هذا تقرير لما تقدم فى السورة كأنه يقال إذا أهلكت قوم لوط وقوم شعيب وغيرهما فإنما إهلاكهم للذنوب المخلة بالأمن الضارّة بالمجموع ، وإذا كان المجموع فاسدا فلا بقاء له بل يكون كالجسد الميت تنتن رائحته ، فالأمة التى تكذب وتظلم وتفسق وترتشى حكامها وتضل فى أعمالها ولا تحسن عملا حكمت عليها بالهلاك لأنها مجموع مختل غير منظم وهذه قاعدة طبيعية ؛ فالأمة كالجسم إذا اختلّ خللا عظيما رئيسيا مات ، وهذه حال كثير من أمم الشرق والإسلام الآن وسيغير الله الحال بل ابتدأ سبحانه بفعل ذلك الآن .

ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم قلّ فيها علم الأخلاق والعمل بها صارت قلوب أهلها متباعدة متباغضة وهم لايحسنون كثيرا من الأعمال وهى بأيدى غيرهم سلط الله عليهم الفرنجة لأنهم لاينهون عن الفساد فى الأرض وقليل منهم الآن انتظموا فى أعمالهم فاستقلوا فى بلادهم وطردوا الفرنجة والحمد لله .

فتعجب كيف أبان الله فى هذه الآيات أن خراب الأمم تابع لظلمها الداخلى فى أعمالها لا إيمانها وعلى ذلك لايبالى بإيمان بلا عمل صالح ، بل ينزل بأهله العذاب الشديد فى الدنيا كما أشار إليه فى قوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ومن الظلم ترك النهى عن المنكر ، واعلم أن الفقهاء لأجل هذه الآية قدموا عند تزاحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى .

واعلم أن هذا المقام يقتضى أن يسأل سؤال فيقال إذا كان الله هو الخالق للعالم المنظم له وهو واحد فلم تطوّرت الأمم وكانوا مختلفين أخلاقا وديانات وآراء وكفرا وإيمانا ، وهلا جعل الله الناس أمة واحدة ولم هذا الاختلاف ؟ واعلم أن هذا السؤال يرد على عقول كثير من الناس ، وهو بهذا المقام أليق لأنه فى مقام هلاك الأمم وبقائها وتقرير حقائقها وقد تم البحث هنا ودقق أيما تدقيق ، واعلم أن العالم لولم يكن مختلفا لكان معدوما .

ألا ترى أن الحكماء قد قرّروا أنه لايتساوى اثنان فى الوجود ، فلا رجل ولا امرأة من الناس يماثلان غيرهما من الرجال والنساء بل كل فرد من الناس والحيوان والنبات والمعادن والكون لانظير له فى الوجود ؟ وقد برهنوا على ذلك ببرهان قاطع لامحل لذكره هنا ، فما دام هناك خلق فلا بد من اختلافه ، فالاختلاف ملازم للخلق ، ومادام هناك خلاف فهو فى الأجسام والألوان والعقول والآراء والديانات والأحوال وفى كل شئ .

فالعاقل الحكيم يعتقد أنه لايكون وجود بغير اختلاف الموجودات ، والجاهل يقول لم خلق الله الاختلاف مع أنه لايمكن الخلق إلا مع الخلاف ، ولا فرق بين الخلاف القليل والكثير ، فكما يأتى بساعات النهار المختلفة أضواؤها يأتى بالليل الذى هو غاية الخلاف مع النهار هكذا يفعل فى الديانات .

فكما يخلق توءمين متقاربين كأبى بكر وعمر وهما كساعتين يخلق كافرا ومؤمنا كأبى بكر وأبى جهل كما خلق الليل والنهار ، فالنظام واحد فى الأطوار الإنسانية والأحوال الكونية ، ونتيجة ذلك هو أعلم بها وهذا قوله ( ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ) متفقين فى الإيمان والطاعات، ولكنه لم يشأ ذلك لأن المشيئة تتبع العلم ، والعلم يتبع المعلوم ، والمعلوم ليس يكون إلا على النظام الأكمل ، والنظام الأكمل لابد أن يكمل فيه جميع الأحوال كما كملت أحوال الليل والنهار بالظلام والضياء للتباين الناتج، والثمرات ( ولا يزالون مختلفين ) فى دياناتهم كما اختلفوا فى جميع أطوارهم . وهذا الاختلاف يقلق راحاتهم ويزعج نفوسهم ويكون سبب النزاع فيما بينهم ( إلا من رحم ربك ) من أناس يكون اختلافهم غير داع إلى النزاع ، بل هو كالوفاق حينما يرتقى نوع الإنسان ويكونون كأسرة واحدة يحب بعضهم بعضا ويكون اختلافهم فى جميع أحوالهم ليتكملوا به ولكل منهم عمل خاص ينتفع الجميع به فيكون الاختلاف فيما بينهم كاختلاف البنوة والأبوة والذكورة والأنوثة كل له عمل ينفع به المجموع وتكون جميع أهل الديانات على حال لايلعن بعضهم بعضا بل يكونون أشبه بأعضاء أسرة واحدة .

ذلك هو العصر الذهبى الذى عبر عنه بأنه ينزل فيه عيسى ابن مريم فتصلح القلوب بالمحبة ويصبح الناس « إخوانا على سرر متقابلين » فى الدنيا . وقد ورد أن دين الإسلام يعم المسكونة إذ ذاك .

ولما كان الخلاف فى جميع الأحوال أمرا طبيعيا أعقبه سبحانه وتعالى بقوله ( ولذلك خلقهم ) أى خلق الناس ( وتمت كلمة ربك ) وهى قوله للملائكة ( لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) لنقصانهم وبعدهم عن الكمال ، فإذن أضعهم فى المنازل التى استأهلوا لها ، كما أخلق الدود فى الطين والحيات والعقارب فى التراب والحشرات فى القاذورات ولقد أكثرت فى الدنيا من هذه المخلوقات فى تلك الأماكن لئلا يبقى مكان فى العالم معطلا بلا خلق ، ولم أخلق الخلق عبثا بل كلا لحكمة ، فأنا لا أذر الروث والطين المنتن والقاذورات بلا مخلوقات فأكثرت خلقها فهكذا .

إن أكثر النفوس الإنسانية تموت ناقصة فأضعها فى قاذورات العالم الثانى لأعمال أنا بها عليم فتكون معذبة وعذابها بحسب استعدادها كما خلقت الدودة فى الروثة ، وكما أن الناس يأنفون من الروث ويقولون : لو خلقنا دودا لتمنينا الموت ولكرهنا الحياة ، والدود محصور مغمور مسكين يعيش كأنه ميت ولايعلم من الحياة إلا مايمس جلده فهو خال من السمع والبصر والشم والذوق .

هكذا يكون فى الآخرة خلق من الناس يأنف أهل الجنة أن يكونوا معهم لما هم فيه من العذاب بالنار والجحيم فضلا عن خسة الحياة ودناءة الموقف وعذاب الخزى والذلة والمهانة والضياع وانحصار القوى وانحباس النفوس .

وإلى هنا قد تم الكلام على الأمم وأحوالها وما استنتج الله منها وعلم نبيه وأمته ووعظ وذكر وحذر وأنذر .

ثم شرع سبحانه يبين للنبى صلى الله عليه وسلم ولأمته مقصود هذه القصص وأمثالها ، وأن المقصود من هذه الأخبار تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد كل مؤمن يقرأ هذه القصص ، فإن الإنسان إذا علم ما أصاب الصالحين قبله من البأساء والضراء ثم تم النصر لهم فى آخر الأمر يثبت قلبه وهكذا صلى الله عليه وسلم لما علم من هذه السورة كما علم من غيرها كيف كانت عاقبة الأنبياء وعاقبة أممهم من الأتباع والكفار تأسى وصبر وثبت قلبه لعلمه بالعاقبة وهذا قوله تعالى (وكلا) وكل نبأ (نقص عليك) وقوله (من أنباء الرسل) بيان لكل، وقوله (ماتثبت به فؤادك) بدل من « كلا » (وجاءك فى هذه الحق) أى فى هذه السورة ( وموعظة

وذكرى للمؤمنين ) وتثبيت قلبه معناه زيادة يقينه ، فإن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وهكذا توارد القصص المتشابهة المغزى فى موضوع واحد توجب الاستئناس .

هكذا قراءة المؤمنين لأمثال هذه القصص تورثهم موعظة من المعاصى وتذكرهم أحوال الأمم فيقيسون عليها أنفسهم .

ولما كان ماتقدم نافعا له وللمؤمنين أمره أن يخاطب الكافرين قائلا : اعملوا على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها ( إنا عاملون ) على مكانتنا وهذا كقوله « لكم دينكم ولى دين » ( وانتظروا ) بنا الدوائر ( إنا منتظرون ) أن ينزل بكم مثل مانزل بالأمم السابقة كما قصه الله فى هذه السورة من الهلاك اللاحق بهم لما كفروا كما كفرتم .

ثم ختم السورة بالتوحيد وإرجاع الأمور كلها لله تعالى فقال ( ولله غيب السموات والأرض ) وحده لايخفى عليه شىء فيهما ( وإليه يرجع الأمر كله ) ومنه أمرك وأمرهم فيثيبك ويعاقبهم (فاعبده وتوكل عليه) أى فمن كان كذلك فهو مستحق للعبادة لاغيره فاعبده وحده وتوكل عليه ، يعنى وثق به فى جميع أمورك فإنه يكفيك كما فى قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » ( وماربك بغافل عما تعملون ) أنت وهم وجميع الخلق فهو يحفظ أعمالهم جميعا لايخفى عليه منها شىء فيجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، والله أعلم . انتهى التفسير اللفظى .

لطيفتان

[الأولى] فى قوله تعالى « فأما الذين شقوا الخ » .

[الثانية] ماأهم العلوم التى كان يرمى إليها الأنبياء فى هذه السورة وكيف خزنها الله فى القرآن للمسلمين فى هذا الزمان وكل زمان .

اللطيفة الأولى

اعلم أن من علماء الأمة الإسلامية من نظروا فى هذه الدنيا ونظامها وحكمة خالقها ورحمته التى وسعت كل شىء ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة المسلم كلها دعوات تسند جميع أفعال الخلق إلى الله تعالى .

وهذا كله مما يوقع فى النفوس أن خالق هذا العالم عنده رحمة عظيمة فوق رحمة الناس وفوق مايعرفه الناس

كيف لا وهو القائل فى هذه السورة « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » وهو القائل على لسان بعض رسله « مامن دابة إلاهوآخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » فالنظر فى العالم والنظر فى بعض الآيات والأحاديث جعل بعض العلماء يفكر فى هذه الآيات ويقول إن العذاب ليس يكون بلا نهاية .

قال العفيف التلمسانى : إذا بلغ الانتقام الغاية انقلب رحمة ، وقام المصطفى صلى الله عليه وسلم لجنازة فقالوا إنه يهودى ، فقال أليس للملك معها أليست نفسا .

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبد الرءوف الحدادى القاهرى المعروف بالمناوى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣١ هـ فى شرحه على (قصيدة النفس) لابن سينا مانصه :

قال فى الفتوحات المكية [هذا أرجى مايتمسك به أهل الله إذا لم يكونوا من أهل الكشف ولا التعريف الإلهى فى شرف النفس الناطقة وأن صاحبها وإن شقى بدخول النار فهو كما يشقى هنا بأمراض

النفس والملل والهموم ، وأن ذلك كله غير مؤثر في شرفها إذا كانت من العالم الأشرف فقام لها لكونها نفسا أي لذاتها وهذا يؤذن بتساوي النفوس .

وفي رسالة القشيري عن بعض الصلحاء أنه ذمّ من رأى نفسه خيرا من فرعون ، وقال وهذه مسألة من أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس وإن عمرت النفوس الدارين ، ولابدّ من عمارة الدارين كما ورد أن الله سيعامل النفوس بما يقتضيه شرفها بسبب لايعلمه إلا أهل الله فإنه من الأسرار المخصوصة بهم ، فكما أن الحدّ يجمعهم كذلك المقام يجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى في الذين شقوا «إنّ ربك فعال لما يريد» ولم يقل « عطاء غير مجذوذ » كما قال في السعداء وقال أيضا « رحمتي سبقت غضبي » وقال « ورحمتي وسعت كل شيء » .

كل ذلك منه منة فإنه كتب على نفسه الرحمة . قال المناوي إلى هنا انتهى كلام ابن عربي .

أقول : ولم يقتصر الأمر على الصوفية رحمهم الله بل تعداهم إلى غيرهم

قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى « عطاء غير مجذوذ » ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار .

وروى عن ابن مسعود أنه قال « ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد مايلبثون فيها أحقابا » .

وعن أبي هريرة نحوه . وقال المناوي: إنه قد جاء في بعض الآثار مايدل على خلاص الكل وأن النار تفنى ويزول عذابها دون الجنة .

قال ابن تيمية نقل ذلك عن عمر وعن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم .

وأخرج عبد الحميد بن حميد عن عمر بإسنادين رجالهما ثقات « لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه» وتداوله أئمة غير مقابلين له بالإنكار قال أعني ابن تيمية وإنما أراد جنس أهل النار الذين هم أهلها ، وأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علموا هم وغيرهم أنهم لايلبثون قدر رمل عالج ولا قريبا منه ، ولفظ أهل النار يختص بمن عدا المؤمنين كما يشير إليه عدة أحاديث ولايناقضه قوله تعالى « خالدين فيها ـ وماهم منها بمخرجين» إلى أن قال «لكن إذا انقضى أجلها وفنيت كما تفنى الدنيا لم يبق نار فلم يبق عذاب » قال وورد في عدة طرق عن ابن عمر « وليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد مايلبثون فيها أحقابا » .

وجاء نحوه عن ابن مسعود وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي « جهنم أسرع الدارين عمارا وأسرعهما خرابا » ثم إن ابن تيمية رحمه الله أورد قول من يقول إن الإجماع على خلاف ما ذكر ونحوه . وردّ هذا القول قائلا إنما يظنّ الإجماع من لايعرف النزاع . والسلمون جميعا أجمعوا أن عذاب جهنمَ دائم لاينقطع ، هذا قام عليه الإجماع ، ولكنّ إذا بطلت جهنم بالكلية لايقال إنهم خرجوا من جهنم ، بل يقال إنها فنيت فهم يعذبون ما دامت باقية ، فإذا خربت فأين يعذبون ؟ وفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس .

هذا ملخص ما قاله المناوي ، ثم قال : حكى ذلك كله ابن القيم وأطنب فيه ودفع قوادحه في نحو كراسة . ثم قال والذي نعتقده ما عليه هداة هذه الأمة وجمهور الأئمة أن النار لاتفنى ولايزول عذابها ، قال ووافق ابن القيم على نحو مازعمه جمع من الصوفية كما تقدم اه .

هذا وإنما أريتك هذه الآراء المختلفة في هذا المقام لتعلم مقدار ماوصل إليه علماؤنا والمحققون منهم في هذا المقام والله يتولى هدايتنا .

## اللطيفة الثانية

اعلم أن هذه السورة أشبه بثمرة الجوز المقسمة إلى بيوت كل واحد منها فيه اللب الشهى النافع للأجسام المغذى لنوع الإنسان ، وإنما شبهتها بتلك الثمرة لأن الجوز له قشر يحيط بلبه وفى داخله بيوت منظمة محتوية على اللب المطلوب للآكلين : هكذا هذه السورة فيها القصص الدالة على نجاة الطائعين وهلاك العاصين .

والمقصود من ذلك كله العلم بنظام العالم وجماله وبدائع حكمته وغرائب خلقته ، ولعلك تقول بالعجب ! كلما وصلنا إلى آية أو قرأنا حكمة أرجعتها إلى الحكم الكونية والغرائب الخلقية .

فياليت شعرى ما لقصة نوح فى سفينته ، وهود فى قبيلته ، وصالح وناقته ، وإبراهيم وامرأته ، ولوط وقريته ، وشعيب وجماعته ، وموسى ونبوّته ؟ .

فأين قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأفلاك فى دورانها والأسماك فى بحارها والنباتات فى حقولها والحيوانات فى فلواتها ؟ والذى يخيل لى أنك مغرم بالعجائب الكونية تدور حولها كلما سنحت سانحة أو برقت لك بارقة .

إذا قلت هذا أيها الذكى، أقول لك لاتعجل وانظر ماأقول : ابتدأ الله السورة بأن الكتاب محكم الآيات مفصل كما تفصل الفرائد وهو حكيم خبير . وأفاد أن علمه يعم مابطن وماظهر ، وأن عليه رزق جميع الدواب وهو العالم بمستقرّها ومستودعها وأن ذلك عنده فى كتاب وقد أسس ملكه جميعه على العلم ، فلادابة فى الأرض من طير يطير وبهيمة تسير وسمك يجرى وحشرة تسرى إلا وهو قائم بنظامه عالم بما يحتاج إليه رازق له منظم لأعضائه وحياته معطيه رزقه ، فإذن ليس لدابة فى الأرض إلا خالقها ومنها الإنسان وهو أشرف المخلوقات ، فهذا أساس هذه السورة .

ألا ترى إلى قول هود « إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ؟

أنظر كيف استدلّ بعلم الدواب وأن الله قابض على ناصيتها عالم بمستقرها ومستودعها ؟ أليس هذا ترديدا لما فى أوّل السورة دلالة على أنها مؤسسة على هذا الأساس مبنية على هذا المبدأ قائمة على قرار مكين من علم شامل وعمل دائم وحكمة عالية ؟ .

هاهو ذا النبى هود يقول «إنى توكلت على الله الخ» وما برهانه إلا ماجاء فى أول السورة وهو جوهرها ومقصودها ، فيقول إن الله ممسك بنواصى الدواب ويعلم مستقرها ومستودعها فكيف أكون نبيا وأخاف من المخلوقات والله آخذ بناصيتى ، وربى على صراط مستقيم لايبقى إلا ما كان أنفع فى الوجود ، ولاشك أن العلم أبقى على العالمين والجهل أردأ المخلوقين ، وأنا قد أرسلت بالعلم فهل يخذل الله الصلحين وينصر الجاهلين؟ كلا ثم كلا ! .

وانظر إلى نوح كيف يقول الله له « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » وذلك للمبالغة فى الحفظ والرعاية كأنه يراه بعيون كثيرة على سبيل التمثيل حتى لايلحقه ضيم فهو المنجى له ، وهذا كقوله فى المبدأ « ويعلم مستقرها ومستودعها » .

وقال الملائكة للوط « إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » وقد نجى الله شعيبا وبقية الأنبياء ، فانظر كيف رجع أمر الأنبياء جميعا إلى مراعاة الله لكل مادبّ على الأرض من الإنسان والحيوان وحفظه لها وأخذ الأنبياء يردّدون ذلك المعنى حتى قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر السورة ماجمع ذلك كله فقال «ولله غيب السموات والأرض» وهذا كالذى ذكر فى الأساس من عموم علم الله ، وقوله «وتوكل عليه» هو عين ماقاله جميع الأنبياء لرسلهم ، وقوله « وما ربك بغافل عما تعملون » هو كقوله تعالى « ويعلم مستقرها ومستودعها » .

فأول الأمر وآخره فى هذه السورة أن الله محيط بعالم الحيوان وغيره قائم بتدبيره وأن الأنبياء جميعا قد حققوا هذه الفكرة وعرفوها بما أوحى إليهم فلا يبالون بأعدائهم وهم متوكلون على الله ، والآية التى ختمت السورة أتت بمجمل ما جاء فيها ، هذا هو مقصود السورة ، وهذا هو اللب .

واعلم أن إرسال الأنبياء والقصص الواردة فى الكتب السماوية والأمر والنهى وغيرها ليس يقصد منها إلا ترقية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهالة بالعرفان وكل ماورد من علوم الأخلاق والآداب لم يقصد منها إلا ترقية العقول بالعلوم .

وههنا قد وصلنا إلى المقصود فنقول : كيف يعرف الإنسان أن الله آخذ بناصية كل دابة وأنه يعلم مستقرها ومستودعها إلا بدراسة علم الحيوان ؟ .

ياعجبا كيف يعرف الناس أن الله آخذ بناصيتها إلا بالدراسة التامة ؟ ومامثل الناس فى ادّعائهم أنهم يعرفون علم الحيوان وهم لم يدرسوه إلا كمثل الجمال والبقر إذ تزعم أنها تعرف الحيوان المحيط بها من الجمال وبقية الدواب . أو كمثل من يظنّ أنه عالم بالشمس والقمر والكواكب وهو لم يعرف إلا صورها الظاهرة ولم يدرس من علم الفلك درسا واحدا ، فكم فى الأرض من مغرورين ، وكم فى بلاد الله من غافلين ، وكم من صم بكم عمى فهم لايعقلون ؟.

أنزل الله سورة هود وبين حجج الأنبياء على التوكل عليه لأنه القادر العالم الخالق العليم بأحوال الحيوان ، فعلى المسلمين دراسة علم الحيوان كما يدرسون علم الفقه كلاهما فرض كفاية .

فلأذكر لك أيها الذكى فى هذا المقام عشرين عجيبة من عجائب الحيوان بعد ماقرأته فى هذا التفسير وبعد مابينته فى هذه السورة نفسها لتكون أنسا لك وجمالا وكمالا ولتقبل بقلبك على دراسة العجائب الإلهية ولتكون من الموقنين .

## خزائن الجواهر فى سورة هود

اعلم أن هذه العجائب الكونية الحيوانية الآتية وغيرها من جواهر مخزونة فى سورة هود مقصودة لنفسها ، فلعمرك ليس يراد من الإنسان إلا كماله الجسمى وكماله العقلى والأخير أرقاهما مقاما ، ولن يتم ذلك إلا بنظام هذا العالم ، ومن نظامه الجواهر التى خزنها الله فى سورة هود ، نعم خزنها للأجيال المقبلة وبعض الذين سبقوا من أولى العلم والحكمة الذين هم لله شاكرون « وقليل من عبادى الشكور » .

وأكثر الناس لايشكرون الله لأنهم جهلاء بالحقائق مكتفون بالظواهر فلا يعرفون من سورة هود مثلا إلا التاريخ وتطبيقه والنحو وإعرابه والبيان ومجازه والمعانى وحقائقه والبديع وجناسه ويتلهون بالبلاغة ، وأن القرآن معجز العالمين تارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة من مثله ، كل ذلك اكتفى به أكثر الناس عن الحقائق وضلوا طريق الدقائق وما وصلوا إلى ماهم له طالبون .

ولعمرك لم يتعدّ أمثال هؤلاء أول الطريق ، ولا قاموا للدين بأدنى نصيب ، ومانالوا من ذلك كله إلا تصديق النبوّة ولكنه تصديق يتبعه الأعمال والعلوم .

أما الأعمال فكالأخلاق التى تؤخذ من هذه القصص .

وأما العلوم فهاك هذه العشرين عجيبة تذكرة وبشرى للعاقلين الذين درسوا هذه الكائنات وأحكموها وفقهوا بعض أسرار هذا الكون وأدركوها ، وهم طوائف من أمم شتى وأزمان مختلفة ، اختلفت دياناتهم وشرائعهم وبلدانهم وأزمانهم وهم فى الحقيقة متحدون لأن علمهم الذى حصلوه هو نظام هذا الوجود وعجائب هذا الملك فخذها عشرين عجيبة عسى أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم « إلا من رحم ربك » فإنهم لما أدركوا عجائب صنع الله لم يختلفوا فيها بل اتحدوا وعرفوا بواطن الأمور ولم تلههم القشور .

العجيبة الأولى : لغات الحيوان

من غرائب أمر الحيوان أن لأنواعه طرقا لتأدية المراد كما أبان أهل العلم والاختبار وقد شاهدوه فى أدنى الحيوان كالنمل والنحل وقالوا إن النمل يفهم أمثاله بطريقة اللمس بالقرون ، وفى تلك القرون من قوة اللمس ماليس للانسان .

ويحكى أن (فرنكلين) كانت عنده جرة من القند ( عسل قصب السكر ) ازدحم النمل فيها فخشى (فرنكلين) على قنده فعلق الجرة بحبل من السقف فرأى نملة خرجت من الجرة وصعدت على الحبل وبعد نصف ساعة رأى ما لايحصى من النمل نازلا على الحبل إلى الجرة وكانت النملة حين تشبع تخرج تاركة مكانها لغيرها ، وظل النمل بين صاعد وهابط إلى أن فرغت الجرة من القند اه .

وعلى ذلك نقول إن النملة أخبرت النمل حتى جاء إلى الجرة ، وليس يلزم من قولنا إن للنمل لغة أن تكون لغتها كلغاتنا بل المقصود أن يفهم عنها مايلزمها ، فالمراد باللغة هنا كل ما أفهم المراد ، ومن هذا نفهم « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » ومن هذا وأمثاله فليفهم القرآن ، وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون .

العجيبة الثانية : نظار النمل

قال بعض علماء العصر الحاضر : إن رؤساء العمل فى النمل تضرب بقرونها حثا للعملة فتسرع وتبذل كل مجهود فى العمل .

ولقد شاهد ذلك فى حرب النمل فترى أنه عند التقاء الجيشين يضرب أمراء الجيش الأرض بقرونهم فتلتحم الحرب ويشتد الكرب ويعظم الهول ويحمى الوطيس وتقوم الحرب على قدم وساق ، وتفتك الأبطال بالأبطال ويكثر النزال ويحمل الجحفل على الجحفل وتحتجب الجنود فى ظلام القسطل وتظل نار الحرب تلظى إلى أن يتم النصر للقادرين وهم الغانمون ، ويجتمع النمل على مدب كنصف محيط دائرة وينطح المنذرين ( بفتح الذال ) .

وبهذا نفهم « ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب » أى اللوح المحفوظ « من شئ » .

العجيبة الثالثة : لغة النحل ولغة النمل متقاربتان

يقال إن لغة النحل ولغة النمل متقاربتان كالإنجليزية والفرنسية ، وذلك أن هؤلاء العلماء جدوا حتى صموا الأصوات منهما بطرق طبيعية ووجدوا لصوتهما ولتنوعاتهما مشابهة .

العجيبة الرابعة : حكاية نملة

استيقظت نملة صباحا نحو الساعة السادسة من تلقاء نفسها بلا منبه فغسلت وجهها وأصلحت من شأنها بالمفرشة والمشط اللذين وهبا لها من الله بحسب جبلتها وهما فى طرف قائمتيها القدمتين ثم نظفت القائمتين بفمها وخرجت فى سرب من أخواتها ماشيات فى بعض دهاليز المنزل نحو غرفة الملك فالتقت بأسراب أخرى سائرة إلى أشغال أخرى ، وبينما هن سائرات وقفت هذه النملة فنزعت قشة علقت ببدن إحدى أخواتها فى أثناء الطريق كما يلتقط الرجل خيطا علق برداء صديقه . فلما فرغت من ذلك أسرعت اللحاق بسائر الرفاق فاعترضتها فى أثناء الطريق نتف من القش فنظفت الطريق منها وهى مع ذلك تغتنم الفرص للبحث على ماقد تعثر عليه من أطراف الجذور أو قطع الأوراق أو غير ذلك لتدخرها لطعامها اه .

العجيبة الخامسة : الزنابير وتناسلها

ومن عجب أن المسلمين فى أنحاء الكرة الأرضية إلا قليلا ينظرون الزنابير السود والصفر والحمر وهم عن

آياتها معرضون ويطردونها عن النحل وهم بعلمها جاهلون ، تبارك الله عز وجل ، فانظر أيها الذكي كيف تبيض الأنثى وكيف يخرج الدود ويأكل ما تقتنصه الأم له وكيف تصبح الدودة بعد ذلك (شرفيلجة) وكيف تصير بعد ذلك زنبورا كاملا يطير بجناحين ، إن الأنثى قبل أن تبيض بيضها الذي لايحتوي على غذاء لصغارها كما يحتوي بيض الدجاج وبيض الأوز تذهب فتقتنص بعض الهوام كالخنافس والذباب والفراش والبعوض أو الديدان أو العناكب . وتختلف الفريسة باختلاف أنواع الزنابير ، فإن أتت الأم بالفريسة ميتة قبلها ونعمت وإن كانت حية أفرغت عليها من إبرتها سما يسكرها ويخدرها فتتعطل حركتها وهي محبوسة في نفقها التي لبيضها ثم تلقي بيضها على تلك الفريسة وتسد القفير سدا محكما ، وبعد يومين أوثلاث يفقس البيض وتخرج ديدان تتغذى من جسم الحشرة التي هي عليها حتى تنقضي المدة الدودية ثم تصير شرنقة ثم تصير طائرا فتطير وما ذلك الطير إلا الزنبور .

فانظر يارعاك الله كيف علمت أنثى الزنابير بلا معلم ولا كتاب ولا نبي أرسل إليها ولا دراسة ولا تجربة أن بيضها الذي ستلقيه لاقوت فيه لأبنائها ، وكيف ألهمت أن تعوض بدله خنافس أو ديدانا أو ذبابا ؟ وكيف أعطيت مادة سمية لتخدر بها تلك الفريسة ، وكيف ألهمت استعمالها وكيف كانت تلك المادة السمية لاتقتل الحشرات لئلا ينتن جسمها ولا تبقيها قوية لئلا تهرب أو تكثر الحركات ، بل بقيت بين بين حتى يحصل المقصود للدود الذي يخرج من البيض ، وكيف تأكل منه الذرية وهي في عيشة راضية مرضية ، فانظر هذه الحكم الستة في الزنابير التي تعيش في سقوفنا وحيطاننا ونحن غافلون، والله يقول «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

العجيبة السادسة : زنبور يلدغ دودة

لبعض الزنابير طريقة عجيبة في قتل الحشرات التي أعدها لصغاره فإنه يختار دودة لها نحو (١٣) حلقة ومعلوم أن لكل حلقة مركزا عصبيا ولابد من لسعها في جميع هذه المراكز وأهمها مابين الحلقة الثالثة والرابعة فإنه في الدود أشبه بالمخيخ في الإنسان ، فإن هذا المخيخ إذا أصيب مات الإنسان حالا ، يعلم ذلك الزنبور علما حقا إجماليا بالغريزة فيأتي إلى الدودة ويقاتلها وتدافعه مرات كثيرة حتى إذا أخذت تضعف عن المقاومة رفعها إلى أعلى وطرحها على الأرض ثم لسعها فيما بين الحلقة الثالثة والرابعة فتخر صريعة مخدرة ثم يبقى الزنبور ساكنا مما حل به من التعب حتى يستعيد قوته فينقض عليها ثانية وهي خاشعة فيلسعها فيما بين الحلقة الثالثة والثانية ثم فيما بين الحلقة الثانية والأولى ثم يطير حولها مدة ويعود إليها ويلسعها فيما بقي من الحلق فتخشع خشوعا تاما مخدرة ساكنة وتبقى حية على الأغلب لتكون غذاء لصغار الأولاد .

العجيبة السابعة : الحشرات الصائدة بلونها المشبهة الزهرة

كل فلاح في بلادنا المصرية وغيرها رأى حشرة تطير بين الأشجار يسميها الناس في بلادنا [فرس النبي] ويسميها الترنسفاليون والإفرنج [الجندب المصلي] ويسميها غيرهم [فرس الشيطان] وهذه الدابة قادرة على الاحتيال بما يحير الألباب ، فهي تتلون بلون ماتقع عليه ، فهي خضراء على الورق الأخضر ، حمراء على الزهر الأحمر كثيرة الألوان على الزهر المتلون ، وربما رأيتها على غصن من الأغصان أشبه بزهرة من الزهرات بحيث لايفرق الناس ولا الحشرات مابينها وبين زهرات تلك الشجرة حتى إذا جاءت ذبابة بقربها انقضت عليها فقنصتها .

ومن عجيب أمرها أن حيلتها تتم بكمالها ، فإذا تشكلت بشكل الزهرة وهي على الغصن صارت من الشجرة في جميع أطوارها ، فحركاتها الطبيعية معدومة فهي أبدا ساكنة ، وإذا هبت الرياح والعواصف

والزعازع تحركت كأنها زهرة تلعب بها الرياح كما تلعب بغيرها ، وهذا يفهم من قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله فى هذه السورة « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » ولقد تقدم قريبا فى هذه السورة ماجاء فى العلم الحديث أن ألوان الحيوان إنما جاءت لحمايته ولبقاء حياته .

العجيبة الثامنة : الحباحب

وتعريف الحباحب أنه ذباب يطير فى الليل له شعاع فى ذنبه كالسراج وهذا النوع فى العلم الحديث ظهر منه أنواع كثيرة تشترك كلها فى الإضاءة بأشعة تشع من بؤرة فى ذنبه وليس لها مظهر إلا بالليل كالقمر والنجوم .

وقال العلامة (شوتز) إن للذكر منها بؤرتين : واحدة منهما وراء الأخرى وكل منهما مركبة من [طبقتين] عليا يشع منها النور ، وسفلى يظن أنها تعكسه إلى ماحول الحشرة ، ويقال إن الأنثى لاتضىء ، وقد وجدت الأنثى فى إيطاليا كالذكر فى الإضاءة .

وأعظم الحباحب ما وجدت فى جزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى يسمونها [ ذبابة المصباح ] لأنها تنير كالمصباح ، وأهل تلك الجزائر فى كوبا وجامايكا وسان دومينيكو يستخدمونها كالمصباح ، والسياح يستخدمون هذه الحشرة لإضاءة السبل فيعلقون واحدة أو اثنتين فى أحذيتهم فتضىء الطريق أمامهم وهى كما تكون هدى للمسافرين جعلها النساء زينة لهن وجمالا فى كوبا يغرسنها فى شعورهن بين الضفائر بدل الحلى من ألماس وعقيق وذهب ، وهذه تكسب نساء ( كوبا ) جمالا وبهجة وحسنا يفوق الجواهر المعدنية والأحجار الثمينة .

وأهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الحشرة فى الاستضاءة ليلا للخياطة ، فلو رأيت ثم رأيت جماعة من هؤلاء وقد علقوا قنديلا فى سقف البيت بينهم وليس فيه إلا تلك الحباحب والضوء منثور عليهم وهم يخيطون وهم فرحون بلا كهرباء ولا نار ولكن بالحباحب السارة للناظرين . وهذا من سر قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » .

العجيبة التاسعة : صاحب السفينة

إن فى الحيوان لعجبا وأى عجب ، فبينما تراه ذا فقرات كالإنسان وذوات الأربع والسمك والطير وأكثر الحيوانات والزحافات ترى منه ماليس له فقرات ولاعظم له البتة ، وهذه الحيوانات تسمى بالحيوانات الرخوة .

فانظر كيف كان العمود الفقرى والعظام عليها مدار القوة والحركة ، فأما هنا فقد انعكس الوضع وأعطى بدلا من الهيكل العظمى كساء خارجيا تتصل به العضلات للحركات الانتقالية ، وهذا الكساء الخارجى الذى أقام مقام العمود الفقرى والعظام إما أن يكون جلديا وإما أن يكون كالغضروف ، وإما أن يكون كالعظام وهو عبارة عن كساء كلسى ، وإما أن يكون أصلب من العظم وهو الصدف ، وهذه الحيوانات تسمى ذوات الأصداف ، ومن أنواعها :

(١) القوقع الذى منه الحلزون المعروف فى البحار ، ومنه الأبواق الكبيرة المائلة ، وهذا الكساء إما مستدير كالصحن وهو طبقة أو طبقتان مثل (أم الخلول) و (الكندوفلى) و (البطلينوس) وقد يكون هرمى الشكل كالأبواق وقد يكون حلزونيا وقد يكون مستطيلا كالأنبوب .

والذى يهمنا فى هذا المقام أن نذكر هذا الحيوان الذى نحن بصدده فإنه من الحيوانات ذوات الصدف والصدف هنا فى هذا الحيوان كالسفينة يستخدمها كما نستخدمها نحن ، إنه يعوم بها فوق الماء فى بحر الهند

خصوصا

خصوصا بجوار (جزيرة ملقا) وقد أعطى ثمانية أصابع ، منها اثنان يجعلهما كشراع السفينة ينشرهما فى الهواء وبهما تسير السفينة كما يريد وهو يحوّلهما نحو الريح كما يحبّ ، وأما الأصابع الست الباقية فإنها جعلت كالمجاديف يرسلها على الجانبين وبها تسير السفينة بقوّة التحريك ويسيرها الشراعان بقوّة الهواء الضاغط عليهما وهما منشوران غشائيان . فاعجب لسفينة حقيقية لم تلتصق بجسم الحيوان لها شراعان غشائيان كأنهما من نسيج القطن أو الكتان والمجاديف تحيط بها والنوتى يعيش فيها ، ومتى طرأ عليه خطر أو أحسّ بأىّ مؤذ قبض المجاديف والشراعين واختفى فى الصدفة وغاص فى قاع البحر ونجا من الخطر الداهم « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

العجيبة العاشرة : سمك يطير

إن من السمك مايعيش فى مياه الولايات المتحدة والبرازيل وفى البحر الأحمر يبلغ نحو شبر ، ألوانه جميلة زاهية سماوية وفضية ، وله زعانف بها يطير فى الجوّ أسرابا مسافات طويلة ثم يخوض فى الماء ويعود فيطير . ومن عجب أن هذه الموهبة العجيبة والنعمة العظيمة وهى تمتعه بالهواء فى جوّ السماء وسعادته بولوج ماء البحر قد قوبلت بما يناسبها من المهالك ، فهو يكون فريسة السمك الكبير فى البحر إذا غطس فى الماء وتصيده طيور البحر إذا علا إلى الجو ، وانظر قوله تعالى « ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان » فقد وزنت النعمة بالنقمة ليعتدل العمل ويقوم الأمر بالقسط ، فإذا أعطى السمك الطيار نعمتين فقد سلطت عليه نقمتان « وماربك بظلام للعبيد » وإنما يضع الموازين القسط .

العجيبة الحادية عشرة

الحيات التى لاسمّ لها أكثر من ذوات السّم ، والثعبان الذى لاسم له ولكنه يبتلع الإنسان

قرأت فى قصة (روبنصن) السويسرى المترجم بقلم المرحوم صديق صالح بك حمدى حماد ، قال إن الحيات السامّة تبلغ نحو مئة صنف من الحيات ، أما الحيوانات التى ليست بسامّة فهى تقرب من أربعمائة نوع ، ثم قال إن الأصناف السامة تعيش عادة فى الأحراش الكثيفة والمستنقعات الدائمة والسم الذى فيها لايكون إلا من تعاطيها الحشائش السامّة والأبخرة الخبيثة والروائح الكريهة فى الهواء الفاسد فى تلك المستنقعات وكذلك ماينبعث من الأراضى الرطبة التى لم تزرع فذلك كله يحدث السم فى تلك الحيات ، ومتى أصلحت الأرض التى تأوى إليها تلك الهوام وزرعت وعمرت بالمساكن والقرى اختفت منها تلك الأنواع ، ومن أهمّ الحيات التى لاسمّ لها (البوا) وهو عظيم الجثة يختطف الرجل والحمار كما اتفق لروبنصن أن حماره كما فى قصته الخيالية اختطفه ذلك الثعبان العظيم وابتلعه من قبل رجليه حتى إذا انتهى إلى رقبته ضربه (روبنصن) وأرداه بالبندقية فخرّ صريعا .

وأقول : إن للسافرين الذين يجوبون الأقطار التى يسكنها يعرفون طبعه وأنه يقتنص الإنسان من جهة رجليه ، فإذا نام الرجل منهم وسع مابين رجليه ، فإذا جاء ذلك الثعبان وابتلع رجل النائم استيقظ حالا وسلّ مديته وقطع بها حلقومة فيموت حالا « إن ربك هو القوى العزيز » .

العجيبة الثانية عشرة : العصفور الخياط

مالى أرى أمّة الإسلام قد نامت نومة عميقة ؟ لماذا لايدرى المسلمون العلوم التى بها أمر الله ؟ ياعجبا كيف يعتنى الإنجليز فى متحفهم البريطانى بأنواع العشّ الذى يخيطه ذلك العصفور ؟ ليستيقظ عقل الشبان لما فى هذا العالم من الجمال ، وأمة الإسلام نائمة عاكفة على الجهالة فى النوم العميق ، إنّ نوعا من العصافير التى أنعم عليها بطول ذيولها تخيط أعشاشها خياطة يحار فيها الناس بلا إبرة ولا خيط ولا آلة خائطة ،

فيعمد العصفور إلى ورقة شكلها أشبه بالرمح وهى فى غصنها ثابتة ويأتى العصفور بورقة أخرى أصغر منها ويخيطها عليها بقطع من عيدان دقيقة على نسق عجيب ، فإذا فرغ العصفور من الخياطة عمد إلى القطن فحشاه به وذلك كله قبيل وضع الأنثى فتضع عليه بيضها ومتى فقس عاشت الفراخ أيامها الأولى على ذلك الفراش الناعم فى بيت معلق فى الهواء يتحرك بأخف النسيم .

العجيبة الثالثة عشرة : العصفور النساج

إن من العصافير نوعا يصنع عشه كهيئة الجراب قد نسجه من قطع القش وأقامه بين الأغصان وهو كروى أو إهليلجى أو مخروطى وله فتحة يدخل منها العصفور إلى أفراخه ، وفى الجدار من دقة الصنع وحسن الصورة العملية ما يدهش أولى الألباب .

العجيبة الرابعة عشرة

العصفور الذى يبنى بيته ويصنع له بابا يقفله عند الحاجة فهو أرقى من بعض المتوحشين والعصفور الذى يحبس زوجته

إن هذا العصفور يبنى عشه فى أواسط أفريقيا فيفتح باب عشه ويقفله متى أراد ، وقد رأى العلماء من الناس من لا يصنعون لمنازلهم أبوابا .

وذكر العلامة (جيرون) فى كتابه المسمى [طيور الهند] أن بعض العصافير إذا آن زمن التفريخ استعدت له كما يستعد الناس زمن الحمل ، فترى النساء يحضرن اللفائف قبل الوضع وترى اللبن يتقاطر إلى ثدى المرأة شيئا فشيئا ، فهذا النوع إذ ذاك يحبس ذكره أنثاه فى عشها ويقفل عليها بابا من الطين وفيه ثقب لا يسع إلا منقارها لتلتقط به الطعام وليدخل منه الهواء ، أما الأنثى فإنها لا تأكل إلا ما يحضره لها الذكر فتلتقطه بمنقارها ، والعصافير فى هذا أشبه ببعض الناس إذ يتجنبون المرأة أيام نفاسها ، وهذه الأنثى لا تزال محبوسة حتى يتم الإفراخ وبعد ذلك يتعاون الزوجان على كسر ذلك السجن .

العجيبة الخامسة عشرة : العصفور الذى يصنع عشا كالجيب

ذكر العلماء ـ ومنهم الرحالة (سونرات) الرحالة الشهير ـ طيرا يجعل عشه كالقنينة الكبيرة أو كالجرة ويتخذ له مكانا فى داخله عند مدخله ليكون حارسا لها وحافظا لأولادها وذلك لأن الأنثى إذا آن زمن وضع البيض اختفت فى عشها لا تخرج منه حتى يتم التفريخ .

فياعجبا نوعان من العصافير اتفقا أن أنثى كل منهما تبقى محصورة بطبعها جاثمة على بيضها وأحد الذكرين يحميها بأن يسد عليها بالطين والآخر يحميها بأن يحرسها فى باب عشها حتى لا يفاجئها خطر ، وهذان النوعان من العصافير أشبه أولهما الناس حين يتخذون الحصون ردءا يتقون بها الخطرات ، والثانى أشبه الناس حين يفتحون حصونهم ويوقفون جنودهم وهم شاكو السلاح .

ومن العجيب أن النوع الثانى الذى نحن بصدد الكلام عليه إذا أراد الزوجان سياحة أو خروجا لغرض ، ضرب الذكر بجناحيه باب العش فينطبق على ما فيه من الفراخ حتى يرجعا وهما آمنان على الأفراخ .

فانظر كيف قام الصنف الثانى بالطريقتين ، فإحداهما حين وجود أنثاه ، وثانيتهما عند خروجهما من المكان فيجعل العش حصنا للذرية حتى يرجعا إلى المكان .

العجيبة الملحقة بالخامسة عشرة كيف تعيش جماعات هذا النوع من العصافير

إن جماعات هذه العصافير تعيش أسرابا وتكون أعشاشها مدينة عامرة حول جذع شجرة ضخم ، وقد يجتمع حول ذلك الجذع نحو (٣٠٠) عش صغير ، وقد نقل بعض العلماء عشا من هذه من أفريقيا

وقد

وقد حملها بضعة رجال ونقلت فى مركبة خاصة فى سكة الحديد ، ومن نظر إليها من بعد خالها سقوفا معلقة بجذوع الشجر والعصافير تلعب فوقها .

اللطيفة السادسة عشرة : العنقاء

هل العنقاء موجودة ؟ كلا . هذا هو الرأى المعروف فى العالم الإنسانى ولكن الذى ظهر وتحقق الآن أن العالم الأرضى كان فيه حيوانات كبيرة من سائر الأنواع ثم انقرضت ، فنها (الموث) وهو الفيل العظيم الجثة لم يبق إلا آثاره ، وقد عثر الأستاذ (أوين) فى زيلاندة الجديدة على عظام من طيور ونقلها إلى كلية الجراحة فى لندن فوجدوا فيها هيكل عظم لطائر كبير ارتفاعه عشرة أمتار ، وأدق عظامه وأصغرها لاينقص عن فخذ الإنسان القوى وهذا الحيوان يسمى (الدينورنيس) وقد انقرض من أجل غير بعيد ، وسكان زيلاندا يتناقلون خبره فيما بينهم ، فأى مانع يمنع أن تكون العنقاء قد انقرضت من بلاد العرب وبقى الناس يتناقلون أخبارها وأصبحت خرافة وليس ينقص تحقيقها إلا العثور على بقايا عظامها كما عثر على طير زيلاندا وياليت شعرى أى عظمة للعنقاء ، وأى غرابة فيها بعد ماتبين أن هناك طيورا هائلة بقيت آثارها الآن وهى أعظم من العنقاء ، وأن هناك فى متحف باريس بيضة لطائر منقرض يسمى (ايبورنيس) كان فى مداغسكر وحجم هذه البيضة يزيد على سته أضعاف بيضة النعام الكبرى وهى تساوى (١٢٠٠٠) بيضة من بيض الطيور الصغيرة وثخانة قشرتها تساوى مليمترين بحيث لاتكسر إلا بالمطرقة ، فعلى ذلك تكون قوة منسر فرخ هذا الطائر عند خروجه من البيضة كقوة المطرقة حتى يتيسر له الخروج من البيضة بمنقاره .

فإذا سمعنا القزوينى يقول: العنقاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر لم يكن فى ذلك بعد إلا أنه مبالغ فيه ويكون ذلك حيوانا انقرض أشبه بما ظهر اليوم فى العالم كما تقدم . ويقول علماء طبقات الأرض إنها كانت فى غابر الدهور أوفر حرارة وأقوى حيوانات ، وكان نباتها وحيوانها أعظم جدا من النبات والحيوان اليوم ، وكلما مرت عليها دهور صغرت حيواناتها ، ويقول علماء الأرواح: إن الأرضين التى حول الشمس مثل أرضنا تكون الأجسام فيها أعظم فى أول أمرها ، فإذا جاء دور انحلالها أخذت المخلوقات التى فيها تصغر أجسامها ولكن عقول العقلاء فيها تقترب من عالم الأرواح وتكون أكثر صفاء وأجمل أخلاقا وأحسن علما « والله يعلم وأنتم لاتعلمون » .

العجيبة السابعة عشرة : الحرباء

هذا الحيوان وديع جبان يعيش فى الأقاليم الحارة مثل أفريقيا وأسبانيا وأمريكا وهو من رتبة الورل رأسه كبير بالنظر إلى جسمه وظهره ذو أسنان وذنبه ولسانه طويلان ، وطول لسانه يساوى طول بدنه ، وفى هذا الحيوان ثلاث عجائب أصلية: لسانه ، وتغير ألوانه ، وطول أناته وصبره . أما لسانه فهو عدة حربه يقوم مقام المدافع والأساطيل والجيوش لفتح المدن لقصد تحصيل الغذاء .

لعمرى لم يحارب الناس ولم يجمعوا الجيوش إلا لصد عدو أو جر مغنم ، وكل ذلك لقصد الحياة ، فهذا الحيوان إذا جثم على غصن يوقع فى وهمك أنه مائت ، ذلك لأنه يبقى زمنا طويلا لاحراك به وليس له رائد إلا عيناه يقلبهما ليراقب حشرة طائرة ، ومتى مرت به فما هو إلا كلمح البصر حتى يختطفها به ويبتلعها ويتغذى بها . وذلك أن لسان هذا الحيوان مكسو فى آخره بمادة لزجة متى لامست حشرة التصقت بها بسبب تلك المادة ، ولهذا الحيوان أربع أرجل لكل رجل خمس أصابع ، وهذه الأصابع حزمتان متقابلتان ، وبهذه الأرجل وأصابعها يتشبث بالأغصان ، وإذا انتقل فإنما يكون ذلك ببطء وحذر ، فلسانه وصبره هما عدته لاجتلاب الغذاء ، أما عدته لدفع الأعداء فهو تغير ألوانه ، إن لون هذا الحيوان يتغير تبعا

لما يحيط به وقد قالوا إنه يغير لونه كيفما أراد فى أى وقت شاء وذلك ليشاكل ما يحيط به من المخلوقات ، فإن كان بجانب شجرة صار أخضر مشاكلة لها ، ذلك ليكون بمأمن من مفاجأة العدو المغير ، فلولا اللون وتغيره لأصبح فريسة الحيوانات الفائضة ولكان ذلك مفزعا للحشرات فلا تقترب منه ، وهذا الحيوان إذا أخذه الإنسان باليد صار أرقش واكمد لونه وظهر فى جسمه بقع سود وحمر ومابينهما ، وإذا غضب اشتدت حمرته حتى يصير أسود اللون ، وقد تمثلوا فى الحزم بالحرباء ومن أمثالهم أيضا [أصرد من عين الحرباء] أى أبرد يضرب لمن أصابه برد شديد ، لأن العرب تعتقد أن عين الحرباء تدور مع الشمس ويستقبلها بجبته ليستدفئ بها ، ولذلك شبه ابن الرومى الرقيب بالحرباء ، قال :

مابالها حسنت وإن رقيبها ... أبدا قبيح قبح الرقباء

ماذاك إلا أنها شمس الضحى ... أبدا يكون رقيبها الحرباء

فانظر كيف كان الصبر والأناة وسكون الحركات سببا لاقتراب الحشرات منه ، وكيف طال لسانه حتى يختطفها ، وكيف اتسعى بمادة لزجة فالتصقت بها الحشرات ؟ وكيف تفنن فى ألوانها ليشاكل ما حوله دفعا للمات وطلبا للخيرات فاقرأ « وما كنا عن الخلق غافلين » واقرأ « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » واقرأ « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى » فهذه هى الهداية ، وهذا هو قوله تعالى « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فاقرأ القرآن فى هذه العجائب ولا تكن من الغافلين النائمين .

العجيبة الثامنة عشرة ، من أهمّ سلاح بعض الحيوان الجلود المتينة

إن لكل حيوان سلاحا ؛ فالفيلة بالخرطوم ، والإنسان بالعقل والسلاح المشهور ، والوحوش بالأنياب ، والسباع بالبراثن ، والغزلان ونحوها بالعدو ، والطير بالتحليق فى الجوّ ، والثور بالقرون وما أشبه ذلك . وهناك حيوانات لاسلاح لها إلا جلودها كالتمساح إنه لايخترق جسمه الرصاص وكذا السلحفاة ، فإذا مشت ترى عليها قبة قوية متينة ، فإذا خافت مما يؤذيها انكمشت وأخفت رأسها وأرجلها فى ذلك الحصن الحصين ومن هذا النوع السرطان والقنافذ وغيرها .

العجيبة التاسعة عشرة : شريعة الغربان

وقد تقدمت فى هذه السورة فلا نعيدها .

العجيبة العشرون : الفرس الحاسب المتعلم

كان قدماء العلماء يقولون : إن الحيوان يتقابل مع الإنسان فى أوصاف شتى ، ففى الهيكل الظاهرى كالقرد ، وفى الذكاء كالفيل ، وفى الأدب كالفرس . وفى النطق كالببغاء ، وفى حمل الأثقال كالجمال : فكل حيوان من هذه اقترب من الإنسان بخصلة ولم يقدر حيوان ما أن يشارك الإنسان فى سائر أحواله ، ولقد كان الفرنجة فى أول نهضتهم يظنون أن القرد وحده قد اختصّ بالقرب من الإنسان ، ولكن لما استمروا يجدّون فى العلم ألحقوا به الفرس والكلب والهرّ والفيل :

ولقد كان العالم الألمانى المسمى (هرفون أوستين) يقيم فى شمالى برلين متفرغا لدرس طبائع الحيوان مدّة (١٤) سنة ووجه عنايته إلى فرس عنده وعلمه فنجح خير نجاح وقد سمى هذا الحصان (حنا النبيه) ولقد علمه على أحدث طريق تعليمى مدرسى بالطباشير والألواح السود وبالخرز وبالروائح العطرية والألوان ، وعلمه الحساب بالأرقام فعلمه الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العشرية وغير ذلك .

ولما شاع أمر هذا الفرس شكلت لجنة من علماء الحيوان فامتحنوه فأقرّ العالم (هرشيلنس) أشهر علماء الحيوان فى (برلين) أن هذا الحصان يقرأ الخط ويعرف الأعداد والنقود وكم الساعة : دقائق وساعات وأجوبته

على

على مسائل الحساب بالضرب على الأرض بحافره ، وإذا أراد تأكيد الجواب ضرب الأرض بحافره الأيسر ورفس رفسا شديدا ، ولما غالطه أستاذه إذ قال له اثنين واثنين عبارة عن خمسة ضرب بحافره الأرض أربع مرات ومع كل منها ضربة بحافره الأيسر ، وسألوه فى عملية حسابية طويلة فأجاب ولم يخطئ ، وملئوا قبعة خرقا بألوان مختلفة وسألوه عن كل واحدة بألوانها فكان يجيب ولا يخطئ ، وسألوه كم عدد الذين يتقلدون النظارات ، وعن السيدة التى على رأسها قبعة خضراء فأجاب ولم يخطئ .

واللجنة لما رأت هذه النباهة أخرجت الأساتذة الذين سألوه وابتدأ غيرهم فى السؤال فقدم أحدهم له ريالا وقال متى الساعة ؟ فلم يجبه . وقال بعضهم : نظف معلفك بخرقة وأنا أزيد فى علفك فالتفت يمينا وشمالا حتى وقع نظره على خرقة أمام الأستاذ (شيلنس) فالتقطها بفيه وأسرع إلى الإصطبل وأخذ يمسح معلفه بتلك الخرقة حتى نظفه تماما ثم أعاد الخرقة ، ولقد أتوا له بثلاثة أسلاك فى واحد أربع كرات ، وفى الثانى ست ، وفى الثالث ثلاث كرات وعلقوها بين يديه وطلبوا منه جمعها فضرب الأرض بحافره ١٣ ضربة ، وهو يعرف الحروف بالأعداد فلكل حرف عنده عدد ، وأتوا له بصحيفة عليها رقم خمسة وسألوه كم واحدة من هذه تساوى عشرين ، فضرب برجله الأرض أربع مرات ، وقد ميز أمامهم بين الذهب والفضة والنحاس وجعل للذهب ضربة وللفضة ضربتين ، وأروه ساعة وكان الوقت ١١ ونصفا فضرب أولا ١١ ضربة ، وصبر قليلا ثم ضرب ثلاثين ضربة .

وقال العلماء : إن نباهة هذا الفرس تقابل نباهة الإنسان وعمره ١٣ سنة وكان يوم امتحانه مشهودا حضره الأطباء والعلماء وأعضاء الأكاديميات العلمية وكثير من الأمراء والأشراف وكان أمرا عظيما .

ولما عرف ذلك واشتهر طلب أحد الأمريكان أن يشتريه بمبلغ (٥٧٠٠) جنيه فلم يقبل صاحبه وقال أنا لا أبيعه بأى ثمن لأنى لا أطيق فراقه ، ووقع العلماء والفضلاء ورجال الأكاديميات على الشهادة بما شاهدوه من هذا التلميذ النبيه .

ولقد أجمعت جرائد برلين أن ( حنا النبيه ) يمثل أعظم حادث يتعلق بعلم النفس فى المملكة الحيوانية ، هذه هى العجائب العشرون التى وعدتك بها تذكرة لقوله تعالى « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » الخ فبمثل هذا يدرس القرآن ، وبمثل هذا فليرتق المسلمون ، وبمثل هذا يكون مصداق قوله تعالى « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » بمثل هذا يا أمة الإسلام ترتقون ، وعلى ذلك فلتعوّلوا هو خير مما تقرءون من العلوم القشرية . فإياكم أن تقفوا على القشور فاخترقوها واطلبوا الألباب .

هذه هى الخزائن الإلهية فى الآيات القرآنية ، إنما مثل سورة هود كمثل قصر مشيد فيه حجرات فاخرة فى كل حجرة ما غلا من الثياب وماجمل من المتاع وفى داخل تلك الثياب الجميلة جواهر يتيمة كل جوهرة منها فى حجرة وتلك الجواهر هى عجائب الحيوان كما وضحته عند ما مثلت ذلك بثمرة الجوز ، فمن اكتفى بالثياب غابت عنه الجواهر فلم ينلها وخرج صفر اليدين منها . إن القرآن يقرؤه الناس ويكتفون بظواهر القصص وهم عن الجواهر معرضون ، إنما هذه القصص بحر فيه أنواع المخلوقات ولكن أجلها وأعلاها وأضوأها وأبهرها الجوهر المكنون فى صدفه فهاهى ذه الجواهر فى القرآن .

لقد ضلّ قوم انصرفوا عن الجواهر إلى الأصداف فقال الله فيهم « يضلّ به كثيرا » واهتدى قوم إلى الجواهر فقال الله فيهم « ويهدى به كثيرا » .

إنّ الكثير من المهتدين سيكونون من الآن إلى مستقبل الأزمان ، إن المسلمين سيقوم فيهم جيل جديد يتبعه أجيال وسيكون هذا التفسير وما ماثله فى أمم الإسلام من أنجع الوسائل لترقية المسلمين ، إنى بذلك موقن ولولا إيقانى به ما كتبت حرفا ولا أضعت وقتا ، ومتى أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

وقبل ختام التفسير فى هذه السورة أذكر حادثتين :

[الحادثة الأولى] إنى قرأت فى الجرائد هذين اليومين أن الأب (موفيه) الفلكى الشهير ومدير مرصد بورج صرّح بنبوءة أحدثت جزعا ، ذلك أنه تنبأ بوقوع حرب كبرى سنة ١٩١٨ أو أزمة خطيرة فى العالم وقال إن الأمم تتأثر بنشاط الأفلاك فى حركاتها ومواقع الشمس والنجوم وكذلك الأفراد ، وقد حذر الأب (موفيه) المذكور حينما كان فى بروكسل سنة ١٩١٠ حكومات أوروبا من مصاب هائل يوشك أن يعصف بالعالم مابين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ ، وهاهوذا الآن يحذر العالم من جديد ، ويقول إن الاضطراب فى مواقع الشمس يؤثر فى الجهاز العصبى الإنسانى كما يؤثر فيه الإقليم وهذه المقالة كتبت فى جرائدنا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ وإنما كتبتها لمناسبتها لما نحن فيه .

ألا ترى أن هذا العالم فى نظر الحكماء كجسم واحد وحيوان واحد وإنسان واحد «ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة » وإلا فبالله أىّ فرق بين تأثير الزنبور فى الدودة كما قدمنا وتأثير الشمس فى الأمم والأفراد ، إن العالم كشخص واحد ، فالكواكب والأقمار والنجوم لها ارتباط بكل حيوان وكل إنسان ، تلك هى الوحدة العامّة فى العالم ، والمحرك لها نظام واحد لايختل ، وما قتل الزنابير للدود ولافتك الآساد بالغزلان والذئاب بالحملان إلا حركات متصلة بالمبدأ الأعلى ، فظاهرها اختلال وباطنها حساب ونظام :

أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الإنسان

ومن هذا المقام أن ذلك المبدأ الأعلى أوحى إلى أمثال تلك الزنابير فقال لها متى اقترب زمان بيضها أن اقتنصى الذباب واصطادى العنكبوت واجذبيهما وأمثالهما إلى منزلك المنظم وأنزلى عليهما مالديك من المادّة السامّة واركبيهما ثم بيضى عليهما ، فإذا فعلت ذلك باضت وتركت بيضها ليتغذى دودها الذى سيخرج من البيض مما تحته من هذا الصيد ، إن هذه الحادثة التى قدمنا ذكرها وما ماثلها فيما ذكرناه ترينا نظاما واحدا فلكل حيوان نظام تام ليعيش به وليعدّ العدّة لأولاده ، باض الطير فألهم أن يجثم على بيضه أياما ولم يلهم أن يجتذب حشرات لأولاده لأن ما فى البيضة من الغذاء كاف ، حملت البقرة والشاة والمرأة ولم يحتجن قط إلى مااحتاجت إليه الدجاجة من حضنها بيضها ، ولاحشرة الزنبور من إحضار الصيد لأولادها ذلك لأن اللبن عندها قائم مقام ما ذكرناه .

يا أيها الناس . يا أيها الأذكياء . انظروا كيف تمّ هذا النظام ؟ كيف ألهم كل حيوان قبل وجود أبنائه بما قصرت فيه الطبيعة فأحضره لذريته المقبلة ؟ انظروا لهذا النظام ، انظروا كيف كان الإلهام مطابقا للاحتياج ولا يلهم الحيوان إلا حاجته ويمنع عنه ماليس إليه حاجة ، نعطف على الإنسان وننظر فنجده من أول التاريخ إلى الآن لايزال يجدّ فى العبادة وينصب التماثيل تارة ويوحد تارة أخرى وترسل له الأنبياء فيقولون : أيها الناس هناك عالم آخر فاستعدّوا له ، فتراهم يعبدون ويوحدون ، ومهما سافرت فى البلاد واخترقت الطرقات وجبت المدن لم تجد إلا مآذن شامخة ومساجد مشيدة وكنائس مبنية وبيعا منصوبة وآيات مكتوبة وأذكارا مقروءة ودعوات مطلوبة وأورادا متلوة ودروسا مفهومة وعلوما مروية وأحاديث مرفوعة وكتبا مقدسة مسموعة ونواقيس مدقوقة ومؤذنين يؤذنون وقراء يرتلون وصوّاما يجوعون وقوّاما بالليل يصلون ، أليس ذلك من الاستعداد للعالم الذى سنصل إليه بالوحى والإلهام كما استعدت الطيور فى أعشاشها والحشرات فى أماكنها للذرية المستقبلة ، وإذا كان الجراد لايضع بيضه إلا على بعد مخصوص فى مكان مخصوص ثم يتركه ويموت ويكون هذا الوضع وفق المطلوب وبه يعيش الجيل الجديد . فكيف لايكون الإنسان وأنبياؤه قد استعدوا للمستقبل كما استعد أقلّ الحشرات وسائر الأمهات لمستقبل الأبناء والبنات .

إن

إن صغار العقول من بنى الإنسان قد استهزءوا بالديانات وقد جهلوا نظام الأرض والسموات ونظام الذكران والإناث من أنواع الحيوان وغفلوا عن قوله تعالى « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » ثم هو لايلهمها إلا على مقدار احتياجها فألهم الإنسان ميعاده كما ألهم الحيوان مايربى أولاده ، هذا هو المعنى من هذه الآية ، وهذا هو الذى قصده الأنبياء إذ استدلوا بهذه على الله وعلى الميعاد، وتمت السورة بقوله تعالى « ولله غيب السموات والأرض الخ » فهل يصدق الحيوان ويخطىء الأنبياء والإنسان وهما فى النظام سيان ، وفى الخلق صنوان ، وهل يصدق المفضول والفاضل فى بهتان ؟ إن العدل ينكر ذلك والميزان .

[الحادثة الثانية] إن سيدة من أشراف السيدات اطلعت على ما كتبته هنا فى أمر الحباحب فدهشت وقالت ياعجبا إذاكانت الحباحب هكذا تضىء على الناس فكيف يكون نور الله ؟ ففكرت فى نفسى وقلت : إن الحباحب للضيئة من العالم الأرضى ، والأرض مشتقة من الشمس ، وهذه الحشرة أضاءت أمها الكبرى وهى الشمس ، ونسبة ضوء الحباحب إلى ضوء الشمس كنسبة الحباحب نفسها إلى الشمس ، إن عقولنا لها نور معنوى ، فنورها مستمد من نور معنوى أوسع، ونسبة إدراك عقولنا إلى ذلك العقل العالى المستمد من الله للدبر للعالم كنسبة ضوء الحباحب إلى ضوء الشمس ، هاتان الفكاهتان ختمت بهماتفسير هذه السورة . والحمد لله رب العالمين .

تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس من كتاب [الجواهر] فى تفسير القرآن الكريم

ويليـــه

الجزء السابع ، وأوله تفسير سورة يوسف عليه السلام

# فهـــرس

## الجزء السادس من كتاب تفسير الجواهر

صفحة

٢ تقسيم سورة يونس إلى سبعة أقسام وتحديد كل قسم منها وبيان مقصوده إجمالا .

٣ القسم الأول من أول السورة إلى قوله « أن الحمد لله رب العالمين » مكتوبا مشكلا ، ثم بيان اتصال أول هذه السورة بآخر ماقبلها .

٤ تفسير ( الر ) وبيان بعض سر هذه الحروف وتفسير ألفاظ هذا القسم .

٥ تفسير بعض الالفاظ ، وبيان قوله تعالى « فى ستة أيام » .

٦ بيان أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام كان معروفا ، ولذلك جاء صلة للموصول ، وذكر ماجاء فى الإصحاح الأول من سفر التكوين فى التوراة وبيان قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » . العرش إما البناء ، وإما الملك والعرش مقرون بالتدبير ، وتبيان أن ماغلب نفعه يبقى وذلك كالماء الذى جاء أنه استوى عليه العرش مع أنه قد يغرق الناسك والمرأة العجوز ، إذن الملك مبنى على علم والعلم به يصطفى ماغلب خيره .

٨ جمال فى إشراق شمس المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » وشرح شجرة ( السكاوتشوك ) الأستيك وأن السائل اللبنى المستخرج منها يحفظ الأسلاك البرقية فى البحر ومنه إطار العجلات والعربات والسيارات وقلل الماء الدافئ والوسائد ذات الهواء والأنابيب لإطفاء الحريق ، والمعاطف المانعة للمطر ولسقى الحدائق ، وهذه المادة مع الكبريت تكون مساطر ومقابض الخ .

٩ رسم شجرة ( الأستيك ) بالتصوير الشمسى وبيان تدبير الله فيها الذى جاء فى قوله « يدبر الأمر » فإنه خلق منفعتها فى حفظ الأسلاك فى البحر قبل أن تظهر الكهرباء ولا شئ يسد مسد هذه الشجرة فى حفظ كهرباء الأسلاك البرقية ، والله خلقها فى أقطار بعيدة وعرف الناس بها وأحوجهم إليها ليحصلوها بمشقة وعمل ليرتقوا وينشطوا .

١٠ آراء نوع الإنسان فى مثل هــذا المقام ، وأنه ثلاث درجات : دنيا كالعامة ، ووسطى وهم أكثر المتعلمين وعليا وهم الحكماء ، والقسمان الأولان لا نظر لهما فى التدبير العام ، والقسم الثالث هم قواد الأمم وهم الأقلون كقلة هذه الشجرة ولكن علمهم يعم كما عمت منافعها وقل وجودها ، وبهذا المثال ظهر أن العالم كجسم إنسان واحد أو حيوان واحد ، كبيره مرتبط بصغيره ارتباط العين بإصبع الرجل مثلا .

١٢ بيان تفصيل الآيات ، وبيان آراء علماء القرن التاسع عشر وآراء القرن العشرين ، والآخرون هم الناظرون فى التدبير العام كنص الآية مثل ( وبمان ) و ( سبنسر ) و ( كاميل فلامريون ) و ( فون بار )

صفحة

و ( چينو ) وغيرهم ، وأن آراءهم ترجع إلى قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » وإن كانوا هم لايعلمون ذلك .

١٣ الأرض كأم تربى أولادها إذ يخلق للأم الثديان قبل خلق الولد ، وهكذا خلقت هذه الشجرة قبل ظهور الكهرباء ، ومثل ذلك إلهام الحشرات وسائر الحيوانات التى استدلّ بها علماء القرن العشرين على وجود مدبر للوجود ، وبيان أن هذا التفسير ظهر قبيل ظهور قادة من الأمم الإسلامية كما ظهرت الشجرة المتقدمة قبل ظهور الكهرباء فهذا التفسير من دلائل النهضة القريبة فى بلاد الشرق .

فريدة فى التدبير العام ، وبيان أن القوى ثلاثة أقسام : قوى الغرائز الحيوانية ، وقوة العقل ، والقوة القدسية والعقل فوق الغريزة وهو ينظر فى الذى جاء به الوحى والإلهام فى كل أمة بحسب طباعها .

١٥ الكلام على تدبير المادّة فكلما كان الأعلى فى القوى يفيد الأدنى كالعقل بالنسبة للغريزة وكوحى الأنبياء بالنسبة للعقول ، هكذا فى المادّة يمدّ الأكبر منها الأصغر كالشمس بالنسبة للأرض تعطيها الضوء .

١٦ لامعطل فى الوجود ، إن مايزيد من الأنهر أيام الفيضان يكون فى البحار العظيمة طبقات فى القاع لتكون أرضا يابسة فى المستقبل وجبالا كفضلة الرجل والمرأة يتكون منهما ذرية تبقى كما كانت الجبال من فيضان الأنهار ، ازدياد الناس على الكرة الأرضية ، وبيان أن الناس قريبا ستحاسب كل أمة غيرها على ماعطلت من منافع موادها وعقولها وتبيان أن ملابس صبى واحد قد أخذت أجزاؤها من كل دولة من الدول .

١٧ واجب المسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب أن يفكروا فى تدبير الأمر فى الآية ، والأمم قد أحاطت بهم فليدرسوا هذه الدنيا كالأمم ، وهذا التفسير مقدمة لهذه النهضة .

بيان « وقدّره منازل » وأن القمر أصل الشهور والأسابيع ، وبيان آراء الأمم فى اليوم ومبدئه كالفرس واليهود وأهل إيطاليا وأمة العرب وفرنسا ، وأن أسماء الأيام فى الأسبوع مشتقات من أسماء الكواكب السيارة مثل ( الثلاثاء ) من مارس أى المريخ الخ .

١٨ بيان السنة عند الفرس والمصريين والشهور مثل توت وبابه الخ ، والسنة عند الصينيين والعرب واليهود وقدماء الرومان ، والكلام على الشهور عند الفرنجة ، وبيان أن الأصل فى هذا كله سير القمر الذى اضطر الرومانيين إلى الرجوع إلى (١٢) شهرا كبقية الأمم ، والذى تفطن لهذا (يوليوس قيصر) الذى سمى باسمه الشهر المعلوم ، وهذا سرّ قوله تعالى « وقدّره منازل لتعلموا الخ » .

١٩ السنة الشمسية الكبيسة والبسيطة وشرح قاعدتها والتمثيل بسنة ١٩٢٤ وهى سنة تفسير هذا المجلد وحسابها بالدقة ، والكلام على تعديل ( جريجوار ليليوس ) الطليانى وكيف قبلت الأمم هذا التعديل إلا ثلاث أمم .

٢٠ بيان أدوار السنين الكبيسة والبسيطة فى الحساب العربى وهى ٢١٠ سنة من ضرب ٧ فى ٣٠ سنة ؛ أى أن الدور الكبير سبعة أدوار صغيرة .

٢١ بهجة العلم فى هذه الآيات ، تقدير المنازل جعل الناس آمنين على أمرين : حساب الدرجات الأرضية ،

صفحة

وحساب الميزان والكيل والمساحة ، فالأول جاء من فكرة كروية الأرض التى أول من فكر فيها (أراتوستانس) سنة ٢٧٦ ق م إذ قاس مابين مدينة أسوان والإسكندرية وبهذا عرف كروية الأرض وأن المسافة بين أسوان واسكندرية جزء من خمسين من محيط الكرة الأرضية ، ذلك بسبب العمود الذى نصبه عند الإسكندرية وقاس ظله الخ .

٢٢ فصل فى الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر فى الأفلاك ومسألة الدوران ، وهل الشمس هى الدائرة أم هى الأرض ؟ من كتابى [ جواهر العلوم ] .

٢٣ فيثاغورس كان يعلم تلاميذه فى مدرسة ( كروتونيا ) بإيطاليا على طريقة حركة الأرض حول الشمس سنة ٥٠٠ ق م ، وأن الأرض والسيارات كلها تجرى حولها وأن الطبقات سبع وهى الأقدار الستة ثم السابعة التى لانراها الخ ، فهذه سبع سموات الخ .

وجاء بطليموس سنة ١٤٠ ق م فعكس الوضع وحكم بدوران الشمس وظهر ذلك على يد الفارابى وابن سينا حوالى القرن الرابع الهجرى إذ يقولون إن الأرض ساكنة والشمس دائرة هى والكواكب حولها وهناك حركتان إحداهما قسرية والأخرى اختيارية لنفس الكوكب الخ ، فهذا المذهب كان ضد العقيدة الإسلامية ، وفيه أخذ ورد .

٢٤ ظهر ( كوبرنيكوس ) ببلاد لهستان من سنة ٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ ميلادية وهى سنة ٩٣٧ هجرية ورجع إلى رأى فيثاغورث وقد سبقه فى ذلك عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ هجرية وشارحه السيد الشريف المتوفى سنة ٨١٦ هجرية ، فهما قالا بدوران الأرض لا الشمس وقد سبقا ( كوبرنيكوس) بأكثر من قرن .

٢٥ بيان الأدلة العلمية على دوران الأرض من مسألة وضع الزيت فى الكؤول ومن ذبذبة البندول ومن تغير ظل الأرض ومن أن الجسم الأكبر لايدور حول الأصغر ومن المشابهة للكواكب فى دورانها حول نفسها .

٢٦ إن علماء الإسلام قد كرهوا المذهب القديم لأن فيه النحس والسعد وفيه أنه لاخرق ولا التئام فى الفلك وأن الأفلاك لها نفوس وأن بعد الهواء كرة النار ، وكل ذلك باطل عند المسلمين ، إذن المذهب الجديد هو الموافق للاسلام ، الشمس وشفاء الأمراض .

٢٧ الاستشفاء بنور الشمس ، الحمام الشمسى وذلك بتعريض الجسم للشمس بلا حائل بالتدريج بحيث يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه خمس دقائق وفى اليوم الثانى عن أطرافه العليا والسفلى خمس دقائق وفى الثالث يرفع عن البطن الخ ، وهكذا إلى السابع ، فيعرض الجسم كله ساعة فذلك قوة لجميع الجسم ظاهرا وباطنا ، وبيان أن هذا الأمر محتم فى أوروبا لتقوية الأطفال .

٢٨ صورة أوجه القمر ( شكل ٢ ) .

٢٩ المقام الثانى ، وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال فى بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس ، وأن الرطل والأقة والوقية والدرهم والقنطار والكيلة والملوة والإردب والقصبة والفدان والذراع النيلى والذراع البلدى والهنداسة كل هذه مبنية على سير الشمس ، ذلك لأن محيط الهرم الأكبر جزء من مليار من محيط مدار الشمس السنوى ، وبيان ارتفاعه وضعف الارتفاع وضلع الهرم ونسبة الذراع البلدى إليه وأن

صفحة

الدرهم منسوب لربع الذراع البلدى المكعب ، والاردب ذراع بلدى مكعب ، والفدان (١٠٠) هنداسة فى (١٠٠) هنداسة الخ .

٣٠ والذراع النيلى ٥ من ٦ من الهنداسة ، هذا فضل قدماء المصريين، وهو نفسه قول الله « لتعلموا عدد السنين والحساب » والكلام على المتر وهو مقياس الفرنسيين وأنه منسوب لمحيط الكرة الأرضية وعلى الياردة عند الإنجليز وهى منسوبة الساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة المجذوب بالجذب العام .

٣١ من العار على المسلم أن يموت وهو لايعلم أن الكيلة والذراع البلدى الخ لها اتصال بدوران الشمس . تذكرة للأمة المصرية وللأمم الإسلامية وفيها صورة للذكرة المرسلة لمجلس الشيوخ والنواب والوزراء فى إصلاح التعليم الثانوى، وأن الابتدائى ليس كافيا لاتحاد العقول والعالى للاختصاص والثانوى هوالذى يصقل العقول ويقربها وهو فى زمن الاحتلال ضعيف لقلة العلوم الطبيعية والفلكية ، فالطالب يجهل مافوقه وما تحته وإذن لابد من رجوع هذه العلوم التى كانت قبل ٣٥ سنة فى بلادنا .

٣٣ جوهرة سنية فى أن جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات تجلت فى هذه الدنيا والجمال على قسمين جمال يثير الشهوات وهذا عذاب معجل فى الدنيا كجمال بستان تملكه تخالطه تكاليف الحياة وهمومها وجمال بستان عام فلا حسد فيه ولا تكاليف ، ومن هذه البساتين المعدة للجمهور فى كل أمة لراحة الناس من مشاق الحياة وهذا للجهلاء ، وهناك بساتين للحكماء هى النجوم الجميلة التى تظهر ليلا .

٣٤ الكواكب جنات تجلت للمفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون ، وبيان أن العامة إذا فرحوا بالزهر فالخاصة بالنجوم بدل الأزهار ، وبيان أن من الكواكب مالايصل ضوؤه إلينا إلا بعد ألف ألف سنة وستين ألف ألف سنة وقد يكون الكوكب أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرة بل أكثر من ذلك .

٣٥ ذكر رياض الجنات التى أعدها الله فى هذه الدنيا للعارفين .

طريق التبانة ، وهى المجرة وعدد كواكبها ٢٤٢ ألف ألف شمس ، ورسم صورتها (شكل ٣) وهذه الرياض [ثلاثة أقسام] قنوان يمكن تحليلها ، وقنوان يحلل بعضها ، وقنوان لاتحلل .

٣٦ المجموعات الكوكبية ، اسم بعض المجموعات الكوكبية التى فى الجنوب (شكل ٤) .

٣٧ وأشهرها قنوتوكان (شكل ٥) . القسم الثانى : السدام التى يمكن تحليل بعضها مثل :

٣٨ (شكل ٦) وفيه ست مجموعات فى الجوزاء وفى الدلو وهكذا ، وشكل ٧ يقرب من المستقيم الخ .

٣٩ السدام الذى لايحل مثل (شكل ٩) ومثل (شكل ١٠) سديم المرأة المسلسلة وسديم الأسد .

٤٠ بيان أنهم كشفوا نحو (ألفى ألف) سديم وبعدها عنا (١٤٠) مليون سنة وفى كل سديم منها مادة تكفى لتكوين مليون شمس مثل شمسنا ، وهذا قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم الخ »

جوهرة فى إشراق نور العلم فى القلوب بإشراق نور الكواكب

٤١ صفة المجرة هى كبة عدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، وهناك عالمان آخران يبعدان نحو ٢٠٠

صفحة

ألف سنة نورية ، والكلام على سديم المرأة المسلسلة المتقدم وأنه يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره ٥٠ ألف سنة نورية وفيه ألوف للملايين من النجوم وهى شموس أضوأ من شمسنا أضعافا مضاعفة ، هذا معنى قوله تعالى « ويخلق مالاتعلمون » .

٤٢ بيان أن هذا معنى « إنّ الذين لايرجون لقاءنا الخ » وذكر أن المسلمين فى حياة المؤلف وبعد موته سيهرعون إلى بناء المراصد الفلكية ، وأنهم كانوا أول المعلمين لأوروبا كما قال (سديو) ثم جهلوا فخربت بلادهم ، وها هو ذا أوان مجدهم ورقيهم .

٤٣ (شكل ٨) وهو السدام الحلق .

٤٣ فصل فى قوله تعالى « إن فى اختلاف الليل والنهار — الخ الآية » وفيه لطائف :

[اللطيفة الأولى] النبات المفترس فى أمريكا الشمالية .

[اللطيفة الثانية] النبات المائى الذى زهرته الأنثى فوق الماء ، أما زهرة الذكر فإنها قريبة من قاع النهر فعند الإلقاح تنفصل وتذهب مقطوعة حتى تصل إلى الأنثى .

[اللطيفة الثالثة] شجرة تفترس إنسانا .

[اللطيفة الرابعة] اختلاف المخلوقات باختلاف الفصول كتلألؤ الزرع وكنضج الأثمار فى الصيف وصرم الثمار فى الخريف وفى الربيع وتساقط ورق الشجر فى الشتاء .

٤٥ بيان قوله تعالى « إنّ الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ومناسبة هذه لما قبلها ، وأن الأعمال موزعة على الأشخاص بالاستعداد ، وأن عشاق هذا الجمال فى العالم مستعدون له بعد الموت ، والذين لايعقلون إلا اللذائذ البهيمية يكونون أدنى .

٤٦ قسمت الآية الناس [قسمين] : من لايرجو لقاء الله ، ومن يرجو ، وهؤلاء لهم ثلاث درجات يصفون الله بصفات التنزيه ، ويحيى بعضهم بعضا وتحييهم الملائكة وتشهد لذلك روح (غاليلو) الفلكى الشهير إذ قالت إن أرواح محبى العالم تتفرج على الكواكب كما تتفرج نحن على الزهر .

٤٧ مناسبة هذه السورة لما قبلها وهكذا مناسبات آخر الفاتحة لأول البقرة وآخر البقرة لأول آل عمران وهكذا إلى آخر التوبة وأول يونس .

٤٨ بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتوكل هود ، وأن الأول توكل على ذى العرش العظيم إذن هو مستعد مع أمته لحفظ كيان الأمم ذوات العروش ، والثانى توكل على من بيده نواصى كل دابة يطلب حفظ نفسه وقومه ، وكل منهما نال ماطلب فليدبر المسلمون الأمر فليتعلموا أوّلا تعليما عاما ، ثم يسوسوا العالم مع الأمم ، هذا هو اللائق بهم ولن يكون ذلك طفرة كالجنين .

٤٩ العقائد لمقاصد ؛ فالملائكة لإصلاح الأخلاق ، والتسبيح لإصلاح العمل .

[القسم الثانى] من قوله تعالى « ولو يعجل الله للناس » إلى قوله « فينبئكم بما كنتم تعملون » .

٥٠ التفسير اللفظى للقسم الثانى .

٥١ تفسير قوله تعالى « وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » كاختلاف الأشجار فى البستان ، وهذا الخلاف سبب الجمال .

٥٢ تفسير قوله تعالى « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا » إلى قوله « فننبئكم بما كنتم تعملون » .

٥٣

